أبحاث ندوة

الخدمة الاجتماعية في الإسلام

(القاهرة ١١ - ١٣ أغسطس ١٩٩١)

المشاركون

أ.د. إبراهيم عبد الرحمن رجب
أ.د. رشاد أحمد عبد اللطيف
أ. زينب عطية محمد
أ.د. علي حسين زيدان
أ.د. محمد سلامة غباري
أ.د. أحمد يوسف بشير
أ.د. زين العابدين محمد
أ.د. عفاف إبراهيم الدباغ
أ.د. محمد أحمد عبد الهادي
أ.د. مصطفى أحمد حسان
أ.د. يحيى بسيوني مصطفى

تقديم

أ.د. علي جمعة محمد

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
١٤٠١هـ - ١٩٨١م
1401AH - 1981AC

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

obeikandl.com

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة
للناشر
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
لصاحبها
عبد القادر محمود البكار

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية

أبحاث ندوة الخدمة الاجتماعية في الإسلام (القاهرة ١١- ١٣ أغسطس ١٩٩١) / إبراهيم عبد الرحمن رجب ... (وأخ) ؛ تقديم علي جمعة محمد . - ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠٠٨م .
٥٧٦ ص ؛ ٢٤سم .
تدمك ١ ٦٣٥ ٣٤٢ ٩٧٧
١ - الإسلام والمجتمع .
٣٠١ ، ٢١٤

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًّا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

openkandil.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المُحتَوَيَاتِ

تقديم

أ. د. علي جمعة محمد ٥

المحور الأول : التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية ٧

- أزمة المنهج في العلوم الاجتماعية : أصل المشكلة وأبعاد الأزمة

أ. د. إبراهيم عبد الرحمن رجب ٩

- مداخل التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية مع اهتمام خاص بمهن المساعدة الإنسانية

أ. د. إبراهيم عبد الرحمن رجب ٧٣

- المنظور الإسلامي للطبيعة الإنسانية

أ. د. عفاف إبراهيم الدباغ ١١١

- المبادئ الأساسية للخدمة الاجتماعية الإسلامية

أ. د. محمد سلامة غباري ١٤٥

- الرعاية الاجتماعية في الإسلام

أ. د. مصطفى أحمد حسان ١٩٣

- الخدمة الاجتماعية وبناء النماذج : دليل الملاحظة كنموذج للتعرف على شخصية الطفل المسلم

أ. د. زين العابدين محمد ٢٢٣

- نحو مكنز إسلامي للخدمة الاجتماعية

أ. زينب عطية محمد ٢٥١

- مدخل جديد في علم الترويح من خلال النظرة الإسلامية

أ. د. يحيى بسيوني مصطفى ٢٦٩

obeikandi.com

المحور الثاني : مجالات الخدمة الاجتماعية في المنظور الإسلامي ٢٩٥

- المنظور الإسلامي لتفسير المشكلات الفردية

أ . د . عفاف إبراهيم الدباغ ٢٩٧

- العلاج الإسلامي للحالات الفردية

أ . د . محمد سلامة غباري ٣٢٩

- الإنسان وعلاقته بالبيئة من منظور إسلامي

أ . د . أحمد يوسف بشير ٣٨٥

- الخدمة الاجتماعية في مجال الدعوة الإسلامية

أ . د . محمد أحمد عبد الهادي ٤١٩

- المدخل الوقائي للخدمة الاجتماعية في رعاية الطفل إسلاميًّا

أ . د . زين العابدين محمد ٤٣٩

- تنظيم المجتمع ودراسة حاجات ومشكلات معتنقي الإسلام حديثًا

أ . د . رشاد أحمد عبد اللطيف ٤٨٣

- المعاونة المهنية من الخدمة الاجتماعية لإحدى مؤسسات العمل : دراسة حالة

أ . د . علي حسين زيدان ٥٠٣

- دور الخدمة الاجتماعية في العمل مع المنحرفين : منظور إسلامي

أ . د . علي حسين زيدان ٥٢٥

* * *

obeikandl.com

تقديم

نقدم في هذا الكتاب ندوة التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية الأولى التي عقدها المعهد العالمي للفكر الإسلامي مكتب القاهرة تحت عنوان (الخدمة الاجتماعية في الإسلام) والتي انعقدت في القاهرة في الفترة من ١١ / ٨ / ١٩٩١م إلى ١٣ / ٨ / ١٩٩١م ، وشارك فيها كوكبة من خيرة المتخصصين علمًا وعملًا في مجال الخدمة الاجتماعية من مصر وخارجها ، وقدم إليها ستة عشر بحثًا من البحوث المحكمة والتي عالجت في مجملها النواحي المختلفة لهذا المجال العلمي المهم . وكانت تلك الندوة بداية ندوات تالية ، واستمر العطاء فيها بأساليب مختلفة أثرت ذلك الجانب من جوانب علم الخدمة الاجتماعية ، وهو التأصيل الإسلامي لذلك العلم ، وهو الأمر الذي نسعى إلى أن يشيع في العلوم الاجتماعية والإنسانية المختلفة .

إن فكرة التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية والإنسانية عامة تتمثل في بناء الإطار المرجعي والرؤية الكلية للإنسان والكون والحياة ، والذي يحكم ويحدد ويقوم ويكون منطلقًا في آن واحد لمناهج ومسائل تلك العلوم ، وهذا البناء يحتاج إلى تحديد المواقف من قضايا المعرفة ومصادرها وأقسامها وكنهها وطبيعتها ، وهي التي اهتم بها علماء الكلام المسلمين عند اصطدامهم بالحضارة اليونانية ، وحددوا موقفهم في نطاق الإسلام من كل المشكلات التي شغلت بال الفكر اليوناني خاصة والفكر البشري عامة ، ولم يبالوا بنقاط التشابه أو الاختلاف ما داموا قد أصدروا قضاياهم وأحكامهم في ظل إطارهم المرجعي ورؤيتهم الكلية .

وهي عملية – وإن كانت تختلف عما أطلقنا عليه إسلامية المعرفة – إلا أنها أسهمت في تفصيل الدين في الحياة العامة اليومية ، وقدمته للعلم باعتباره محورًا للحضارة ، وجعلت النص (الوحي) منه البدء وإليه الانتهاء ، وبه التقويم وله الخدمة ، وجعلت الواقع حاضرًا في المثال ، والمثال مطبقًا في الواقع ، ولم تغيب الإنسان الذي هو ثروة هذه الحضارة تنسب إليه وتقوم بشؤونه .

أما إسلامية المعرفة فهي تلك العملية الفكرية التي تطلق للإنسان الملتزم حرية الفكر والإبداع ، ولا ترى التغلب سببًا لذلك الإبداع ؛ بل ترى التفكير هو السبب ، وتعود بالإنسان إلى مصدر معرفته الحقة التي تجعله أقرب إلى حقيقة الوحي والوجود معًا ، وتسعى لتحديد موقفه من الكتاب والسنة ، وكيفية التعامل معهما والاستفادة منهما ، وموقعهما من المعرفة الإنسانية ومن التراث الإسلامي والتراث الإنساني ، وكيفية التعامل

معهما دون انتقاء مشوه ، ولا رفض ساذج ، ولا بقول مطلق ، بل بمعايير أساسية تبعد عن مناهج التلفيق والتوفيق ، أو مناهج التبرير والتقليد ، فيجعل للمسلم شخصية مستقلة بعقلية واضحة ونفسية مستقرة ، ثم تضع المناهج ، وتدرب على المعرفة ، وتطبق كل ذلك في مسائل العلوم الاجتماعية والإنسانية .

إن تلك الندوة خطوة في الطريق ، ودربة للباحثين للوصول إلى هذه الخطة التي هي خطة رشد في عالم لم يعد للتسطيح مكان فيه ، ولا تصلح التبعية للماضي وإساره أو للغير وبلائه لأن تكون سببًا في الرقي أو هداية الناس .

والله الموفق للصواب

علي جمعة محمد

مفتي الديار المصرية

* * *

obeikandl.com

أبحاث ندوة
الخدمة الاجتماعية في الإسلام

المحور الأول

التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية

- أزمة المنهج في العلوم الاجتماعية : أصل المشكلة وأبعاد الأزمة .
- مداخل التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية .
- المنظور الإسلامي للطبيعة الإنسانية .
- المبادئ الأساسية للخدمة الاجتماعية .
- الرعاية الاجتماعية في الإسلام .
- الخدمة الاجتماعية وبناء النماذج : دليل الملاحظة كنموذج للتعرف على شخصية الطفل المسلم .
- نحو مكنز إسلامي للخدمة الاجتماعية .
- مدخل جديد في علم الترويح من خلال النظرة الإسلامية .

obeikandl.com

obeikandl.com

أزمة المنهج في العلوم الاجتماعية
أصل المشكلة وأبعاد الأزمة

أ .د . إبراهيم عبد الرحمن رجب

قد لا تكون هناك قضية أولى بالاهتمام وأجدر بالتناول الجاد من جانب المهتمين بأسلمة العلوم الاجتماعية أو بالتوجيه الإسلامي للعلوم الاجتماعية أو – إن كنت تفضل – بالتأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية من قضية المنهج العلمي الذي ينبغي على الباحثين في تلك العلوم استخدامه للتوصل إلى معارف محققة يمكن الاعتماد عليها في بناء « النظريات العلمية » التي تتصدى لتفسير الظواهر النفسية والاجتماعية ، أو في بناء « نظريات الممارسة » التي تستخدم لتوجيه التدخل المهني الذي يستهدف إحداث تغييرات مرغوبة في تلك الظواهر ، فمن المسلم به أنه لا علم بغير منهج ، كما أنه لا ممارسة مهنية تستحق هذا الاسم دون قاعدة علمية تستند إليها ، ودون ضوابط منهجية تسير الممارسة وفقًا لها .

وفي الواقع فإن حركة التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية – التي قد اكتسبت الآن أبعادًا ، يمكن اعتبارها ثورة علمية حقيقية Scientific Revolution وفقًا للمعايير التي وضعها مؤرخ العلم الأشهر توماس كون Thomas Kuhn – [١] هي حركة تسعى أولا وقبل كل شيء إلى إحلال توجه جديد Paradigm في النظر للعلم وللمنهج العلمي للبحث محل المفهوم التقليدي الوضعي للعلم Science والمنهج العلمي Scientific Method ، خصوصًا فيما يتصل بدراسة الإنسان والسلوك البشري والعلاقات والترتيبات المجتمعية ، ونتيجة لذلك فإن نقد النموذج القديم وتحديد أبعاد التوجه الجديد في النظر إلى طبيعة العلم والمنهج العلمي تحتل دون جدال مكان الصدارة في أي مناقشة لقضية التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية .

ولما كان الباحثون والممارسون في المحيط الاجتماعي في العالم الإسلامي قد تعرضوا طوال حياتهم العلمية – دراسة وممارسة – للمفهوم التقليدي للعلم والمنهج العلمي الذي نما في الغرب في أحضان الفلسفة الوضعية [٢] Positivism ومشتقاتها الوضعية

(١) Thomas S . Juhn, The Structure of Scientific Revolutions (Chica go : University of Chicag Press, 1962, 1970) .

(٢) Andrew Tudor, Beyond Empircism (London : Routledg & Kegan Paul, 1982) P 3 .

Logical Positivism والإمبيريقية المنطقية Logical Empiricism ، فإن الكثيرين منهم لا زالوا لا يستطيعون التصور بإمكان العلم والمنهج العلمي في إطار مختلف عن ذلك التصور التقليدي الذي درجوا عليه ، رغم أنه قد ظهر للكافة الآن قصوره عن التوصل إلى فهم حقيقي للإنسان ، كما ظهر عجز وتضارب النظريات المستمدة منه في محاولاتها لتفسير سلوكه كفرد أو كعضو في جماعة أو مجتمع . ولقد يبلغ تشرب الباحثين والممارسين بروح ذلك المنظور التقليدي حدًّا يظنون معه أحيانًا أن مجرد مناقشته ونقده يعتبر نوعًا من الهرطقة العلمية التي لا تجوز في حق هذا المنتج الإنساني العظيم الذي كان السبب وراء التقدم التقني (التكنولوجي) الذي يجني العالم ثماره (وأضراره) اليوم .

ومن هنا قد نلمس لدى بعض الباحثين أو الممارسين شيئًا من المقاومة أو التردد أو التحفظ على فكرة التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية ؛ لأنهم يفترضون أن المنهج العلمي التقليدي – الذي نجح في العلوم الطبيعية نجاحا باهرًا والذي يقوم على استقراء الظواهر الجزئية « المحسوسة » وصولًا إلى تعميمات تصدق في كل زمان ومكان (حسب التصور الشائع) بعد ثبوت مطابقتها الإمبيريقي (المحسوس) – يفترضون أو يكادون أن هذا هو النموذج الأمثل الذي لا يمكن أن يطرأ عليه التعديل أو التغيير حتى يرث اللَّه الأرض ومَن عليها بعد ما ثبت للعام والخاص من كفاءته ، وأن العلم الحديث لا يجوز أن يخضع لإعادة النظر أو التقويم ، وممن ؟ من جانب الباحثين والممارسين في العالم الإسلامي الذي لم يقدم في عدة القرون الفائتة إسهامات علمية بارزة تؤهله لأن يكون مصدرًا لأي دعوة إلى إعادة النظر في المنهج أو النظرية . ويفوت أصحاب هذه التصورات أن يدركوا الحقائق الآتية :

(١) أن البحث العلمي إنما هو مجرد نشاط إنساني متأثر في نشأته وتطوره وفي صورته الحالية – كغيره من الأنشطة الإنسانية الأخرى – بالظروف التاريخية والاختيارات الثقافية والقيمية التي تحكم المجتمعات الغربية التي تبلور فيها حتى وصلنا في صورته الحالية ، وأنه بهذا يحتمل ظهور توجهات أخرى منبثقة من نظرات أخرى – للكون والحياة ودور الإنسان فيهما – تختلف عن تلك التي سادت في الحضارة الغربية حتى الآن ... نظرات قد تتطلب إدخال تعديلات جوهرية على تلك النظرة التقليدية خصوصًا عند التعرض بالدراسة للظواهر الإنسانية .

(٢) أن نظريات العلوم السلوكية والاجتماعية ، التي تبلورت في إطار المنهج العلمي التقليدي المستمد من الفلسفات المادية والوضعية التي تسود الفكر في المجتمعات الغربية

قد سارت في طريق مسدود ، ولم تستطع تجاوزه في محاولاتها للتوصل إلى فهم واقعي للنفس الإنسانية ، والسلوك الفردي والاجتماعي ، والنظم والترتيبات المجتمعية ، يشهد بذلك ما تعانيه تلك المجتمعات المتقدمة ذاتها من مآسٍ إنسانية ، ومشكلات اجتماعية عميقة يبدو الأمل في حلها من خلال المنظور السائد ، وهذا يعطي قدرًا كبيرًا من المصداقية لقول من قالوا بوجود انحياز خطير في النظرة التقليدية الغربية للعلم والمنهج العلمي ، يتمثل في الاقتصار على دراسة ما يمكن مشاهدته باستخدام الحواس ، وإغفال أي معارف ذات مصدر غير بشري وأن هذا التجاهل للمعارف المتنزل بها الوحي هو السبب الأساسي في ذلك القصور والعجز الذي تعاني منه العلوم الاجتماعية ، وأنه لن يمكن التوصل إلى فهم حقيقي متكامل للإنسان إلا بالرجوع إلى ما علمه إياه خالقه .

(٣) أن النجاحات التي حققها المنهج العلمي التقليدي قد كانت أساسًا في محيط العلوم الطبيعية ، وأن المادة المدروسة Subject - Matter ، أو الظواهر التي تنصب عليها الدراسة في العلوم الاجتماعية تختلف عنها في العلوم الطبيعية ، ولقد كان هذا يتطلب إعادة نظر جذرية منذ زمن بعيد في الافتراضات الضمنية التي قام عليها المنهج في العلوم الطبيعية حتى يصبح ملازمًا للدراسات الاجتماعية ، لولا الأمل المفرط في إمكانية تحقيق نفس النوع من الفاعلية والنجاح الذي حققته تلك العلوم من جهة ، ولولا الحرص على إظهار العلوم الاجتماعية بمظهر العلوم المنضبطة Exact Sciences ؛ لتحقيق نفس المكانة العلمية الرفيعة لتلك العلوم للمشتغلين بالعلوم الاجتماعية من جهة أخرى .

(٤) لقد كان المسلمون أصحاب الريادة في ظهور المنهج العلمي التجريبي في دراسة الظواهر الطبيعية في الماضي ، وكانوا من أهم أسباب استنقاذ الحضارة الغربية من ضيق الدائرة المغلقة للقياس الصوري الأرسطي العقيم إلى سعة الاستقراء القائم على المشاهدة والتحقق باستخدام الحواس ، وليس بمستبعد على المسلمين أن يقوموا مرة أُخرى – مستندين إلى ما حباهم اللَّه به من علوم الوحي – بتصحيح مسار الفكر والعلم الإنساني في محيط دراسة الظواهر النفسية والاجتماعية ليعود بعد طول حيرة إلى الطريق الصحيح بعد أن توقف عطاء المسلمين لأسباب وعوامل وظروف لا تخفى – ليس هذا مجال تفصيلها – لعدة قرون .

(٥) أن التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية ومناهجها لا يعني تجاهل ما ثبت صدقه من حقائق علمية Facts وتعميمات إمبيريقية ، كما لا يعني التفريط في المناهج والأدوات الصحيحة التي استخدمت في التوصل إليها ، ولكنه يعني استكمال ما ثبت من نقص فيها

سواء من حيث التوجه العام للدراسات والبحوث في المجال الاجتماعي ، أو من حيث أنواع الظواهر التي تخضع للدراسة ، بما يعيد العلوم الاجتماعية عامة إلى جادة الطريق ، وما يزيد من فاعليتها في فهم وتفسير الظواهر الاجتماعية من جهة ، وبما يمهد الطريق من جهة أخرى أمام الممارسين العاملين في مجالات الخدمة الاجتماعية وغيرها من مهن المساعدة الإنسانية Helping Professions لبناء ممارساتهم على ما يصلح لمجتمعاتهم (بل ويصلح لكل الناس لو كانوا يعلمون !) من قاعدة علمية صحيحة غير مبتورة أو مختزلة .

وسنتعرض في هذه الدراسة تفصيلًا للقضايا التي أجملناها في النقاط السابقة ؛ حيث نحاول في الجزء الأول استجلاء الأصول التاريخية والثقافية للمنهج العلمي بصورته الراهنة ، مع بيان جوانب القصور في المنهج العلمي التقليدي المستخدم الآن في دراسة الظواهر النفسية والاجتماعية ، ثم توضيح ما يتعين عمله لمواجهة ذلك القصور ، وننتقل في الجزء الثاني من الدراسة إلى توصيف للمنهج العلمي لدراسة الظواهر النفسية والاجتماعية من منظور الإسلام الذي نرى أنه هو السبيل لإنقاذ العلوم الاجتماعية من أزمتها الراهنة ، حيث نشرح الأبعاد التفصيلية للكيفية التي يتم من خلالها إيجاد التكامل الصحيح بين ما هو مستمد من الوحي وما هو مستمد من المشاهدات الإمبيريقية .

ونود أن نوضح هنا أن هذه الدراسة وإن كانت تركز على العلوم الاجتماعية ومهن المساعدة الإنسانية كما جاء في عنوان الدراسة ، إلا أننا أكثر اهتمامًا فيما يتصل بالعلوم الاجتماعية أو « السلوكية » على نطاق اهتمام علم النفس وعلم الاجتماع بصفة أساسية ، كما أننا أكثر اهتمامًا فيما يتصل « بمهن المساعدة الإنسانية » بالعلاج النفسي وبصفة أخص بالخدمة الاجتماعية ، ومرجع هذا الاهتمام يكمن في أن تلك « العلوم » تتعرض أساسًا لذلك المدى من الظواهر الذي ينصب تدخل مهنة الخدمة الاجتماعية عليه بهدف إحداث تغييرات مرغوبة فيه ، انطلاقًا من النسق القيمي للمهنة ذاتها من جهة ، وللمجتمعات التي تمارس فيها المهنة من جهة أخرى . وإذًا فإننا نود أن يكون مفهومًا أن الخدمة الاجتماعية إذ تعتمد في قاعدتها المعرفية Knowledg Base [١] على نتائج تلك « العلوم » (وعلى غيرها من العلوم الاجتماعية) لتدرك أن فاعليتها في تحقيق أهدافها المهنية تعتمد إلى حدٍّ كبير على درجة صدق تلك العلوم وأصالتها ، ليس فقط

(١) William Gorden "Knowledge and Value : Their Distinction and Relationship In Clarifying Social Work Practice, " in, Beulah Compton & Burt Galaway , Social Work Processes, 2and ed . (Homewood, Illinois, Dorsey, 1979) P 52 - 59 .

في وصف وتفسير الظواهر النفسية والاجتماعية التي تخصصت في البحث فيها ، وإنما أساسًا على درجة عمق « فهمها وفقهها » لتلك الظواهر ، ومن هنا نشأ اهتمامنا بالتعرض لقضايا العلم الاجتماعي ومناهجه . ومن جهة أخرى فلقد أثرت تلك العلوم بتوجيهاتها ومناهجها على إدراك الممارسين لمهنة المساعدة الإنسانية وخصوصًا مهنة الخدمة الاجتماعية لحقيقة مكان وطبيعة القاعدة القيمية Value Base للمهنة ، ذلك أنه على الرغم من وضوح الفرق بين علم النفس أو علم الاجتماع اللذين ينتميان إلى جنس العلم Science من جهة وبين الخدمة الاجتماعية التي تنتمي إلى جنس التقنية Technonlogy من جهة أخرى على الوجه الذي بينه تفصيلًا منذ فترة من الوقت إيرنست جرينوود [١] ، ذلك الفرق الذي تترتب عليه اختلافات جوهرية في نظرة كل منهما للقيم ولدرجة التأثر بالتفضيلات المجتمعية ، إلا أننا نجد أن بعض الممارسين في بلادنا يضفون على الممارسات المهنية المستفادة من مجتمعات أخرى تختلف عن مجتمعاتنا الإسلامية في ثقافتها وقيمها اختلافًا كبيرًا نوعًا من العمومية أو العالمية التي يفترضها نموذج « العلم » التقليدي ، والتي هي الآن موضع تساؤل شديد ، ومن هنا فإن مناقشة القضايا المتصلة بالعلم والقيم والأطر الثقافية تكون ذات أهمية خاصة للوصول إلى درجة أكثر من الوضوح فيما يتصل بفلسفة الخدمة الاجتماعية في المجتمعات الإسلامية .

ولقد يكون من الملائم هنا أن نشير إلى أننا نستخدم اصطلاح « العلوم الاجتماعية » في هذا البحث لنشير به إلى ما يطلق عليه أحيانًا العلوم السلوكية أو « العلوم الإنسانية » بدرجات مختلفة من التداخل بينهما على ما هو معروف من خلاف في الكتابات العلمية حول هذه الموضوعات [٢] ، ولكن تركيزنا سيكون منصبًا بصفة أساسية كما ذكرنا على علم النفس وعلم الاجتماع لما لتلك العلوم من أهمية خاصة باعتبار أنها تقدم

---

(١) Ernest Greenwood, "The Practice of Science of Science and the Science of Practice , in, Warren Bennis, et al., (eds) . The Planning of Change (New York : Holt, Rinehart, and Winston, 1961) P 73 - 82 .

(٢) يذكر القاموس الحديث لعلم الاجتماع أن العلوم الاجتماعية تضم علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي والأنثربولوجيا الثقافية والعلوم السياسية والاقتصاد ، أما العلوم السلوكية فتضم علم الاجتماع وعلم النفس والأنثربولوجيا الثقافية وبعض جوانب علم الاقتصاد والعلوم السياسية ، ويشير بعض الباحثين إلى أنه ليس هناك « تعريف محدد ومباشر ومتفق عليه بين كافة العلماء والباحثين حول التسمية الأفضل لهذه المجموعة من العلوم » انظر : د . علا مصطفى أنور « أزمة المنهج في العلوم الإنسانية » مجلة المسلم المعاصر ، المجلد ١٤ ، العدد ٥٥ ، ٥٦ ، يناير ، يونيو ١٩٩٠م ص (١١٥ ، ١١٦) .

« القاعدة العلمية » التي تستند إليها مهن المساعدة الإنسانية وخصوصًا الخدمة الاجتماعية .

وأخيرًا : فلقد آثرت استخدام تعبير « من وجهة نظر إسلامية » في العنوان بدلًا من العبارة الأصلية « من منظور الإسلام » التي كنت أراها أكثر وضوحًا في التعبير عن اتجاه الدراسة ، ولكنني تجنبته لما قد يوحي به من ادعاء بأن الاتجاه الذي سلكه كاتب هذه السطور هو المنظور « الوحيد » المنطلق من تراث الإسلام ؛ ولكنني على يقين بأن السنوات القليلة القادمة ستشهد – بفضل اللَّه ﷻ – تحولًا من التركيز على الألفاظ إلى التركيز على « المفهوم » مما تنتفي معه أشكال الحساسية أو التحرج ، ويكون الحكم فيه للمحتوى أكثر من التوقف عند الألفاظ .

المبحث الأول
مفهوم العلم والمنهج العلمي

جاء في لسان العرب أن « العلم » نقيض الجهل ، وأن العلم هو المعرفة [١] ، أما الجرجاني فقد ذكر في كتاب التعريفات [٢] أن العلم هو « الاعتقاد الجازم المطابق للواقع » وأضاف أنه « قيل : العلم وصول النفس إلى معنى الشيء » ، وقد عرف الراغب الأصفهاني [٣] العلم بأنه : « إدراك الشيء بحقيقته » كما عقد مقارنة بينه وبين « الحكمة » التي ذكر أنها : « اسم لكل علم حسن وعمل صالح .. بالعمل فيما هو غاية المراد من الإنسان » ، ويضيف الزرنوجي [٤] أنه : « إنما شُرف العلم لكونه وسيلة إلى البر والتقوى الذي به يستحق الكرامة عند اللَّه تعالى والسعادة الأبدية ، كما ينقل عن أبي حنيفة النعمان قوله : « ما العلم إلا للعمل به ، والعمل به ترك العاجل للآجل » هذا هو مفهوم العلم عند المسلمين ونلاحظ أنه يتضمن العناصر الآتية :

١ – السعي « المخلص الجاد » للوصول إلى الحقيقة بمعناها الشامل لكل ما في الوجود أو ما وراء الوجود (أو المعارف الناتجة عن ذلك السعي) .. إخلاصًا نتصور معه أن الباحث المسلم يسعى للوصول إلى ما يشبه الاتحاد أو الاقتراب الوثيق بين ذاته العارفة

---

(١) لسان العرب لابن منظور ، مادة « علم » .

(٢) كتاب التعريفات للشريف علي بن محمد الجرجاني (بيروت : دار الكتب العلمية) ص١٥٥ .

(٣) الراغب الأصفهاني : الذريعة إلى مكارم الشريعة (المنصورة : دار الوفاء) (ص ١٧٩ ، ١٨١) .

(٤) برهان الدين الزرنوجي : تعليم المتعلم (دمشق : دار ابن كثير) ، ص١٣ .

وبين موضوع بحثه .

٢ – الهدف من هذا السعي هو « العمل » بمقتضى المعرفة « المطابقة للواقع » (في قول الجرجاني) لتحقيق الرسالة التي من أجلها خلق الإنسان ألا وهي الوصول إلى إرضاء الخالق سبحانه ، وتحقيق السعادة في الحياة الآخرة مع الاستفادة بالنتائج الحسنة للعلم في تدبير شؤون الحياة الدنيا بطبيعة الحال ، ولكن على الوجه الذي يرضي اللّه ﷻ أيضًا .

فإذا انتقلنا من نظرة المسلمين للعلم لكي نستطلع تصور الحضارة الغربية له – أو بشكل أكثر دقة ... إذا تفحصنا نموذج العلم – كما بلورته الحضارة الأوربية الحديثة على حد تعبير جيروم رافيتز [١] ، وهو النموذج السائد في عالمنا اليوم – فإننا سوف نلاحظ أن العلم Science قد أصبح ينظر إليه من زاوية أكثر تحديدًا – أو على الأصح أكثر محدودية – بكثير عن الصورة التي وجدناها عند المسلمين .

لقد اختار الدكتور عبد الباسط حسن – بعد أن استعرض عددًا من التعريفات المستخدمة في الكتابات الغربية – التعريف التالي للعلم [٢] : « العلم هو المعرفة المصنفة التي تم التوصل إليها باتباع قواعد المنهج العلمي الصحيح مصاغة في قوانين عامة للظواهر الفردية المتفرقة » ، ثم أكد على أن العلم « منهج أكثر مما هو مادة للبحث ، وأوضح أن العلم يقوم على الاستقراء Induction الذي يعتمد على الملاحظة ووضع الفروض وإجراء التجارب للتحقق من صحة الفروض ، وصولًا إلى القوانين والنظريات العامة ، مؤكدًا في موضع آخر أن العلم لا يستمد حقائقه إلا من الملاحظة الحسية المباشرة » .

أما عن المنهج العلمي Scientific Method فإننا نجد أن قاموس وبستر [٣] يعرفه بشكل يتفق إلى حدٍّ كبير مع التعريف السابق « للاستقراء » حيث يقرر « أنه منهج للبحث يتمثل في تحديد المشكلة وجمع البيانات ووضع الفروض والتحقق الإمبيريقي Empirical من صحتها » .

أما القاموس الحديث لعلم الاجتماع فيعرف المنهج العلمي بأنه : « عملية يتم في إطارها بناء كيان من المعرفة العلمية من خلال الملاحظة والتجريب والتعميم والتحقق »

---

(١) jerome Ravetz "History of Science " , in , Encyclopedia Britanica , 15 th ed , 1975, Vol . 16, P 366 .

(٢) د . عبد الباسط محمد حسن : أصول البحث الاجتماعي ، الطبعة الثامنة (القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٢م) (ص ١٩ ، ٢٤ ، ٢٧) .

(٣) The Lexicon Webster Dictionary, 1976, P 859 .

وهو مبني على افتراض أن المعرفة العلمية لا بد أن تكون مبنية على الخبرات المدركة عن طريق الحواس ، وأن أي عبارة تتصل بالظواهر الطبيعية لا يمكن قبولها على أنها صحيحة أو ذات معنى إلا إذا كان يمكن التحقيق من صدقها إمبيريقيًا ولكن بالرغم من أن المنهج العلمي يعتمد على جمع الحقائق الإمبيريقية (المستمدة من المدركات الحسية) فإنه يتجاوز ذلك ، فالحقائق وحدها لا تكون علمًا ، وحتى يكون لها أي معنى فلا بد من ترتيبها بطريقة ما وتحليلها وإصدار التعميمات المنطلقة منها وربطها بالحقائق الأخرى ، ومن هنا فإن بناء النظريات يعتبر أحد المكونات الحيوية للمنهج العلمي ، فالإطار النظري يمدنا بالوسائل اللازمة لتنظيم الملاحظات الإمبيريقية وتفسيرها وربطها بما توصل إليه الباحثون من قبل من نتائج (١) .

وبمقارنة هذا المفهوم الأوربي الحديث بالمفهوم الإسلامي للعلم فإننا نلاحظ بوضوح أن المفهوم الحديث قد قلص بشكل كبير من مهام العلم وهويته سواء من حيث موضوعات الدراسة أو من حيث المنهج ، فلقد أصبح العلم مقتصرًا على دراسة ما يعرف بالواقع المحسوس أو الإمبيريقي Empirca Reality أي الظواهر التي يمكن مشاهدتها بالحواس ، أما عن المنهج فإنه يركز بصفة أساسية على الاستقراء الذي يبدأ من الحالات « الجزئية » توصلًا إلى القوانين العامة .

ومعنى ذلك : أن موضوعات الدراسة التي تتصل بالقطاعات الأخرى من الظواهر التي تخرج عن نطاق المشاهدة الحسية أو تلك التي تتصل بعالم التفضيلات والقيم – مهما كانت أهميتها لحياة الناس أو سعادتهم – مستبعدة عند علماء العصر الحديث من نطاق الدراسة « العلمية » ، وكأن عالم المحسوسات وحده هو الذي له وجود حقيقي ، أو على الأقل وكأن عالم المحسوسات لا يتأثر إطلاقًا بما وراء الحس (كالروح مثلًا) ، أما بالنسبة لمناهج البحث ومصادر المعرفة فإننا نجد أنه قد تم استبعاد الوحي استبعادًا تامًّا كمصدر للمعرفة ، وبطبيعة الحال فقد ترتب على هذه الاختيارات المحددة نتائج مهمة تتمثل أساسًا في التقدم العظيم « للعلوم الطبيعية » التي تتعرض لدراسة ظواهر محسوسة ، وفي التخلف الذريع في محيط العلوم السلوكية أو الاجتماعية التي تتعرض بطبيعتها لعالم الإنسان ككائن حي عاقل ذي وعي – Consiconess بذاته وبما حوله مما لا يدرك مباشرة بالحواس .

---

(١) George Theodorson & Achilles Theodorson , A Nodern Dic Tionary of Sciology (New York : Barnes & Noble , 1969) P . 370 .

ولنا أن نتساءل الآن عن الأسباب والظروف التي أدت إلى صياغة العلم الحديث على هذا الوجه الخاص جدًّا ، وأن نحاول أن نتبين ما إذا كان هذا النموذج التقليدي للعلم هو النموذج النهائي الناضج الذي يستطيع حقًّا أن يوصلنا إلى معرفة متكاملة ومحققة بالإنسان والمجتمع البشري ، أو أنه مجرد شكل من الأشكال الممكنة للبحث عن الحقيقة نشأت استجابة لظروف مكانية وزمانية خاصة جدًّا ، مما يترتب عليه الجزم بأن خروج العلوم الاجتماعية من ورطتها الحالية يتطلب ما يمكن اعتباره « ثورة علمية » في المنهج العلمي المستخدم لدراسة الظواهر الإنسانية على الأقل من المنظور الإسلامي .

إننا لن نجيب عن تلك الأسئلة بتأكيدات أو مزاعم من عندنا ، ولكننا سنتوقف عند ما قاله الثقات المختصون في تاريخ العلم وفلسفة العلم الحديث ممن ينتمون هم أنفسهم إلى التيار السائد في الحضارة الغربية المعاصرة والذين بدأت تتكشف أمامهم بعض الحقائق التي تستند إليها هذه الدراسة .

المبحث الثاني
الأصول التاريخية والثقافية للمنهج العلمي الحديث

تقول دائرة المعارف البريطانية في المقال المتخصص الذي أوردته حول [١] موضوع تاريخ العلم ، والذي يستعرض فيه مؤلفه أحدث ما توصل إليه الباحثون في هذا الموضوع :

« أن مؤرخي العلم كانوا – حتى وقت قريب – ينظرون لتاريخ العلم على أنه سلسلة متصلة ومتراكمة من الانتصارات العظيمة التي حققتها المعرفة ضد الجهل والخرافة ، وأنه قد ترتب على التطبيق العملي لتلك الانتصارات إثراء كبير في حياة البشرية ، ثم يعود المؤلف بعد ذلك ليقرر أن مؤرخي العلم الآن يعيدون النظر في هذا التصور المبسط القديم في ضوء ما تكشف لهم أخيرًا من أن العلم يواجه مشكلات أخلاقية (أدبية) في داخله ، ثم أن هناك – أيضًا – المخاطر المترتبة على التغير التكنولوجي الذي لا ضابط له » .

ويقرر جيروم رافيتز مؤلف المقال أن مؤرخ العلم سرعان ما يتبين له أن فكرة « العلم » بالصورة التي تعلمها خلال دراسته ليست إلا واحدة فقط من بين عدد من « التصورات الممكنة » للعلم ، وأن هذه الصورة التي نعرفها ليست إلا نتاجًا لظروف مؤقته (أو عارضة) ،

---

(١) Gerome Ravetz, op . cit. , 366 .

وأن المؤرخ كلما ازداد تعمقه في دراسة جذور العلم الأوربي الحديث كلما ازدادت الصعوبات التي تواجهه عندما يحاول الفصل بين ما يعتبر اتجاهات علمية ونتائج محققة واقعيًا من جانب وبين ما يبدو له غير علمي وغير محقق من جانب آخر ، وينتهي من ذلك إلى القول بأننا ينبغي أن ننظر إلى علمنا (الحديث) على أنه أحد مراحل علمية مستمرة من التطور .

وسنحاول في هذا المبحث أن نتتبع مع رافيتز وغيره ممن كتبوا حول هذه القضية الحيوية من علماء الحضارة الغربية أنفسهم للتحولات والمراحل التي مرَّ بها العلم منذ كان جنينًا في رحم الفلسفة إلى أن وصل إلى صورته الفتية الحالية ، مبينين الظروف التي أحاطت بتلك التحولات ، حتى يتبين للباحث المسلم حقيقة المنهج العلمي المعاصر وأنه ليس بذلك المنتج النهائي الصادق بذاته الذي لا يحتمل التعديل ولا يخضع للنقد ، بل يتضح له أنه إسهام « بشري » بكل ما يحتمله هذا التعبير من عظمة وضعف في آن واحد ! بما يسوغ لنا أن نستفيد من جوانب القوة والحق فيه ، فنحن أولى بالوقوف عند الحق من غيرنا ، وأن نقوم بأمانة النقد والإصلاح لنواحي الضعف فيه ، ونحن أولى مرة أخرى من غيرنا بأن تكون لدينا الشجاعة الأدبية والرغبة في الإصلاح دون مصلحة ذاتية ودون مراعاة للخلق ، بل مراعاة في الأمر كله لوجه الحق وما يرضي الرب سبحانه .

فإذا بدأنا رحلتنا بالعصور الوسطى في أوربا (والتي تمتد فيما بين القرن الرابع أو الخامس الميلادي إلى القرن الثالث عشر الميلادي) فإننا لن نجد تراثًا علميًا يستحق الذكر إلا في نهاية تلك الحقبة ؛ حيث يذكرنا جيروم رافيتز أن أوربا ظلت سادرة حتى (عام ١٠٠٠ الميلادي) فيما يعرف بالعصور المظلمة Dark Ages ، التي كادت تكون حسب تعبيره خلوًا من كل علم وفكر ، إلى أن بدأ شيء من النهوض في القرن الثاني عشر الميلادي يرجع كما ذكر إلى « الاحتكاك بالحضارة الإسلامية الأرقى في إسبانيا وفلسطين ، وإلى نمو المدن التي تضم طبقة من الأغنياء المتعلمين » ، ويضيف بعد ذلك قوله : « إن الحضارة الإسلامية تعتبر أكثر الحضارات صلة بالعلم الأوربي .. لقد صادفت عصور ازدهار الإسلام عصر انحطاط الثقافة الأوربية الغربية ... ولم يبدأ القرن العاشر الميلادي حتى كانت اللغة العربية هي لغة العلماء لدى الشعوب التي تعيش فيما بين بلاد فارس وإسبانيا ، حيث جلب الغالبون العرب – بصفة عامة – معهم السلام والازدهار للدول التي استوطنوها ، وقد شهد القرن الثاني عشر الميلادي برنامجًا هائلًا لترجمة

الكتب من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية بدأت بكتب التنجيم والسحر ، ثم بكتب الطب ، وأخيرًا بكتب الفلسفة والعلم [١] ، ويلاحظ هنا أنه لم يكن يوجد حتى ذلك الوقت تمايز أو فصل واضح بين الفلسفة والعلم بمعناه المستخدم اليوم .

ويوضح ألبرت ليفي في مقاله المهم « تاريخ الفلسفة الغربية » – في دائرة المعارف البريطانية – أن ترجمة المؤلفات الفلسفية والعلمية ذات الأصول اليونانية والعربية قد خلقت « انفجارًا في المعرفة » في غرب أوربا في تلك الفترة ، ويضرب مثلاً بابن سينا الذي يذكر أنه كان له تأثير غير عادي على مفكري العصر المدرسي (أواخر العصور الوسطى : القرن الثاني عشر إلى الرابع عشر الميلادي) خصوصًا في توضيحه لآراء أرسطو الفلسفي وفي إضافاته في محيط علم النفس والفلسفة الطبيعية (ما يعادل العلوم الطبيعية اليوم) . حتى إن كتابه القانون في الطب قد ظل حجة في الموضوع حتى العصر الحديث ، ويبيَّن المؤلف أن تلك الكتابات اليونانية والعربية قد كان لها تأثير مباشر على جامعة إكسفورد من خلال رئيسها روبرت جروستست Robert Gross teste (ت ١٢٥٣م) الذي كان له « اهتمام عميق بالمنهج العلمي والملاحظة وإجراء التجارب » ، أما تلميذه روجر بيكون (ت ١٢٩٢م) فقد ساعدت كتاباته على انتشار اصطلاح « العلوم التجريبية » [٢] .

ولقد كان ألبتروس ماجنوس (ت ١٢٨٠م) من « أوائل من أدركوا القيمة الحقيقية للكتابات العلمية والفلسفية اليونانية والعربية التي ترجمت حديثًا في تلك الفترة ، حتى إنه قام بإدراج كل ما رآه ذا قيمة منه في كتاباته الموسوعية ، كما تولَّى مهمة تعليمه لمعاصريه » ، أم تلميذه الأشهر القديس توماس الأكويني (ت ١٢٧٤م) ، فإنه قد شارك أستاذه في تقدير الفلاسفة القدماء خصوصًا أرسطو ، وكذلك المفكرين العرب واليهود والأقرب عهدًا ، ولكنه كان أكثر أصالة وإبداعًا من أستاذه وكان « يرحب بالحقيقة حينما وجدها ويستخدمها لإثراء الفكر المسيحي ، فكان يرى أنه لا يمكن أن يكون هنالك تناقض بين العقل والنقل ؛ لأن لهما نفس المصدر الإلهي » ، وبصفة عامة فإنه يمكن القول بأن : « فلسفة العصور الوسطى قد استمر توجهها دينيًا ... حيث كانت وسيلة لإلقاء الضوء

---

(١) Ibid . , P . 368 .

(٢) Albert W . Levi "History of Western Philosophy' Encyclo Pedia Britanica, Vol . 14 , P . 257 - 259 .

(٣) Op. , Cit.

على حقائق العقيدة وأسرارها » [٣] .

ولقد كان من نتائج بزوغ الاهتمام الكبير بفهم الطبيعة وإدراك أسرارها من جهة ، وباستخدام النظر والمشاهدة وإجراء التجارب بدلًا من مجرد الاقتصار على القياس الصوري الأرسطي من جهة أخرى ظهور ما سمي بعصر النهضة الأوربية – Renais sance (القرن ١٥ – ١٧م) الذي تميز بثورة علمية كبرى في مختلف ميادين العلم على أيدي أمثال ليوناردو دافنشي ، وكوبر نيكوس ، وجاليليو ، وكبلر ، وفيزاليوس ، وهارفي ، كما تميز بثورة موازية في مناهج البحث العلمي والفلسفي على أيدي أمثال فرانسيس بيكون ، وديكارت ، وقد ترتب على جهود هؤلاء التوصل إلى نظرة واقعية جديدة للعلم الذي نعيش فيه اختلفت عما كانت الكنيسة تؤمن به وتفسر به آيات الإنجيل ، فبدأ صراع عنيف ومرير بين الكنيسة كمؤسسة ذات سطوة دينية وسياسية كبرى من جانب وبين العديدين من العلماء الذين توصلوا إلى نتائج مبنية على ملاحظاتهم الحسية وتجاربهم العلمية من جهة أخرى ، وقد قامت الكنيسبة في إطار ذلك الصراع بمعاقبة أولئك العلماء بشدة وعنف بالغين ، وقامت محاكم التفتيش بدورها المشؤوم في التنكيل بهم بالصورة التي تحفل الكتابات التاريخية بأخبارها ، وإذا كان هذا التعنت والعنف البالغان اللذان أصابا رجال الفكر والعلم قد أجبرا بعضهم على السكوت فترة أو حملا الآخرين على إخفاء آرائهم تحسبًا من نفس المصير فترة أخرى ، فإنه كان من المحتوم أن تنتصر الحقائق الواقعية الناصعة على التأكيدات الكنيسية المخالفة للواقع المحسوس مهما كانت سلطة من يرجون لها ، ولقد كان الحصاد المر لهذا كله في النهاية أن الفكر في عصر النهضة قد اتسم بنزعة معادية للسلطة الدينية ، كما اتسم برغبة جامحة في الخلاص بكل طريقة ممكنة من الخضوع للقيادة الفكرية والعلمية لتلك السلطة الدينية ، ومن هنا فلم يكن هناك مفر من إعطاء اهتمام خاص لأي مصدر آخر للحقيقة يكون بديلًا عن السلطة الدينية للكنيسة ، وكلما كان هذا المصدر مؤديًا إلى معارف معارضة أو مناوئة لتلك السلطة كلما كان ذلك أفضل ، ولم يكن هناك أفضل من التركيز على « الخبرة » الإنسانية واستخدام « الحواس » كأساس للمعرفة العلمية الحقة ؛ لأن ذلك يعطي الإنسان قيمته وحريته (بل ويبالغ في ذلك أيما مبالغة) من جهة كما يقلل من قيمة المصادر الإلهية إلى أقصى حد من جهة أخرى .

يقول ألبرت ليفي [١] : « إن عصر النهضة قد أعلن التمرد على حكم الدين ، ومن هنا

---

(١) Ibid . , P . 261 .

أرسطو ، وازدهار اهتمام مفاجئ بالمشكلات التي تدور حول الإنسان والطبيعة والمجتمع البشري ، كما يضيف رافيتز أن عصر النهضة « أصبح ينظر للطبيعة نظرة خالية من أي خصائص روحية أو بشرية ... بل تجب دراستها بتعقل وبطريقة غير شخصية Impersonal باستخدام الخبرة الحسية والعقل » ... « ولم ينته القرن السابع عشر إلا وكانت البيئة الثقافية في أوربا - بما فيها العلم - قد اتخذت طريقها بقوة في اتجاه العلمانية الكاملة » (١) .

ولقد كان للسير فرانسيس بيكون - الذي يعتبر أبًا للعلم الحديث - دور بارز في توجيه العلم في اتجاه الاقتصار على الخبرة الحسية ، فلقد أراد الرجل أن يضع برنامجًا جديدًا شاملاً لتقدم المعرفة وإصلاح المنهج العلمي وذلك من خلال « اعتبار الحقائق التي يتم مشاهدتها بالحواس (Empirical) هي نقطة البداية لكل علم ، مع الاعتماد على النظريات فقط في الحدود التي يمكن اشتقاقها من تلك الحقائق » (٢) ، ومن هنا فقد أصبح ينظر لبيكون على أنه - أيضًا - أبو الاتجاه « الحسي » Empiricism أي المتطرف في الإمبيريقية ؛ وذلك بسبب إصراره الذي لا يلين على اعتبار أن الخبرة المستمدة من المشاهدة الحسية هي المصدر الصحيح « الوحيد » للمعرفة .

ويقابل بيكون على الطرف الآخر (الذي يقلل من شأن الحس) رينيه ديكارت الذي يعتبر أبًا للاتجاه العقلاني Rationalism ، والذي رأى أن العلوم الطبيعية ينبغي أن تؤسس على معيار اليقين المطلق ، وأن « المعايير النهائية لصدق الأفكار وصحتها هي الوضوح والدقة وامتناع التناقض .. وأن الفهم أرقى بشكل كبير من معطيات الحس .. وأن العقل البشري فقط هو الذي يستطيع الحكم على العلم بالصدق » (٣) .

ورغم أن أي مناقشة جادة للمنهج العلمي - كما يقول ليفي (٤) - تتضمن بالضرورة بُعدًا حسيًّا إمبيريقيًّا Empirical وبُعدًا رياضيًّا عقلانيًّا Bdtional ، وأنه ليس هناك ما يدعو للصراع بين هذين البعدين الرئيسين ، إلا أن كلًّا منهما يمثل قطبًا مغايرًا يسهل التطرف في تقدير مكانته مع التقليل من أهمية القطب الآخر أو استبعاده

---

(١) Jerome Ravetz, op . cit . p . 370 - 371 .

(٢) Stephen E. Toulmin, "Philosophy Of Science" , in Encyclope dia Britanica, Vol . 16 , P . 378 .

(٣) Albert Levi , op . cit , P . 265 .

(٤) Ibid. , P . 263 .

(في الحالات الشديدة التطرف) ، وكما سنرى فيما بعد فإن تاريخ العلم في العصور التالية يشهد بالمدى الذي وصل إليه الحسيون (الإمبيريقيون) خصوصًا في تطرفهم في اتجاه عدم الاعتداد إلا بالخبرة والمشاهدة الحسية كأساس لكل علم - بل ولكل معرفة !! - ولكن الذي يهمنا أن نؤكد عليه الآن هو أن كلًّا من الاتجاهين كان يمثل محاولة مستميتة من جانب رجال العلم والفكر للتوصل إلى إيجاد - وإثبات مشروعية - طرق أخرى للوصول إلى معرفة صحيحة بخلاف « الوحي » الذي احتكر التحكم في فهمه وتفسيره رجال الكنيسة المسيحية وأرادوا فرضه كرهًا على العلماء على الوجه الذي دوَّنوه في كتبهم المقدسة وفي تفسيراتهم لتلك الكتب مدعمين في موقفهم بالقوة القهرية للدولة وبالسيطرة الأدبية على عقول الدهماء دون سند من الواقع أو العقل ، ويبدو أن رجال العلم الوليد قد وجدوا ضالتهم فيما قدمته الحضارة الإسلامية من استخدام الملاحظة والتجريب والعقل والمنطق في الوصول إلى الحقيقة ، يشهد بذلك ما قاله رافيتز في مجال توضيحه « لطبيعة العلم الأوربي » حيث يقول : « يمكن تفسير الشخصية المميزة للعلم الأوربي في ضوء الظروف التي عمل في نطاقها العلماء في هاتين المرحلتين المتعاقبتين (عصر النهضة - عصر التنوير) وفي ضوء المادة والأدوات التي ورثوها ، والتي تشمل المبدأ الأساسي المتمثل في أن معرفة العلم الطبيعي إنما تكون من خلال حجج يمكن البرهنة عليها Demonstrative Argument ، وهو مبدأ تحقق أولًا في الحضارة اليونانية ، ثم التقطته الحضارة الإسلامية وحدها دون أي حضارة أخرى » [١] .

وإذا كان عصر النهضة قد أفلح في وضع حجر الأساس لمعرفة علمية لا تستند إلى سلطة رجال الدين المسيحي مبنية على مشاهدات الحواس - في إطار النزعة الحسية الإمبيريقية - وعلى عمل العقل - في إطار النزعة العقلانية فإن عصر التنوير Enlightement (القرن ١٨ الميلادي) قد « أدخل العلم في مجال السياسة لأول مرة .. وتمثلت رسالته في النضال ضد الكنيسة وعقائدها الجامدة وضد الخرافات الشعبية ، مع استخدام حقائق العلم وطرقه العقلانية كسلاح أساسي في هذا السبيل .. وقد انضم للفلاسفة أفضل العقول في فرنسا ، وساعد في ذلك كراهيتهم للرقابة الغبية المفروضة على الفكر .. وقد اعتبر هؤلاء أن مهمتهم هي استكمال جهود بيكون في الارتقاء بالمعرفة العلمية ولكنهم قاموا بذلك بأسلوب ديكارت الذي يخضع كل شيء سواء كان اجتماعيًّا أو فلسفيًّا لنقد العقل .. ولكن صفوف الحركة سرعان ما انشقت إلى فرق ومع ذلك

(١) Jerome Ravetz, op . cit . P . 371 .

فقد كانت نقطة الاتفاق فيما بينهما هي أن عدوهم الأول هو الكنيسة » [١] .

وعلى أي حال فإن الصراع في أوساط العلماء ظل محتدمًا بين الحسيين والإمبيريقيين من جانب والعقلانيين من جانب آخر ، وكان الإمبيريقيون دائمًا أكثر ميلًا للتطرف في الاعتماد على معطيات الحس والثقة بها ، وأكبر قدرة على اجتذاب الأنصار ، فوجدنا ديفيد هيوم يتابع جون لوك في نظرته « النفسية » للمعرفة فقرر بأن العلاقات التي يصل إليها العقل « مثل علاقات التشابه والتقارب والسببية .. ليست ذات صدق ذاتي داخلي ولكنها مجرد نتيجة لعادات عقلية لا نستطيع تفسيرها » ، وقد رتب على ذلك أن مبدأ العلية الذي تستند إليه كل معرفة لا يشير إلى علاقات ضرورية بين الأشياء وإنما هو ببساطة أمر يعرض للعقل بسبب الترابط الدائم بين الأشياء في عقول الناس ، وفوق ذلك فإن العقل نفسه هو أبعد شيء عن أن يكون قوة مستقلة ، فهو عبارة عن « رابطة من المدركات » A Bundle of perceptions دون وحدة أو ترابط ، ومن هنا فإن هيوم يكون قد أنكر من جهة وجود نظام في الطبيعة . وإنما مجرد انطباعات حسية متفرقة ، كما أنكر وجود ذات مدركة ذات وحدة أو تماسك من جهة أخرى [٢] .

وقد حاول عمانويل كانط التوفيق بين الاتجاهين الحسي والعقلاني من خلال فلسفته النقدية التي قرر أن المدركات الحسية وحدها لا يمكن أن توصلنا إلى معرفة بالظواهر الطبيعية الخارجية عنا (على الوجه الذي يظنه أصحاب الاتجاه الحسي) ، كما أن تلك الظواهر ليست واضحة بذاتها Self - evidint أمام عقولنا (على الوجه الذي ينادي به أصحاب الاتجاه العقلاني) ، ولكن المعرفة بالعالم الطبيعي من حولنا تكون ممكنة عندما (يصل العالم إلى نسق عقلي متماسك من التفسيرات التي تطابق الواقع الإمبيريقي) ، أي أن كانط يرى أن الإنسان يفرض بناءً عقليًا على معرفة من خلال المفاهيم والفئات التي يأتي بها من عنده لتشكيل خبرته الحسية وتفسيرها ، ولقد أثبت هذا التفكير الكانطي خصوبة متناهية ؛ لأنه ساعد على تحليل عملية بناء النظرية ، واستمر تأثيره على ما يزيد على مائة عام بل وإلى اليوم من بعض النواحي [٣] .

يرى البعض أن القرن التاسع عشر الميلادي يعتبر العصر الذهبي للعلم ؛ ذلك أن تطبيقاته العملية في مجالات الصناعة والطب كانت قد ظهرت آثارها بشكل كبير ، مما رفع مكانة

---

(١) Ibid . , P . 372 .

(٢) Albert Levi, op . cit. , P. 267 .

(٣) Stephen Toulmin, op. cit. , P . 379

العلماء ودعم موقفهم ضد جمود رجال الدين المسيحي ، واستمر في ذلك القرن استخدام الحقائق العلمية ومنهج البحث العلمي في الصراع ضد الوصاية الفكرية للكنيسة « ذلك أن ذكرى محاكمة جاليليو كانت لا تزال حية في الأوساط العلمية ، كما زاد الجدل الدائر حول الداروينية في إنجلترا من قوة دفع هذا الصراع الأيديولوجي لدرجة أن معتنقي المسيحية من الليبراليين كانوا يناصرون الملاحدة ضد الملتزمين بالدين المسيحي » [١] ، ولكن هذا القرن قد شهد تطورات مهمة فيما يتصل بالدراسات الاجتماعية ظلت آثارها معنا حتى الوقت الحاضر على الوجه الذي نبينه الآن .

لقد انصبت دراستنا لتاريخ العلم والمنهج العلمي حتى الآن بصفة أساسية على العلم الطبيعي وبدرجة أقل على دراسة الإنسان وفهم سلوكه الفردي أو الاجتماعي ، ولقد نادى الفيلسوف الفرنسي أوجست كونت في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي بتطبيق نفس قواعد المنهج العلمي المستخدم في العلوم الطبيعية في دراسة الظواهر الاجتماعية ، وانطلق في ذلك من نزعة إمبيريقية (حسية) متطرفة سار فيها على نهج بيكون ولوك وهيوم مبشرًا بما سماه بالفلسفة الوضعية Positivism التي وصفها البعض بأنها : « فلسفة للعلم بلغت من ضيق النطاق حدًّا أنكرت معه أي صدق لأي نوع كان من المعرفة لم يتم التوصل إليه بالمناهج العلمية المقبولة » [٢] ، ويعرف جورج تيودرسن وأكيلز تيودرسن الوضعية [٣] بقولهما : « أنها موقف فلسفي يؤمن بأنه لا يمكن الوصول إلى المعرفة إلا من خلال الخبرة الحسية ، ويرفض التفكير فيما وراء الطبيعة والبصيرة الحدسية والتحليل المنطقي المجرد باعتبارها تخرج عن نطاق المعرفة الحقة ، وينظر إلى مناهج العلوم الطبيعية على أنها الوسيلة الدقيقة الوحيدة للحصول على المعرفة ، ومن هنا فإن العلوم الاجتماعية ينبغي أن تقتصر على استخدام تلك المناهج ، وأن تتخذ العلوم الطبيعية كنموذج تحتذيه » .

والحق أن كونت يعتبر أول من أوضح معالم هذه الأيديولوجية الفلسفية التي اتخذت أبعاد حركة علمية بعيدة الأثر عنها في مراحل تالية ما يعرف باتجاه الوضعية المنطقية Logical positivism والإمبيريقية المنطقية Logical Empiricism .

وبصفة عامة فإن فكرة الوضعية التي استند إليها العلم الحديث تقوم إجمالًا على

---

(١) Jerome Ravetz, op. cit., P. 374.

(٢) Alpert Levi, op. cit. , P . 270 .

(٣) George Theodorson and Achilles Theodorson, op . cit. , P . 306 .

التأكيدات الآتية [١] :

١ – أن كل معرفة تتصل بالحقائق الواقعة لا بد أن تبنى على شواهد إيجابية الوجود Positive مستمدة من واقع الخبرة .

٢ – فيما وراء مجال الحقائق الإيجابية يوجد مجال المنطق البحت والرياضيات البحتة والذي كان هيوم منطلقًا من إمبيريقيته المتطرفة أنها تهتم بالعلاقات بين الأفكار ، والتي اعتبرت فيما بعد من قبيل العلوم الصورية Formal Sciences (أي تلك العلوم التي تبحث في صور الفكر وليس في المحتوى المادي المتعين للأشياء) .

٣ – أما على الجانب السلبي Negative ، فترى الوضعية إنكار ما وراء الطبيعة وكل ما لا يمكن حسمه بالدليل الواقعي مثل المعارف المتعالية أو المتجاوزة ، أي التي تتجاوز نطاق العقل Transcendent .

وفي ضوء ذلك أصرت النظرة الوضعية على أن « العلوم الاجتماعية » ينبغي لكي تستحق اسم علوم « أن تسير في نفس الخطوط التي تسير عليها العلوم الطبيعية كما سبق أن أوضحنا » .

وقد أعلن كونت بناءً على تحليلاته التاريخية ما سماه بقانون الحالات الثلاث التي زعم أن تطور الفكر البشري يمر بها ، والتي توازي مع المراحل التي يمر بها الإنسان الفرد من الطفولة إلى النضج ، تبدأ أولها بالمرحلة الدينية التي تفسر الظواهر فيها بإرجاعها إلى قوى قدسية ، وهي عنده تمثل مرحلة الطفولة في الفكر البشري ! أما المرحلة الثانية فهي المرحلة الميتافيزيقية التي لا تخرج عن كونها دينية ولكن بنظرة غير شخصية تفسر فيها الظواهر بقوى حيوية أو غيبية لا تقدم تفسيرات أصلية – في رأيه – (كالحقيقة المطلقة والأسباب الأولى والبدايات المطلقة) ، أما المرحلة الثالثة فهي المرحلة الوضعية أو العلمية التي لا تهتم إلا بالحقائق الإيجابية من حيث وجودها في الواقع المحسوس .

ومن هذا نرى مع فيجل أن « الوضعية من حيث موقفها الأيديولوجي الأساسي إنما هي علمانية قاصرة على هذه الحياة الدنيا ومعادية للدين وللبحث فيما وراء الوجود ، وأن أهم شروط الوضعية إنما هو الالتزام الصارم بشهادة الملاحظة والخبرة » ، كما يضيف

---

(١) Herbert Feigl. "Postittivism and Logical Empiricim" in Encyclopedia Britanica, Vol. 14,P . 877 .

ليفي [١] إلى ذلك أن الأثر الدائم الذي تركه كونت يتمثل في أنه قد أنشأ توجُّهًا مضادًّا للدين ولما وراء الوجود في فلسفة العلوم استمر معنا حتى العصر الحاضر ، ولعل مما يجدر ذكره هنا أن أوجيست كونت قد أسس « ديانة » جديدة لم تعمر طويلًا ، لم تكن العبادة فيها موجهة إلى الإله الذي يتعبده الموحِّدون ، وإنما موضوع العبادة فيها هو « الإنسان » .

وقد شهدت بدايات القرن العشرين ظهور ما يسمى بالوضعية المنطقية Logical Positivism التي بنيت على التوجيهات الإمبيريقية المتطرفة لهيوم ، والتوجهات الوضعية التي وجدناها عند كونت ، إضافة إلى فلسفة العلم عند إيرنست ماك ، ويعرف القاموس الحديث لعلم الاجتماع [٢] الوضعية المنطقية على أنها : « موقف فلسفي تطور عن الوضعية يؤمن بأن الحق في أي عبارة يثبت بالتحقق من صدقه من خلال الخبرة الحسية ، وأن أي عبارة لا يمكن التحقق من صدقها بالرجوع إلى الخبرة الحسية كالعبارات الدينية أو المتصلة بما وراء الطبيعة فإنها لا معنى لها Meaningless ولما كانت هناك حاجة إلى التحليل المنطقي لتوضيح المعاني التي تم التحقق من صدقها أو تم رفضها باستخدام الخبرة الحسية ، إلا أن مثل تلك التحليلات المنطقية ينبغي أن تبقى وثيقة الصلة بالملاحظات الإمبيريقية ، ومن هنا فإن بناء النظريات ينبغي أن يقلل منه إلى أدنى حد ممكن » .

ومن هنا فإن الوضعية المنطقية تقوم على الأفكار الأساسية الآتية [٣] :

١ - أن المهمة الأصلية للفلسفة هي توضيح معاني المفاهيم والتأكيدات الأساسية للعلم ، وليس محاولة الإجابة على الأسئلة التي لا إجابة لها مما يتصل مثلًا بطبيعة الحقيقة المطلقة ، أو غيرها من الأسئلة الوجودية الكبرى .

٢ - جميع العبارات المتصلة بالقيم الأخلاقية أو الجمالية أو الدينية لا يمكن التحقق منها علميًّا ، وبذلك تعتبر كلامًا فارغًا (أي لا تحمل أي معنى يرتد للحقيقة على وجه الإطلاق) .

٣ - معنى كلمة « منطقية في اصطلاح الوضعية المنطقية يقصد به التأكيد على الطبيعة الخاصة للحقائق الرياضية والمنطقية التي تعتبر صحيحة بنفس المسلمات والتعريفات التي تقوم عليها » .

وأخيرًا : فإن الثلث الثاني من القرن العشرين قد شهد تحولًا نحو استخدام اصطلاح الإمبيريقية المنطقية Logical Empiricism بدلًا من « الوضعية » ؛ وذلك لأن هذا المفهوم

---

(١) Albert Levi, op,cit., P. 270.

(٢) Theodorson & Theodorson, op . cit, P . 307 .

(٣) Herbert Feigl, op, Cit. , P . 878 - 879 . 881; and, Albert Levi, P . 273 .

الأخير قد أصبح مرتبطًا بشدة بتفكير أوجيست كونت ، وأيضًا بآراء إيرنست ماك الذي بالغ بشدة في التأكيد على الحقائق الإيجابية للملاحظة ، حتى إنه لم يكن من الممكن مشاهدتها بالحواس ، ومع ذلك فإن الفكر الجديد قد احتفظ من الوضعية بإصرارها على ضرورة اختبار الفروض والنظريات في الواقع الإمبيريقي ، ومن هنا صارت التسمية « بالإمبيريقية » ، في نفس الوقت الذي استخدمت فيه تسمية « المنطقية » للدلالة على مكانة المنطق والرياضيات التي يتوقف صدق قضاياها على صحة المسلمات والتعريفات كما ذكرنا من قبل [١] .

ويلاحظ أن الإمبيريقية المنطقية تمثل النموذج « السائد » اليوم في فلسفة العلوم [٢] بصفة عامة ، وهي لذلك تستحق وقفة خاصة لبيان طبيعته ، وقد أوضح ليفي [٣] الأفكار الأساسية للإمبيريقية المنطقية كما يلي :

١ - كل كلام « ذي معنى » يتكون إما من :

أ - عبارات « صورية » منطقية أو رياضية .

ب - قضايا تشير إلى حقائق علمية « واقعية » .

٢ - أي قضايا تزعم أنها تشير إلى حقائق يكون لها معنى فقط إذا كان في الإمكان بيان الطريقة التي يمكن بها التحقق منها بالرجوع إلى الواقع المحسوس .

٣ - أي قضايا تتصل بما وراء الوجود ولا تقع في نطاق الفئتين المذكورتين أعلاه لا معنى لها .

٤ - جميع العبارات المتصلة بالقيم الأخلاقية أو الجمالية أو الدينية لا يمكن التحقق منها علميًّا وهي بهذا لا معنى لها .

هذا هو النموذج السائد في فلسفة العلم اليوم ، وتلك هي الظروف التي وصل إلينا من خلالها ، ولقد قصدنا بهذا العرض التاريخي لتطور فكرة « العلم » في الحضارة الغربية في سياقها الواقعي أن نضع أساسًا يمكن في ضوئه القيام بمناقشة متأنية تفصل ما هو أصيل عما هو عارض فيما يتصل بالعلم والنهج العلمي ، بما يمكننا من اتخاذ الموقف الصحيح من كل منهما .

---

(١) Herbert Feigl, op. cit., P.8881 .

(٢) Andrew Tudor, op. cit., P. 3. .

(٣) Albert Levi, op. P. 272 - 273 .

المبحث الثالث
أثر التاريخ والبيئة والثقافة
في تشكيل المنهج العلمي الحديث

لا يمكن لأي منصف أن يزعم أن كل نشاط فكري أو علمي لا يخرج عن كونه مجرد انعكاس خالص للظروف التاريخية والبيئية والثقافية التي أحاطت بظهور ذلك النشاط وتطوره (وإن كان هناك من العلماء من يرون هذا بالفعل) ، وقضايا المنهج باعتبار طبيعتها « العامة » في خدمة كل العلوم أولى من غيرها بأن تتجافى مع الخضوع للملابسات الوقتية أو الظروف التاريخية العرضية الضاغطة ، فالمنهاج عادة ما يكون بمثابة المحور الذي تدور حوله العلوم المختلفة ، وعليه يعتمد الباحثون والعلماء في الوصول إلى نتائجهم ، وهم لهذا يتوقفون بقوة عند أي تغيير أو حتى محاولة لتغيير أي من المسلمات الأساسية للمنهج ، ومن هنا فإن المتوقع دائمًا أنه من خلال عمليات التصحيح الذاتي التي يتميز بها العلم أن يظل المنهج (نسبيًّا) بمنأى عن التأثر الشديد بالتيارات التي تتجاذب ما ينتج من تطبيقه من نماذج ونظريات علمية ، تلك التيارات التي قد تكون شديدة أو حتى عاصفة في بعض الأحيان .

ولو تأملنا التطورات التي مر بها المنهج العلمي في البحث حتى وصل إلى صورته الراهنة (على الوجه الذي عرضناه في المبحث السابق) ، فإننا لن نملك إلا الإعجاب بالجهود التي بذلها العلماء والباحثون في كثير من الأحيان « للخلاص من تأثير » الضغوط الفكرية التي مارستها الكنيسة عليهم ، متحملين ما يلحقهم في سبيل ذلك من قهر وعنف (يصل أحيانًا إلى حد تقييد الحرية بالسجن أو تجريم نشر المؤلفات ، ويصل أحيانًا للتهديد بالموت أو لتنفيذ ذلك التهديد) تمسكًا بما وجدوا أنه الحق من خلال مشاهداتهم الواقعية التي لا يمكن لعاقل أن يتشكك فيها ، اللهم إلا أن يكون ذا مصلحة أو صاحب هوى ، وقد تمخض عن مجالدة هؤلاء العلماء الأفذاذ ومثابرتهم ومقاومتهم للتأثيرات البيئية وضع قواعد المنهج العلمي الأوربي الحديث الذي كان الأساس الذي بني عليه صرح العلوم الطبيعية الحديثة ، والذي جعل في الإمكان تحقيق التقدم التقني (التكنولوجي) الذي يجني ثماره الناس اليوم (في جوانبها الخيرة) .

ولكن هل سلم هؤلاء العلماء الأفذاذ حقًّا من تأثير الضغوط الثقافية والبيئية التي جاهدوا لمغالبتها ، ونجحوا في النهاية في الانعتاق من ربقتها بالكلية ؟ وهل يمكننا القول

بأمانة أن المنهج العلمي الأوربي الحديث بصورته السائدة اليوم هو حقًّا مجرد نتاج لسعي متجرد للبحث عن الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة ؟

وفي الحقيقة فإن إعجابنا بما حققه المنهج العلمي للبحث من إنجازات رائعة في العلوم الطبيعية ، واحترامنا لإسهامات أولئك العلماء الأفذاذ الذين جاهدوا حتى توصلوا لتوصيف أبعاد هذا المنهج وإقامة أركانه لا ينبغي أن تلفتنا عن الجانب الآخر للثورة – كما أوضحنا في الصفحات السابقة – والذي يتمثل في أن أولئك العلماء في غمرة غيرتهم في طلب الحقيقة ، وفي إطار حماسهم لمقاومة المؤثرات قد تجاوزوا الحقيقة ، ووقعوا تحت تأثير المؤثرات من وجه آخر !

فلقد أدى التخاصم والعداء الشديد بين رجال العلم ورجال الكنيسة في الظروف التاريخية التي سبق عرضها إلى استبعاد الوحي كمصدر للحقيقة استبعادًا كليًّا ، اكتفاءً بالرجوع إلى الواقع « المحسوس » كمصدر وحيد للمعرفة « العلمية » ، مما أدى إلى فصام بين طريقين للمعرفة كان يمكن لو توحدا (في إطار ديني مختلف كما في حالة الإسلام) أن يؤدي توحدهما ذلك إلى الخروج من الطريق المسدود الذي تجد العلوم الاجتماعية نفسها أمامه اليوم ، تلك العلوم التي تتعامل مع ظواهر هي في بعض جوانبها غير إمبيريقية ، بالإضافة إلى جوانبها الإمبيريقية التي اختص العلم الحديث نفسه بالعمل في محيطها ، ولكن أنَّى لأولئك العلماء القبول بوحدة الحقيقة بمعنى الجمع بين الوحي والمشاهدات الواقعية إذا كان ما يأتيهم باسم الوحي – في تلك الظروف التاريخية – لا يمكن بأي حال التوفيق بينه وبين المشاهدات الواقعية المحققة ، وإذا كانوا يقهرون للتسليم بما يرى رجال الكنيسة أن الوحي ، أي الذي لا محيص لهم عن الالتزام به إن أرادوا أن يظلوا في ساحة المؤمنين بالمسيح وأن يحققوا لأرواحهم الخلاص الأبدي وأنّى لهؤلاء العلماء أن يتصوروا وجود بدائل أخرى من « الوحي » الصحيح الذي أنزل في أمم أخرى وللخلق كافة تصحيحًا للتعريف الذي عانوا هم من آثاره حتى نتوقع منهم أن يتجهوا ببحثهم إليها ؟

إننا في ضوء تلك الظروف نستطيع أن نتفهم السبب الذي من أجله اندفع أولئك العلماء اندفاعًا عظيمًا في اتجاه اعتماد المشاهدات الحسية الإمبيريقية ، والبعد عن كل ما يمت إلى الوحي والشرع بصلة ، ولا يستطيع منصف أن يلومهم على قدرتهم على تجاوز حدود الزمان والمكان لاستشراف ظروف أخرى يمكن فيها (بسهولة شديدة) تحقيق التكامل والتناغم بين معطيات الوحي ومعطيات الحواس كتلك التي توفرها العقيدة

الإسلامية ، خصوصًا وأن أولئك العلماء كانوا مهتمين فقط بما لدى المسلمين في عصور ازدهارهم من علوم وتكنولوجيا متقدمة (يمكن التحقق من صدقها إمبيريقيًّا) أكثر من اهتمامهم بما لدى المسلمين من عقيدة وشريعة ، ويبدو هذا أمامنا بوضوح إذا تذكرنا أن المفكرين والفلاسفة الأوائل الذين نقلوا العلوم الإسلامية إلى الغرب كانوا هم أنفسهم من رجال الدين المسيحي الذين كانوا يحسون بخطورة العقيدة الإسلامية على معتقداتهم ، كما عبروا هم أنفسهم عن ذلك (راجع المقالات المتصلة بتاريخ العلم التي سبقت الإشارة إليها) .

ولكن التماسنا العذر لأولئك العلماء لا يعفي نفرًا آخر منهم تجاوزوا كل الحدود من حيث المغالاة في تلك النزعة الإمبيريقية بما لا يعتبر خدمة للعلم بقدر ما يعبر عن شخصية العالم نفسه أو عن مصلحته الضيقة ، حتى أدى ذلك بهم إلى التوقف عما لا يستحق التوقف فيه ، وأوضح مثال لذلك موقف إيرنست ماك عالم الطبيعة النمساوي ، وويلهلم أشتوالد مؤسس علم الكيمياء العضوية ، ومن شايعهم ممن توقفوا عن القبول « بفكرة » وجود الذَّرة في الواقع بناءً على نظرتهم الوضعية المتطرفة في إمبيريقيتها ، حيث يرى ماك مثلًا « أن كل معرفة حقيقة إما أن تتكون فقط من تنظيم وتدقيق لما تقدمه الخبرة المباشرة من بيانات » .. ولما كان لا يمكن رؤية الذرة بالعين المجردة أو المناظرة المكبرة (في ذلك الوقت) فقد اعتبر الوضعيون فرض وجود الذرة مجرد خيال مريح » على أحسن تقدير أو فرضًا غير شرعي على أسوأ تقدير .

وتمثل هذه الفصيلة من الوضعيين الذين رفضوا التسليم بوجود الذَّرة في الطبيعة أحد الأشكال المتطرفة لتخوف الوضعية من أي شيء لا يمكن ملاحظته ، فالحجر عندهم مثلًا ليس إلا مجموعة من الصفات التي تنطبع على الحواس كصفات الصلابة واللون والكتلة ، وهم يرفضون فكرة وجود مادة أو شيء يكمن وراء تلك الصفات الحسية ، فإذا سألتهم عما يتبقى من ذلك الشيء الذي نلاحظه (الحجر) إذا تصورنا أننا جردناه من تلك الصفات المدركة بالحواس ، فإن إجابتهم أنه لا يتبقى هناك شيء [١] .

وفي مقابل أصحاب النزعة الإمبيريقية المتطرفة Empiricists وجدنا فريقًا آخر من العلماء تطرفوا في الاتجاه العقلاني Rationalists « ينكرون أن تبدي الحقائق الإمبيريقية الخام بذاتها وفي ذاتها أي علاقات يمكن فهمها أو حكمها أي قوانين ضرورية ، فالخبرة العارية التي يحصل عليها العالم من ملاحظة الظواهر الطبيعية تظل عبارة عن تجمع غير

(١) Herbert Feigl, op . cit., P . 878 .

منظم أو سيال حتى يستطيع العالم أن يكتشف إطارًا عقليًا أو مبدأً يربط به بين هذه الحقائق المفككة وبين إطار كلي أقرب للفهم » (١) .

وفي ضوء ما تقدم يتبين لنا بوضوح أن المنهج العلمي الحديث إنما هو نتاج عقول بشرية تسعى للوصول إلى الحقيقة في حدود ظروف الزمان والمكان ، وفي حدود قدرة البشر (أو عدم قدرتهم) على التحرر من ضعفهم الإنساني ومن تأثيرات علاقاتهم الاجتماعية والمهنية وتأثير زملائهم في المجتمع العلمي ، ومن هنا يتضح خطأ التصور بأن هذا المنهج العلمي الأوربي الحديث هو خاتمة المطاف في تحديد طرق السعي للوصول إلى الحقيقة ، أو حتى الظن بأن هذا المنهج بصورته الحالية هو « أفضل الممكن » .

ولعل هذا هو الموقف الذي انتهى إليه جيروم رافيتز بعد تحليل دقيق لتاريخ العلم ؛ إذ يقول « لقد أصبح المؤرخون يرون أن العلم الأوربي الحديث إنما هو جزء لا يتجزأ من الحضارة (الغربية) ، وأن نقائصه مثل فضائله إنما هي مستمدة من جوانب (الحياة) الأوروبية التي تضرب بجذورها في طريقة الحياة الغربية ، فالارتباط وثيق بين بقاء العلم وبقاء الحضارة (التي تحتضنه) « ثم يضيف موضحًا أنه ليس لدينا ضمان في أن تستطيع الحضارة الغربية تحقيق التوافق مع الطبيعة بالشكل الذي يلزم لبقائها ، وأن هذا الأمر يتوقف جزئيًا على خصائص العلم الطبيعي كما تبلور في الحضارة الأوربية على مدى القرون » (٢) .

ويؤكد هذا المعنى المفكر الشهير جوهان جالتونج في كتابه عن المنهجية والأيديولوجيا (٣) ؛ إذ يقول : إن العلاقة بين العلم والبناء الاجتماعي علاقة تبلغ من القوة لدرجة أن الحديث عن المنهج العلمي دون إشارة إلى البناء الاجتماعي الذي يستخدم في إطاره يعتبر تضليلًا ؛ لأنه يؤدي إلى ادعاءات بأن هذا المنهج عالمي ومطلق Pretenses of Universalism and absolutism مع إخفاء حقيقة أن أي منتج علمي صادق إنما يمثل في الوقت ذاته وإلى حدٍّ كبير تصديقًا وتدعيمًا للبناء الاجتماعي الذي تم إنجازه في إطاره ، ويصل ويتكين وجو تشولك إلى قاعدة مشابهة عند الحديث عما ينبغي مراعاته عند تقويم النظريات العلمية أو النظر في أهداف العلم ؛ فيقولون : « إنه بنفس الطريقة التي نجد بها أن النظريات قد تعكس القيم المتمركزة حول الثقافة المحلية لمن وضعوها ... فإن التصورات المتعلقة بأهداف العلم – أيضا – تعكس

---

(١) Stephen Toulmin, op. cit., P . 383 .

(٢) Jerome Ravetz, op. cit., P .393 .

(٣) Johan GalTung, Methodology and Ideology (CoPenhagen : Christian Ejlers, 1977) P . 13 .

المعتقدات الثقافية كما تعكس معايير غير أبستمولوجية » [١] .

وينتقد د . فؤاد أبو حطب الاتجاه الذي يتصور أن العلم سواء أكان علمًا طبيعيًّا أو اجتماعيًّا أو إنسانيًّا ذا طبيعة محايدة ثقافيًّا بقوله : « إن هذا الاتجاه يتجاهل ما في العلم من تحيز ثقافي لا يتفق مع الصورة التي تقدمها الدراسات والمسوح التي أجراها علماء النفس في الغرب أنفسهم حول مسيرة هذا العلم ، ويستشهد بكتابات جلجن عام (١٩٨٧م) التي بينت أهمية التنبيه إلى الطابع الثقافي ، ثم الأيديولوجي للعلم وبخاصة العلوم ذات الطبيعة الاجتماعية والإنسانية » [٢] ، ثم يقرر أن الوعي بهذه الخاصية الثقافية الأيديولوجية للعلم عامة قد ظهر خفيًّا في معظم ما يكتبه فلاسفة ومؤرخو العلم المعاصرون ، كما ظهر الوعي بها صريحًا في علم النفس مع التوجه الأوروبي نحو الوحدة في شكل الحديث عن علم النفس الأوروبي ، كما أشار إلى توجه اليابانيين نحو التأصيل الياباني لعلم النفس مع ظهور اليابان كقوة عظمى .

وبناءً على هذه الأدلة الدامغة التي تثبت التأثر الشديد للعلم والمنهج العلمي بالبيئة الثقافية التي يمارس فيها ، بل وبالظروف التاريخية التي نبت فيها ، فإنه لا يسع الباحث المنصف إلا أن يكون تناوله لهذه القضية منطلقًا من أفق واسع يأخذ في اعتباره حقيقة أن نظرة المجتمع للإنسان ولمكانه في هذا الوجود ، والطريقة التي يختارها المجتمع لحياته وحضارته إنما تضع الإطار العام الذي يتحرك فيه العلم والعلماء مثل غيرهم من الناس ، وأن التركيز الضيق على الإجراءات المنهجية وما توحي به من عمومية وعالمية يعتبر إلى حدٍّ كبير من قبيل النظرة الميكروسكوبية القصيرة المدى التي تقصر عن إدراك الصورة في كليتها ، فإذا عرفنا أن العلم الاجتماعي مثلًا يواجه أزمة أو محنة في ثقافة ما (كما هو حادث في الثقافة الغربية اليوم) ، فإن هذا لا يعني أن الحال ينبغي أن يكون كذلك في كل الثقافات الأخرى ، وإذا كان « العلماء » في تلك الثقافة عاجزين عن « النظر من خارج » الأطر الثقافية لمجتمعاتهم إلى العلم والمنهج العلمي لتمحيصها واكتشاف ما إذا كانت مسلماتها القيمية مسؤولة عن وجود تلك الأزمة ، فليس الحال كذلك بالنسبة للباحثين من « خارج » تلك الحضارة ممن انتقلت إليهم النماذج الغربية الحديثة عن طريق

---

(١) Stanley Witkin & Shimon Gottschalk "Alternative Creteria For Theory Evaluation" Social Servise Review, June 1988, P . 213 .

(٢) د . فؤاد أبو حطب « نحو وجهة إسلامية لعلم النفس » بحث مقدم إلى ندوة علم النفس : المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالقاهرة ١٩٨٩م ، (ص ٣٣ ، ٣٤) .

التقليد ، وإذا كان الفريق الأول قد يُعذر لصعوبة المهمة أمامه (أو حتى استحالتها) ، فإن الفريق الآخر لا يمكن أن يعذر على إصراره على التقليد وتمسكه بما هو عقيم مجدب مع أن مفتاح الحل قد يكون تحت أقدامه . وسنرى بعد قليل أن تطبيق المنهج « العلمي » بصورته التقليدية في دراسة الظواهر الاجتماعية قد فشل فشلًا ذريعًا في تحقيق فهم وتفسير السلوك الإنساني والعلاقات الاجتماعية حتى في محيط الحضارة الغربية ، مما يجعلنا نقول بلا مبالغة أن ضرر استخدام هذا المنهج بصورته التقليدية في دراسة الظواهر الاجتماعية قد يكون أكثر من نفعه ، وأن الأمل في تحقيق أي فاعلية في فهم الإنسان والمجتمع قد يتوقف على الخروج عن نموذج العلم الطبيعي التقليدي وتخليصه من القيود التي كبلته بها الاتجاهات الوضعية والإمبيريقية .

المبحث الرابع
مظاهر الأزمة في العلوم الاجتماعية

إذا كانت الوظائف الأساسية « للعلوم » هي الفهم والتفسير والتنبؤ بالظواهر ، وإذا كانت الوظائف الأساسية للمهن « هي التحكم في مسار تلك الظواهر والتدخل لإحداث تغييرات مرغوبة فيها ، فإن لنا أن نتساءل عن المدى الذي وصلت إليه نظريات العلوم الاجتماعية ونظريات الممارسة في مهن المساعدة الإنسانية فيما يتعلق بكل من النوعين من الوظائف فهم وتفسير الظواهر الاجتماعية والتنبؤ بها من جانب ، والتدخل المهني لإحداث تغييرات وإصلاحات مرغوبة فيها من جانب آخر ، وفي الحقيقة إن أي مراجعة أو تقويم جاد للمستوى الذي وصلت إليه نظريات العلوم الاجتماعية – التي يفترض أنها بمثابة الوعاء الذي يحوي الحصيلة النهائية للنتائج التي توصلت إليها تلك العلوم – في محاولاتها لفهم وتفسير الظواهر الاجتماعية تكشف لنا عن ضعف واضطراب النظريات « العلمية » في المجال الاجتماعي ، كما تكشف لنا عن تضاربها الشديد تضاربًا يصل في بعض الأحيان إلى حد التسفيه الكامل من جانب أنصار بعض النظريات لكل ما جاء به أصحاب النظريات المنافسة (كما يفعل أصحاب المدرسة السلوكية في علم النفس عادة عند تقويمهم لنظرية التحليل النفسي مثلًا) ، وأي مراجعة للكتابات التي تعرضت لتقويم حالة النظرية في العلوم الاجتماعية عمومًا تكشف عن مثل ذلك التناقض والتضارب والعجز عن التفسير .

يلخص كيت ديكسون – مثلًا – حالة النظرية في علم الاجتماع بقوله [١] : « إن أي معرفة بأدبيات نظريات علم الاجتماع عمومًا تكشف بوضوح أن بناء النظرية في علم الاجتماع – إذا حكمنا عليه بالمعايير المأخوذ بها في العلوم الطبيعية – يفتقر لوجود أي منطق متماسك ، فهناك اختلافات كثيرة ليس فقط حول مناهج البحث الاجتماعي وإنما – أيضًا – حول طبيعة علم الاجتماع ذاته .. إن بإمكاننا أن نثبت أن علم الاجتماع رغم مضي مائة عام على تحقيقه لدرجة نسبية من الاحترام الأكاديمي لا زال .. لم يتوصل بعد إلى توجه موحد مقبول للممارسة المهنية ، وكنتيجة لذلك فإننا نجد أمامنا كثرة كاثرة من « النظريات » المتنافسة ؛ حيث لم يتم تحقيق السيادة لأي إطار بعينه ولم يعد من الممكن أن نعزو هذه الحالة إلى الزعم بأن علم الاجتماع لا زال في « طفولته » .. ففرض حداثة العهد (الطفولة) لا يفسر لنا شيئًا وإنما هو يشير إلى « الحالة » التي عليها علم الاجتماع .

فإذا انتقلنا إلى علم النفس فإننا نجد أنه يعاني – أيضًا – من تعدد منطلقاته النظرية وتناقضها على خط مستقيم في بعض الأحيان ، كما عبر عن ذلك بوضوح آيزينك ورتشمان ؛ إذ يقرران في مقدمة أحد مؤلفاتهما أن علم النفس كما يراه السلوكيون إنما هو فرع تجريبي من فروع العلوم الطبيعية ، وأنهما كسلوكيين يسيران « في الاتجاه العكسي تمامًا Exactly Opposite » لاتجاه مدرسة التحليل النفسي [٢] . ويشير جورج هوارد [٣] في مقال مهم نشر بمجلة علم النفس الأمريكية في عام (١٩٨٥م) إلى أن بحوث ونظريات علم النفس كانت محل تساؤل شديد على مدى العشرين عامًا الماضية ، وينقل عن كوش قوله : إن علم النفس قد بني منهجه العلمي على فلسفة للعلم كانت قد تقادم بها العهد وأصبحت مهجورة حتى عند ذلك الوقت عام (١٩٦٤م) ، ويعقب هوارد مؤيدًا بقوله : إنه إذا كان واطسن مؤسس المدرسة السلوكية قد كتب يقول : إن علم النفس فرع تجريبي موضوعي خالص من فروع العلوم الطبيعية لا يحتاج إلى دراسة الوعي (الشعور) إلا كما يحتاج علم

---

(١) Keith Dixon , Socological Theory : Pretence and Possibility (London : Rountledge & Kegan Paul 1973) P.26 .

(٢) H.J. Eysenck & S.Rachman, The Causes And Cures of Neurosis (London : Rountledge & Kegan Paul, 1967) PP . XI - XII .

(٣) George Howard "The Role of Values in the Science of Phsychology" American Phsychologist, Vol. 40, No. 3, March 1985 , P.259 .

الكيمياء أو الطبيعة إلى ذلك ، « فإن الزمن قد أثبت أن الوعي أو الشعور ليس على الإطلاق بالأمر الذي لا يهم علم الطبيعة الحديثة ، وينقل عن أحد علماء الطبيعة المعاصرين قوله : « إن من المستحيل صياغة قوانين نظرية الكم Quantum Theory بطريقة كاملة الاتساق دون إشارة إلى الوعي » ؛ حيث قد ثبت علميًا أنه لا يمكن فهم الظواهر الطبيعية المتناهية الصغر دون إدخال موقع الباحث الذي يقوم بالملاحظة ومكانه من الظواهر التي يشاهدها ضمن معطيات قوانين نظرية الكم .

فإذا انتقلنا إلى مهن المساعدة الإنسانية The Helping Professions التي تستند في ممارستها المهنية إلى نتائج تلك العلوم الاجتماعية ونظرياتها المتضاربة فلن يدهشنا أن نجد أن تلك المهن قد أصابها شرر الآثار المترتبة على قصور الفهم والتفسير الذي تعاني منه تلك العلوم ، وهذا يفسر لنا ما تشير إليه الكتابات في تلك المهن حول ما تعانيه من أزمة في الهوية أو ضعف في تأثير وفاعلية الممارسة المهنية وقصورها عن تحقيق النتائج المتوقعة منها .

فإذا نظرنا إلى موقف العلاج النفسي فإننا سنجد أن نظرياته « المتصارعة » تنطلق من نظريات علم النفس ومدارسه التي تتناقض مع بعضها تمام التناقض ، كما يشهد بذلك ما أوردناه من أقوال آيزينك وراتشمان من أن الاتجاه السلوكي يسير في « الاتجاه العكسي تمامًا لاتجاه التحليل النفسي » ، والربط بين هذه الملاحظة وبين ما أورداه عن مدى نجاح الممارسة ؛ إذ يقولان : إننا نعتقد أن الفشل العام في تحقيق الشفاء من خلال العلاج النفسي لا يرجع إلى استحالة تحقيق الشفاء بقدر ما يرجع إلى الطرق الخاطئة المتبعة لمحاولة تحقيقه [١] ، فالقضية إذن وفقًا لرأيهما (الذي قد يتفق فيه معهما الكثيرون ، ولكن من زاوية غير تلك التي ينطلقان منها) إنما هي قضية التوجه النظري وقضية المنهج في الأساس ، غير أن عين الانحياز النظري وعدم القدرة على الخروج من إسار التوجه العلمي السائد The Paradigm هي التي تمنع من رؤية الموقف برمته في ضوء جديد يدرك معه هؤلاء الباحثون وغيرهم ممن يسيرون في نفس الأطر التقليدية أن الخروج من الأزمة إنما يتطلب نوعًا من المراجعة الشاملة للأساسيات ، كما سنجد فيما بعد عند أصحاب النظرية المعرفية أو العقلية في علم النفس على سبيل المثال .

ورغم أن رينيه داويس Dawis يعترف بأنه لا يزال من أنصار التوجه العلمي السائد The Received View of Normal Science ، كما يطبق في محيط ممارسة التوجيه

---

(١) H.J Eysenck and S. Rachman, op. cit., P. XII .

والإرشاد النفسي ، إلا أنه يسلم بأن « القاعدة المعرفية لهذه الممارسة ليست كافية – إذا استخدمنا تعبيرًا مهذبًا – كما يشير إلى أنه لا بأس لديه من تجربة مداخل جديدة » ما دامت المداخل القديمة لا يبدو أنها تعمل » (١) .

وأما بالنسبة للخدمة الاجتماعية فإن الموقف لا يختلف منها كثيرًا عما وجدناه في مهن المساعدة الإنسانية الأخرى ، فلقد كتب جوزيف هيس في عام (١٩٨٠م) حول ما أسماه بأزمة الهوية التي تواجه الخدمة الاجتماعية والتي تظهر آثارها سواء في الجوانب النظرية أو في الممارسة أو فيما يتصل بأخلاقيات المهنة ، فيشير – مثلًا – إلى « الحرب » الأيدلويوجية الطاحنة الدائرة في محيط المهنة بين « النموذج الطبي » ونموذج التغيير الاجتماعي الذي يتخذ في صورته المتطرفة خطوطًا ماركسية ، ثم يوضح أن ضحايا تلك الحرب إنما هم الأخصائيون الاجتماعيون الذين يصابون بالاحتراق المهني Burn - Out ، والعملاء الذين يضيعون بين التوجهات المهنية المتنازعة ، ويرى هيس أن أساس الأزمة كلها إنما يكمن في إهمال البُعد الروحي والممارسة (٢) .

المبحث الخامس
أسباب الأزمة واتجاهات العلاج

إن أي مراجعة متأنية لتاريخ العلم والمنهج العلمي الحديث لتكشف لنا بوضوح – كما رأينا في المبحث الأول – عن التأثير الشديد للعوامل البيئية والثقافية والظروف التاريخية الخاصة في تشكيل التوجه العام السائد للعلم الأوروبي الحديث ، ذلك التوجه المادي الوضعي القائم على المباعدة بين العلم وبين كل ما يمت بصلة للدين أو الوحي أو حتى القيم ، والذي يصر على أن أي محاولة للمزج بينهما ستكون ضارة بكليهما على حد التعبير الذي جاء في قرار لمجلس الأكاديمية الأمريكية للعلوم عام (١٩٨١م) ، والذي يؤكد على « أن الدين والعلم مجالان للفكر البشري منفصلان عن بعضهما تمام الانفصال (Mutually Exclusive) ، وأن أي محاولة للجمع بينهما في إطار واحد يترتب عليها سوء فهم لكل من النظريات العلمية والمعتقدات الدينية » ، وهو تفكير يعكس النزعة

---

(١) Rene V.Dawis, ‘‘Fold PhilosoPhies and new Kids on The Block, ‘‘Journal of Counseling Phsychology , Vol.31, No.4, 1984, P . 467 , 469 .

(٢) Josefh Hess, ‘‘Social Work’s Identity Crisis’’ ,Social Though, Winter 1980,P . 59-61 .

المادية التي صاحبت دراسات العلوم الطبيعية بسبب النجاحات التي حققها إسحاق نيوتن الذي يعتبر أبًا للنظام القديم في الفيزياء الحديثة – على حد تعبير أجروس وستانسيو [١] ، والذي قام بتفسير الكون باعتباره « مادة » توجد في « الزمان » و « المكان » ، وافتراض أن هذا الثالثوث يمثل حقائق مطلقة وثابتة إلى الأبد ، .. « وقد حقق نظام نيوتن نجاحًا في العديد من المجالات ولا سيما في مجال الفيزياء والكيمياء » ... وتمت له الغلبة بشرحه ظواهر الحركة والحرارة والضوء والكهرباء ، وطبيعي أن هذا النجاح ولد في النفوس رغبة في توسيع نطاق هذا الأسلوب في (التفسير) بحيث يشمل جميع حقول المعرفة بما فيها علم الأحياء والنفس والتاريخ والاقتصاد ، وقد أسفرت إمكانية الكشف عن أسرار جزء كبير من العالم الطبيعي بافتراض وجود المادة وحدها عن دفع بعض العلماء تدريجيًا إلى اعتبار المادية جزء من الأسلوب العلمي ذاته .. ولعل في وسعنا أن نطلق على هذا اسم المادية المنهجية ، « ويشير آخرون إلى أن نظرة نيوتن والعلم الذي بني عليها كانت تتبنى نموذج الآلة الميكانيكية Machine Model لتصوير الكيفية التي يتم بها تنظيم كل الظواهر الطبيعية !! . ويبدو أن الكثيرين من علماء النفس ورجال العلوم الاجتماعية ليسوا واعين بالدرجة التي توجه أعمالهم بها تلك المسلمات المستعارة من ذلك التوجه الكلاسيكي للعلم الذي تمت صياغته في القرنين السابع عشر والثامن عشر » [٢] .

وقد أدى هذا النجاح الذي حققته العلوم الطبيعية الكلاسيكية – كما ذكرنا – إلى شعور رجال العلوم الاجتماعية بأن صلاح أمر النظر في الظواهر الإنسانية لن يكون إلا بما صلح به أوله ، أي بالتشدد في تطبيق المناهج التي نجحت في العلوم الطبيعية ، حتى وجدنا جون ستيوارت ميل يقول حول منتصف القرن التاسع عشر الميلادي : « إن الحالة المتخلفة للعلوم الأخلاقية (الإنسانية) يمكن علاجها بتطبيق مناهج العلوم الطبيعية عليها مع توسيع نطاقها وتعميمها » [٣] ، ويقول بولكنجهورن – الذي نقل كلام ميل – أن هذه النصيحة ظلت مقبولة طوال ما يزيد عن مائة عام حتى بدأت الأصوات المطالبة بكسر هذا القالب

---

(١) روبرت آجروس وجورج ستانسيو : العلم في منظوره الجديد (١٩٨٤م) ترجمة كمال خلايلي (الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ١٩٨٩م) (ص ١٩ ، ٢٠) .

(٢) Donold Ford "Reexamining Guiding Assumptions: Theoretical and Methodological Implications" Journal of Counseling Phsychology, Vol. 31,No.4 1984, P.464 .

(٣) As quoted By Donald Pholkingorne, "Further Extentions of Metodhlogical Diversity For Counseling Phsychology" . Journal of Counseling Phsychology, Vol . 31, No 4, 1984, P.416 .

المقيد للحركة تكسب قوة وظهورًا بعد شعور العديد من الباحثين بخيبة الرجاء في نتائج البحوث المبنية على القيم والتوجهات التي وصلت إلينا من العلوم الطبيعية .

ولقد تبنى المتخصصون في العلوم الاجتماعية هذا النموذج المستمد من العلوم الطبيعية بقضه وقضيضه دون مراعاة لاختلاف طبيعة الظواهر الإنسانية عن الظواهر الطبيعية ، فجاءت نظريات العلوم الاجتماعية مغرقة في المادية ومعادية للدين أيضًا ، « فزعمت أن من الممكن تفسير وظائف المخ والسلوك البشري في ضوء العمليات الطبيعية / الكيميائية والفسيولوجية وحدها دون أدنى إشارة إلى الوعي الإنساني أو العوامل الذاتية ، وكان ينظر لهذه المبادئ على أنها لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها حتى تم اكتشاف خطئها المنطقي ونقصها (أخيرًا) » [١] .

ويضيف روجر سبيري [٢] Sperry في مقاله المهم بمجلة علم النفس الأمريكية إلى ما سبق قوله : لعل من الإنصاف أن نقول أن العلم والدين قد وقف كل منهما أمام الآخر وقفة العدو الألد (حتى ظهرت النظرية العقلية المعرفية في السبعينات على الوجه الذي نبينه فيما بعد) .

وعلى العكس من ذلك فإن الكثيرين من العلماء قد أصبحوا يعترفون بالاختلافات الواضحة بين الظواهر الطبيعية والاجتماعية كموضوعات للدراسة ، وكذا بين مناهج العلوم الطبيعية ومناهج العلوم الاجتماعية ، على أساس أن العلوم الطبيعية علوم نوموطيقية Nomothetic أي علوم تسعى للوصول إلى قوانين « عامة » حول ظواهر هي بطبيعتها متكررة ومضطردة ويمكن التنبؤ بها كالفيزياء والكيمياء ، وبين علوم أيديوجرافية Ideographic تسعى لإدراك الخصائص « الفردية » لموضوعاتها مثل علم التاريخ ، ويرى هؤلاء العلماء أن من الخطأ تطبيق المناهج التي ثبت نجاحها في النوع الأول من العلوم (العلوم الطبيعية) على النوع الثاني من العلوم (العلوم الإنسانية) ؛ لأن هذا كما يرون « سوف يؤدي إلى خلط كبير ، بل هو السبب في تخلف العلوم الإنسانية ... ذلك أن التعميم يعتمد على اطراد الطبيعة بينما إذا تمت صياغة قوانين إنسانية فسوف تختلف باختلاف الزمان والمكان ... حقائق توجد أوجه للتشابه بين عادات وتقاليد البشر ، وقد يتشابهون في الشكل والسمات النفسية إلا أن وجود هذه التشابهات وحده غير

---

(١) Roger Sperry "Phsychology's Mentalist Paradigm and the Religion/Science Tension" , American Phsychologist , Vol 43,No 8,August 1988, PP. 608-609 .

(٢) Ibid .

كاف لإمكانية إقامة قوانين في مجال الشؤون الإنسانية » [١] .

وسنحاول فيما يلي أن نبيّن الطريقة التي تسبب بها تبني العلوم الاجتماعية لذلك ، كالتوجه « القديم » في الأزمة الحاضرة التي تعاني منها تلك العلوم اليوم ، بل وتعاني منها مهن المساعدة الإنسانية بالتبعية ، وسنقصر مناقشتنا لهذا الموضوع على أخطر قضيتين كان لهما أكبر الأثر في حدوث تلك الأزمة ؛ وهما :

١ - إهمال تلك العلوم والمهن للعوامل الروحية والدينية ، وإنكار دورها كمسببات فاعلة للسلوك الإنساني .

٢ - دعوى الموضوعية والزعم بأن العلوم الاجتماعية ينبغي أن تكون متحررة من القيم Value - Free .

أولًا : قضية استبعاد العوامل الروحية :

لو أننا تساءلنا عن كنه الأسباب التي أدت إلى تلك الحالة التي تعاني منها العلوم الاجتماعية - والتي تتمثل أساسًا في ذلك القصور المزمن في فهم الإنسان وتفسير الظواهر الاجتماعية - فإن العلماء والباحثين سيقدمون لنا طائفة كبيرة من الأسباب التي تختلف بحسب التوجه النظري لكل منهم ، ففي كل علم من تلك العلوم الاجتماعية « مدارس » علمية متعددة ، تتبنى نظريات متباينة تتنافس فيما بينها في تقديم التفسيرات التي تعترف بها للظواهر التي تخص ذلك العلم في دراستها ، ومن الطبيعي أن يعزو المنتمون إلى كل من تلك المدارس ذلك الاضطراب والقصور النظري إلى أن غيرهم من الباحثين في ذلك التخصص ينطلقون من النظريات المنافسة (الخاطئة) الأخرى .. ! غير أن أمثال تلك التفسيرات لا تبدو كما رأينا كافية ؛ لأن المنتمين إلى كل من تلك التوجهات النظرية لا بد وأنهم قد شاركوا بسهم وافر في بحوث ذلك العلم بأنفسهم - أيضًا - مستخدمين أطرًا تصويرية مستمدة من توجههم النظري في تلك البحوث دون أن يؤدي ذلك إلى فتح جديد في فهم وتفسير الظواهر في نطاق ذلك العلم . وهذا يسوغ لنا أن نقصر اهتمامنا هنا على التبريرات ذات الطبيعة « العامة » التي تساق عادة عندما يثار موضوع القصور النظري والتضارب بين نظريات العلوم الاجتماعية بدلًا من أن نركز على ما يسوقه أنصار أي مدرسة ضد أنصار المدرسة الأخرى ، ويمكن تلخيص

---

(١) علا مصطفى أنور ، مرجع سابق (ص ١٢١ - ١٢٣) .

تلك التبريرات العامة فيما يلي :

١ – لعل أكثر التبريرات العامة التي تساق لتفسير الضعف والاضطراب النظري في العلوم الاجتماعية يتمثل في أن تلك النظريات لا تقف حتى الآن على أرض صلبة وكافية من الحقائق الإمبيريقية والملاحظات الواقعية المحققة القابلة للتعميم ، ووجه الاحتجاج هنا هو أن قلة المشاهدات المحققة إمبيريقيًا تفتح الباب واسعًا أمام الباحثين لابتكار تفسيرات متعددة – بل ومتناقضة أحيانًا – للربط بين تلك الحقائق والتعميمات الإمبيريقية القليلة والمحدودة النطاق لكي يصبح لها أي معنى . ويلاحظ أن القائلين بهذا الرأي يفترضون – ضمنًا – أن تلك الحقائق والتعميمات الإمبيريقية التي تم التوصل إليها حتى الآن رغم قلتها إلا أنها تأخذ في اعتبارها « كل المتغيرات » الممكن دراستها دون استبعاد لأي فئة أو طائفة من المتغيرات عن وعي أو عن قصد .

٢ – ويتصل بالتفسير السابق الذي يساق تبريرًا لضعف واضطراب نظريات العلوم الاجتماعية تفسيرًا آخر يتمثل في صعوبة قياس بعض المتغيرات وصعوبة التحكم في بعضها الآخر لأسباب تتعلق بعدم قابلية تلك المتغيرات للقياس أصلًا ، أو لاعتبارات إنسانية أو أخلاقية ، مما يضطر الباحثين اضطرارًا لاستبعاد بعض المتغيرات من دراستهم رغم أنهم مدركون لمدى أهميتها لبناء النظريات في مجال العلوم الاجتماعية .

٣ – أما التفسير الثالث فيختلف عن التفسيرات السابقة في أنه يرفض التسليم بأن الصعوبات التي تواجه التنظير في العلوم الاجتماعية تكمن فقط في مجرد فقر تلك العلوم من جهة مدى توفر الحقائق الإمبيريقية الصلبة ، أو في صعوبات القياس والتحكم في المتغيرات وحسب ، وإنما يرى أن تلك الصعوبات ترجع – أيضًا – وبصفة أساسية إلى أن العلوم الاجتماعية – جريًا على سنن البحث العلمي التقليدية – قد استبعدت عن عمد قطاعًا أساسيًا من العوامل أو المتغيرات الفاعلة المؤثرة في الظواهر السلوكية والاجتماعية ، وأعني بذلك المتغيرات الروحية والاعتقادية التي يظن العلماء (للأسباب التاريخية التي شرحناها آنفًا) أنه لا يصح إدراجها ضمن المتغيرات التي تتعرض لها دراستهم « العلمية » .

ولو أننا تأملنا التفسير الأول فإننا نجد أنه يصعب قبوله كأساس وحيد لتفسير الحالة الراهنة لنظريات العلوم الاجتماعية ؛ وذلك على أساس أنه مهما ازداد عدد الحقائق الإمبيريقية والتعميمات المستمدة منها في اتجاهات خاطئة أصلًا ، فإن ذلك لن يقربنا إلا قليلًا من فهم وتفسير السلوك الإنساني والعلاقات الاجتماعية ما دامت بحوثنا مستمرة في السير في الاتجاهات التي اتخذتها تقليديًا ؛ وذلك لسبب بسيط يتمثل

في أن تطور العلم والمنهج العلمي تاريخيًّا في الاتجاهات التي سبق توضيحها يعتبر السبب الرئيسي في تخلف العلوم الاجتماعية نتيجة لما رأيناه من تضييق لنطاق الظواهر التي تدخل بطريقة مشروعة في نطاق « العلم » وفقًا للتصور أو التوجه التقليدي السائد الآن ، ذلك التصور الذي يقوم على اتخاذ قرار واعٍ ومقصود باستبعاد العوامل الروحية المتعلقة بصلة الإنسان بخالقه من نطاق الدراسة العلمية ، مع أن هذه العوامل قد تكون أهم المتغيرات المفسرة للسلوك الفردي والعلاقات الاجتماعية كما سنرى فيما بعد .

ثم إننا لو تأملنا التفسير الثاني الذي يرد المشكلة إلى صعوبات القياس والتحكم ، فسنجد أنه – أيضًا – ليس تفسيرًا كافيًا للضعف النظري المزمن في العلوم الاجتماعية ، لأنا مهما تمكنا من زيادة درجة دقة المقاييس المستخدمة ، ومهما أضفنا متغيرات أخرى لم تخضع من قبل للدراسة بعد أن يصبح قياسها ممكنًا ، فإن قدرتنا على الفهم والتفسير لن تزيد إلا قليلًا ؛ والسبب في ذلك أننا مهما تقدمنا في قياس متغيرات تنتمي إلى التوجه التقليدي المادي للعالم الطبيعي ، وتترسم خطى توجهاته الأيديولوجية فإننا سنظل أسرى ذلك التوجه التقليدي ، ولن يؤدي هذا إلى اتجاه جهودنا البحثية في الاتجاه الصحيح على الوجه المبين آنفًا .

ومن هنا فإنه لا يتبقى أمامنا إلا التفسير الأخير الذي يبدو أنه يصدق جملة وتفصيلًا على الموقف الراهن في محيط العلوم الاجتماعية ؛ إننا في هذه العلوم ننطلق (عن قصد أو عن حسن ظن) من منطلقات معادية للوحي ، ولكل ما يتصل باللّه واليوم الآخر تلك المنطلقات التي انبثقت في إطار ظروف تاريخية ومكانية معينة ، وارتبطت بها ارتباطًا وثيقًا (سبق شرحها في الفصل الأول) ، وبناءً على ذلك ، فإننا قد أهملنا مهمة أحد المصادر الأساسية (هل نقول المصدر الأساسي ؟) التي يمكن أن توجهنا إلى متغيرات مهمة يؤدي أخذها في الاعتبار حتمًا إلى زيادة قدرتنا على فهم وتفسير الظواهر الاجتماعية ، والتنبؤ بها والتحكم فيها وتغييرها .

إن استمساك بعض العلماء وبعض الهيئات العلمية اليوم بذلك الموقف المعادي للدين والوحي لم يعد له ما يبرره – علميًّا !! – بعد التطورات الحديثة في العلوم البيولوجية وفي فهم الطبيعة الإنسانية التي بدأت تتراكم نتائجها منذ أوائل السبعينات الميلادية من هذا القرن ، والتي أدت إلى ثورة شاملة في فلسفة العلم على الوجه الذي نبينه بعد قليل ، ولم يعد ذلك التمسك بالقديم ذا وظيفة مفيدة لتقدم العلم ذاته بعد تلك التطورات الحاسمة التي أثبتت خطأ النظرة الوضعية المادية وقصورها عن فهم الظواهر الإنسانية .

يبدو لنا أن أقصى ما نستطيع أن نتوقعه من جانب الكثيرين من علماء الغرب في محيط الاعتراف بالعوامل والمتغيرات – غير المادية – أقصد أنهم إذا حملهم الواقع على الاعتراف بوجودها ، فإنهم يسارعون إلى التأكيد على أنها ليست ذات مصدر متعالٍ عن تلك القوى الطبيعية والكيميائية التي يتكون منها العالم في فهمهم ، وإنما هي عوامل منبثقة تطوريًّا عنها ، وإذا كان سبيري يؤكد أن هذه الاتجاهات المعرفية العقلية الجديدة في علم النفس تفتح الأبواب أمام « التقارب بين الدين والعلم ... إذ إنها عدلت من توصيف العلم للطبيعة البشرية وللذات الواعية وأصلحته بطريقة جذرية » إلا أنه عندما يكشف لنا عما يقصده بالدين ، يتبيَّن لنا أنه يتحدث عن نوع من الدين الإنساني « العام » الذي يستطيع أن يتعامل هو – طبعًا – معه كإنسان غربي في ضوء رفضه لما يقدم له من معتقدات نصرانية ، ويهودية فلا يجد أمامه إلا البحث عن دين يقوم على قيم أخلاقية هدفها – كما يرى – « المحافظة على البقاء للإنسان في هذه الحياة الدنيا » [١] .

تلك هي الصورة التي تقدمها لنا المدرسة « المعرفية – العقلية » في فهم الإنسان ، وهناك – أيضًا – مدرسة أخرى بدأت تجد تأييدًا كبيرًا بين علماء النفس المعاصرين هي المدرسة الإنسانية Humanistic Approach والتي تسير – أيضًا – في خطوط تؤدي إلى نتائج مماثلة ، ويعتبر الاتجاه الإنساني بمثابة ثورة على النزعة المادية الميكانيكية التي سيطرت على النموذج العلمي القديم في فهم الإنسان ، ودراسته الظواهر الإنسانية ، ويوضح عالم النفس إيرفين تشايلد [٢] الخط الأساسي لهذا التوجه ، بأنه يتمثل في النظر للإنسان « كقوة واعية » لا على أنه مجرد حيوان أو آلة ، ويرى أن هذه هي نقطة الانطلاق الرئيسية لهذا المنظور العلمي الجديد للإنسان ، ويضيف آجروس و ستانسيو أن الإنسان في هذا المنظور ليس مجرد رزمة من ردود الأفعال أو الدوافع أو الآليات النفسية ، كما أنه ليس مجرد منتج جانبي لقوى خارجية فاعلة ومؤثرة فيه ، وإنما هو إنسان واعٍ له إرادة يملك حرية الاختيار ، ويملك القدرة على التصرف من أجل تحقيق أهداف ينتقيها بنفسه ، ثم يوضحان أن الأهداف إنما تستند بالضرورة إلى « قيم » ، ومن هنا فإن علم النفس في النظرة الجديدة يشمل دراسة القيم التي توجه السلوك الواعي للفرد ، وينقل المؤلفان عن كارل روجرز تأكيده على ضرورة البحث في « المعاني العقلية والروحية للسلوك » ، ويعلق آجروس و ستانسيو بقولهما : « إن مؤدى ذلك أن حياة

(١) Roger Sperry, op.cit, P.P. 611,612.

(٢) روبرت آجروس ، جورج ستانسيو « مرجع سابق » (ص ٨٦ – ٩٠) .

الإنسان الفكرية وحياته الأخلاقية وحياته الروحية هي حقائق مماثلة تمامًا لحقيقة حياته البيولوجية » ، وينقلان عن عالم النفس رولو ماي قوله أن علم النفس الجديد مفوض من قبل المجتمع للعمل في ملكوت عقل الإنسان وروحه ، ولكن المؤلفين عندما يتعرضان للمقصود بالنواحي الروحية ، يسيران في نفس الخطوط العامة للحضارة الغربية أيضًا ، فيفسران النواحي الروحية بأنها تتصل « بالقيم الأخلاقية والفكرية والجمالية » ، ويوضحان أنها تتضمن المعرفة العقلية والحكمة والمهارة الفنية ، إضافة إلى جميع الخصال المحمودة كالكرم والشجاعة والأمان والطيبة والصدق . ومرة أخرى فإننا نلاحظ حتى عند علماء هذه المدرسة – أيضًا – ميلًا لا يخفى لتجنب الربط بين الجوانب الروحية وبين المعتقدات الدينية خصوصًا فيما يتصل بصلة الإنسان بربه وخالقه ، بالرغم من أن هذين المؤلفين نفسيهما يعترفان – استنادًا إلى النظريات الحديثة في العلوم الطبيعية – في مواضع أخرى من مؤلفهما القيم بوجود إله حكيم وراء هذا الكون ، ووراء القوانين التي تسيِّره ، ولعل السبب في عدم قدرة أولئك العلماء على اجتياز هذه الخطوة المتبقية في طريق الرجوع إلى الحق يكمن – كما رأينا – في التصورات المحرفة والمشوهة للدين في تلك المجتمعات ، كما يكمن في تعدد الديانات في تلك المجتمعات وتبنيها نتيجة لذلك لفكرة التعددية الدينية Pluralism ولمبادئ العلمانية Secularism .

أما العالم المسلم الذي ينطلق من عقيدة صحيحة غير محرفة ، لا يمكنه إلا التسليم بأن معرفة الإنسان وصلته بربه هي محور حياته ، وأنها أهم العوامل المؤثرة على سلوكه ، فكلما كانت معرفة الإنسان باللَّه صحيحة وصلته به قوية كان الاحتمال كبيرًا في أن يأتي سلوكه متمشيًا مع التوجيه الإلهي ، لما فيه صلاحه ، فيعيش في حالة من الطمأنينة والسكينة تتمشى مع أفضل ما يتمناه من يكتبون حول معايير الصحة النفسية والتوافق الاجتماعي في الدنيا قبل أن يرتحل إلى نعيم الآخرة ، وأما إن كانت معرفته باللَّه محرفة أو ناقصة أو مشوهة ، أو كانت صلته باللَّه منقطعة ، فإن الاحتمال كبير في أن يكون أكثر تعرضًا للاضطرابات النفسية والانحرافات الاجتماعية في الدنيا وهو في الآخرة من الخاسرين .

وقد فطن كثير من علماء النفس المسلمين إلى تلك الحقائق وطالبوا باعتبار التطور الروحي والخلقي للإنسان موضوعًا للدراسة النفسية ، فيرى د. عبد الحميد الهاشمي [١]

(١) عبد الحميد الهاشمي « صبغ علم النفس بالصبغة الإسلامية » ، مقال ضمن كتاب : العلوم الطبيعية والاجتماعية من وجهة النظر الإسلامية ، إعداد د . إسماعيل الفاروقي ، د . عبد اللَّه عمر نصيف ، ترجمة د. عبد الحميد الخريبي (جدة : شركة مكتبات عكاظ ، ١٩٨٤م) (ص ٩٦ ، ٩٧) .

أن الإنسان بفطرته كائن حي يتأمل ويتأمل ويعتقد ويؤمن ، وهو قادر على أن يدرك عن يقين وجود اللَّه تعالى ووحدانيته ، ويدرك أهمية طاعة اللَّه ﷻ ، ومن هنا فإن من الضروري دراسة هذا الجانب الروحي في الإنسان لبيان طبيعته ، ومراحل تطوره ، وعوامل صحته وانحرافه ، ثم يرد على حجة من زعموا عدم إمكان دراسة الجوانب الروحية للإنسان دراسة علمية بأن جهل علماء الطبيعة بجوهر الكهرباء والمغناطيسية لم يمنعهم من دراسة آثارها ؛ كالحرارة والحركة والضوء ، كما أن علماء النفس يدرسون الذكاء والعاطفة عن طريق دراسة آثارها وعواملها مع الجهل بطبيعتها أو جوهرها ، ثم يصل إلى : « أن نفس الشيء صحيح بالنسبة للجانب الروحي من التكوين النفسي للإنسان ، فعلماء النفس ليسوا في حاجة إلى دراسة حقيقة القيمة والروح وجوهرها بل إلى ظواهرها في حياة الإنسان » ، أما الدكتور مالك بدري فإنه يقرر من واقع دراسته التطبيقية « أنه من الواضح أن الإسلام كأسلوب للحياة يلعب دورًا رئيسيًّا للغاية في التطور العاطفي والاجتماعي والشخصي للإنسان المسلم ويرى أن استمرار علماء النفس المسلمين في استخلاص نظرياتهم وممارستهم من علماء النفس غير المسلمين يعتبر مأساة ، وأن النظر للجوانب الروحية على أنها غير ذات بال في فهم السلوك يعتبر فهمًا غير علمي أو على الأقل غير منصف »[1] .

فإذا انتقلنا إلى مهن المساعدة الإنسانية وخصوصًا العلاج النفسي والخدمة الاجتماعية ، لوجدنا توازيًا بين الاتجاهات المهنية السائدة فيها وبين ذات الاتجاهات المتصارعة في العلوم الاجتماعية التي تستند إليها القاعدة العلمية لتلك المهن ، وإذا كنا قد وجدنا أن العلوم الاجتماعية قد حذت في دراستها للإنسان حذو العلوم الطبيعية وتأثرت بتلك العلوم أولًا في اتجاهها المادي الميكانيكي القديم ، ثم أخيرًا في منظورها العلمي الجديد ، فإننا سنلاحظ أن العلاج النفسي والخدمة الاجتماعية أيضًا قد سار كل منهما على نفس نهج تلك العلوم ، فاتخذت في منظورها التقليدي القديم توجهًا علمانيًّا خالصًا يستبعد الدين بالكلية من عملية المساعدة ، ثم اتجهت بعض الكتابات فيها أخيرًا على استحياء للمطالبة بعلاقة أوثق مع الدين ، وبأخذ العوامل الروحية في الاعتبار عند تقديم المساعدة .

فإذا بدأنا بالعلاج النفسي ، فإننا سنجد مباشرة أن كلًّا من السائرين على نهج

(١) مالك بدري « مدمن الكحول : هل يستطيع الإسلام إنقاذه ؟ » مجلة المسلم المعاصر العدد ٣٢ أغسطس – أكتوبر ١٩٨٢م) (ص ١٢٩ ، ١٣١) .

مدرسة التحليل النفسي أو المدرسة السلوكية يتخذون بالتبعية نفس المواقف المعادية للدين والعوامل الروحية التي تتخذها تلك المدارس ، كما يتمثل ذلك في أقوال روادها ، فبالنسبة للمدرسة الأولى نجد فرويد يقرر : « أن الأديان ينبغي أن تصنف باعتبارها وهمًا من أوهام الجماهير » [١] وأنها نشأت من حاجة الإنسان لحماية نفسه من قوى الطبيعة الساحقة ، وهكذا فإن الإنسان في زعمه هو الذي يخلق اللّه وليس العكس ! ومن هنا فإن الدين في رأيه هو نوع من الطفولية Infantilism التي لا بد أن يتجاوزها الناس يومًا ما ، أو أنه نوع من المرض النفسي يقول دوهرتي : « إن فرويد قد اعتبر الدين مرضًا عصابيًا ؛ لأنه كان بالنسبة له يمثل نكوصًا إلى مرحلة طفولية ... (وذلك من منطلق) أن الإنسان الراشد الذي لا يستطيع التعامل مع مشكلاته بطريقة عقلانية يصيبه النكوص إلى مستوى الدفاعات الطفولية ... وهذا هو السبب في أن فرويد يرى أن الدين بذلك يعتبر العصاب الوسواس العام للبشر جميعًا » [٢] .

وإذا كان هناك من انشقوا على فرويد وخالفوه في الرأي حول هذه القضية (إضافة إلى غيرها) مثل يونج ، فإن آراءهم لم يتح لها نفس الدرجة من القبول في الأوساط العلمية بسبب شيوع الروح المعادية للدين في تلك الأوساط كما بينا ، وذلك بالرغم من أن يونج قد عبر عن آرائه المناقضة تمامًا لآراء فرويد في الموضوع بكل وضوح وقوة ؛ حيث يقرر : « أن الدين أبعد ما يكون عن أن يعتبر مرضًا عصابيًا ، وادعى أنه لم يحدث أبدًا أن جاءه مريض بالأمراض العصابية إلا وكان سبب مرضه هو بعده عن الدين ، كما أنه لم يعالج مريضًا قط إلا وكان شفاؤه بسبب عودته للدين » . ولكن يونج كان يردد دائمًا أنه عالم نفس أمبيريقي ، ولم يظهر التزامات نحو أي دين معين مما دعا البعض إلى الظن بأنه من اللادينيين أو حتى من الملاحدة . إلا أنه فقط يسجل الواقع المشاهد أمامه [٣] .

أما مؤسس السلوكية جون واطسون فكان يرى أن جسم الإنسان هو « الحقيقة الوحيدة » ، وأن سلوكه وليس وعيه هو الموضوع الصحيح لعلم النفس ، وكان يقول : « إن الناس مستعدون للاعتراف بأنهم حيوانات ، غير أنهم يريدون أن يضيفوا إلى ذلك شيئًا آخر يخلق المشاكل ، ويندرج تحت هذا « الشيء الآخر » عنده كل ما يعرف بالدين والحياة بعد الموت والأخلاق » .

---

(١) آجروس وستانسيو ، مرجع سابق (ص ٥٨ ، ٥٩) .

(٢) E.F, O'Doherty, Religion and Phsychology, (New York: Alba House) P.6.

(٣) Ibid, PP. 15,16.

والحقيقة العارية في رأيه أن على عالم النفس أن يصف سلوك الإنسان بعبارات لا تختلف عن تلك التي تستخدم في وصف سلوك الثور الذي ننحره [١] . ولا زالت هذه الاتجاهات المعادية للدين منتشرة على نطاق واسع بين « المشتغلين بالعلاج النفسي » ولكن البندول ينطلق الآن في الاتجاه المضاد – كما يقول آلين بيرجين في مقاله الجيد عن العلاج النفسي والقيم الدينية [٢] – ينطلق في اتجاهات تبتعد عن النزعات الطبيعية والغنوصية (اللا دينية) والإنسانية (التي تقدس الإنسان) التي سيطرت على علم النفس معظم هذا القرن بعد أن فقد العلم « سلطانه القديم كمحتكر للمعرفة الحقة بعد ما تبين أن العلم ليس إلا نتاجًا ثقافيًا حدسيًا محملاً بالقيم » ، وقد فتح هذا الطريق أمام أنواع من الدراسات للظواهر المتصلة بالوعي والإدراك الذهني التي مهدت الطريق بدورها أمام النظر في إمكانية دراسة القوى الروحية المؤثرة في السلوك الإنساني رغم عدم خضوعها للملاحظة في الوقت الحالي .

وقد استعرض بيرجين افتراضات كل من الاتجاهين الرئيسيين الغالبين اليوم في العلاج النفسي ؛ وهما : الاتجاه الذي أسماه بالنفعية الإكلينيكية Clinical Pragmalism الذي يتبنى قيم الثقافة السائدة في المجتمع (الغربي) دون تمحيص ، وتقتصر مهمته على مساعدة العملاء على التوافق معها ، والاتجاه الذي أطلق عليه المثالية الإنسانية Humanistic Idealism والذي يتبنى قيمًا إصلاحية تركز على مساعدة العميل وتحقيق ذاته ، ثم أوضح بيرجين أنه رغم اختلاف هذين الاتجاهين إلا أن موقفهما من الدين واحد فقال : « إن كلًا من الاتجاهين النفعي والإنساني يبدي عدم اكتراث نسبي باللّه ، وكذا بعلاقة البشر باللّه ، ولا يرى إمكانية وجود تأثير للعوامل الروحية على السلوك وبهذا فإنهما يستبعدان ما يعد واحدًا من أكبر الأيديولوجيات الفرعية في المجتمع وأقصد بذلك التصورات الدينية الإيمانية التي يعتنقها المؤمنون باللّه ، ويحاولون في إطارها توجيه سلوكهم وفقًا لما يدركون أنه قد شرعه لهم ... ورغم ما للقيم التي تقوم عليها الاتجاهات النفعية والإنسانية من فائدة كبيرة إلا أنها أيضًا غالبًا ما تصبح سببًا في تدهور المجتمع » ، وفي ضوء هذا التحليل فإن بيرجين يدعو رجال العلاج النفسي إلى تبني اتجاه ثالث بديل يطلق عليه الواقعية الإيمانية Theistic Realism وهو اتجاه يراه ضروريًا لتحقيق

---

(١) آجروس و ستانسيو ، مرجع سابق ، (ص ٨٣ – ٨٥) .

(٢) Allen Bergin, ‘‘Religiosety and Mental Health’’ Professional Phsychology, Vol. 14, No . 2, 1983, p. 170 .

فاعلية العلاج مع الأشخاص المتدينين من جهة ، كما يراه محققًا لبعث الحياة في المجتمع ككل من جهة أخرى .

ويوضح بيرجين المسلمات التي يستند إليها هذا الاتجاه البديل فيقول [١] : « إن أول وأهم تلك المسلمات هي أن اللَّه موجود ، وأن البشر هم من خلق اللَّه ، وأن هناك عمليات روحية غير منظورة يتم من خلالها الارتباط بين اللَّه والناس » ثم يعقد للتوضيح مقارنة بين قيم الاتجاه الإيماني من جهة وبين قيم الاتجاهين الآخرين (الإكلينكي والإنساني) من جهة أخرى ننقلها هنا لأهمية دلالاتها :

قيم الاتجاه الإيماني (البديل)	قيم الاتجاهين التقليديين
١ - اللَّه قوي (متعال) ولذلك فإن التواضع والخضوع لعظمته ، والطاعة لأوامره تعتبر من الفضائل .	الإنسان متعال - تمجيد الذات - الحرية ورفض السلطة الخارجية فضائل .
٢ - هوية الإنسان الشخصية خالدة ومصدرها اللَّه ، والعلاقة باللَّه هي التي تحدد قيمة الذات .	هوية الإنسان في هذا الوجود عارضة زائلة - العلاقة بالآخرين زائلة - العلاقة بالآخرين هي التي تحدد قيمة الذات .
٣ - ضبط النفس في إطار قيم مطلقة - الالتزام الأخلاقي الصارم - أخلاقيات عامة .	التعبير عن الذات في إطار قيم نسبية - أخلاقيات مرنة - أخلاقيات موقفية .
٤ - الحب والعطف والاستعلاء على الذات أمور أساسية - خدمة الغير والتضحية بالذات محور النمو الشخصي .	الحاجات الشخصية وتحقيق الذات أمور أساسية - الرضا عن الذات محور النمو الشخصي .
٥ - الالتزام والولاء والوفاء في الزواج - التأكيد على الإنسان وحياة الأسرة كعوامل تؤدي إلى التكامل .	الزواج المفتوح أو عدم الزواج - التأكيد على الإشباع الذاتي أو النظر للجنس كنوع من الترويح دون مسؤوليات على المدى البعيد .

(١) Allen Bergin, "Phsychotherapy and Religious Values" Jounal of Consulting and Clinical Phsychology, Vol. 48, No. 1, 1980, P. 95-105 .

obeikandi.com

٦ – المسؤولية الشخصية عن الأفعال التي تضر بالغير ، والمسؤولية عن تعديل السلوك – القبول بالشعور بالذنب والمعاناة والتوبة كأساس للتغيير – رد المظالم لأصحابها ضروري .	الآخرون مسؤولون عن مشاكلنا وعن التغيير الحادث فينا – تقليل الشعور بالذنب إلى أقصى حد ، وتخفيف المعاناة دون إدراك مغزاها – الاعتذار عن المظالم .
٧ – المغفرة لمن يسببون لنا الآلام (بما في ذلك الأبوان) تستكمل عملية استعادة الذات في العلاج .	القبول بالمشاعر المتهمة للآخرين والتعبير عنها كافيان .
٨ – التوصل للمعرفة من خلال الإيمان وبذلك الجهد الذاتي – المعاني والأهداف تستمر من البصيرة الروحية – المعرفة العقلية لا يمكن أن تنفصل عن الجوانب الوجدانية والروحية .	التوصل للمعرفة بالجهد الذاتي وحده ، المعاني والأهداف تستمد من العقل والمنطق – المعرفة العقلية هدف لذاتها – عزل العقل عن بقية جوانب الحياة .

ومن الواضح أن بيرجين يدعو إلى ما يشبه أن يكون إعادة نظر شاملة ، وحقيقية في ممارسة العلاج النفسي في الاتجاهات التي يظن أنها يمكن أن تعتبر خطوات في الاتجاه الصحيح .

أما بالنسبة للخدمة الاجتماعية فإنها أيضًا – وفي إطار سعيها للحصول على مكانة مهنية محترمة كبقية المهن الأقدم منها عهدًا – فقد تعمدت إغفال الجوانب الروحية والدينية في ممارستها بصفة عامة حتى تتخذ سمتًا مهنيًا عامًا يمكن معه تطبيقها مع كل الأجناس والأديان ، مستبعدة بذلك الدين بالكلية ، رغم أن الخدمة الاجتماعية – كما يقرر فيلسوف الخدمة الاجتماعية الشهير فرانك برونو – هي أقرب المهن إلى الدين حيث يقول : « رغم أن الدين هو أقرب النظم الاجتماعية التصاقًا من حيث الهدف بالخدمة الاجتماعية ، فإن الأخذ والعطاء بينهما كان أقل كثيرًا مما هو بين الخدمة الاجتماعية ، وغيرها من المهن »[١] ، وتتفق الخدمة الاجتماعية في موقفها هذا المتباعد عن الدين مع غيرها من مهن المساعدة الإنسانية عمومًا ، كما يرى جوزيف هيس إذ يقرر أن مهن المساعدة الإنسانية الحديثة تكاد تهمل الجانب الروحي من الوجود الإنساني جملة وتفصيلًا ، فتحيل هذا الوجود إلى مجرد تفاعل بين القوى الغريزية

(١) Martin Marty, "Social Service : Godly and Godless" Social Service Review, Dec. 1980,P. 470 .

(متابعة لفرويد) والحاجة للحصول على القوة (متابعة لأدلر) [١] .

ولكن العديد من الشواهد قد بدأت تشير الآن إلى اهتمام متنامٍ بالجوانب الروحية والدينية في الخدمة الاجتماعية في الولايات المتحدة الأمريكية اليوم ، كما يقرر ذلك إدوارد كاندا في مقاله القيم الصادر عام ١٩٨٨م عن « تنوع التوجهات الدينية والروحية وممارسة الخدمة الاجتماعية » [٢] ؛ حيث يشير إلى ظهور عدد كبير من المقالات والكتب ، وإلى عقد المؤتمرات في السنوات الأخيرة حول مختلف جوانب العلاقة بين الدين والخدمة الاجتماعية ، كما يشير بصفة خاصة إلى أن إسهام ماكس سيبورين ، وأيرين براور في توضيح معنى الجوانب الروحية بشكل عام يمكن أن ينطبق على الكثير من الديانات والمذاهب ، حيث يقرران أن الجوانب الروحية « تتضمن الأنشطة الإنسانية المتصلة باتخاذ القرارات الموجهة أخلاقيًا ، والبحث عن معنى وهدف للحياة ، والسعي للتوصل إلى علاقات متبادلة مشبعة بين الأفراد والمجتمع والحقيقة المطلقة Reality Ultimate أيًا كان تصورها » ، وبطبيعة الحال فإن معنى « الحقيقة المطلقة هو « اللَّه » عند المؤمنين باللَّه » [٣] ، وهذا الاتجاه يفتح المجال أمام تجاوز العقبة الكؤود التي أعاقت إجراء البحوث في هذا المجال في الولايات المتحدة ؛ بسبب التعددية الدينية وعدم إمكان إقرار توجه ديني واحد يمكن أن تنطلق منه البحوث .

غير أن فسنتيا جوزيف تشكو من أنه حتى الآن لم يتم إعطاء العوامل الروحية والدينية ما تستحقه من اعتبار في التنظير للخدمة الاجتماعية ، رغم أن المهنة تنظر للإنسان بطريقة كلية Holistic ، كما تقرر أن ديناميات تفاعل العامل الديني مع بقية عوامل الشخصية في مختلف مراحل العمر ، وكذلك تأثير الدين كعامل من عوامل مواجهة المواقف العسيرة في الحياة Goping جديران بدراسة أعمق ، وهي تعرِّف الدين تعريفًا عامًّا – أيضًا – ليشمل كل الديانات والمذاهب على أنه « التعبير الخارجي (أو الظاهر) عن العقيدة » ثم توضح ما تقصده بالعقيدة على أنها « المعتقدات الداخلية والقيم التي تربط بين الشخص وبين قوة أسمى أو بينه وبين اللَّه » .

---

(١) Joseoh Hess , op. cit., P . 62 .

(٢) Edward Canda "Spirituality,Religous Diversity, and Social Work Practice" Social Casework, April 1988, P. 238; See also.

(٣) James Midgley et al "Social Work Religion, and The Global Challenge of Fundamentalism" International Social Work,Vol . 32.1989, P. 276 .

ثانيًا : دعوى الموضوعية والحياد القيمي :

رأينا في المبحث الأول كيف أن الظروف التاريخية والثقافية والاجتماعية الخاصة التي نشأ في ظلها العلم الأوربي الحديث وتطور قد أدت في النهاية إلى صياغة نظرية المعرفة التقليدية (الأبستمولوجيا) واتجاهات تنأى بالعلم وترتفع به عن أن يكون له أدنى صلة بالتصورات الدينية السائدة في الحضارة الغربية في اتجاهات تحصر اهتمام العلم في الظواهر التي يمكن مشاهدتها بالحواس ، والتي تتوقف بالتالي عند دراسة ما هو كائن وواقع دون إعطاء أي مشروعية علمية لتقويم هذا الواقع .

ورأينا أن مؤسس علم الاجتماع في صورته الحديثة أوجست كونت قد كان هو في الوقت ذاته مؤسس الاتجاه الوضعي الذي ارتبط « بالدعوة إلى تحقيق الموضوعية العلمية في مجال الإنسانيات تمامًا كما تم تحقيقها في مجال الطبيعيات ؛ حيث اعتبرت الوضعية ابتداءً أن ارتباط العلم بالأخلاق والقيم من مخلفات القرون الوسطى ولقد فصل رواد علم الاجتماع الأوائل بين ما يسمونه أحكام الواقع وأحكام القيم فقد كانت القيم تمثل في نظر علماء الاجتماع أخطر عائق في سبيل تقدم البحث العلمي ، حيث اعتقدوا أن البحث العلمي لا بد وأن يكون بحثًا محايدًا ومجردًا من كل القيم والمعايير الأخلاقية » [١] .

وجاء ماكس فيبر الذي نسج أو نُسجت حول كتابته خرافة أن « العلوم الاجتماعية ينبغي ويمكن لها أن تلتزم بالحياد القيمي Free – Value » على حد تعبير ألفين جولدنر في مقاله الشهير الذي هاجم فيه بعنف « خرافة علم الاجتماع المتحرر من القيم » [٢] ، والذي أكد فيه أن الفكرة الشائعة عن إمكان وجود علم اجتماع محايد قيميًا مستحيلة وسخيفة Absurd ، وتساءل جولدنر عما يعنيه علماء الاجتماع عندما يتحدثون عن العلم الملتزم بالحياد القيمي قائلًا : هل يقصدون أنه « بالفعل » متحرر من القيم أم أنه « ينبغي » أن يكون كذلك ؟ هل يريدون لعلماء الاجتماع ألا يكونوا مبالين بالنتائج الأخلاقية المترتبة على بحوثهم ؟ أم يرون أن بإمكانهم إصدار الأحكام القيمية بشرط عزلها عن الأحكام الواقعية ؟ هل يقصدون أن على عالم الاجتماع ألا يتخذ المبادرة لكي يبين (بناءً على خبرته)

---

(١) محمد أمزيان « تلازم الموضوعية والمعيارية في المتودولوجيا الإسلامية » ندوة قضايا المنهجية في الفكر الإسلامي – قسطنطينة ، الجزائر ، سبتمبر ١٩٨٩م ، جامعة الأمير عبد القادر لعلوم الإسلام ، ص ١ .

(٢) Alvin Gouldener"Anti - Minotaur: The Myth of a Value - Free Sociology For Sociloly: Renewal and Critique in Sociology Today, Penguin Books, 1973 .

لغير المتخصصين ، خطأ بعض الآراء التي يعتنقونها دون تمحيص ؟ أم يقصدون أن عليه أن يلتزم الصمت فلا يتكلم إلا عندما يدعى للكلام عن النتائج المترتبة على بعض السياسات العامة في الأمور التي تقع في نطاق اختصاصه ؟ ... إلى غير ذلك من التصورات التي تبدو من تحليل كتاباتهم .

ثم يسير إلى أن الكثيرين من علماء الاجتماع – ممن يؤمنون بأن هذا العلم محايد قيميًا – يقصدون أشياء مختلفة جدًا عن بعضها ، ويلتزمون بتلك التصورات دون تمحيص جاد للأسس التي تقوم عليها تصوراتهم ، ويوضح أن فيبر نفسه لم يكن يمانع في التعبير عن القيم إذا تحرر الباحث من الخلط بينها وبين الحقائق ، كما أنه كان أكثر اهتمامًا باستبعاد القيم « السياسية » أكثر من استبعاد القيم « الدينية أو الجمالية » .

ويكشف لنا جولدنر عن الأسباب التي كانت وراء دعوة فيبر نفسه إلى أن يتصف علم الاجتماع بالحياد القيمي ، قائلًا : « إن هذه الدعوة كانت بمثابة عقيدة شخصية جدًا لدى فيبر ، وأنها كانت نابعة من ظروف معينة عايشتها الجامعات الألمانية وأساتذتها في تلك الفترة وعاشها علم الاجتماع كعلم ناشئ » [١] ، ولكن هذه الدعوة كما يقول ، قد تحولت عند علماء الاجتماع اليوم إلى جواز مرور شكلي فارغ من المضمون يتذرع به الباحث للتوقف عن التفكير الجاد ، ثم يوضح أنه إذا كان هذا الموقف قد أفاد علماء الاجتماع بتحريرهم من الاندفاع القهري وراء القيم الأخلاقية للثقافة المحلية التي يعيشون في إطارها ، إلا أنه – من جانب آخر – قد أدى بهم إلى نوع من « اللا مبالاة الأخلاقية واللا معيارية الفاقدة للاتجاه » .

غير أن جولدنر يرى أن « المذهب الذي يؤمن بأن علم الاجتماع ينبغي أن يكون محايدًا قيميًا إنما هو الامتداد الحديث للصراع القديم بين الدين والعقل ، ولقد نشأ هذا المذهب ولا زال يعيش على الاتجاهات التي سادت القرن الثالث عشر الميلادي ؛ لإيجاد فواصل أو حواجز بين الدين والعقل لحفظ السلام بينهما ... إن مذهب فيبر حول علم اجتماع متحرر من القيم إنما يخلق هوة بين العلم والقيم ، وينطلق من نفس الطريق الذي سلكه سابقوه ممن حرصوا على إبقاء كل من الدين والعلم في مجال منفصل عن الآخر » [٢] .

وإذا كان جولدنر قد ألقى الأضواء « التاريخية » على أصول الدعوة إلى علوم اجتماعية محايدة قيميًا ، كما بَيَّن العوامل « الشخصية والمهنية » التي أفرزتها عند فيبر

(١) يمكن الرجوع لتفصيلات تلك الظروف في مقال جولدنر (ص ٦ – ١١) .

(٢) Gouldner, op. cit., P. 20 - 21 .

وعند من تابعوه بعلم أو بغير علم ، إلا أن التحليل الواقعي لكتابات علماء الاجتماع يكشف لنا – من جهة أخرى – أنهم لم يلتزموا « واقعيًا » بما كانوا يدعون إليه نظريًا من تمسك بالحيدة العلمية بإزاء القيم والثقافة ، بل كانوا جميعًا يؤكدون على سيادة وتفوق النمط الغربي ثقافيًا وسياسيًا واجتماعيًا وسلوكيًا وأخلاقيًا ، مما يجعل حيادهم القيمي محل تساؤل شديد ، ويشير وليان فروينـد إلى أن ماكس فيبر يكاد لا يرى أصالة أو تفردًا أو عقلانية إلا في الغرب والغرب وحده ، حتى وصل به الحال إلى التساؤل عما إذا كانت تلك الأصالة راجعة إلى صفات وراثية عندهم !

أما دور كايم فإنه كما يقول رايموند آرون : « قد سخر علم الاجتماع لأهداف إصلاحية تقوم في جوهرها على أسس علمانية وإلحادية ومادية بقصد إحداث تغيرات عميقة داخل البنية الاجتماعية والثقافية الغربية ، ولم يمنعه التزامه العلمي من التصريح بأن علم الاجتماع لم يكن ليستحق ساعة من الاهتمام إذا لم يمكنا من تحسين المجتمع » ، ومن الواضح أن أية نظرة إصلاحية إلى المجتمع وأية محاولة في سبيل تغيير الوضع القائم نحو نموذج اجتماعي أمثل لا بد وأن تتم في ضوء معايير تعبر عن قناعة الباحث الاجتماعي وتستجيب للغايات التي تهدف إليها [١] ، فهل يمكن والحال هذه أن نتحدث عن حياد قيمي عند هؤلاء ؟ أم يكون الأوفق أن نتحدث عن تمركز ذاتي حضاري Ethnothentrism يعمي ويصم .

وماذا كانت نتيجة ذلك الحياد القيمي المزعوم ؟ يقول محمد أمزيان : « لقد كان لهذا التوجه المنهجي الذي سارت فيه الوضعية ، نتائج خطرة على المستوى الاجتماعي والأخلاقي ، فلم يعد الأمر يقتصر على تجاهل القيم الاجتماعية واستبعادها من مجال الدراسة وحسب ، بل إن هذا الفصل المنهجي أدى إلى تبرير الواقع الاجتماعي الفاسد بالتأكيد على القيم السائدة أيًا كانت طبيعتها ، وبغض النظر عن سلبياتها وإيجابياتها ، إن استبعاد النظرة المعيارية النقدية من مجال الدراسة معناه قبول هذا الواقع كما هو (ما دام) السبيل الوحيد إلى إدراك حقيقة المجتمع هو استقراء المحسوس كما (يتبدى) في سلوك الناس وتصرفاتهم ، والقيم السائدة في وسط اجتماعي ما – حسب الوضعية – تعبر عن ظواهر صحية وسليمة ؛ لأنها تعبر عن رغبات المجتمع واتجاهه الأخلاقي .. فالمقياس الذي تتحدد وفقه المثل الاجتماعية يتحدد وفق ما هو موجود وشائع بين الناس » [٢] ، ويضيف

(١) محمد أمزيان ، مرجع سابق (ص ٦ – ٨) .

(٢) المرجع السابق (ص ٢٠) .

إسماعيل الفاروقي إلى ذلك قوله : « إن التطهير المتعمد للعلوم الاجتماعية من جميع اعتبارات القيم الجوهرية قد جعلها عرضة للتأثر بأية قوة تتعرض لها ، وكانت النتيجة لذلك هي استحواذ الحقائق الواقعية لأي مجتمع على المقدرة لتكوين المعايير الخاصة به » [١] .

وبلغة أخرى فإننا إذا أعطينا السلوك الواقعي والقيم الاجتماعية الحاضرة التي تمت دراستها واقعيًا في مجتمع ما الصلاحية لتكون المعيار النهائي للحكم على الصواب والخطأ ، وإذا عرفنا أن من يملكون القوة في المجتمع يكون لهم قدرة أكبر للتأكيد على معايير وقيم تصبح « هي » المعايير والقيم السائدة ، أدركنا أننا من هذا المنظور إنما نكرس الوضع الراهن دون أدنى أمل في الخروج نقديًا من إساره في ضوء أي معايير ذات صدق خارجي ، سواء كنا على وعي بذلك أو لم نكن واعين به ، كما أن هذا يفتح الباب من جهة أخرى أمام الداعين إلى « مذاهب النسبية والتشكك والذاتية » مما يبطل أثر العلوم الاجتماعية ويفسد قوة الإيمان والعقيدة والخير والواجب في تقدير مسارات الحياة والتاريخ [٢] .

ولعل المثال التالي من العلوم السياسية يقدم لنا استبصارًا أكبر بالقضية على اعتبار أن السلوك السياسي يتعامل مع حقائق الحياة اليومية الملموسة في ضوء الصراع أو الموازنات بين القيم ، ومن هنا تتبدى قضايا العلوم الاجتماعية في نطاق ظواهره بوضوح أكبر ، يقول رشيد موتن [٣] : « إن العلوم السياسية في العالم الغربي بكل تأكيد ليست محايدة قيميًا ، ورغم أن معظم رجال العلوم السياسية الغربيين يتخذون سمتًا يبدو في ظاهره كالتزام صارم بالحياد القيمي ، فإنهم يؤكدون (من جهة أخرى) على قدسية الديمقراطية الليبرالية الغربية التي تتوقف اهتماماتها عند الربح ، وتحقيق أقصى ربح ممكن » وينقل عن كريستيان باي قوله : « إن المعارف التي يتم التوصل إليها في دراساتهم تكون منصهرة بشكل خفي مع الشخصية والتوجه العام للحضارة الغربية ، مما يترتب عليه أن الآخرين يأخذون تلك المعارف بكاملها دون وعي منهم ، مسلِّمين بأنها تمثل معرفة علمية خالصة في ذاتها » .

وإذا كان انصهار النموذج العلمي القديم يدعو بإلحاح إلى بناء العلم على ما يرون أنه

---

(١) د . إسماعيل الفاروقي « صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية » مجلة المسلم المعاصر ، العدد٢٠ ، ١٤٠٠هـ (ص ٣٤) .

(٢) نفس المرجع السابق .

(٣) A. Rashid Moten "Islamization of Knowledg: Methodology of Research in Political Science" American Journal of Islamic Social Sciences, Vol. 7, No 2, 1990 P. 170 .

« حقائق » واقعية إمبيريقية فقط ، ولا يرون أي مكان في صرح العلم للقيم أو المسلمات التي لم يتم التحقق من صدقها بالرجوع إلى الواقع المحسوس ، فإن هذا التصور يتناقض مع واقع العلم الحديث نفسه الذي يقوم على « تأكيدات قيمية على مسلمات غير علمية Nonscientific » على حد تعبير وليام و جود و بول هات [١] ، حيث يشيران إلى أن العلم يقوم على المسلمات الآتية التي لا يمكن إثباتها علميًا :

١ – أن العالم « موجود » .

٢ – أن بإمكاننا « معرفة » العالم .

٣ – أن « الحواس وحدها » هي طريقنا إلى معرفة العالم .

٤ – أن الظواهر مرتبطة ببعضها ارتباطًا « سببيًا » .

ومن الواضح أن تقسيم العمل الحديث قد أدى إلى أن تقع مناقشة مثل تلك القضايا الأشمل والتي تتحكم في الإطار الذي يعمل في نطاقه العلماء في نطاق عمل المتخصصين في فلسفة المعرفة (الأبستمولوجي) ، أو فلسفة العلم ، أو علم العلم ، في حين يظل الباحث الغارق إلى أذنيه في التفاصيل الدقيقة لبحوثه المتخصصة الضيقة ، غير واعٍ بتلك القضايا وغير مهتم بها أصلًا وغير مدرك لدلالتها أو لمغزاها ، بالنسبة لما يقوم به هو من عمل ، وهو يظن أنه يحسن صنعًا وأنه يقف على أرض صلبة ، في حين أنه في الواقع كمن يحرث في البحر أو يعطي ظهره للطريق الذي أعلن أنه ينوي السير فيه .

وإذا كان البعض قد لا يتصور إمكانية الشك « في المسلمات غير العلمية » التي يقوم عليها بناء العلم الحديث في منظوره القديم ، فإن جود و هات يوضحان أنه بالنسبة للمسلَّمة الأولى مثلًا فإن « كل الجهود التي بذلت لإثبات أن العالم موجود قد باءت بالفشل ، بل إنه يمكن في الواقع إنكار وجود العالم على أسس فلسفية » ، ومعنى ذلك أن العلم الذي تقوم أعمدته على التحقق والتطابق مع الواقع ، إنما يقوم هو نفسه على ما لا يمكن التحقق منه ؛ لا لسبب إلا لأننا « نرغب في التسليم بتلك المسلمات » ليقوم صرح العلم .

أما بالنسبة لمسلَّمة إمكانية معرفة العالم أصلًا ، وأن الطريق الوحيد لمعرفة الحقيقة هو استخدام الحواس ، فإنها مسلَّمات تحيط بها الشكوك من كل جانب عند كثير من العلماء ، فأصحاب النظرة العلمية القديمة أنفسهم تشككوا في إمكانية معرفة العالم

---

(١) William Goode and Paul Hatt, Methods in Social Research (New York: Mc Graw-Hill, 1952) P. 20 .

أصلًا ، كما يقول آجروس و ستانسيو [١] ، فالسير فرانسيس بيكون - الذي يعتبر أبًا للعلم الحديث ، وصاحب المنهج الاستقرائي - بدأ « بإثارة الشكوك حول الحواس بصفة عامة » على أساس أن « شهادة الحاسة وما يرد إليها من معلومات ترجع على الدوام إلى الإنسان لا إلى الكون » على حد تعبير بيكون نفسه ، الذي شكك أيضًا في قدرة العقل البشري على إدراك العالم قائلًا : « إن العقل أشد عرضة للخطأ من الحاسة كثيرًا ... فالشيء المؤكد هو أنه مثلما تحرف المرآة غير المستوية أشعة الأجسام تبعًا لشكلها ومقطعها ، كذلك لا يستطاع التعويل على العقل حين يتلقى صوت الأشياء عن طريق الحاسة في أن يكون أمينًا في نقلها ؛ إذ إنه في نقل انطباعاته يخلط بين طبيعته الخاصة وطبيعة الأشياء » ، وإذا كان الإنسان لا يستطيع الثقة بحواسه ولا بعقله ، فعلى أي شيء يعتمد في معرفة العالم ؟ يجيب آجروس و ستانسيو بأن بيكون كأنه قد وجد البلسم الشافي في « التجربة » التي تصحح خداع الحواس حيث يقول : « أنا لا أقيم كبير وزن لإدراك الحاسة المباشر في حد ذاته ، ولكنني أحتال للأمر بحيث تقف وظيفة الحاسة عند الحكم على التجربة ، ثم تقوم التجربة ذاتها بإصدار الحكم .. إن طبيعة الأشياء أيسر كشفًا عن ذاتها تحت ضغط الحيلة البارعة منها وهي تتمتع بحريتها الطبيعية » ، وقد فعل ديكارت نفس الشيء أي « الارتياب في حواسه وعقله تمامًا كما فعل بيكون ، فهو يتساءل ؛ ما الذي يضمن أن أيًّا من أفكاري وأحاسيسي يمثل أي شيء خارج كياني ؟ ولكنه لا يلبث أن يرى أنه لا يستطيع أن يشك في أن أفكاره موجودة ، فحتى لو كانت هذه الأفكار لا تمثل شيئًا خارج نطاق عقله فهي مع ذلك حقيقة .. ومن ثمَّ فهو يقول كلمته المأثورة : « أنا أفكر إذن أنا موجود » ، وعند ديكارت أن « الأنا » هي أدنى إلى اليقين من وجود العالم » .

والآن فإذا رأينا أنه لم يعد هناك من مناص أمام أنصار التوجه العلمي القديم من التسليم بأن العلم ذاته مبني على قواعد ودعائم قيمية وغير علمية Non-Scientific على الوجه الذي شرحه جود و هات ، فإن هنالك اتفاقًا في الرأي بين الجميع على أن القيم يمكن استخدامها لتوجيه خطوة اختيار مشكلة البحث ، أو حتى خطوة وضع الفروض ، ولكنها لا تتجاوز هذه الخطوات لتوجيه الملاحظات ، ولا للانتقاء من بينها في مرحلة التحقق من صحة الفروض ، كما أنه لا خلاف - من زاوية أخرى - على أن القيم ذاتها يمكن أن تكون « موضوعًا » للدراسة والبحث كظواهر ناشئة عن عملية التنظيم

(١) آجروس و ستانسيو ، مرجع سابق (ص ٩٧ - ١٠١) .

الاجتماعي التي يمكن دراستها بطريقة موضوعية ، ولكن موضع النزاع يكمن في استخدامها لتفسير الملاحظات وإضفاء المعنى عليها ، فهنا نجد أنصار التوجه العلمي القديم يعترضون على ذلك أشد الاعتراض ، رغم أنهم يرتضون ما يقل عن ذلك كثيرًا من حيث إمكانية الاعتماد عليه ، كالاعتماد في بناء النظرية على التخمينات ، وما يسمى بالتفكير الإبداعي – مثلًا – على الوجه الذي نفصله في الجزء الثاني من هذه الدراسة .

أما التوجه « الجديد » في العلم فإنه لم يتحدث عن الموضوعية ، وإنما عن « الذاتية المشتركة » Intersubjectivity ، يقول ستانلي سترونج [١] : « إن الإدراك ليس فعلًا سلبيًّا ، ولكنه تأويل إيجابي للواقع الخارجي ، فالواقع ليس شيئًا معلومًا ومسلمًا به ، ولكننا نقوم إيجابيًّا ببنائه (بأنفسنا) ؛ ولذلك فإن إدراك أي منا للواقع إنما هو بالضرورة إدراك ذاتي ومرتبط بالشخص ذاته ، ولكن لما كانت نظرة الجماعة التي ينتمي إليها كل منا تتضمن بعض أوجه الاتفاق والتجانس ، فإن أعضاء كل جماعة يشتركون في رؤية « موحدة نسبيًّا » للعالم وفي تفسير مشترك « للواقع » ، ولا يشترط أن يكون هذا الفهم المشترك للجماعة متطابقًا تمامًا مع الواقع الخارجي ، فالواقع الخارجي – كما يوجد بصرف النظر عن من يدركه – لا يمكن ببساطة أن نعرفه موضوعيًّا ، فالواقع كما يظهر لنا في الرؤية المشتركة يكون ذا صدق ذاتي مشترك Intersubjectively Valid أما عن الصدق الموضوعي فلا يمكن الوصول إليه » .

والواقع أنه حتى لو كان من المقبول أن نتحدث عن الموضوعية والحياد القيمي في العلوم الطبيعية ، فإنه لا يمكن التسليم بذلك النهج في دراسة الإنسان والمجتمع البشري ، « فالمجال الإنساني متصل بعالم القيم والمصالح والغايات ... (ذلك أن) العالم الطبيعي يبحث موضوعات محايدة ، والنتائج التي ينتهي إليها في أبحاثه يتساوى تأثيرها فينا ، وليست لدى الإنسان مصلحة خاصة في تغليب نظرته في العلم الطبيعي على الأخرى (هل يمكننا التسليم حتى بهذا في ضوء التنازع – مثلًا – بين المنادين بنظرية التطور ونظرية الخلق ؟) أما في حالة العلوم الإنسانية فإن الموضوعات التي تتناولها .. والنتائج التي تتوصل إليها تؤثر تأثيرًا بالغًا في قيمنا وغاياتنا ، وتمس مصالحنا واهتماماتنا .. وحين تقترب من المجال الإنساني فإن العلم لا بد أن يتداخل مع المصالح ومع القيم ، ويصبح الحياد والموضوعية التامة أمرًا

---

(١) Stanly Strong "Reflections on Humen Nature, Science, and Progress in Counselung Phsychology", Journal of Counslung Phsychology, Vol. 31,No 4, P. 471 .

عظيم الصعوبة » [١] .

ونضيف إلى ذلك أنه يكون أمرًا غير مرغوب فيه على الإطلاق ؛ لأن الحياة الاجتماعية في أي مجتمع إنما تستند إلى النسق القيمي المعين الذي يرتضيه الناس ، ويختارونه من بين جميع الأنساق القيمية المحتملة والممكنة واللانهائية في تعددها ، فلو سلمنا لكل مجتمع بالصدق الذاتي لنسقه القيمي الخاص لانتهينا إلى نسبية يستحيل معها أي علم اجتماعي ذي طبيعة عامة ، ولو لم نسلم بذلك صراحة ، فإن الواقع الذي نراه في علومنا الاجتماعية اليوم هو التسليم بذلك ضمنًا ، وذلك من خلال فرض رؤية قيمية موجهة لبحوثنا مستمدة من واحد فقط من الأنساق القيمية ، اختارته الحضارة الغالبة في حقبة زمنية معينة ويزعم أصحابه أن له صدقًا مطلقًا ، كما هو الحال مع العلوم الاجتماعية المستمدة من المصادر الغربية اليوم .

وينبني على هذا نتيجة مهمة جدًّا تتمثل في أن أي تصور شامل حقيقي يصلح لكي نرد إليه تلك الأطر القيمية المعيارية النسبية لا يمكن أن يأتي من مصدر بشري (فكل المجتمعات والجماعات البشرية متساوية في نسبية قيمها ، ولا يستطيع أي منها أن يفترض لنسقه القيمي صدقًا عامًّا لمجرد تغلبه الحضاري على غيره) ، وإنما لا بد أن يأتي ذلك الإطار الموضوعي المحايد من مصدر خارج نطاق البشر Extra Human ، أي مصدر إلهي .

ومن هنا نرى أن الخروج من هذا الطريق المسدود الذي سارت فيه العلوم الاجتماعية ردحًا من الزمن – ونقصد بذلك الطريق الذي رسمته خرافة العلوم الاجتماعية الموضوعية المتحررة من القيم ، الذي يتحلل في النهاية إلى تكريس نسبية قيمية ، ووقوع في أسر أطر ثقافية بعينها تعزى إليها قيمة موضوعية عامة – نقول : إن تجاوز هذا الطريق المسدود لا يمكن أن يتم إلا بالجمع بين الأطر التصورية الإلهية العامة (الموضوعية) من جهة وبين الأطر البشرية النسبية أو الذاتية من جهة أخرى .

ولقد عبر أمزيان [٢] عن مثل هذا الموقف بشكل جيد ؛ إذ أوضح أنه إذا كانت الدعوة إلى التزام الموضوعية الخالصة في علم الاجتماع قد استهدفت استبعاد الأحكام المعيارية تخلصًا من نسبية المعايير وقابليتها للاختلاف والتعارض زمانًا ومكانًا ، فانتهت إلى تكريس الواقع المحدود بالزمان والمكان أيًّا كان ، فإن التزام الموضوعية يمكن أن

(١) علا مصطفى أنور ، مرجع سابق (ص ١٢٢) .

(٢) محمد أمزيان ، مرجع سابق (ص ١٥) .

يتحقق في إطار الإسلام بأخذ المعايير « من الوحي نفسه الذي يتجرد عن كل النزعات الشخصية والذاتية .... ومن ثَمَّ فليس لنا أن نستبعد النظرة المعيارية ما دامت العلة الأساسية التي من أجلها استبعدتها الميتودولوجيا الوضعية منتفية » .

كما يعبر د. إسماعيل الفاروقي [١] عن نفس المعنى بطريقته الفريدة قائلًا : « يدَّعي الغرب أن علومه الاجتماعية تتسم بالصفة العلمية ؛ لأنها محايدة وتتعمد تفادي الأحكام والتفضيلات الإنسانية ، وتعامل الحقائق باعتبارها حقائق ، وتتركها تتحدث عن نفسها ، ولكن ذلك كما رأينا يعد ادعاءً باطلًا ، ومن ثم فإنه بدلًا من الامتناع عن تحليل النواحي القيمية – الذي لا يمكن تطبيقه على أي حال مع السماح للاعتبارات القيمية أن تقرر النتائج بطريقة سرية – فإن العالم الأصيل يحاول أن يحلل كل جوانب الظاهرة المعروضة ويضع ذلك علنًا ... إن إضفاء الصبغة الإسلامية على العلوم الاجتماعية يجب أن يعمل على إظهار العلاقة بين الواقع المدروس بالجانب من النموذج الإلهي المتصل به ، ولما كان النموذج الإلهي هو المعيار الذي يجب أن يتحقق في الواقع ، فإن تحليل الأمر الواقع ينبغي ألا يغفل أبدًا ما يجب أن تكون عليه الأشياء » .

وإذا كان قد تبين لنا الآن استحالة الظن بوجود « علوم اجتماعية » محايدة قيميًّا في الواقع كما يشهد بذلك تاريخ الفكر الاجتماعي ، بل وعدم جدوى ذلك حتى إن كان ذلك ممكنًا ، وإذا كان قد تبين لنا أن هناك أضرارًا جسيمة تلحق ليس فقط بالعلوم الاجتماعية ، بل بالمجتمعات البشرية كلها من جراء هذا التوجه الزائف ، فإن نفس الشيء ينطبق من باب أولى على « مهن المساعدة الاجتماعية » التي يفترض أنها في الأساس تجتهد لإحداث تغيرات في اتجاهات مرغوبة اجتماعيًّا ، أي موجهة قيميًّا ؛ ذلك أن الضرر الواقع في حق الأفراد الذين نساعدهم ، وفي حق المجتمع الذي نخدمه يكون أبلغ إذا سارت تلك المهن في الاتجاهات التقليدية المفرغة من القيم ، مهما كانت المبررات التي تساق لتبرير مثل ذلك الوضع .

ولقد عبر ماكس سيبورين عن الاتجاه الذي سارت فيه مهنة الخدمة الاجتماعية طوال حقبة كبيرة من عمرها فقال في عام ١٩٧٥م : إنه خلال نصف القرن الماضي لم تكن هناك شعبية كبيرة للحديث عن الفلسفة الأخلاقية في الخدمة الاجتماعية ، وبدلًا من ذلك

---

(١) إسماعيل الفاروقي « صياغة العلوم ... » ، مرجع سابق (ص ٣٦ ، ٣٧) ، مع مراجعة على النص كما أورده الفاروقي ونصيف ، مرجع سابق ، (ص ٣٢ ، ٣٣) .

فقد كان نموذج العلم المتحرر من القيم ، وخصوصًا العلوم الاجتماعية المتحررة من القيم هو أن يتوصلوا إلى قيم يمكن قياسها كميًّا بدلًا من أن يجهدوا أنفسهم في التعامل مع القضايا الفلسفية الكبرى التي تتسم بالغموض ، رغم أنهم بذلك قد ضيعوا الأبعاد الأشمل التي تتعلق بمعنى الحياة ، ويضيف هوارد جولدشتين [١] إلى ما نقله عن سيبورين قوله : « إن الأخصائيين الاجتماعيين عندما وجدوا أن نظرياتهم لا تسعفهم في مواجهة تعقيدات المسائل المتصلة بالقيم ، فإنهم تجنبوا الخوض في الأمور المتصلة بالقضايا الأخلاقية بالتركيز على الجوانب « العلمية » واتخاذ موقف حيادي يتجنب إصدار الأحكام » .

ولقد قام كولين بيل في عام ١٩٨٨م [٢] بتحليل الاتجاهات السائدة في بحوث الخدمة الاجتماعية في الخمس سنوات الأخيرة ، فتبين له أنه رغم سيادة الاتجاه الإمبيريقي الذي يقتفي أثر الإمبيريقية الوضعية ، أو الوضعية الجديدة أو الوضعية المنطقية ، إلا أنه قد وجد اتفاقًا عامًّا على عدم الرضا عن ذلك الاتجاه الإمبيريقي ، وإن كانت الاتجاهات نحوه تتفاوت ما بين الرغبة في تعديله وإصلاحه إلى الثورة عليه ، كما تبين له أن الثائرين على الاتجاه الإمبيريقي لديهم بديل يطرحونه بقوة هو الاتجاه المعياري Normative Approach ، الذي يقوم على الاعتراف بالقيم ، وإيجاد التكامل بينها وبين المعارف ، مع أخذ الجوانب الذاتية والاستبصار والحدس في الاعتبار ، وقد عقد بيل مقارنة بين الاتجاهين الإمبيريقي والمعياري نجتزئ منها ما يلي :

الاتجاه الإمبيريقي	الاتجاه المعياري
* العالم يمكن التنبؤ بظواهره ، ويمكن معرفته ويمكن قياسه .	* يمكن تفسير الواقع واكتشاف ما يعنيه بالنسبة للناس .
* الواقع يمكن إدراكه كأجزاء متفرقة فقط .	* لا يمكن فهم الأجزاء إلا في إطارها الأشمل .
* السلوك يمكن تفسيره بطرق سببية حتمية – نزعة ميكانيكية .	* السلوك هادف ابتكاري يمكن تفسيره ولا يمكن التنبؤ به .

(١) Howard Goldstein "The Neglected Moral Link in Social Work Practice" Social Work, May - June , 1987 , P. 182 .

(٢) Colin Peile, "Research Paradigms in Social Work: From Stale mate To Creative Synthesis" Social Service Review, March 1988, p. 4-11.

* مصدر المعرفة هو التجريب والملاحظة ، وأساسها اليقين المستمد من الخبرة الحسية .	* المعرفة تنشأ من التفسير والبصيرة ، وأساسها الاتصال المتعاطف مع المبحوثين .
* رفض كل معرفة ميتافيزيقية .	* الرموز والمعاني والعوامل غير الظاهرة أساسية للفهم .
* الفصل بين المعارف والقيم – القيم والمسائل الأخلاقية تقع خارج نطاق اهتمام العلم .	* القيم يمكن أن تخضع للدراسة ، نسبية أخلاقية تؤدي إلى عدم الاكتراث بالقيم أو إلى فردية فوضوية .
* رفض التفسيرات الروحية ، فصل واضح بين العلم والدين .	* نسبية المعتقدات الروحية ، هذه المعتقدات لها أهميتها لبناء المعاني اجتماعيًا .
* الموقف المحايد قيميًا يدعم ضمنًا سيطرة الوضع الراهن .	* اتجاه محافظ لعدم وجود تحليل بنائي أو تاريخي للمجتمع .

والمتأمل للجدول السابق لا يملك إلا ملاحظة التوازي الواضح مع ما سبق أن وجدناه لدى المشغلين بالعلاج النفسي ، والذي وصفه بيرجين في شكل مقابلة بين الاتجاهات التقليدية الإكلينيكية والإنسان من جانب وبين الاتجاه الإيماني البديل من جانب آخر ، ولكن بيل بعد أن ينتهي من المقارنة بين الاتجاهين يقرر أن « الصورة الكلية التي تنبثق من الوصف السابق تشير إلى أن العلاقة بين الاتجاهين المعياري والإمبيريقي إنما هي علاقة تناقض عدائي (ومع ذلك فإن) كلًّا من المنظورين مرتبط بالآخر ارتباطًا وثيقًا بحيث يكونان معًا وحدة أكبر إن المشكلة تكمن في أن كل فريق لا يستطيع أن يدرك أن كلا الجانبين يضع يده على جانب من جوانب الحقيقة ؛ ذلك أن اختلاف كل منهما عن الآخر لا يعني خطأ الرؤية الأخرى ، وإنما قد يعني أن كلًّا منهما له رؤية جزئية وغير كاملة ، وإنني أرى أن الإمبيريقية والمعيارية متكاملتان » .

ولكن كيف يمكن الجمع بين هذين المنظورين المتقابلين رغم أن كلًّا منهما يقوم على مسلمات متعارضة ؟ إن التأليف بين المتناقضين ليس مجرد عملية مزج بسيط أو خلط لخصائصهما ، ولكنه يتضمن إيجاد وحدة جديدة مختلفة الخصائص في هذا التأليف .

ويتعرض بيل لبعض الطرق التي يمكن من خلالها إيجاد هذه الوحدة ، ويشير إلى أن البعض قد يتصور الحل في النظر إلى المداخل الإمبيريقية والمعيارية كمداخل منفصلة ، ولكنها أجزاء من مدخل أبستمولوجي متعدد الطرق Multimethod ، بحيث ينتظر من كل مدخل منهما أن يقدم لنا استبصارًا مختلفًا من زاويته ، دون إمكان القول بأن أحدهما مفضل على الآخر ، ويعطينا مثالًا على ذلك بأن الباحث مثلًا يمكن أن يجمع بين البيانات الموضوعية والذاتية للوصول إلى استبصار أعمق وفهم أفضل للواقع ، ولكنه يحبذ مدخلًا للتوحيد « الخلاق » أو الابتكاري الذي ينظر للواقع نظرة كلية Wholistic لا تنفصل فيها الأجزاء عن بعضها ، ولكنها تتداخل (أو تنطوي) في بعضها البعض ، بمعنى أن كل شريحة تقتطع من الواقع تكون متداخلة ضمنًا مع الكل ، وأن الكل حاضر ضمنًا في كل جزء ، ثم يوضح ما يقصده فيبيَّن أننا لو نظرنا إلى الممارسة الواقعية للإمبيريقية ، لوجدناها تتضمن بعض عناصر المعيارية ، لكن أصحابها لا يعترفون بذلك نتيجة المغالاة وعدم القدرة على رؤية الحقيقة كما هي ، والعكس أيضًا صحيح ، ولكنه يرى أن البصيرة Insight هي الضمان لعدم التناقض بين النتائج ؛ فالمدخل « الخلاق » يقوم على أن الباحث ليس منفصلًا عن موضوع بحثه ، بمعنى أن فهم موضوع البحث لا يتم فقط من خلال الملاحظة الخارجية التي يقوم بها الباحث ، ولكن من خلال « خبراته الداخلية أيضًا » ، فعملية « الاستبصار » ليست ذاتية بحتة وليست موضوعية بحتة ولكنها تأليف Synthesis بينهما .

ويعالج ويتكين و جوتشوك الموضوع نفسه من زاوية أخرى وينتهيان إلى نتائج مشابهة [١] ، فقد قاما بمراجعة المعايير التي تستخدم في تقويم النظريات في الخدمة الاجتماعية ، وتوصلا إلى أن هناك شعورًا واضحًا بضرورة الاستجابة للتطورات الحديثة في فلسفة العلم وفي العلوم الأخرى ، والتي تدعو بوضوح إلى مراجعة جذرية للاتجاه الإمبيريقي ، كما أن من الضرورة لأي نظرية تستخدم في محيط الخدمة الاجتماعية أن تستجيب للإطار القيمي الذي تنطلق منه رسالة المهنة ، وينتهيان إلى أن معايير تقويم صلاحية النظريات في الخدمة الاجتماعية ، ينبغي أن يتم توسيع نطاقها لتضم إلى جوار المعايير الأبستمولوجية المعتادة (مثل دقة التنبؤ والاتساق الداخلي) معايير أخرى لا تقل عنها أهمية ؛ مثل :

١ – أن تكون النظرية مفتوحة للنقد ، من خلال بيان الأطر والدلالات التاريخية

---

(١) Witkin & Gottschalk, op.cit., P. 211-222 .

والثقافية والسياسية والاقتصادية التي تعتبر كمسلمات تنطلق منها النظرية ، حتى تفتح المجال لنقد تلك الأسس والافتراضات التي يسلم بها عادة دون تمحيص .

٢ – أن تعترف النظرية بالإنسان كعامل فعال ، لا منفعل سلبي أمام المؤثرات السببية ؛ إذ إنه يستطيع التدبر والتأمل في أفعاله ، والتغلب على الإغراءات والصوارف عن تحقيق أهدافه ، والتحكم في شهواته ، وتبني مبادئ جديدة .

٣ – أن تأخذ النظرية في اعتبارها خبرات الحياة التي مر بها العميل ، والمعنى الذي يرى تلك الخبرات في ضوئه ومن وجهة نظره ، بدلًا من أن ينَصِّب الباحث نفسه كعالم واثقً بنفسه ممتلئًا حكمةً وعارفًا بما وراء سلوك العميل .

٤ – أن تؤكد النظرية على قيمة « العدالة الاجتماعية » لتحرير الأفراد والجماعات من التحكم التعسفي في حياتهم باعتبار أن هذه من أهم القيم التي ميزت الخدمة الاجتماعية طوال تاريخها .

والواقع أن من يتفحص المحاولتين السابقتين لتحديث الأساس العلمي للخدمة الاجتماعية لكي يصبح متسقًا مع اتجاهات المنظور العلمي الجديد ، يلاحظ أن كلًّا منهما قد حاول إيجاد نوع من التوفيق بين الجانب « القيمي » والجانب المعرفي « الإمبيريقي » بطريقة مختلفة ، ففي حين يوحي إسهام كولين بيل بأن الاتجاه المعياري يعترف بالقيم والمعتقدات الروحية وبأهميتها لبناء المعاني اجتماعيًّا ، فإنه ينظر للقيم من منظور « العملاء » أساسًا ، ولا يملك إلا الاستنتاج بأن هذا الاعتراف يترتب عليه « نسبية أخلاقية » قد تؤدي إلى عدم الاكتراث بالقيم أساسًا ، ما دام لكل قيمه المختلفة المساوية في الوقت نفسه لقيم غيره ، مما يترتب عليه التسليم بالجميع ، واستبعاد الكل من الصورة ، ولكن إسهام ويتكين و جوتشوك يتجه من الناحية المعيارية إلى الاعتراف « بقيم المهنة » بدلًا من التركيز على قيم العملاء وخصوصًا قيم العدالة الاجتماعية التي لا يكاد يختلف عليها أحد في عمومها ، ولكنها تترك المجال مفتوحًا أمام كل التفسيرات عندما نتجه إلى التفصيلات .

ومن هنا يتبين لنا أنه لا مناص من التسليم بأن الحل الحقيقي للمشكلة التي يثيرها فشل المنظور العلمي « القديم » القائم على نظرة وضعية تدعو إلى الحياد القيمي ، وفي نفس الوقت الذي نستجيب فيه للمكتشفات العلمية والتطورات المنهجية التي يقوم عليها المنظور العلمي « الجديد » نقول إن الحل إنما يكمن في الاعتراف « بالقيم كموجه للسلوك الفردي وللترتيبات المجتمعية ، وفي الاعتراف بأن نظريات العلوم الاجتماعية كما

تصف الواقع ، فإنها تشكله في الوقت ذاته ، ثم الاعتراف بأنه لا يمكن الخلاص من نسبية تلك القيم ؛ لأنها تختلف باختلاف الزمان والمكان – مما يترتب عليه ضرورة التسليم بالنتيجة التي سبقت الإشارة إليها فيما سبق ، ألا وهي ضرورة أن يكون « مصدر تلك القيم نفسها محايدًا » – وهو ما يشير بكل جلاء إلى الوحي كمصدر للقيم التي ينبغي أن توجه السلوك الفردي والجماعي من جهة كما توجه محاولات التنظير « العلمي » له من جهة أخرى .

المبحث السادس
التأصيل الإسلامي لمنهجية البحث العلمي

رأينا في المبحث الأول من هذه الدراسة أن المنهج العلمي التقليدي يقوم على عدد من المسلمات الأساسية التي لم تتنزل كاملة من سماوات العلم والحكمة والعقل ، ولكنها تبلورت من خلال تفاعل تاريخي طويل ، بين قوى وتوجُّهات فكرية ثقافية وسياسية معينة ، وفي إطار مكاني وزماني معين ، وقد رأينا كيف أن تلك المسلمات الأساسية قد اتخذت في نهاية الأمر طابعًا ماديًّا وضعيًّا إمبيريقيًّا ، وقد تبيَّن لنا كيف أن هذا التوجه قد أدى إلى نجاحات وإنجازات باهرة في دراسة الظواهر الطبيعية ، ولكنه قد أسهم من جانب آخر في إقامة عقبات كبرى في طريق دراسة الظواهر الإنسانية ، ولقد توصلنا في نهاية المطاف إلى أن خروج العلوم الاجتماعية من دائرة الأزمة التي تواجهها رهين بإعادة النظر في تلك المسلمات الأساسية بشكل جاد ، رغم إدراكنا لصعوبة الأمر بسبب ما اكتسبه المنهج العلمي من تلك المسلمات عندهم تعلمًا وتعليمًا وممارسة على مدى حقبة طويلة من الزمان .

كما رأينا أن أصواتًا كثيرة في الغرب قد بدأت – ومن عجب – نتيجة للتقدم العلمي المعاصر المنطقي من المنظور التقليدي ذاته ترتفع مطالبة بمراجعة تلك المسلمات ، خصوصًا فيما يتصل بالتعامل مع الظواهر الإنسانية ، ولكننا رأينا أيضًا أن تلك الأصوات لم تستطع – بسبب نفس القيود والمحددات الثقافية ذاتها – أن تتخلص كليًّا من نزعتها المادية أو من التأثر بظروفها المجتمعية ، فوجدنا أنه بالرغم من تسليم أولئك العلماء – مثلًا – بتأثير ما يطلقون عليه العوامل الروحية والدينية في السلوك الإنساني ، إلا أن هذا الاعتراف لم يصل لديهم إلى حدِّ الاعتراف بوجود إله خالق قادر مدبر فاعل في هذا

الوجود ، كما رأينا أنه حتى أولئك العلماء الذين حاربوا الدعوى الشائعة بتحرر العلوم الاجتماعية من القيم قد انتهوا إلى نسبية قيمية تكاد تلغي كل معنى للاعتراف بدور القيم في تشكيل عملية التنظيم الاجتماعي .

ولقد انتهينا إلى أن عملية إعادة النظر في المسلمات التي يقوم عليها المنهج العلمي التقليدي ينبغي أن تسير في اتجاهات تدعم عناصر القوة الأساسية في هذا المنهج (والتي تتمثل في فكرة التحقق من صدق القضايا ، بالتعرف على درجة مطابقتها للواقع المحسوس) ، ولكنها تضعها – أيضًا – في موضعها الصحيح وفق نظرة الإسلام الشاملة للكون والإنسان ولوظيفة العلم ، بحيث يتبوأ الوحي مكانه الصحيح كمصدر يقيني للمعرفة الكلية المتنزلة من عند خالق ذلك الواقع المحسوس ، وخالق الحواس التي تدرك معطياته الجزئية .

وإذن فالتوجه الإسلامي لا يقوم – ولا يمكن أن يقوم – على أساس رفض معطيات الحس والعقل ؛ لأنه كان أول الداعين منذ العصور الوسطى إلى استخدامها في ملاحظة الظواهر المادية الحسية حين كان العالم « المتحضر » سجين القياس الصوري الأرسطي ، ولكن التوجه الإسلامي في الوقت ذاته لا يتوقف في دراسة الظواهر الإنسانية بصفة خاصة عند حدِّ معطيات الحس وحدها كما يفعل المغرقون في الإمبيريقية ، ولكنه يضم إليها معطيات الوحي التي لا يمكن بدونها التوصل إلى فهم « الإنسان » ، ذلك الكائن المتميز عن غيره من المخلوقات ، المتضمن في داخله عالم الغيب متوحدًا في عالم الشهادة ، أي الروح المتحدة بالجسد .

وسنحاول في هذا المبحث بيان معالم الطريق لإتمام هذه المهمة ، وذلك من خلال استعراض المسلمات الأساسية التي يقوم عليها المنهج العلمي للبحث من منظور الإسلام ، مع استجلاء مكانة الوحي ، ومكانه في علاقته بالعقل والحواس توصلًا إلى المعرفة « العلمية » ، ثم ننتقل لبيان الأسس التي يقوم عليها النشاط العلمي في الإسلام من حيث غاياته وضوابطه .

أولًا : الافتراضات الأساسية التي يقوم عليها البحث العلمي من منظور الإسلام :

يقوم البحث العلمي في إطار التصور الإسلامي على مجموعة من الافتراضات أو المسلمات الأساسية التي تضعه – مثله في ذلك مثل أي نشاط إنساني آخر يقوم به المسلم – موضعه الصحيح في إطار التوجيهات الإلهية في النظر لهذا الوجود ولما وراءه ،

دون تجاوز للحدود ، ودون انفصال تعسفي عن بقية جوانب الحقيقة ، فلقد رأينا أن التجاوز في تقدير مكانة العلم الوضعي ، ثم الفصل أو الفصام بين عالم الحس وعالم الغيب كما لو لم تكن بينهم أية صلة ، قد أدت إلى عواقب وخيمة لم تعد فقط على البحث العلمي ذاته بل وتجاوزته إلى المجتمعات التي تسير وفق ذلك التصور الوضعي في علومها ومهنها .

أما في المجتمع المسلم – حيث يوضع كل أمر في موضعه الصحيح دون إفراط أو تفريط – فإن كل نشاط إنساني يتوافق ويتناغم مع غيره من الأنشطة بما يؤدي إلى صلاحه في ذاته ، كما يؤدي إلى صلاح الكل الذي هو جزء منه ، ومن هنا فإن العلم والمنهج العلمي في منظور الإسلام يقومان على مسلَّمات لا تؤدي فقط إلى فاعلية العلم في الوصول إلى الحقيقة ، وإنما تؤدي – أيضًا – بفضل اللَّه إلى صلاح أحوال المجتمعات ليس فقط في هذه الدنيا بل وأيضًا في الآخرة متجاوزة بذلك قصور النظرة البشرية لدور العلم ، وموحدة لجوانب الوجود في تناغم وتكامل لا نظير له ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٨] .

وفيما يلي نسوق مجموعة من المسلمات التي تعطي العلم في المنظور الإسلامي أصالته ، في إطار الفهم الأشمل لحياة الناس في هذه الدنيا في صلتها التي لا تنفصم بحياتهم في دار الخلود ، وقد يختلف الباحثون في صياغة هذه المسلَّمات فيقدمون فيها أو يؤخرون ، أو يفصلون فيها أو يجملون ، ولكننا نظن أن هناك اتفاقًا عامًّا على مضمون هذ المسلَّمات بشكل أو آخر ، مع وجود مجال لقدر محدود من الاختلاف مرده اختلافات الرؤية الشخصية والخبرة الفردية ، مما يحتمل بعض الأخذ والرد ، ولقد اعتمدت بصفة عامة في صياغة هذه المسلَّمات على مجموعة المبادئ التي صاغها د . إسماعيل الفاروقي – يرحمه اللَّه – [1] إضافة إلى ما وجدته عند غيره مما يثري ذلك الإطار العام ويزيده تحديدًا .

(١) وحدة الخالق ووحدة الخلق :

إن وحدانية اللَّه ﷻ هي محور التصور الإسلامي وذروة سنامه ، والإيمان بوحدانية اللَّه هو أول وأهم عامل – على الإطلاق – من العوامل الموجهة لسلوك الإنسان المسلم في كل جانب من جوانب حياته ، وفي كل عمل يقوم به دون استثناء ، فوفقًا لهذا

(١) إسماعيل الفاروقي « إسلامية المعرفة » ، المسلم المعاصر العدد ٣٢ ، ١٤٠٢هـ ، (ص ١٧ ، ١٨) .

التصور يؤمن المسلم أن اللَّه خلق هذا الوجود ، ويعرف أنه سبحانه متصف بكل صفات الكمال ، وأنه مطلق الإرادة والتصرف في ملكه دون شريك : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤] ، وهو صاحب الحق الأوحد في تحديد الغاية من وجود جميع الكائنات التي خلقها بعلم وقدرة وحكمة ، وصاحب الحق في تحديد القوانين التي تحكم الوجود كله ، وإذا كان سبحانه قد أعطى البشر حرية الاختيار ، فإن طاعة أوامره ونواهيه والرغبة في تحقيق مرضاته سبحانه هي أوجب الواجبات عليهم ، وهو لا يريد بما يأمر به إلا الخير ، فهو لم يخلق الناس عبثًا ، وإنما هو رادّهم إلى معاد ، ومجازيهم على أفعالهم .

فإذا تيقن المسلم أن اللَّه خالقه ورازقه ، وأنه هو الرؤوف الرحيم الكريم اللطيف الودود ، وأنه هو المِلكُ الدَّيان الذي إليه المرجع والمآل ، عرف أنه لا خير في شيء أبدًا إلا أن يجيء وفق أمره ، وأنه مصدر كل خير ، وأصبح اللَّه وحده موضع تقديسه ومحبته ، فلا يفعل إلا ما يرضي الرب ولا يقصد إلا وجهه في كل ما يأتي ويدع في سعيه لتحصيل الرزق كما في سعيه لتحصيل العلم .

ويترتب على وحدانية الخالق بالضرورة وحدة الخلق : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢] ، فالكون نظام واحد متكامل ؛ لأنه من صنع خالق واحد يرى نظامه وتقديره في كل جزء منه ، والنظام الكوني يتكون من قوانين الطبيعة التي هي سنن اللَّه السارية في خلقه المادي أو النفسي أو الاجتماعي أو الأخلاقي ، وكل كائن يوجد وكل حدث يقع في الكون وفقًا لتلك القوانين ، إنما يتم على ما قضى به أمر اللَّه وقدرت حكمته ، وبما أودع في كل كائن من طبع وقوة ، وما خص به كل نفس إنسانية من إرادة وطبع وقوة تمكنها من الأداء والسعي والتغير وفق ما اقتضت كليات حكمة اللَّه وإرادته .

فالأسباب في هذا الكون هي أسباب وسنن إلهية مرد وجودها وعلاقاتها وآثارها الكلية إلى اللَّه ﷻ ، وليس على الإنسان إلا السعي في مناكبها وفق طاقته ، وهو مسؤول بحسب إرادته وقدرته ، وجزاؤه وحسابه على ما كسبت يداه بعد ذلك إلى اللَّه ، أما الكليات الإلهية خلف مجمل هذه السنن والأسباب فذلك من أمر اللَّه ، ويتعلق بعلمه المطلق الذي لا يحيط به أحد إلا بإذنه إذ يوحي من أمره ما يشاء لمن يشاء ممن اختارهم من الرسل ، فهو سبحانه خالق تلك السنن ، وهو ذاته منزِّل الوحي لهداية البشر لما شاء من تلك السنن إلى جانب وظيفة الوحي في إرشاد الناس لما ينبغي عليهم فعله لتحقيق مرضاته .

(٢) وحدة الحقيقة ووحدة المعرفة :

ويترتب على ما سبق أن « العقل » بما أودع اللَّه فيه من قوة مدركة للمعاني والأسباب ، و« الوحي » الذي أرسل اللَّه به رسله يتكاملان ويتكاتفان على فهم الغايات والأسباب وعلاقتهما في هذا الوجود كما فطره الباري وسخره وهذا يصدق طبعًا إذا استقام فهم معنى العقل ودوره ، ومعنى الوحي ودلالته ، وطبيعة التكامل بينهما وصورته ؛ فالعلاقة بين العقل والوحي علاقة ذات طبيعة خاصة جدًّا علاقة تتطلب حرصًا ودقة في التناول إذا أردنا تجنب الوقوع في التجاوز ، أو الانسياق وراء ما تهوى الأنفس مما حسنت صورته وساءت عاقبته ، فقد يبالغ البعض في تمجيد العقل بقوله : إن العقل أساس في ثبوت الوحي والتسليم به أصل ، فإن كان المقصود بهذا أن العقل أساس في التكليف ، بمعنى أن المجنون الذي لا عقل عنده يسقط عنه التكليف ، فهذا الاستخدام للفظ مما لا يماري فيه أحد ، ولكن أي إيحاء بأن العقل حاكم على الوحي فإنه أمر لا يمكن قبوله أو التهاون فيه .

ويرى أهل الاعتدال في الأمر [١] أن العقل وسيلة لإدراك صدق الوحي ؛ لأن الوحي قد قام الدليل العقلي على صحته من خلال الإعجاز والتحدي ، فالإعجاز (بكل المعاني المتفق عليها) دليل على صحة القرآن الكريم وصحة نسبته إلى الباري جل شأنه ، كما أن التحدي قد أثبت عجز البشر أن يأتوا بمثله أو بعشر سور أو بسورة من مثله ، بما لا يدع مجالًا لأي شك في نسبته إليه سبحانه ؛ وإذن فالإيمان باللَّه والرسول والكتاب بالنسبة لنا « حقائق موضوعية وهناك أدلة عقلية على صحتها ، فهي ليست مجرد دعوى اعتقادية بل هي إيمان يقوم على علم » [٢] .

ولكن التساؤل الذي قد يثار هنا إضافة إلى ذلك هو : هل النظر في الأدلة العقلية المثبتة لصحة الوحي أمر عقلي بحق ؟ أم أن النظر العقلي شرط « ضروري » ، وإن لم يكن « كافيًا » وحده لإثبات صحة الوحي ؟ إن من ينظر في الآيات الكريمة التي تتعرض لقضايا الإيمان بالوحي يجد أنها تربط بين أمور « عقلية » أساسًا كالتدبر والتفكر ، وبين أمور « وجدانية » كالخوف والتقوى ، وأمور « روحية » كرجاء النشور أو حضور القلب الذي يتأثر بنوع « السلوك » ، تأمل مثلًا الآيات الكريمة التالية :

---

(١) إسماعيل الفاروقي : إسلامية المعرفة ، ترجمة د . عبد الحميد أبو سليمان (واشنطن : المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ١٩٨٦م) (ص ٧٥ – ١١٧) .

(٢) طه جابر العلواني : إسلامية المعرفة ، سلسلة محاضرات دورة ستراسبورج ، (المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٨٨م) (ص ٢٨) .

١ - ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [الذاريات: ٣٧] .

٢ - ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٠] .

٣ - ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧] .

٤ - ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤] .

٥ - ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤] .

فهذه الآيات الكريمة تربط بين الإدراك والوجدان والنزوع ، وكأن فيها إشارة لا تخفى إلى أن قضايا الإدراك في المنظور الإسلامي ترتبط بطريقة ما بقضايا الوجدان بل والسلوك أيضًا ، وبلغة أخرى فإن القلب إذا صفا وزكا ، يفتح الطريق أمام العقل المتأمل المتدبر المتوازن لإدراك صحة الوحي والإيمان بحقائقه ، وكلاهما يتطلب استقامةً في السلوك واعتدالًا في القصد حتى يبلغ مبلغه .

ومن جهة أخرى فإننا نجد الآيات القرآنية وإن دعت في مواضع عديدة إلى إعمال الحواس كالسمع والبصر كوسائل للإدراك الحسي ، فإنها تشير أيضًا إلى أن الحواس وحدها ليست كافية للمعرفة الكاملة المحققة : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦] .

وهذا كله يشير بوضوح إلى عدم إمكان الفصل المصطنع في المنظور الإسلامي بين الجوانب الإدراكية « المعرفية » للإنسان الباحث عن المعرفة وبين بقية جوانب أو مكونات الإنسان الوجدانية والروحية والسلوكية ، وأن هذا إن صح في دراسة الوجود المادي المشاع للمؤمن والكافر ، فإنه مستحيل في دراسة النفس الإنسانية (المتضمنة بطبيعتها لجوانب غيبية) ، أو دراسة الترتيبات المجتمعية المرتبط بها تكاليف تمتد نتائجها وآثارها من الحياة الدنيا إلى الآخرة .

والعلم عند المسلم إذن هو ثمرة التوجيه « الوحي » للعقل حتى يستطيع إدراك كليات الكون على حقيقتها التي يعلمها اللَّه ليقوم « العقل » بدوره بتوجيه مدركات « الحواس » وإضفاء المعنى عليها ، وبهذا يقوم في الإسلام نسق المعرفة الواحد لفهم الحقيقة الواحدة ، التي خلقها الإله الواحد .

فالوحي يوجه العقل في المجالات التي تخرج عن قدرته على المعرفة والإحاطة والإدراك ، وتتمثل تلك المجالات أولًا في كل ما يتصل بعالم الغيب الذي يعتبر النظام المعرفي الحكَم على عوالم المعرفة كلها ، على أساس أن عالم الغيب هو عالم البقاء والدوام ، في حين أن عالم الشهادة عالم زائل فانٍ ، كما تتمثل ثانيًا في كليات عالم الشهادة من حيث إضفاء المعنى على المدركات الجزئية لذلك العالم من جهة ، ومن حيث ربط تلك المدركات – مرة أخرى – بعالم الغيب .

أما العقل فدوره هو توجيه الملاحظات أو المشاهدات الحسية بشكل يضفي عليها شيئًا من المعنى حتى تتيسر الحياة البشرية حتى لأولئك الذين لم تصلهم رسالات الرسل ، وإذا كان هذا وحده يعد كافيًا في فهم الظواهر غير الإنسانية ، إلا أنه لا يكفي لفهم الظواهر الإنسانية المتضمنة في صميم بنائها مكونات تنتمي إلى عالم الغيب (الروح) ؛ ذلك أن تلك الظواهر الإنسانية تتطلب أن يتم تفسير المشاهدات الحسية المتصلة بها من خلال معطيات العقل المؤمن الذي يستقي المعنى ، ليس فقط من كليات عالم الشهادة وإنما – وهو الأهم – من صلة معطيات عالم الشهادة بعالم الغيب .

وبلغة أخرى فإنه إذا كان العقل هو وسيلة الإنسان للإدراك وطلب الأسباب وتنظيم الملاحظات الحسية ، فإن الوحي المنزل من عند الخالق الحكيم مقصوده هداية الإنسان واستكمال إدراكاته من خلال تحديد غايات الحياة الرشيدة للإنسان ، وتحديد مسؤولياته في هذه الحياة ، ووصل إدراكه الجزئي بالمدركات الكلية فيما وراء الحياة الدنيا ، وبيان المفاهيم الإنسانية والاجتماعية اللازمة لتمكين العقل والإرادة الإنسانية من حمل مسؤولياتها وفق الغايات المحددة لها في هذه الحياة ، ذلك أن العقل الإنساني – رغم مكانته وكل إمكاناته – يظل محدودًا وجزئيًا يعتمد الاستقراء وتراكمات المعرفة والخبرة لأداء دوره ، ومن هنا فقد جاء الوحي لإمداده بالمدركات الكلية حول الكون وموضع الإنسان منه ، ومهمة وجوده ، والقواعد الأساسية لعلاقاته الاجتماعية حتى يستقيم الأمر وفق المراد الإلهي من خلق هذا الوجود وكل ما فيه ، وإلا تاه البشر وراء منتجات عقولهم المحدودة بطبيعتها بحدود خبراتهم ، بل والمتأثرة بما تهواه أنفسهم ، مما لا يمكن أن يؤدي في النهاية إلا إلى الضلال .

صحيح أن العقول والحواس ستكون قادرة تمامًا على إدراك الكثير من الأمور الجزئية الصحيحة ، ولكن في الحساب الختامي فإن البشر يكونون كمن يكسب معركة ويخسر الحرب كلها ؛ إذ يفرحون بما عندهم من العلم ويغفلون عن الأبعاد الأشمل للوجود :

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [غافر: ٨٣] .

(٣) تكامل الوحي والعقل والحواس :

رأينا فيما تقدم أن نظرية المعرفة في الإسلام تقوم على وحدة الحقيقة المستمدة من وحدانية اللَّه ، الذي يملك الحقيقة الكاملة سواء في ذلك الحقائق اليقينية التي يوحي بها إلى رسله لإرشاد عباده ، أو الحقائق الاحتمالية التي تركت لاجتهاد البشر في اكتشاف السنن الكونيَّة ، ولا يمكن أن يكون ما يوحي به اللَّه سبحانه مختلفًا عن الحقيقة الكونيَّة الثابتة ؛ لأنه سبحانه خلق الحقائق كلها ، ولقد رأينا أن الوحي لم يقتصر فقط على الإخبار عن حقيقة وجود اللَّه وصفاته ، أو التعريف بما وراء هذا الوجود من مغيبات ، ولكنه يرشدنا أيضًا إلى جوهر القوانين الطبيعية ، والسنن الإلهية التي يسير الكون وفقًا لها ، كما يرشدنا إلى الغاية منها ؛ وبالتالي فإننا نستطيع أن نتوقع التطابق التام بين ما نصل إليه من مشاهدات حسية محققة وبين ما يأتي به الوحي من حقائق يقينية .

وإذن فإن هناك استحالة لوجود تناقض « حقيقي » ، بين معطيات الوحي ومعطيات العقل والحواس ، ولكن من الممكن وقوع تناقض « ظاهري » ، قد يرجع إلى سوء فهمنا أو قصور تفسيرنا لمعطيات الوحي ، كما قد يرجع إلى أخطائنا المنهجية أو أخطائنا في قياس المتغيرات في مشاهداتنا الحسية ، وهذا يقتضي منا في حالة ظهور أي تناقض من مثل هذا النوع بين الوحي والمشاهدات الواقعية أن نقوم بمراجعة مدى دقة فهمنا للوحي من جهة ، وأن نستوثق من جهة أخرى من سلامة كليَّات وجزئيَّات إدراكنا لحقائق الواقع ؛ فالذي يحدث أحيانًا أن الباحث حال قيامه بالبحث عن السنن والقوانين الكونيَّة قد يتوهم أو يظن أنه قد أمسك بالحقيقة مع أنه مخطئ ، مما يخلق تعارضًا في الذهن بين معطيات الوحي ومعطيات العقل والحس ، ويكون على الباحث هنا – إذا كان نزيهًا ومخلصًا في بحثه عن الحقيقة – أن يعاود النظر في معطياته ويتفحصها من جديد ، ولا يمكن إلا أن يصل في النهاية إلى تجلية الحقيقة وإدراكها وحل التناقض الموهوم بين مفهوم الوحي ومسلماته وبين مدركات الواقع ومشاهداته .

فمنطوق الوحي في أي أمر لا بد أن يمثل الحق في شأن ذلك الأمر ، والإدراك العقلي والمشاهدة الحسية السليمة لا بد من أن تؤيد منطوق الوحي ، ولكن « الإدراك الإنساني » لمفهوم الوحي في أي أمر بعينه ، وفي أي لحظة بذاتها يكون جزئيًّا ويحتمل الخطأ ، ومن هنا فإن حل ذلك التناقض الظاهري لا يكون بالانتصار العاطفي لأحدهما على

الآخر ، وإنما الباحث المسلم شأنه أن يتحلى بالتواضع والإخلاص والتريث ، ثم إن عليه أن يدير دفة الحياة في ذلك الأمر وفق القيم الإسلامية الأساسية التي تتعلق بها المصلحة فيما يخص الموضوع ، حتى يتسنى في النهاية تصحيح فهم منطوق الوحي في الأمر ، أو تصحيح وجه إدراك الحقيقة العقلية والحسية في القضية التي تتم دراستها .

وبلغة أخرى فإن الباحث أو متخذ القرار المسلم إذا واجهه مثل ذلك الموقف الذي يختلف فيه منطوق الوحي ، أو إدراكنا له في أي لحظة عما توصلنا إليه في دراساتنا القائمة على المشاهدة الواقعية يكون أمامه حال انتظار تجلي الحقيقة وحل التناقض الموهوم أحد موقفين :

١ – أن يتخذ قراراته ويضع خططه في ضوء ما توصلت إليه الدراسات الواقعية رغم علمه بأن عملية البحث تمر بعدد من الخطوات التي ترد على كل منها احتمالات الخطأ ، بدءًا من غموض تحديد المشكلة ، وقصور تعريف المفاهيم ، إلى عدم ملاءمة المنهج أو الإستراتيجية المستخدمة في دراسة المشكلة ، ثم ضعف صدق وثبات أدوار البحث ، ثم المشكلات المحيطة بعملية جمع البيانات ، ومخاطر الإقرار اللفظي للمبحوثين ، ثم ضعف صدق وثبات التصنيفات ، ومشكلات تمثيل العينة لمجتمع البحث ، ومشكلات الاستنتاج الإحصائي .. إضافة إلى المخاطر التي تهدد الصدق الخارجي للبحث كله ، وغير ذلك من احتمالات الخطأ التي لا تخفى على كل مهتم بتقويم البحوث .

٢ – أن يتخذ قراراته ويضع خططه في ضوء أفضل ما يشير إليه فهمنا لمنطوق الوحي ؛ وذلك على أساس اليقين بأننا ما أوتينا من العلم إلا قليلًا ، وأن العلم هو نوع من الرزق الذي يفتحه اللَّه على خلقه بقدر ، وأن ما كان من العلم مقترنًا بالواجب فإنه أقرب احتمالًا للصواب من ذلك العلم الجزئي المشوب بالأخطار التي أشرنا إليها آنفًا .

ومن الطبيعي أن الباحث المسلم ومتخذ القرار المسلم ليس أمامهما إلا اختيار البديل الثاني ، انتظارًا لوضوح مصدر التناقض وحل التعارض الظاهري ؛ ليتقدم البحث العلمي من جديد بعد ذلك في الاتجاهات التي تكشف ، وليضيف إلى معرفتنا المتكاملة وهكذا إلى أن يرث اللَّه الأرض ومَنْ عليها .

ومن الواضح أن تحقيق ما بيناه من مسلَّمات ومبادئ في واقع العمل اليومي للباحثين في نطاق العلوم الاجتماعية يتطلب نظرة جديدة لطبيعة النظرية في صلتها بالمشاهدات الإمبيريقية وهو ما سميناه « بثورة التنظير » في العلوم الاجتماعية .

* * *

obeikandl.com

مداخل التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية
(مع اهتمام خاص بمهن المساعدة الإنسانية)

أ.د. إبراهيم عبد الرحمن رجب

لقد أدرك المشتغلون بالعلوم الاجتماعية ومهن المساعدة الإنسانية في معظم البلدان الإسلامية منذ سنوات طويلة – ولكن بدرجات متفاوتة من الوضوح والشدة – أن هذه « العلوم » تواجه أزمة في المنهج والمحتوى تجعلها قاصرة عن فهم الإنسان والمجتمع على الوجه المأمول بعد سنوات وسنوات من البحوث الإمبيريقية ومحاولات بناء النظرية ، وأن تلك « المهن » تواجه أزمة في الهوية كما تواجه أزمة فيما يتصل بدرجة فاعليتها في تحقيق الآمال المعقودة عليها من حيث إحداث التغييرات المنشودة في الفرد والجماعة والمجتمع .

ولقد أدرك الجميع أن الخروج من دائرة هذه الأزمة .. وأن التوصل إلى فهم أفضل وأعمق للإنسان والمجتمع ... وأن تحقيق درجة أرقى من الفاعلية لجهود الإصلاح ... كل ذلك إنما يتوقف على إيجاد درجة أكبر من التوافق بين العلوم الاجتماعية ، ومهن المساعدة الإنسانية من جانب ، وبين الواقع المادي والاجتماعي والثقافي للمجتمعات التي تجرى فيها البحوث ، أو تتم فيها الممارسة من جانب آخر .

ولكن الباحثين والممارسين المسلمين بعد هذا الاتفاق العام على ضرورة اتخاذ إجراءات لإصلاح مناهجهم ونظرياتهم وطرقهم في التدخل ، قد تبنوا مواقف متباينة ، واتجهوا اتجاهات شتى في تصورهم للمدى وللطريقة التي ينبغي ، أو التي يمكن بها تحقيق ذلك التوافق مع الأطر المادية والاجتماعية والثقافية للمجتمعات المسلمة ، (أو حتى غير المسلمة كما سنرى فيما بعد) .

فلقد رأى البعض أنه لا مناص من التسليم بضرورة أخذ الواقع المادي والبنائي المميز للمجتمعات العربية والإسلامية التي تتم فيها البحوث والممارسة في الاعتبار ، ولكن كانت لهم تحفظاتهم على أخذ العوامل « القيمية والثقافية » في الاعتبار في البحوث والممارسة ، على أساس « اعتقادهم » بضرورة ابتعاد العلوم والمهن عن مجال التقييم ؛ تجنبًا للخلافات في التوجهات من جهة ، ولعدم إمكان التحقق الإمبيريقي من صحة القيم والتفضيلات المجتمعية من جهة أخرى ، وبطبيعة الحال فإن هؤلاء – من باب أولى – قد اعترضوا أشد الاعتراض على إدماج « العوامل الروحية والدينية » في نظرياتهم وبحوثهم وممارساتهم .

ولكن الكثيرين غيرهم قد ارتأوا أنه لا يمكن الاستجابة لظروف وأسباب الأزمة التي تواجهها العلوم الاجتماعية ، ومهن المساعدة الإنسانية في العالم الإسلامي بشكلٍ جاد ما لم يؤخذ الإسلام في الاعتبار عند دراسة المجتمعات الإسلامية ، أو عند التدخل المهني ما دام الإسلام هو العنصر الثقافي الحاكم (أو على الأقل أنه من العناصر المؤثرة والفاعلة) في الحياة والثقافة في المجتمع المسلم .

وقد تبلورت هذه الاستجابة في السنوات الأخيرة بوضوح في شكل ما أصبح يسمى بأسلمة المعرفة ، أو إسلامية المعرفة ، أو أسلمة العلوم ، أو التوجيه الإسلامي للعلوم ، وفي نطاق العلوم الاجتماعية : التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية أو التوجيه الإسلامي للعلوم الاجتماعية ، أو ما أشبهها من المسميات ، وقد بذلت جهود كثيرة – وإن كانت متفرقة في الغالب الأعم – للاستجابة لتلك الدعوة التي بدأت تكتسب الآن أبعاد ما يمكن اعتباره « ثورة علمية » لا تستهدف في جملتها ما هو أقل من إعادة النظر بطريقة جذرية في مناهج البحث في العلوم الاجتماعية ، وفي كل منتجاتها النظرية ، وفي نظريات الممارسة في مهن المساعدة الإنسانية في ضوء معطيات الإسلام .

غير أن الجهود التي بذلت حتى الآن في نطاق التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية تتفاوت فيما بينها تفاوتًا شديدًا من حيث الافتراضات الضمنية أو الظاهرة التي تقوم عليها ، مما يؤدي في كثير من الأحيان إلى اللبس والغموض ، أو إلى السير في طرق جانبية لا تحقق الهدف المنشود ، مما يؤدي في كل الحالات إلى صرف الجهود في غير طائل ، وإلى تكثير صفوف المعترضين على ما يظنون أنه يمثل جهود الأسلمة أو التأصيل الإسلامي تمثيلًا صحيحًا رغم أنه ليس كذلك في حقيقته .

ومن هنا تأتي أهمية المراجعة النقدية للكتابات التي تندرج عادة ضمن جهود أسلمة المعرفة أو التأصيل الإسلامي في نطاق العلوم الاجتماعية ومهن المساعدة الإنسانية ، واستجابة لذلك فإننا سنحاول في هذه الدراسة أن نتعرف على « المداخل » التي تنطلق منها الكتابات في هذا المجال ، وأن نتبين ملامح الأرضية التي ينطلق منها كل مدخل من تلك المداخل ، ثم نتناولها تناولًا نقديًّا بما نرجو أن ينير الطريق أمام الباحثين عندما يحاولون تقدير قيمة كل نوع من تلك الكتابات ، أو عندما يخططون للإسهام في الجهود المتنامية للتأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية .

ولما كان الحكم على الشيء فرعًا عن تصوره ، فقد كان من الضروري أن ننطلق من

تصور محدد لماهية أسلمة المعرفة أو التأصيل الإسلامي ، مع استخلاص المعايير التي ينبغي تطبيقها للتمييز بين المداخل المختلفة التي تنتمي إليها ، ومن هنا فإننا سنبدأ هذه الدراسة بتعريف الأسلمة أو التأصيل ، وتحديد المعايير التي تستخدم في التمييز بين المداخل المختلفة ، ثم نتعرض لكل مدخل منها بشيء من التفصيل مع إعطاء أمثلة محدودة منها من الكتابات الواقعية ، دون أي محاولة لحصر تلك الكتابات أو تصنيفها فهذا مما يخرج عن أهداف هذه الدراسة .

وسيلاحظ القارئ أننا جمعنا في هذه الدراسة بين « العلوم » الاجتماعية و « مهن » الممارسة الإنسانية ، وأننا ركزنا فيما يتصل بتلك « العلوم » على أمثلة مستمدة من علم النفس وعلم الاجتماع ، وفي « المهن » على الخدمة الاجتماعية أساسًا ، ويرجع ذلك إلى أن اهتمامنا الأصلي منصب على مهنة الخدمة الاجتماعية ، ولكن لما كانت هذه المهنة تستفيد في بناء قاعدتها المعرفية المتصلة بفهم الإنسان والمجتمع البشري من علم النفس وعلم الاجتماع (إضافة إلى علم الاقتصاد والعلوم السياسية وغيرها) ، وأنها بالتالي تشترك معها في نفس القطاعات من الظواهر التي يتم التعامل معها ، فإن هناك توازيًا ملحوظًا فيما يتصل بقضايا التأصيل الإسلامي بين هذه التخصصات الثلاثة ، مما يبرر الجمع بينها في دراسة واحدة حول هذا الموضوع ، ومن هنا فإننا سنستخدم – للسهولة فقط – من الآن فصاعدًا اصطلاح التأصيل الإسلامي « للعلوم الاجتماعية » للدلالة على مجموع اهتمامات هذه التخصصات الثلاثة في المواضع التي تتحد فيها المواقف ، مع الإشارة إلى التخصص المقصود على حدة كلما اختصت المناقشة به وحده .

المبحث الأول

مفهوم التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية

لقد بدأت إرهاصات الربط بين العلوم الاجتماعية ومهن المساعدة الإنسانية من جانب ، وبين الإسلام من جانب آخر منذ انتصاف هذا القرن في مصر ؛ حيث عبر البعض على استحياء في محاضراتهم ، وفي بعض الكتابات المحدودة عن أهمية تلك القضية ، إلا أنه يبرز من بين تلك الأعمال بوضوح الرسالة التي قدمها د. فؤاد عبد اللّه نويرة – يرحمه اللّه – إلى إحدى الجامعات الأمريكية (١٩٥٨م) ، والتي حاول التوصل فيها إلى مبادئ للخدمة الاجتماعية مستمدة من القرآن الكريم ، ولكن هذه الجهود كانت

بمثابة قطرة في بحر نقل « إسهامات العلوم الحديثة » من الدول الأخرى « المتقدمة » أو التي « سبقتنا في هذا المجال » .

ولا بد هنا من كلمة حق تقال ، فإن أحوال العالم الإسلامي في تلك السنوات الباكرة كانت على مستوى لا يكاد يطمح معه أحد في أكثر من « استيعاب » ما لدى الآخرين ، دون أمل في « اللحاق » بهم ، ناهيك عن « تجاوزهم » ، ومن هنا فإننا نستطيع أن نتفهم الحقيقة الواقعة ، وهي أن التيار العام للعلوم والمهن كان جل اهتمامه هو مجرد « نقل » المنتجات الحديثة أكثر من « نقدها » ، يدعم هذا اتجاه عام في المجتمعات لطرد القوات الاستعمارية وتحقيق « الانتصار » لإرادة الشعوب الإسلامية ظاهريًّا .

ولكن فشل تطبيق النموذج العلمي « المتقدم » في قطاع دراسات الإنسان والمجتمع على أرضه وعلى أرضنا ، إضافة إلى تغير الاتجاهات في المجتمعات الإسلامية التي بدأت الصحوة الإسلامية تبث فيها روح الثقة والأمل من جديد كل هذا قد ساعد على تغيير الصورة إلى حدٍّ كبير .

وعلى أي حالٍ فإننا ودون دخول في التفاصيل نستطيع أن نعتبر أن إطلاق إشارة البدء الحقيقية لحركة التأصيل الإسلامي للعلوم قد جاءت بعد ذلك بسنوات طويلة ، في مقال ترجم بعنوان « أسلمة المعرفة » للدكتور إسماعيل الفاروقي (١٩٨٢م) ، وإذا كان ذلك المقال قد سبقه عمل آخر للفاروقي قدم في أحد المؤتمرات العلمية عام (١٩٧٧م) وترجم بعنوان « صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية » (١٩٨٠م) ، إلا أن المقال المشار إليه أولًا قد جاء حاويًا لبرنامج واضح ومتكامل للتأصيل الإسلامي لكل العلوم لأول مرة ، كما جاء متضمنًا لمراحل وخطوات محددة تعتبر حتى اليوم بمثابة علامة بارزة على الطريق ، فتحت الأبواب أمام إسهامات متعددة انطلقت من نفس المنطلق ، بل وأطلقت جهودًا مؤسسية واعية ومنظمة لتحقيق أهداف هذا البرنامج بشكلٍ جادٍّ .

غير أن الترجمة العربية للاصطلاح الأصلي وهو Islamization Of Knowledge إلى « أسلمة المعرفة » قد أثارت شيئًا من الجدل لدى البعض ، ممن رأوا أن المعرفة ، « محايدة » و « عالمية » ولا يمكن أن توصف بأنها مسلمة أو كافرة ، إضافة إلى أن البعض الآخر قد وجد شيئًا في دلالة الاشتقاق اللفظي على المضمون فاختار ترجمته « بإسلامية المعرفة » بدلًا من ذلك .

وقد رأى آخرون الخروج بالكلية من الخلاف ولو بالعدول عن استخدام لفظ واحد

(أسلمة ، إسلامية) إلى اصطلاح مركب ، فاتجهوا إلى استخدام اصطلاح « التأصيل الإسلامي للعلوم » ، ولكن هؤلاء أيضًا لم يسلموا من النقد على أساس أن لفظ « التأصيل » ، يوحي برد شيء إلى أصله الذي كان موجودًا من قبل في صورته الحالية أو في صورة مشابهة لها ، ولما كان من المُسَلَّم به أن العلوم الحديثة بالصورة التي نتعامل معها الآن نتاج حديث أسهمت الحضارة الغربية في بلورة مناهجه ، وفي التوصل إلى نتائجه بنصيب الأسد ، فقد رأى البعض أنه ليس لتلك العلوم الحديثة « أصل » كان موجودًا لدى المسلمين ، ولكنه اندثر ومهمتنا هي العودة إليه .

ومن هنا فإن الكثيرين قد بدأوا اليوم يميلون إلى استخدام اصطلاح جديد للدلالة على المقصود وهو اصطلاح « التوجيه الإسلامي للعلوم » ، الذي يتلافى الإيحاء بمعان قد يجدها البعض غير مقبولة ، ويبدو أنه ليس هناك ما يحول دون استخدام هذا الاصطلاح في الوقت الحاضر على الأقل .

ولكن ما يهمنا أن نثبته هنا بوضوح هو أن معظم من يستخدمون هذه المصطلحات إنما يشيرون في الحقيقة إلى مفهوم « واحد » في جوهره ، وأن الخلاف بينها إنما هو جوهره خلاف لفظي ، وهذا أمر متوقع باعتبار أن حركة البحث عن الأصول الإسلامية لتوجيه العلوم الحديثة لا زالت كما رأينا في بداياتها الأولى ، ومن المتوقع ألا ينقضي وقت طويل حتى يستقر استخدام هذه المصطلحات ؛ ولذلك فإن جهدنا ينبغي أن ينصب الآن على تحري المعنى أو « المفهوم » الذي يكمن وراء هذه المصطلحات جميعها بدلًا من المناقشة الشكلية المنصبة على الألفاظ ، وسنكتفي باستخدام اصطلاح « التأصيل الإسلامي » للدولة على المعنى الذي تتحدث عنه تلك المصطلحات جميعها .

تعريف التأصيل الإسلامي :

لقد قام الدكتور الفاروقي – يرحمه اللَّه – بتعريف أسلمة المعرفة أو إسلامية المعرفة بأنها « إعادة صياغة المعرفة على أساس من علاقة الإسلام بها ، أي إعادة تحديد وترتيب المعلومات ، وإعادة النظر في استنتاجات هذه المعلومات وترابطها ، وإعادة تقويم النتائج ، وإعادة تصور الأهداف ، وأن يتم ذلك بطريقة تمكن من إغناء وخدمة قضية الإسلام (الفاروقي ، ١٩٨٢م ، ٥٤) ، وقد بيَّن أن تحقيق تلك الأهداف يمكن أن يتم من خلال :

١ – فهم واستيعاب العلوم الحديثة في أرقى حالات تطورها والتمكن منها ، وتحليل واقع تلك العلوم نقديًّا ؛ لتقدير جوانب القوة والضعف فيها من وجهة نظر الإسلام .

٢ – فهم واستيعاب إسهامات التراث المنطلق من فهم المسلمين للكتاب والسنة في مختلف العصور ، وتقدير جوانب القوة والضعف فيه ، في ضوء حاجة المسلمين في الوقت الحاضر ، وفي ضوء متطلبات المعرفة الحديثة .

٣ – القيام بتلك القفزة الابتكارية الرائدة اللازمة لإيجاد تركيبة تجمع بين معطيات التراث الإسلامي ، ونتائج العلوم العصرية بما يساعد على تحقيق غايات الإسلام العليا (الفاروقي ، ١٩٨٢م ، ١٧– ٢١) .

ولقد حاول محمد رفقي عيسى تحديد مفهوم أسلمة المعرفة فذكر أنها « اشتقاق الأسس الشرعية والاستفادة مما توصل إليه علماء الغرب من نتائج مادية تساهم في عمار الأرض ، وقيام الإنسان بوظيفته المرتضاة له دينًا ، وتوجيه هذه النتائج في سبيل تحقيق الغاية من هذا الوجود » (عيسى ١٩٨٦م ، ص ٣٣ ، ٣٤) .

أما د . عماد الدين خليل (١٩٩٠م ، ص ٨ – ١١) فقد عرف أسلمة المعرفة ، أو إسلامية المعرفة بأنها تعني « ممارسة النشاط المعرفي كشفًا ، وتجميعًا ، وتركيبًا ، وتوصيلًا ، ونشرًا ، من زاوية التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان » ، ثم بين أن مقصوده من النشاط المعرفي هو « تسليط العقل البشري – أو بعبارة أدق القدرات العقلية البشرية – على الظواهر المادية والحيوية والروحية والإنسانية في مدى الكون والعالم والحياة » ، كما أوضح أن « المعرفة » ، إنما هي مجرد وجه آخر من وجوه حياة الإنسان التي ينبغي أن توجه إسلاميًا ، وذلك من أجل أن تصبح الحياة البشرية بكافة أنشطتها وصيغها إسلامية التوجه ، إسلامية الممارسة ، إسلامية المفردات .

إن إسلامية المعرفة هنا لا تعنى فقط الدعوة لتحقيق الوفاق بين معطيات العلوم الإنسانية وبين المطالب الدينية على مستوى التطبيق ، وإنما تعني قبل هذا وبعده احتواء الأنشطة المعرفية الإنسانية على المستويين النظري والتطبيقي معًا من أجل جعلها تتحقق في دائرة القناعات الإيمانية وتتشكل وفق مطالبها وتصوراتها الشاملة .

وقد فضل أحد الأقسام العلمية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية استخدام تعبيرات « تأصيل العلوم إسلاميًا » على تعبير أسلمة العلوم وعرفه بأنه « جعل جميع العلوم التي تدرس في العالم عامة – وفي العالم العربي والإسلامي خاصةً – منطلقة ومنبثقة من أصول الإسلام ومفاهيمه العقائدية المبثوثة في القرآن والسنة والمحددة لمفاهيم الألوهية والإنسان والكون والحياة ، والعلاقة بين كل منها ، ورفض إقامة العلوم على أصول ومفاهيم

تتعارض مع العقيدة الإسلامية ومقتضياتها » (مركز البحوث ، ١٩٨٧م ، ص ٣٤) .

كما قامت اللجنة الدائمة للتأصيل الإسلامي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بتعريف « التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية » على أنه : « تأسيس تلك العلوم على ما يلائمها في الشريعة الإسلامية من أدلة نصية أو قواعد كلية أو اجتهادات مبنية عليها ، وبذلك تستمد العلوم الاجتماعية أسسها ومنطلقاتها من الشريعة ، ولا تتعارض في تحليلاتها ونتائجها وتطبيقاتها مع الأحكام الشرعية ، ولا يعني ذلك بطبيعة الحال أن تدخل العلوم الاجتماعية في إطار العلوم الشرعية ، وإنما المهم ألا تتعارض معها ، ولا تتعارض عملية التأصيل بهذا المفهوم العام مع أي تقدم علمي وتطور منهجي لا يناقض المنهج الإسلامي على أساس أن الإسلام دعا إلى العلم وحث عليه » .

وقد رأت اللجنة أن هذا يمكن تحقيقه من خلال العناصر التالية :

١ - وضع تصور إسلامي متكامل عن الإنسان والمجتمع والثقافة بحيث يمثل الإطار الفكري العام لدراسة القضايا والموضوعات المطروحة في مجال العلوم الاجتماعية .

٢ - وضع منهج إسلامي متميز لتلك العلوم يطلق عليه المنهج الإسلامي للعلوم الاجتماعية ينبني عليه قيام مدرسة متميزة في العلوم الاجتماعية تسمى المدرسة الإسلامية في العلوم الاجتماعية .

٣ - العودة إلى الأصول الإسلامية والتراث الإسلامي القويم عند دراسة القضايا التربوية والاجتماعية والنفسية للاستفادة من هذا التراث .

٤ - إبراز المبادئ والمسلمات والمفاهيم والمنطلقات التي تعبر عن التصور الإسلامي للعلوم الاجتماعية وتصحيح النظريات والمفاهيم الاجتماعية على ضوء تلك .

٥ - عرض نتائج البحوث الاجتماعية على القواعد الإسلامية والتصورات الصحيحة ، فما انسجم معها قُبل ، وما تعارض معها رُفض ، وما كان جديدًا لا يناقض الحقائق والمسلمات الإسلامية قُبل باعتباره إضافة سليمة إلى المعرفة .

أما بالنسبة للتأصيل الإسلامي لعلم النفس فقد تم تعريفه على أنه « إقامة هذا العلم على أساس التصور الإسلامي للإنسان ، وعلى أساس مبادئ الإسلام وحقائق الشريعة الإسلامية ، بحيث تصبح موضوعات هذا العلم وما يتضمنه من مفاهيم ونظريات متفقة مع مبادئ الإسلام - أو على الأقل - غير متعارضة معها » (محمد عثمان نجاتي ، ١٩٨٩م ، ص ٦ ، ٧) .

أما عن « التوجيه الإسلامي لعلم النفس » فإنه قد عُرّف (كمال مرسي ، ١٩٩١م ، ٢٥) على أن المقصود به « إيجاد وجهة علمية Scientific Paradigm لهذا العلم في البلاد الإسلامية ، مستمدة من منهج حياتها ، توجه علماء النفس المسلمين في نظرتهم إلى الإنسان ، وفي تفسير سلوكه ، وفى وضع برامج تنمية صحته النفسية ، ووقايته من الانحراف ، وعلاج انحرافاته ، وفي اختيار موضوعات البحوث ، وتفسير نتائجها ... » .

ولقد يكون من الممكن في ضوء ما سبق أن نعرف « التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية » أو التوجيه الإسلامي للعلوم الاجتماعية اختصارًا بأنه يعني « بلورة أبعاد التصور الإسلامي للإنسان والمجتمع والكون ، واستخدام هذا التصور كأساس معرفي تنطلق منه العلوم الاجتماعية ؛ ليكون موجهًا لنظرياتها ومفسرًا لحقائقها ومشاهداتها التي ثبتت صحتها بالتجربة ، أو الدليل العلمي المحقق » ، ويلاحظ أننا قد حاولنا في هذا التعريف أن نوضح الصورة التي ينبغي أن تكون عليها العلاقة بين معطيات التصور الإسلامي من جانب ، وبين معطيات المشاهدة الحسية التجريبية من جانب آخر ، على أساس أن التصور الإسلامي المنطلق من اجتهاد المسلمين في فهم الوحي ، يمثل الإطار النظري الأشمل (الذي يمكن أن يضم أطرًا تصورية « تفصيلية » في داخله بالطبع) الذي ينطلق منه التنظير لفهم الإنسان والمجتمع (سواء فيما يتصل بأحوالهما في هذه الحياة الدنيا مباشرة ، أو في تأثر تلك الأحوال بما ينتظرهما في الحياة الباقية) والذي يتم في ضوئه تفسير الحقائق الإمبيريقية أو الملاحظات والمشاهدات التي يتم التوصل إليها من خلال الدراسات الواقعية ، بما نعتقد أنه يعالج الازدواجية المنهجية التي أدت بهذه العلوم إلى الحال التي نجدها عليها الآن ، وقد فصلنا القول في هذه القضية في غير هذا الموضع (إبراهيم رجب ، ١٩٩١م) .

وفي ضوء التعريف السابق يمكن لنا أيضًا وبنفس القياس أن نعرف « التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية (بأنه) بلورة أبعاد التصور الإسلامي للطبيعة البشرية ، وللسنن النفسية والاجتماعية التي تحكم السلوك البشري والتنظيمات المجتمعية ، وكذلك لأسباب المشكلات الفردية والاجتماعية ، واستخدام هذا التصور لتفسير الحقائق العلمية الجزئية التي تستند إليها ممارسة المهنة ، وكذا لتوجيه المبادئ والقيم المهنية المتضمنة في نظريات الممارسة وأساليب التدخل المهني » .

وقد يقول قائل : إنه إذا كانت الخدمة الاجتماعية تستند إلى قاعدة علمية مستمدة من علوم النفس والاجتماع والاقتصاد وغيرها من العلوم الاجتماعية ، وإذا كانت تلك

العلوم إذا تم تأصيلها ستكون قد « بلورت » أبعاد التصور الإسلامي للطبيعة البشرية والسنن النفسية والاجتماعية ... إلخ ، فكيف يتضمن تعريف التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية « بلورة » هذا التصور مرة أخرى ؟ وبطبيعة الحال فإن هذه الحجة تقوم على أن العلوم الاجتماعية قد بلورت تلك الأبعاد أو أنها ستبلورها في المدى القريب نسبيًّا ، ولكن خبرتنا كمهنيين قد دلتنا على أن تناول العلوم النظرية للقضايا الواقعية عادة ما يتطلب وقتًا طويلًا ؛ لأن تلك العلوم لا تواجه إلحاح الواقع على الوجه الذي تصادفه مهن المساعدة الإنسانية ، مما يجعل من المحتم على تلك المهن أن تتخذ زمام المبادرة أحيانًا لكي تقوم بما كان ينبغي أن يقوم به غيرها ممن تعتمد عليهم في قاعدتها العلمية ، حتى لا يطول انتظارها حال وقوفها على خط المواجهة الساخنة مع مشكلات الواقع ، ومن هنا فإن الخدمة الاجتماعية لا تملك في هذه الأحيان إلا أن تبلور لنفسها من المعارف التي – وإن لم تكن درجة صدقها محققة أو محددة بالمقاييس الإحصائية – إلا أنها كافية لتوجيه تدخلها المهني في المواقف المحددة التي تواجهها يوميًّا وتنتظر اتخاذ قرار ؛ لأنها لا تملك رفاهية الانتظار مع الاستفادة الكاملة بطبيعة الحال من أي شذرات نظرية تكون تلك العلوم قد توصلت إليها ، ثم إن تلك العلوم إذا توصلت في النهاية إلى معارف متحققًا من صدقها فإنها ستسارع بلا ريب في الاستفادة منها .

المبحث الثاني
شروط التأصيل الإسلامي الصحيح

إن المتأمل لجميع التعريفات السابقة يجد أنها – رغم بعض الاختلافات في الصياغة وفي درجة الإجمال أو التفصيل – تجتمع على معانٍ رئيسية مشتركة يمكن لنا أن نعتبرها شروطًا للتأصيل الإسلامي الحق ، ويمكن لنا أن نطبقها علميًّا في جملتها باعتبارها معيارًا للتمييز بين ما يندرج في إطار جهود التأصيل الإسلامي أو التوجيه الإسلامي الصحيح وبين ما لا يندرج تحته من إسهامات ، أما ما يتجاوز تلك المتطلبات مما ورد في التعريفات ، فلا يعدو في الحقيقة أن يكون من نوع « الضوابط » التي يرى البعض ضرورة التأكيد عليها ، ومن نوع « التفضيلات » التي تبين الكيفية التي تتم بها عملية التأصيل ذاتها ، مما يمكن التجاوز عنه في هذه المرحلة ، لنعود إليها عند الحديث عن التأصيل الإسلامي بالمعنى الشامل ، وفيما يلي نسوق الشروط المحددة المذكورة .

يتطلب التأصيل الإسلامي للعلوم أو التوجيه الإسلامي للعلوم توافر الشروط الثلاثة الآتية مجتمعة :

١ – الانطلاق من إدراك واضح لأبعاد « التصور الإسلامي » للإنسان والمجتمع والكون المنبثق من الكتاب والسنة ، ولما يتضمنه تراث الإسلام مما يرتبط بالتخصص ، مع نظرة نقدية لإسهامات علماء المسلمين حول قضاياه .

٢ – استيعاب « العلوم الحديثة ، في أرقى صورها ، مع القدرة على نقدها والاستفادة منها ، وتجاوزها بشكل بناء كلما اقتضى الأمر ذلك .

٣ – إيجاد « تكامل حقيقي » بين معطيات التصور الإسلامي من جانب ، وبين إسهامات العلوم الحديثة من جانب آخر ، وليس مجرد الجمع أو التجاوز المكاني أو حتى المزج بينهما دون وحدة حقيقية .

تلك هي الشروط التي تجمع التعريفات التي عرضناها فيما سبق على ضرورة توافرها إذا كنا نتحدث عن تأصيل إسلامي أو توجيه إسلامي على أي وجه جاد ، وهي في الوقت ذاته تعتبر كالمقياس أو المعيار الذي يمكن أن تقاس به الإسهامات في هذا المجال .

ومن الواضح أن هذه الشروط أو المتطلبات الثلاثة ينبغي أن تتوافر « مجتمعة » لكي يصح أن نحكم على أي جهد أو إسهام بأنه ينتمي حقًّا لما يعتبر من قبيل التأصيل الإسلامي للعلوم بمعناه الصحيح ، وبطبيعة الحال فإن توافر هذه الشروط النموذجية في أي عمل واقعي محدد ، إنما هو أمر غير متوقع ، فأي إسهام أو عمل بعينه قد يقترب أو يبتعد عن هذا النموذج بدرجات متفاوتة ، فقيمة « النموذج » لا تكمن في طلب تحققه كاملًا في الواقع ، وإنما قيمته في توجيه الأعمال حتى تسير في اتجاهه وتقترب منه بقدر الإمكان وبشكل تراكمي ، ومن جهة أخرى فإن إبراز معالم النموذج يفيدنا من الناحية السلبية ، في أنه يكون بمثابة جرس الإنذار الذي ينبه إلى أن الجهود التي تسير في غير اتجاهه (أو في عكس الاتجاه) لن توصل إلى الهدف بفرض صحة النموذج طبعًا .

* * *

المبحث الثالث
مداخل التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية

الواقع أن كل من يراجع الكتابات والأعمال التي يدرجها أصحابها في عداد جهود التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية سيلاحظ أن بعضًا منها تتوفر فيه بالفعل تلك الشروط الثلاثة مجتمعة بما يحملنا على الظن أنها على الأقل تسير في الاتجاه الصحيح – سواء نجحت في ذلك أم لم تنجح ، كما أنه سيلاحظ أن بعض الجهود الأخرى قد يتوافر فيها شرط أو شرطان فقط من شروط التأصيل الحق ، وهنا فإنه لا يكون بوسعنا إلا أن نحكم على تلك المحاولات بأنها تفتقد الطريق الصحيح ، أو أنها تتوقف عند بعض مراحله – دون أي إيحاء بالانتقاص من قيمتها في ذاتها ، فالكثير من تلك الأعمال التي تفتقد شرطًا من شروط التأصيل الجيد بُذل فيها جهد كبير ، وقد تكون لها منفعتها التي لا شك فيها ، ولكن هذا ليس هو ما يعنينا في هذه الدراسة ؛ لأن اهتمامنا منصب أساسًا على درجة متابعة تلك الأعمال لأهداف التأصيل ، والسير في الطريق الصحيح أكثر منه على تحديد قيمة الأعمال في ذاتها وبالنسبة لأهداف جانبية أخرى قد تكون لها قيمتها الكبيرة .

وبتطبيق تلك القواعد على الأعمال والكتابات التي تندرج عادة تحت مسمى التأصيل ، لقد تبين لنا أن بعضها فقط – كما ذكرنا – يستحق هذه التسمية (لاستيفائه للشروط الثلاثة) ، كما تبين أن البعض الآخر يندرج في نطاق ما يمكن أن نسميه بجهود أو مداخل « ما دون التأصيل » أو « ما قبل التأصيل » أو « شبه التأصيل » وذلك لعدم استيفائها لشرط أو أكثر من تلك الشروط الثلاثة (مع وجود اعتبارات أخرى ، وأهداف جانبية قد تكون لها وجاهتها يحاول أصحاب تلك الأعمال تحقيقها كما ذكرنا) .

ومن هنا فقد أمكن لنا أن نميز بوضوح بين المداخل المختلفة الآتية :

أولًا : مداخل ما قبل التأصيل :

١ – مدخل الملاءمة الاجتماعية والثقافية .

٢ – المدخل الدفاعي (أو الاعتذاري) .

٣ – مدخل « الثقافة الإسلامية » .

٤ – مدخل العلوم الاجتماعية « للمسلمين » .

ثانيًا : مداخل التأصيل الإسلامي الصحيح :

١ - المدخل الجزئي (القطاعي) .

٢ - المدخل الشامل .

وفيما يلى نتناول كلًّا من هذه المداخل بشيء من التفصيل ؛ حيث نوضح موقف كل منها من حيث درجة الوفاء بشروط ومتطلبات التأصيل الإسلامي الصحيح ، كما نبين المسلمات التي يقوم عليها كل مدخل منها ، ثم نضرب بعض الأمثلة من الأعمال الواقعية التي تبنت كل مدخل من هذه المداخل الستة .

ولكن من الضروري أن نؤكد هنا أن أي محاولة لتصنيف الأعمال العلمية كمحاولتنا هذه إنما تتضمن بطبيعتها فرضًا أو إسقاطًا لنوع من الانتظام على مادة واقعية لم تنظم نفسها مسبقًا وفقًا لأنساقنا التصنيفية ، وبالتالي فإن أي تصنيف يحتمل دائمًا شيئًا من التعسف ؛ إذ يحاول مثلًا الفصل بين مدخلين « متقاربين » في مسلماتهما الأساسية ، أو يحاول الجمع بين مدخلين يوجد قدر من الاختلاف بين مسلماتهما ، وبالتالي فإن قيمة أي تصنيف إنما تكمن في إضفاء صورة « مفهومة » للواقع من خلال ضم متفرقاته في إطار عدد « محدود » من الفئات اقترابًا من ذلك الواقع بقدر الإمكان ، مع احتمالات قائمة دائمًا بوجود قدر من التداخل بين فئات التصنيف ، أو وجود محاولات تنبئ عن إمكانية تصنيفها ضمن فئات ذلك النسق التصنيفي ، أو وجود محاولات تتضمن عناصر من أحد المداخل مع عناصر من مدخل آخر ، ويمكن اعتبارها منتمية إلى فئات بينية بين فئات التصنيف .

المبحث الرابع
مداخل ما قبل التأصيل

لقد تبين لنا أننا نستطيع التمييز بين أربعة مداخل يمكن أن تندرج ضمن مداخل « ما قبل التأصيل » أو مداخل « ما دون التأصيل » الإسلامي الصحيح ، ولقد أوضحنا فيما سبق أن ما يجمع بين هذه المداخل هو افتقادها لشرط أو أكثر من شروط التأصيل الإسلامي الحق ؛ ألا وهي الانطلاق من « التصور الإسلامي » للإنسان والمجتمع والكون ، ثم استثمار إسهامات « العلوم الحديثة » في أرقى صورها بعد استيعابها ، وفهم

المسلمات التي بنيت عليها ، والقدرة على تجاوزها ، ثم إيجاد « تكامل حقيقي » بين معطيات التصور الإسلامي وإسهامات العلوم الحديثة على وجه يقدم فيه التصور الإسلامي الأطر والموجهات الكبرى للتنظير والممارسة ، وتقدم الإسهامات العلمية التفصيلات المحققة واقعيًا ، مع إمكان التنظير الجزئي المنطلق من تلك المشاهدات الواقعية في نطاق الأطر الإسلامية العامة ، وفيما يلي نتناول كل مدخل من هذه المداخل بشيء من التفصيل .

ويلاحظ أن هذه المداخل تتفاوت تفاوتًا كبيرًا من حيث حجم الاهتمام بكل منها من جانب ، ومن حيث درجة تداخل وغموض القضايا التي يثيرها كل منها من جانب آخر ، مع احتمال وجود بعض الإسهامات الواقعية التي تجمع بين خصائص أكثر من مدخل واحد في الوقت ذاته .

أولًا : مدخل الملاءمة الاجتماعية والثقافية

يقوم هذا المدخل على التسليم ضمنًا بصلاحية مناهج البحث العلمي التقليدية ، وسلامة النظريات والتعميمات التي تم التوصل إليها باستخدامه ، وصلاحية نظريات الممارسة في جوهرها للتطبيق في كل مكان ، ولكن مع أخذ الظروف المحلية والعوامل الثقافية في الاعتبار حتى تتلاءم نماذج العلم والتطبيق مع الواقع المادي والاجتماعي والثقافي في المجتمع الذي تتم فيه البحوث أو الممارسة .

ويتراوح هذا المدخل من حيث المدى الذي يذهب إليه أصحابه من حيث حدود الملاءمة المسموح بها بين من يكتفون بمجرد تنقية الشوائب التي تتعارض مع الشريعة ، ومن يطالبون بإيجاد المواءمة الضرورية واللازمة بين العلوم أو المهن وبين النسيج الثقافي الذي تتم فيه البحوث والممارسة .

فعلى المستوى الأول فإننا نجد مَنْ يطالبون بتنقية العلوم والمراجع والكتابات العلمية والمهنية من « الشوائب » التي تتعارض مع الشريعة تعارضًا صارخًا ، وذلك على أساس اتخاذ إجراء سريع لاستبعاد ما هو ضار حتى ولو لم يكن في النية بذل جهود إيجابية أخرى ، وذلك لتجنب الظهور بمظهر انعدام الحساسية نحو قيم وثقافة المجتمع الذي يتم فيه البحث أو الممارسة .

فالجهود التي تقتصر في جوهرها على التخلص مما يخالف وجهة النظر الإسلامية إذن تعتبر بمثابة « طوارئ » عاجلة تستبعد الضرر وإن لم تحقق الفائدة الإيجابية ، ويمثل هذا

الاتجاه ما جاء في تقرير لأحد الأقسام العلمية بإحدى الجامعات الإسلامية عن جهوده في التأصيل الإسلامي حيث يتحدث عن « مراجعة مفردات المواد أكثر من مرة ؛ للتأكد من خلوها مما يتعارض مع وجهة النظر الإسلامية » (مركز البحوث : ٤٦) ، فلا يعقل مثلًا أن يقوم الأساتذة في مجتمع مسلم بتدريس آراء فرويد التي تنص على أن الدين هو نوع من المرض النفسي العصابي الجماعي العام في البشر (O'Doherty :15) .

كما أنه في محيط الخدمة الاجتماعية لا تصح الدعوة إلى مثل ما جاء في أحد مراجع خدمة الفرد حول الزعم بأن الإسلام لن يقف حائلًا دون إباحة التبني بمعناه القانوني المعروف في الغرب ؛ لأن الإسلام لا يقف « حائلًا دون الإصلاح ودون التطور الحديث بدليل أنه لم يقف من قبل حائلًا دون تنظيم النسل ، ودون سفور المرأة وخروجها للعمل » ، وذلك رغم أنه معروف للعامة والخاصة أن الإسلام قد حرم التبني تحريمًا قاطعًا ، مع حث المسلمين بكل قوة على رعاية اليتامى بكل سبيل .

وكما أنه لا بد من إعادة النظر في مسألة إباحة المقابلات الفردية والزيارات المنزلية بين الأخصائي الاجتماعي والعميل في حالة اختلاف الجنس ؛ لتعارض ذلك مع القواعد الإسلامية التي لا تبيح الاختلاط .

أما على المستوى الثاني فإن عمليه الملاءمة تتخذ أبعادًا أعمق بكثير من مجرد تنقية الشوائب والمخالفات الصارخة للشريعة ، فنرى البعض يطالبون « بتوطين » العلوم الاجتماعية ومهن الممارسة الإنسانية لكي تستجيب لواقع تلك المجتمعات ، فرأينا مثلًا من يدعو إلى بناء « علم نفس وطني – إن جاز هذا المصطلح – متميزًا عن علم النفس الغربي في توجهاته وقوانينه ومناهجه ... ولم تكن هذه الدعوى بدعة ، فقد سبقهم إليها علماء النفس في اليابان والهند ورومانيا الذين أخذوا يدعون إلى علم نفس وطني في بلادهم » (كمال مرسي : ٤٣ ، ٤٤) .

ويتوازى مع هذا المطلب في محيط الخدمة الاجتماعية ظهور حركة قوية تنادي « بتكييف وتطويع المهنة حسب ظروف ومتطلبات المجتمع الذي تعمل فيه .. (حتى) تتلاءم أكثر مع النسيج الثقافي الذي توجد فيه (عبد الفتاح عثمان وآخرون ، ١٩٨٤م ، ٢٨٥) ، وهذا هو ما يعرف باتجاه « توطين الخدمة الاجتماعية » ، والتوطين بهذا المعنى مفهوم براجماتي واقعي » يتشابه مع عملية تكيف الكائن الحي مع بيئته ، فالكائن الحي الذي لا يتلاءم مع بيئته مقضي عليه بالفناء » (عبد الحليم رضا ، ١٩٨٩م ، ١٩٥ ، ١٩٦) ، ويوضح صاحب هذا الرأي المنطق الذي اعتمده في المناداة بحتمية توطين

الخدمة الاجتماعية على أساس الحماس الوطني من جهة ، ومن جهة أخرى على أساس « اختلاف الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية بين الدول المتقدمة صناعيًا وبين الدول النامية ... وهذا التباين في النسيج الثقافي لا بد وأن يفرض على الخدمة الاجتماعية الآتية من الخارج أن تتعرض لتغيير يجعلها منسجمة مع سائر مكونات النسيج الثقافي للمجتمع » .

ومثل هذا الموقف يرشح أصحاب هذا المدخل ليكونوا أقرب الناس لتفهم وتعضيد فكرة التأصيل الإسلامي ؛ لأنها تعتبر الامتداد الطبيعي لموقفهم العلمي ، فماذا لو سلموا بأن ممارسة المهنة لا بد أن تكون منسجمة مع « النسيج الثقافي » للمجتمع الذي تمارس فيه ؟ ... ولما كان الإسلام يمثل في المجتمعات الإسلامية أقوى العناصر تأثيرًا على « ثقافة » تلك المجتمعات (سواء رضينا بذلك أم لم نرض) بسبب « طبيعته المؤسسية » التي لها رؤيتها المحددة بالنسبة لكل النظم الاجتماعية في المجتمع ، فلا مناص من التسليم بأن التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية في الدول الإسلامية هو الطريق الوحيد الذي يشير إليه بوضوح اتجاه توطين الخدمة الاجتماعية ذاته .

ولكننا نجد أن أصحاب هذا المدخل يتفاوتون فيما بينهم بشكل كبير من حيث موقفهم من قضية التأصيل الإسلامي للعلوم ولمهن المساعدة الاجتماعية ، ففي محيط علم النفس فإننا نجد أن ذلك الفريق من المطالبين بعلم نفس وطني (ويصنفون ضمن متابعي الأسلوب الغربي) يلتزم بتوجيهات علم النفس الغربي ونظرياته وقوانينه ومبادئه كما هي في بلادها ، ويسير منضبطًا في ركاب جمعيات علم النفس هناك ، ويدخل وراء علماء الغرب كل منحى توجهوا إليه ، حتى ولو دخلوا جحر ضبٍّ لتبعهم في ذلك (كما يقول مالك بدري) (مرسي : ٤٦) .

وأما في محيط الخدمة الاجتماعية فإننا نجد من يرى أن التأصيل الإسلامي يعتبر « نظرة إلى الوراء ... فرض الماضي على الواقع الحالي ... تتولد عنه حركة ارتداد ، أي حركة إلى الخلف .. (عبد الحليم رضا ، ١٩٧) دون أن يدركوا أن الشرط الثاني من شروط التأصيل الصحيح يتطلب استيعاب العلوم الحديثة في أرقى صورها ، وإيجاد التكامل بينها وبين التصور الإسلامي ، مما يقوي لدينا الشعور بأن الفهم الصحيح لطبيعة عملية التأصيل الإسلامي لا بد أن يستتبعه تعديل في مواقف الكثيرين ممن نظروا فيها إلى جانب دون جانب .

ولقد غلا بعض قادة الرأي في اعتراضهم على مبدأ التأصيل الإسلامي للعلوم

(النظرية) وإن كان يسلم بإمكان المواءمة الثقافية في حالة العلوم التطبيقية ، فهذا د . زكي نجيب محمود يقول ما نصه : « والمثل الذي أسوقه هنا هو تلك الدعوة التي تزداد كل يوم تضخمًا واتساعًا وارتفاع صوت حتى ليوشك باطلها أن يقع موقع الحق في نفوس سامعيها : وهي الدعوة إلى أسلمة العلوم الإنسانية .. وفي هذا القول خطأ ... فالحقيقة العلمية (لا تتغير) بتغير الأجناس والألوان والديانات والأعراف والتقاليد .. على أن ذلك لاينفي أن اختلاف الثقافات بين الأفراد والشعوب قد يؤدي إلى اختلاف في تطبيق تلك العلوم » (١٩٨٧ : ١٣) ، والحق أن لصاحب هذا الرأي شبهة مبعثها توهم الحياد القيمي للعلوم النظرية وفقًا للنموذج التقليدي « القديم » للعلم المنطلق من فسلفة وضعية منطقية عفَى عليها الزمان ، وقد فصلنا القول حول هذه القضية في غير هذا الموضع حيث يمكن الرجوع إليه تفصيلًا (إبراهيم رجب ، ١٩٩١م) .

وفي ضوء ما سبق فإن من الواضح أن الجهود التي تبذل في إطار مدخل الملائمة الاجتماعية والثقافية يلاحظ عليها ما يلي :

١ – أنها لا تعتبر بذاتها جهودًا للتأصيل الإسلامي بمعناه المتكامل وذلك للأسباب الآتية :

أ – أن ما يبذل من جهود على مستوى « تنقية المخالفات الصارخة للشريعة » ليس إلا جهدًا من النوع السلبي الذي لا ينشئ شيئًا إيجابيًّا جديدًا في اتجاه التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية بقدر ما يزيح شيئًا سلبيًّا من الطريق .

ب – أن ما يبذل من جهود « للملاءمة مع النسيج الثقافي للمجتمع ، من خلال فكرة التوطين التي تقف عند حد مراعاة الاعتبارات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، لا تسهم أيضًا إسهامًا إيجابيًّا كافيًا في التأصيل الإسلامي ، وذلك لانطلاقها من تصور قومي أو محلي لا من تصور إسلامي .

٢ – أن نفع تلك الجهود محدود وموقوت ، وأنه لا بد من استكمال السير في نفس الاتجاه إلى مداه الذي لا بد أن ينتهي إلى التأصيل « الإسلامي » حتى يمكن أن يكون لتلك الجهود مردود ملائم فيما يتصل بصدق النظريات أو فاعلية الممارسات .

ثانيًا : المدخل الدفاعي (الاعتذاري) :

يقوم هذا المدخل على محاولة إثبات أن الإسلام ممثلًا في القرآن الكريم والسنة المطهرة أو فيما انبثق عنهما من إسهامات السلف وغيرهم من علماء المسلمين المتقدمين ، قد كان

له فضل السبق في التوصل إلى نظريات ومفاهيم لم يأتِ بها العلم الحديث إلا مؤخرًا ، فنرى الباحثين يبذلون جهودًا كبيرة لانتقاء الآيات أو الأحاديث النبوية التي تدعم بعض المفاهيم أو النظريات المألوفة في العلوم الاجتماعية الحديثة ، ويتصور أصحاب هذا المدخل أنهم بهذا « يدافعون » عن الإسلام ، ويثبتون صحة حقائقه ، ويبرهنون على تفوقه على إسهامات العلم الوضعي .

وقد كثر استخدام هذا المدخل بشكل خاص في علم النفس بسبب تعرض القرآن الكريم في آيات عديدة لأحوال النفس ، وأحوال القلب والعقل وما شابهها من مصطلحات تتصل بالحياة النفسية والروحية ، ولعل من المحاولات الواضحة في هذا الاتجاه ما قام به عزت الطويل للربط بين بعض الآيات الكريمة وبعض مفاهيم نظرية التحليل النفسي مسوِّيًا بين النفس اللوامة والأنا الأعلى ، وبين النفس الأمارة بالسوء وبين اللاشعور (وقد يقصد الهو) ، وبين النفس المطمئنة والشعور (وقد يقصد الأنا) (فؤاد أبو حطب ١٩٨٩م ، ٤٣ ، ٤٤) .

ويطلق الدكتور فؤاد أبو حطب على هذا المدخل « الاتجاه الإسقاطي » على أساس أن أصحابه يقرؤون القرآن الكريم على نحو يتفق مع وجهتهم المعرفية ، كما أطلق عليه أيضًا اتجاه « الترجمة الفورية » للمفاهيم النفسية في الإطار الإسلامي ، وهذا يتشابه من وجه ويختلف من وجه آخر مع ما سماه د . مالك بدري باتجاه « المسايرة » عند أولئك الذين لا يكتبون أبحاثهم على أساس مبادئ علم النفس الحديث ونظرياته وممارساته ، ثم يبحثون بعد ذلك عن الآيات القرآنية والأحاديث التي لها أدنى صلة سطحية بموضوعاتهم فينشرونها في البحث هنا وهناك ، ثم يقدمونه على أنه تأصيل إسلامي لعلم النفس » (أبو حطب : ٤٥) ، فوجه الاتفاق بينهما يتمثل في الانطلاق من مفاهيم العلوم الحديثة وتدعيمها بأدلة شرعية ، ولكن وجه الاختلاف يكمن في أن أصحاب الاتجاه الدفاعي يغلب أن يكونوا من المتحمسين وجدانيًّا للاتجاه الإسلامي الراغبين بصفة أساسية في دعم موقف الإسلام ، أما أصحاب اتجاه المسايرة فهم أكثر اهتمامًا بالاستمرار في إطار التوجهات المألوفة للعلم الحديث .

ولو أننا حللنا المسلمات التي يقوم عليها هذا المدخل لوجدنا ما يلي :

١ - يسلم أصحاب هذا المدخل « ضمنًا » بصحة « نظريات » العلم الحديث ومطابقتها للواقع بما يتجاوز الزمان والمكان .

٢ – يسلم أصحاب هذا المدخل بأن إثبات تطابق الكتاب والسنة مع تلك النظريات يدعم مكانة الإسلام كدين ، ويثبت أنه لا يتعارض مع العلم (لاحظ مثلًا ما أعلنه أحد من ثبتوا هذا المدخل : ليس هناك تعارض إذن بين القرآن وعلم النفس في نظرة كل منهما إلى النفس البشرية) (أبو حطب ، ص ٤٤) .

٣ – عادة ما يكون إثبات التطابق بين مفاهيم العلم الحديث والنصوص تطابقًا سطحيًا لا يتسم بالأصالة .

ومن الواضح أنه لا يسعنا التسليم بالمقولة الأولى أصلًا ، وذلك على أساس ما هو معروف من أن النظريات العلمية وإن كانت قد تنطوي على بعض الحقائق أو التعميمات الإمبيريقية التي تم التحقق من صدقها واقعيًا ، إلا أنها تضم ما هو أكثر من ذلك بكثير مما لا يخرج عن كونه فروضًا وأطرًا تفسيرية لم تخضع بعد للتحقق الواقعي ، بل أن بعض النظريات « العلمية » التي ذاع صيتها لا تضم إلا عددًا محدودًا للغاية مما يمكن اعتباره حقائق أو مشاهدات محققة ، في حين أن معظم محتواها إنما هو مما « ابتكره » صاحب النظرية من تفسيرات من عنده ، مما يجعل « النظريات العلمية » بطبيعتها دائمًا محل نظر دائم ، كما يجعلها معرضة باستمرار للتعديل والتبديل بل للطرح والاستبعاد في حالات قليلة ، حيث يحل محلها ما هو أقدر منها على التفسير .

وبناءً على ذلك فإن المقولة الثانية التي يسلم بها أصحاب هذا المدخل تتهاوى ، فمحاولات إثبات سبق الإسلام للتوصل إلى مفاهيم ونظريات ليست محققة ولا صحيحة أمر لا يدعم مكانة الإسلام ، ولا يأتي بخير ؛ لأنه لا يقربنا من معرفة الحقيقة ، غاية الأمر أن أصحاب هذا المدخل قد هزهم الشعور بهزيمة العالم الإسلامي أمام الحضارة الغربية المتميزة بإسهاماتها العلمية والتكنولوجية ، وأنهم يحاولون محاولة يائسة للدفاع عن دينهم بطرق ليست منتجة ، مما يؤدي عادة إلى عكس هدفهم .

ويترتب على ما سبق النتائج التالية :

١ – أن نشر البحوث المنطلقة من هذا المدخل قد يوحي للبعض أن هذا النهج يحقق أهداف التأصيل الإسلامي في حين أن الأمر ليس كذلك .

٢ – أن صرف الجهود والطاقة في هذا الاتجاه ليس مثمرًا ، وأن الأولى بذل الجهود في الطريق الصحيح للتأصيل الإسلامي حتى لو لم تكن ثمرتها قريبة المنال .

٣ – أن السير في هذا الاتجاه بما يؤدي إليه من خلط وتشويش يصرف الباحثين من

ذوي الإخلاص (وإن لم يكونوا من ذوي التفهم لحقيقة التأصيل الإسلامي الصحيح) عن الإسهام في جهود التأصيل الحق .

٤ – أن نشر تلك المحاولات قد يؤدي في بعض الحالات المتطرفة إلى إعطاء المعارضين للتأصيل الإسلامي – على أسس أيديولوجية معينة – أسلحة يهاجمون بها جهود التأصيل الصحيح ، ويمثل هذا بوضوح ما جاء في نقد أحدهم لمثل تلك الجهود ؛ إذ يقول : « لم تتجاوز تلك المحاولات حقيقة بذل جهد لإيجاد تطابق بين قيم الخدمة الاجتماعية ... وبين القيم الغربية من جهة ، وبينها وبين الإسلام من جهة أخرى ؛ ولذلك هزمت دعاوى الأسلمة نفسها بنفسها » (مختار عجوية ، ١٩٨٩م ، ١١٢) .

ثالثًا : مدخل « الثقافة الإسلامية »

إذا كانت الجهود التي بذلت في إطار المدخل السابق تبدأ منطلقة من المفاهيم والنظريات الحديثة بحثًا عما يدعمها من النصوص التي تثبت أن الإسلام قد سبق العلم الحديث في التوصل إليها ، فإن هذا المدخل على العكس من ذلك ، يقوم على عرض مفاهيم الإسلام ، وبسط موقفه من القضايا المتصلة بالتخصص استنباطًا من المصادر الشرعية ، دون اهتمام يذكر بإيجاد أي « تكامل حقيقي » مع ما جاءت به العلوم الحديثة في هذا الشأن ، وهم يتصورن أنهم بذلك يعظمون تخصصهم ويثرونه بإعطائه قاعدة شرعية ، وفي بعض الحالات المتطرفة قد يريدون أن يثبتوا أنه لا حاجة لتخصصهم بما جاءت به العلوم الحديثة ؛ لأن بإمكانهم الاعتماد على التراث الإسلامي وحده في هذا المجال .

فترى من ينطلق من هذا المدخل يعالج الموضوع بطريقة شبيهة بالدراسة الفقهية البحتة ، ويستند إلى مراجع العلوم الشرعية أساسًا ، بنفس المنهج وطريقة التناول التي نجدها عند المتخصصين في مادة « الثقافة الإسلامية » التي تدرس في الجامعات العربية لتزويد الطلاب – كما يذكر أحد مراجعها – « بثقافة نافعة عن (الإسلام) تؤدي إلى ترسيخ مبادئه ، والإيمان بمُثُلِه ، وفهم نظمه ، ورد الشبهات عنه ، وإحباط المكائد التي تحاك ضده من أعدائه ، وبخاصة في المضمار الفكري والثقافي ... » (عمر عودة الخطيب ، ١٩٨٦م ، ٥) ، ويوضح مؤلف آخر أن كلمة الثقافة الإسلامية تطلق « على التراث الفكري الذي خلفته الحضارة الإسلامية في جميع جوانبه : الديني والفلسفي والتشريعي ... وهذا التراث قد انبثق من التصور الشامل الذي كونه الإسلام في المجتمع الإسلامي ، والذي يستمد حقيقتة من القرآن الكريم ... » (محمد فاروق النبهان) .

ويمثل هذا المدخل في علم النفس إسهام محمد رشاد خليل وغيره ، ممن كتبوا في إطار علم النفس الإسلامي (بمعنى آخر غير المعنى الشائع الذي « يهدف إلى دراسة النفس الإنسانية دراسة مكتبية من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية واجتهادات علماء المسلمين على مر العصور ، لبيان موقف الشرع منها ووصفه لأحوالها وطبيعتها ... » (كمال مرسي ، ٦٤) .

ويمثله في نطاق علم الاجتماع معظم ما جاء في دراسة عن « الإسلام وعلم الاجتماع العائلي » للدكتور عبد الرؤوف الجرداوي (١٩٨٨م) الذي بدأ كتابه بإشارة توحي بمتابعته لمدخل العلوم الاجتماعية « للمسلمين » (ص ١٠ – ١١) ، إلا أنه انتهى إلى إسهام شبيه بإسهامات مدخل الثقافة الإسلامية .

كما يمثله في محيط الخدمة الاجتماعية ما قدمه د. لبيب السعيد (١٩٨٠م) في كتابه عن « العمل الاجتماعي : مدخل إليه ودراسة لأصوله الإسلامية » خصوصًا ما جاء في القسم الثاني منه تحت عنوان « أصول العمل الاجتماعي في الإسلام » ، حيث يقوم المؤلف باستعراض الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة ومواقف السلف التي تصور موقف الإسلام ، وممارسة المسلمين في جوانب ومجالات متعددة من مجالات ممارسة المهنة ؛ حيث عقد فصولًا للحديث عن أصول خدمة الجماعة في الإسلام ، وأصول الخدمة الاجتماعية في مجالات الأسرة والطفولة ، والمجال الطبي من منظور الإسلام ، وقد بذل المؤلف جهدًا كبيرًا في تجميع النصوص التي تلائم كل جانب من تلك الجوانب المختارة ، ولكن دون أي محاولة للربط بينها وبين الأطر المستمدة من نظريات الممارسة الحديثة .

وقد قدم د . علي حسين زيدان دراسة موضوعها « دور الخدمة الاجتماعية في العمل مع المنحرفين : منظور إسلامي » استقى فيها مادته من المصادر الشرعية عن قصد حيث قال : « يحتوي الإسلام على تصور متكامل للتعامل مع ظاهرة الانحراف وصفًا وتحليلًا وتفسيرًا وعلاجًا وقد حرص الباحث على أن يقتصر في إعداده لهذا (البحث) على المراجع الإسلامية حتى لا يقع أسيرًا للفكر الوضعي .. » (١٩٩١م ، ٣) .

وفي ورقة قدمت في فترة باكرة من عمر حركة التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية ، حاول الدكتور الفاروق زكي يونس أيضًا (١٩٨١م) استخلاص مبادئ وتوجيهات الإسلام فيما يتصل بالرعاية الاجتماعية ، غطى فيها القضايا المتصلة بحقوق الفرد وحقوق القرابة والجوار ، وحقوق الأطفال ورعاية المسنين وغيرها .

وبصفة عامة فإن الجهود التي تبذل في نطاق هذا المدخل وإن لم تتحقق لها شروط

التأصيل الكاملة على الوجه الذي أوضحناه ، إلا أنها طالما كانت جهودًا جادة ومنظمة ، تتسم بالتعمق والبصيرة ؛ فإنها ولا شك تقدم مادة يمكن للجهود التأصيلية التالية أن تستفيد منها ، وبشرط ألا توحي تلك الكتابات بأنها تقدم نتاجًا « مكتملًا » من نوع التأصيل الإسلامي الصحيح ؛ لأن هذا إن حدث فإنه يجر جهود الباحثين الآخرين في غير الاتجاه المطلوب من جهة ، كما أنه قد يؤدي من جهة أخرى إلى شعور غيرهم بأن عملية التأصيل قد بلغت مداها رغم أن الأمر ليس كذلك .

وإذن فإن الجهود التي تبذل لاستخلاص ما في المصادر الشرعية من قواعد أو مبادئ عامة أو حقائق مقررة مما يتصل بالتخصص العلمي أو المهني تعتبر « خطوة » على الطريق إلى التأصيل الإسلامي ، وإن لم تعتبر تأصيلًا إسلاميًا بالمعنى الشامل ، فهذا يتطلب – إضافة إلى ذلك – استيعابًا كافيًا لإسهامات العلم الحديث وتكاملًا بينهما بشكل حقيقي .

رابعًا : مدخل العلوم الاجتماعية « عند المسلمين »

يقوم هذا المدخل على نوع من التسليم المعلن أو الضمني بالمنهج العلمي التقليدي المستخدم في الوقت الحاضر في العلوم الاجتماعية ، والتسليم بصحة النتائج التي تم التوصل إليها باستخدامه ، ولكن مع الاقتناع بضرورة توجيه جهود خاصة لدراسة سلوك الفرد المسلم والمجتمع المسلم ، باعتبارها فئات متميزة بخصوصيتها من بين الفئات التي تتولى تلك العلوم دراستها ، بحيث ينشأ نتيجة لهذا فرع من فروع الدراسة في علم النفس – مثلًا – ينصب على « السلوك الديني للإنسان المسلم » أو فرع لعلم الاجتماع ينصب على « دراسة المجتمعات الإسلامية » ، يطلق عليه في الحالة الأولى « علم النفس الإسلامي » (بأحد المعاني التي يرد بها هذا الاصطلاح في كتابات علم النفس) ، وفي الحالة الثانية « علم الاجتماع الإسلامي » (بأحد المعاني المستخدمة أيضًا) ، وأما بالنسبة للمهن فإن هذا المدخل يتمثل في تطبيق طرق ومنهجيات التدخل المهني الحالية دون تعديل كبير ؛ ولكن لتحقيق أهداف المجتمع المسلم في إطار ما أصبح يعرف « بالخدمة الاجتماعية الإسلامية » في بعض الكتابات الحديثة .

فأما بالنسبة لعلم النفس ، فلعل أول من دعا إلى بناء « علم النفس الإسلامي » بهذا المضمون كان د . أحمد فؤاد الأهواني الذي أشار في تقديمه لكتاب عن الدراسات النفسية عند علماء المسلمين في عام ١٩٦٢م إلى أننا « إذا كنا أفسحنا المجال لدراسة

الظواهر الدينية نفسانيًا ، فلا غرابة أن نقول بوجود علم نفس إسلامي ، كما نقول بوجود علم نفس نصراني .. لاختلاف خصائص كل دين من الأديان » (كمال مرسي ، ٦ ، ٧) .

وقد أشار د . فؤاد أبو حطب في تحليله لهذا التوجه (ص ٤٦) إلى أننا نستطيع أن نستشف مما كتب في هذا الاتجاه الدعوة « لبناء فرع من فروع علم النفس ، يهتم بالدين الإسلامي كما تهتم فروعه الأخرى بمجالات اهتمامها » ، كما أنه بعد أن قام بمراجعة بعض الكتابات التي سارت في هذا الاتجاه قد بين أن بعضها يذكر صراحة « أنه لن يطمح في أن يستنبط له منهجًا جديدًا ، إنما هو يستوحي لذلك ما انتهجه بعض أئمة البحث الغربيين من مناهج » ، ومن هذا نرى أن القضية بالنسبة لأصحاب هذا التوجه ، لا تخرج عن فتح الباب لدراسة الخبرة الدينية للإنسان المسلم باستخدام نفس مناهج الدارسة التقليدية في علم النفس .

أما في محيط علم الاجتماع فقد دعا إلياس بايونس إلى ما سماه « بعلم اجتماع إسلامي » لسد الفراغ في كتابات علم الاجتماع حول « المجتمعات الإسلامية أو منطقة الثقافة الإسلامية ؛ (حيث) إن الدراسة المنظمة للإسلام حقل مهمل إهمالًا جسيمًا في علم الاجتماع ، فلا تكاد تكون هناك دراسة اجتماعية للإسلام والمجتمعات الإسلامية ... إننا في حاجة إلى علم اجتماع إسلامي من أجل فهم المعتقدات والمجتمعات الإسلامية » (بايونس ، ١٩٨٤م ، ٤٢ - ٤٤) .

ويشير د . زكي إسماعيل إلى نفس الاتجاه بوضوح ؛ إذ يقرر أن « علم الاجتماع الإسلامي من حيث كونه علمًا يدرس الظواهر والنظم الاجتماعية دراسة وصفية تقريرية تعبر عمَّا هو كائن من النظم ، (أما) من حيث هو إسلامي الاتجاه فإنه يدرس هذه النظم والعلاقات والتفاعلات الناشئة عن احتكاك المسلمين ببعضهم البعض وبغيرهم في معاملاتهم وشعائرهم ونسكهم ، أو دراسة نظمهم وعلاقاتهم الاجتماعية مع غير المسلمين ... » (١٩٨٨م ، ٢٤) ، ثم إنه يؤكد أن علم الاجتماع الإسلامي ليس علمًا معياريًّا يدرس ما ينبغي أن يكون ، ويشير إلى أنه إذا كان علم الاجتماع الديني يدرس الظاهرة الدينية في عمومها ، فإن علم الاجتماع الإسلامي يقتصر على « الظواهر الإسلامية » ، ويقرر أن علم الاجتماع الديني وعلم الاجتماع الإسلامي كلاهما « لا يهتم ببيان أثر اتباع القواعد الدينية ومزاياها » (ص ٢٦) .

أما في محيط الخدمة الاجتماعية ، فلعل أول من دعا لاستخدام اصطلاح « الخدمة الاجتماعية الإسلامية » بهذا المعنى المحدد هو د . محمد أحمد عبد الهادي في كتابه بهذا العنوان (١٩٨٨م) حيث يوضح فيه هدفه بغير التباس ، حيث يقول : « إن ما نقصده بالخدمة الاجتماعية الإسلامية ... هو استخدام طرق الخدمة الاجتماعية ذاتها بأدواتها وأساليبها وتكنيكها في تحقيق أهداف الدين الإسلامي ، أي أنها مجال جديد من مجالات العمل بالخدمة الاجتماعية شأن العديد من المجالات الأخرى » (ص ٣٣٥) ، فكأن الخدمة الاجتماعية الإسلامية بهذا المعنى تسلم بالأهداف التقليدية والوسائل التقليدية الحالية للمهنة ، ولكنها فقط « تخصص » الأهداف من حيث إنها توجهها إلى خدمة أهداف المجتمع المسلم ، وفي هذا خروج من الدائرة الضيقة لعلمنة الخدمة الاجتماعية التي سادت في المجتمعات غير الإسلامية ردحًا طويلًا من الزمن إلى سعة الالتزام بأهداف المجتمعات الإسلامية .

ومن الواضح أن الجهود التي تبذل في نطاق مدخل العلوم الاجتماعية « عند المسلمين » وإن كانت تسد فراغًا لا يجمل بمجتمع مسلم أن يهمله على هذه الصورة ، إلا أنها في ذاتها لا يمكن الاكتفاء بها كجهود تمثل « التأصيل الإسلامي » أو التوجيه الإسلامي للعلوم الاجتماعية بالمفهوم الصحيح . فلقد رأينا أن من كتبوا في إطار هذا المدخل إنما يبدؤون بالتسليم عادة بما هو متعارف عليه من النواحي المنهجية أو النظرية في نطاق التخصص ، ولكنهم يطبقونها في دراسة (في حالة العلوم النظرية) أو إصلاح (في حالة المهن) المجتمع المسلم ، دون بذل جهود أو محاولات جادة لإعادة النظر لتجاوز تلك المنطلقات المنهجية أو النظرية التقليدية في إطار التصور الإسلامي الصحيح .

ولكننا نود أن نفرق هنا بين موقفين واضحين يمكن ملاحظتهما في الأعمال المنطلقة من هذا التوجه فيما يتصل بأسباب تسليم أصحابها بالمناهج والمنطلقات التقليدية في التخصص :

١ – فبعض الكتاب يسلِّمون بالمناهج والمنطلقات التقليدية على أساس أنها منطلقات « علمية » صحيحة لا بد من الالتزام بها ، وأنه لا مجال لإعادة النظر فيها ولا مشروعية لذلك ، ومن الواضح أنه يصعب تصنيف أصحاب هذا الموقف في عداد أصحاب اتجاه التأصيل الإسلامي الحق ، ويرجع السبب في إصدار ذلك الحكم إلى أن التناول التقليدي لهذه العلوم وإن انصب على مجتمع مسلم فإنه سيكون محكومًا بالاتجاهات الفكرية

المادية والأمبيريقية المتطرفة المنطلقة من نظرة مختلفة للإنسان والكون والحياة ، ولرسالة العلم ومنطلقاته في منظورها التقليدي « القديم » ، فكيف يمكن – والحال كذلك – أن نأمل في انعتاق هؤلاء من إسار تلك التصورات التي لا تنظر للفرد المسلم أو المجتمع المسلم إلا كما تنظر إلى عينة مادية لا صلة لنا بها ، إن هذا يذكرنا بموقف عالم النفس الشهير كارل يونج الذي دافع بشدة عن أهمية الدين في العلاج النفسي حتى قال : إنه لم يصادف مريضًا نفسيًا إلا وجده ضعيف التدين ، وما وجد مريضًا تم شفاؤه إلا بعد أن حسن دينه ، ولكنه من جهة أخرى كان يرى الأديان كلها شيئًا واحدًا ويقول : إنه مجرد عالم نفس إمبيريقي يسجل ما يشاهده ، وكان ينظر إلى الدين على أنه مجرد « حقيقة نفسية » أما هو فإنه كان غنوصيًا ويمكن أن يكون ملحدًا (O'Doherty , 1978 : 16) ومما هو جدير بالذكر أن أصحاب هذا التوجه متقاربون في موقفهم إلى حدٍّ كبير مع أصحاب مدخل الملاءمة الاجتماعية والثقافية من المنادين بتوطين العلوم والمهن ، والذين يتوقفون دون أخذ العوامل الروحية والدينية في الاعتبار ولنفس الأسباب .

٢ – ولكن البعض الآخر وإن طالبوا بدراسات منصبة على المجتمع المسلم ، أو بممارسات تحقق أهدافه في إطار فرع أو مجال للعلم أو المهنة التي تخصصوا فيها ، فإنهم يدركون أهمية العوامل الروحية والدينية في خصوصية تأثيرها على سلوك الفرد المسلم والمجتمع المسلم ، ويوجهون جهودهم الجادة لدراستها في حدود الممكن ، وهم بهذا يختلفون بشكل واضح عن أصحاب مدخل الملاءمة الاجتماعية والثقافية المنادين بالتوطين الذين لا يذكرون حتى لفظ « إسلامي » ضمن اهتماماتهم ، ويقتصرون على اهتمامات ذات طبيعة جغرافية وإقليمية ومحلية ، أو يراعون جوانب مادية واجتماعية ثقافية مختزلة (تستبعد أي إشارة إلى الإسلام) فقط .

ومن الواضح أن من الضروري لأصحاب هذا التوجه أن يكونوا على وعي كامل بأن متابعة هذا المدخل على هذا التوجه لا تخرج عن كونها أحد الجوانب المفيدة وبشكل مرحلي نحو تحقيق أهداف التأصيل الإسلامي بمعناه الصحيح ، وأن يدركوا أنه بعد تحقيق جهود التأصيل الإسلامي الصحيح لدرجة كافية من النضج ، فإن ما يترتب على ذلك من وضوح الرؤية الإسلامية للظواهر النفسية والاجتماعية وللممارسات المنطلقة منها ، ستغطي وتتجاوز الاهتمامات المحدودة لهذا المدخل – مدخل العلوم الاجتماعية « للمسلمين » – بل إن المتوقع عندئذٍ أن التأصيل الإسلامي لتلك العلوم والمهن عندما

يبلغ مداه ، فإنه لن يكون قادرًا فقط على تفسير السلوك والعلاقات الاجتماعية للمسلمين في نطاق العالم الإسلامي فقط ، ولكنه سيتجاوز ذلك إلى تفسير الظواهر الإنسانية في كل المجتمعات التي خلقها اللَّه ﷻ .

المبحث الخامس
مداخل التأصيل الإسلامي الصحيح

رأينا فيما سبق أن المداخل التي تعرضنا لها للآن ، لا تتحقق فيها شروط التأصيل الإسلامي الحق كاملة ، ومن هنا جاءت تسميتها بمداخل ما قبل التأصيل أو ما دون التأصيل ، بقصد التمييز بينها وبين المداخل التي تسير في الاتجاه الصحيح للتأصيل الإسلامي ، على الوجه الذي تعكسه التعريفات التي قدمتها لهذا الموضوع ، والآن فإن بوسعنا الانتقال لمناقشة مدخلين ينتميان إلى هذه الفئة الأخيرة من المداخل وهما المدخل الجزئي والمدخل الشامل .

أولًا : مدخل التأصيل الجزئي :

يقوم هذا المدخل على فهم صحيح لمتطلبات عملية التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية ، من استيعاب واستثمار لإسهامات العلم الحديث في الإطار العام للتصور الإسلامي الصحيح للإنسان ومكانه من هذا الوجود ، مع إيجاد التكامل الحقيقي فيما بينهما ، ولكن كنتيجة للشعور بما يتطلبه التأصيل الشامل من وقت طويل وجهود مضنية جماعية ومؤسسية ، فإن المنادين بمتابعة هذا المدخل يفضلون تجزيء الموضوعات والقضايا والمجالات التي يتضمنها التخصص ، ثم بذل الجهود لتأصيل كل منها على حدة ، مع نوع من التوقع بأن هذا الجهد سيؤدي في النهاية إلى ما يعادل التأصيل الشامل المطلوب .

ويمكن التمثيل لهذا المدخل بما جاء بتقرير أحد الأقسام العلمية حول منهجه في التأصيل الإسلامي ؛ حيث ذكر ضمن ما ذكر من أنشطة الربط بين الإسلام وعلم النفس الحديث موضحًا أن هذا الربط يمكن أن يتحقق عن طريق « أبحاث محددة .. يخدم كل منها موضوعًا معينًا يعمل على الربط بين المادة العلمية في مجال علم النفس وبين الإسلام ... » (مركز البحوث ، ٤٦) .

وقد حددت اللجنة الدائمة للتأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، ما يزيد عن خمسين موضوعًا مقترحًا تقع في نطاق اهتمامات علم النفس وعلم الاجتماع والخدمة الاجتماعية والتربية ، يُدْعى للكتابة فيها الباحثون بأمل أن تنجلي هذه الجهود البحثية الفردية عن تصور عام وشامل .

وتعتبر محاولة جمال سلطان لتأصيل مفهوم « وقت الفراغ » (١٩٩٠م) نموذجًا طيبًا لتطبيق هذا المدخل ، فقد قام الباحث باستقصاء ونقد الإسهامات العلمية التي توصلت إليها الحضارة الغربية حول هذا المفهوم ، ثم انطلق من فهم واضح للتصور الإسلامي للإنسان ليعيد صياغة هذا المفهوم من منطلق إسلامي بطريقة جادة ومتعمقة .

والحق أن هذا المدخل يلبي حاجة لدى أولئك الذين لا يرون في الميدان حتى الآن جهودًا جماعية ومؤسسية كافية لتحقيق أهداف التأصيل الإسلامي بمفهومه الشامل ، ومن هنا فإنهم يفضلون فتح الأبواب أمام الإسهامات « الفردية » ما دامت ملتزمة بالمفهوم الصحيح للتأصيل ، رغم الإدراك بأن هذه الجهود الفردية لا بد بالضرورة أن تكون جزئية حتى تكون في نطاق الإمكان بالنسبة للباحث الفرد .

ولكن النقد الذي يوجه أساسًا إلى هذا المدخل ، إنما يدور فقط حول التساؤل عما إذا كان يمكن التوصل إلى تأصيل حقيقي للجزئيات قبل التوصل إلى تصور متكامل للأطر الكلية التي تحكمها ، أم أن هذا التناول الجزئي يغلب أن يؤدي إلى فقدان للاتجاه الصحيح دون أمل في تصحيح المسار لعدم وجود تصور كلي شامل .

ومع ذلك فإن تجزيء المشكلات الكبرى قد يؤدي إلى إلقاء الأضواء على جوانب من تلك المشكلات تكون سببًا في إنارة الطريق أمام المواجهة الشاملة للمشكلة ، ونقصد بذلك أن من المحتمل أن تؤدي جهود التأصيل الجزئي إلى لفت الأنظار إلى القضايا ذات الطبيعة الشاملة التي تتبدى أمام كل باحث في موضوع جزئي من زاوية مختلفة ، مما يؤدي إلى إلقاء الضوء على المشكلة الصعبة فتتيسر مواجهتها ، وهذا يبرر القول بأن مواجهتنا للقضايا الشديدة التعقيد والتداخل التي تتضمنها عملية التأصيل الإسلامي بالمعنى الصحيح ، ينبغي ألا تقتصر على مدخل واحد ، وأن استخدام المدخلين الجزئي والشامل بشكل متزامن أو متوازٍ يمكن أن يكون له دوره الإيجابي على عملية التأصيل بأسرها .

ثانيًا : مدخل التأصيل الشامل

رغم اتفاق هذا المدخل مع المدخل السابق من حيث وضوح الرؤية بالنسبة لما يعتبر

تأصيلًا إسلاميًّا حقيقيًّا ، إلا أنه يختلف عنه بالنسبة لقضية أساسية تتصل بنقطة البدء وأسلوب العمل ، فهذا المدخل يقوم على ضرورة الوصول إلى وضوح بالنسبة للأساسيات قبل الدخول في الجزئيات والتفاصيل ، بمعنى أنه لا بد من بذل جهود كافية أولًا لاستجلاء التصور الإسلامي للإنسان والمجتمع والكون ، الذي سيكون بدوره أساسًا للنظر في إسهامات العلم الحديث في جملتها أيضًا ، بما يمهد الطريق في خطوة تالية لإيجاد التكامل بينهما بطريقة شاملة ومنطقية .

ولما كان هذا المدخل يعتبر بمثابة النموذج الذي ينبغي السير فيه – منطقيًّا – لتحقيق التأصيل الشامل للعلوم الاجتماعية ، فلعل من المناسب أن نقدم هنا تصورًا للخطوات أو المراحل التي يتضمنها سير العمل وفق هذا النموذج ، ولعل الخطوات التي وضعها الفاروقي لأسلمة المعرفة تعتبر نموذجًا يحتذى في هذا المقام ، إلا أن نطاق اهتمام ذلك العمل كان يتضمن جميع العلوم الطبيعية منها والاجتماعية ؛ ولذلك فقد وجدنا من الأوفق أن نعتمد على توصيف لتلك الخطوات قدمه أحد الرواد في مجال التأصيل الإسلامي لعلم النفس ، يتميز بأنه ينطلق من نفس المنطلقات العامة لأسلمة المعرفة مع التطبيق على علم النفس .

لقد فصل د. محمد عثمان نجاتي (ص ٨ – ٣١) الخطوات التي ينبغي أن تمر بها عملية التأصيل الإسلامي في علم النفس ، انطلاقًا من هذا المدخل الشامل بطريقة يمكن بقليل من التعديل أن تكون أساسًا للتأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية بصفة عامة ، وفيما يلي نعرض تلك الخطوات مع شيء من التصرف الذي يجعلها قابلة للتعميم على تلك العلوم :

١ – التوصل إلى اتفاق على المسلمات المنبثقة من التصور الإسلامي الصحيح للكون والحياة والإنسان ، والتي تعتبر أصولًا نهتدي بها في تحليلنا النقدي لموضوعات العلوم الاجتماعية لمعرفة ما يمكن قبوله منها وما لا يمكن قبوله .

٢ – التمكن من العلم المراد تأصيله تمكنًا تامًّا ، بحيث نكون على معرفة شاملة ودقيقة بموضوعات هذا العلم ، وتطوره التاريخي ، ومناهجه في البحث ، ونتائجه ونظرياته ، والمشكلات التي لم تحسم فيه بعد .

٣ – التمكن من الأصول والمبادئ الإسلامية التي تتصل بموضوعات ذلك العلم اعتمادًا على ما جاء في الكتاب والسنة حول تلك الموضوعات أو مما يرتبط بها .

٤ – المعرفة بإسهامات علماء المسلمين مما يتصل بموضوعات وقضايا ذلك العلم ، ونقد تلك الإسهامات في ضوء التحليل التاريخي الذي قد يكشف عن المصادر غير الإسلامية التي تأثر بها هؤلاء العلماء (مصادر يونانية – هندية – صوفية ... إلخ) .

٥ – التحليل النقدي لإسهامات العلم الحديث في محيط التخصص في ضوء التصور الإسلامي الشامل المشار إليه في الخطوة الأولى ، وفي ضوء الأصول والمبادئ الإسلامية المحددة المتصلة بذلك العلم المشار إليها في الخطوة الثالثة ، فما اتفق مع ذلك التصور وتلك الأصول أُبقيَ عليه ، وما لم يتفق أُخضع للدراسة بهدف تعديله أو استبعاده ، وذلك في ضوء إدراك المسلمات التي استند إليها ذلك العلم في الوصول إلى تلك النتائج .

٦ – إجراء البحوث النظرية والميدانية والتجريبية في مجال التخصص في ضوء التوجه الإسلامي للإضافة إلى المعارف العلمية وإثرائها من هذا المنطلق ، بما يضيف إلى الإسهامات العلمية الصحيحة ويملأ الثغرات في الموضوعات التي لم تنجح إسهامات العلم التقليدية في تغطيتها على الوجه الصحيح .

٧ – التبادل العلمي بين المتخصصين في ذلك العلم ، وكذا بينهم وبين المتخصصين في العلوم الشرعية المرتبطة بموضوعه على أوسع نطاق ممكن ، ضمانًا لتحقيق قدر ضروري من المعرفة المشتركة التي ينطلق منها البحث العلمي المستقبلي في هذا المجال . حتى تتحقق « وحدة المعرفة » على المستوى المؤسسي كما تحققت على المستوى البحثي .

٨ – إعادة صياغة موضوعات العلم من توجه إسلامي ، وإعادة كتابة المراجع والكتب الدراسية لتنطلق من المنظور الإسلامي .

والمتأمل لهذه الخطوات يدرك أنها بالرغم من وضوحها وتسلسلها تثير عددًا كبيرًا من القضايا ، وتحتاج إلى جهود مضنية وممارسة واقعية حتى نصل إلى وضوح أكبر فيما يتصل بتفصيلات أداء العمل على الوجه المطلوب .

فإذا نظرنا على سبيل المثال إلى الخطوة الأولى المتصلة بالاتفاق على المسلمات التي تعكس التصور الإسلامي الصحيح ، فإننا نجد القائمة التي قدمها د . نجاتي (٩ – ٢١) تدور حول الإيمان باللَّه تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وحول وحدة الحقيقة ووحدة المعرفة ، وحول طبيعة الإنسان المادية والروحية ، وحول خيرية إرادته ، وهي قائمة قد يتفق الباحثون معها وقد يختلفون ، سواء من حيث استيعابها لكل المسلمات الضرورية ، أو من حيث محتوى كل منها ، أو من حيث علاقتها ببعضها ،

أو من حيث اعتبار بعضها فروضًا تستحق الاختبار والتطور ، بدلًا من اعتبارها مسلمات لا تقبل الاختبار ، وهذه القائمة تفتح الباب ولا شك أمام مزيد من الجهود وصولًا إلى أرضية أوسع للاتفاق .

وبنفس القياس فإن قضية تحديد الأصول الإسلامية التي تقابل موضوعات وقضايا كل علم من العلوم الاجتماعية ، أو مهنة من المساعدة الإنسانية ، ليست بالبساطة التي تظهر بها لأول وهلة . فالباحث في التراث الإسلامي عندما يقابل موضوعات تخصصه قد يكون محكومًا أو على الأقل متأثرًا في تحديد نطاق بحثه بالمفاهيم والأطر التصورية المستمدة من تراث العلم الحديث ذاته دون أن يدري ، فالمرء لا يبحث عن شيء لا يعرف حدوده ولا يدري شيئًا عن كنهه ، وإنما الأكثر احتمالًا أن يسترشد بما هو مألوف لديه من حدود ومفاهيم ، مما يجره إلى ما يريد أن يتجنبه دون أن يدري .

أما عن النظرة النقدية لإسهامات العلم الحديث فإن النجاح فيها يتوقف على إدراك المسلمات والافتراضات التي تكمن وراء كل نظرية علمية أكثر من مجرد مراجعة قضايا النظرية في ظاهرها ، فبعض الباحثين لا يثور شكهم إلا عند مصادفة عبارات أو قضايا أو تعميمات يتجافى ظاهرها مع التصور الإسلامي ، أما فيما وراء ذلك فإنهم يتصورون أن الأمر لا يستدعي مزيد تنقيب ، وكمثال على ذلك فإننا قد رأينا بعض المؤلفين يقررون مثلًا أنه لا فرق من الناحية العلمية أن ننظر إلى الصحة النفسية من منظور الإسلام أو من منظور علم النفس الحديث ؛ لأن الهدف في الناحيتين واحد ألا وهو سعادة الإنسان ، وقد فات هؤلاء أن معنى السعادة مختلف أشد الاختلاف من المنظور الإسلامي بما أكد على ذلك بقوة غيرهم من الباحثين .

أما عن إجراء البحوث في ضوء التوجه الإسلامي للإضافة إلى معرفتنا الحالية حول الإنسان والمجتمع ، فأمر يحتاج إلى وضوح كامل فيما يتصل بالقضايا المنهجية التي يثيرها ، ولعل أخطر تلك القضايا يتصل بكيفية تحقيق مبدأ « وحدة المعرفة » ، تأسيسًا على مبدأ « وحدة الحقيقة » (الفاروقي ، ١٩٨٦م ، ٨٠ - ١١٧) ، أو الجمع بين معطيات الوحي من جهة والمشاهدات الإمبيريقية من جهة أخرى ، فالنظام العلمي التقليدي قد فصل بين الاثنين فصلًا تامًا ، والمطلب الأساسي لأسلمة المعرفة هو الجمع بينهما ، وقد رأينا بعض الباحثين يمزجون بينهما بطرق لا تحقق التكامل الصحيح فيما شرحناه من مداخل ما قبل التأصيل ، ولكن الحل الصحيح لهذه القضية المنهجية الجوهرية إنما يكمن فيما نظن فيما سميناه في موضوع آخر (رجب ، ١٩٩١م) « بثورة

التنظير في العلوم الاجتماعية » **والتي تتمثل باختصار فيما يلي :**

أ – بدلًا من اعتماد النظريات العلمية في نموذج العلم التقليدي أو على خيال الباحث أو على التخمين Conjecture في التوصل إلى أطر تفسيرية للحقائق والتعميمات الإمبيريقية ، فإننا نعتمد في النظريات الملتزمة بالتوجه الإسلامي على أطر تفسيرية مستمدة من فهمنا للكتاب والسنة مع الاستفادة من إسهامات علماء المسلمين حول الموضوع .

ب – تستمد فروض البحوث الجارية من تلك النظريات الملتزمة بالتوجه الإسلامي ونختبرها في الواقع بمعناه الشامل ، مع مراعاة أن اختبار تلك الفروض في الواقع ، سيتطلب استخدام مناهج وأدوات أكثر ملاءمة للنظرة الإنسانية الروحية الجديدة للإنسان ككائن ذي وعي ، وذي إرادة ، يوجه حياته كفاعل ، وليس كمجرد كائن منفعل بالمؤثرات الخارجية .

جـ – كلما فشلنا في رفض فروض البحث المستمدة من النظرية (بتعبير رجال الإحصاء) ، كلما ازدادت ثقتنا في النظرية المنطلقة من التوجه الإسلامي ، وكلما ثبت لنا خطأ الفروض ، فإننا نعود لنراجع صحة « فهمنا » للتراث الإسلامي الذي انطلقنا منه من جهة ، كما نراجع إجراءاتنا البحثية ، وطرقنا في القياس من جهة أخرى ، ثم نقوم بتعديل الموقف بحسب ما تكشف عنه المراجعة ، لكي نعاود الكرة من جديد بالصورة المألوفة لنا تمامًا في دورة العلم الدائبة .

ومما سبق يتبين لنا بجلاء أن هذا المدخل الشامل ، تتوفر فيه جميع الشروط الواجب توافرها في أي جهد متكامل للتأصيل الإسلامي الصحيح ، كما يتبين لنا في الوقت ذاته أن هذا المدخل يتطلب في الواقع ما لا يقل عن عملية إعادة نظر كاملة ، وإعادة بناء شاملة لكل علم من العلوم الاجتماعية ولكل مهنة من مهن المساعدة الإنسانية ، ومن الواضح أن هذا يتطلب تكريس الجهد والوقت لسنوات وسنوات لفرق من الباحثين المنظمين ، المؤيدين بالإطارات المؤسسية المناسبة ، قبل أن تبدأ ثماره الطيبة في الظهور .

كما أن السير في هذا الطريق يتطلب توافر الباحثين المتضلعين في كل من العلوم الحديثة من جانب ، والعلوم الشرعية من جانب آخر ، وهؤلاء عملة نادرة حالت دون إنتاجها قوى تاريخية ودولية واجتماعية عديدة ، لا مجال لوصف أبعادها في هذا المقام ، وليس بالإمكان توافر الأعداد المطلوبة من هؤلاء الباحثين إلا باستحداث برامج

لإعادة تأهيل كل المتخصصين في الفروع الحديثة للعلوم الاجتماعية ، وبعض المتخصصين في العلوم الشرعية على الأقل **على الوجه الآتي** :

١ – إذا تفهم كل مشتغل بالعلوم الاجتماعية ومهن المساعدة الإنسانية في الدول الإسلامية أنه لم يعد بإمكانه أن يعيش مطمئنًا راضي الضمير إلى أنه يؤدي عمله كما ينبغي ، أو الزعم بأنه يؤدي واجبه كما يجب إلا إذا اختط لنفسه خطة (لا تعوقه عن أداء عمله اليومي) تضمن له أن يقوم بإعداد نفسه (في حدود فترة زمنية معقولة) للإلمام المنظم بمنابع وطرائق البحث في العلوم الشرعية بطريقة تدريجية مع الاستفادة مما يمكن أن توفره الجامعات والهيئات المهتمة بالقضية من برامج وأنشطة مساعدة على ذلك .

٢ – إذا أدرك بعض المشتغلين بالعلوم الشرعية – على الأقل – بأن واجبهم يحتم عليهم الإلمام بالقضايا والنظريات التي ينطلق منها إخوانهم المشتغلون بالعلوم الاجتماعية ، والذين يقومون بتخريج جيوش من الخريجين الذين يتولون قيادة مختلف الأنشطة في مختلف جوانب الحياة رضينا بذلك أم لم نرض ، حتى يستطيعون تقديم المشورة المناسبة لهؤلاء الزملاء عند تعرضهم في دراساتهم العلمية لقضايا الحياة والتنظيمات الاجتماعية التي تمس الحياة اليومية للمسلم في هذا العصر الذي نعيش فيه .

وبطبيعة الحال فإن أيسر شيء يستطيعه كل فريق ، هو أن يعرض عن الآخر وأن ينأى بجانبه ، مستشعرًا لجوانب تفوقه وراضيًا عن نفسه ، فتلك مقتضيات قانون القصور الذاتي لا يمكن أن يؤدي إلى خير ، والخاسر الوحيد من وراء هذا التجافي وتلك القطيعة هو مجتمع المسلمين ، والأمر يتطلب تواضع كل من الفريقين للّه ﷻ ولإخوانه المسلمين ، والتعاون على البر والتقوى ، عسى أن يكتب اللّه التوفيق لكل من الفريقين في خدمة المجتمع المسلم .

ولقد سار المعهد العالمي للفكر الإسلامي شوطًا طيبًا في طريق خدمة هذا المنظور الشامل للتأصيل الإسلامي ، أو التوجيه الإسلامي للعلوم ، من خلال عدد متنوع من الأنشطة والأساليب يهمنا أن نشير إلى بعضها هنا ، مما يتصل بشكل مباشر بالعلوم الاجتماعية :

١ – الدراسات التي تمس قضايا المنهجية في العلوم الاجتماعية .

٢ – إعداد مكانز تضم تصنيفات موضوعية (وأبجدية) لمفاهيم العلوم الاجتماعية المختلفة .

٣ – تكشيف آيات القرآن الكريم التي تتصل بكل علم من العلوم الاجتماعية

وتصنيفها موضوعيًا بطريقة تفصيلية ، مع إيراد ما جاء بكتب التفسير حول تلك الآيات بما ييسر للباحثين استنباط التصور الإسلامي المنبثق عنها .

٤ – تكشيف الأحاديث الشريفة المتصلة بكل علم من العلوم الاجتماعية مع شروحها .

٥ – مراجعة وتحليل إسهامات علماء المسلمين في كل علم من العلوم الاجتماعية ، مما يضع أمام الباحثين ثروة من الرؤى المنطلقة من التصور الإسلامي ، مع قراءة نقدية لها لبيان أي مؤثرات غير إسلامية قد تختلط بها .

ولا شك أن حصيلة تلك الجهود عند اكتمالها إنما تضع الأساس المتين الذي يستطيع الباحثون استثماره لبناء إسهاماتهم الأصيلة ، لمحاولة إيجاد التكامل البناء بين ما نزل به وحي السماء مما يتصل مباشرة ، أو يوجه عمومًا الدراسات المتصلة بالإنسان والمجتمع ، وبين ما هو ملائم من جهود بذلها البشر طوال قرون في محاولات للفهم التفصيلي للسنن والقوانين التي تحكم حياة البشر .

ورغم أن المدخل الشامل هو بحكم طبيعته مدخل يتطلب عملًا جماعيًا منظمًا ، ومدعمًا تدعيمًا مؤسسيًا مناسبًا ، فقد حاول البعض بذل جهود فردية للتأصيل الإسلامي المنطلق من هذا المنظور الشامل ، فقد بذل الدكتور فاروق الدسوقي (١٩٨٦م) جهدًا لإيجاد تكامل حقيقي منبثق من فهم واضح للتصور الإسلامي للإنسان والمجتمع وبين معطيات علم الاجتماع الحديث ، وسواء اتفقنا مع ما توصل إليه الدكتور الدسوقي فيما يمكن اعتباره محاولة للتأصيل الإسلامي لعلم الاجتماع من المنظور الشامل أو لم نتفق معه ، فإن المرء لا يملك إلا احترام أصالة البحث وقوة تمكنه من ناحية العلوم الشرعية والعلوم الحديثة لدرجة مكنته بسهولة ويسر من تجاوز ما جاءت به العلوم الاجتماعية الحديثة حينما وجدت الحاجة لذلك .

كما ينبغي أن ننوه – أيضًا – بجهد فردي آخر تقوم به باحثة مسلمة في اتجاه التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية المنطلق من هذا المدخل الشامل (عفاف الدَّباغ ، ١٩٨٩م) بدءًا من محاولة استجلاء طبيعة الإنسان الذي نتعامل معه في محيط الخدمة الاجتماعية ، إلى فهم السنن النفسية والاجتماعية التي تحكم سلوكه ، والوصول إلى تصور إسلامي حول أسباب المشكلات الفردية والاجتماعية ، ومن ثَمَّ تحديد طرق التدخل الملائمة للخدمة الاجتماعية المنطلقة من المنظور الإسلامي في ضوء هذا كله ، ورغم أن هذه محاولة شديدة الطموح في ذاتها ، إلا أنها إذا أسفرت عن وضع بعض

الخطوط على خريطة البحث المنطلقة من هذا المدخل الشامل ، لتكون عونًا للباحثين الذين قد يتفقون أو يختلفون معها على بينة ، فإنها تكون بذلك قد قدمت إسهامًا جيدًا ونافعًا ، وقد بدأ ظهور بعض نتائج هذا الجهد بالفعل في مقال قدمته الباحثة حول « المنظور الإسلامي لتفسير المشكلات الفردية » (١٩٩١م) وذلك في إطار عناصر التصور العام الذي توصلت إليه في إطار المدخل الشامل الذي تبنته .

خاتمة

لقد حاولنا في هذه الدراسة تحديد مفهوم التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية أو التوجيه الإسلامي للعلوم الاجتماعية وأيضًا لمهن المساعدة الإنسانية ، وقد ركزنا اهتمامنا بالنسبة لتلك العلوم على علمي النفس والاجتماع ، وبالنسبة للمهن على مهنة الخدمة الاجتماعية ، ثم استخلصنا الشروط الواجب توافرها في أي جهد للتأصيل الإسلامي الصحيح ، وطبقنا هذه الشروط للتوصل إلى المداخل المختلفة التي تعكسها الكتابات الحالية في الميدان ، وانتهينا إلى تقسيم تلك المداخل إلى نوعين ، أولهما مداخل ما قبل التأصيل ، وثانيهما مداخل التأصيل الصحيح ، وتعرضنا أخيرًا للمسلمات الأساسية التي يقوم عليها كل مدخل مع نظرة نقدية توضح مكانه من عملية التأصيل الإسلامي .

والمأمول أن تؤدي هذه المحاولة – وما تستثيره من مناقشات – إلى إزاحة بعض العقبات من طريق حركة التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية من جهة ، كما تؤدي إلى وضع بعض العلامات التي تشير إلى الطريق الصحيح إليها من جهة أخرى ، ذلك أنه إذا أمكن التوصل إلى نوع من الاتفاق حول الطبيعة الأساسية لعملية التأصيل في صورتها الصحيحة ، ثم أمكن التعرف على الموقع المحدد الذي يشغله كل مدخل من المداخل المذكورة بالنسبة لتلك العملية ، فلا شك أن هذا يعطي دفعة للحركة في الاتجاه الصحيح .

لقد عانت حركة التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية في السنوات الأخيرة من عمومية التناول ، وقد آن الأوان للبحث في التأصيل وبدء المسيرة في الطريق الطويل ، بدلًا من التوقف عند المسميات أو التعامل مع التصورات غير الصحيحة للتأصيل الإسلامي .

إننا مطالبون جميعًا اليوم ببذل أقصى الجهد ، ليس فقط لتغيير مناهجنا وممارساتنا ،

وإنما لتغيير أنفسنا وتعلم ما ينبغي لنا أن نتعلمه حتى نستطيع الإسهام الجاد منطلقين في هذا الطريق المبارك الذي يؤجر سالكه على نيته ، ويوفق حسب ظنه باللَّه وحسب توجهه ؛ فإن في ذلك خدمة أوطاننا وخدمة ديننا ، وفيه لنا كأفراد فلاح الدنيا والآخرة .

ونحن اليوم بفضل اللَّه نجد العون والمساندة من الجامعات الإسلامية ومن الهيئات العلمية التي بدأت تقدم لنا آيات القرآن مكشفة موضوعاتها ومفسرة معانيها ، ميسرة للبحث حتى عند من لم تسبق له دراسة العلوم الشرعية ، كما تقدم الأحاديث الشريفة مبوبة ومفسرة كذلك ، ناهيك عن المراجعات النقدية للإسهامات الفذة لعلماء المسلمين وغيرهم ، مما يرتبط بكل تخصص على حدة ، وهذا يسقط حجج المحتجين وأعذار المعتذرين بقلة الحيلة ونقص الإعداد .

ولعل تلك الجامعات والهيئات العلمية من جهة أخرى إذ تدرك حاجة المتخصصين في العلوم الحديثة لبناء معرفتهم الشرعية بطريقة مبسطة ولكنها منظمة أن تبتكر لذلك من أساليب التعليم – الذاتي وغيره – ما يعين إخوانهم على تحقيق هذا الهدف النبيل ، دون أن يتطلب ذلك منهم إهمال أعمالهم أو إنفاق معظم وقتهم في متابعة الدراسة الشرعية بالطرق والمراجع المعتادة عند المبتدئين .

* * *

obeikandl.com

قائمة المراجع

١ - إبراهيم عبد الرحمن رجب : « المنهج العلمي للبحث من وجهة إسلامية » ورقة مقدمة للندوة الأولى للتأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية ، (المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة ١٩٩١م) .

٢ - إسماعيل الفاروقي : « صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية » المسلم المعاصر ، العدد ٢٠ - (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م) ، (ص ٣٥ - ٤١) .

٣ - إسماعيل الفاروقي ؛ « أسلمة المعرفة » ، المسلم المعاصر ، العدد ٣٢ - (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) ، (ص ٩ - ٢٣) .

٤ - إسماعيل الفاروقي : إسلامية المعرفة : المبادئ العامة - خطة العمل - الإنجازات ، ترجمة د . عبد الحميد أبو سليمان (واشنطون : المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ١٩٨٦م) .

٥ - الفاروقي زكي يونس : « الرعاية الاجتماعية في الإسلام » بحث قدم إلى المؤتمر الدولي لعلماء المسلمين : (إسلام أباد - باكستان - ١٤٠١هـ - ١٩٨١م) .

٦ - إلياس بايونس ؛ « علم الاجتماع والواقع الاجتماعي المسلم » ، العلوم الطبيعية والاجتماعية من وجهة النظر الإسلامية : تحرير إسماعيل الفاروقي وعبد اللّه عمر نصيف (جدة ، عكاظ ، ١٩٨٤م) .

٧ - جمال سلطان : « إشكالية وقت الفراغ » ، المسلم المعاصر ، العدد ٥٥ ، ٥٦ ، (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م) ، (ص ١١ - ٣٠) .

٨ - زكي محمد إسماعيل : « نحو علم اجتماع إسلامي » الإسكندرية : دار المطبوعات الجديدة ، ١٩٨٨م) .

٩ - زكي نجيب محمود : « في تحديث الثقافة العربية » ، (جريدة الأهرام ، ٢١ - ٤ - ١٩٨٧م) .

١٠ - عبد الحليم رضا عبد العال : « قضايا متضاربة في الخدمة الاجتماعية » ، الكتاب السنوي الأول في الخدمة الاجتماعية ، إشراف د . عبد المنعم شوقي (القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٩م) .

١١ - عبد الرؤوف عبد العزيز الجرداوي : « الإسلام وعلم الاجتماع العائلي »

obeikandl.com

(الكويت ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م) .

١٢ - عفاف إبراهيم الدَّباغ : « المنظور الإسلامي لممارسة الخدمة الاجتماعية » خطة بحث لنيل درجة الدكتوراه من المعهد العالي للخدمة الاجتماعية بالرياض ، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م) .

١٣ - عفاف إبراهيم الدَّباغ : « المنظور الإسلامي لتفسير المشكلات الفردية » ، بحث مقدم لندوة التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية (المعهد العالمي للفكر الإسلامي - القاهرة أغسطس ١٩٩١م) .

١٤ - علي حسين زيدان : « دور الخدمة الاجتماعية في العمل مع المنحرفين : منظور إسلامي » ، بحث مقدم لندوة التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية (المعهد العالمي للفكر الإسلامي - القاهرة، أغسطس ١٩٩١م) .

١٥ - عماد الدين خليل : « مدخل إلى إسلامية المعرفة » (المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ١٤١١هـ -١٩٩٠م) .

١٦- عمر عودة الخطيب : « لمحات في الثقافة الإسلامية » (بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٦م) .

١٧ - فاروق أحمد الدسوقي : « مقومات المجتمع المسلم » (بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م) .

١٨ - فؤاد عبد اللَّه نويرة : الإسلام والخدمة الاجتماعية : رسالة دكتوراه نشرتها وزارة الشؤون الاجتماعية بمصر (١٩٥٨م) ، (١٩٦١م) .

١٩ - كمال إبراهيم مرسي : « محاضرات في المدخل إلى التوجيه الإسلامي لعلم النفس » ، مذكرات غير منشورة ، (١٩٩١م) .

٢٠ - لبيب السعيد : « العمل الاجتماعي ، مدخل إليه ودراسة لأصوله الإسلامية » (جدة : دار عكاظ ، ١٩٨٠م) .

٢١ - محمد أحمد عبد الهادي : « الخدمة الاجتماعية الإسلامية » (القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٨م) .

٢٢ - محمد رفقي عيسى : « نحو أسلمة علم النفس » ، المسلم المعاصر ، العدد ٤٦ ، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م) ، (ص ٣١ - ٥٦) .

obeikandl.com

٢٣ - محمد عثمان نجاتي : « منهج التأصيل الإسلامي لعلم النفس » ورقة مقدمة إلى ندوة التأصيل الإسلامي لعلم النفس ، التي نظمها المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالقاهرة ١٩٨٩م .

٢٤- محمد فاروق النبهان : « مبادئ الثقافة الإسلامية » (الكويت : دار البحوث العلمية ، ١٩٧٤م) .

٢٥- مختار عجوبة : « المنطلقات النظرية لمداخل الخدمة الاجتماعية المعاصرة » ، (المؤتمر العلمي السنوي الثالث لكلية الخدمة الاجتماعية بجامعة حلوان ، القاهرة ، ١٩٨٩م) .

٢٦ - مركز البحوث بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية : ندوة التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية (الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - عمادة البحث العلمي ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) .

E . F. O ,Doherty , Religion and Psychology (New york : Alba House , 1978) .

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

المنظور الإسلامي للطبيعة الإنسانية

أ.د. عفاف إبراهيم الدَّباغ

مقدمة

تشكل المعرفة بالطبيعة الإنسانية أساسًا حيويًّا مهمًّا ، تعتمد عليه مهن المساعدة الإنسانية The Helping Professions في عمليات تقديم المساعدة ، بل إنه من الحقائق المعروفة أن كل نظرية ، سياسية أو اقتصادية أو تربوية أو اجتماعية ، يكمن وراءها تصور معين للإنسان ؛ فالنظر في الإنسان ومحاولة الوصول إلى تصور له يطابق – بقدر الإمكان – حقيقته ، ينبغي كما يشير جعفر إدريس ، أن يسبق كل محاولة للنظر في المبادئ الاقتصادية أو النظم الاجتماعية وأسس الرعاية الاجتماعية ؛ لأن معيار صلاحية هذه المبادئ والنظم هو مدى صلاحيتها للإنسان ، ولا يمكن أن نعرف مدى صلاحيتها له إلا إذا عرفنا أولًا ما هو الإنسان [١] .

وإذا كانت الخدمة الاجتماعية هي : « الأنشطة المهنية التي تمارس لمساعدة الأفراد والجماعات والمجتمعات المحلية على زيادة أو استعادة قدراتهم في الأداء الاجتماعي ، ولتوفير الظروف الاجتماعية التي تساعد على تحقيق هذا الهدف » [٢] يصبح تحديد تصور واضح عن الإنسان ، والتعرف على مكوناته وخصائصه ووظيفته في هذه الحياة ، والهدف من وجوده ، إلى غيره من المعارف والقيم المتعلقة بالإنسان ، أساسًا ضروريًّا وحيويًّا يتحدد في ضوئه الهدف من الأنشطة المهنية ، وأساليب ممارستها .

ولقد اهتم العلماء والمفكرون والفلاسفة منذ القدم بدراسة الإنسان ، فنشأت العلوم المختلفة لدراسته من جوانبه المتعددة ، فالعلوم الحيوية تدرس الإنسان من حيث هو كائن حي ، فتدرس أعضاء جسمه ووظائفها ، والعلوم الإنسانية ؛ مثل : علم النفس ، تدرس خواص الإنسان وتكوينه النفسي وسلوكه .

وعلى الرغم من الجهود المتواصلة التي بذلها الباحثون في تلك التخصصات ، إلا أن

---

(١) جعفر شيخ إدريس : « التصور الإسلامي للإنسان أساس لفلسفة الإسلام التربوية » ، المسلم المعاصر ، العدد ١٢ ، (١٣٩٧هـ) ، (ص ١٦) .

(٢) Robert L . Barker The Social Work Dictionary , Maryland : National Association of Social Workers , 1987 , P .154 .

ما أحرزته هذه العلوم من تقدم يعتبر ضئيلًا جدًّا مقارنًا بما أحرزته العلوم الطبيعية ، ويرجع ذلك إلى الطبيعة المعقدة للإنسان ، وأنه كلٌّ لا يتجزأ ، بينما تلك العلوم لا توصلنا إلى فهمه ككل ، كما يرجع إلى وجود مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية غير معروفة - كما أشار إلى ذلك ألكسيس كاريل [١] - لم يستطع العلم الحديث التوصل إليها ؛ نظرا لأنه تحت تأثير المادية العلمية أصبح كل شيء لا يرى بالعين أو لا يلمس باليدين مشكوكًا فيه ، بل إن هذه الأشياء (غير المنظورة أو غير الملموسة) أصبحت مدعاة للسخرية بسبب صلتها المفترضة بالميتافيزيقا . فلا شيء علمي أو حقيقي إلا أن يدرك بالحواس أو يرد إلى أسباب فيزيائية [٢] .

وبناءً على ذلك أصبح من غير الممكن الوصول إلى نتائج وحقائق ذات معنًى عن الإنسان ، لما فيه من جوانب لا يمكن التحقق منها باستخدام ذلك المنهج . ونجد من المتخصصين من ينبه إلى ذلك أمثال إليزابيث سالمون E.Salomon الأخصائية الاجتماعية اليهودية التي تنتقد سيطرة وهيمنة الفلسفة الوضعية على الخدمة الاجتماعية وتقول : إنها تجعلنا ننظر إلى الإنسان ونقيمه بطريقة آلية ، وتقودنا إلى البحث عن المعلومات Knowledge لأنها موضوعية ، وإهمال القيم Values لأنها غير موضوعية [٣] .

كما أشار إلى ذلك بيرنارد كوفلين B.Coughlin - عندما كان عميدًا لمدرسة الخدمات الاجتماعية بجامعة سانت لويس - وأكد على أهمية الأسس الدينية لفهم طبيعة الإنسان [٤] .

ومن هنا يصبح الاعتماد على الوحي كمصدر لمعرفة تلك الجوانب الغيبية للإنسان أمرًا لا بد منه ؛ لذلك فعملية تدبر القرآن الكريم ، وفهم السنة المطهرة من أهم الوسائل البحثية التي تعين في فهم الخصائص الإنسانية .

ولذلك فإن المتخصصين المسلمين في الخدمة الاجتماعية يجدون أنفسهم في مأزق

---

(١) ألكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول ، تعريب شفيق أسعد فريد ، بيروت ؛ مكتبة المعارف ، (١٩٨٦م) ، (ص ١٧) .

(٢) ك. غ يونغ : علم النفس التحليلي ، ترجمة نهاد خياطة ، (ط١) ، دمشق ؛ دار الحوار ، (١٩٨٥م) ، (ص ٢١٤) .

(٣) Elizabeth L . Salomon , Humanistic Valuec and Social Case Work , Social Casework , January , 1967 , P . 27 .

(٤) Ibid .

كبير عند محاولتهم تأصيل الخدمة الاجتماعية تأصيلًا إسلاميًّا ؛ حيث لم يتم بعد بلورة هذه الوجهة الإسلامية لعلم النفس ، وعليه فإنه ليس أمامهم إلا الانتظار الذي قد يطول حتى يقوم رجال علم النفس بتلك المهمة الحيوية ، أما إذا آثروا عدم الانتظار ، فليس أمامهم إلا أن يأخذوا بأفضل ما توصلت إليه المحاولات القائمة في هذا الشأن ، والإسهام بالرأي في تلك المحاولات بالقدر الذي يستطيعونه ، مهما كان ضئيلًا .

لذا فإن هذا البحث سيحاول الإسهام في بلورة التصور الإسلامي للطبيعة الإنسانية في الإطار الذي يمكن استخدامه لتفسير المشكلات الفردية والاجتماعية التي تأتي بها العملاء للأخصائي الاجتماعي ، والاعتماد على ذلك التصور كأساس يوجه التدخل المهني في الخدمة الاجتماعية .

ولتحقيق هذا الهدف ستستقي الباحثة – بقدر المستطاع – المعلومات من المصادر التالية :

١ – نتائج الدراسات العلمية الحديثة .

٢ – نتائج المحاولات الحديثة للتأصيل الإسلامي لعلم النفس .

٣ – القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، وتراث السلف .

محاولة بذلك أن تصل إلى التكامل – الذي يتطلبه منهج التأصيل الإسلامي بمعناه الصحيح – بين ما نستقرئه من المصادر الإسلامية وبين ما يمكن الاستفادة به من نتائج العلوم الحديثة .

ويتناول البحث موضوع الطبيعة الإنسانية من خلال العناصر الآتية :

أولًا : ماهية الإنسان .

ثانيًا : الإرادة الإنسانية .

ثالثًا : الغاية من خلق الإنسان .

رابعًا : الصفات الإنسانية .

أولًا : ماهية الإنسان

يعلمنا اللَّه ﷻ من خلال عدة آيات قرآنية ، أنه خلق آدم – أبا البشر – من طينٍ ثم نفخ فيه من روحه . في مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٨ ، ٢٩] وهذا يدل على ثنائية تكوين الإنسان ، التي كان يؤمن بها الفكر الإنساني

منذ القدم ، فنجد – كما يذكر مدكور – أن الفكر الشرقي القديم كان يدور في جزئه الأعظم حول النفس في أصلها ومعادها ووسائل تهذيبها وتطهيرها ، وقدماء المصريين كانوا يؤمنون إيمانًا جازمًا بالخلود ، وأن الجسم يعود إلى التراب ، والنفس ترجع إلى اللَّه لتثاب أو تعاقب [١] .

وفي الثقافة اليونانية ظهر سقراط وأفلاطون الذي قال : « إن الإنسان هو النفس وإن الجسم آلة » ويذهب إلى أن الجسم يشغلها عن فعلها الذاتي (الفكر) ويجلب لها الهم بحاجاته وآلامه ، وأنه تقهره وتعمل على الخلاص منه [٢] وهذا قريب مما قاله الغزالي فيما بعد .

ثم جاء أرسطو بأول دراسة منظمة مبوبة في كتابه عن « الروح » ، وكان لبحوثه أثر واضح على فلاسفة الإغريق وفلاسفة العرب ، أمثال « ابن سينا » ، و« ابن رشد » [٣] . ويقول كارل يونج (G.Jung) أن البشرية كلها ظلت تؤمن أن الروح له وجود مستقل حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ؛ حيث شيدت لنفسها اعتقادًا جديدًا يقوم على مبدأ « علم النفس بلا نفس » أو « علم الروح بلا روح » وذلك تحت تأثير « المادية العلمية » ، ومنذ ذلك الحين أخذ الإيمان بأن للروح وجودًا مستقلًّا يتراجع أمام القناعة بأن الوجود هو للأشياء المادية وحدها حتى صار قادة الفكر والبحث في أوربا ينظرون إلى العقل على أنه تابع للمادة وللسببية المادية تبعية مطلقة [٤] .

ولذلك انتقل علم النفس إلى دراسة السلوك الخارجي ، حتى سماه البعض بعلم السلوك الذي يدرس السلوك الظاهري ، وليس له أن يستنتج أن للإنسان شعورًا أو عقلًا ؛ لأن هذه أمور لا يمكن ملاحظتها [٥] .

وهذه « المادية العلمية » تمثل عند توماس بري النظرة القديمة للعلم . وعلماء النفس في هذه النظرة القديمة يتفقون على أن الغرائز والانفعالات هي التي تقود الإنسان ،

(١) إبراهيم مدكور : في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه ، مصر : دار المعارف ، (١٩٧٦م) ، (١٢٦/١) .
(٢) عبد الرحمن شاه ولي : الكندي : وآراؤه الفلسفية ، إسلام آباد : مجمع البحوث الإسلامية ، (١٣٩٤هـ ، ١٩٧٤م) ، (ص ٣٧١) .
(٣) عبد العزيز القوصي : علم النفس أسسه وتطبيقاته التربوية ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، (١٩٧٨م) ، (ص ٢٢ ، ٢٣) .
(٤) ك . غ . يونغ : مرجع سبق ذكره ، (ص ٢١٥) .
(٥) عبد العزيز القوصي : مرجع سبق ذكره ، (ص ٢٦) .

ولكنهم يختلفون بصدد تحديد الغريزة الأساسية . بعضهم مثل هوبز (Hobbes) ، يزعمون أنها الخوف من الموت ، بينما يقول مالتوس (Malthus) : إنها غريزة الجوع ، وفرويد (Freud) يقول : إنها غريزة الجنس .

ثم ظهر المذهب السلوكي الذي أسسه جون واطسون (Watson) وهو لا يحاول أن يستمد العقل من المادة ، ولكنه يتساءل لماذا ينبغي على العلم أن يعترف بالعقل أصلًا إذا لم يكن قط مصدرًا لأي تفسير علمي ؟ وتبعًا لذلك تؤكد السلوكية أن جسم الإنسان هو الحقيقة الإنسانية الوحيدة ، وعليه فإنه لا شيء في الإنسان يمكن أن يبقى بعد الموت ، فإذا كان التفكير والإرادة نشاطين من أنشطة الدماغ فليس هناك سبب يجعلهم يفترضون أن هذين النشاطين يمكن أن يستمرا بعد فناء الدماغ ، وبالرغم من وضوح تفسير العقل في النظرة القديمة ، إلا أنه ما من أحد في القرن التاسع عشر استطاع أن يحدد بالضبط كيفية انبثاق العقل من المادة . إلى أن جاءت الكشوف الجديدة في القرن العشرين لتقدم نظرة جديدة ، بدأت بتشارلز شرنفتون الذي يعتبر مؤسس فسيولوجيا الأعصاب الحديثة . ولقد خلص إلى ما يلي :

« هكذا ظهر فرق جذري بين الحياة والعقل ، فالحياة هي مسألة كيمياء وفيزياء ، أما العقل فهو يستعصي على الكيمياء والفيزياء » [١] .

إلا أنه في الآونة الأخيرة - وبفضل اللَّه - ظهرت العديد من الكتابات حول موضوع طبيعة الإنسان ، من مفكرين مسلمين ، ومتخصصين في علم النفس استخدموا فيها المصادر سابقة الذكر ، ولقد صنف أبو حطب المحاولات التي بذلت من المتخصصين إلى ستة اتجاهات ، تناولها بالنقد وأوضح مميزات كل منها [٢] . وسوف يستعين هذا البحث - بإذن اللَّه - بهذه الكتابات بعد الاعتماد على المصادر الرئيسية (كما سبق الإشارة) ؛ لتوضيح النظرة الإسلامية لطبيعة الإنسان ومكوناته - بالقدر الذي يفيدنا - وذلك على النحو التالي :

١ - حول النفس والروح :

يقول الراغب الأصفهاني في ماهية الإنسان : « أنه مركب من جسم مدرك بالبصر ،

---

(١) روبرت م . أغروس وجورج ن . ستانسيو ، العلم في منظوره الجديد ، ترجمة : كمال خلايلي ، الكويت : عالم المعرفة ، (١٩٨٩م) ، (ص ٢٦) .

(٢) فؤاد أبو حطب : نحو وجهة نظر إسلامية لعلم النفس ، ندوة علم النفس التي نظمها المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، (١٩٨٩م) ، (ص ٤٦ - ٥٨) .

ونفس مدركة بالبصيرة » [١] والنفس المفارقة للبدن بالموت - كما يقول ابن تيمية - ليست جزءًا من أجزاء البدن ولا صفة من صفاته . والروح المدبرة للبدن التي تفارقه بالموت هي الروح المنفوخة فيه ، وهي النفس التي تفارقه بالموت . قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾ [الزمر: ٤٢] فقد سمى المقبوض وقت الموت ووقت النوم روحًا ونفسًا . وسمى المعروج به إلى السماء روحًا ونفسًا. ولكن يسمى نفسًا باعتبار تدبيره للبدن ، ويسمى روحًا باعتبار لطفه [٢] . وهذا يوافق ما نقله ابن كثير عن السهيلي في تفسيره للآية الكريمة : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥] حيث قال : « إن الروح هي أصل النفس ومادتها والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن فهي هي من وجه ، لا من كل وجه » [٣] .

وفي هذا المعنى - كما ترى الباحثة - حسم معقول للآراء الكثيرة والمختلفة التي وردت في التفريق بين الروح والنفس . ولقد استعرض الرازي هذه الآراء بالتفصيل في تفسيره [٤] .

ولقد أخذ بهذا المعنى من المحدثين محمد رشاد خليل ، بعد تأكيده على أن الإسلام يقرر وحدة الذات الإنسانية التي تتكون من الروح والجسد معًا ، وأن الإنسان يعمل ككل ، وهو مسؤول ومحاسب ككل باعتبار هذه الوحدة ، إلا أن الإسلام يقرر في نفس الوقت أن الروح مخلوق مفارق يدخل في الجسم و يخرج منه ، ولها نشاط مستقل تمامًا عن الجسد وهي موجودة فيه ، وذلك بجوار نشاطها باعتبارها وحدة واحدة مع الجسد [٥] .

---

(١) أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني : الذريعة إلى مكارم الشريعة ، تحقيق : أبو اليزيد العجمي ، الطبعة الثانية ، المنصورة ؛ دار الوفاء ، (١٩٨٧م) ، (ص ٧٥) .

(٢) أحمد بن تيمية : مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، (٣٦ ج) ، الطبعة الأولى ، جمع وترتيب : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي وابنه محمد ، الرياض : مطابع الرياض ، (١٣٨١هـ) ، (٢٧٢/٩ - ٢٨٩) .

(٣) أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي : تفسير ابن كثير ، (٤ ج) ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار الفكر ، (٦٢/٣) .

(٤) محمد الرازي فخر الدين : تفسير الفخر الرازي ، (١٦م) ، الطبعة الثالثة ، بيروت : دار الفكر ، (١٩٨٥م) ، (٣٧/١١ - ٥٣) .

(٥) محمد رشاد خليل : علم النفس الإسلامي العام والتربوي ، الكويت : دار القلم ، (١٩٨٧م) ، (ص٦٥ ، ٦٦) .

ويقول ابن القيم الذي يأخذ بترادف المعنى لكلمة نفس وروح : « إن الروح جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس ، وهو جنس نوراني علوي خفيف حي متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد ، والنار في الفحم » . ويؤكد على صواب هذا القول حيث دل عليه الكتاب والسنة وإجماع الصحابة . (١) ويستطرد محمد خليل فيقول : إنه قد ظهر النشاط الخاص بالروح بصورة أجبرت كثيرًا من الباحثين في الغرب على الاهتمام بها ، ورصدها بصورة تقطع بها باعتبارها حقيقة علمية (٢) .

ويقول عباس العقاد : « إن الروح في الكتاب المبين هو أقرب القوى إلى الحياة الباقية ، وأخفاها عن المدارك الحسية . وأنه الجانب الذي استأثر اللَّه بعلمه واحتجب عن أنبيائه ؛ لأنه سر الوجود المطلق ، لا قدرة للعقل الإنساني المحدود على الإحاطة به ووعيه إلا بما يناسبه من الإشارة والتقريب » (٣) .

أما النفس فلقد وصفت في القرآن الكريم بثلاث صفات ، فهي أمارة بالسوء ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف : ٥٣] ، فإذا عارضها الإيمان صارت لوامة ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة : ٢] تفعل الذنب ثم تلوم صاحبها ، وتلوم بين الفعل والترك ، إذا قوي الإيمان صارت مطمئنة ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر : ٢٧] ؛ ولهذا قال النبي ﷺ : « **من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن** » (٤) .

وفي العلاقة بين النفس والجسد ، يشبه الغزالي نفس الإنسان في بدنه مثل ملك في مدينته ، ولا يمكن للعبد أن يصل إلى اللَّه سبحانه ما لم يسكن البدن ولم يجاوز الدنيا ، فإن المنزل الأدنى لا بد من قطعه للوصول إلى المنزل الأقصى ، فالدنيا مزرعة الآخرة (٥) ، وواضح هنا أنه استخدم كلمة نفس قاصدًا بها الروح ، والغزالي لا يجعل من علاقة النفس بالبدن أمرًا موجبًا لألم النفس وعذابها وشعورها بالغربة والسجن ؛ لأنه لا يغالى في احتقار

---

(١) ابن قيم الجوزية : الروح ، تحقيق : محمد إسكندر يلدا ، بيروت : دار الكتب العلمية ، (١٩٨٢م) ، (ص ٢٤٢) .

(٢) محمد رشاد خليل : مرجع سبق ذكره ، (ص ٦٧) .

(٣) عباس محمود العقاد : الإنسان في القرآن الكريم ، بيروت : المكتبة العصرية ، بدون تاريخ ، (ص ٣٢) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل (٣٩٨/٤) .

(٥) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي : إحياء علوم الدين ، (٤ج) ، دمشق : مكتبة عبد الوكيل الدروبي ، بدون تاريخ ، (٥/٣) .

مادة الإنسان الجسدية [١] . كما فعل ذلك أفلاطون ، فيما سبق الإشارة إليه .

٢ – حول العقل والقلب :

يشير الغزالي إلى وجود معانٍ مختلفة للعقل ، من جملتها معنيان :

أحدهما يراد به العلم بحقائق الأمور ، فيكون صفة العلم الذي محله القلب ، والثاني يراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب [٢] . ويقول ابن تيمية : إن اسم العقل عند المسلمين إنما هو صفة ، وهو الذي يسمى عرضًا قائمًا بالعاقل ، وعلى هذا دل القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف : ٣] ، ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٨] . ونحو ذلك مما يدل على أن العقل مصدر عقل يعقل عقلًا ، وإذا كان كذلك ؛ فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه ، ولا العمل بلا علم ، بل إنما يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم ، والعقل قائم بنفس الإنسان التي تعقل . وأما من البدن فهو متعلق بقلبه ، أما إذا أريد بلفظ القلب باطن الإنسان مطلقًا ؛ فالعقل متعلق بدماغه أيضًا ولهذا قيل : إن العقل في الدماغ [٣] . ومما يدعو للدهشة موافقة يونج على هذا المعنى ؛ حيث يقول : « نحن نحسب أن أفكارنا تقوم في رؤوسنا ، ولكن عندما يتعلق الأمر بمشاعرنا نبدأ في التردد ، يبدو أنها تقيم في منطقة القلب » . كما يشير إلى ما يقوله هنود البوابلو عن الأمريكيين من أنهم قوم مجانين ؛ لأنهم يعتقدون بأن أفكارهم محلها رؤوسهم ، على حين أن الإنسان العاقل يعلم أنه إنما يفكر بقلبه [٤] .

والقلب عند الغزالي هو الروح الإنساني المتحمل لأمانة اللَّه ، المتحلي بالمعرفة ، المركوز فيه العلم بالفطرة ، الناطق بالتوحيد بقوله : بلى ، فهو أصل الآدمي ونهاية الكائنات في عالم المعاد [٥] .

ويقول في موضع آخر : إن الإنسان خلق من بدن وقلب ، وإن بالقلب حقيقة روحه

---

(١) عبد الكريم العثمان : الدراسات النفسية عند المسلمين ، الطبعة الثانية ، القاهرة : مكتبة وهبة ، (١٤٠١هـ ، ١٩٨١م) ، (ص ١٤٣) .

(٢) أبو حامد الغزالي : مرجع سبق ذكره ، (٤/٣) .

(٣) ابن تيمية : مرجع سبق ذكره ، (م ٩) ، (ص ٢٨٦ ، ٣٠٣) .

(٤) ك . يونغ : مرجع سبق ذكره ، (ص ٢٢٥) .

(٥) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي : معارج القدس في مدارج معرفة النفس ، الطبعة الخامسة ، بيروت : دار الآفاق الجديدة ، (١٤٠١هـ ، ١٩٨١م) ، (ص ١٦ ، ١٧) .

التي هي محل معرفة اللَّه [١] .

ويشير ابن تيمية إلى أن صلاح القلب وحقه الذي خلق من أجله هو أن يعقل الأشياء ، لا أن يعلمها فقط ، فقد يعلم الشيء من لا يكون عاقلًا له ، بل غافلًا عنه ، والذي يعقل الشيء هو الذي يقيده ويضبطه ويعيه ويثبته في قلبه ، فيكون وقت الحاجة إليه غنيًّا فيطابق عمله قوله ، وباطنه ظاهره ، وذلك هو الذي أوتي الحكمة ، فإذا كان حق القلب أن يعلم الحق ، فإن اللَّه هو الحق المبين [٢] .

وكأن هناك مستويين للعلم : علم غير عاقل . فالإنسان يمكن أن يعلم الشيء ولكن لا يعقله : ولكن إذا عقله فهو بالضرورة علمه . ويصل الإنسان إلى مستوى – عقل الشيء – متى اتصل العلم بقلبه ، أي بوجدانه فيندمج معه ، وحينئذٍ تصدر عن هذا الاندماج الإرادة المحركة للسلوك . ولقد قيل في العلاقة بين القلب والنفس : « إن النفس تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا ، والرب يدعو عبده إلى خوفه ونهي النفس عن الهوى ، والقلب بين الداعيين ، يميل إلى هذا الداعي مرة ، وإلى هذا مرة ، وهذا هو موضع المحنة والابتلاء » [٣] .

فالقلب في محاولته السيطرة على الجوارح ، يتأثر بالنفس والهوى فإذا استطاع أن يتغلب على نفسه ، فإن هذا يدل على نجاح عملية الدمج بين العلم والوجدان ، وظهرت نتيجتها المرجوة على سلوكه ، أما إذا لم ينجح في التغلب على أهوائه ونفسه ، تكون عملية الدمج قد فشلت ونتج عن ذلك إرادة فاسدة وسلوك منحرف .

وانطلاقًا من أهمية المعرفة للإنسان والعقل بالمعنى المذكور سابقًا ؛ عرف الأصفهاني الإنسان بأنه : « من عرف الحق فاعتقده ، والخير فعمله بحسب وسعه » ، وهذا هو الإنسان بالمعنى « الخاص » ، أما الإنسان بالمعنى « العام » فهو : « كل منتصب القامة مختص بقوة الفكر ، واستفادة العلم » ، فالإنسانية بالمعنى العام ، هي ما توفر للإنسان من ماهية بحسب الخلقة ، أما الإنسانية بالمعنى « الخاص » فهي ما يكتسبه الإنسان بسعيه من اعتقاد الحق وعمل الخير . وهذا المعنى يتفاضل فيه الناس ويتفاوتون تفاوتًا

---

(١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي : المنقذ من الضلال ، تقديم عبد الحليم محمود ، القاهرة : دار الكتب الحديثة ، بدون تاريخ ، (ص ١٥٣) .

(٢) ابن تيمية : مرجع سبق ذكره ، (٣٠٧/٩ – ٣١٢) .

(٣) ابن رجب الحنبلي ، ابن القيم ، أبو حامد الغزالي : تزكية النفوس وتربيتها ، تحقيق ماجد بن أبي الليل ، جمع وترتيب أحمد فريد ، بيروت : دار القلم ، بدون تاريخ ، (ص ٦٩) .

بعيدًا ، وبحسب تحصيله تستحق الإنسانية .

ثانيًا : الإرادة الإنسانية

لعله من أكثر القضايا التي أثارت الجدل هي قضية الإرادة لدى الإنسان ، ويعتبر فهمها على الوجه الصحيح ضرورة لتثبيت العقيدة وتنقيتها من أي شبهات ، ومتى حدث هذا ، فستطمئن نفس الإنسان – بإذن ربها – وسيُسلِّم الإنسان وجهه للَّه ويعبده ويستعين به ، ولا يتكل ، بل يتوكل عليه .

ويتميز الإنسان عن باقي الكائنات بكونه مكلفًا ومسؤولًا ، واللَّه سبحانه هيأه للقيام بهذا التكليف وتحمل المسؤولية ، فمنحه حرية الإرادة فهو يفعل الخير مختارًا فيثاب عليه ، ويفعل الشر مختارًا فيعاقب عليه . قال ﷻ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] ولقد خلق اللَّه الإنسان مستعدًّا لأن يسعد نفسه بالخير أو يشقيها بالشر كما في قوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد : ١٠] ، واتفقت التفاسير في معنى النجدين أنه طريق الخير والشر . وفي آية أخرى ، ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٧ – ١٠] ومعنى ﴿ فَأَلْهَمَهَا ﴾ ، عرَّفها . الفجور والتقوى هي المعصية والطاعة مطلقًا . والمقصود أن اللَّه سبحانه قد بيَّن للنفس ما ينبغي لها أن تأتي أو تذر من خيرٍ أو شرٍّ ، أو طاعة أو معصية [١] . وقال سبحانه في آية أخرى ، ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان : ٣] والمراد من هداية السبيل خلق الدلائل ، وخلق العقل الهادي ، وبعثة الأنبياء ، وإنزال الكتب ، والسبيل هو سبيل الخير والشر ، النجاة والهلاك . ومجاز قوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ قول القائل : قد نصحت لك إن شئت فأقبل ، وإن شئت فاترك [٢] . وكما تدل هذه الآيات على «حرية إرادة الإنسان ، فإنها تشير أيضًا إلى أن الخير هو في طاعة اللَّه ورسوله ، والشر هو في معصية اللَّه ورسوله ، فلا شيء يحدد ما هو خير وما هو شر سوى هذا المبدأ ، فلا نسبية في القيم العامة والأخلاق ، ولا سيطرة للثقافة المجتمعية إلا في حدود ما شرعه اللَّه ، ولا اعتبار لمصالح الفرد أو المجتمع إلا في هذه الحدود أيضًا . فشرع اللَّه يمثل الحق الذي في ضوئه

(١) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ٣٠ جـ ، بيروت : دار المعرفة ، (١٤٠٩هـ) ، (١٣٤/٣٠) .

(٢) محمد الرازي فخر الدين : مرجع سبق ذكره ، (٢٣٨/٣٠) .

تصل إلى الحقيقة . وفي حديث للرسول ﷺ . أنه قال : « **كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى** . قالوا . يا رسول اللَّه ، ومن يأبى ؟ قال : **من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى** » (١) .

ففي هذا الحديث دلالة قوية واضحة على إرادة الإنسان ومسؤوليته وإلى موطن الخير .

فالإنسان إذًا ذو حرية واختيار ، ولكن هل يتعارض هذا مع الإيمان بأن اللَّه عَلِمَ ما سيكون كله قبل أن يكون ؟ فاللَّه ﷻ علم أهل الجنة من أهل النار من قبل أن يعملوا الأعمال . كما ورد في الصحيحين عن علي بن أبي طالب ﷺ قال : « كنا مع رسول اللَّه ﷺ ببقيع الفرقد في جنازة . فقال : **ما منكم أحد إلا قد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة** . فقالوا : يا رسول اللَّه أفلا نتكل على الكتاب وندع العمل ؟ قال : **اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة . وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة ، ثم قرأ قوله تعالى** : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل : ٥ - ١٠] (٢) وكما يوضح ابن تيمية ، فإن اللَّه ﷻ يعلم الأمور على ما هي عليه ، وهو قد جعل للأشياء أسبابًا تكون بها ، فيعلم أنها تكون بتلك الأسباب . فهو يعلم مثلاً أن هذا (شخص ما) ينبت له الزرع بما يسقيه من الماء ويبذره من الحبِّ ، فلو قال : إذا علم أن سيكون فلا حاجة إلى البذر ، كان جاهلًا ضالًّا ، لا بد من الأسباب التي علم اللَّه أن هذه الأمور تكون بها ؛ ولهذا أمر الناس بالدعاء والاستعانة باللَّه وغير ذلك من الأسباب ، فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب ، واللَّه خالق الأسباب والمسببات ، وكذلك أمر الآخرة ، ليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة ، بل هي سبب ؛ ولهذا قال النبي ﷺ : « **إنه لن يدخل أحدكم الجنة بعمله** . قالوا : ولا أنت يا رسول اللَّه ! قال : **ولا أنا ، إلا أن يتغمدني اللَّه برحمة منه وفضل** » (٣) وقد قال تعالى : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٣٢] فهذه باء السبب ، أي ؛ بسبب أعمالكم ، والذي نفاه الرسول ﷺ باء المقابلة ، كما يقال : اشتريت هذا بهذا ، أي ليس العمل عوضًا وثمنًا كافيًا في دخول الجنة ،

---

(١) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري : صحيح البخاري ، (٤ م) ، بيروت : دار الفكر ، بدون تاريخ ، (م ٤) ، (جـ ٨) ، كتاب الاعتصام ، (ص ١٣٩) .

(٢) أبو الحسين مسلم بن الحجاج : صحيح مسلم ، (٤ م) ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار الفكر ، (١٣٩٨ هـ ، ١٩٧٨م) ، (م ٤) ، كتاب القدر ، (ص ٣٩ ٢٠) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل (٦٥٢/٢) .

بل لا بد من عفو اللَّه وفضله ورحمته » [١] .

ولقد ضل كثير من الناس في هذا الموضع ، قسمهم ابن تيمية إلى فريقين ؛ فريق آمنوا بالقدر ، وظنوا أن ذلك كافٍ في حصول المقصود ، فأعرضوا عن الأسباب الشرعية والأعمال الصالحة ، وفريق أخذوا يطلبون الجزاء من اللَّه كما يطلبه الأجير من المستأجر ، متكلين على حولهم وقوتهم وعملهم ، وهؤلاء جُهَّال ضُلَّال . فإن اللَّه لم يأمر العباد بما أمرهم به حاجة إليه ، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلًا به ، ولكن أمرهم بما فيه صلاحهم ، ونهاهم عما فيه فسادهم ، وهو سبحانه غني عن العالمين ، وجميع ما ينالون به الخيرات من قواهم وغير قواهم هي بفضله ، فكذلك الثواب والجزاء هو بفضله ، وإن كان أوجب ذلك على نفسه ، كما حرم على نفسه الظلم [٢] . وكل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل ، كما في الحديث القدسي : « **يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرًا فليحمد اللَّه ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه** » [٣] .

فيما سبق تم توضيح بعض جوانب تلك القضية المهمة ، بشيء من التفصيل وذلك نظرًا لأهميتها الخاصة بالنسبة للأخصائي الاجتماعي ، الذي يتعامل مع من لديهم مشكلات قد يكون من أسبابها وقوعهم في الضلال المشار إليه سابقًا – نتيجة جهلهم ، فإذا أعطى العذر للناس على جهلهم ، فلا نستطيع إعطاءه للأخصائي وهو في موقع المسؤولية ، ولكن للأسف أن ما يعرفه الأخصائي حول مثل هذه القضايا – من الوجهة الإسلامية – يتساوى مع غيره نظرًا لما تفتقر إليه مناهج الإعداد المهني لهذه الجوانب ، بل قد تكون بعض المعارف التي اكتسبها أثناء إعداده سببًا في زيادة بعده عن المفاهيم الإسلامية ، فما تعلمه حول هذا الموضوع يتمثل في أفكار ومفاهيم النظريات الغربية ، التي وإن لم تتعرض لتقدير اللَّه سبحانه لسلوك العباد ، فإنها تفترض جبرًا من أنواع أخرى مادية ، يمثل ذلك ما قاله فرويد مثلًا من أن الإنسان تحكمه القوى البيولوجية ، فكل ما يقوم به وما يفكر فيه – بل وما يراه في منامه أيضًا – نتيجة تأثير قوى داخلية لا شعورية تسيطر عليه وبذلك فليس للإنسان – في نظر فرويد – إرادة حرة تذكر ، وكذلك الحال لدى سكنر (ممثل النظرية السلوكية) الذي سلب الإنسان حرية إرادته ، فشبهه بالآلة فقال : إنه (A complex System Behaving in Lowful Way) ، وهو

---

(١) ابن تيمية : مرجع سبق ذكره ، (م ٨) ، (ص ٦٥ – ٧٣) .

(٢) المرجع السابق ، (ص ٧١) .

(٣) أبو الحسين مسلم ، مرجع سبق ذكره ، (م ٤) ، كتاب البر ، (ص ١٩٩٥) .

يغاير فرويد تمامًا فيما يراه من مسببات للسلوك ودوافعه حيث يرجعهما إلى قوى خارجية بالبيئة المحيطة [١] . وعليه فإنه يرى أن الناس لا يملكون الحرية ، وأنهم غير مسؤولين عن أعمالهم ، ولا يجب أن نوجه إليهم اللوم عندما يفشلون ، أو نمدحهم عندما ينجحون . وهو يرى أن المهندس الاجتماعي (Social Engineer) المتفهم لكل أسس التعلم ، يمكن أن يشكل الناس في أي صورة مرغوبة سواء للخير أو للشر [٢] والواقع أنه يمكن أن نستخلص – من النظريتين – ما يفيدنا في الوجهة الإسلامية ، فلقد نجح فرويد – بلا شك – في تحذيرنا من قوة الدوافع البيولوجية التي تقابل في معظمها الشهوات – وخطورة تأثيرها على الإنسان (فيما سيأتي عرضه مفصلًا) كما أن سكنر نجح في توضيح أهمية البيئة ودورها في تعليم الإنسان وتكوين معارفه واتجاهاته وقيمه . إلا أن كلًا منهما قد فشل في الاعتراف بإرادة الإنسان ، التي يستطيع أن يستخدم بها معرفته في التحكم بشهواته . وإن فرويد وسكنر يمثلان النظرة القديمة للعلم التي كان من نتائجها : « أن العقل البشري لا يستطيع أن يختار بحرية ؛ لأن المادة لا تتصرف إلا بضرورة ميكانيكية » [٣] ولكن بعد أن أثبت العلم أن الإرادة البشرية غير مادية ، لم تعد هناك كما يقول أكلس أسباب علمية وجيهة لإنكار حرية الإرادة . بل إن إنكار حرية الإرادة يجعل من العلم كله أمرًا منافيًا للعقل » [٤] .

تلك هي بعض النظريات الغربية التي يتعلمها الأخصائي الاجتماعي أثناء إعداده المهني ، وكما هو واضح اختلافها وتعارضها ، فإنه واضح أيضًا بُعدها عن المفهوم الإسلامي ، وإن كان العلم الحديث قد أثبت حرية الإرادة لدى الإنسان ، إلا أنه لم يأخذ في اعتباره الإرادة الإلهية التي بها يتضح موقع الإرادة الإنسانية . قال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٩] .

ثالثًا : الغاية من خلق الإنسان

قد يغفل الكثير من الناس عن التأمل والتدبر في حقيقة الغاية من خلقهم في هذه الحياة الدنيا ، كما أرادها الخالق ﷻ ، وذلك نتيجة انشغالهم بأمور حياتهم اليومية ،

---

(١) Duane Scultz , Theoris of Personality , Second ed , Monterey , California : Brooks / col , 1981 P . 46 .

(٢) Ibid , P . 285 .

(٣) فاروق عبد الفتاح موسى : أسس السلوك الإنساني ، الرياض : دار عالم الكتب ، (١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م) ، (ص ٤٥) .

(٤) روبرت أغروس وجورج ستانسيو : مرجع سبق ذكره ، (ص ٢٥) .

فتحتل الأهداف قصيرة – المدى – الجزء الأكبر من اهتمامهم وتفكيرهم ، فينسون أن ما يسعون لتحقيقه ، لا يمثل في واقع الأمر سوى وسائل لتحقيق الهدف البعيد ألا وهو العبودية للَّه ﷻ في هذه الحياة الدنيا لكي ينالوا نعيم الحياة الآخرة .

يصف يونج (المتوفى عام ١٩٦١م) المرحلة التي نعيشها بأنها أعظم ما تكون قلقًا وتوترًا عصبيًّا ، وانحرافًا في نظرتنا إلى الحياة ، ويذكر أن العديد من الناس المثقفين جاءوه لا لأنهم كانوا يشكون من صعاب ، وإنما لأنهم لم يستطيعوا أن يجدوا معنى للحياة ، وكانوا يرهقون أنفسهم بأسئلة لا يسع الفلسفة المعاصرة ولا الدين أن يجيبهم عليها [١] . بينما يخالفه كوفلين ؛ إذ يقول : إن هذه الأسئلة التي يتساءلها الإنسان دائمًا عن الهدف من حياته ، وعن معنى الحياة ، لن يجد لها إجابة باستخدام العقل وحده ، أو المعارف الإمبيريقية ، ولكن هي وظيفة الدين أن يجيب عليها [٢] . والواقع أن يونج بإشارته إلى الدين – الدين المسيحي المحرف – فهو يرى أن ما جاء به في هذا الصدد لا يقنع الكثير من الناس بل يزيد من حيرتهم .

ويذكر إريك فروم أنه خلال القرون الماضية – وحتى القرن السابع عشر والثامن عشر لم يكن الهدف من الحياة هو ممارسة أقصى ما يمكن من المتع والملذات البدنية ، فقد كان المعلمون الكبار معنيين بسعي الإنسانية لتحقيق أعلى درجة من الحياة الطيبة ، مع الاهتمام بالتمييز بين الرغبات (الاحتياجات) المستندة إلى مشاعر ذاتية والتي لا يؤدي إشباعها إلا إلى لذة وقتية ، ونوع آخر من الرغبات لها جذورها في الطبيعة البشرية ، ويؤدي إشباعها إلى مزيد من النضج الإنساني والحياة الطيبة (يقصد الدينية والروحية) .

وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر ، نادى الفلاسفة بنظرية : أن الهدف من الحياة هو تحقيق كل رغبات الإنسان ، ولقد ظهر هذا المفهوم بعد أن تحول معنى « الكسب » من « الكسب الروحي » إلى الكسب المادي والربح النقدي ، وذلك عندما تمكنت الطبقة الوسطى ليس فقط من تحطيم أغلالها السياسية ، وإنما حطمت أيضًا كل روابط الحب وعلاقات التكافل ، واعتقدت أن حياة الإنسان من أجل نفسه فقط تعني تعظيمًا لذاته وليس إنقاصًا لها ، فقد اعتبر هوبز أن السعادة هي التقدم المطرد دائمًا من شهوة لشهوة .

ثم ظهرت نظريات أخلاقية عديدة كان بعضها أشكالًا أكثر تهذيبًا لمذهب اللذة ، مثل كانت ، وماركس ، ولكن العصر الحالي يشهد – إلى حد كبير – عودة إلى أفكار

---

(١) روبرت أغروس وجورج سانسيو ، (ص ٤١) . (٢) ك . يونغ : مرجع سبق ذكره ، (ص ٢٧٤) .

وممارسات مذهب اللذة الراديكالي [١] . فنجد فرويد مثلًا يرى أن هناك هدفًا مطلقًا واحدًا في الحياة ، وهو التقليل من التوتر [٢]. أما يونج فيرى في بقاء وتكاثر النوع والنمو الارتقائي المستمر أغراضًا نهائية لحياة الإنسان وعلاقاته مع العالم الخارجي [٣] . بينما يرى إدلر أن الهدف النهائي للإنسان هو أن يكون متفوقًا ، وهو لا يعني بالتفوق الامتياز الاجتماعي أو المنزلة المرموقة في المجتمع ، إنما هو عمل من أجل بلوغ الكمال ، وأنه الدافع الأعظم إلى الأمام [٤] . وهو بهذا المعنى يتفق مع روجرز الذي يرى في تحقيق الذات الهدف المطلق لحياة الإنسان [٥] . وكذلك كورت جولد شتين الذي يرى في تحقيق الذات القوة الدافعة الرئيسية ، ويعني بها أن الإنسان يحاول على الدوام تحقيق إمكاناته الكامنة . وهذه الوحدانية في الغرض هي التي تحدد لحياة الإنسان اتجاهها وتمنحها وحدتها [٦] .

وماسلو الذي يعرف الإنسان بأنه « حيوان ذو رغبات متجددة » The human being is wanting animal يرى في إشباع هذه الحاجات ، والتي في قمتها تحقيق الذات مهمة الإنسان خلال حياته [٧] . أما إريك فروم فهو يؤكد على حاجة النوع الإنساني إلى إطار للتوجيه وموضوع للعبادة أي حاجته إلى دين [٨] . ويشير إلى خطورة فقدان مثل هذا الإطار وما قد يصيب الإنسان من ارتباك وعجز عن الفعل الهادف المنسق ؛ نظرًا لأنه سيفتقد المعنى من وراء وجود الكون . ويقول : « نحن في حاجة إلى موضوع نكرس من أجله كل حياتنا ؛ لجعل طاقاتنا تتكامل في اتجاه واحد ، ولكي نشبع حاجتنا لأن يكون لحياتنا معنى » [٩] .

---

(١) Bnard J . Coughlin , op . cit . P . 84 .

(٢) إريك فروم : الإنسان بين الجوهر والمظهر ، ترجمة سعد زهران ، الكويت : عالم المعرفة ، (١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م) ، (ص ٢١ - ٢٣) .

(٣) Duane Schultz , op . cit P . 47 .

(٤) ك. هول ، ج ، لندزي : مرجع سبق ذكره ، (ص ١٠٥) .

(٥) المرجع السابق ، (ص ١٦٤) .

(٦) Duane Schultz , op . cit 237 .

(٧) ك . هول ، ج . لندزي : مرجع سبق ذكره ، (ص ٣٩٢) .

(٨) Abraham H . Maslow , Motivation and Personality , New york : Harper & Row , Third ed , 1987 P . 7

(٩) إريك فروم : الدين والتحليل النفسي ، ترجمة فؤاد كامل ، القاهرة : مكتبة غريب ، بدون تاريخ ، (ص ٢٨) .

يتضح من الأمثلة السابقة – وكما قال يونج – محدودية النظرة الحالية واقتصارها على الأهداف المادية التي – كما يظنون – تحقق سعادة الإنسان في هذه الدنيا . وهذا نتيجة لقطعهم الصلة بين الإنسان وخالقه ، ولاستبعادهم بالكلية الحياة الأخرى ، فإذا لم تكن هناك حياة أخرى ، وبموت الإنسان تموت نفسه وروحه ، بمعنى لا حياة للنفس بعد موت الجسد ، فإنه من الطبيعي أن يصبح هدف الإنسان هو تحقيق أقصى قدر ممكن من المتعة والسعادة في الحياة الدنيا .

ولذلك فالنظرة الإسلامية تغاير تمامًا المنظور الغربي ، فما يرونه أهدافًا هي (في أحسن صورها) وسائل للهدف الرئيس من المنظور الإسلامي الذي نوضحه فيما يلي :

يقول عز مِنْ قائل : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ؛ لذلك نجد معظم علماء الإسلام المحدثين يتفقون على أن الغاية من خلق الإنسان هي عبادة اللَّه . ويقول ابن عاشور في تفسيره ﴿ لِيَعْبُدُونِ ﴾ أن اللام لام العلة ، أي ما خلقتهم إلا لعلة عبادتهم إياي ، أي ما أرضى لوجودهم إلا أن يعترفوا لي بالتفرد بالإلهية ، أما معنى العبادة فهي إظهار الخضوع للمعبود واعتقاد أنه يملك نفع العابد وضره ملكًا ذاتيًا مستمرًا ، فالمعبود إله للعابد [١] .

ويقول الأصفهاني : إن كل نوع أوجده اللَّه تعالى في هذا العالم ، أو هدى بعض الخلق إلى إيجاده وصنعه ، فإنه أوجده لفعل يختص به ، ولولاه لما وجد ، وله غرض لأجله خُصَّ بما خصَّ به » [٢] ولقد استخدم الأصفهاني كلمة « أوجد » لتنطبق على الكائنات التي خلقها اللَّه ، والأشياء التي يصنعها الإنسان . فالمقصود أن لكل كائن ، ولكل شيء مصنوع وظيفة وجد من أجل القيام بها ، فإن لم يقم بها انتفى الغرض من وجوده ، ويقسم الوظيفة أو الفعل الذي اختص به الإنسان إلى ثلاثة أمور ؛ هي :

١ – عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود : ٦١] وذلك تحصيل ما به صلاح المعاش لنفسه ولغيره .

٢ – عبادته المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] وذلك هو الامتثال للباري ﷻ في أوامره ونواهيه .

---

(١) إريك فروم : الإنسان بين الجوهر والمظهر ، مرجع سبق ذكره (ص ١٤٧) .

(٢) محمد الطاهر ابن عاشور : تفسير التحرير والتنوير ، (١٥م) ، تونس : الدار التونسية (١٩٨٤م) ، (٢٥/٢٧) .

٣ – وخلافته المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٩] وغيرها من الآيات ؛ وذلك هو الاقتداء بالباري سبحانه على قدر طاقة البشر في السياسة باستعمال مكارم الشريعة .

ولقد شرح الفرق بين هذه الأمور الثلاثة ، فعمارة الأرض المقصود بها القيام بما فيه تزجية أو تيسير لحياة الناس ، وصلاح معاشهم ، والإنسان لا سبيل إلى بقائه في الدنيا إلا بما يسد جوعه ، ويستر عورته ، ويقيه من الحرِّ والبرد . فلم يكن له بد من تحصيل ذلك من الوجه المباح له . ومتى سعى العبد في ذلك على الوجه الذي يجب ، وكما يجب ، يكون سعيه عبادة وجهادًا في سبيل اللَّه .

وفي الفرق بين العبادة والمكارم ، يقول : إن للعبادات فرائض معلومة وحدودًا مرسومة ، وتاركها يصير ظالمًا متعديًا ، والمكارم (جمع مكرمة) بخلاف ذلك ، فهي تفضل على ما يجب . وتحري العبادات من باب العدل وهو فعل ما يجب ، وتحري المكارم من باب الفضل والنفل . فلن يستكمل الإنسان مكارم الشرع ما لم يقم بوظائف العبادات . ومكارم الشريعة هي الحكمة والقيام بالعدالة بين الناس ، والحلم ، والإحسان [١] .

وبهذا نرى أن معنى العبادة يشمل الخلافة ، وعمارة الأرض . ويقول اللَّه تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٥] فلو لم يكن خلق البشر في هذه الحياة مرتبًا عليه مجازاة الفاعلين على أفعالهم ، لكان خالقه قد أتى في فعله بشيء عديم الفائدة فكان فيه حظ من العبث [٢] ؛ لذلك لا يستوي المؤمن والكافر . فالإنسان الذي يقوم بالعبادة – التي من أجلها خلق – حق القيام قد استكمل الإنسانية ، ومن رفضها فقد انسلخ من الإنسانية فصار حيوانًا ودون الحيوان . كما وصف اللَّه ﷻ الكفار : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٤] .

فهل يمكن القول في ضوء ما سبق أن الأهداف التي تفترضها النظريات الغربية لوجود الإنسان على الأرض تمثل الجزء الأول من وظيفة الإنسان كما يصفها المنظور الإسلامي ، وهي عمارة الأرض ؟ لا أعتقد ذلك ؛ نظرًا لأن هناك شروطًا حتى لكيفية السعي لتحصيل صلاح المعاش ، وهو الالتزام بما يبيحه اللَّه والبعد عما يحرمه ، مما لا يتحقق في وجهة النظر الغربية .

---

(١) الراغب الأصفهاني : الذريعة إلى مكارم الشريعة ، مرجع سبق ذكره (ص ٩٠) .

(٢) المرجع السابق (ص ٩٠ ، ٩٥) .

وهناك من ينظر للموضوع من زاوية أخرى ، مثل الميداني الذي اعتمد في تحديده للغاية من خلق الإنسان على الآية الكريمة الآتية : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان : ٢ ، ٣] . فالغاية من خلق الإنسان بهذا التركيب العجيب من أخلاط مختلفة ، (من الصفات الجسدية والفكرية والنفسية) – ابتلاؤه ، أي امتحانه واختباره ؛ لذا كان لا بد – لاستكمال شروط الامتحان الأمثل – من تزويده بوسائل المعرفة ، وأهم وسائل المعرفة التي ترتبط بها المسؤوليات هي السمع والبصر . كما تدل الآية : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ على أن الخالق أودع في الإنسان الطاقة الإدراكية التي يدرك بها سبيل هدايته ورشاده ، وسبيل ضلاله وفساده ، وأنزل له الشرائع التي تنير له الطريق ، حتى يكون على بيِّنة من أمره ، ومن مصيره الذي يكتبه لنفسه بمسيرته في حياته [١] .

وبهذا الشرح يتضح أن الابتلاء هو علة خلق الإنسان من أخلاط مختلفة (أمشاج) ، وليست علة الخلق في حد ذاته .

ويذكر ابن عاشور في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] أن قصر علة خلق اللَّه الإنس والجن على إرادته أن يعبدوه ، هو قصر قلب باعتبار مفعول ﴿ يَعْبُدُونَ ﴾ أي إلا ليعبدوني وحدي ، أي لا ليشركوا غيري في العبادة ، فهو ردٌّ للإشراك ، وليس هو قصرًا حقيقيًّا ، فإن حكم اللَّه تعالى من أفعاله كثيرة لا نحيط بها ، وذِكْرُ بعضها لا يقتضي عدم وجود حِكَم أخرى . فلقد ذكر اللَّه حكمًا للخلق غير هذه كقوله : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾ [هود : ١١٨ ، ١١٩] [٢] .

وبهذا نرى أنه مع صحة ما اتفق عليه العلماء المسلمون في هذا الشأن إلا أن القضية لم تغلق ، وإمكانية الإضافة واردة بمزيد من الدراسة والبحث .

رابعًا : صفات الإنسان

تعبير طبيعة الإنسان في الاستعمال العام يعني – بصورة رئيسية – صفات الإنسان النفسية والأخلاقية ؛ وعندما يستعمل علماء البيولوجيا هذا التعبير فإنهم يعنون بالإضافة

(١) ابن عاشور : مرجع سبق ذكره (١٣٤/١٨) .

(٢) عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني : الأخلاق الإسلامية ، (٢م) ، (ط٢) ، دمشق : دار القلم ، (١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م) ، (م١) ، (ص ٣٤٢ ، ٣٤٣) .

لذلك البنية التشريحية والخصائص الوظيفية لجسم الإنسان ، الموروثة منها والمكتسبة . وسواء كان تعبير « طبيعة الإنسان » محدودًا بمعناه الأول أو بمعناه الثاني ، فلقد دارت حوله – ولا تزال – مناقشات فلسفية وعلمية أخذت في معظمها طابع الجدل القائم حول « الطبع » أو « التربية » [١] . ومن النظريات التي بقي أثرها لمدة طويلة ، نظرية أبوقراط وهي أن الإنسان هو نتاج بيئته ؛ حيث اتبع العديد من الفلاسفة هذه النظرية ، أمثال جون لوك ، Jone locke 1690 الذي اشتهر قوله : At birth the mind is ablank tablet, No one is born with in nate ideas فلقد اعتقد أن الوليد مثل الصفحة البيضاء ، وأنه لا أحد يولد بأفكار داخلية ، ولكن كل أفكارنا تأتي نتيجة التجربة [٢] . واستمر هذا الاتجاه ، وقَوي على يد جون دوي (John Dewey, 1922)الذي قال : إن الخير والشر – أو الفضيلة والرذيلة – هي عادات تنمو من خلال تفاعل الكائن الإنساني مع بيئته الاجتماعية [٣] ، ثم ظهرت النظرية السلوكية على يد واطسون ومن بعده سكنر وفي الاتجاه المقابل نجد توماس هوبز ، وهربرت سبنسر ، والداروينيين الاجتماعيين ، تمسكوا بفكرة أن الطبع – أو الوراثة – يحدد إلى حدٍّ كبير خصائص الأشخاص [٤] . كما نجد بعض الأفكار الدينية المتمثلة في قول توماس ريد (Thomas Reid, 1788) : « إن اللَّه قد زود الإنسان بوعي (روح) يمده بمعلومات بديهية للتمييز بين الخطأ والصواب ، فإذا ما اتبع الإنسان هذا الحس الأخلاقي سيتجنب الصراع بين المصلحة والواجب » [٥] .

واستمر الجدل في تحليل صفات الإنسان ، حتى جاء فرويد ليؤكد على أهمية الأصول الطفلية على شخصية الإنسان ، بينما أكد يونج على الأصول العنصرية للشخصية الخاصة بالجنس البشري بأسره [٦] . ثم ظهرت النظرية الاجتماعية النفسية الجديدة ، ومن أكبر مؤسسيها الفريد أدلر ، وكارين هورني ، وإرك فروم ، و هاري سليفان و هم يرون أن المتغيرات الاجتماعية لها دور أكبر من العوامل البيولوجية . إلا أن أحدًا منهم لم يتبن موقفًا

---

(١) ابن عاشور : مرجع سبق ذكره (٢٦/٢٧ ، ٢٧) .

(٢) رينيه دوبو : إنسانية الإنسان ، تعريب نبيل صبحي الطويل ، الطبعة الأولى ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، (١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م) ، (ص ١٣٠) .

(٣) John Locke , An Essay Concerning Human Understanding , World philosophy Edited By Frank N . Magilland Staff , I A N P . Mc Greal , 1969 , P . 428 .

(٤) John Dewey , Human Nature and Conduct , Ibid , P835 .

(٥) رينيه دوبو : مرجع سبق ذكره ، (ص ١٣١) .

(٦) Tomas Reid , Essays on The Intellectual Powers of Man , World Philosphy , op , cit . P . 538 .

بيئيًّا متطرفًا ، بل إنهم جميعًا يعترفون أن هناك شيئًا كالطبيعة البشرية يولد به الطفل ، في الغالب على شكل استعدادات أو إمكانات عامة . فيرى أدلر – على سبيل المثال – أن الكفاح في سبيل التفوق والكمال فطري ، وجاء بمفهوم « الذات الخلاقة » واعتبرها هي المحرك الرئيس وإكسير الحياة ، والسبب الأول لكل ما هو إنساني ، وهي تحتل مكانًا وسطًا بين المنبهات المؤثرة في الشخص والاستجابات التي يستجيب بها لهذه المنبهات ، واعتبرها المبدأ الإيجابي النشيط للحياة الإنسانية ، وهي لا تختلف عن مفهوم الروح القديم [١] .

أما مورفي فيرفض هذه الفكرة الشائعة التي تضع الوراثة في مقابل البيئة ، ويرى أن الإنسان ككائن بيولوجي يرتبط مع بيئته المادية والاجتماعية بعلاقة متبادلة ، وشخصيته هي نتاج لعملية ثنائية الأقطاب ، الأول في داخل الجسم الثاني في العالم الخارجي . كما أنه يعتقد أن هناك من الشواهد ما يبرر افتراض أن كل الشخصيات الإنسانية قادرة على القيام بالعمليات فوق العادية . ولكن هذه القوة تنزوي عادة بفعل عوامل مختلفة ، مثل الانشغال بالعلم الحسي المباشر ، أو الجو الاجتماعي [٢] .

هكذا نرى أن العديد من الفلاسفة وعلماء النفس قد اعترفوا – علنًا أو ضمنًا – بالدور الهائل الذي تلعبه – ما يسمونه – العمليات البيولوجية القديمة غير الواعية ، ومن الطبيعي أن يقفوا عند هذا الحد ، أو إلى حد الاعتراف الصريح بوجود الروح كما سبق الإشارة إلى ما توصل إليه بنفيلد . فهم لا يستخدمون سوى المنهج الإمبيريقي الذي يعتمد على « الحس والتجريب كوسائل للمعرفة ، أو المنهج العقلي الجدلي » ، تاركين ما أوحى به اللَّه ﷻ لرسله وما أنزل عليهم من رسالات .

واللَّه ﷻ في رسالته الخاتمة ، قد علمنا ما يحل هذا الإشكال الذي استعصى حله على جميع الفلاسفة والعلماء الذين لم يستعينوا بالوحي ، فلقد قال ﷻ في محكم كتابه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] . ولقد أجمع المفسرون على أن المقصود من الآية هو أن اللَّه سبحانه قد فطر الناس على التوحيد [٣] . كما في قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ

(١) ك . هول ، ج . لندزى ، مرجع سبق ذكره ، (ص ١٠٩) .
(٢) المرجع السابق ، (ص ١٦٥ – ١٧٠) .
(٣) المرجع السابق ، (ص ٦٥٧) .

فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠] وكما ورد في عدة أحاديث منها ؛ عن الرسول ﷺ أنه قال : « **يقول اللَّه إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم** » (١) ، فهذه الفطرة هي العنصر المشترك الدفين – غير الواعي – لدى جميع الناس منذ أقدم العصور . وهي التي لم يصل إلى معرفتها العلماء ، وفي نفس الوقت لم يقدروا على إنكارها ، فسماها يونج بالأصول العنصرية للجنس البشري ، أو عمليات بيولوجية قديمة . وعندما لاحظ آثارها أدلر ، قال بالذات الخلاقة ، ولقد أخفقوا بلا شك في فهم المحتوى الصحيح للفطرة وهو – كما يقول ابن عاشور – إن اللَّه خلق في الإنسان من وقت تكوينه إدراك أدلة الوحدانية ، وجعل في فطرة حركة تفكير الإنسان التطلع إلى إدراك ذلك ، وتحصيل إدراكه إذا جرد نفسه من العوارض التي تدخل على فطرته فتفسدها . كما في قول الرسول ﷺ : « **ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه كما تنتجون البهيمة ، هل تجدون فيها من جدعاء ، حتى تكونوا أنتم تجدعونها** » (٢) . وهكذا يتضح أيضًا دور البيئة في إفساد الفطرة السليمة ، والانحراف بها إلى شتى السبل ؛ فالوليد إذًا لا يولد كالصفحة البيضاء تمامًا كما زعم أصحاب الاتجاه الأول ، والخير والشر ليسا عادات تكتسب كما قال ديوي ، ولكن اللَّه سبحانه يعلمنا أنه قد ألهم النفس – أي عرفها – عند تسويتها – في المرحلة السابقة لاتصالها بالبدن – الفجور والتقوى ، أي المعصية والطاعة مطلقًا . وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس : ٧ ، ٨] والمعنى كما يقول الطبري : فبين اللَّه لها (للنفس) ما ينبغي لها أن تأتي وتذر من خيرٍ أو شرٍّ ، أو طاعة أو معصية (٣) كما قال ﷻ في آية أخرى : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠] واتفقت التفاسير على معنى النجدين أنه طريق الخير والشر . وبهذا يمكن اعتبار خاصية التمييز بين الخير والشر فطرية لدى الإنسان ، بمعنى أن وجودها في نفس الإنسان كان قبل أن تتصل بالبدن ، أي قبل أن يستكمل تكوينه كإنسان من نفس وبدن ، وهذا يتفق مع ما جاءت به الأديان السماوية الصحيحة ، كما يظهر في قول ريد سابق الذكر . وإذا كان العلم الحديث لم يغفل دور الوراثة في تكوين شخصية الإنسان . إلا أنه من الواضح أن الوراثة يختلف

(١) صحيح مسلم : مرجع سبق ذكره ، (م ٤) ، كتاب الجنة (ص ٢١٩٧) .
(٢) صحيح البخاري ، صحيح مسلم ، كتاب القدر .
(٣) الطبري ، مرجع سبق ذكره (١٣٤/٣٠) .

معناها عن معنى الفطرة في القرآن الكريم والسنة المطهرة .

نخلص مما سبق أن صفات الإنسان الفطرية ؛ هي :

١ - إدراك وحدانية اللَّه ﷻ .

٢ - التمييز بين الخير والشر .

ولكن هل هذه فقط الصفات الفطرية كما جاءت في القرآن الكريم ؟ وما موقع الصفات الأخرى التي وصف اللَّه بها الإنسان ، في مثل قوله : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ [المعارج : ١٩] ، وقوله : ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء : ٣٧] ، قد يُظن أنها فطرية بالمعنى المشار إليه سابقًا ، ولكنها غير ذلك . يذكر الرازي في تفسيره قول القاضي في هذا الشأن : « ليس المراد أن الإنسان مخلوق على هذا الوصف والدليل عليه أن اللَّه تعالى ذمه عليه ، واللَّه تعالى لا يذم فعله ، ولأنه تعالى استثنى المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم في ترك هذه الخصلة المذمومة ، ولو كانت هذه الخصلة ضرورية حاصلة بخلق اللَّه تعالى لما قدروا على تركها » [(١)] . وعلى هذا الأساس فإنه ليس من المقبول اعتبار هذه الصفات فطرية ، مع أنه ليس من شك في أنها من طبيعة الإنسان ، وهي حاصلة له نتيجة لطبيعة تكوينه من (نفس وبدن) ، ولكنه ، ليس مجبرًا على السير وفقًا لها .

ويندرج تحت هذا النوع من الصفات الذي يمكن تسميته بالصفات التكوينية ، العديد من الصفات ، وهي ما سُمِّي - بعض منها - في علم النفس الحديث بالغرائز أو الدوافع . ولقد تناولها - من الوجهة الإسلامية - فريق من الكتاب الإسلاميين الذي يمثل - كما في تصنيف أبو حطب - [(٢)] الاتجاه نحو بناء علم نفس قرآني . ومعظم هؤلاء الكتاب قسموا الدوافع إلى قسمين مادية ، وروحية ، وذلك انطلاقًا من الإيمان بأن الإنسان مكون من جسد (مادته التراب) وروح ذات أصل إلهي ، كما في قوله سبحانه : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة : ٧ - ٩] . فالدوافع المادية أو الفسيولوجية تمثل الجانب المادي الترابي (الجسم) وما يتبعها من دوافع فرعية تساعد في تحقيق البقاء على الحياة ، مثل دافع التملك ، والعدوان . أما الدوافع التي تمثل الجانب الروحي ، فمنها

---

(١) محمد الرازي فخر الدين : مرجع سبق ذكره (١٢٨/٢٩) .

(٢) فؤاد أبو حطب : مرجع سبق ذكره (ص ٥٠) .

الدافع إلى التدين ، والدوافع الأخلاقية ، ثم وصفوا العلاقة بين الجانب المادي والجانب الروحي في الإنسان بالصراع والتضارب المستمرين نظرًا لاختلاف طبيعة كلٍّ منها . وأوضحوا أن الإسلام حدد العلاقة المثلى بينهما في عملية التوازن والاعتدال ، واتخاذ الجانب الوسط دون تطرف .

ومنهم من تنبه إلى عملية التفاعل بينهما فحاول أن يأخذها في اعتباره ؛ أمثال محمد الأمين ، ومقداد يالجن [١] . فقسم الأخير الدوافع إلى ثلاثة أقسام ؛ الأدبي والأخلاقي ، ثم دافع الاستطلاع والمعرفة . والقسم الثاني منها يرجع إلى الطبيعة المادية للإنسان ؛ مثل : دافع التغذي ، والتناسل ، والحماية . أما القسم الثالث فيرجعه إلى خاصية الامتزاج بين الجانبين (الروحي والمادي) وهي ثلاثة أنواع :

١ - صفات إنسانية شيطانية .

٢ - صفات إنسانية ملائكية .

٣ - صفات إنسانية خاصة يتميز بها الإنسان عن باقي الكائنات .

ويلاحظ على هؤلاء الكتاب ، أنهم نسبوا الدوافع الخيِّرة والأخلاقية الفاضلة إلى الأساس الروحي في الإنسان ، ونسبوا الدوافع المادية التي يتفق فيها الإنسان مع الحيوان إلى الأساس المادي أو الجسمي في الإنسان . فهل هذا يعني أن الروح لا يصدر عنها إلا كل خير لأنها من أصل إلهي ؟ وأنها غير قابلة للتأثر بالجوانب الأخرى حتى تظل دائمًا طيبة خيرة ؟ وعليه فإن الصراع لن يهدأ أبدًا بينها وبين الجسم ، إذا كان هذا المقصود ، فإنه يكون - في أغلب الظن - نتيجة لوقوعهم في الخط الذي نبه إليه جعفر إدريس ، وهو الفهم الخاطئ لروحية الإنسان ، والاعتقاد بأنها عنصر إلهي حل في الإنسان ؛ فقال اللَّه ﷻ : ﴿ مِن رُّوحِي ﴾ [الحجر : ٢٩] ، لا يعني أن شيئًا من ذاته تعالى خرج فحل في الإنسان ؛ فإضافة الروح إلى اللَّه تعالى ليست إضافة بعض إلى كل كما في قولنا : « يد اللَّه » وإنما هي إضافة مملوك إلى مالكه كما في قولنا : أرض اللَّه وسماؤه [٢] .

وبتتبع الآيات القرآنية التي وصف اللَّه سبحانه - فيها الإنسان ، وبدون محاولة

---

(١) محمد تقي الأمين : بين الإنسان الطبيعي والإنسان الصناعي ، ترجمة مقتدى حسن ياسين ، مراجعة عبد الحليم عويس ، القاهرة : دار الاعتصام ، (١٩٨٢م). يوسف مصطفى القاضي ومقداد يالجن ، علم النفس التربوي في الإسلام ، الرياض : دار المريخ (١٤٠١هـ ، ١٩٨١م) .

(٢) جعفر شيخ إدريس : مرجع سابق ذكره (ص ٧٩ ، ٨٠) .

لتصنيفها حسب تصنيف علم النفس للدوافع والانفعالات – وهذا ما قام به محمد نجاتي بنجاح [١] – سوف أعرض هذه الصفات والتي سبق أن سميتها صفات تكوينية لتمييزها عن الصفات الفطرية ، بشيء من الاختصار لبعضها ، ومن التفصيل لبعضها الآخر ، حسب ما أظن فيه فائدة عملية للأخصائي الاجتماعي وذلك على النحو التالي :

١ – حب الشهوات ، وإيثار الحياة الدنيا :

حب الشهوات : قال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران : ١٤] .

أجمع المفسرون على أن فاعل التزيين هو اللَّه ﷻ ، وليس الشيطان كما قال البعض ، فاللَّه تعالى كما رغب في منافع الآخرة ، فقد خلق ملاذ الدنيا وأباحها لعبيده ، وإباحتها للعبيد تزيين لها بمعنى جعلها مرغوبة للناس ولقد عدَّد تعالى من المشتهيات أمورًا سبعة : أولها النساء ، وثانيها حب الولد ، وللَّه تعالى حكمة بالغة في إيجاد حب الزوجة والولد في قلب الإنسان ؛ فإنه لولا هذا الحب لما حصل التوالد والتناسل ، ولأدى ذلك إلى انقطاع النسل [٢] .

وكما يقول ابن كثير : فإن حب النساء والأولاد إذا كان مقصودًا منه الإعفاف وكثرة الأولاد فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه كما ورد في الأحاديث الصحيحة ، أما إذا كان للتفاخر والزينة فإنه مذموم . كذلك حب المال من الذهب والفضة (وهو ثالث ورابع المشتهيات المذكورة في الآية الكريمة) إذا كان للفخر والتكبر على الضعفاء والتجبر على الفقراء فهو مذموم ، وإذا كان للنفقة في القرابات وصلة الأرحام والقرابات ووجوه البر والطاعات فهو ممدوح محمود شرعًا . وخامس المشتهيات هو حب الخيل وهي إذا ربطها صاحبها للفخر فهي وزر عليه ، أما إذا قصد أن يجعلها معدَّة لسبيل اللَّه والخدمة في أغراض حياته المشروعة فهو يثاب عليها ، وكذلك سادس وسابع المشتهيات وهي (الأنعام) والمقصود بها الإبل والبقر والغنم ، (والحرث) وهي الأرض المتخذة للزراعة . (وكل ذلك قد يمثل المال في الوقت الحاضر) . ثم قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ، أي

---

(١) محمد عثمان نجاتي في كتابيه : القرآن وعلم النفس ، والحديث الشريف وعلم النفس ، القاهرة ، بيروت : دار الشروق : (١٩٨١م) .

(٢) محمد الرازي فخر الدين : مرجع سبق ذكره ، م ٤ (ص٢١٠ ، ٩٦٧) .

إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة .

﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ أي : حسن المرجع والثواب [١] .

ولقد قال عمر بن الخطاب لما نزلت هذه الآية : « اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا ، اللهم إني أسالك أن أنفقه في حقه » [٢] .

– **إيثار الحياة الدنيا** : وهو لا شك مرتبط بحب الشهوات التي وصفها تعالى بأنها متاع الحياة الدنيا ، وقال ﷻ في سورة الأعلى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى : ١٦ ، ١٧] ويقول الطبري في تفسيره : بل تؤثرون أيها الناس زينة الحياة الدنيا على الآخرة ، وزينة الآخرة خير لكم أيها الناس وأبقى ؛ لأن الحياة الدنيا فانية والآخرة باقية لا تنفد ولا تفنى [٣] . وعن ابن مسعود أنه قال : « إن الدنيا أحضرت ، وعجل لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولذاتها ومهجتها ، وإن الآخرة لغيب لنا وزويت عنا ، فأخذنا بالعاجل وتركنا الآجل » [٤] .

وهناك العديد من الأحاديث النبوية التي تشير إلى حب الإنسان للمال وللدنيا ؛ منها : قوله ﷺ : « **لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب اللَّه على من تاب** » [٥] .

كما أوضح ﷺ خاصيتين ملازمتين للإنسان حتى في كبره هما حب المال وحب الدنيا ؛ حيث قال صلوات اللَّه عليه : « **يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنتان : حب المال ، وطول العمر** » [٦] .

كما أن هناك العديد من الآيات والأحاديث التي تحذرنا من فتنة النساء ، والمال والأولاد ؛ منها : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن : ١٥] ، ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ [التكاثر : ١] وآيات وأحاديث أخرى جاءت في ذم الدنيا والترغيب في الآخرة .

---

(١) ابن كثير : مرجع سبق ذكره (٣٥٢/١ ، ٣٥٣) .

(٢) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني : فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣م) ، بيروت : دار المعرفة (١٣٧٩هـ) ، (م ١١) (ص ٢٥٩) .

(٣) الطبري : مرجع سبق ذكره (١٠٠/٣٠) .

(٤) محمد الرازي فخر الدين : مرجع سبق ذكره (١٤٩/٣٠) .

(٥) البخاري : مرجع سبق ذكره ، كتاب الرقاق (١٠) .

(٦) ابن حجر : مرجع سبق ذكره (م ١١) ، (ص ٢٣٩ – ٢٥٣) .

٢- الهلع والجزع والبخل :

قال ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٣] يرى الطبري أن المولى يقول : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾ « الكافر » ﴿ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ ، والهلع شدة الجزع مع شدة الحرص والضجر [١] والإنسان الهلوع هو كما فسَّرته الآية إذا ناله شر أظهر شدة الجزع ، وإذا ناله خير بخل ومنعه الناس ، وبينما خص الطبري « الكافر » في هذه الآية ، نجد الرازي يشير إلى بعض المفسرين الذين أخذوا بالمعنى على عمومه ، ودليلهم أن اللَّه سبحانه استثنى المصلين [٢] . وكذلك ابن كثير يقول : إن الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم ، إلا من عصمه اللَّه ووفقه وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه . وهم المصلُّون [٣] .

كما ورد في الأحاديث قوله ﷺ : « **شر ما في الرجل شحٌ هالعٌ وجبنٌ خالعٌ** » [٤] وهذا يؤكد عمومية المعنى المقصود من كلمة الإنسان في الآية السابقة . وفي حديث آخر : « أتى النبي ﷺ مال ، فأعطى قومًا ومنع آخرين فبلغه أنهم عتبوا ، فقال : « **إني أعطي الرجل وأدع الرجل ، والذي أدع أحبُّ إليَّ من الذي أعطي ، أعطي أقوامًا لما في قلوبهم من الجزع والهلع ، وأكلُ أقوامًا إلى ما جعل اللَّه في قلوبهم من الغنى والخير ، منهم عمرو بن تعلب** ، فقال عمرو : ما أحب أن لي بكلمة رسول اللَّه حمر النعم » . ويقول ابن حجر في شرح الحديث : إن الصفات المذكورة بخلق اللَّه تعالى في الإنسان لا أن الإنسان يخلقها بفعله ، وفيه أن الرزق في الدنيا ليس على قدر درجة المرزوق في الآخرة ، وأما في الدنيا فإنما تقع العطية والمنع بحسب السياسة الدنيوية ، فكان عليه الصلاة والسلام يعطي من يخشى عليه الجزع والهلع لو منع ، ويمنع من يثق بصبره واحتماله وقناعته بثواب الآخرة [٥] . وهذا مبدأ يفيد في وضع قواعد سياسة الرعاية الاجتماعية ، ومنح المساعدات المادية على وجه الخصوص . وفي الحديث أيضًا ما يشير إلى أن البشر جبلوا على حب العطاء وبغض المنع والإسراع إلى إنكار ذلك قبل الفكرة في عاقبته إلا من شاء اللَّه . وهذا ينبهنا إلى اختيار الأساليب المناسبة عند منع المساعدة لبعض الناس .

---

(١) الطبري : مرجع سبق ذكره (٤٩/٢٩) .

(٢) محمد الرازي فخر الدين : مرجع سبق ذكره (١٢٨/٢٩) .

(٣) ابن كثير : مرجع سبق ذكره (٤٢٨/٢٩) .

(٤) أخرجه أبو داود ، باب جهاد النفس (٢١) .

(٥) ابن حجر : مرجع سبق ذكره (م١٣) ، (ص ٥١١) .

وفي البخل والإمساك قال تعالى : ﴿ قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ﴾ [الإسراء: ١٠٠] يقول الطبري في تفسيره : قل يا محمد لهؤلاء المشركين لو أنتم أيها الناس تملكون خزائن أملاك ربي من الأموال – وعنى بالرحمة في هذا الموضع المال – إذًا لأمسكتم أي لبخلتم فلم تجودوا بها على غيركم خشية الفاقة (الفقر) وكان الإنسان بخيلًا ممسكًا [١] وفي آية أخرى قال تعالى : ﴿ أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ٥٣] .

٣ – العَجَلُ :

قال تعالى : ﴿ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ﴾ [الأنبياء: ٣٧] . يقول الطبري في تفسيره : خلق الإنسان من عجل ؛ ولذلك يستعجل ربه بالعذاب ، سأريكم آياتي فلا تستعجلون أيها المستعجلون ربهم بالآيات [٢] وفي آية أخرى : ﴿ وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ﴾ [الإسراء: ١١] ويقول الطبري في تفسيره : إن الإنسان يدعو على نفسه وولده وماله بالشر فيقول : اللهم أهلكه والعنه عند ضجره أو غضبه ، كدعائه بالخير ، أي كدعائه ربه بأن يهب له العافية ويرزقه السلامة في نفسه وماله وولده ، فلو استجيب له في دعائه على نفسه وماله وولده بالشرِّ كما يستجاب له في الخير هلك ، ولكن اللَّه بفضله لا يستجيب له في ذلك . ﴿ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ﴾ [الإسراء: ١١] بالدعاء على ما يكره أن يستجاب له فيه [٣] كما ورد أيضًا في حديث آخر لرسول اللَّه ﷺ أنه قال : « **يستجاب لأحدكم ما لم يَعْجَلْ ، فيقول قد دعوت ربي فلم يستجب لي** » [٤] .

يتضح مما سبق أن الاستعجال بالشرِّ مذمومٌ ، والعجل بصفة عامة من صفات الإنسان ، إلا أن الاستعجال بالخير مطلوب ؛ حيث نجد العديد من الأحاديث التي تفيد بذلك ، فالاستعجال بالصلاة في أوقاتها ، والصدقة ، والحج ، والرجوع إلى الأهل بعد السفر ، والتعجل بدفن الميت ، والتعجيل بإعطاء الأجير أجره قبل أن يجف عرقه ؛ كل ذلك مستحب ومطلوب [٥] .

---

(١) الطبري : مرجع سبق ذكره (١١٣/٥) .

(٢) المرجع السابق (٢١/١٧) . (٣) المرجع السابق (٣٧/١٥) .

(٤) أبو الحسين مسلم : مرجع سبق ذكره (م ٤) ، كتاب الدعاء (ص ٢٠٩٥) .

(٥) البخاري ، ومسلم .

٤ – الضعف :

قال تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٨] يقول الطبري في تفسيره : يعني جل ثناؤه بقوله : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ ﴾ يريد اللَّه أن ييسر عليكم بإذنه لكم في نكاح الفتيات المؤمنات إذا لم تستطيعوا طولًا لحرة ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ يقول : يسَّر ذلك عليكم إذا كنتم غير مستطيعي الطول للحرائر ؛ لأنكم خلقتم ضعفاء عجزة عن ترك جماع النساء ، قليلي الصبر عنه ، فأذن لكم في نكاح فتياتكم المؤمنات عند خوفكم العنت على أنفسكم ولم تجدوا طولًا لحرة ، لئلا تزنوا [١] .

هذا وفي آية أخرى قال ﷻ : ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٦] ، ولقد قال تعالى في الآية السابقة لهذه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنفال : ٦٥] فلقد كان هذا الأمر مشروطًا بكون العشرين قادرين على الصبر في مقابلة المائتين . وقوله : ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾ يدل على أن ذلك الشرط غير حاصل في حق هؤلاء ، وأنه تعالى علم أن فيهم ضعفاء لا يقدرون على ذلك فقد تخلصوا من ذلك الخوف ، فصح أن يقال : خفف اللَّه عنكم [٢] . وهذا فيه دلالة واضحة على مدى ما يمنحه الصبر لصاحبه من قوة وعزيمة وشجاعة .

٥ – الظلم والجهل :

قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] ، يقول الطبري في تفسيره : عن قتادة أنه قال : ﴿ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ؛ ظلومًا للأمانة جهولًا عن حقها [٣] . وقيل : إن المراد الإنسان يظلم بالعصيان ويجهل ما عليه من العقاب . وقيل : ﴿ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ : أي من شأنه الظلم والجهل ، فلما أودع الأمانة بقي بعضهم على ما كان عليه ، وبعضهم ترك الظلم : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ

(١) الطبري : مرجع سبق ذكره (١٩/٥) .
(٢) محمد الرازي فخر الدين : مرجع سبق ذكره (٢٠١/١٥) .
(٣) الطبري : مرجع سبق ذكره (١٤/٢٢) .

وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢] . وترك الجهل : ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٧٢] . أي أن الإنسان إن لم يعمل جاهدًا على ترك الظلم – بطاعة اللَّه – وترك الجهل باتخاذه طريقًا إلى العلم ، فإنه سيظل على ما اتصف به من ظلم وجهل [١] .

٦ – الكفر والجحد بالنعمة :

هناك عدة آيات تشير إلى اتصاف الإنسان بكفر النعمة التي ينعمها اللَّه تعالى عليه . من هذه الآيات : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى: ٤٨] وفسر الطبري هذه الآية بقوله : فإنا إذا أغنينا ابن آدم فأعطيناه من عندنا سعة ، وهي الرحمة التي ذكرها جل ثناؤه ، فرح بها أي سُرَّ بما أعطيناه من الغنى ورزقناه من السعة وكثرة المال ، وإن تصبهم سيئة أي وإن أصابتهم فاقة وفقر وضيق عيش بما قدمت أيديهم أي بما أسلفت من معصية اللَّه ، عقوبة له على معصيته إياه ، جحد نعمة اللَّه ، وأيس من الخير فإن الإنسان كفور ، أي جحود نعم ربه يعدد المصائب ويجحد النعم [٢] كما يقول تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴾ [هود: ٩] ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود: ١٠] والحالة في الآية الأولى هي نفسها الحالة التي تم شرحها من سورة الشورى ؛ أما الحالة الثانية فيقول تعالى ذكره – كما ورد في تفسير الطبري – ولئن نحن بسطنا للإنسان في دنياه ورزقناه رخاء في عيشه ووسعنا عليه في رزقه ، وذلك بعد ضراء مسته ، أي بعد ضيق من العيش وعسره ، ليقولن ذهب الضيق عني وزالت الشدائد ، إنه لفخور ، أي إن الإنسان لفرح بالنعم ذو فخر بما نال من السعة في الدنيا ، وينسى صروفها ونكد العوارض فيها [٣] ، وجاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « **أُرِيتُ النَّارَ ، فإذا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ يَكْفُرْنَ** . قيل : أيكُفرن باللَّه ؟ قال : **يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ ، وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ لو أَحْسَنْتَ إلى إحدَاهُنَّ الدَّهرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شيئًا قَالَتْ : مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ** » ويذكر بن حجر في شرحه أن الطاعات كما تسمى إيمانًا كذلك المعاصي تسمى كفرًا ، لكن حيث يطلق عليها الكفر لا يراد الكفر المخرج من الملة [٤] .

---

(١) محمد الرازي فخر الدين ، مرجع سبق ذكره (٢٣٦/٢٥) .

(٢) الطبري : مرجع سبق ذكره (٢٧/٢٥) . (٣) المرجع السابق (٦/١٢) .

(٤) ابن حجر : مرجع سبق ذكره (م ١) ، (ص ٨٣) .

وما سبق شرحه يفيد الأخصائي الاجتماعي في تفسير سلوك عملائه عند وقوعهم في المشكلات التي تتمثل – في كثير من الأحيان – في جحدهم للنعم عند حرمانهم من نعمة كان اللَّه قد أنعمها عليهم ، أو في طغيانهم على غيرهم عند إنعام اللَّه عليهم بعد ضيق .

٧ – الجدل :

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٤] ، يقول الطبري في تفسيره : وكان الإنسان أكثر شيء مراء وخصومة لا ينيب لحق ولا ينزجر لموعظة [١] كما جاء في الحديث أن عليَّ بن أبي طالب ﷺ قال : إن رسول اللَّه ﷺ طَرَقَهُ وفاطمة عليها السلام بنت رسول اللَّه ﷺ فقال لهم : **ألا تُصَلُّونَ** ؟ فقال عليٌّ : فقلت : يا رسول اللَّه إنما أَنْفُسُنَا بيد اللَّه فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف رسول اللَّه ﷺ حين قال له ذلك ولم يرجع إليه شيئًا . ثم سمعه وهو مُدْبِرٌ يَضْرِبُ فَخذَهُ وهو يقول : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٤] [٢] .

والجدال : هو الخصام ، ومنه قبيح وحسن وأحسن ، فما كان للفرائض فهو أحسن ، وما كان للمستحبات فهو حسن ، وما كان لغير ذلك فهو قبيح ، ويستفاد من الحديث أن الإنسان طبع على الدفاع عن نفسه بالقول والفعل ، وأنه ينبغي له أن يجاهد نفسه بأن يقبل النصيحة ولو كانت في غير واجب . كما يستفاد من الحديث أيضًا مشروعية التذكير للغافل خصوصًا القريب والصاحب ؛ لأن الغفلة من طبع البشر ، فينبغي على المرء أن يتفقد نفسه ومن يحبه بتذكير الخير والعون عليه . وفيه كذلك أن الاعتراض بأثر الحكمة لا يناسبه الجواب بأثر القدرة ؛ حيث حرَّض النبي ﷺ عليًّا وفاطمة باعتبار الكسب والقدرة الكاسبة ، وأجاب عليٌّ باعتبار القضاء والقدر .

٨ – المكابدة :

– قال تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴾ [البلد : ٤] ، ويرجح الطبري – بعد تعديده للأقوال الكثيرة التي جاءت في معنى هذه الآية – قول من قال : معنى ذلك أنه أي الإنسان – خُلق يُكابد الأمور ويعالجها ، فقوله : ﴿ فِي كَبَدٍ ﴾ معناه في شدة [٣] كما يقول الرازي أن قوله : ﴿ فِي كَبَدٍ ﴾ يدل على أن الكبد قد أحاط به إحاطة الظرف بالمظروف .

---

(١) الطبري : مرجع سبق ذكره (١٧٣/١٥) .

(٢) ابن حجر : مرجع سبق ذكره (م ١٣) ، (ص ٣١٣) .

(٣) الطبري : مرجع سبق ذكره (٢٦/٣٠) .

وهذا يدعم القول الذي أخذ به من أنه ليس في الدنيا إلا الكد والمحنة ، كما أخذ بالمعنى الذي يشمل الشدة في كل الأمور ، منذ أن خلق الإنسان حتى « موته » فالمراد بالشدائد :

١ - شدائد الدنيا (تارة في بطن الأم ، ثم زمان الإرضاع ، ثم إذا بلغ ففي الكد في تحصيل المعاش) .

٢ - شدائد التكاليف (يكابد الشكر على السراء ، والصبر على الضَّراء ، ويكابد المحن في أداء العبادات) .

٣ - شدائد الآخرة (الموت ومساءلة الملك وظلمة القبر ، ثم البعث والعرض على اللَّه إلى أن يستقر به القرار إما في الجنة وإما في النار) [١] .

٩ - الإنسان خطَّاء :

عن النبي ﷺ أنه قال : « **كل ابن آدم خطَّاء وخير الخطَّائين التوابون** » [٢] . وهذا يدل على أن الإنسان من طبعه الخطأ ، إلَّا أنه يجب أن يتوب ، واللَّه يفرح بتوبة عبده ، أما إذا استمر في ارتكاب الخطأ مع علم به ، فهذا هو المذموم ، وهذا هو الفرق بين الإنسان الذي يسعى إلى رضا ربه ، وبين الإنسان الذي يصر على المعصية ، ولقد كان الرسول ﷺ يستغفر اللَّه في اليوم مائة مرة [٣] مما يدل على أهمية الاستغفار للفرد العادي ، وضرورته للفرد المذنب ، فالاستغفار والتوبة يمكن إذًا استخدامهما كأسلوب وقائي وإنشائي للإنسان في حالة السواء ، وكأسلوب علاجي للإنسان في حالة الانحراف . تلك هي معظم الصفات التي ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنة المطهرة عن الإنسان ، وهي كما يلاحظ من الصفات المذمومة .

فهل بهذه الصفات بالإضافة إلى الصفات الفطرية نكون قد استوفينا الإشارة إلى جميع صفات الإنسان ؟ الجواب بالنفي القاطع . فإذا كانت هناك صفات فطرية ، وهي التي أوجدها اللَّه في نفس الإنسان وروحه قبل اتصالها بالبدن ، وصفات تكوينية نشأت نتيجة اتصال الروح بالبدن فهناك صفات إرادية يكتسبها الإنسان نتيجة سعيه إلى تحصيلها باختياره . ويتضح ذلك في الآيات التي ورد فيها استثناء فئة من الناس وصفهم

---

(١) محمد الرازي فخر الدين : مرجع سبق ذكره (١٨٢/٣١ ، ١٨٣) .

(٢) أخرجه الترمذي - كتاب القيامة .

(٣) أخرجه ابن حنبل ، الدارمي في كتاب الرقاق .

اللَّه بأنهم من المؤمنين ، الخاشعين ، المصلين ، إلى غيرها من الصفات التي تدل على إرادتهم واختيارهم بأن يكونوا على تلك الصفات لذلك سميتها صفات إرادية ، وهنا العديد من الآيات التي تشير إلى وجود تلك الصفات ، كما تدل في ذات الوقت على السنن الإلهية الخاصة بالإنسان .

احتوت الدراسة على أربعة أبعاد ؛ هي : ماهية الإنسان ، والإرادة الإنسانية ، والغاية من خلق الإنسان ، والصفات الإنسانية . ولقد خلصت في البعد الأول إلى الأخذ بالمفهوم « الخاص » للإنسان كما ذكره الأصفهاني حيث قال : إن الإنسان هو : « من عرف الحق فاعتقده ، والخير فعمله بحسب وسعه » ، فبهذا المعنى وحده تتحقق « إنسانية » الإنسان ، وبتحليل هذا التعريف نصل إلى خلاصة ما توصلت إليه الأبعاد الأخرى للدراسة . فمعرفة الحق والخير – كما ورد في البعد الرابع – هي الفطرة التي فطر اللَّه الناس عليها ، أي إدراك وحدانية اللَّه ﷻ ، والتمييز بين الخير والشر ، هي من الصفات الفطرية لدى الإنسان .

والخدمة الاجتماعية من المنظور الإسلامي عندما تأخذ بالتعريف السابق للإنسان ، تُدرك أنه يصف الإنسان في أفضل حالة يمكن أن يكون عليها ، وهي الحالة النموذجية التي تسعى المهنة لمساعدة الإنسان للوصول إليها ، من خلال عمليات المعرفة باللَّه وبآياته ، وعمليات التزكية ؛ ذلك أن معظم المشكلات التي يقع فيها الإنسان ترجع إما لجهله ووجود بعض الشبهات لديه ، أو لضعفه واستيلاء الشهوات عليه .

وبنظرة شاملة إلى ما جاء بالدراسة من مفاهيم استقرئت من المصادر الإسلامية ، نجد أنه يمكن تلخيصها في مفهومين ؛ هما : العبادة ، والاستعانة . فإذا نظرنا إلى الإنسان من خلال هذين المفهومين المعجزين والواردين في فاتحة الكتاب : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أمكننا الأخذ بتقسيم ابن تيمية للناس [١] .

حيث قسمهم باعتبار العبادة والاستعانة إلى أربعة أقسام ؛ هي :

١ – قسم أعرض عن عبادة اللَّه والاستعانة به .

٢ – قسم يشهد بربوبية الحق ، وافتقارهم إليه ويستعينون به ، لكن على أهوائهم وأذواقهم ، غير ناظرين إلى حقيقة أمره ونهيه ورضاه وغضبه ومحبته ، فيفعلون المعصية ظانين أنها طاعة أو يحتجون بالقدر .

---

(١) ابن تيمية : مرجع سبق ذكره ، (م١) ، (ص ٣٦) .

٣ – قسم ينظر إلى جانب الأمر والنهي والطاعة شاهدين لإلهية الرب سبحانه الذي أمروا أن يعبدوه ، ولا ينظرون إلى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة ؛ لأنهم يغلب عليهم الضعف والعجز ؛ لأن الاستعانة باللَّه والتوكل عليه هي التي تقوي العبد وتيسر عليه الأمور .

٤ – قسم جمع بين العبادة والاستعانة فحققوا : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، فاستعانوا به على طاعته ، وشهدوا أنه إلههم الذي لا يجوز أن يعبد إلا إياه ، وأطاعوا رسوله . وهذا هو القسم المحمود .

ويشير هذا بوضوح إلى أن ممارسة الخدمة الاجتماعية لا يمكن أن تكون لها فاعليتها سواء في مساعدة الأفراد على مواجهة مشكلاتهم ، أو تنمية شخصياتهم ، أو في إصلاح النظم الاجتماعية ما لم تلتفت إلى هذه الأبعاد الروحية المتعلقة بنوعية صلة الإنسان باللَّه ربه وخالقه . وإن أي محاولة للاجتزاء والتوقف عند الأبعاد المؤثرة الأخرى (المادية والنفسية والاجتماعية مثلًا) دون غيرها من الأبعاد الفعالة في تشكيل السلوك ، إنما هو أمر يتنافى مع النزاهة العلمية ، ولا يمكن أن يؤدي إلى تحقيق نتائج ذات قيمة وهذا ما طالبت به فيسنتيا جوزيف (M.Vicentia Joseph) وبقوة بعد أن اتضح من بحثها الميداني اهتمام الأخصائيين الاجتماعيين بالجوانب الدينية والروحية لعملائهم وضرورة تركيزهم عليها [١] .

* * *

(١) M . Vicentia Joseph, "Religion and Social Work Practic" .
Social Case Work, Septemper, 1988 .

obeikandl.com

المبادئ الأساسية للخدمة الاجتماعية الإسلامية

أ.د. محمد سلامة غباري

مقدمة

لقد ظهر اتجاه جديد بين الباحثين المسلمين يدعو إلى دراسة العلاقات والظواهر والنظم والأنساق الاجتماعية من منظور إسلامي لتكون هذه الدراسات نواة لفرع أكثر تخصصًا يعرف باسم الاجتماع الإسلامي ، ويصبح الاختلاف الأساسي بينه وبين « علم الاجتماع الديني » أن هذا الأخير يعالج الظواهر الدينية في كافة المجتمعات وبدون التقيد بدين معين ، بخلاف الاجتماع الإسلامي الذي يختص بدراسة العلاقات والظواهر والنظم والأنساق الاجتماعية من وجهة النظر الإسلامية البحتة .

ومن نفس المنظور ظهر علم النفس الإسلامي حتى غطى هذا الاتجاه الكثير من العلوم المختلفة ، وحيث إن تلك العلوم تعتبر القاعدة العلمية للخدمة الاجتماعية التي تعتمد في نموها وتطورها عليها ، فكان لا بد لها أن تتطور بدورها ؛ ولذلك كان لا بد أن تتأثر الخدمة الاجتماعية بالمنظور الإسلامي .

ومن هذا المنظور بدأت الخدمة الاجتماعية تقيم خدماتها في المؤسسات التي تمارس فيها الخدمة الاجتماعية التقليدية ، واعترفت بقصورها ، وبدأت تبحث لنفسها عن أساليب علاجية جديدة تحررها من تلك الأساليب التقليدية المستوردة من المجتمعات الغربية التي تختلف في عاداتها وقيمها واتجاهاتها عن مجتمعاتنا العربية اختلافًا كبيرًا .

ولذلك اتجه الباحثون المسلمون إلى الدين بعد أن زادت المشكلات الاجتماعية وانهارت العلاقات الإنسانية في هذه الفترة الحرجة التي تمر بها البشرية ؛ الفترة التي وصل فيها الفزع إلى غايته ، والقلق إلى أقصاه ، وظهر لها واضحًا إلى أي مدى تخبطت البشرية حين شردت عن اللّه وعن منهجه في الحياة .

لقد تخبطت البشرية ما بين عبادة العقل ، وعبادة الجسم ، وعبادة المادة ، وعبادة الحتمية التاريخية ، والحتمية الاقتصادية ، والحتمية الاجتماعية .. إلى آخر هذه الآلهة المزعومة التي يعبدها الناس في هذا الجيل ليهربوا بها من عبادة اللّه !! فكانت الشقوة التي

تفسد الأعصاب والنفوس ، وكان العذاب الذي يمس الأفراد والجماعات ، وكان الفزع الدائم من الدمار الرهيب .

وليس للبشرية علاج من هذه الشقوة المفسدة ، والعذاب المفزع إلا أن تعود إلى اللَّه لتجد الأمن والرعاية في حماه ، وتجد التوجيه الراشد في منهجه للحياة .

والعلاج الإسلامي هو المنهج الرباني المناسب للحياة بما فيه من وقاية وعلاج ، وهو الذي يقدم الأساليب العلاجية المناسبة الفعالة لكل المشكلات ، وفيه النجاة والخلاص ، فهو المنهج الرباني لتقويم البشرية ؛ لترشد وتتوازن ، وتسلك طريقها المستقيم في الحياة .

ولذلك كله اتجهت الخدمة الاجتماعية إلى ممارسة العلاج الإسلامي ، وتحمست لتطبيقه في المؤسسات الاجتماعية لعلها تجد فيه أسلوب العمل المناسب وطريق العلاج الأمثل بعد أن ضاقت بها السبل ، وعجزت أساليبها العلاجية التقليدية عن علاج المشكلات الاجتماعية .

والدين الإسلامي يقول : إنه من الممكن تبديل النفس البشرية وتغييرها جوهريًا بإمكانية إخراجها من الظلام إلى النور ، ومن حضيض الشهوات إلى ذروة الكمال الخلقي وذلك عن طريق المجاهدة والرياضة النفسية .

والإسلام لا يغفل أبدًا ؛ واقع الطبيعة البشرية ، وما ركب فيها من تنوع الطاقات والاتجاهات والمستويات ، لذلك لا يلزم الناس بصورة مثالية معينة ، مصبوبة في قالب لا تتعداه ، إنما هو يطلب من كل إنسان أن يبلغ حدود الكمال الممكن له هو حسب استعداداته وطاقته واتجاهاته . وكل ما يفرضه الدين الإسلامي هو المحاولة الدائمة لبلوغ ذلك الكمال الخاص في حدود الإطار المثالي العام ، وهنا تظهر واقعية الإسلام في علاج النفس البشرية .

والعلاج الإسلامي بأساليبه المختلفة وبمبادئه الأساسية التي يعرضها هذا البحث هو محاولة جادة للتأثير في تلك النفس البشرية بهدف تغييرها من نفسٍ ضالة ومنحرفة إلى نفس مسلمة مؤمنة ، تؤدي واجبها في الأرض ، متوكلة على اللَّه في السماء ، تسعى للرزق بكل ما أوتيت من قوة تاركة النتيجة للَّه ، تسير مع الأقدار مؤمنة بأنه لن يصيبها إلا ما كتبه اللَّه لها .

وهكذا يهتدي الأخصائي الاجتماعي بمنهج إسلامي واقعي نظيف ، يحسب حساب الإنسان بفرديته من حيث طاقاته وقدراته واستعداداته وصفاته ؛ ولذلك لا يكلفه بعمل

المستحيل بل يطلب منه المحاولة الدائمة لبلوغ الكمال الذي يستطيعه هو ، وهو بفطرته يستطيع الكثير .. والإنسان في نظر هذه الواقعية كائن ليس بالملاك ولا بالشيطان ، ولكنه قادر على الصعود إلى نظافة الملائكة ، وقادر على الهبوط إلى دنس الشيطان .

والطريق الواقعي لتنمية الإنسان ومعالجته ، هو رسم الصورة المتكاملة أمامه ، وتدريبه دائمًا على الصعود إليها والدنو منها بكل أساليب العلاج الإسلامي ، وبكل جهد ممكن ومستطاع .

والأخصائي الاجتماعي الذي يمارس العلاج الإسلامي في المؤسسات الاجتماعية ، يبغي الوصول في النهاية إلى إعداد الإنسان الصالح الذي يستمد من القرآن منهج حياته ، ومنهج سلوكه ، حيث يجد الوقاية ويجد العلاج .

وهو يعرف جيدًا أنه طريق شاقٌّ وصعبٌ ؛ لأنه طريق غير ممهد ، تحيط به ظروف وعوامل غير مساعدة ، ويعترضه عقبات كبيرة ، متمثلة في ألوان التربية السائدة في المجتمع ، التي ابتعدت كثيرًا عن طريق اللَّه ، وتاهت في معترك الحياة . ولكي ينجح الأخصائي الاجتماعي في ممارسة العلاج الإسلامي بشقيه الذاتي والبيئي فلا بد له من قاعدة رئيسية يرتكز عليها عند الممارسة والتطبيق ، هذه القاعدة هي مجموعة المبادئ الرئيسية للخدمة الاجتماعية الإسلامية ، وقد عرضها البحث بصورة مبسطة سهلة موضحة ببعض الأمثلة التطبيقية التي تساعد الممارس على الاستفادة منها وتطبيقها مع عملائه بمؤسسات الخدمة الاجتماعية بكل أنواعها وتخصصاتها ، وبخاصة مؤسسات رعاية الأحداث المنحرفين بصفة خاصة ومؤسسات رعاية الطفولة بصفة عامة ، وكذلك جميع المؤسسات التي تعمل في شتى مجالات الخدمة الاجتماعية .

المبدأ الأول : مبدأ الشورى

الشورى أصل من أصول الحياة في الإسلام ، وهي أوسع مدى من دائرة الحكم ؛ لأنها قاعدة حياة الأمة المسلمة [١] و « دائرة الشورى هي دائرة العلاقة بين المؤمنين جميعًا » .

وقد قال ابن تيمية : « لا غنى لولي الأمر عن المشاورة ، فإن اللَّه تعالى أمر بها نبيه فقال : ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، وقد روي عن أبي هريرة ﷺ قال : « لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول اللَّه ﷺ » ، وقد قيل : إن اللَّه أمر بها نبيه ﷺ لتأليف قلوب الصحابة ، وليقتدي به من بعده ،

---

(١) سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الإسلام .

وليستخرج منهم الرأي فيما لم ينزل فيه وحي من أمر الحروب ، والأمور الجزئية وغير ذلك ، فغيره ﷺ أولى بالمشورة » (١) .

وقد أثنى اللَّه على المؤمنين بذلك في قوله : ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٣٦ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ۝٣٧ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى : ٣٦ - ٣٨] .

والشريعة الإسلامية وإن كانت آياتها المحكمة سدى الإسلام فلحمته الشورى ، فيها صار الاجتهاد حقًّا والإجماع دليلًا ، وهما جناحا التحضر السوي ، والكمال الاجتماعي ، والتقدم الإنساني السليم .

ولما لهذا المبدأ العظيم من أهمية فسنعرض بعض آراء المفسرين لآية : ﴿ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾ لنخرج منها بمؤشرات ودلالات نسير على هديها ونمشي في طريقها .

قال السيد محمد رشيد رضا صاحب تفسير المنار : ﴿ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾ ، أي الأمر العام الذي هو سياسة الأمة في الحرب والسلم والخوف والأمن وغير ذلك من مصالحهم الدنيوية ، أي دم على مشاورتهم وواظب عليها كما فعلت قبل الحرب في غزوة (أحد) وإن أخطأوا الرأي فيها ، فإن الخير كل الخير في تربيتهم على المشاورة بالعمل دون العمل برأي الرئيس وإن كان صوابًا ؛ لما في ذلك من النفع لهم . والمراد بالأمر الدنيوي الذي يقوم به الحكم عادة لا أمر الدين الذي مداره على الوحي دون الرأي ؛ إذ لو كانت المسائل الدينية ؛ كالعقائد والعبادات والحلال والحرام مما يقرر بالمشاورة لكان الدين من وضع البشر ، إنما هو وضع إلهي ليس لأحد فيه رأي لا في عهد النبي ﷺ ولا بعده .

وقال صاحب التفسير القاسمي : ﴿ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾ أي أمر الحرب وغيره تودداً إليهم وتطييبًا لنفوسهم واستظهارًا بآرائهم وتمهيدًا لسنة المشاورة في الأمة .

وقد ساق العلامة فخر الدين الرازي وجوهًا أخرى في فائدة أمره تعالى له عليه السلام بمشاورتهم ؛ منها : أنه ﷺ وإن كان أكمل الناس عقلًا إلا أن علوم الخلق متناهية فلا يبعد أن يخطر ببال إنسان من وجوه المصالح ما لا يخطر بباله لا سيما فيما يفعل من أمور الدنيا فإنه ﷺ قال : « **أنتم أعرف بأمور دنياكم** » . ومنها أن الأمر بمشاورتهم لا لأجل أنه ﷺ محتاج إليهم ، ولكن لأجل أنه إذا شاورهم في الأمور اجتهد كل واحد منهم في استخراج ما عنده من الوجه الأصلح ، فتصير الأرواح

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية : السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية .

متطابقة متوافقة على تحصيل أصلح الوجوه . وتطابق الأرواح الطاهرة على الشيء الواحد مما يعين على حصوله وهذا هو السر عند الاجتماع والجماعة في الصلوات .

وقال صاحب تفسير المراعي : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ ، أي أنهم إذا حزبهم أمر تشاوروا فيما بينهم ليقتلوه بحثًا وتمحيصًا ولا سيما الحروب ونحوها ، وقد كان رسول اللَّه ﷺ يشاور أصحابه في كثير من الأمور ولم يكن يشاورهم في الأحكام ؛ لأنها منزلة من عند اللَّه .

أما الصحابة فكانوا يتشاورون فيها ويستنبطون من الكتاب والسنة ، وأول ما تشاور فيه الصحابة الخلافة ، فإن النبي ﷺ لم ينص عليها حتى انتهى أمرهم إلى تولية أبي بكر ﷺ ، وتشاوروا في قتال من ارتدوا بعد وفاة الرسول ﷺ فاستقر رأي أبي بكر على القتال وكان فيه الخير كل الخير للإسلام والمسلمين .

وعن ابن عباس عن عمر ﷺ قال : لما أسروا الأسارى يعني يوم بدر قال رسول اللَّه ﷺ لأبي بكر وعمر : « **ما ترون في هؤلاء الأسارى ؟** » فقال أبو بكر : يا رسول اللَّه هم العم والعشيرة أرى أن نأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار وعسى اللَّه أن يهديهم إلى الإسلام . فقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما ترى يا بن الخطاب ؟** » فقال عمر بن الخطاب : لا واللَّه ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم فتمكن فلانًا من فلان – قرابته – فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده فهوى رسول اللَّه ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت [١] .

كما كان رسول اللَّه ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث تطييبًا لقلوبهم ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه ، كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير فقالوا : يا رسول اللَّه لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعنا معك ، ولو سرت بنا برك الغماد لسرنا معك ، ولا نقول كما قال قوم موسى عليه السلام : ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة : ٢٤] ، ولكن نقول : اذهب فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون . وشاورهم أيضًا أين يكون المنزل ؟ حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم أمام القوم ، وشاورهم في أحد أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو ؟ فأشار جمهورهم بالخروج إليهم فخرج . وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذٍ فأبى ذلك عليه السَّعدان : سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، فترك ذلك .

---

(١) الإمام الشوكاني : نيل الأوطار ، مرجع سبق ذكره (ص ٣٢٠) .

ويقول العالم الشهير أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي في المشاورة والنصيحة : اعلموا أن المستشير وإن كان أفضل رأيًا من المشير فإنه يزداد برأيه رأيًا كما تزداد النار بالسليط ضوءًا . فلا تقذفن في روعك أنك إذا استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة إلى رأي غيرك فيمنعك ذلك عن المشاورة ، فإنك لا تريد الرأي للفخر به ، ولكن للانتفاع به ، وإن أردت الذكر كان أفخر لذكرك ، وأحسن عند ذوي الألباب لسياستك أن يقولوا : لا ينفرد برأيه دون ذوي الرأي من إخوانه ، ولا يمنعك عزمك عن إنفاذ رأيك وظهور صوابه لك عن الاستشارة .

ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام أُمر بذبح ابنه عزمة لا مشورة فيها ؛ فحمله حس الأب وعلمه بوقعه في النفوس على الاستشارة فيه ، فقال لابنه : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ [الصافات : ١٠٢] وهذا أحسن ما يرسم في هذا الباب (١) . ومن هنا يمكن القول : إن الفعل شاور من المشورة يقتضي ؛ **أولًا** : استشارة (مشكلة) ، **وثانيًا** : مشير (صاحب رأي) ، **وثالثًا** : مستشير (صاحب مشكلة) ثلاثة أركان تتفاعل وتمتزج ليخرج منها الرأي السوي الناضج الذي يجنب الإنسان وكذا المجتمع والأمة الانحراف والهلاك ، ويهدي إلى الأمن والرشاد .

وحيث إن الخدمة الاجتماعية تحرص على تدعيم الترابط والتضامن بين أبناء المجتمع وتحرص على بنائه وإنمائه ، فإن مبدأ الشورى يعد من أعظم المبادئ الإنسانية التي تعتمد عليها الخدمة الاجتماعية في تحقيق أهدافها الإسلامية .

وعندما يمارس الأخصائي الاجتماعي مبدأ الشورى عندما يخطط لعلاج المشكلات الاجتماعية فإنه يجعل من نفسه الركن الأول من أركان المشاورة وهو المشير صاحب الرأي والتفكير بعد أن يتم إعداده إعدادًا إسلاميًّا سليمًا ، بحيث يصبح صالحًا لتقديم المشورة لمن يطلبها من العملاء ، بل في أحيان كثيرة يتقدم هو بالمشورة حتى لو لم تطلب منه ، وذلك عندما يرى أن هناك أخطارًا محققة تهدد الفرد أو المجتمع وبذلك يصبح دوره كمشير معروضًا ومفروضًا في آن واحد ما دام هدفه صالح الفرد وصالح المجتمع .

والأخصائي الاجتماعي الإسلامي لكي ينجح في أداء دوره كمشير لا بد أن يكون واسع التفكير راجح التدبير ، أخلاقه كريمة وصفاته عظيمة ، حتى يستطيع أن يكسب ثقة عملائه مما يجعلهم يقبلون على طلب مشورته بما يحقق لهم العون والمساعدة المطلوبة .

---

(١) أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي : سراج الملوك (ص ١٣٢) .

وقد يكون العميل مشيرًا في أحيانٍ كثيرة عندما يشركه الأخصائي الاجتماعي في ذلك ، وعندما يطلب منه إبداء رأيه والاشتراك بتفكيره في كثير من الأمور التي تسهل نجاح عملية المساعدة ، وقد يكون للعميل رأي سليم وفكر ناضج ، يساعد الأخصائي في استكمال الكثير من الجوانب التي كانت خافية عليه ، فهو الأدرى بجوانب المشكلة وهو الذي سيتحمل المسؤولية الكبيرة في علاجها .

وقد يكون هناك مستشارون آخرون يعملون جنبًا بجنب مع العميل والأخصائي الاجتماعي مثل الخبراء والمختصين من أصحاب الرأي والمشورة ؛ مثل : رجل الدين ورجل القانون أو المختص النفسي أو الطبيب ... إلخ ممن يستعين بهم الأخصائي الاجتماعي في دراسة المشكلة وعلاجها ، وليس عيبًا أو نقصًا من الأخصائي الاجتماعي أن يستعين بغيره من زملاء المهنة ، ويستشيرهم برأيهم وأفكارهم ما دامت تساعده على الوصول إلى العلاج السليم ، أما الركن الثاني من أركان المشاورة وهو المستشير ، فهو العميل الذي يعاني من مشكلات عاقت توافقه وعطلت تفكيره وأصبح عاجزًا عن مواجهتها بمفرده مما دعاه لطلب المشورة من الأخصائي الاجتماعي فهو القادر على التفكير السليم وإعطاء المشورة المناسبة ؛ لأن تفكيره محرر من الضغوط التي يعاني منها العميل الذي أصبح في مسيس الحاجة لمن يقف بجانبه ويساعده على مواجهة تلك المشكلات وعلاجها .

وعندما يحضر العميل طالبًا المشورة يقابله الأخصائي الاجتماعي بالاحترام والحب النابع من أخوة الإسلام الصادقة التي يستمد منها العميل مشاعر الأمن والطمأنينة ، وعندها يثق في الأخصائي الاجتماعي الذي يضحي بوقته وجهده في سبيل مساعدته غير منتظر منه جزاءً أو شكورًا ، وعندها يشعر العميل بأن الأخصائي الاجتماعي يقدم له المشورة الصادقة بدافع أخوة الإسلام المخلصة ، وحينئذٍ يثق فيه ويطمئن إليه ، فيحبه ويطيعه ، وعندها يسهل التأثير عليه وتغييره ، والأخصائي الاجتماعي هدفه التأثير والتغيير بما يساعد على البناء والإنماء بالنسبة للفرد والجماعة والمجتمع ، وبذلك يساهم بدوره في بناء أمة إسلامية قوية حتى تستعيد مكانتها كخير أمة أخرجت للناس .

والركن الثالث من المشاورة هو الأمر المشار فيه وهو المشكلات التي يعمل في مجالها الأخصائي الاجتماعي ، وهي مشكلات كثيرة ومتنوعة ، فقد تكون مشكلات ذاتية تتصل بذات العميل وشخصيته ، وقد تكون مشكلات بيئية تتصل ببيئة العميل وأسرته وقد تجمع بين كلٍّ منهما .

والأخصائي الاجتماعي يشرك معه العميل في دراسة تلك المشكلات وتوضيح جوانبها المختلفة ، كما يشركه معه في تشخيصها وعلاجها ، وبذلك تتفاعل أركان الشورى الثلاثة تفاعلًا إيجابيًا بنَّاءً من خلال مبدأ إسلامي عظيم مارسه خير الأنبياء وخاتمهم .

والخدمة الاجتماعية عندما تمارس مبدأ الشورى كأحد المبادئ الإسلامية العظيمة التي تمارسها وصولًا إلى نجاح الأخصائي الاجتماعي في ممارسة العلاج الإسلامي ؛ ولذلك تسعى من وراء ممارسته وتطبيقه إلى تحقيق الأهداف الإنسانية العظيمة التي حققها رسول اللَّه ﷺ والتي يسعى الأخصائي الاجتماعي الإسلامي جاهدًا إلى تحقيقها .

وكان النبي ﷺ يستشير المسلمين في كثير من الأمور بهدف التأليف بين قلوبهم ونشر المودة والحب والجمع بينهم ، فتزداد ألفة الجماعة وتماسكها ، ويشعر كل فرد فيها بأن قوة الجماعة من قوته وعزها من عزه بعد أن أصبح يستشار في أمورها ويشترك في تقرير مصيرها .

ولذلك يشرك الأخصائي الاجتماعي عملاءه في كل خطواته المهنية ويستشيره أحيانًا كما يشير عليه أحيانًا كثيرة ، وبذلك ينتشر الود والحب ويجمع الإسلام بين القلوب المتآلفة ، ويثق المستشير فيمن يشير عليه ، فيعم الترابط والتضامن ، وتقوى شبكة العلاقات الاجتماعية بعد أن أصبحت علاقات محبة وأخوة إسلامية وعندها يسهل حل المشكلات وتثمر عملية المساعدة وينجح العلاج الإسلامي .

والأخصائي الاجتماعي عندما يمارس مبدأ الشورى مع عملائه فإنه يسعى إلى الاشتراك في تربيتهم تربية إسلامية ، فهو يشاركهم ويشاورهم في أمور حياتهم ويستفيد من آرائهم وأفكارهم ويسترشد بها في كثير من الأمور ، ويجعل من نفسه قدوة صالحة لهم حتى يخرجوا من تفاعلهم معه عقليًا بنضج أفكارهم ونمو شخصياتهم ، وبذلك يصبح كل فرد منهم عضوًا صالحًا في مجتمعه قادرًا على التوافق فيه بعد أن مارس العديد من الخبرات البناءة مع الأخصائي الاجتماعي بما يساعده ويعينه على أداء أدواره الاجتماعية بما يحقق توافقه في المجتمع .

وإذا نظرنا إلى أهداف الشورى العقلية فقد كانت التقاء العقول ، وتجميع الآراء ، ورفع مستوى التفكير ، واستخراج الرأي السليم ، أو تعديل الرأي الخاطئ عن طريق تفاعله مع الرأي السليم ، واستنباط أفكار جديدة أو آراء سديدة .

والأخصائي الاجتماعي يسعى لتحقيق تلك الأهداف عندما يقوم بممارسة مبدأ الشورى مع عملائه فيتفاعل عقله مع عقلهم ورأيه مع آرائهم ، فيرتفع مستوى تفكيرهم وتتعدل أفكارهم الخاطئة ويدرَّبون على التفكير السليم من خلال البرامج والأنشطة التي يحتويها العلاج الإسلامي .

وأخيرًا : هناك الأهداف النفسية التي حققها رسول اللَّه ﷺ من خلال مبدأ الشورى الذي مارسه بنفسه مع أصحابه وقواده وجنوده ، بل ومع عامة المسلمين حيث يهدف إلى تنمية الشعور بالذات وتنمية الثقة بالنفس حتى يشعر كل فرد في المجتمع الإسلامي بالعزة والكرامة والأمن والطمأنينة ، وبذلك نمت شخصياتهم وأصبح كل منهم عضوًا صالحًا في مجتمع صالح ، وصارت الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس .

والأخصائي الاجتماعي الذي يمارس هذا المبدأ الإسلامي العظيم يهدف إلى تنمية ذات العميل وتقوية ثقته بنفسه بعد أن اهتزت تلك الثقة وضعفت تلك الذات ، وبعد أن صار يئن تحت وطأة الضغوط الداخلية النابعة من ذاته والمزلزلة لكيانه ، وبعد أن أصبح خائفًا مضطربًا ، ذليلًا مهانًا ، فلا عجب إذن أن تسعى المبادئ الإسلامية وعلى رأسها مبدأ الشورى إلى المشاركة مع العلاج الإسلامي في علاج اضطرابات الشخصية ، مما يؤدي إلى تنمية الشعور بالذات والثقة بالنفس ، وعندها يتحول الخوف إلى الأمن ، والاضطراب إلى الطمأنينة ، والمهانة إلى العزة ، والذلة إلى الكرامة .

المبدأ الثاني : العلم

العلم مبدأ آخر من المبادئ الإسلامية المهمة التي تحتاج إليها الخدمة الاجتماعية وهي تطبق العلاج الإسلامي للمشكلات الاجتماعية ، والأخصائي الاجتماعي لن يستطيع ممارسة الخدمة الاجتماعية الإسلامية إلا إذا اعتمد في ممارسته على المبادئ الإسلامية التي تساعده على فهم الإنسان واكتساب ثقته حتى يصبح قادرًا على التأثير فيه ، وبالتالي يستطيع تغييره ، والعلاج الإسلامي بمبادئه الإسلامية هو القادر على هذا التغيير .

« إن العلم للإسلام كالحياة للإنسان ، ولن يجد هذا الدين مستقرًا له إلا عند أصحاب المعارف الناضجة والألباب الحصيفة ، فطبيعة الإسلام تفرض على الأمة التي تعتنقه أن تكون أمة متعلمة ترتفع فيها نسبة المثقفين ، وتهبط أو تنعدم نسبة الجاهلين ؛ ذلك لأن حقائق هذا الدين – من أصول وفروع – ليست طقوسًا تنتقل بالوراثة ، أو تعاويذ تشيع بالإيحاء ، وتنشر بالإيهام إنها حقائق تستخرج من كتاب حكيم ، ومن

سنَّة واعية ، وسبيل استخراجها لا يتوقف على القراءة المجردة ، بل لا بد من أمة تتوفر فيها الأفهام الذكية ، والأساليب العالية ، والآداب الكريمة ، ولا شك أن مدارسة مناهج الإسلام تخلق في أي أمة تعني بها جوًّا من الفقه التشريعي القائم على الأوامر والنواهي – أي بالحقوق والواجبات – وجوًّا من الآداب الاجتماعية الدقيقة المتعلقة بقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجوًّا من البحث الصحيح والاجتهاد المخلص لمد رواق الإسلام على ما تقدمه الأعصار من أقضية شتى وشؤون متجددة » (١) .

لذلك أعز اللَّه العلماء وآثرهم بكرامته وفضله ، قال رسول اللَّه ﷺ : « **من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل اللَّه له طريقًا إلى الجنة** » (٢) .

كما قال ﷺ : « **من خرج في طلب العلم فهو في سبيل اللَّه حتى يرجع** » (٣) .

وكذلك قوله ﷺ : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم** » (٤) .

والعلم كمبدأ إسلامي مهم لم تظهر أهميته في أحاديث رسول اللَّه ﷺ فقط ، بل تأكدت أهميته من خلال آيات بينات من كتاب اللَّه الكريم تأمر المسلمين بالعلم وتحضهم عليه ؛ منها قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩] ، ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] ، ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] ، وقال الخبير العليم : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] ، ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الأعراف : ٥٢] ، ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت : ٤٩] ، ثم قال العزيز الحكيم : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن : ٣ ، ٤] .

وقد ذكر الإمام الغزالي في طلب العلم وفضيلة التعلم (٥) قول اللَّه تعالى : ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء : ٧] ، وأهل الذكر هم أهل العلم ، هم العلماء كما يرى الغزالي أن مهنة التعليم أشرف مهنة ، وأفضل صناعة يستطيع الإنسان أن يتخذها حرفة ، والتعليم في نظره هو : إفادة العلم ، وتهذيب نفوس الناس عن

---

(١) محمد الغزالي : خلق المسلم ، دار الكتب الحديثة ، ط . ٧ ، (١٩٦٤م) (ص ٣٦٤) .

(٢) صحيح مسلم .

(٣) سنن الترمذي .

(٤) سنن ابن ماجه .

(٥) إحياء علوم الدين ، (٩/١) .

الأخلاق المذمومة المهلكة ، وإرشادهم إلى الأخلاق المحمودة المسعدة [١] .

والمراد بالعالم هو الصالح التقي ، العالم العامل بكتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ وإننا نعتقد أن الإسلام دين علم ونور ، لا دين جهل وظلمة [٢] ، والعلم الذي يُقبل المسلم عليه ، ويستفتح أبوابه بقوة ، ويرحل لطلبه من أقصى المشارق والمغارب ، ليس علمًا معينًا محدود البداية والنهاية . فكل ما يوسع منادح النظر ، ويزيح السدود أمام العقل النهم إلى المزيد من العرفان ، وكل ما يوثق صلة الإنسان بالوجود ، ويفتح له آمادًا أبعد من الكشف والإدراك ، وكل ما يتيح له السيادة في العالم والتحكم في قواه ، والإفادة من ذخائره المكنونة ولا شك أن في طلبه ما تجب معرفته حق اللَّه على الناس ، وحق الناس بعضهم على بعض . فإن هداية السلوك إلى الصالح العام كبيرة الأثر في تنظيم الجماعات وتوجيه السياسات [٣] .

ولذلك يفرض هذا المبدأ على الأخصائي الاجتماعي أن يكون عالمًا في أصول العلاج الإسلامي ومبادئه التي جاءت بها شريعة الإسلام ، وأن يكون محيطًا بأمور الحلال والحرام ، وأن يكون على دراية تامة بمبادئ الأخلاق ، وأن يكون متفهمًا لأنظمة الإسلام ، وقواعد الشريعة حتى يصبح عالمًا حكيمًا يضع الأشياء في موضعها ، ويربي عملاءه على أصولها ومقتضاها ، ويسير في طريق التربية الإسلامية ، ويطبق العلاج الإسلامي على أسس متينة من تعاليم القرآن ، وهدى محمد ﷺ .

ولذلك فإن الأخصائي الاجتماعي الذي يمارس الخدمة الاجتماعية الإسلامية ويطبق مبادئها لا بد أن يكون عالمًا عاملًا بعلمه [٤] ، أي تطابق أفعاله أقواله ، وأن يكون علمه غزيرًا ومتنوعًا فهو يدرس الكتاب والسنة ، ويدرس التاريخ الإسلامي ، والتاريخ الإنساني معًا ؛ ليعرف الطبيعة البشرية على الواقع ، وليعرف سنن اللَّه في خلقه ، كما يجب عليه دراسة علم النفس بشتى فروعه المختلفة ؛ لأنه يساعد على فهم الإنسان وغرائزه ، وميوله ، وتحليل عواطفه واتجاهاته ، بالإضافة إلى دراسة مختلف العلوم والمعارف الأخرى كقاعدة

---

(١) إحياء علوم الدين ، (١١/١ ، ١٢) .

(٢) محمد عطية الإبراشي : التربية الإسلامية وفلاسفتها ، مكتبة عيسى الحلبي ، (القاهرة ، ١٩٦٩م) ، (ص ٥٠) .

(٣) محمد الغزالي : خلق المسلم ، مرجع سبق ذكره ، (ص ٢٦٩) .

(٤) الحافظ أبي بكر البغدادي : اقتضاء العلم والعمل ، نقلًا عن كنوز السنة رسائل أربع ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني (ص ١٩٦) .

علمية ينطلق منها إلى فهم الإنسان ومشكلاته حتى يصبح قادرًا على مواجهتها وعلاجها . إن هذه المعارف المختلفة ليست نافلة في حياته ، ولا توجيهاته ، بل هي زاد لا بد منه لتصحيح فكره ، وضبط صلته بالعالم ، حتى إذا قدم النصح لعملائه يكون بوعي دقيق ، وحس بالغ ، وإدراك للهدف الذي تنطلق إليه ، كما يجب على الأخصائي الاجتماعي أن يتعلم الشر والخير لا ليقي نفسه فحسب من الشرور ، بل ليقي غيره من الناس كذلك .

إن غزارة الثقافة وسعة الأفق وروعة الحصيلة العلمية من أهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها الأخصائي الاجتماعي ، ولا بد له من أن يكون عالمًا في مهنته ، متبحرًا في معرفتها ، متقنًا لأساليبها الفنية ، متجملًا بمواصفاتها الخلقية ؛ لأنها مهنة الأنبياء والرسل ، ولذلك تحتاج لمواصفات لا تتوافر بسهولة في كل إنسان .

إن الأخصائي الاجتماعي عندما يطبق مبدأ العلم كمبدأ مهم من مبادئ الخدمة الاجتماعية الإسلامية يعرف جيدًا أن أول العلم الصمت ، والثاني الاستماع ، والثالث الحفظ ، والرابع العقل ، والخامس نشره ، وهو يطبق قول القائل : إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول .

والأخصائي الاجتماعي في كل ذلك لا يرجو إلا ربه ، ولا ينتظر من أحد جزاءً أو شكورًا ؛ ولذلك لا يستحي أن يتعلم ما لا يعلمه ويستزيد مما يجهله ، ولا يستحي إذا سُئل في شيء لا يعلمه أن يقول لا أعلم ؛ لأنه في ذلك يطبق قول علي عليه السلام : « لا يرجو عبد إلا ربه ، ولا يخاف إلا ذنبه ، ولا يستحي من لا يعلم أن يتعلم ، ولا يستحي إذا سئل عما لا يعلم أن يقول اللَّه أعلم » .

المبدأ الثالث : المساواة

المساواة مبدأ مهم آخر من المبادئ الإسلامية التي تعتمد عليها الخدمة الاجتماعية الإسلامية وهي تسعى لممارسة العلاج الإسلامي للمشكلات الاجتماعية سواء كانت مشكلات فردية أو جماعية أو مجتمعية ، وهي نفس المبادئ التي اعتمد عليها الإسلام عندما عالج المشكلات الاجتماعية التي اعترضت ظهور الإسلام ، وبالرغم من صعوبتها وتعقدها وتعددها إلا أن الإسلام نجح في القضاء عليها والتخلص منها بفضل تلك المبادئ الإنسانية .

لقد جاء الإسلام ليحقق العدالة الاجتماعية لكل الناس معتمدًا في ذلك على تلك

المبادئ الإسلامية وعلى رأسها مبدأ المساواة ، ولن تتحقق عدالة اجتماعية كاملة ، ولن يضمن لها التنفيذ والبقاء ، ما لم تستند إلى شعور نفسي قوي باستحقاق الفرد لها ، وبحاجة الجماعة إليها ، وعقيدة تؤدي إلى طاعة اللَّه وإلى واقع إنساني أسمى ، وما لم تستند كذلك إلى واقع مادي يهيئ للفرد أن يتمسك بها ويحتمل تكاليفها ويدافع عنها ، ولن يستحقها الفرد بالتشريع قبل أن يستحقها بالشعور ، وبالقدرة العلمية على استدامة هذا الشعور ، ولن تحافظ الجماعة على التشريع إن وجد ، إلا وهناك عقيدة تؤيده من الداخل وإمكانيات عملية تؤيده من الخارج . وهذا ما نظر إليه الإسلام في توجيهاته وتشريعاته جميعًا .

ولما لمبدأ المساواة من أهمية بالغة في تحقيق العدالة الاجتماعية كاملة جاءت الشريعة الإسلامية من وقت نزولها بنصوص صريحة تقرر المساواة وتفرضها فرضًا ، فالقرآن يقرر المساواة ويفرضها على الناس جميعًا في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، وبذلك يشير اللَّه ﷻ إلى أصل المساواة في الطبيعة البشرية بين الأفراد جميعًا ، ثم ينفي أن يكون اختلاف الناس إلى شعوب وقبائل ومجموعات مبررًا للمفاضلة بين الأفراد ، بل ينظر إلى هذا الاختلاف على أنه سبب للتعارف واللقاء وليس للتخاصم والتنافر ، ويقرر سببًا واحدًا للمفاضلة هو التقوى بعد أن كرم الطبيعة الإنسانية كلها في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء : ٧٠] ، ولكنه ﷻ فضَّل بعضهم على بعض بكثرة التقوى ، وكثرة التقوى ليست بحكم أحد من الناس وإنما بعلم اللَّه ذاته وخبرته [١] .

ورسول اللَّه ﷺ يؤكد هذا المعنى في قوله : « **الناس سواسية كأسنان المشط الواحد لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى** » ، ثم يؤكد هذا المعنى تأكيدًا في قوله ، « **إن اللَّه قد أذهب بالإسلام نخوة الجاهلية وتفاخرهم بآبائهم ؛ لأن الناس من آدم وآدم من تراب وأكرمهم عند اللَّه أتقاهم** » ويلاحظ على هذه النصوص أنها فرضت المساواة بصفة مطلقة ، فلا قيود ولا استثناءات ، وأنها المساواة على الناس كافة ، أي على العالم كله ، فلا فضل لفرد على فرد ، ولا لجماعة على جماعة ، ولا لجنس على جنس ، ولا للون على لون ، ولا لسيد على مسود ، ولا لحاكم على محكوم [٢] .

---

(١) محمد البهي : الدين والدولة ، مرجع سبق ذكره (ص ٢٧٣) .

(٢) عبد القادر عودة : التشريع الجنائي الإسلامي ، مرجع سبق ذكره (ص ٢٦) .

وقد سبقت الشريعة الإسلامية القوانين الوضعية في تقرير المساواة بأحد عشر قرنًا ، ولم تأتِ تلك القوانين الوضعية بجديد حين قررت المساواة وإنما سارت في أثر الشريعة الإسلامية واهتدت بهداها .

ولم تكن المساواة في الإسلام كلامًا يقال أو شعارًا يرفع ، وإنما كان مبدأ يمارس ، وأول من مارسه والتزم بتطبيقه النبي ﷺ متأدبًا بأوامر ربه الذي كان دائمًا يذكر الناس بأنه بشر كسائر البشر ، وكان محمد ﷺ بذاته يكرر هذا المعنى وهو النبي العظيم الذي كان محبوبًا من قومه مبجلًا ، ولكن خيف أن ينقلب ذلك الحب وهذا التبجيل إلى تأليه أو قدسية لا تكون إلا للَّه . فها هو ذا يقول لقومه : « **لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ؛ فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد اللَّه ورسوله** » (١) ، ويقول وقد خرج على جماعة فوقفوا تبجيلًا : « **من سره أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار** » (٢) ، وفي موقف آخر قال لقومه : « **يا معشر قريش لا أغني عنكم من اللَّه شيئًا . يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من اللَّه شيئًا . يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من اللَّه شيئًا ، ويا صفية عمة رسول اللَّه لا أغني عنك من اللَّه شيئًا** » (٣) .

وحين أصابت محمد الإنسان لحظة حرص بشري ؛ فانصرف عن الرجل الفقير الأعمى ابن أم مكتوم إلى الوليد بن المغيرة سيد قومه ، عاجله العتاب الشديد الذي يشبه التأنيب ليرد للمساواة المطلقة معاييرها الكاملة .

ومبدأ المساواة أمام شريعة اللَّه مقرر في الإسلام بأجلى بيان ؛ آخذًا من المساواة العامة للمسلمين ، ومن نصوص أخص من ذلك قول رسول اللَّه ﷺ : « **واللَّه لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها . إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الوضيع أقاموا الحد** » ، وكان عليه الصلاة والسلام قد استشفع لديه في عدم توقيع الحدِّ فاستنكر ذلك وصاح بمحدثه : « **يا أسامة أتشفع في حدٍّ من حدود اللَّه ؟** » (٤) وعندما تجادل الصحابي المعروف أبو ذرٍّ الغفاري مع أحد الزنوج . واشتد به الغضب فقال له : « يا بن السوداء » وسمع الرسول ﷺ هذه الكلمة النابية . فأنكرها أشد الإنكار وقال لأبي ذرٍّ : « **أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية** » .

---

(١) البخاري .
(٢) أبو داود والترمذي .
(٣) متفق عليه .
(٤) محمد فتحي عثمان : أصول الفكر السياسي الإسلامي (ص ٢٦٧) .

ومما قال له : « **طف الصاع . طف الصاع . ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح** » (١) وقد ندم أبو ذرٍّ على فعلته . وأثرت كلمات الرسول ﷺ في نفسه ، فألصق خده بالأرض وقال للأسود : « قم فطأ على خدي » وبهذا التعليم البين الحاسم محا الإسلام من المجتمع كل نزعة إلى التفرقة العنصرية (٢) .

ولم يكتف الرسول ﷺ بممارسة هذا المبدأ مع أصحابه وأقاربه وأهل بيته ، بل امتد إلى ممارسته مع جلسائه من عامة المسلمين ، وعلَّمهم كيف يطبق هذا المبدأ على الجميع دون أن يفرق بين غني أو فقير ولا قوي أو ضعيف ، فقد جاء عن النبي ﷺ أنه سأل جليسًا له وقد مر بهما رجل **ما رأيك في هذا** ؟ فقال : هذا رجل من أشراف الناس ، هذا واللَّه حري إن خطب أن يزوج ، وإن شفع أن يشفع ، وإن قال أن تسمع لقوله . فسكت رسول اللَّه ﷺ ثم قال : « **ما رأيك في هذا** ؟ » فقال : يا رسول اللَّه ، هذا رجل من فقراء المسلمين . هذا واللَّه حري إن خطب ألا يزوج ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال ألا يسمع لقوله . فقال رسول اللَّه ﷺ : « **هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا** » (٣) .

وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال : رأى سعد أن له فضلًا على من دونه ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « **هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم ؟!** » (٤) ، وقال : « **ابغوني في ضعفائكم ، إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم** » (٥) .

وهكذا يتتبع الإسلام كل ناحية من حياة الناس الوجدانية والاجتماعية ؛ ليؤكد فيها معنى المساواة توكيدًا ، وما كان في حاجة كما قلنا لأن يتحدث عن المساواة لفظًا وصورة ، بعد ما حققها معنًى وروحًا ولكنه يحرص على المساواة حرصًا شديدًا ، ويريدها إنسانية كاملة غير محدودة بعنصر ولا قبيلة ولا بيت ولا مركز .

والخدمة الاجتماعية عندما تمارس العلاج الإسلامي لمعالجة المشكلات الاجتماعية فإنها تلتزم بمبدأ المساواة ، وتمارسه مع كل الناس الذين يتعاملون مع الأخصائي الاجتماعي الذي ينظر إليهم جميعًا على قدم المساواة ، ويتقبلهم جميعًا كما خلقهم اللَّه لا كما يجب أن يكونوا . فقد خلقهم سواسية كأسنان المشط ، ولذلك يحترم كل واحد منهم كنفس بشرية ، وكقيمة إنسانية باعتبارها أثمن شيء في الوجود ، ويهتم

---

(١) البخاري .

(٢) محمد الغزالي : حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة (ص ١٩) .

(٣) البخاري .

(٤) البخاري .

(٥) أبو داود .

كثيرًا باحترام كرامة الإنسان باعتباره مخلوقًا آدميًّا له كرامته وفرديته التي تميزه عن غيره من الناس ، وليس معنى المساواة إلغاء الفروق الفردية بل لكلٍّ قدراته وصفاته الشخصية التي خلقه اللَّه بها لتميزه عن الآخرين .

ولذلك فإن مبدأ المساواة كمبدأ إسلامي مهم يلزم الأخصائي باحترام كل فرد من عملائه ، والاهتمام به ، وإبداء الرغبة الصادقة في مساعدته ، والمحافظة على كرامته وقيمته الإنسانية بغض النظر عن كونه أميرًا أم خفيرًا ، غنيًّا أم فقيرًا ، سليمًا أم مريضًا ، جميلًا أم قبيحًا . فكل ذلك ليس له تأثير على عملية المساعدة ؛ لأن الأخصائي الاجتماعي ليس له إلا هدف واحد وهو تقديم المساعدة المطلوبة للعملاء مهما كلفته من جهد ووقت ، وهو يقدم مساعدته لهم حسب احتياجاتهم لا حسب مراكزهم ومميزاتهم ، وهو لا ينتظر منهم جزاءً ولا شكورًا . واحترام الأخصائي الاجتماعي للعميل بهذه الصورة يشبع عنده عاطفة اعتبار الذات ، ويشعره بأنه إنسان له كرامته وله كيانه وقيمته ، وبذلك يتمكن الأخصائي من امتصاص مشاعر القلة والدونية التي يشعر بها العميل ، حيث إن هذه المشاعر السلبية تعتبر من أهم العقبات التي تعترض جهود الخدمة الاجتماعية الإسلامية .

وتطبيق مبدأ المساواة الذي يفرض احترام العملاء والمحافظة على كرامتهم وقيمتهم الإنسانية ويوجب على الأخصائي الاجتماعي الاهتمام بهم وإبداء الرغبة الصادقة في مساعدتهم ليس كلامًا يقال ولكنه سلوك إسلامي يمارس يبدأ منذ أول لقاء مع العميل ، حيث يقابله الأخصائي الاجتماعي بالبشاشة والترحاب ويدعوه للجلوس في المكان المعد لاستقباله ، وبذلك يشعره بأن هناك من يحترمه ويقدره ، ثم ينصت إليه باهتمام بالغ مبديًا رغبة صادقة في مساعدته ، باذلًا من أجله كل جهد ، مضحيًا في سبيله بكل وقت ، وعندها يشعر العميل بنوع آخر من المعاملة التي لم يألفها من قبل ، ويبدأ في تغيير نظرته لنفسه ويشعر بذاته ويحس بكرامته وقيمته الإنسانية كبقية الناس بعد أن تمتع بحقه في المساواة المطلقة دون قيود أو استثناءات ، وبذلك تتوطد العلاقة بينهما ، ويبدأ التعاون من خلال علاقة محبة أخوية إسلامية ، تؤدي إلى نجاح العلاج الإسلامي .

والأخصائي الاجتماعي الإسلامي الذي اتسع قلبه لحب كل عملائه ، وأحبهم حبًّا صادقًا ، ووجَّه تلك المشاعر الصادقة إليهم مهما كانت عيوبهم أو نوعياتهم ، ما هو إلا بشر كبقية الناس ينفعل مثلهم ويثور ويغضب ، ويمل ويتعب ، ولكنه مختلف عنهم في مطالب مبادئه الإسلامية التي يعد لها ويدرب على ممارستها ، والتي تجعله عندما ينفعل كبقية البشر حليمًا صابرًا متحكمًا في انفعالاته ومشاعره بحيث لا يظهر ضيقه

أو تعبه أو مله لمن يقدم لهم المساعدة ، بل يقدر مشاعره السلبية في المواقف الانفعالية المختلفة ؛ كالغضب والخوف والحزن والقلق ، فلا يتأثر بثورتهم ، ولا يضيق بانفعالهم ولا يتحامل عليهم ، بل يقبلهم كعملاء يعانون من مشكلات ، ولا ينظر إليهم كعملاء مشكلين .

وعندما يلتزم الأخصائي بتطبيق مبدأ المساواة عندما يمارس العلاج الإسلامي فسيحترمه العملاء كما يحترمهم ، وسيحبونه كما يحبهم ، وعندئذٍ يثقون فيه ويقعون تحت تأثيره ، ويسهل بعد ذلك تغيرهم وعلاج مشكلاتهم ، وإنماء شخصياتهم ، وينفذون كل المسؤوليات التي يفرضها عليهم العلاج الإسلامي بتعاون مثمر وروح طيبة وأخوة ومحبة صادقة ، متخذين من الأخصائي الاجتماعي الإسلامي القدوة الحسنة والمثال الطيب الصالح للتقليد والتقمص .

المبدأ الرابع : الحرية

مبدأ الحرية من أهم المبادئ الإسلامية التي جاءت بها الشريعة وقررتها في أروع مظاهرها ، فقررت الحرية الدينية ، والحرية السياسية ، والحرية المدنية ، وحرية الرأي والفكر ، وحرية الإرادة ، وكل هذه الحريات ما هي إلا مكونات للحرية الإنسانية التي هي كل لا يتجزأ ، وأي مساس بجانب منها عدوان على شرف الإنسان وتعطيل لمسؤوليته ، وليست الحرية منحة وعطاء يقصد بها الفوضى والتحلل ، وإنما هي فرض مقرر أكدته الشريعة الإسلامية كما جاء في القرآن والسنة ، وكما سمعنا عنها في التراث الكبير لأئمة السلف الصالح الذين ناضلوا ودافعوا عن حرية الإنسان .

فحرية التفكير جاءت بها الشريعة الإسلامية لتحرر العقل من الأوهام وتخلصه من الانقياد الأعمى للعادات والتقاليد ، وتعيد إليه نشاطه وفاعليته حتى يصبح قادرًا على أداء وظيفته ، فوظيفة العقل أن يفكر كما أن وظيفة العين أن تبصر ، والشريعة الإسلامية تدعو إلى نبذ كل شيء لا يقبله العقل ، وتحث على التفكير الدائم في كل شيء ، وتؤمن بكل ما يؤمن به العقل ، والإنسان الذي يعيش بعقل معطل التفكير كمن يسير على قدم واحدة ، أو كمن يعمل بأيد مغلولة ، أو كمن يعيش بأعين مغمضة وكل ذلك ضد طبيعة الأشياء .

وتأكيدًا لأهمية هذا المبدأ الإسلامي المهم نصَّ القرآن الكريم في سور كثيرة على استخدام العقل وتحرير الفكر . قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ

ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤] ، وقوله : ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ ﴾ [سبأ: ٤٦] ، وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ ﴾ [الروم: ٨] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [يونس: ١٠١] ، وقوله تعالى : ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [الطارق: ٥ - ٧] ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴾ [الغاشية : ١٧ - ١٩] .

ومن كل تلك الآيات رأينا كيف أكد القرآن الكريم على ضرورة التفكير كوظيفة للعقل تساعد الإنسان على أن ينظر ويرى ويفكر ويتدبر ؛ لأن العقل هو الميزة الوحيدة التي ميز اللَّه بها الإنسان على غيره من المخلوقات ، فإذا لم يفكر وإذا لم يحسن استغلال عقله ، فسيضل الطريق ، ويصبح تائهًا يتخبط ، ينساق وراء الخرافات والأوهام ، ويقلد غيره في عاداتهم وتقاليدهم دون وعي أو فهم ، بعد أن أصبح له عقل لا يفهم ، وعين لا تبصر ، وأذن لا تسمع ، وقلب لا يعقل ، وبذلك يتساوى بالأنعام بل يصبح أضل سبيلًا منها .

وقصة اهتداء إبراهيم إلى الحق - فيما تلاه علينا كتاب الإسلام - بدأت بالحيرة والشك الذي هو مظهر لرشد العقل وحرية التفكير ، ومن الشك طال تأمله في الكون وإصراره على طلب الهدى والتماس اليقين [١] .

أما الحرية الدينية « فهي أخطر صور الحرية الفكرية وأشدها حساسية فإذا ضمنها الإسلام فقد بلغ الذروة في ضمان حرية التفكير .. وحرية ممارسة الدين وشعائره هي أخطر صور إعلان الرأي ، فإذا ضمنها الإسلام فقد بلغ الذروة في ضمان حرية الرأي والتعبير » [٢] ، إن الشريعة الإسلامية هي أول شريعة أباحت الحرية الدينية وأقرتها ، وعملت على حماية هذه الحرية وصيانتها ، فلكل إنسان أن يعتنق من العقائد ما شاء وليس لأحد أن يحمله على ترك عقيدته أو اعتناق غيرها ، أو يمنعه من إظهار عقيدته .

« والفكرة العامة عن تسامح الإسلام واحترامه لحرية الاعتقاد والتدين ، لا تكفي لبيان

---

(١) عائشة عبد الرحمن : مقال في الإنسان ، دراسة قرآنية ، دار المعارف بمصر (١٩٦٩م) ، (ص٩٣) .
(٢) محمد فتحي عثمان : من أصول الفكر السياسي الإسلامي ، مرجع سابق (ص ٢٣٣) .

الأفق الرحب العالي الذي استشرف بالإنسانية إليه ، فالحق أن الإسلام في إقراره لحرية التدين يلزم أتباعه بهذا الإقرار دينًا وعقيدةً وسلوكًا ، لا لمجرد التسامح أو المجاملة أو المسالمة » (١) .

إن الإيمان الصحيح المقبول يجيء وليد يقظة عقلية واقتناع قلبي ، إنه استبانة الإنسان العاقل للحق ، ثم اعتناقه عن رضا ورغبة ، وقد عرض الإسلام نفسه على الناس في دائرة هذا المعنى المحدد ، غير متجاوز له في قليل ولا كثير ، حتى يوضح مبادئه ، ويمكن الآخرين من الوقوف عليها ، فإذا شاءوا دخلوها راشدين ، وإذا شاءوا تركوها وافرين (٢) ، ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ [الكهف : ٢٩] .

وأول من مارس هذا المبدأ الإسلامي المهم هو الرسول ﷺ اتقاءً لما قد يدفعه إليه الإيمان من أخذ الناس قسرًا بالدين الحق ، وهو ما يأباه الإسلام نصًّا وروحًا ، إلزامًا للإنسان بحمل الأمانة وتقديرًا ؛ لأن العقيدة لا تكون عقيدة حتى تصدر عن اعتقاد ، والإيمان لا يكون إيمانًا حتى ينبع من القلب والضمير عن رضًى خالص وطمأنينة صادقة . يقول ﷻ : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] . ويقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] ، وقوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : ٢١ - ٢٢] ، ويقول ﷻ : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور : ٥٤] .

أما حرية الرأي والقول فقد أباحتها الشريعة الإسلامية وجعلتها حقًّا لكل إنسان ، بل جعلت القول واجبًا على الإنسان في كل ما يمس الأخلاق والصالح العام والنظام العام وفي كل ما تعتبره الشريعة منكرًا ؛ وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ ﴾ [الحج : ٤١] ، وكذلك قول الرسول ﷺ : « **من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك هو أضعف الإيمان** » ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « **أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر** » ، وقوله ﷺ : « **الدين النصيحة** » ، قالوا : لمن يا رسول اللَّه ، قال : « **للَّه ورسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم** » .

---

(١) عائشة عبد الرحمن : مقال في الإنسان . دراسة قرآنية ، مرجع سابق ، (ص ٧٧) .

(٢) محمد الغزالي ، حقوق الإنسان ، مرجع سابق ، (ص ٩٠) .

وإذا كان لكل إنسان أن يقول ما يعتقد أنه الحق ويدافع بلسانه وقلمه عما يكتب أو يقال خارجًا عن حدود الآداب العامة والأخلاق الفاضلة أو مخالفًا لنصوص الشريعة [١] .

ومن حرية الرأي والقول ما أقرته الشريعة الإسلامية من حق الجدال في الأمور الدينية وما يتضل بها من مسائل عملية ، حيث إن الجدال ظاهرة إنسانية تميز الإنسان عن غيره من الكائنات ، وحيث إن الإسلام هو دين الفطرة فقد قدر طبيعة الإنسان التي تختلف عن طبيعة الملائكة وبقية الكائنات ، فلم ينكر عليه الجدال وسمح له بأن يقول ما يشاء دون أن يكون شتامًا ولا عيابًا ولا قاذفًا ولا كاذبًا ، وأن يدعو لرأيه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يجادل بالتي هي أحسن وبهذا أمر نبي الإسلام : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

أما الحرية المدنية : « فيقصد بها كل التصرفات النابعة من شعور الإنسان بذاته وضرورة اعتراف الجماعة بشخصيته وأهليته المطلقة للتصرف وفق ما يريد » [٢] .

الشريعة الإسلامية أباحت هذه الحقوق بحيث يصبح الإنسان حرًا في حياته يعيش حيث يشاء ويسكن حيث يريد ، ويتنقل من مكان لآخر متى يشاء وأين يشاء ، حرًا في معاملاته وفي اختياره للمهنة التي يحبها ، يجمع المال ما يستطيع ، ويتصرف فيه كما يهوى ما دام كل ذلك في صالحه وصالح المجتمع وليس فيه أذًى له ولا لغيره ، وليس من حق أحد أن يقيد تلك الحرية أو يسلبها إلا إذا كان ظالمًا لا يعرف حقوق الآخرين ولا يعرف أصول دينه .

واللَّه ﷻ خلق الإنسان كامل المسؤولية ، وشرع له التكاليف الدينية ورتب عليها المثوبة والعقوبة ، على أساس إرادته الحرة وامتلاكه المطلق للاتجاه ذات اليمين أو ذات اليسار .

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ [النجم : ٣٩ - ٤١] .

---

(١) عبد القادر عودة : التشريع الجنائي الإسلامي ، مرجع سابق (ص ٣٣) .

(٢) محمد الغزالي : حقوق الإنسان ، مرجع سابق (ص ١٠٦) .

وهكذا نرى أن الشريعة الإسلامية حينما أباحت الحرية المدنية فإنها كانت تهدف إلى بناء الشخصيات الإسلامية التي تشعر بذاتها وقيمتها الإنسانية بعد أن تأخذ مكانتها بين الجماعات الإسلامية بحيث يشعر كل إنسان منهم بانتمائه إليها فيخلص لها ، ويتفانى في سبيل إنمائها وبنائها حتى تصبح خير أمة أخرجت للناس .

وأخيرًا : نصل إلى حرية الإرادة وهي ليست في الواقع إلا عنصرًا جوهريًّا من كلٍّ لا يتجزأ هو الحرية الكاملة للإنسان بمقتضى اضطلاعه بحمل الأمانة . ونحدد مفهوم الإرادة فنقول : إنها لا تعني مجرد الرغبة والميل ولا هي تقف عن التفكير والاتجاه إلى عمل ما ، إنما تكون الإرادة حين تنتقل النية إلى عمل ، ويستقر العزم عليه في تصميم مهما تكن العوائق والموانع . وإذا كانت الرغبة تمهيدًا للإرادة ، وكان العزم من لوازمها ، فمن الضروري أن نتدبر استعمال القرآن لكل من الرغبة والعزم ، لعله يضيء لنا سبيلنا إلى تدبر موقفه من الإرادة .

ويشهد التتبع الدقيق ، بأن الرغبة لم تأتِ إطلاقًا في القرآن الكريم مسندة أو مضافة إليه تعالى ، وإنما جاءت مادة « رغب » في كتابه المحكم ثماني مرات ، كلها بلا استثناء للمخلوقين لا للخالق .

وكذلك الأمر في العزم ، لم يأتِ قط مضافًا أو مسندًا إلى اللَّه ، ولا وصف سبحانه بأنه ذو عزمٍ ، وإنما العزم في كتاب اللَّه لعباده بصيغة الفعل أو بصيغة المصدر .

والعزم في القرآن يأتي بمعنى التصميم والنفاذ : ﴿ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ﴾ ، ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ ، وهذا الاستقراء جدير بأن يلفتنا إلى ملحظ دقيق ، هو الفرق الجوهري بين مفهوم الإرادة حين تكون من الخالق حكمًا وقضاءً ، ومفهوم الإرادة حين تكون من المخلوقين رغبةً واختيارًا وإرادة المخلوقين إرادة كسبية ، مصحوبة بعزم مسبق برغبة وتفكير ، وليست كذلك عزمًا . وإرادة اللَّه حيث لا يجوز عليه تعالى أي عمل أو صفة كسبية ، على ما هو مقرر في علم التوحيد وإنما تفهم إرادة اللَّه في القرآن كله على أنها حكم نافذ وقضاء مبرم ، وليست كإرادتنا عزمًا على أمر أو سعيًا وراء مراد نصمم على إنفاذه [١] .

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] .

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠] .

---

(١) عائشة عبد الرحمن : مقال في الإنسان ، مرجع سابق ، (ص ١٠٨ - ١١٠) .

والخدمة الاجتماعية عندما تمارس العلاج الإسلامي للمشكلات الاجتماعية فإنها تعتمد اعتمادًا كبيرًا على تطبيق المبادئ الإسلامية وبخاصة مبدأ الحرية سواء كانت حرية دينية أم حرية مدنية أم حرية التفكير أم حرية الرأي والقول أم حرية الإرادة ، فالحرية كلٌّ لا تتجزأ ، وحقٌّ لكل مسلم يجب أن يتمتع به ويمارسه ، وإذا صادفه بعض العقبات أو بعض المشكلات التي تعوق ممارسته لهذا الحق فإن الخدمة الاجتماعية تقف بجانبه وتساعده حتى يحصل على حقوقه كاملة ، ويستفيد منها الاستفادة المرجوة ما دامت الخدمة الاجتماعية تسعى لإنماء الشخصية وبنائها عن طريق العلاج الإسلامي .

إن الأخصائي الاجتماعي الذي يمارس العلاج الإسلامي للمشكلات الاجتماعية ويطبق مبادئه الإسلامية عندما يطبق مبدأ الحرية فإنه يساعد العميل على ممارسة حقه في حرية اتخاذ القرارات المناسبة لمصلحته ومصلحة المجتمع ويشاركه في تحمل الجزء الأعظم من مسؤولية توجيه حياته ؛ لأن العميل الذي يشترك في اتخاذ القرارات التي تناسبه سوف يتحملها وينشط لتحقيقها ، ويجند كل طاقاته وقدراته لنجاح أي مسؤولية قررها بنفسه ، وتحملها بدافع من نشاطه الذاتي ورغبته الشخصية ، وبذلك تظهر الرغبة في طلب العلاج الإسلامي وتقوى العزيمة ، ويتم التعاون المشترك بين الأخصائي الاجتماعي الإسلامي والعميل بعد أن نشطت إرادته وتحررت .

والعلاج الإسلامي للمشكلات الاجتماعية لن ينجح ويؤتى ثماره المطلوبة إلا بتعاون العميل بجدية وإيجابية دون أي ضغط أو إكراه ؛ لأنه مطالب باستغلال نشاطه الذاتي في توجيه أمور حياته ومطالب بالاشتراك في اتخاذ القرارات المناسبة التي يتقرر بها مصيره .

والأخصائي الاجتماعي عندما يطبق مبدأ الحرية ويساعد العملاء على ممارسته ، فإنه يعرف جيدًا أن الشريعة الإسلامية أباحت هذا الحق للإنسان العاقل الناضج ذي الأهلية الذي يستطيع استغلال تلك الحرية لما فيه صالحه وصالح المجتمع ، وحتى العميل الناضج ذو الأهلية فإنه لا يمنح حقه في ممارسة الحرية بصورة مطلقة بل تقيد تلك الحرية حتى تصبح حرية اجتماعية وليست حرية مطلقة وهذه القيود التي تقيد بها حرية العملاء تتمثل أولًا في قيود المجتمع الإسلامي الذي يعيش فيه ، وتتمثل في : أخلاقياته ، وقوانينه ، وعاداته التي أقرتها الشريعة الإسلامية .

ولكي يطبق الأخصائي الاجتماعي الإسلامي مبدأ الحرية بما يساعد العميل على

الاستفادة من ممارسته حرية تقرير مصيره بالصورة التي أباحتها الشريعة الإسلامية فلا بد أن يكون في حالة نفسية حسنة تسمح له بالتفكير السليم فيما يتخذه من قرارات وما يتحمله من مسؤوليات حتى ينجح العلاج الإسلامي في تحقيق أهدافه ، والأخصائي الاجتماعي الإسلامي يعرف جيدًا أن العميل عندما يلجأ إليه طالبًا العون والمساعدة ما لجأ إليه إلا بعد أن أصبح عاجزًا عن اتخاذ القرارات السليمة وغير قادر على تحمل المسؤولية ؛ لأنه يقع تحت الضغوط الداخلية المتمثلة فيما يعانيه من مخاوف وقلق وتوترات نفسية ناتجة عن تلك الضغوط وكانت السبب في تعطيل تفكيره وتقييد إرادته وشل عزيمته بحيث لم يعد يعرف ما يرغبه ، فكيف يمارس حقه في الحرية وهو في مثل هذه الحالة السيئة .

المبدأ الخامس : الإخاء

إن من يدرس الدين الإسلامي يتأكد تمامًا أن قوة الإسلام وعظمته جاءت نتيجة حتمية لتطبيق مبادئه الإنسانية ، تلك المبادئ التي نادى بها الإسلام منذ أكثر من (١٤٠٠) سنة ، وسبق المدنية الحديثة والأمم المتحضرة في النداء بها ، وقد رأينا في الصفحات السابقة كيف نادى الإسلام بمبدأ المساواة ومبدأ الحرية ، وكيف مارس الرسول ﷺ تلك المبادئ وطبَّقها بنفسه ، وكيف تبعه أصحابه واستمروا في ممارستها ، وسنرى الآن في الصفحات التالية مبدأ آخر من أهم المبادئ الإسلامية وهو مبدأ الإخاء الذي أكدته الشريعة الإسلامية حتى صارت روح الإسلام روح مساواة وحرية وإخاء .

إن الإسلام دين الإخاء كما كان دين الحرية والمساواة فالمسلم أخو المسلم ، يفرح لفرحه ، ويحزن لحزنه ، ويشاركه شعوره ، ويحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويقول رسول اللَّه ﷺ : « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه** » ، وبذلك يحث الرسول ﷺ أتباعه وأصحابه ليضع كل منهم نفسه موضع غيره دائمًا ، ويعامله المعاملة الحسنة التي يحب أن يعامل بها ، وكان هو ﷺ أول من فعل ذلك وأول من طبَّق هذا المبدأ ، بل كان يؤكد قيمته حتى آخر حياته كما قال في خطبة الوداع : « **أيها الناس ، إنما المؤمنون أخوة ، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفسه ، فلا ترجعُنَّ بعدي كفارًا ، يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي – كتاب اللَّه – أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند اللَّه أتقاكم ، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى** » .

وكما رأينا قبل ذلك كيف مارس الرسول ﷺ بنفسه المبادئ الأخرى ، وكيف ترجمها من قول إلى عمل ، سنرى الآن كيف مارس مبدأ الإخاء وذلك « عندما آخى بين المهاجرين والأنصار وحالف بينهم في دار أنس بن مالك ، كما آخى بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف ، حتى قال سعد لعبد الرحمن : خذ شطر مالي واختر إحدى زوجاتي حتى أطلقها وتنكحها » ، فقال عبد الرحمن : بارك اللَّه لك في مالك وأهلك دلوني على السوق . وكما آخى بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء وهذا كله في الصحيح .. [١] « كما كان الرسول ﷺ هو وعلي بن أبي طالب أخوين ، وكان عمه حمزة ومولاه زيد أخوين ، وكان أبو بكر وخارجة بن زيد أخوين ، وكان عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك الخزرجي أخوين ، وتآخى كذلك كل واحد من المهاجرين – الذين كثر عددهم بيثرب ، بعد أن تلاحق إليها سائر من كان منهم بمكة في أعقاب هجرة الرسول إياها – مع واحد من الأنصار إخاء جعل له الرسول حكم إخاء الدم والنسب . وبهذه المؤاخاة ازدادت وحدة المسلمين توكيدًا » [٢] .

وهكذا يعلن الإسلام الأخوة مبدأ ، وينادي بها فريضة ترتقي إلى درجة العقيدة ، وفي ذلك يقول اللَّه تعالى في كتابه : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ، ويقول ﷻ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ ، ويعلن الرسول ﷺ الأخوة بين البشر مع أركان العقيدة الإسلامية الصحيحة فكان يقول في دُبر صلاته : « **اللَّهم ربنا ورب كل شيء ومليكه أنا أشهد أنك اللَّه وحدك لا شريك لك ، اللَّهم ربنا ورب كل شيء أنا أشهد أن محمدًا عبدك ورسولك ، اللَّهم ربنا ورب كل شيء ومليكه أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة** » [٣] ، وقال ﷺ : « **المسلم أخو المسلم لا يسلمه** [٤] **ولا يظلمه ، والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه** » .

إن مبدأ الإخاء الذي مارسه الرسول الكريم ﷺ لم يؤاخ بين أحرار المسلمين فقط ، بل إنه عليه الصلاة والسلام شدَّ عرى الأخوة بين الموالي والعبيد أيضًا ، فقال ﷺ : « **إخوانكم خولكم** [٥] **جعلهم اللَّه تحت أيديكم** » وشدد كل التشديد على كل من

---

(١) محمود علي قراعة : الأخلاق في الإسلام ، دار مصر للطباعة ، القاهرة ، (٦٣) ، (ص ١٣٩) .

(٢) محمد حسين هيكل : حياة محمد ﷺ ، مرجع سابق (ص ٢٢٣) .

(٣) رواه أحمد من حديث زيد بن أرقم .

(٤) يسلمه : يتركه للحوادث من غير مساعدة .

(٥) خولكم : حشمكم وخدمكم .

يحاول تحقير أخيه المسلم ، فقال : « **كل المسلم على المسلم حرام ؛ ماله وعرضه ودمه ، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم** » ، وقال ﷺ : « **المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، من كان في حاجة أخيه كان اللَّه في حاجته ، ومن فرَّج عن مسلم كربة فرَّج اللَّه عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلمًا ستره اللَّه يوم القيامة** » . قال اللَّه تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ [الحجرات : ١٢] (١) . وفي ذلك تأكيد من اللَّه ﷻ للأخوة الإسلامية الصادقة التي تمنع الغيبة بمعناها الذي حدده الرسول ﷺ بأنها : « **ذكرك أخاك بما يكره** » قيل : وإن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « **إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته** » (٢) ، وزاد في التشديد والوعيد في هذا الأمر ، حتى قال عليه الصلاة والسلام : « **إن الرجل ليزني فيتوب اللَّه عليه . وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه** » .

وفي سبيل تقوية الأخوة الإسلامية وتدعيمها « حرم الإسلام كل التحريم إثارة الحقد والبغضاء والصراع بين الناس ، و أوجب التدخل بكل طاقة ممكنة لوقف الخصومة وطرد شيطان العداوة وزرع الحب بدل البغض ، وإحلال الوئام بدل الخصام والسلام محل النزاع » (٣) ، يقول اللَّه في كتابه الكريم : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ١] ، ويقول ﷻ : ﴿ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٤] ، ويقول : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

ولذلك عدلت الخدمة الاجتماعية مسيرتها وعدلت أساليبها الفنية وعرفت مكانتها على الطريق السليم طريق الشريعة الإسلامية ؛ لأنه الطريق الوحيد المناسب للبناء والإنماء ، وفي سبيل هذا التعديل جعلت من المبادئ الإسلامية مبادئًا لها ، ومن العلاج الإسلامي أسلوبًا فنيًّا لممارستها ، بحيث تصبح الخدمة الاجتماعية الإسلامية قادرة على تحمل مسؤولياتها في بناء المجتمعات وإنماء الشخصيات ، وهكذا تنجح في ممارسة أدوارها الإسلامية في بناء وإنماء المجتمع الإسلامي .

---

(١) محمد المثل الكامل : نفس المرجع ، (ص ٣١٥) .

(٢) بهته : نسبت إليه ما لم يفعل .

(٣) يوسف القرضاوي : الحل الإسلامي فريضة وضرورة ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، (١٩٧٧م) ، (ص ١٥٦) .

وكما مارس الأخصائي الاجتماعي المبادئ الإسلامية السابق ذكرها يمارس مبدأ الإخاء ويعتمد عليه في بناء علاقة متينة قوية مع عملائه تساعده وتمكنه من التأثير فيهم بحيث يصبح قادرًا على تغييرهم ، وخصوصًا وأن العملاء الذين يلجأون إليه طالبين مساعدته ، أو الذين يتقدم هو لمساعدتهم حتى لو لم يطلبوا منه المساعدة مروا بخبرات سيئة مع الناس الذين تعاملوا معهم ، فلم يتذوقوا طعم الأخوة الإسلامية ولم يلمسوا قيمتها الإنسانية ؛ ولذلك أصبحوا مشحونين بشحنة كبيرة من المشاعر السلبية التي جعلتهم ينفرون من الناس وينظرون إليهم كأعداء يكرهونهم لا كإخوان يحبونهم .

ولذلك يتقدم الأخصائي لمساعدتهم كإنسان يحبهم ، وأخ لهم في الإسلام يتفانى في سبيل مساعدتهم ؛ مضحيًا بوقته وجهده لإسعادهم ، فيعاملهم المعاملة الطيبة التي لم يتعودوا عليها مع الآخرين ويحترم كرامتهم التي طغى عليها الآخرون ، ويقدس قيمتهم الإنسانية التي تحيي فيهم الشعور بالذات ، وتعيد إليهم الثقة في الناس ، بعد أن وجدوا بجانبهم أخًا يشاركهم أفراحهم ، وأتراحهم ، ولا يبغي من وراء ذلك منفعة شخصية ولا ينتظر منهم جزاءً أو شكورًا ؛ لأنه يطبق المبادئ الإسلامية التي تجعله مثالًا طيبًا وقدوة حسنة ، كما كان الرسول ﷺ مع أتباعه ممارسًا لتلك المبادئ ومطبقًا لها ، فقرَّب بين القلوب المتنافرة ، ووحَّد بين النفوس المتحاربة ، وجعل منهم قوة متماسكة معاونة تتكاتف للبناء وتتعاون للإنماء .

وعندما يمارس الأخصائي الاجتماعي مبدأ الإخاء ، ويثبت لعملائه قيمة الأخوة الإسلامية بالقول والفعل سيحترمه العملاء ويثقون فيه ويقعون تحت تأثيره ، وعندئذٍ تكون الفرصة المناسبة للتأثير عليهم وتغييرهم ، فيجعلهم قادرين على تعميم حبهم له وثقتهم فيه إلى بقية الناس الذين سيتعاملون معهم وعندها سينظرون إليهم نظرة جديدة ، ملؤها الحب والمودة الإخاء ، بحيث يصبح الجميع أخوة متحابين وأفرادًا متعاونين ؛ فتقوى شبكة العلاقات في نسيج المجتمع ، ويصبح كل فرد منهم متحمسًا لتحمل مسؤولياته وقادرًا على أداء أدواره بنجاح وتوافق .

إن الأخوة الإسلامية كمبدأ إسلامي عظيم يستغله الأخصائي الاجتماعي الذي يمارس العلاج الإسلامي ليشبع حاجة عملائه إلى التقدير من خلال تشجيعهم وتقديرهم أثناء تفاعلهم معه ، وبعد مساعدتهم على النجاح في تحمل المسؤوليات التي يسندها إليهم مراعيًا تدرجها ومناسبتها لقدراتهم وإمكانياتهم ، كما يستغل هذا المبدأ ليشبع حاجتهم إلى الانتماء عن طريق انتمائهم للجماعات التي يكونها خصيصًا لذلك والتي

يصمم لها الأنشطة المختلفة التي تساعده على تحقيق أهدافه ، كما يستغل الأخصائي مبدأ الإخاء ليشبع من خلاله حاجة العملاء إلى الحب ؛ فكل منهم في حاجة إلى أن يحِب ، ويحَب ، وذلك عن طريق حبه لهم وحبهم له ، بالإضافة إلى تبادل الحب بين أعضاء الجماعات المختلفة التي يكونها الأخصائي لإشباع تلك الحاجات .

المبدأ السادس : الحب

الحب هو الذي يبني المجتمعات ، ويزرع الثقة ، ويدفع للعطاء ، ويجعل الناس يتعاطفون مع الآخرين ويحبونهم بعد أن يجعلهم يحسون بقيمتهم وقيمة الناس من حولهم ، وإذا تحاب الناس وتآلفوا تكونت بينهم علاقة المحبة الأخوية ، علاقة الاحترام والحب والثقة ، تلك العلاقة التي يعتمد عليها العلاج الإسلامي للمشكلات الاجتماعية في تغيير الناس والتأثير فيهم بهدف تعديل سلوكهم وإنماء شخصياتهم حتى يصبحوا أقوياء متضامنين وأخوة متحابين .

لذلك احتفى الإسلام بروابط الصداقة النقية ووشائج الحب الصادق ، وطالب بالحرص عليها للَّه وفي اللَّه ، وجعله إحدى خصال ثلاث يدرك بها المسلم حلاوة الإيمان ولذلك قال ﷺ : « **ثلاثٌ من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا للَّه ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار** » (١) ، وهذا ثواب اللَّه وأجره في الآخرة للمتحابين (٢) .

يقول اللَّه تعالى في الحديث القدسي : « **المتحابون بجلالي في ظل عرشي يوم لا ظل إلا ظلي** » .

وقال ﷺ : « **إن من عباد اللَّه ناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من اللَّه تعالى** » ، قالوا : يا رسول اللَّه فخبِّرنا من هم ؟ قال : « **هم قوم تحابوا بروح اللَّه على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها ، واللَّه إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس** ، وقرأ : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣) .

« ولذا يرى ابن تيمية أن من شروط الإيمان التحاب والتواد ، وأن تحب لأخيك ما

---

(١) البخاري .

(٢) كمال محمد عيسى : العقيدة الإسلامية ، سفينة النجاة ، دار الشروق ، بيروت (٨٠) ، (ص ٤٩٨) .

(٣) أبو داود .

تحب لنفسك ، والمحبة والمودة التي بين المؤمنين إنما تكون تابعة لحبهم للَّه تعالى ؛ فإن أوثق عرى الإيمان الحب في اللَّه والبغض في اللَّه . فالحب للَّه من كمال التوحيد ، والحب مع اللَّه شرك ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ ومن أحب اللَّه أحبه اللَّه ، ومن ودَّ اللَّه ودَّه اللَّه فعلم أن اللَّه أحبهم وودَّهم بعد التوبة كما أحبوه وودوه . بل يدل كل من الكتاب والسنة على أن اللَّه يحب التوابين ويفرح بتوبة التائبين » [١] .

إن المجتمع المتحاب بروح اللَّه الملتقي على شعائر الإسلام ، يعتمد في بنائه على المحبة الصادقة والمودة المخلصة ، فهي أقوى الدعامات التي يرتفع عليها بنيانه ، وقد رأينا كيف كانت أواصر المحبة في اللَّه هي التي جمعت أبناء الإسلام أول مرة ، وأقامت دولته ، ورفعت رايته ، وعليها اعتمد رسول اللَّه في تأسيس أمة قوية كانت خير أمة أخرجت للناس .

إن محبة المسلم الصادقة ومودته المخلصة لإخوانه في الإسلام ما هي إلا دليل على محبة اللَّه ومودته ؛ لأن اللَّه إذا أحب عبدًا من عباده جعله محبوبًا من كل الناس ومحبًّا لهم .

« ومحبة اللَّه هي الغاية القصوى وهي من الدرجات العلى وما عداها من الشوق والأنس والرضا تابع للمحبة ... » قال اللَّه تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة : ٥٤] ، وفي الحديث الشريف : « **لا يؤمن أحدكم حتى يكون اللَّه ورسوله أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين** » .

وهذا هو الحب الذي أباحته الشريعة الإسلامية وأقرته كمبدأ مهم من المبادئ الإسلامية التي يعتمد عليها العلاج الإسلامي لمواجهة المشكلات الاجتماعية ، حيث إن تلك المبادئ الإسلامية – وعلى رأسها مبدأ الحب – هدفها البناء والنماء للأفراد والمجتمعات بما يحقق سعادة الدنيا والآخرة .

إن الشريعة الإسلامية عندما أقرَّت الحب كمبدأ إسلامي مهم إنما كانت تهدف إلى تدعيم العلاقات الإنسانية وتقوية أواصر المحبة والمودة بين كل الناس لينهض المجتمع الإسلامي ويرتفع بناؤه معتمدًا في ذلك على أسس متينة ودعامات قوية هي تلك المبادئ الإنسانية التي تهتم بالإنسان وقيمته ، والتي جعلت هدفها الرئيسي إنماءه وبناء شخصيته .

وحيث إن الخدمة الاجتماعية تسعى لتحقيق هذا الهدف فقد آمنت بتلك المبادئ

---

(١) فتاوى ابن تيمية ، الجزء الثاني (٢/٢٩٠) .

الإسلامية واعترفت بقيمتها وأهميتها ، بل وجعلت تلك المبادئ مبادئًا لها وصارت تمارسها وتطبقها ، وبذلك تنجح في تحقيق أهدافها ، ولكي تنجح في تحقيق أهدافها فقد جعلت أسلوبها في العلاج أسلوبًا استمدته من كتاب اللَّه الكريم ومن سنة رسوله ﷺ ، واتجهت بكل إمكانياتها إلى ممارسة العلاج الإسلامي لحل المشكلات الاجتماعية التي تعوق إنماء وبناء الشخصية .

والخدمة الاجتماعية الإسلامية قد جنَّدت كل إمكانياتها لتصبح قادرة ومؤثرة ، وأصبح لها باع طويل في هذا التغيير حيث إن هدفها الأول هو تغيير الإنسان حتى يمكن بناؤه وإنماؤه ، ولن يتغير الإنسان إلا إذا كانت هناك وسيلة قوية فعالة مؤثرة تساعد على هذا التغيير ، ووسيلة الخدمة الاجتماعية الإسلامية هي الحب .

وعندما مارس الرسول ﷺ مبدأ الحب لم يميز أحدًا عن الآخر بل تساووا جميعًا أمامه ، فقيرهم كغنيهم ، ومريضهم كصحيحهم ، ورئيسهم كمرؤوسهم لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى ، كما آخى بينهم جميعًا حتى صارت رابطة الأخوة في الإسلام أقوى من أخوة الدم ، وجعلهم جميعًا أحرار كرماء أعزاء ، وبذلك انتشر الحب وملأ القلوب ، والتف الجميع حول الرسول المحبوب ، وتغير الناس من الجاهلية إلى الإسلام ، وخرجوا من الظلمات إلى النور ، وظهرت خير أمة أخرجت للناس ، لواؤهم الإسلام ، وشعارهم الحب والسلام ، وقدوتهم الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد كان يحب الجميع حبًّا خالصًا للَّه وفي اللَّه ، وكانوا جميعًا يحبونه حبًّا خالصًا للَّه وفي اللَّه حتى صارت رابطة الإيمان أقوى من رابطة النسب .

والخدمة الاجتماعية الإسلامية التي بدأت تمارس العلاج الإسلامي وتعتمد على تلك المبادئ الإسلامية في ممارستها أخذت على عاتقها نشر هذا الحب والدعوة إليه اقتداءً بالرسول ﷺ فقد كان الأخصائي الاجتماعي الأول الذي طبَّق هذه المبادئ واعتمد في علاج المشكلات الاجتماعية جميعًا على مبدأ الحب ، حيث كان يعتبر هذا المبدأ دعامة قوية من دعامات العلاج الإسلامي .

والأخصائي الاجتماعي الذي يمارس العلاج الإسلامي للمشكلات الاجتماعية ويطبق مبادئه الإسلامية يقتدي برسول اللَّه ﷺ فيظهر مشاعر الحب الصادق والمودة الخالصة لعملائه الذين يحضرون إليه طالبين عونه ومساعدته ، فهو يقابلهم بالبشاشة والترحاب محترمًا لهم ، محافظًا على كرامتهم ، مبديًا الرغبة الصادقة في مساعدتهم

وعندئذٍ يمتص مشاعرهم السلبية التي نتجت مما عانوه من ضغوط داخلية وخارجية وعندها يشعرون بالراحة والطمأنينة ويبدأون في مبادلته مشاعر الحب والود وتنمو الثقة وتبدأ علاقة المحبة الأخوية في الظهور ، ويحرص الأخصائي الاجتماعي على تقويتها وتدعيمها .

إن علاقة المحبة الأخوية التي نادى بها الإسلام ، هي التي يبنيها الأخصائي الاجتماعي على المحبة والثقة والاحترام المتبادل ؛ لأنها ستكون وسيلته للتغيير ، وهي التي ستمده بالقدرة على التأثير .

وعندما تربط علاقة المحبة والمودة بين الأخصائي الاجتماعي والعميل سيثق فيه ويصبح واقعًا تحت تأثيره ، يطيعه إن أمر ويأخذ بمشورته ويقتنع بكلامه وعندئذٍ يصبح قابلًا للتغيير وعندها يبدأ الأخصائي الاجتماعي في تغييره ، إن كان سلبيًّا يعيد إليه إيجابيته ، وإن كان حزينًا يعيد إليه ابتسامته ، وإن كان يائسًا يعيد إليه الأمل ، وإن كان خائفًا يعيد إليه الأمن ، وإن كان قلقًا متوترًا يعيد إليه الاستقرار والراحة النفسية .

المبدأ السابع : الإخلاص

« الإخلاص روح الدين ولباب العبادة وأساس أي داعٍ إلى اللَّه ، فإذا غاض هذا المعنى أو تضاءل لم يبق هنالك ما يستحق الاحترام لا في الدنيا ولا في الآخرة ... في أعمال الحياة المعتادة قد يكون الإخلاص شرطًا لإتقانها وتجويدها وضمان ثمرتها . ولكن في ميدان الدين لا يرتفع عمل أبدًا ما لم تصحبه نية صالحة ، وما لم يقترن بإرادة وجه اللَّه وحده ، والإخلاص فريضة على كل عابد ، وهو في محرابه الخاص ، يتعامل مع ربه فحسب » (١) .

« وقال سهل رحمه الله تعالى : الإخلاص هو أن يكون سكون العبد وحركاته للَّه تعالى ، وقال إبراهيم بن أدهم : الإخلاص هو صدق النية مع اللَّه تعالى ، وقال آخر : الإخلاص في العمل هو ألا يريد صاحبه عليه عوضًا في الدارين » (٢) .

ويقول الإمام الغزالي في حقيقة الإخلاص : « اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره ، فإذا صفي عن شوبه وتخلص عنه سمي خالصًا ، ويسمى الفعل الصفي المخلص إخلاصًا (٣) ، قال اللَّه تعالى : ﴿ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾ [النحل : ٦٦] .

(١) مع اللَّه ، مرجع سبق ذكره (ص ١١٣) (٢) طب القلوب ، مرجع سابق ذكره (ص ١٨١) .
(٣) مختصر إحياء علوم الدين ، مرجع سبق ذكره ، (ص ٢٦٩) .

من هذه التعريفات يتضح لنا أن مبدأ الإخلاص يقصد به الإخلاص للَّه في القول والإخلاص للَّه في النية والإخلاص للَّه في العمل .

والإخلاص في القول والعمل هو من أسس الإيمان ، ومن مقتضيات الإسلام ، لا يقبل اللَّه العمل إلا به ، جاء الأمر به جزمًا وتأكيدًا في كتاب اللَّه ﷻ ، وعلى لسان نبيه عليه الصلاة والسلام (١) .

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة : ٥] .

وقال عليه الصلاة والسلام – فيما رواه الشيخان – « **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى** » .

وقال صلوات اللَّه وسلامه عليه – وفيما رواه أبو داود والنسائي : « **إن اللَّه ﷻ لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا ، وابتغُى به وجهُه** » .

وبذلك تؤكد الشريعة الإسلامية على كل مسلم أن يحرر النية ويقصد بها وجه اللَّه في كل قول وفي كل عمل يقوم به ؛ ليكون عند اللَّه من المقبولين وعند الناس من المحبوبين والمؤثرين ... وبذلك يصبح مبدأ الإخلاص من الدعامات الأساسية للعلاج الإسلامي الذي يهدف إلى اكتساب حب الناس والتأثير فيهم ليسهل تغييرهم وتعديل سلوكهم .

وممارسة العلاج الإسلامي للمشكلات الاجتماعية عندما تعتمد في ممارستها على مبدأ الإخلاص فإنها تهدف إلى الإخلاص في القول والعمل بنية خالصة لوجه اللَّه ، حيث إن الممارس الإسلامي لا ينتظر أجرًا على عمله ولا يبغي جزاءً أو شكورًا وإنما يجد ويتعب ويضحي بجهده ووقته ابتغاء مرضاة اللَّه وقاصدًا وجهه ﷻ .

وروي عن الإمام أحمد أنه قال : أصول الإسلام ثلاثة أحاديث : حديث : « **إنما الأعمال بالنيات** » ، وحديث عائشة : « **من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد** » ، وحديث النعمان : « **إن الحلال بين والحرام بين** » ، فإن الدين كله يرجع إلى فعل المأمورات وترك المحظورات والتوقف عن الشبهات وهذا كله تضمنه حديث النعمان ، وإنما يتم ذلك بأمرين ، أحدهما أن يكون العمل في ظاهره على موافقة السنة وهو الذي تضمنه حديث عائشة ، والثاني أن يكون العمل في باطنه يقصد به وجه اللَّه وهو الذي تضمنه حديث

---

(١) عبد الله علوان : تربية الأولاد في الإسلام ، دار السلام للطباعة والنشر بالقاهرة (١٩٧٩م) (٢/٧٨١) .

عمر : « **إنما الأعمال بالنيات** » ، فحديث عمر ميزان الأعمال الباطنة ، وحديث عائشة ميزان الأعمال الظاهرة ، وقال الفضيل في قول اللَّه : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ قال : أخلصه وأصوبه ، وقال : إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل ، حتى يكون خالصًا وصوابًا ، قال : والخالص إذا كان للَّه ﷻ ، والصواب إذا كان على السنة ، وقد دل على كلام الفضيل قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ ونخلص إلى أن العمل الصالح ما كان خالصًا للَّه متابعًا للرسول ﷺ (١) .

والطريقة التي يتحصل بها العبد على الإخلاص في عمله ، هي كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة ، بحيث يغلب ذلك على القلب ، فعندها يتيسر الإخلاص ؛ لأنه لا يرى أمامه إلا اللَّه تعالى وما سواه فهو باطل ، فيخلص وتخلص أعماله ، فكم من أعمال يتعب فيها العبد ويظن أنها خالصة لوجه اللَّه ويكون فيها مغرورًا ؛ لأنه لا يرى طريق الآفة فيها .

فطريق الإخلاص شاق وصعب يحتاج إلى تنقية القلب ، وتطهير النفس ، ونقاء الضمير ، بحيث يعمل الإنسان لدنياه كأنه يعيش أبدًا ، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدًا ، والقليل من يتنبَّه لذلك وهو من وفَّقه اللَّه تعالى ، ولذلك فإن تطبيق هذا المبدأ الإسلامي المهم يحتاج إلى مجاهدة النفس وترويضها بحيث يصبح الإنسان شديد النقد والمراقبة لها ، وبذلك يصير من عباد اللَّه المخلصين .

وهكذا نرى أن ممارسة مبدأ الإخلاص يؤدي إلى فضائل كثيرة منها : حسن العقيدة ، وحسن العمل ، وحسن النية ، وحسن الجزاء .

ولذلك اتخذت الخدمة الاجتماعية من العلاج الإسلامي منهجًا لها ومن المبادئ الإسلامية مبادئًا لها ، حيث إنها مبادئ إنسانية أوجدتها الشريعة الإسلامية لرفاهية المجتمعات وسعادة الإنسان ، إن المجتمعات الإسلامية اليوم أصبحت في مسيس الحاجة لتلك المبادئ بعد أن اضطربت المجتمعات وكثرت فيها المشكلات التي هددت سعادة الإنسان ، وأضعفت جوانب شخصيته ، سواء كانت نفسية أو عقلية أو جسمية أو اجتماعية ، حتى صار عاجزًا عن التوافق في المجتمع بعد أن عجز عن أداء أدواره الاجتماعية .

ولهذا السبب ظهرت الخدمة الاجتماعية الإسلامية كنظام اجتماعي مستحدث

---

(١) الحديقة اليانعة والبروق اللامعة ، مرجع سابق ذكره ، (ص ٣١٩) .

يساعد النظم الأخرى ويساندها ، وبتساند تلك الأنظمة وظيفيًا وتكاملها بنائيًا يرتفع صرح المجتمع الإسلامي ويشتد بنيانه بعد أن انصهرت لبناته في بوتقة العلاج الإسلامي ، وتم إعادة تشكيلها عن طريق ممارسة المبادئ الإسلامية التي تنتج أمتن اللبنات وأقوى الشخصيات .

وفي سبيل هذا الهدف العظيم يمارس الأخصائي الاجتماعي الإسلامي مبدأ الإخلاص ، ويبدأ بتطبيقه على نفسه أولًا قبل أن يطبقه على الآخرين ؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، وعندما يبدأ بتطبيقه فإنه يروض نفسه على المجاهدة ، ويظهر قلبه بالإيمان ويخلص للَّه وحده في القول والنية والعمل وبذلك يكون مخلصًا للَّه ، يعبده حق العبادة ، فيلتزم بأوامره ويبتعد عن نواهيه ، فتسمو روحه وتصفو نفسه ويتسع قلبه لحب الناس ، فيحبهم ويحبونه ، ويحترمهم ويحترمونه ، ويثق بهم ويثقون به وتتكون العلاقة الأخوية الجياشة بالحب الصادق ، حب الإنسان المسلم لأخيه الإنسان، ذلك الحب النقي المخلص الذي يبغي من ورائه وجه اللَّه وحده ، وعندئذٍ يهب لمساعدته عندما يطلب المساعدة ويسارع لنجدته عندما تواجهه المشكلات ، واللَّه في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه ، وهذا يكون الإخلاص للَّه والإخلاص لطاعته وعبادته .

وعندما يخلص الأخصائي الاجتماعي لربه ويحرص على مرضاته فسوف يخلص بالتالى لمجتمعه الإسلامي ، ويسعى جاهدًا إلى إنمائه ، مضحيًا بكل وقته وجهده في سبيل البناء والإنماء ، مستعينًا بمبادئه الإسلامية لإنماء الشخصيات الإسلامية وتقويتها ، وبالعلاج الإسلامي في بناء المجتمعات وتعلية بنائها ، وعندما يعلو مجتمع المحبة الإسلامية ، وتتوثق رابطة العلاقة الأخوية ستنجح الخدمة الاجتماعية في تحقيق أهدافها .

وبعد أن يطبق الأخصائي الاجتماعي مبدأ الإخلاص على نفسه ينتقل إلى ممارسته وتطبيقه على عملائه بحيث يعلمهم الإخلاص عن طريق التقمص والامتصاص بعد أن يصبح القدوة الصالحة والمثال الطيب ، فيقتدون به ويتقمصون صفاته ؛ لأنه مخلص القول والنية والعمل ، والتعليم عن طريق الامتصاص والتقمص أكبر تأثيرًا من أي أسلوب آخر .

إن العميل عندما يأتي للأخصائي الاجتماعي طالبًا العون والمساعدة لا يأتي إليه إلا بعد أن تعقدت مشاكله وازدادت الضغوط المحيطة به داخليًا وخارجيًا وأصبح عاجزًا عن مواجهتها ، وكيف يواجهها وقد اضطربت شخصيته وتعطل تفكيره وساءت نفسيته ، إنه في هذه الحالة يحتاج فعلًا لمساعدة صادقة مخلصة تفتح أمامه طريق الأمل بعد أن ارتطم

بجدران اليأس ، والأخصائي الاجتماعي المسلم هو القادر على تقديم تلك المساعدة المخلصة التي يسعد بأدائها دون أن ينتظر من ورائها جزاءً أو شكورًا ؛ لأنه يبغي وجه اللَّه وحده ولا يبغي سواه ، فلا عجب إذن أن ضحى بكل وقته وجهده في سبيل إسعاد الآخرين ؛ بل يؤثرهم على نفسه التي لا يتأخر في التضحية بها هي الأخرى في سبيل اكتساب رضا اللَّه والفوز بمحبته .

المبدأ الثامن : العدل

« ... لقد اختلف أهل العلم في تفسير العدل ، فقيل : العدل لا إله إلا اللَّه ، وقيل : العدل الفرض ، وقيل : العدل استواء العلانية والسريرة ، وقيل : العدل الإنصاف ، والأولى تفسير العدل بالمعنى اللغوي وهو التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط ، فمعنى أمره سبحانه بالعدل أن يكون عباده في الدين على حالة متوسطة ، ليست بمائلة إلى جانب الإفراط وهو الغلو المذموم في الدين ، ولا إلى جانب التفريط وهو الإخلال بشيء مما هو بالدين » (١) .

« أما المفكرون فينظرون إلى العدل – باعتباره فضيلة يؤدي بها كل ذي حق حقه دون أن يظلم أو يظلم – نظرات مختلفة باختلاف مشاربهم ، وضروب ثقافاتهم ، وصبغة بيئاتهم ، وألوان تربيتهم وطرائق سلوكهم في الحياة فمن غلب عليه جانب من جوانب الحياة ، وصبغت بيئته بلون ذلك الجانب رأى أن العدل هو تحقيق المساواة في هذا الجانب ، فالذي يسود بيئته ومجتمعه الذي يحيا بين أفراده الحياة المادية ، يرى أن هذه المادية هي مجال العدل الذي يصبح في نظر هؤلاء الماديين عملية حسابية تقوم على أساسها النظم الاقتصادية التي تعطيك لتأخذ منك ، وتأخذ منك لتعطيك ، دون نظر إلى قيم أخرى وراء ذلك .

والذي يسود بيئته ومجتمعه جانب الفكر والروح يرى أن العدل في هذا الجانب مقامه ومثواه ، فلا ينبغي أن تتغلب فكرة على فكرة ، ولا مذهب على مذهب ، بأمر خارج عن حقيقته ، ويجب أن تتاح لكل فكرة أو مذهب فرصة البيان الحر عن ذات نفسه حتى تعرف صلاحيته إن كان صالحًا للبقاء ، أو ينكشف زيفه فيذهب مع الذاهبين » (٢) .

---

(١) الشوكاني : فتح القدير ، الجزء الثالث ، مطبعة الحلبي بمصر ، الطبعة الثانية ، (١٩٦٤م) ، (ص ١٨٨) .

(٢) محمد الصادق عرجون : الموسوعة في سماحة الإسلام ، المجلد الأول ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة (ص ٢٦٥) .

والذي تسيطر عليه سياسة الأمم وقيادة الشعوب يرى أن العدل فضيلة الولاة والحكام والقادة من أصحاب السلطان وحماة القانون ، لا يشاركهم فيها أحد غيرهم ؛ لأنهم رعاة الناس وقادتهم الذين يسوسونهم بسلطان القانون ، يردون الحق إلى أهله ويأخذون من القوي إلى الضعيف ، ومن القادر للعاجز ، فلا تظلم نفس شيئًا في دائرة سلطانهم .

والذي تشغله الحياة الاجتماعية يرى أن العدل يقوم على تحديد علاقات عناصر المجتمع تحديدًا يرفع التمييز بين الأفراد والجماعات ويحقق المساواة بينهم في كل شأن من شؤون المجتمع وهكذا . وهكذا حتى حبس كل فريق فضيلة العدل في مجاله الخاص لا يراها إلا هناك » (١) .

أما الإسلام فقد نظر إلى العدل نظرة عامة شاملة كان لها أكبر الأثر في توجيهه التشريع العام الذي ينظم كافة العلاقات والمعاملات الإنسانية ، ولم تقف نظرة الإسلام للعدل عند حياة الناس ، ولكنها اشتملت الكون كله ، انظر قول اللَّه ﷻ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الحجر : ٨٥] .

وقد نص القرآن على تكليف المؤمنين بأن يكونوا قائمين بالعدل بين الناس مع صرف النظر عن جميع الاعتبارات التي تحد من سلطانه ، قال اللَّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء : ١٣٥] .

وقد كثرت في القرآن آيات الحث على العدل حتى جاء فيه (٢) : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء : ٥٨] .

وبالعدل والنظام قامت السموات والأرض ، ومبدأ القرآن فيما يتعلق بالنظام الاجتماعي دائر على محور إقامة العدل ، وحسن تدبير الشؤون في سياسة الخلق .

---

(١) الموسوعة في سماحة الإسلام ، نفس المرجع السابق (ص ٢٦٦) .

(٢) محمود شلتوت : تفسير القرآن الكريم ، الأجزاء العشرة الأولى ، دار الشروق ، الطبعة السابعة ، (١٩٧٤م) ، (ص ٢٠٦) .

« ومن هنا جعل اللَّه العدل واسطة حبات العقد ، الذي كون به لرسوله منهج الدعوة الإصلاحية ، التي حملها إياه ، إنقاذًا للبشرية من ظلمات الجهل والبغي والعدوان » ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۡۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمُۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۡۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١٥] .

وضع اللَّه العدل هكذا ، وجعل إقراره بين الناس هو الهدف من بعث الرسل وإنزال الشرائع والأحكام ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد : ٢٥] ولقد نرى في ذكر الحديد هنا إيحاءً قويًّا واضحًا ، إلى أن إقرار العدل فيما بين الناس ، واجب إلهي محتم ، للقائمين به أن يستعينوا عليه باستعمال القوة.

لقد جاء الإسلام بفكرة العدل وحقق وجودها كمبدأ تأسيسي منظم للفضيلة الخلقية بمعنى العدالة المعروف منذ الأزل ، والمحقق لاتزان الكون وانسجامه بأوضح ما يكون عليه الاتزان وبأدق ما يتم فيه الانسجام [١] ، قال ﷻ : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۡۖ ﴾ [الشورى : ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] ، وتوسعًا في إظهار معنى فكرة العدالة هذه بأوضح الصور عمد الإسلام إلى قرن معنى العدل بالحث على عمل الخير المتضمن لكل ما أمر اللَّه به . والنهي عن الشر المتضمن لكل ما نهى اللَّه عنه بالإضافة إلى المعاني السابقة التي تضمنها مبدأ العدل .

إن مبدأ العدل كما جاءت به الشريعة الإسلامية يأمر المسلمين جميعًا بالعدل المطلق حتى على النفس أو الوالدين أو الأقربين « وهم مطالبون بهذا العدل المطلق في العلاقات الفردية ، والعلاقات الدولية على السواء ، وهم مطالبون به قضائيًّا وقانونيًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا ، بغير تفرقة بين الأفراد أو الفئات أو الطبقات أو الأديان أو الأجناس أو الألوان أو اللغات ، أو الأغنياء أو الفقراء أو الأصدقاء أو الأعداء ، إنه العدل المطلق » [٢] .

ومن هنا كان العدل أصلًا من أعظم أصول التشريع في الإسلام ، بل هو أصل

(١) مؤيد الكيلاني : كيف انتشر الإسلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت (ص ٦٥) .
(٢) الإسلام وحقوق الإنسان ، مرجع سابق ذكره (ص ٦١٧) .

الأصول في الإسلام فأينما تحقق العدل كان التشريع الإسلامي معه « فالعدل في الإسلام هو الميزان الذي تعتمد عليه السياسة التشريعية في هذا الدين القيم ، تلك السياسة التي تقصد إلى تحقيق ما يصلح الحياة ويرقيها وينمي الشعور بحب الخير والحق في قلوب الأفراد والجماعات ، ويجعل من الأمة وحدة متعاونة على البر والتقوى ، متكافلة في مصالحها » (١) .

هذا هو العدل كما جاء في القرآن ، أما في السنة الشريفة فقد مارسه الرسول ﷺ أحسن ما تكون الممارسة ، وبدأ بتطبيقه على نفسه وأهل بيته قبل أن يطبّقه على أصحابه وأتباعه ، وقصة المرأة المخزومية خير دليل على عدله « عن عائشة رضي اللَّه عنها أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت ، فقالوا : من يكلم فيها رسول اللَّه ﷺ فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ الرسول ﷺ فكلمه أسامة . فقال رسول اللَّه ﷺ : « **أتشفع في حدٍّ من حدود اللَّه تعالى ؟!** » . ثم قام فقال : « **إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . وأيم اللَّه لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها** » . (متفق عليه) ، وفي رواية : فتلوَّن وجه رسول اللَّه ، فقال : « **أتشفع في حدٍّ من حدود اللَّه ؟!** » فقال أسامة : استغفر لي يارسول اللَّه. قال : ثم أمر بتلك المرأة فقطعت يدها (٢) .

أما مع أهله وقومه فقد طبَّق عليهم مبدأ العدل عندما نزل عليه قول اللَّه تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] ناداهم بطنًا بعد بطنٍ ، فقال : « **يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم ، لا أغني عنكم من اللَّه شيئًا ، يا بني عبد مناف ، لا أغني عنكم من اللَّه شيئًا ، يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغني عنك من اللَّه شيئًا ، يا صفية عمة رسول اللَّه ، لا أغني عنكِ من اللَّه شيئًا ، يافاطمة بنت محمد ، سليني ما شئت من مالي ، لا أغني عنكِ من اللَّه شيئًا** » (٣) .

إن الرسول ﷺ مارس العدل وعلَّمه لأصحابه وأهل بيته كما مارسه وعلَّمه لأتباعه من المسلمين حتى يمارسوه بدورهم في جميع معاملاتهم .

قال النعمان بن بشير : أعطاني أبي عطية ، فقالت عمرة بنت رواحة : لا أرضى

---

(١) الموسوعة في سماحة الإسلام ، مرجع سابق ذكره ، (ص ٢٧٣ ، ٢٧٤) .

(٢) رياض الصالحين (باب تحريم الشفاعة في الحدود) ، (ص ٧١ ، ٥٧٢) .

(٣) عبد الله الشرقاوي : فتح المبدي بشرح مختصر الزبيدي لصحيح البخاري ، مطبعة مصطفى الحلبي ، (١٣٣٩هـ) ، (٢٥٠/٢) .

حتى تشهد رسول اللَّه ، فأتى رسول اللَّه ﷺ فقال : إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية ، فأمرتني أن أشهدك يا رسول اللَّه ، فقال الرسول ﷺ : « **أعطيت سائر ولدك مثل هذا ؟** » قال النعمان : لا ، قال الرسول ﷺ : « **فاتقوا اللَّه واعدلوا بين أولادكم** » ، فرجع أبي فرد عطيته [١] .

ولم يكتف الرسول ﷺ بتطبيق هذا المبدأ الإسلامي العظيم مع أهله وأصحابه، وأتباعه من المسلمين فحسب بل تعداه إلى ممارسته مع أعدائه من اليهود . فقد وجد من خيار أصحابه قتيلًا بين اليهود – هو عبد اللَّه بن سهل الأنصاري – فلم يَجُر على اليهود في تقدير الدية ، ولم يزد على الحق والعدل ، بل طلب ديته مائة ناقة ، كما كان العرب يفعلون في الوقت الذي كان أصحابه في حاجة إلى بعير واحد يتقون به [٢] .

ولقد استقى النبي ﷺ العدل من التربية الإلهية والأخلاق القرآنية التي أعدته ليحمل مشعل الإنارة لظلمات الدنيا ، وصار مبدأ العدل من المبادئ الإسلامية التي صارت راسخة القواعد ، ثابتة الأصول تخدم الذات البشرية وترأف بها أنى كان وضعها بل حتى ولو كانت من غير أهل الإيمان .

وإذا كانت الأخلاق القرآنية والتربية الإلهية أعطت لمبدأ العدل كل هذا الاهتمام أليس هذا دليلًا كافيًا على قيمته الإنسانية ؟ إن المبادئ الإسلامية كلها بصفة عامة ومبدأ العدل بصفة خاصة تهدف إلى بناء الشخصية الإسلامية وإنمائها ، وبنموها ينمو المجتمع ويرتفع بناؤه .

والخدمة الاجتماعية الإسلامية تسعى لتحقيق نفس الهدف ، ولذلك جعلت من تلك المبادئ مبادئًا لها ومن العلاج الإسلامي منهجًا لها ، ولذلك تعد جيلًا من الأخصائيين الاجتماعيين المؤمنين لممارسة العلاج الإسلامي للمشكلات الاجتماعية ، حتى يمارسوا الخدمة الاجتماعية الإسلامية عن اقتناع كامل وعقيدة قوية راسخة ؛ لأنها مهنة شاقة تحتاج إلى صبر ومثابرة ؛ لأن الممارس لهذه المهنة السامية يعرف جيدًا أنه لا بد أن يكون مثالًا صالحًا وقدوة طيبة .

إن الأخصائي الاجتماعي الذي يمارس العلاج الإسلامي يبدأ بممارسة المبادئ الإسلامية وتطبيقها على نفسه أولًا ، ثم بعد ذلك يطبقها على عملائه حتى يشعروا بأن

---

(١) فتح المبدي ، مرجع سابق ذكره (ص ٣٢٩) .

(٢) عبد الحليم رضا عبد العال : الخدمة الاجتماعية المعاصرة ، (١٩٩٠م) ، (ص ١٦٥) .

هذه المبادئ ليست شعارات ترفع وليست كلامًا يقال ، ولكنها أسلوب يمارس بحيث يصبح التأثير قويًا والاقتناع كاملًا ، وعندها يسهل التعديل ويتم التغيير وتنجح الأهداف المأمولة للعلاج الإسلامي .

وعندما يمارس مبدأ العدل بين العملاء جميعًا ويتقبلهم كما خلقهم اللَّه لا كما يجب أن يكونوا بحيث لا يكون هناك تفرقة من أي نوع ، فكل العملاء متساوون في إنسانيتهم التي يقدرها الأخصائي الاجتماعي كل التقدير ؛ لأن القيمة الإنسانية هي أثمن شيء في الوجود وما وجد مبدأ العدل إلا للحفاظ عليها . ولذلك نرى الأخصائي الاجتماعي يحترم العملاء ويحافظ على كرامتهم عن طريق المعاملة العادلة ، فهو لا يتسرع في أحكامه ولا يدين عملاءه ، وإنما يدرس بدقة ويتأنى في الدراسة حتى تأتي أحكامه عادلة .

وممارسة مبدأ العدل تتطلب فعل الخير والمسارعة بتقديمه لمن يستحق سواء طلب من الأخصائي الاجتماعي أو تقدم به دون أن يطلب منه ما دام في صالح الفرد وصالح المجتمع ، وعندما يمارس الأخصائي فعل الخير فإنه لا يبغي من ورائه سوى وجه اللَّه ﷻ ولا ينتظر غير ذلك جزاء ، ولذلك يقدمه لكل الناس دون تميز لأحد على الآخر بعد أن استبعد كل ميوله الشخصية وأهوائه الذاتية وأصبح عادلًا منصفًا .

ولكي يكون الأخصائي الاجتماعي عادلًا منصفًا فهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحاول تغييره عملًا بقول الرسول ﷺ : « **من رأى منكم منكرًا فليغيره** ... » الحديث . وهذا ما يجعل الأخصائي الاجتماعي – عندما يتقبل الناس كما خلقهم اللَّه ويساوي بينهم – يرفض السلوك الخاطئ ويظهر رفضه واضحًا للعملاء ، وبعدها يبحث عن دوافعه وأسبابه تمهيدًا لعلاجه .

وعندما يمارس الأخصائي مبدأ العدل فإنه يساعد العملاء على أن يظفر كل ذي حق بحقه ، ويؤدي كل إنسان واجباته بأمانة وعدل ، فلا يجوع إنسان ويتخم آخر ، ولا يترف فرد في الأمة ويعيش غيره من إخوانه في الإنسانية على الكفاف والشظف ، ولا يعان كسول على كسله ، ولا يهضم عامل من عمله ، ويغبن كادح في أجره ، ولا يحابي قريب لقرابته ، أو صديق لصداقته ، بل يجب أن يتساوى الناس في إتاحة الفرص للعمل ، ثم يجزى كل عامل على عمله وجهده ، وما يقدم للحياة من منفعة تعود عليه وعلى المجتمع .

كما يجب على الأخصائي الاجتماعي ألا يتحيز لفكرة على أخرى حتى لو كانت فكرته ، كما لا يتحيز لديانة على أخرى حتى لو كانت ضد ديانته ، ولا يتحيز لجنس على حساب الجنس الآخر ، بل يجب عليه أن يكون منصفًا آمنًا صادقًا ، يزن كل شيء بميزان العدل الذي لا يخطئ .

كما يجب أن يكون مؤمنًا صادقًا بدون إفراط أو تفريط ، فلا يكون متشددًا متزمتًا (فلا رهبانية في الإسلام) ولا يكون متساهلًا لينًا بما يضعف إشراقة الروح ، بحيث يكون لا صلبًا فيكسر ولا لينًا فيعصر ؛ لأن الإسلام ينظر إلى الإنسان نظرة إنسانية تتطلب تحقيق العدل بين جسمه وروحه ، فميزان العدل يبغى شخصية متزنة متكاملة .

كما يجب على الأخصائي الاجتماعي وهو يمارس مبدأ العدل أن يسعى إلى تدعيم العلاقات الاجتماعية التي تربط بين الأفراد والجماعات برباط المحبة الأخوية فيسود التعاون والعدل والمساواة ، فلا يشعر فرد بأنه مغبون في نيل حقوقه لعقيدة ، أو لون ، أو مذهب ، أو فكرة ، ولا تشعر جماعة في الأمة بالظلم يقع عليها من أجل دين أو فكرة أو مذهب ، ولا يسمح لفرد أو جماعة أن يقصر في أداء واجباته نحو المجتمع الذي ينتمي إليه ، فالعدل أخذ وعطاء ويسر وعناء ، وإذا ساد العدل في أي مجتمع فستصبح تربته صالحة للنماء وستنمو فيه الحرية والإخاء والمساواة ، وعندها يصبح العدل شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء .

المبدأ التاسع : مكارم الأخلاق

إذا حسنت الأخلاق ، وظهرت الأذواق ، وصلحت الأنفس ، وتعودت على المبادئ الإسلامية الحقة ، وصارت لها مبدأ وعقيدة تمارس بالقول والعمل ؛ كان أصحابها قدوة لمن يسمع قولهم ويطيع أمرهم .

وقد سأل رجل رسول اللَّه ﷺ عن حسن الخلق ؛ فتلا قوله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] ، ثم قال ﷺ : « **هو أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك** » .

كما عرفه الحسن قائلًا : (حسن الخلق : بسط الوجه ، وبذل الندى ، وكشف الأذى) ، وقال علي رضي الله عنه : (حسن الخلق في ثلاث خصال : اجتناب المحارم ، وطلب الحلال ، والتوسعة على العيال) . وقال الواسطي : هو إرضاء الخلق في السراء والضراء .

لقد بلغ من أهمية هذا المبدأ الإسلامي العظيم أن الرسول ﷺ كان يقول في دعائه :

« **اللَّهم كما حسنت خَلقي ، اللَّهم جنبني منكرات الأخلاق ، اللَّهم اهدني لأحسن الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت** » [١] هذا هو دعاء الرسول ﷺ الذي اصطفاه ربه وكرَّمه ، وتعهده في طفولته وشبابه إلى أن اختاره ليكون مبشرًا ونذيرًا ، فربَّاه أشرف تربية وأدَّبه أحسن تأديب ، وقال فيه تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن الرجل ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم ، وقال : إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق** » .. وفي حديث أبي ذر الذي رواه الترمذي وصححه ، « **وخالق الناس بخلق حسن** » ، وعن ابن عمر مرفوعًا سئل رسول اللَّه ﷺ : أي المؤمنين أفضل ، قال : « **أحسنهم خلقًا** » ورواه ابن ماجه ، قال الحسن البصري : حقيقة حسن الخلق ، بذل المعروف ، وكف الأذى واحتماله ، وطلاقة الوجه ، رواه الترمذي [٢] .

وللرسول ﷺ في هذا أحاديث كثيرة ، منها قوله :

« **إن أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا ، الموطؤون أكنافًا ، الذين يألفون ويؤلفون** » ، وقوله : « **إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم بالليل الظامئ بالهواجر** » ، وقوله : « **من سعادة المرء حسن الخلق** » ، وقوله : « **أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى اللَّه وحسن الخلق** » ، وقوله : « **إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق** » [٣] .

وكما اهتمت الشريعة الإسلامية كل هذا الاهتمام بمبدأ مكارم الأخلاق فقد نهت عن سوء الخلق ونفَّرت منه ، وكما كان الرسول ﷺ شغوفًا بمكارم الأخلاق فقد فهم من بعض أحاديثه أن سوء الخلق يمحق الحسنات ، ويبطل الطاعات ، فقد قيل له : إن فلانة تصوم النهار ، وتقوم الليل ، وهي سيئة الخلق ، تؤذي جيرانها بلسانها ، فقال : « **لا خير فيها ، هي من أهل النار** » وقال : « **سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل** » . وقال : « **إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم** » [٤] .

ومن حسن الخلق أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك ، وتكرم ضيفك ، وتكرم

---

(١) شرح الزرقاني على المواهب المدنية : (٢٤٤/٤) .

(٢) الحديقة اليانعة والبروق اللامعة ، مرجع سابق ذكره (ص ٢٥٩) .

(٣) الشيخ علاء الدين المتقي بن حسام الدين الهندي : كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، مطبعة دائرة المعارف النظامية بجيد آباد ، (١٣١٢هـ) ، (٣/٢) .

(٤) إحياء علوم الدين ، (٤٣/٣) .

جارك ، وتقول خيرًا أو تصمت ، وتصبر على الأذى ، قال ﷺ : « **أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا** » . إن الشريعة الإسلامية نصَّت على الأخلاق الكريمة كمبدأ من أهم المبادئ الإسلامية وأعطته كل هذا الاهتمام ؛ لأنها تدرك جيدًا أن الأخلاق الكريمة عليها مدار الأمور كلها ، فأي أمر في الحياة لا يصاحبه حسن الخلق سوف لا يكون مقبولًا ولا نافعًا .. وأي عمل جاء مع الخلق الكريم كان موصلًا للغاية محققًا لأهدافه مقبولًا عند تطبيقه وتنفيذه .. وأي أمة توافر لها حسن الخلق في أفرادها كانت أمة متماسكة مترابطة تسودها المحبة والوئام .. متفرغة للبناء والنماء والرخاء .

والخدمة الاجتماعية الإسلامية تهدف من وراء تطبيق المبادئ الإسلامية إلى تحقيق أهداف العلاج الإسلامي للمشكلات الاجتماعية عن طريق تقوية الشخصية وإنمائها ، وعندئذٍ يصبح الإنسان قادرًا على أداء أدواره الاجتماعية وقادرًا على التوافق في المجتمع .

ومكارم الأخلاق من أهم المبادئ التي تساعد على تحقيق هذه الأهداف فعندما يقابل الأخصائي الاجتماعي العميل الذي يحضر إليه طالبًا العون والمساعدة - بالبشاشة والترحاب فإنه يدخل السرور على نفسه ويشعره بالراحة والطمأنينة ؛ لأن الوجه البشوش المبتسم يساعد على ذلك ، وكذلك المقابلة التي تتصف بالترحاب والاهتمام تشعر العميل بصدق مشاعر المودة والمحبة التي هو في مسيس الحاجة إليها بعد أن صارت المشكلة التي يعاني منها تسبب له الكثير من المشاعر السلبية ، والتي يحرص الأخصائي الاجتماعي كل الحرص على تخليصه منها وامتصاصها .

ومن مكارم الأخلاق الصبر واحتمال الأذى ، ومهنة الخدمة الاجتماعية مهنة شاقة ومتعبة لمن يخلص لها ويمارسها بأمانة وصدق ؛ لأنه سيبذل فيها كل جهده ويضحي فيها بكل وقته ويرهق فيها جسميًّا وصحيًّا ونفسيًّا في بعض الأحيان ؛ لأنه سيقابل العديد من العملاء مختلفي الطباع والبيئات ، فمنهم من يعامله بجفاء ، ومنهم من يتطاول عليه بسبٍّ أو أذًى ، والأخصائي الاجتماعي محتمل لكل ذلك وصابر عليه ؛ لأنه يعرف دوافع سلوك العميل ويقدِّر ظروفه الصعبة ويقدِّر ما يعانيه من ضغوط داخلية وضغوط خارجية قد يحتملها أحيانًا وقد لا يحتملها أحيانًا كثيرة ، وعندها تفلت أعصابه فتجعله يعامل الأخصائي بمثل هذه المعاملة السيئة .

والأخصائي الاجتماعي - الذي يمارس العلاج الإسلامي ويطبق مبادئه - من دم ولحم كبقية البشر ، وينفعل ويثور وقد يعاني من بعض الضغوط هو الآخر ولكن مبادئه

الإسلامية وعلى رأسها مبدأ الأخلاق الكريمة تتطلب منه الحُلْم والصبر وتحمل الأذى ؛ ولذلك نجده يتحكم في مشاعره ولا يقابل ثورة العملاء بثورته ولا يقابل ضيقهم وتذمرهم بضيقه وتذمره ، بل نراه على العكس من ذلك بشوش الوجه هاشًّا في كلامه حليمًا في تصرفاته وعندئذٍ ينجح في امتصاص مشاعرهم السلبية ويخلصهم من ضيقهم وتوتراتهم فيشعرون بالراحة ويحسون الأمن والطمأنينة .

ولو لم يلتمس الأخصائي الاجتماعي لعملائه العذر ، ولو لم يقدر مشاعرهم لوجدناه يتحامل عليهم ويقسو عليهم في المعاملة ، وهذا يتنافى مع مبدأ مكارم الأخلاق ، الذي يتطلب منه اللين في المعاملة ، وكف الأذى عن الناس بصفة عامة وعن عملائه بصفة خاصة ، وذلك اقتداءً برسول اللَّه ﷺ الذي قال له ربه ﷻ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

ولذلك عندما يمارس الأخصائي مبدأ مكارم الأخلاق تجده حريصًا على أن يكون لبقًا في كلامه ، ولينًا في تعامله ، صادقًا في كل ما يقول ويفعل ، لا يعطي لأحد وعدًا إلا إذا كان قادرًا على تنفيذه ، ولا يتكلم كثيرًا فخير الكلام ما قل ودل ، وخصوصًا وأن طبيعة عمله تتطلب منه أن يسمع أكثر مما يتكلم ، حتى يستطيع دراسة الموقف بعمق ووعي وبعدها ينجح في تشخيصه وعلاجه . وليس معنى قلة كلام الأخصائي الاجتماعي التعالي والتكبر على عملائه ، بل المقصود من ذلك عدم الثرثرة وعدم التدخل فيما لا يعنيه ؛ لأن مكارم الأخلاق تتطلب منه العمل الكثير بدلًا من كثرة الكلام ، ولذلك نراه يتفانى في عمله ويضحي في سبيله بكل مرتخصٍ وغالٍ ، وبالإضافة إلى أنه يعمل بما يعرف ، فهو يعمل بممارسة المبادئ الإسلامية ويعمل بممارسة أساليب العلاج الإسلامي الذاتية والبيئية ، فثمرة العلم هي العمل ، ولا فائدة من علم لا يستفاد منه ولا يعمل به .

وعندما يمارس الأخصائي الاجتماعي مبدأ مكارم الأخلاق فإنه يحب كل الناس ويتفانى في خدمتهم ويحب لهم ما يحبه لنفسه حبًّا للَّه وفي اللَّه لا يبغي من ورائه جزاءً أو شكورًا ، وعندئذٍ ينجح في تكوين علاقة المحبة الأخوية التي يعتمد عليها العلاج الإسلامي في تغيير الأفراد وتعديل سلوكهم – وبخاصة مع العملاء الذين حرموا من الحب ولم يتذوقوا طعم المودة والحنان نتيجة الخبرات السيئة التي مروا بها مع من تعاملوا معهم في مراحل العمر المختلفة ، مما ترتب عليه الكثير من مشاعر الكراهية والعداء للناس وللمجتمع .

المبدأ العاشر : التقوى

قال اللَّه ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾ [لقمان : ٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] ، وقال : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ٧٦] .

إن اللَّه يأمرنا – في هذه الآيات – بتحصيل التقوى ح لأنها الصورة العملية الراشدة للعقيدة ، يدين بها الإنسان .

والتقوى كمبدأ إسلامي مهم حركة دافعة ثائرة على الفساد والظلم ، تفتح أمام الإنسان باب الترقي وتصعد به إلى مجالات الكمال ، وتغزو به مواطن العزة والسيادة . إنها ليست حركة ضعيفة باهتة ، ترضى بالضعف والذل والتواكل والخنوع ، هي مد زاحف ومواكبة جادة لمعالي الأمور وعظائم الشؤون ؛ لأن التقوى سلاح عزة ، وطريق فلاح ، ولذلك قال رسول اللَّه ﷺ : « **من سرَّه أن يكون أكرم الناس فليتق اللَّه** » ، وقال وهب بن منبه : الإيمان عريان ولباسه التقوى ، وقال لقمان لابنه : « يا بني اتخذ تقوى اللَّه تجارة تأتك الأرباح من غير بضاعة » .

التقوى امتثال الأوامر واجتناب المناهي ، والورع ترك ما يخشى ضرره في الآخرة ، وقد قرن اللَّه التقوى مع الصلاة في مواضع من كتابه ، وتكون التقوى في الظاهر والباطن ، ففي الظاهر تقوى العين غضها عن الحرام وحفظها عما لا تؤمن عاقبته ، وتقوى اللسان حفظه عن فضول الكلام ، والمتقي ينظر في الكلام قبل النطق به ويترك ما لا فائدة فيه [١] .

والتقوى في الأصل – ومثلها الاتقاء – هي اتخاذ الوقاية وهي حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [الإنسان : ١١] . ولأن التقوى فيها معنى الوقاية ، قال الإمام علي ﷺ : « كنا إذا اشتد البأس اتقينا برسول اللَّه ﷺ أي : جعلناه وقاية لنا من العدو على الشدة ، وكذلك جاء في الحديث : « من عصى اللَّه لم تقه من اللَّه واقية » ، والتقوى في الشرع : جعل النفس في وقاية من عذاب اللَّه تعالى وغضبه باتباع أوامره ولزوم طاعته وتجنب معصيته ، والأصل في التقوى أن يجعل الإنسان بينه وبين ما يخشاه من ربه تقية ، وذلك بفعل الطاعات واجتناب المحرمات .

---

(١) الحديقة اليانعة والبروق اللامعة ، مرجع سابق ذكره ، (ص ٢٦٠) .

« وليس الإيمان مجرد تصديق بوحدانية اللَّه وملائكته وكتبه ورسله والبعث فقط ، وإنما هو فوق ذلك التزام بأوامر اللَّه ، وانتهاء عن حرمات اللَّه ، وخوف من حدود اللَّه ، وحرص على صون حرمات الناس وحمايتها من الاعتداء عليها ، وليعلم الناس أن في اتقاء المحارم سعادة ، ما بعدها سعادة ، وقرب من اللَّه إلى أبعد الحدود ، فمن اتقى المحارم كان أعبد الناس » (١) .

وموجبات التقوى ستة عشر (٢) :

الهدى ، لقوله تعالى : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ٢] .

والنصرة ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ [النحل : ١٢٨] .

والولاية ، لقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية : ١٩] .

لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ٧٦] .

ومغفرة الذنوب وتكفير السيئات ، لقوله تعالى : ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٩] .

والمخرج من الغم وجلب الرزق ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢، ٣] .

وتيسير الأمور ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٤] .

وغفران الذنوب وإعظام الأجور ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق : ٥] .

وقبول الأعمال ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] .

والفلاح ، لقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٩] .

والبشرى ، لقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [يونس : ٦٣، ٦٤] .

ودخول الجنة ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [القلم : ٣٤] .

والنجاة من النار ، لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم : ٧٢] .

---

(١) دراسات في السنة النبوية الشريفة ، مرجع سابق ذكره ، (ص ٣١١) .

(٢) الحديقة اليانعة والبروق اللامعة ، نفس المرجع السابق ، (ص ٢٦١) .

والفوز بحدائق وأعنابًا ، وكواعب أترابًا ، وكأسًا دهاقًا ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ [النبأ: ٣١] .

ونفي السوء والحزن ، لقوله تعالى : ﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الزمر: ٦١] .

ودرجات التقوى خمسة : أن يتقي العبد الكفر وذلك مقام الإسلام .

وأن يتقي المعاصي والحرمات وهو مقام التوبة .

وأن يتقي الشبهات وهو مقام الورع .

وأن يتقي المباحات وهو مقام الزهد .

وأن يتقي حضور غير اللَّه على قلبه وهو مقام المشاهدة .

كذلك فإن هذا المبدأ الإسلامي العظيم يحتاج إلى الصبر ؛ لأن المسلم التقي يحتاج إلى جرعات وجرعات من الصبر الحازم ، والعزم الصارم ، حتى يتخطى العقبات الكأداء ، ويعبر جسور المشقات ، ليحظى بعد ذلك بالراحة الكبرى ، راحة الأنس باللَّه والاحتماء به ، والحياة في كنفه ، ولن تتم تلك الراحة الكبرى إلا على جسر من التعب وجرعة كبيرة من الصبر .

وإذا نظرنا إلى أهداف الخدمة الاجتماعية لرأينا نفس المبادئ ونفس الأهداف ، ولذلك صححت مسيرتها وعدلت من أساليبها الفنية وعادت إلى أصولها لتظهر من جديد كخدمة اجتماعية إسلامية تمارس العلاج الإسلامي كما جاء في القرآن ، وكما وضحته السنة النبوية الشريفة وكما ذكره السلف الصالح ، معتمدة في تحقيق أهدافها العلاجية على تلك المجموعة السامية العظيمة من المبادئ الإسلامية التي صارت مبادئًا لها ، تعتمد عليها كركيزة قوية راسخة تساعدها على النجاح في ممارسة العلاج الإسلامي لمواجهة المشكلات الاجتماعية .

ولذلك فإن الأخصائي الاجتماعي الإسلامي عندما يجعل من التقوى مبدأً أساسيًا من مبادئه ويبدأ في ممارسته ، فإنه يتطلع بأنظاره إلى الرسول الكريم ﷺ كأسوة عظيمة وقدوة صالحة يسير على منوالها ، فقد كان الرسول ﷺ أول من مارس العلاج الإسلامي وأول من طبَّق مبادئه ، وبذلك مهَّد الطريق ووضع عليه الأضواء الكاشفة ليسير في نورها ويهتدي بها كل من يريد أن يعالج المشكلات الاجتماعية بشتى صورها وبجميع أنواعها ، فالعلاج الإسلامي كما تعلمناه من الرسول ﷺ كفيل بمواجهة كل

هذه المشكلات وقدير على علاجها .

والأخصائي الاجتماعي الذي يمارس العلاج الإسلامي عندما يطبق مبدأ التقوى فإنه يحرص على الالتزام بأوامر اللَّه ويعمل على مرضاته في كل سلوكه وتصرفاته وينتهي عن محرماته ويبتعد عن كل ما يغضبه ، ويطهر قلبه بالإيمان حتى يعرف اللَّه بصفاته ، ويراقبه في كل حال ، ويخاف منه ويرجوه ، ويرغب فيما عنده ، ويرهب مما لديه ، ويعتمد عليه في كل الأمور .

وعندما يمارس العلاج الإسلامي ويطبق مبادئه مع عملائه الذين يأتون إليه طالبين عونه ومساعدته يحرص على صون حرماتهم وخصوصًا وأنه بحكم عمله سيطلع على الكثير من أسرارهم ، وسيعرف المكنون من صفاتهم وسماتهم الشخصية ، وسيأتمنونه على أنفسهم وبيوتهم ، ولذلك يلزمه مبدأ التقوى بالأمانة الكاملة حتى يثقوا به ويطمئنوا إليه ، ومن التقوى أيضًا أن يكون صادقًا معهم كل الصدق ، فلا يقول إلا صدقًا ، ولا يعد إلا بما هو قادر على تنفيذه ، وكما يمارس تقوى اللسان يمارس أيضًا تقوى العين فيغض بصره عن الحرام ويحفظه عما لا تؤمن عاقبته، ولا يسعى إلى أي عمل إلا إذا تأكد من أنه يرضي اللَّه كما يحب عملاءه حبًا خالصًا للَّه وفي اللَّه ، وعندما يحبهم سيخلص في مساعدتهم وسيضحي بكل جهده ووقته في سبيل علاج مشكلاتهم وإسعادهم ، ولن يستطيع الأخصائي الاجتماعي الوصول إلى هذه الدرجة العظيمة من الإخلاص إلا إذا قوي إيمانه ، وازداد يقينه ، ورسخت خشيته من اللَّه ، واشتدت مراقبته له .

ومن يطبق مبدأ التقوى لا بد أن يكون حليمًا ، فيتقبل الناس بعيوبهم ولا يضيق بهم مهما كان سلوكهم ، فيقدِّر مشاعرهم ويتعاطف معهم ، وعندما يعفو عن أخطائهم وهو قادر على الانتقام بما في يده من سلطة ويصبر على مضايقاتهم ، ويتسامح عما يصدر منهم ، سيشعرون بمدى حبه الخالص ، ومدى حرصه على مساعدتهم وسعيه إلى إسعادهم ، عندها سيقتنعون به مثلًا طيبًا يُحتذى به ، وقدوة صالحة يتأثرون بها ، فيطيعون أوامره وينفذون مشورته ويتبعون إرشاداته وتوجيهاته ويصبح قادرًا على تغييرهم .

كما أن مبدأ التقوى يتطلب من الأخصائي الاجتماعي أن يكون صابرًا ومزودًا بجرعة كبيرة من الصبر ؛ لأن مسؤولية العلاج الإسلامي مسؤولية كبيرة وممارسته عملية شاقة ومتعبة ؛ لأنها تهدف إلى تغيير الإنسان وهو ليس بالأمر الهيِّن اليسير ، ولن يستطيع الأخصائي الاجتماعي ممارسة الصبر وتحمل مشقته إلا إذا اتقى اللَّه حق تقاته

وعمل بقول الرسول ﷺ : « **من سرَّه أن يكون أكرم الناس فليتق اللَّه** » وبتقوى اللَّه يكمل إيمانه ويقينه ويثبت عمليًّا خوفه من اللَّه ومراقبته ، ويصدق فعلًا في حب اللَّه وترك كل شيء من أجله حتى لا يراه حيث نهاه .

وصدق اللَّه ﷻ في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

* * *

obeikandl.com

الرعاية الاجتماعية في الإسلام

أ.د. مصطفى أحمد حسَّان

مقدمة

تعتبر الرعاية الاجتماعية بمثابة تلك النشاطات التي تقوم بها الدولة أو منظمات غير حكومية لتأدية خدمات لمواطنين يحتاجون إليها ، وتتميز الرعاية الاجتماعية الحكومية بالذات بأنها تُؤدى في ظل سياسة قومية وخطة عامة بغرض توفير خدمات أساسية للمواطنين كافة كالتزام من جانب الدول إزاء مواطنيها [١] .

ويمكن القول : أن الرعاية الاجتماعية إحدى النظم الاجتماعية التي نشأت مع المجتمع الإنساني وتطورت بتطوره ، وهي تؤدي وظائف لا غنى عنها لحياة الناس في المجتمع شأنها في ذلك شأن النظم الاجتماعية الأخرى ، وهي في نفس الوقت ترتبط مع سائر النظم بشبكة من العلاقات التي تشكل معالم البناء الاجتماعي [٢] .

ومنذ ظهور الحضارات على وجه الأرض ظهرت أشكال من الرعاية الاجتماعية ارتبطت بنوعية هذه الحضارة وأسلوب الحياة فيها ، كما ازداد تطور الرعاية الاجتماعية بظهور الأديان السماوية ويعزي جلبرت وسبكت نشوء الرعاية الاجتماعية تاريخيًّا إلى أن الأنظمة الاجتماعية وبصفه أساسية الأسرة والدين كانت تقوم بإمداد العون كوظيفة ثانوية لها [٣] .

ولما كان الدين الإسلامي خاتم الأديان في خط التطور الذي جاءت به الديانات السماوية لتنظيم العلاقات الاجتماعية بين الناس لذلك قام على تأكيد قواعد العدالة والتعاون والإخاء والمساواة بين الناس ومصدرًا لتهذيب السلوك وتقويم الأخلاق وتحقيق خيرية المعادلة ، وإقامة قواعد الحق والعدل في محيط الجماعة ، ومقاومة الفساد والفوضى ، والربط بين قلوب أفراد المجتمع الواحد برباط المحبة والتراحم والبر والتعاون والاحترام

---

(١) عبد الحليم رضا عبد العال : الخدمة الاجتماعية المعاصرة ، (١٩٩٠م) ، (ص ١٦٥) .

(٢) الفاروق زكي يونس : الخدمة الاجتماعية والتغيير الاجتماعي ، ط . ٢ ، عالم الكتب ، (١٩٧٨م) ، (ص ٧)

(٣) Neil Gelbert and Hary Specht Dimensions of Social Welfare Policy , N . Y , Prentece Hall , (1974) , (P . 9) .

المتبادل ، وإلى هذا المعنى يشير الرسول عليه الصلاة والسلام حيث يقول : « **المؤمن ألف مألف ولا خير فيمن لا يؤلف ، وخير الناس أنفعهم للناس** » .

لذلك كان التعامل الإنساني في الإسلام يقوم على الأخوة والحب الأكيد والاحترام المتبادل دون النظر إلى فوارق اللون أو الجنس أو اللغة أو الحدود الجغرافية .

ولقد أقام الإسلام المجتمع الإسلامي على مجموعة من المقومات جعلت الرعاية الاجتماعية تطبيقًا فعليًا لكل معطيات الدين الإسلامي ، ويمكن أن نشير باختصار إلى هذه المقومات حتى يتبين لنا الارتباط بين الرعاية الاجتماعية والدين الإسلامي وأثر ذلك على المجتمع الإسلامي :

١ – الأخلاق والقيم العليا :

وهي في الإسلام تنبثق عن العقيدة فلا تمليها المصلحة ولا تسيرها المنفعة ، فالإسلام دعا إلى الصدق والبر والعدل وأداء الواجب والحلم والحياء ورعاية الحوار وصدق اللسان وكظم الغيظ وعمل المعروف وضيافة الفقراء وإغاثة الملهوف وعيادة المريض والتصدق على المحتاجين .. إلخ .

ومن النصوص الجامعة للقواعد الأخلاقية قول اللّه تعالى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١١٧] . وقول اللّه تعالى : ﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٤] .

٢ – الأنظمة التي تنظم علاقات الأفراد :

وتشمل الأنظمة التجارية والاقتصادية والمعاملات وأنظمة الأسرة والقضاء والوصايا والميراث والنفقات وأنظمة الحكم والسياسة وغيرها .

٣ – تنفيذ هذه الأنظمة ومباشرة تنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع الإسلامي :

قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] .

٤ – العبادات والأعراف السلبية التي لا تتناقض مع العقيدة والتعاليم الإسلامية .

أبعاد الرعاية الاجتماعية في الإسلام

أولًا : تنبع هذه الرعاية من تعاليم الدين الإسلامي والتي تقوم على القرآن والسنة وبالتالي فهي تقوم على مجموعة من التشريعات نذكر منها (١) :

١ – **تشريع المساعدة** : وهو يشمل المدين والغارم واليتامى والقاتل الخطأ والمنقطع في بلد غير بلده يسمى ابن السبيل .

٢ – **تشريع الجوار** : قال تعالى : ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ [النساء : ٣٦] .

٣ – **تشريع الماعون** : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ [الماعون : ٤ – ٧] .

٤ – **تشريع المشاركة** : وذلك عندما تحين المواسم الزراعية ، قال تعالى : ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤١] .

٥ – **تشريع الضيافة** : « **من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليكرم ضيفه** » قالوا : ما جائزته يا رسول اللَّه ؟ قال : « **يومه وليلته والضيافة ثلاثة أيام فيما كان وراء ذلك فهو صدقة** » . وفي رواية لمسلم : « **لا يحل لمسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه** » قالوا : يا رسول اللَّه وكيف يؤثمه ؟ قال : « **يقيم عنده ولاشيء له يقريه به** » **رواه البخاري ومسلم .**

٦ – **تشريع الإعفاف** : ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٣٢]

٧ – **تشريعات الإسعاف في حالات الجوع والعطش والمنهكة** : « أي رجل مات ضياعًا بين أغنياء فقد برئت منهم ذمة اللَّه ورسوله » .

٨ – **تشريعات الطوارئ** : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٤١] ، كما قال الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام : « **من فرَّج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرَّج اللَّه عنه كربة من كرب يوم القيامة** » رواه مسلم .

---

(١) محمود شلتوت : الإسلام والتكافل الاجتماعي ، مكتبة الكليات الأزهرية .

٩ – تشريعات الإعانات العائلية : كمساعدات الزواج وعلاوات الأولاد . فقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام إذا أتاه في قسمة يومه فأعطى الأهل حظين وأعطى الأعزب حظًّا واحدًا ، وكان عمر ﷺ يفرض لكل مولود عطاءً يزاد إلى عطاء أبيه (مائة درهم) يزاد كلما نما الولد .

ثانيًا : التشريعات المالية اللازمة لتنفيذ الرعاية الاجتماعية :

١ – تشريع الزكاة : وهي تؤخذ بنسبة محدودة من النقدين (الذهب والفضة) وعروض التجارة والزروع والثمار وكل ما يستنبت من الأرض ، وتصرف لفئات معينة على أنها فريضة من اللَّه تؤخذ منهم ويحاربون عليها إذا امتنعوا عن أدائها [١] ، قال تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

والأصل أن الدولة هي التي تجبي الزكاة وتوصلها إلى المستحقين ولا يجوز صرفها لغير أهل الاستحقاق وللدولة أن تنظم جبايتها وتوزيعها بما يكفل إيصالها إلى الفقراء وسائر المستحقين ، الزكاة ضمان اجتماعي عام للفقراء [٢] .

فعلى مستوى الدولة يمثل الضمان الاجتماعي الزكاة ، التي هي الركن الثالث في الإسلام وتقرن دائمًا بالصلاة ، وهي تصرف لكل فرد يعيش في المجتمع الإسلامي أيًّا كانت ديانته وأيًّا كانت جنسيته حد الكفاية ، لا حد الكفاف ، بحيث إذا لم تسعفه ظروفه الخاصة كمرض أو شيخوخة أو تعطل عن العمل من تحقيق هذا المستوى اللائق للمعيشة والذي يختلف باختلاف ظروف الزمان والمكان تكفلت بذلك الدولة عن طريق مؤسسة الزكاة .

إن هذه الزكاة لم تكن مجرد مؤونة وقتية لسد حاجة عاجلة للفقير وتخفيف شيء من بؤسه ، ثم تركه بعد ذلك لأنياب الفقر والفاقة ، بل كان هدفها القضاء على الفقر ، وإعفاء الفقراء إعفاءً دائمًا يستأصل شأفة العوز من حياتهم ، ويقدرهم على أن ينهضوا وحدهم بعبء المعيشة ؛ وذلك لأنها فريضة دورية دائمة الموارد ومهمتها أن تيسر للفقير قوامًا من عيش لا لقيمات أو دريهمات [٣] .

---

(١) عبد العزيز الخياط ؛ المجتمع المتكافل في الإسلام ، ط . ٣ ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، (١٩٨٦م) ، (ص ٢٤٩ ، ٢٥٠) .

(٢) عبد الكريم زيدان ؛ الفرد والدولة في الشريعة الإسلامية ، الجماعة الإسلامية ، جامعة القاهرة ، كتاب إسلامي دوري رقم (١٤) ، (ص ٧٧) .

(٣) محمد شوقي الفنجري ؛ الإسلام والتأمين ، الهيئة العامة للكتاب (١٩٨٩م) ، (ص ٢٥ – ٢٧) .

ولم يقف دور مؤسسة الزكاة على مجرد سد حاجة الفقير العاجز بل إعطاء فرصة العلم للقادر عليه ، فكثيرًا ما أعطي الفقير ما يمكن أن تسميه برأس مال ليبدأ تجارة فينميها أو يشتر آلات لصناعة يعرفها [١] .

وهنا يجب الإشارة أن الزكاة فرضت كأساس ضروري لمعالجة خطر التمزق كأقل ما يجب أن يوجد في صندوق الدولة للرعاية الاجتماعية الأولية وبذلك لم يغط بالزكاة كل صنوف الرعاية وكل ضروب الحاجة في سبيل تقوية الأمة معنويًا وماديًا ، ووكل إلى الإحسان بعدها أن يتكفل بما زاد عن هذا القدر الضروري في سبيل المحافظة على كيان المجتمع وبقائه عزيز الجانب [٢] .

وليست الزكاة إحسانًا فرديًا ، وقد بدا ذلك واضحًا في مصارفها وفي التكليف بها فلم تعتبر إحسانًا شخصيًا عند جمهور الفقهاء ، بل اعتبروها حقًا ماليًا كيفما كانت حال مالكه من الأهلية للتصرفات .

لذلك تعتبر الزكاة من الموارد المستمرة والدائمة لدعم الرعاية الاجتماعية طالما في المجتمع أفرادًا يعملون وينتجون ويتبقى في حوضتهم حد النصاب .

٢ – تشريع الوقف : يقوم هذا التشريع تنفيذًا لقول الرسول الكريم ، ففي حديث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « **إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له** » رواه مسلم .

لذلك أصبحت في المجتمعات الإسلامية العديد من المؤسسات وقدمت الكثير من أشكال الرعاية الاجتماعية التي أوقفت عليها الأوقاف التي كانت تدر عليها الموارد المالية بصفة مستمرة ؛ لذلك ازدهرت الأوقاف الإسلامية في كل مجتمع إسلامي حيث أوقفت هذه المؤسسات للقيام بالخدمات الصحية والتعليمية وسد حاجة العاجزين عن الكسب ومن يقصر دخلهم عن العمل عن حاجاتهم الواقعية ، وتعريض الذين ضحوا في سبيل المصلحة العامة والدفاع عن الأمة [٣] .

٣ – تشريع النفقة : حيث يقول اللّه تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ ﴾ [الطلاق : ٧] والنفقة

---

(١) يوسف القرضاوي ؛ فقه الزكاة ، دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة ، الطبعة السادسة ، الجزء الأول ، مؤسسة الرسالة (١٩٨١م) ، (ص ٨٧) .

(٢) محمد شوقي الفنجري ، المدخل إلى الاقتصاد الإسلامي ، دار النهضة المصرية (١٩٧٢م) ، (ص١٧) .

(٣) محمد البهي ، دور الإسلام في حل مشاكل التجمعات الإسلامية المعاصرة ، الطبعة الثانية ، مكتبة وهبة ، (١٩٧٨م) ، (ص١٣٧) .

فرض على المسلم القادر لصالح المحتاجين من ذوي قرباه لتوفير الاحتياجات الضرورية لهم .

٤ – **تشريع الوصية** : حيث يقول اللَّه تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ١٨٠] .

٥ – **تشريع الغنائم** : حيث يقول اللَّه تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الأنفال : ٤١] .

٦ – **تشريع الرِّكاز** : والركاز هو كل ما عثر عليه في باطن الأرض جامدًا كان أم مائعًا كالبترول .. إلخ . وفي الركاز الخُمس .

٧ – **تشريع النذور** : حيث يقول اللَّه تعالى : ﴿ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ ﴾ [الحج : ٢٩] .

٨ – **تشريع الكفارات عن الذنوب والأيمان والظهار ومخالفات الحج والصوم** : قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر : ١ ، ٢] .

٩ – **تشريع الأضاحي** : حيث يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « **يا أيها الناس على أهل كل بيت في كل عام أضحية** » .

١٠ – **تشريع صدقة الفطر** : حيث فرض الرسول عليه الصلاة والسلام زكاة الفطر في رمضان على كل مسلم .

١١ – **تشريعات الخزانة العامة** : بالنسبة لمواردها العامة المتعددة في الزكاة وخُمس غنائم وركائز خراج الأرض وتركة من الإدارات له .

١٢ – **تشريع الكفاية** : إن اللَّه فرض على أغنياء المسلمين من أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم ، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا بما يضع أغنياءهم ، ألا وأن اللَّه يحاسبهم حسابًا شديدًا ويعذبهم عذابًا أليمًا .

ثالثًا : مؤسسات الرعاية الاجتماعية في الإسلام :

من الخصائص التي تتميز بها الرعاية الاجتماعية في الإسلام أنها تقوم في كثير من أوجه نشاطتها على الجهود التطوعية للأفراد ، وكذلك على تفنيد الكثير من هذه الأنشطة من خلال الجمعيات والمؤسسات الأهلية والحكومية التي تجعل غايتها وهدفها مساعدة الناس وتخفيف الويلات والمصائب عنهم ، وإغاثتهم وإزالة سرجهم ، أو تعليمهم وتثقيفهم ، أو إنشاء المستشفيات أوالمستوصفات الطبية لهم ، أو توفير أسباب الراحة واللهو البريء والرياضة ، أو تحقيق غايات الخير والبر والرحمة بالضعفاء أو الشيوخ

أو الأرامل والمطلقات أو رعاية السجناء ، وهذه الجمعيات والمؤسسات تعتبر من أهم ما يعمل على تعاون المجتمع وتضامنه وتكامله [١] ، حيث يقول اللَّه تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ [المائدة : ٢] .

لذلك زخرت المدن الإسلامية بالعديد من المؤسسات ذات الصفة الاجتماعية البحتة – كالحمامات والأسبلة والبيمارستانات – ومنها ما كان ذا صفة تجارية أو دينية ولكنه احتوى نشاطًا اجتماعيًا ملحوظًا وأدى رسالة ذات صيغة اجتماعية واضحة ؛ كالفنادق والوكالات والجوامع والمدارس ومكاتب الأيتام وغيرها ويبرز الطابع الاجتماعي لهذا النوع الأخير في أنه استهدف التقرب إلى اللَّه تعالى بفعل الخير سواء بالعناية باليتيم والضعيف أو بالمسافر والتاجر أو بطالب العلم والمريض .. إلخ ، ولعل الظاهرة الواضحة في التاريخ الإسلامي هي أن هذه المؤسسات الاجتماعية استطاعت البقاء والاستمرار طويلًا دون أن تتوقف عن أداء رسالتها عقب وفاة مؤسسيها ذلك أنه من الملاحظ في كثير من حلقات التاريخ وعديد من بلاد العالم توقف المؤسسات الخيرية عن أداء رسالتها بعد فترة من الزمن بسبب وفاة مؤسسيها ونصب مواردها وعدم توفر الإمكانات المادية التي تمكّنها من الاستمرار في أداء الرسالة ، أما في ظل الحضارة الإسلامية فإنه قبل أن تصادفنا هذه الظاهرة وذلك بفضل نظام الأوقاف الذي ازدهر مع ازدهار هذه الحضارة .

ذلك أن مؤسسي المنشأة – حاكمًا كان أو ثريًّا من الخيرين – كان يوقف على منشاته – غالبًا – وقفًا يدر عليها موردًا ثابتًا يضمن لها البقاء ويكفل لها أداء رسالتها دون حاجة إلى طلب المعونة بين حين وآخر بما يحققه من خلال دخل ثابت منتظم تستعين به المؤسسة [٢] على قيامها بدورها بطريقة منظمة ومستمرة .

مما يدل على أن الرعاية الاجتماعية في الإسلام تمتعت برعاية مؤسسية خلال التاريخ الإسلامي وكانت هذه المؤسسات تؤدي دورها بطريقة مستمرة ومنتظمة .

رابعًا : نوعية المستفيدين من الرعاية الاجتماعية في الإسلام :

تتصف الرعاية الاجتماعية في الإسلام بأنها رعاية شاملة فهي لا تقتصر على رعاية الإنسان بل تمتد إلى رعاية الحيوان بل تمتد إلى النبات .

---

(١) محمد البهي ، المرجع السابق (ص ١٧١) .

(٢) عبد العزيز الخياط ، مرجع سبق ذكره ، (ص ٢٤٤) .

حيث نرى أن الإنسان في كافة حالاته تقدم له الرعاية في حالة قوته وحالة ضعفه ، في حالة طفولته وشيخوخته ، وفي حالة فتوته وشبابه سواء كان ذكرًا أو أنثى ، طفلًا أو رجلًا مهما كان جنسه أو نوعه أو دينه أو لونه مع مراعاة وقوف الرعاية الاجتماعية بشكل واضح مع الفئات الأكثر احتياجًا مثل الفقراء والمساكين والمرضى والمكفوفين والمقعدين والشيوخ والمشردين واللقطاء واليتامى والأسرى .

كذلك يدخل فئة المستفيدين من الرعاية الاجتماعية في الإسلام المدين والقاتل خطأ وابن السبيل ، والجار القريب ، والضيف ، علاوة على الأفراد الذين يتعرضون للكوارث والنكبات ، وهناك العديد من الحالات التي سوف نذكرها بالتفصيل عند الحديث عن مجالات الرعاية الاجتماعية في الإسلام .

علاوة على ذلك شملت الرعاية الاجتماعية في الإسلام رعاية الحيوان وطلب الرفق به والتوصية بحسن معاملته ، حيث دعت الأحاديث الشريفة إلى ذلك وتم تطبيق هذه الرعاية ، فهذا عمر بن الخطاب يداوي إبل الصدقة ولما قال له رجل من القوم « يغفر اللَّه لك يا أمير المؤمنين ، فهلا تأمر عبدًا من عبيد الصدقة فيكفيك ؟ » قال عمر : وأي عبد هو أعبد مني » ، إنه من ولي أمر المسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده في التضمية وأداء الأمانة (١) .

وقد أوقفت لرعاية الحيوان الأوقاف مثل توفير المياه لينتفع الدواب المارين والمترددين على الأسبلة من الاستفادة منه وغيرها من الأوقاف التي أوقفت على الحيوانات .

ومن ذلك نرى أن الرعاية الاجتماعية في الإسلام هي رعاية شاملة لكل الأحياء خاصة الإنسان في كل حالاته والحيوانات والنبات .

خامسًا : دور الجهود الأهلية والحكومية في تقديم الرعاية الاجتماعية :

تقوم الرعاية الاجتماعية في الإسلام من خلال الجهود الأهلية وكذلك الجهود الحكومية حيث نرى أن في القرآن الكريم والسنة المطهرة يدعو اللَّه الناس إلى المسارعة في الخيرات ، والأصل في ذلك قول اللَّه تعالى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور وآخرون ، دراسات في تاريخ الحضارة العربية والإسلامية ، منشورات دار السلاسل ، الكويت (ص ٨٩) .

كما تقوم الدولة بتقديم الرعاية الاجتماعية من خلال جمع الأموال المفروضة على المسلمين ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

والدولة هي التي تتولى جمع الزكاة وإنفاقها على مستحقيها علاوة على إقامة المؤسسات الاجتماعية لرعاية بعض أفرادها الذين لا يستطيعون العمل أو أعوزتهم الظروف القاسية إلى رعاية المجتمع لهم مثل رعاية الصغار واليتامى واللقطاء والمطلقات والمشردين والعجزة وغيرهم ممن سوف يتضح في مجالات الرعاية الاجتماعية .

سادسًا : التطوع والرعاية الاجتماعية في الإسلام :

يعتبر التطوع للمشاركة في أوجه مجالات الرعاية الاجتماعية في الإسلام بين الخصائص المميزة لهذه الرعاية حيث يحض الإسلام على التطوع حيث يقول اللَّه تعالى : ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ﴾ [البقرة : ١٨٤] . كما يقول ﷻ : ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٥٨] . كما يقول ﷻ أيضًا : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

فالتطوعية بمعنى فعل الخيرات والدخول في أنشطة إيجابية من جهة ، ثم الإحجام عن فعل الشرور والأعمال السلبية من جهة أخرى أمر كامل الوضوح في صميم الإسلام (١) .

وفي ذلك يقول اللَّه تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

ولقد ربط الإسلام التطوع بالإيمان وبقدر مساهمة الإنسان وعطائه وبذله ودرجة إيمانه عن أبي هريرة ﷺ عن رسول اللَّه ﷺ قال : « **الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا اللَّه وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان** » متفق عليه .

ولا يستصغر الإسلام العمل التطوعي مهما كان ويدعو إلى بذل الجهد الطواعي مهما كان تقدير الإنسان له ففي ذلك يقول رسول اللَّه ﷺ : « **لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق** » رواه مسلم .

واعتبر الإسلام أن كل عمل تطوعي يقصد به وجه اللَّه ﷻ صدقة يأخذ عنها المسلم أجرًا في الآخرة ، وفي ذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « **كل معروف صدقة** »

---

(١) ابن الجوزي : تاريخ عمر بن الخطاب ، مكتبة صبيح ، القاهرة ، (١٩٢٩م) (ص ٦٢) .

رواه البخاري ، وعن أبي ذر جندب بن جنادة ﷺ قال : قلت : يا رسول اللَّه ، أي الأعمال أفضل ؟ قال : « **الْإِيمَانُ باللَّه وَالْجِهَادُ في سَبِيلِهِ** » ، قُلْتُ : أَيُّ الرِّقَابِ أفضَلُ ؟ قال : « **أنفسُهَا عنْد أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا** » ، قَالَ : قلْتُ : فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ ؟ قَالَ : « **تُعِينُ صَانِعًا أَو تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ** » قال : قلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّه ، أرأَيتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ ؟ قَالَ : « **تَكُفُّ شَرَّكَ عَنْ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ منك على نَفْسِكَ** » متفق عليه .

ومن الواجبات اليومية التي لا يجوز للمسلم أن ينساها أو يهملها واجبه نحو خدمة المجتمع ومساعدة أفراده على قضاء حوائجهم وتسهيل أمورهم ليكون له بذلك صدقة [١] .

روى الشيخان عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « **عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ** » قَالُوا : فإن لم يجد ؟ قَالَ : « **فيعمَلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ** » قالوا ؛ فإن لم يَسْتَطِعْ – أَوْ لَمْ يَفْعَلْ – ؟ قال : « **فيُعِينُ ذَا الحاجَةِ الملْهُوفَ** » ، قَالُوا : فإن لم يفعل ؟ قال : « **فيأمر بالخيرِ** – أو قال – **بالمعرُوفِ** » ، قالوا : فإنْ لم يَفْعَلْ قالَ : « **فيُمْسِكُ عن الشَّرِّ ، فَإِنَّهُ له صَدَقَةٌ** » متفق عليه .

هذا التطوع للعمل الاجتماعي يعتبر صدقةً أو ضريبةً اجتماعيةً مفروضةً على كل مسلم في كل يوم ، بل صح الحديث أنها واجبة على كل مفصل من مفاصله أو منسم من مناسمه مع إشراقة كل شمس ، وبهذا يصبح المسلم ينبوعًا يفيض الخير والسلام لمن حوله وما حوله .

فالإنسان المسلم لا بد وأن يتطوع وأن يساهم في رعاية مجتمعه وأن يؤدي لمجتمعه الضريبة الاجتماعية المفروضة عليه ، وهي لا تسقط عن أي فرد في المجتمع الإسلامي سواء كان فقيرًا أوغنيًّا ، فالغني يبذل من ماله في سبيل الخير ، والفقير يبذل من وقته ليحث الأغنياء على فعل الخير ويأمر بالمعروف ما وسعه الجهد ويعمل إن استطاع في كل لحظة للإصلاح بين الناس . وفي ذلك يقول اللَّه تعالى : ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٤] .

---

(١) عبد المنعم بدر : اللاتطوعية وأزمة التنمية في العالم العربي والإسلامي ، مجلة المسلم المعاصر ، العدد ٣٤ ، (ربيع الثاني ، جماد ١٤٠٣هـ) ، مؤسسة المسلم المعاصر ، بيروت (ص ١٢٤) .

لذلك تقوم الرعاية الاجتماعية في الإسلام بدورها معتمدةً على الجهود التطوعية في جزء كبير منها سواء كانت هذه الجهود فردية أم جماعية ، مالية أم من خلال المشاركة بالجهد والعمل ، ولا يقتصر التطوع على مجال بعينه بل قد يكون فرديًّا صغير العائد أو جماعيًّا من خلال المشاركة في مجال من التنمية والرعاية الاجتماعية والتي قد تشمل الإنسان والحيوان من خلال فعل الخيرات لكل المخلوقات .

سابعًا : الحسبة والرعاية الاجتماعية في الإسلام :

الحسبة واحدة من النظم الإسلامية الأساسية التي وضعتها الشريعة الإسلامية وانفردت بتطبيقها الأمة الإسلامية (١) .

ولقد لعبت الحسبة دورًا كبيرًا في حياة المجتمع الإسلامي عبر العصور ، فقد وفر هذا النظام الحياة السليمة القويمة للمجتمع الإسلامي فإلى جانب نظم الرعاية الاجتماعية التي عاش في ظلها المسلم فقد وجد الفرد نظامًا آخر يرفع عنه الظلم ويحميه من الغش والتدليس من الناحية الاقتصادية ، كذلك نظامًا يرفع ذوي النفوس المتردية وتوجيهها توجيهًا سليمًا لها نحو جادة الصواب بدلًا من التخبط في دروب الكسب المحرم (٢) .

ولقد عُرِّفت الحسبة بتعريفات متعددة ، فلقد عرفها الماوردي بأنها : « أمرٌ بالمعروف إذا ظهر تركه ، ونهيٌ عن المنكر إذا ظهر فعله ، وإصلاحٌ بين الناس » (٣) .

كما عرفها الإمام ابن تيمية : هي « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما ليس من اختصاص الولاة والقضاة والديوان ونحوهم » (٤) ، كما عرفها ابن خلدون بقوله : « أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين » (٥) .

ومن المؤكد أن الحسبة تعدت أصولها المثالية وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى واجبات عرضية تتفق والمصالح العامة للمسلمين .

(١) يوسف القرضاوي : الوقت حياة المسلم ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثالثة ، (١٩٨٢م) ، (ص ٢٨) .

(٢) فتحية النبراوي : تاريخ النظم والحضارة الإسلامية ، الدار السعودي للنشر والتوزيع ، الطبعة الثالثة ، (١٩٨٥م) ، (ص ١١٧) .

(٣) رشاد عباس معتوق : نظام الحسبة في القرآن حتى بمقر المأمون ونشأته وتطوره ، رسائل جامعية رقم (٨) ، تهامة للنشر : المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) ، (ص ١٤٩ ، ١٥٠) .

(٤) الماوردي : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، طبعة القاهرة ، (١٩٦٦م) ، (ص٢٤٠) .

(٥) ابن تيمية : الحسبة في الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية ، دار الكتاب العربي ، (ص ١٤) .

وتحت هذه الوظيفة نما المجتمع الإسلامي ، وتطورت نظمه الاقتصادية وأوضاعه الاجتماعية واتسعت رقعته حتى أصبحت من أهم دعائم النظام الاقتصادي والاجتماعي في الدول الإسلامية ، كما شهد بذلك المؤرخون [١] .

نشأة الحسبة :

تضاربت أقوال المؤرخين في نشأة الحسبة فالبعض يقول : إن الرسول عليه الصلاة والسلام كان أول محتسب إذ نهى عن الغش حين قال : « **من غشنا فليس منَّا** » ، وورد في صحيح مسلم : أن الرسول عليه الصلاة والسلام مرَّ على صبرة طعام فأوصل يده بها فسالت أصابعه بللًا ، فقال : « **ما هذا يا صاحب الطعام ؟** » ، فقال : أصابته السماء يا رسول اللَّه ، قال : « **أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس ، من غشنا فليس منَّا** » .

وتلي ذلك قيام عمر بن الخطاب في وضع نظام الحسبة بنفسه حيث كان يطوف الشوارع والأسواق ودرته معه فإن رأى غشاشًا خفقه بها مهما كان شأنه [٢] .

ويرى المؤرخون المحدثون والمستشرقون أن لفظ المحتسب لم يظهر في الخلافة الإسلامية إلا في العصر العباسي وفي عهد الخليفة المهدي بالذات [٣] .

ومن استعراضنا لمفهوم الحسبة وتاريخها نرى أنها قامت منذ ظهور الإسلام بدور مراقبة ومتابعة تنفيذ أوامر اللَّه وهدي رسوله فيما يختص برعاية شؤون الناس سواء كان ذلك من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولقد اتضح ذلك من خلال وظائف المحتسب التي ركزت على متابعة قيام النظم المختلفة في المجتمع لدورها بحيث تناولت النظم الاجتماعية والاقتصادية والصحية والدينية ، فأعمال المحتسب كثيرة تشمل نواحي أدبية ودينية وعمرانية وأخلاقية ولا نجد في الوقت الحاضر موظفًا حكوميًّا أو دائرة رسمية بها سلطة شبيهة المحتسب في بعض المجتمعات الإسلامية المعاصرة التي تركت هذا النظام الاجتماعي ، فإنه يشبه رئيس البلدية أو مدير الإعاشة أو مدير الشرطة القضائية أو مدير الشؤون الاجتماعية وغير ذلك من الوظائف مع الفارق [٤] .

---

(١) عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ، تحقيق د . علي عبد الواحد وافي ، القاهرة ، (١٩٥٨م) ، (٣٩٢/٢) .
(٢) المقريزي ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق د . زياد الشال ، (١٩٤٠م) ، (ص ٢٠) .
(٣) يحيى أحمد الكعكي ، معالم النظام الاجتماعي في الإسلام ، دار النهضة العربية ، بيروت ، (١٩٨١م) ، (ص ٩٢) .
(٤) أحمد شلبي ، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، ط . ٢ ، (١٩٧٣م) ، (٥٥/٥) .

وظائف المحتسب :

وظيفة المحتسب فيما يتعلق بالمجال الديني : يمكن ذكر بعضها باختصار في الاهتمام بالمساجد وعمارتها ونظافتها ، والمحافظة على الصلاة في جماعة ، والتعاون مع الإمام والمؤذن والواعظ ، وكل الأمور التي تدعم القيم الدينية .

وظيفة المحتسب فيما يتعلق بالمجال الاقتصادي : نشأت وظيفة المحتسب في بداية أمرها متصلة بالجانب الديني ، ثم بالمجال الاقتصادي خاصة الإشراف على المكاييل والموازين ، ثم ازدادت اختصاصته لزيادة المشاكل الناجمة عن الصناعات والسوق ، وكثرة أهل السوق وأثرهم في الحياة العامة في توجيه الأخلاق العامة ؛ لذلك فإن وظيفة المحتسب أخذت تدريجيًا تتعدى مسؤولياتها إلى ضبط الأخلاق العامة والإشراف عليها [١] .

كما أن للمحتسب أن يراعي الوفرة والتقصير والأمانة والخيانة والجودة والرداءة ، أما الوفرة فتنطبق على الأطباء والمعلمين فمن واجبه أن يتأكد من وجود هؤلاء خدمة للمجتمع [٢] .

وظيفة المحتسب فيما يتعلق بالمجال الاجتماعي : يمكن تحديد هذه الوظيفة في النص الذي أورده العلَّامة ابن خلدون بقوله : « يبحث عن المنكرات ويعزِّر ويؤدِّب على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة ، مثل المنع من مضايقة في الطرقات ، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل ، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط يهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم لصبيان المتعلمين » [٣] .

وظيفة المحتسب في المجال الصحي : اهتمت الحسبة بمراقبة ومتابعة القواعد الصحية التي تهدف إلى المحافظة على سلامة السكان ونظافة المدن وخططها وشوارعها والقيم الحالية فيها ، فكان المحتسب يأمر بإزالة الطين من الأسواق والطرقات وشوارع المدينة إذا أكثر وإذا تراكمت الأزبال والأتربة ونحوها ، وكان المحتسب يعين من يقوم بتنظيف الشوارع ويرشها كل يوم ، وكذلك ينطبق على المرضى الذين يبيعون الأطعمة في السوق فهو يرى أن المحافظة على الصحة العامة تقضي منعهم من ذلك [٤] .

---

(١) يحيى أحمد الكعكي ، مرجع سبق ذكره ، (ص ٦٤) .

(٢) سهام أبو زيد ، الحسبة في مصر الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (١٩٨٩م) .

(٣) فتحية النبراوي ، مرجع سبق ذكره ، (ص ١٣١) .

(٤) ابن خلدون ، المقدمة جزء (٢) ، مرجع سبق ذكره ، (ص ٥٧٦) .

ومن هذا العرض المختصر نرى المحتسب يعتبر بمثابة رقيب أو ممثل للسلطة التنفيذية في الرقابة على مدى الالتزام على قيام الأفراد والمنظمات المختلفة في المجال الديني والاجتماعي والاقتصادي والصحي .

حق الفرد في الرعاية الاجتماعية في الإسلام :

يراد بهذا الحق أن الفرد يجد ضمانًا عامًّا من الدولة الإسلامية وهي تنظر إليه وتعرف مكانه وتحس بعجزه وحاجته وعجزه ، وأساس هذا الحق أن المجتمع الإسلامي يقوم على أساس التعاون استجابة لأمر اللَّه تعالى : ﴿ **وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ** ﴾ [المائدة : ٢] .

ولكن قبل أن تقدم الدولة الدعم والرعاية فهي تنظر إلى أن هذا الحق يسبقه جملة تعليمات وحقوق جاءت بها الشريعة وهذه التنظيمات هي :

أولًا : الاكتفاء الذاتي للأفراد :

الأصل أن الإنسان يكفي نفسه بنفسه بأن يعمل ويكتسب ولا يسأل الناس حيث يقول اللَّه تعالى : ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ** ﴾ [الجمعة : ١٠] ، وعن أبي عبد اللَّه بن الزبير بن العوام ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ أَحْبُلَةُ ثم يأتي الجبل ، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةٍ من حطب عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا ، فَيَكُفَّ اللَّه بِهَا وَجْهَهُ ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ ، أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ** » رواه البخاري .

وعن المقدام بن معد يكرب ﷺ عن النبي ﷺ : « **مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ** » رواه البخاري .

فالإسلام يدعو الناس إلى العمل والاجتهاد والتعفف وذم السؤال من غير ضرورة ، حيث يقول اللَّه تعالى : ﴿ **وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ** ﴾ [هود : ٦] ، كما يقول اللَّه تعالى : ﴿ **لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ** ﴾ [البقرة : ٢٧٣] . وعن حكيم ابن حزام ﷺ أن النبي ﷺ قال : « **الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ من اليد السُّفلَى ، وَابدأ بِمَنْ تَعُولُ ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّه ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِه اللَّه** » متفق عليه .

والإسلام لا يحبذ بل ينفر الناس من الكسل وطلب الإحسان والشفقة من الآخرين

بل يدعو إلى العمل والاجتهاد ، فعن أبي عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **لَا تُلْحفُوا فِي المسْأَلَةِ ، فَوالله لا يسْأَلُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا فَتُخْرِجَ لَهُ مَسْأَلَتُهُ مِنِّي شَيْئًا وَأَنَا لَهُ كَارِهٌ ، فَيُبارَكَ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتُهُ** » رواه مسلم .

وعن ثوبان ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **مَنْ يَكْفُلُ لِي أَنْ لا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا ، وَأَتَكَفَّلُ لَهُ بِالجَنَّةِ ، فقلت : أنا فَكَانَ لا يَسْأَلُ أَحَدًا شَيئًا** » رواه أبو داود بإسناد صحيح .

لذلك فإن سؤال الناس أو سؤال من يمثلهم وهي الدولة ، غير مرغوب فيه ما دام الإنسان قادرًا على العمل والاكتساب .

ثانيًا : في حالة تقدم الفرد بطلب المساعدة :

عندما يتقدم الفرد بطلب للمساعدة لإحساسه باحتياجه إلى المعونة فإن الدولة لا تقدم المساعدة والرعاية دون دراسة لموقف الفرد وحالته لتقرير احتياجه للمساعدة ويمكن أن تتخذ من موقف الرسول – عليه الصلاة والسلام – من أبي بشر قبيصة بن المخارق عندما تقدم بطلب المساعدة صورة لدراسة الحالة والأسس التي يجب أن تقوم عليها والأسس التي عليها تتقرر المساعدة .

فعن أبي بشر قبيصة بن المخارق ﷺ قال : تحمَّلتُ حمالَةً فَأَتيتُ رَسُول اللَّهِ ﷺ أَسْأَلُه فِيهَا فَقَالَ : « **أقمْ حَتَّى تَأْتِينَا الصَّدقةُ فَنأمُرَ لَكَ بِهَا** » قَالَ : ثُمَّ قَالَ : « **يا قَبِيصَةُ إِنَّ الْمسْأَلَةَ لا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ : رَجُلٌ تَحمَّلَ حَمَالَةً ، فَحَلَّت لَهُ المسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَها ثُمَّ يُمسِكُ ، وَرَجُلٌ أَصابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ المسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ – أَوْ قَالَ سِدَادًا منْ عَيْشٍ ، وَرَجُلٌ أَصَابَتهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُولَ ثَلاثَةٌ من ذَوِي الْحِجَى مِنْ قَوْمِهِ لَقَدْ أَصَابَتْ فُلانًا فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ المسألَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ ، أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ ، فَمَا سِوَاهُنَّ من المسْألَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتٌ يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا** » رواه مسلم .

وتتطلب المساعدة لتقديم الخدمات الاجتماعية التأكد من المعلومات عن العميل حتى لا يبني الحكم على أساس غير سليم ويتطلب الأمر دراسة جميع الجوانب المرتبطة بالموقف ، فعن أم سلمة رضي الله عنها أن رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ : « **إِنَّما أَنا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَختصمونَ إِلَيَّ ، وَلعل بَعضكُم أَنْ يَكونَ أَلحنَ بِحُجَّتِه من بعضٍ ، فَأَقْضِي له بنحو ما أَسْمَعُ ، فَمَنْ قَضَيتُ لَهُ بحق أَخيهِ فلا يَأخُذْه فَإِنَّما أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً من النَّارِ** » متفق عليه .

كذلك يتطلب دور الدولة السعي والبحث لدراسة الحالات التي تحتاج إلى المساعدة ، الأمر الذي يتطلب من ممثلي الدولة الإسلامية الإيجابية في الدراسة والمساعدة والتقصي بالنسبة للحالات الاجتماعية لأفراد المجتمع ، فعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غِنًى يُغْنيه ، ولا يُفطن له ، فيُتصدق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس** » متفق عليه .

ثالثًا : مساعدة الفرد على الاستفادة من قدراته للتغلب على مشكلته :

روى أبو داود عن أنس بن مالك ﷺ : أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَسأله ، فقال : « **أما فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ ؟** » قَالَ : « بَلَى حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بعضه ، وَقعبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنْ الماءِ ، قَالَ : « **ائْتِنِي بِهِمَا** » قَالَ : فَأَتَاهُ بِهِمَا فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّه ﷺ بِيَدِهِ وَقَالَ : « **مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ ؟** » قَالَ رَجُلٌ : أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَم . قَالَ : « **مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ؟** » قَالَ رَجُلٌ : أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ ، فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ ، وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ ، وَقَالَ : « **اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ ، وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ** » فَأَتَاهُ بِهِ فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُودًا بِيَدِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ ؛ « **اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ ، وَلَا أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا** » فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ ، فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « **هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ ؛ لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ** » . متفق عليه .

ومن هذه الحالة يمكن أن نخرج ببعض النقاط التي يقوم المنهج الإسلامي عليها في تقديم المساعدة الذاتية :

١ – تقدم الفرد المتعطل الذي لديه فضل طاقة ولكن بلا عمل إلى الدولة أو إلى ولي الأمر بشكوى لتدبر له أمره .

٢ – وعندما تصل الشكوى إلى المسؤول ، ينظر في مشكلته وتوضع الحلول المناسبة لها ، وهو في ضوء ذلك يضع الخطة السليمة بما يصون للفرد كرامته من خلال إنشاء مشروع استثماري يسلكه في صف العاملين الذين يأكلون مما عملته أيديهم .

٣ – الاستفادة من إمكانيات الفرد دون الاعتماد على الإحسان أو التبرع من الحاضرين لتغطية نفقات المشروع ، ولكن الاعتماد على أن يكون المشروع من رأس مال الفرد نفسه حتى لو كان خرقته التي يتغطى بها وإناءه الذي يشرب به .

٤ – مساهمة الدولة ممثلة في الرسول – عليه الصلاة والسلام – كذلك أفراد المجتمع المحلي طرفًا في المساعدة حين عرض على الناس السلعة ولم يتركه يعرضها هو فأعفاه من الإحراج ، مع ملاحظة أن الرسول لم يفرض السلعة ولم يحدد الثمن ليكون البيع والشراء حرًا ، الأمر الذي جعل مساهمة الناس غير مقيدة بالحياء بل مشروعًا خالصًا من كل شبهه .

٥ – عندما توفر للرجل قدرًا من المال ثمن مناعة لم تتركه الدولة بلا إرشاد ضمانًا لنجاح المشروع أرشده الرسول – عليه الصلاة والسلام – أن يشتري بالنصف طعامًا لعياله تأمينًا لظهره حتى إذا انطلق في الأرض ساعيًا كان زمنًا ، وكذلك طلب الرسول – عليه الصلاة والسلام – أن يشتري بالنصف الثاني فأسًا هي أداته للعمل المثمر الشريف .

٦ – حيث أثبت الرجل صلاحيته للمعونة ساعدته الدولة بخشبة الفأس وضعها الرسول عليه الصلاة والسلام بيده الشريفة تقديرًا له .

٧ – تحديد العمل المناسب والمكان الذي يمكن أن يمارس فيه هذا العمل وهو الاحتطاب حيث إن الرجل حديث عهد بالعمل في بيئة صحراوية .

٨ – وضع خطة لمتابعة العمل وإعطاء مهلة من الوقت لحداثة الرجل بالعمل وإعطاء مهلة خمسة عشر يومًا حتى يتمرس بالتجربة في هذه الفترة .

٩ – في ضوء نتائج التجربة وضعت ميزانية للعامل تكفل سد حاجاته .

١٠ – تحريم السؤال تحريمًا قاطعًا دون استثناء إلا في حالات محددة ونادرة .

رابعًا : تهيئة الدولة سبل كسب العيش للأفراد :

إذا كان العمل مشروعًا في نظر الشرع والسؤال محظورًا والأصل هو السعي للكسب والاجتهاد في سبيل الرزق ، كان من المسلم به أن تقوم الدولة الإسلامية بتسهيل سبل العمل والكسب للأفراد ، وإيجاد العمل للمتعطلين وإيجاد المشاريع النافعة لتشغيل الأفراد وفي ذلك تقوم الدولة بإقراض الأفراد من بيت المال ، وقد صرح بهذا الفقيه المعروف أبو يوسف صاحب أبي حنيفة فقال : « إن صاحب الأرض الخراجية إذا عجز عن زراعة أرضه لفقره ، دفع إليه كفايته من بيت المال قرضًا ليعمل ويستغل أرضه » [١] .

خامسًا : حق النفقة :

ينبغي على الدولة أن تهيئ لكل فرد من أفرادها مستوى معين من الحياة تضمن له الضروريات الأساسية للحياة بأي وسيلة مشروعة ، ولكن إذا لم يوجد عمل أو وجد

(١) سهام مصطفى أبو زيد : مرجع سبق ذكره ، (ص ٢٠١) .

وكان الفرد عاجزًا عنه وجب على الدولة أن تفرض النفقة على الأقارب الأغنياء ، حيث يقول اللَّه تعالى : ﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ [الذاريات : ١٩] .

وهذا الحق غير الزكاة الواردة في الآية الأخرى : ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ [المعارج : ٢٤ ، ٢٥] . قال عبد اللَّه بن عمرو الشعبي والحسن ومجاهد : « هو حق سوى الزكاة واجب في المال » ، وقال أبو بكر الجصاص : « وفي المال حق سوى الزكاة باتفاق المسلمين منه ما يلزم من النفقة على والديه إذا كانا فقيرين وعلى ذوي أرحامه وما يلزم من إطعام المضطر وحمل المنقطع به ، وما جرى ذلك من الحقوق اللازمة عندما يعرض من هذه الأحوال » [١] ، وهذا التضامن بين أفراد العائلة وسائر الأقارب لا يقوم على فحص الرغبة في الإحسان بل يقدم على الوجوب والإلزام .

سادسًا : الزكاة :

عندما لا يستطيع الفرد العمل والاكتساب أو لا يوجد ما يكسب به ومنه ، أو كان يعمل ولا يفي دخله لضروريات الحياة وإذا لم يوجد من أقاربه من ينفق عليه ، أمكن سد حاجته من أموال الزكاة التي هي حق للفقير في أموال الأغنياء والأصل أن الدولة هي التي تجبي الزكاة وتوصلها إلى المستحقين ، ولا يجوز صرفها لغير أهل الاستحقاق وللدولة أن تنظم جبايتها وتوزيعها بما يكفل إيصالها إلى الفقراء وسائر المستحقين ، فالزكاة ضمان اجتماعي يضمن لكل فرد يعيش في المجتمع الإسلامي أيًّا كانت ديانته وأيًّا كانت جنسيته حد الكفاية لاحد الكفاف ، بحيث إذا لم تسعفه ظروفه الخاصة كمرض أو شيخوخة أو تعطل عن العمل من تحقيق هذا المستوى اللائق للمعيشة والذي يختلف باختلاف ظروف الزمان والمكان ، تكفلت بذلك الدولة عن طريق صندوق الزكاة [٢] .

سابعًا : كفالة الدولة للأفراد من بيت المال :

إذا لم تفِ الإجراءات والتنظيمات والحقوق المسابقة في سد حاجة المحتاج تدخلت الدولة وقامت بكفالة المحتاج لتضع مبدأ التعاون الواجب على أفراد المجتمع الإسلامي موضع التنفيذ ، وقد نفذ الرسول ذلك في حياته ، قال عليه الصلاة والسلام : « **أنا أولى بكل مسلم من نفسه ، من ترك مالًا فلورثته ومن ترك دينًا أو ضياعًا فإليَّ وعليَّ** » ، والمراد بالضياع الأسرة والذرية المعرضة للضياع لعدم الموارد وفقد العائل مما يدل على أن من لا مال لهم وذوي الحاجة والمدينين يجدون ما يسد حاجتهم من بيت المال .

---

(١) عبد الكريم زيدان : مرجع سبق ذكره ، (ص ٧٧) .

(٢) عبد العزيز الخياط : المرجع السابق ، (ص ٩١) .

وكفالة الدولة رعايتها الفقراء على المسلمين فقط بل تشمل غير المسلمين « الذميين » أيضًا ما داموا فقراء يستحقون العون ، فقد روى أبو يوسف أن عمر بن الخطاب رأى شيخًا يهوديًّا كبير السن يسأل الناس فطلب من خازن بيت المال إعطائه وأشباهه ما يغنيهم عن السؤال [١] .

كذلك كتب خالد بن الوليد كتابًا لأهل الحيرة جاء فيه : « وجعلت لهم أي شيخ ضعيف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيًّا فافتقر ، وصار أهل دينه يتصرفون عليه ، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين ما أقام بدار السلام » [٢] .

لذلك كان واجب الدولة كفالة الأفراد المحتاجين من بيت المال قدر حاجاتهم ، ويقول في ذلك الإمام ابن تيمية : « والمحتاجون إذا لم تكفهم الزكاة أعطوا من بيت المال على وجه التقديم على غيرهم من وجوه الصرف على رأي » [٣] .

ولقد كان لسيدنا عمر بن الخطاب منهجًا في ذلك حدد فيه حقوق الأفراد في بيت المال فيقول : « فالرجل وبلاؤه والرجل وقدمه ، والرجل وحاجته .. » وذلك في عام الرمادة حيث عم القحط وانحبس المطر فلقد كان سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ يضع الطعام للمحتاجين وينادي مادية : « من أحب أن يحضر طعامًا فليأكل ومن أحب أن يأخذ ما يكفيه وأهله فليأخذه » [٤] .

ورعاية الدولة في الإسلام لمواطنيها لا تتوقف عند حدود إمكانياتها المالي إذا عجزت الدولة عن الإنفاق عليهم ، بل هناك حق يجب على المواطنين أن يطالبوا به إذا عجزت عن رعايتهم حتى تنتقل كفالتهم ورعايتهم إلى القادرين من أفراد المجتمع الإسلامي ؛ إذ المفروض أن صاحب الزائد عن حاجته عليه أن يقدمه لأخيه ؛ لقول الرسول – عليه الصلاة والسلام – : « **من كان عنده فضل ظَهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له** » رواه أحمد بن حنبل في مسنده ؛ لذلك فرض الإسلام على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا برعاية فقرائهم ويجبرهم ولي الأمر على ذلك إذا لم تقم الزكاة بهم ولا في سائر أموال المسلمين بهم فيقدم لهم المأكل الضروري والملبس والمسكن .

---

(١) محمد شوقي الفنجري : الإسلام والتأمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مرجع سابق (ص ٢٧) .
(٢) يعقوب إبراهيم : الخراج ، المطبعة والسلطة ومكتبها ، القاهرة ، (١٣٩٢هـ) ، (ص ١٥٠) .
(٣) يعقوب إبراهيم : المرجع السابق ، (ص ١٤٤) .
(٤) ابن تيمية ؛ السياسة الشرعية ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، (١٣٨٧هـ) ، (ص ٥٣) .

مجالات الرعاية الاجتماعية في الإسلام

في هذا الجزء سوف نتناول باختصار بعض مظاهر ومجالات الرعاية الاجتماعية في الإسلام ، وذلك ليس بغرض السرد التاريخي لتلك المظاهر وهذه المجالات ولكن لبيان الأسس التي قامت عليها هذه المجالات إسلاميًا وتميزها عن غيرها من مظاهر الرعاية في الأديان الأخرى ، وكذلك إظهار علاقتها بالخدمة الاجتماعية على أساس أن هذه الرعاية تمثل الجذور أو البذرة الأولى للخدمة الاجتماعية ولمجالات الممارسة في الخدمة الاجتماعية ؛ لما احتوت عليه هذه المجالات من أسس علمية وتطبيق سليم خلال مرحلة طويلة من الزمن في مؤسسات متعددة ومتنوعة .

مع التأكيد أن هذه الرعاية في مجالاتها المختلفة شملت كل حياة الإنسان وكذلك امتدت إلى كافة أنحاء العالم الإسلامي من أصفهان إلى مراكش إلى الأندلس وقرطبة لفترة طويلة من الزمن استمرت ما يقرب من ألف عام .

وفي تناولنا لمجالات الرعاية الاجتماعية في الإسلام سوف يكون التأكيد بالدرجة الأولى على ما يتصل برعاية الإنسان وخدمته أكثر من الرعاية المتخصصة مثل الرعاية الطبية أو التعليمية ، ولكن الاهتمام في هذه الدراسة ينصب بالدرجة الأولى على أوجه الرعاية والخدمات التي تقدم للإنسان من خلال مجالات الرعاية الاجتماعية الإسلامية المختلفة .

أولًا : مجال الرعاية الاجتماعية للمرضى :

يحظى المرضى في الإسلام برعاية اجتماعية كبيرة فلقد دعى الرسول – عليه الصلاة والسلام – المسلمين إلى التماس العلاج والتداوي ، فقد روى النسائي وابن ماجه والحاكم وصححه عن أنس وابن مسعود أن النبي ﷺ قال : « **إن اللَّه لم ينزل داءً إلا أنزل له شفاء فتداووا** » ، كما روي عن جابر أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **لكل داءٍ دواء ، فإذا أصاب دواء الداء بريء بإذن اللَّه** » رواه مسلم . كما حث الرسول – عليه الصلاة والسلام – على الاشتغال بالطب وإجادته حتى إنه روي عن الرسول – عليه الصلاة والسلام – أنه قال : « **العلم علمان ، علم الأديان وعلم الأبدان** » .

جاءت هذه الرعاية الطبية محصوبة بإقامة مؤسسات لمداواة المرضى وعلاجهم وهي التي أطلق عليها اسم بيمارستانات ، البيمارستانات هي إحدى المنشآت والعمائر كالمساجد والنكايات والقباب والمدارس التي كان يشيدها الخلفاء والسلاطين والملوك

والأمراء وأهل الخير على العموم صدقة وحسبة وخدمة للإنسانية وتخليدًا لذكراهم ، ولم تكن مهمة هذه البيمارستانات قاصرة على مداواة المرضى ، بل كانت في نفس الوقت معاهد علمية ومدارس لتعليم الطب ، واسم دور المرضى بيمارستانات وهو فارسي معرب لا أصل له في لغة القرآن (١) .

ولا يتوقف الاهتمام برعاية المريض اجتماعيًا على المؤسسات الطبية فقط ، بل دعى الإسلام إلى مساهمة الأفراد في توفير الرعاية للمريض وجعل عيادة المريض سنة وحق من حقوق المسلم على أخيه المسلم ، وقد حث الإسلام على الاهتمام بهذا الحق والقيام به حتى يشعر المسلم عند مرضه بروح الأخوة من إخوانه تسري عنه وتخفف من الآمه وتعويضه ما حرمه من القوة والصحة ؛ مما يبعث فيه الأمل في اللَّه وفي رحمته وكرمه .

وتدل الأحاديث على أن عيادة المريض فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، ويلحق بعيادة المريض تعهده وتفقد أحواله والتلطف به وربما كان ذلك في العادة سببًا لعودة نشاطه وانتعاش قوته وسرعة شفائه .

عن أبي هريرة ﷺ أن الرسول ﷺ قال : « **حق المسلم على المسلم خمس ، رد السلام ، وعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وإجابة الدعوة ، وتشميت العاطس** » متفق عليه . وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **من عاد مريضًا أو زار أخًا له في اللَّه ناداه مناديان طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً** » رواه الترمذي .

وعن أبي موسى ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **عودوا المريض وأطعموا الجائع وفكوا العاني** » رواه البخاري .

ثانيًا : مجال رعاية طلاب العلم :

اهتم الإسلام بالعلم ودعى المسلمين إلى السعي الحثيث في طلب العلم ، كما أتاح الإسلام المناخ الفكري الحر الذي مكَّن طلاب العلم من البحث والدراسة والتقصي ، وأول آية من آيات الذكر الحكيم نزلت على الرسول – عليه الصلاة والسلام – كانت : ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق : ١] كذلك رفع اللَّه ﷻ من قدر العلماء ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ [المجادلة : ١١] .

كذلك حث على الاستزادة من العلم : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

---

(١) أمين سعد ، الطبقات الكبرى ، الجزء الثالث ، تبدن مطبعة مرسلة ، (ص ٣١١) .

كذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « **من يُرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدين** » متفق عليه . كذلك في حديث آخر عن أبي هريرة عن الرسول ﷺ قال : « **ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل اللَّه له طريقًا إلى الجنة** » رواه مسلم .

وعن أبي هريرة ﷺ أن الرسول – عليه الصلاة والسلام – قال : « **من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا** » رواه مسلم .

وعنه أيضًا قال رسول اللَّه ﷺ : « **إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له** » رواه مسلم .

وتنفيذًا لهذه التعاليم السامية ابتدع الإسلام خلال عصور طويلة نظامًا يشجع على التعليم والكتاتيب وظل هذا النظام متبعًا في مصر إلى عهد قريب (١) .

ولقد كان المسجد أعظم معاهد الثقافة لدراسة القرآن والحديث والفقه واللغة وغيرها من العلوم ، وأصبح كثير من المساجد مراكز مهمة للحركة العلمية ، وانصرف فقراء المسلمين لطلب العلم في المسجد النبوي الشريف حيث بنى الرسول ﷺ مكانًا مظللاً في شمال المسجد يأوى إليه فقراء المسلمين الذين حبسوا أنفسهم لطلب العلم (٢) .

وعمرت المساجد الإسلامية بجلسات العلم وحلقات الدرس ورتب الخلفاء الرواتب والأرزاق للعلماء وطلاب العلم (٣) .

وفي الأزهر كان الخلفاء والسلاطين والأمراء يشجعون الطلاب من وطنين وأجانب فيقدمون إليهم المأكل والمسكن وكل ما يوفر عليهم وسائل الراحة من غير أجر (٤) .

كذلك كانت تقدم الرعاية لطلاب العلم غير القادرين والمعتكفين ، فلقد أدرك خلفاء المسلمين الأوائل حاجة المعتكفين إلى هذا الانزواء فأنشأوا لهم مساكن ملحقة بالمسجد .

ولم يكن هذا النشاط هو الشكل الوحيد من الرعاية الاجتماعية للطلاب في الأندلس ، ولكن كان هناك نوعًا آخر من النشاط يربط بين الناحية العلمية والاجتماعية وهو نظام الرحلات ، فالرحلة سمة من سمات التعليم الإسلامي في العصور الوسطى

---

(١) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أي بمقر النهضة في الإسلام ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو زيده ، المجلد الثاني ، دار الكتاب العربي (ص ١٣٨) .

(٢) أحمد فؤاد الأهواني ، التربية في الإسلام ، دار المعارف ، (ص ٢٨) .

(٣) فتحية النبراوي ، مرجع سبق ذكره ، (ص ١٨١) .

(٤) المقريزي ، مرجع سبق ذكره ، الجزء الثاني ، (ص ٣٦٢) .

وتتخلص في قيام الطلاب بالانتقال من مكان إلى آخر بحثًا عن مزيد من العلوم ومن أفضل المعلمين المنتشرين في كافة البلاد العالم الإسلامي .

من ذلك نرى تعدد أنواع الرعاية الاجتماعية لطلاب العلم في بلاد العالم الإسلامي خلال التاريخ الإسلامي مثل توفير الحياة الكريمة الآمنة للطالب ، والحرص على توفير المأكل والمأوى والمشرب والملبس ، وإقامة الاحتفالات في المناسبات الدينية والعلمية ، وإيجاد جو من العلاقة الاجتماعية العلمية بين الطلاب والمدرسين ، وتنظيم الرحلات الاجتماعية العلمية مما يعبر عن شكلٍ راقٍ من أشكال الرعاية الاجتماعية للطلاب .

ثالثًا : مجال رعاية الفئات الخاصة :

أ – رعاية المسجونين :

المعروف في اللغة أن السجن هو الحبس وقد روي عن أبي هريرة أن الرسول عليه الصلاة والسلام حبس في تهمة ، والحبس معناه تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه ، وليس حجزه في مكان ضيق ، وكان هذا الحبس الشرعي يتم في أول الأمر في بيت أو مسجد على أن يقوم الخصم أو وكيله بملازمة الشخص المحتجز ، ولهذا أسماه النبي ﷺ أسيرًا ، واستمر الأمر على ذلك في عهد الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ ؛ إذ لم يكن هناك محبس بعد لحبس الخصوم ، ولكن حدث عندما اتسعت الدولة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ وكثرت الرعية أن ظهرت الحاجة إلى مبنى قائم بذاته يستخدم سجنًا ، يحتجز فيه من يراد حبسه ولهذا الغرض ابتاع الخليفة من صفوان ابن أمية دارًا بمكة بأربعة آلاف درهم ، ولم يلبث أن تطور الأمر في عهد الخليفة معاوية ابن أبي سفيان ، عندما ازداد خصوم الدولة وتعددت مشاكلها حتى قيل أنه أول من وضع السجن بمعناه المعروف وخصص الحراس لحراسة المسجونين [١] .

ولقد عنى الإسلام برعاية السجين بتوفير الحياة الكريمة له داخل السجن وعدم التطرف في إيذائه ، وانقسمت السجون في العصور الإسلامية الأولى إلى صنفين رئيسيين هما :

أولًا : سجون الحقوق الدينية ويحبس فيها المحكومون بالديون المالية والتجارية ونحوها .

ثانيًا : سجون الحقوق الجزائية ويحبس فيها المحكومون بجرائم الاعتداء على الأبدان والأعراض ونحوها .

---

(١) سعيد عاشور وآخرون : مرجع سبق ذكره ، (ص ٣٠٩) .

ولكل صنف من أصحاب المسجونين معاملة خاصة تتناسب مع نوع حبس ، ولقد حرصت الشريعة على أن يمنع أصحاب الجرائم غير المتجانسة من الاختلاط ببعضهم مخافة انتقال العدوى .

كما حرص الإسلام على رعاية المسجونين صحيًّا ومعاملة تتناسب مع ظروفهم وحالهم ، فالمروي عن النبي ﷺ أنه حبس ثمامة في المسجد وكان عليلًا ، فقال لأصحابه : « **أحسنوا أساره** » ، كما أوكل إلى بعض أصحابه القيام على حفظ امرأتين حبلتين من الزنا حتى تضعا حملهما ، وكذلك كان علي بن أبي طالب ﷺ يتفقد السجون ويشاهد من فيها من المسجونين ويفحص أحوالهم ، كذلك فإن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عماله يقول : « انظروا من في السجون وتعهدوا المرضى » [١] .

ولقد كان اهتمام المسلمين بصحة السجناء الشخصية ونظافة سجونهم وحرصهم على معالجة المرضى في السجون من الأمور الشائعة ، كذلك أُفرِدَ الأطباء لعلاجهم وتم تخصيص الأموال للإنفاق على الأدوية والعلاج وغير ذلك من الاحتياجات الطبية والصحية [٢] .

وإذا كان الإسلام قد شجع على الاستفادة من جهود المساجين في التعليم حتى لا يكونوا فريسة للجهل ، فإنه شجعهم أيضًا على ذلك طاقاتهم في تعليم غيرهم وجعل ذلك سبيلًا إلى إنقاص مدة حبسهم والإفراج عنهم ، روى أن ناسًا من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء فجعل الرسول عليه الصلاة والسلام لهم فداءهم أن يعلموا عشرة من أولاد المسلمين الكتابة ففعلوا فكان من تعليم منهم زيد بن ثابت [٣] .

ولم يتوقف التعليم بالسجون على الكتابة والقراءة فقط ، بل تعدى ذلك إلى تعليم المسجونين الحرف والصناعات مما يحتاجها أهل البلد وليس من ذلك تشغيل السجين في الأمور التافهة الخشنة احتقار له وإهانة لشخصه ، لقد اهتم المسلمون بتشغيل السجناء وبخاصة في عصور الحضارة الذهبية أيام العباسيين فكان المحبوسون يكلفون بالعمل في السجون لصنع السلال ونسج التكك وغيرها من الأعمال الخفيفة التي تحتاج إلى حذق وخبرة وأناة ، ويعتبر هذا المبدأ أساس تأخذ به المؤسسات العقابية المعاصرة حيث يتم فيها

---

(١) أنور الرفاعي : الإسلام في حضارته ونظمه ، دار الفكر ، دمشق ، (١٩٧٣م) ، (ص ١٥٢) .

(٢) حسن أبوغدة ، أحكام السجن ومعاملة السجناء في الإسلام ، الطبعة الأولى ، مكتبة المنار ، الكويت ، (١٩٨٧م) ، (ص ٣٧٧) .

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، الطبعة الثانية ، بيروت (١٩٧٧م) ، (ص ٣٥٦) .

تعلم السجين حرفة تؤمن له دخلًا بعد خروجه من الحبس حيث تعود أثمان السلع لحساب السجناء لا لحساب الدولة [١] .

ومن الأمور التي تميزت بها الرعاية الاجتماعية للمساجين في الإسلام التأكيد على العلاقات الأسرية وذلك بتمكين السجين من وطء زوجته في السجن إذا كان فيه موضع لا يطلع عليه أحد ولا يمنع وتحقيق الخلوة الشرعية ، واستدلوا على ذلك بأنه غير ممنوع من قضاء شهوة البطن وكذلك شهوة الفرج ؛ إذ لا موجب لسقوط حقه في الوطء ؛ فالوطء من الحقوق الزوجية المشتركة والمقاصد الشرعية المعتبرة فضلًا عما في السماح به للسجين من المحافظة على صحته البدنية والنفسية بل أن منعه من ذلك قد يدفعه إلى الاستمناء أو الشذوذ الجنسي وهما من المحرمات .

علاوة على ذلك هناك صور متعددة لدعم العلاقات الاجتماعية في السجن مثل :

أ – إتاحة الفرصة للسجناء للاتصال بعضهم ببعض .

ب – حبس الأقارب مع بعضهم فلا يفرق في السجن بين الأقارب كالأخوين .

جـ – التقاء الزوجين المحبوسين ببعضهما .

د – مساعدة المحبوس على توثيق صلته بأهله عن طريق إتاحة الفرصة لأقاربه وأصدقائه لزيارته .

هـ – إتاحة الفرصة للمحبوس بمراسلة أهله واطلاعه على وسائل الإعلام .

و – خروج السجين لعيادة قريبه المريض وحضور جنازته .

ومن الأمور التي أعط منها الرعاية الاجتماعية للسجين أهمية كبيرة إعداد السجين للخروج من السجن ؛ وذلك لرفع الروح المعنوية للسجين قبل الإفراج عنه بتوجيهه إلى النظر إلى المستقبل وإلى الحياة الجديدة وذلك عن طريق الدعاء له وتبشيره بالمغفرة والرحمة استدلالًا بنهى الرسول ﷺ أصحابه عن سب المعاقب وقوله لهم : « **قولوا : اللَّهم اغفر له اللَّهم ارحمه** » ، ولا يتوقف الأمر عند ذلك بل على الإسلام بمساعدة السجين على بدء حياة جديدة من خلال مساعدته عند خروجه من السجن عن طريق إعطائه كسوة ونفقة وإعانة على الوصول إلى أهله إن كان محتاجًا إلى جميع ذلك مما يساعد المفرج عنه على

---

(١) أحمد مجدوب ، معالم الأصالة في النظام العقابي الإسلامي ، مقال منشور في مجلة الوعي الإسلامي ، عدد يونيو (١٩٨٤م) ، (ص ٣١) .

الشعور باهتمام المجتمع به واكتسابه ثقة في نفسه ، الأمر الذي يؤدي إلى سرعة اندماجه في الحياة العامة للمجتمع ولنا في تصرف الرسول - عليه الصلاة والسلام - مع ابنة حاتم عندما أفرج عنها من الحبس وأمر لها بكساء وأعطاها نفقة وأمر لها بظهر يحملها إلى أهلها .

وقد ذكر الفقهاء أنه يندب تسلية المحبوس ومواساته وتهنئته بخروجه من الحبس ، وإذا كان كذلك فبذل المال له مواساة ، وتشغيله مواساة ، ورعايته اجتماعيًّا مواساة ، والكف عن ذكر ماضيه الإجرامي مواساة [١] .

ب - رعاية المرضى المعاقين (المجانين) :

الأصل في الإنسان اتصافه بكمال الأهلية بأنواعها المختلفة سواء ما كان منها أهلية تكليف أو استحقاق أو وجوب أو أداء .. إلخ ، غير أن حكمة اللَّه تعالى ورحمته بعباده اقتضت اختلاف النظرة إلى بعض الفئات فإما أن يكون الموقف منها هو الإعفاء المطلق من المسؤولية وهو ما نجده بالنسبة للأمراض العقلية التي تفقد التحكم الإرادي بصعوبة دائمة أو منقطع ، وفي ذلك يقول الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « **رفع القلم عن ثلاث : منها المجنون حتى يفيق** » ، أما بالتخفيف من المسؤولية وإيجاد الرخصة المبيحة أو المسقطة في بعض الأمور التي تجب على الآخرين تأصل التكلف وهو ما نجده في بقية المعوقين كل بحسب العائق ومداه ، وكل من هذا الإعفاء وذلك التخفيف مبعثه الرحمة لا الحرمان وعدم الاعتبار [٢] .

ولقد حرم الإسلام كل ما يخل بتكريم الإنسان الذي جعله اللَّه مكرمًا في آدميته وكان ذلك في النص القرآني صريحًا ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ ﴾ [الحجرات : ١١] وحرم الإسلام الشماتة والسخرية من هؤلاء الأفراد بل دعى إلى التعاون معهم والاهتمام بأمورهم .

جـ - رعاية المسنين :

أوجب الإسلام ضرورة رعاية المسنين والاهتمام بهم ، وفي ذلك الشأن يقول اللَّه ﷻ : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ

---

(١) حسن أبو غدة ، مرجع سبق ذكره ، (ص ٥٨٨) .

(٢) عبد الستار أبوغدة : رعاية المعوقين في الإسلام ، مقال منشور في مجلة المسلم المعاصر العدد (٣٤) ، جمادى الأخرة (١٤٠٣هـ) مصدرها ، مؤسسة المسلم المعاصر ، بيروت (ص ١١٤) .

كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٣ ، ٣٤] ، كذلك دعا الرسول الكريم إلى العناية والاهتمام بكبار السن حيث تعددت الأحاديث التي تدعو إلى الاهتمام برعاية المسنين وبذل الوقت والجهد لمساعدتهم ، فلقد روى الترمذي عن أنس ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **ما أكرم شاب شيخًا لسنه إلا قيض اللَّه (أي قدر) له من يكرمه في سنه** » كذلك روى أبو داود والترمذي عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ قال : قال ﷺ : « **ليس منَّا من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا** » وروى أبو داود عن أبي موسى ﷺ قال : قال رسول ﷺ : « **إن من إجلال اللَّه تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط** » .

وجعل الإسلام رعاية كبار السن خاصة الوالدين تعادل الجهاد في سبيل اللَّه ، فعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص ﷺ قال : أقبل رجل إلى نبي اللَّه ﷺ فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من اللَّه تعالى ، فقال : « **فهَل من والديك أحد حي ؟** » قال : نعم بل كلاهما . قال : « **فتبغي الأجر من اللَّه تعالى ؟** » قال : نعم . قال : « **فارجع إلى والديك وأحسن صحبتهما** » متفق عليه .

ولقد أكد الإسلام على إنزال كبار السن المنازل اللائقة بهم في كل الأمور ، فقد روى أبو داود عن ميمون بن أبي شبيب رحمه اللَّه ، أن عائشة رضي اللَّه عنها مرَّ بها سائل فأعطته كِسرة (قطعة) خبز ومرَّ بها رجل عليه ثياب وهيئة فأقعدته فأكل ، فقيل لها في ذلك ، فقالت : قال رسول اللَّه ﷺ : « **أنزلوا الناس منازلهم** » ، وفي رواية « أمرني رسول اللَّه ﷺ أن ننزل الناس منازلهم » .

ومن رعاية الإسلام للمسنين الأخذ برأيهم ومشورتهم في الأمور المهمة وتقديمهم في المجالس والبدء بهم في الضيافة وتقديمهم في صلاة الجماعة وفي التحدث إلى الناس وفي التعامل . والتأكيد على عدم الاستخفاف بهم خاصة من الصغار ، فلقد روي عن أبي أمامة عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « **ثلاث لا يستخف بهم إلا منافق ؛ الشيبة في الإسلام ، وذو العلم ، وإمام مقسط** » .

ومعرفة حق المتقدمين في السن ورعايتهم كان موضع التنفيذ في المجتمع الإسلامي الأول حكامًا وأفرادًا وجماعات للمسلم وغير المسلم على السواء ويخدمونهم ويلتزمون برعايتهم والأخذ بأيديهم ولا يحوجونهم إلى العمل .

ولقد كان الحكام والولاة يفرضون للعجزة من المسنين رواتب من بيت المال إذا لم يكن هناك من ينفق عليهم فلقد أمر عمر بن الخطاب ﷺ للشيخ اليهودي من بيت المال ما يكفيه ويسد حاجته حينما رأى أن ذلك الشيخ لا يستطيع العمل وليس له من يتكفل به ، ولقد سبق ذلك قيام عمر بن الخطاب بفرض رواتب للشيوخ المسلمين .

وقد جاء في كتاب خالد بن الوليد إلى أهل الحيرة وجعلت لهم أيما شيخ ضعيف عن العمل إذا أصابته آفة من الآفات ؛ إذ كان غنيًا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام [١] .

وهذه الرعاية تعبر ولا شك عن روعة الإسلام في تقريره مسؤولية الدولة والمجتمع نحو هذه الفئة من الناس .

رابعًا : الرعاية الاجتماعية للعمال :

العمل من أهم ما حث عليه الإسلام واعتبره من أهم وسائل الكسب ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة : ١٠] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إن اللَّه يحب العبد المحترف ويكره العبد الباطل** » ودعى إلى السعي والكد حيث يقول – عليه الصلاة والسلام – : « **لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها ، فيكف اللَّه بها وجهه ، خير له من أن يسأل الناس ، أعطوه أو منعوه** » رواه البخاري .

وحث الإسلام على العمل والكسب يعني أنه لا يريد من الناس أن يكونوا عالة متعطلين يسألون الناس أعطوهم أو منعوهم ، وهو الذي يجعل اليد العليا خير من اليد السفلى ، ويعتبر أن الإنسان إذا احترف السؤال زاده اللَّه فقرًا حيث يقول عليه الصلاة والسلام : « **وما فتح عبد باب مسألة إلا زاده اللَّه بها فقرًا** » رواه البخاري .

كذلك روى ابن الجوزي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه لقي قومًا لا يعملون فقال : « ما أنتم ؟ قالوا : متوكلون . فقال : كذبتم . إنما المتوكل رجل ألقى حبه في الأرض ، ثم توكل على اللَّه » ، كما نهى الفقراء أن يقعدوا عن العمل اتكالًا على الصدقات فكان يقول فيه قولته : « يا معشر الفقراء استبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالًا على المسلمين » [٢] .

---

(١) يعقوب بن إبراهيم يوسف ، مرجع سبق ذكره ، (ص ١٤٤) .

(٢) عبد اللَّه ناصح علوان ، تربية الأولاد في الإسلام ، دار السلام للطباعة والنشر ، ط . ٣ ، (١٩٨١م) ، (١٣٢/١) .

لقد أدرك الإسلام منذ البداية أن مشكلة الفقر لن يحلها الإحسان الفردي ولن تتداركها الإجراءات الإصلاحية التي تستهدف تسكين الآلام أو تخفيف الحرمان ، بل لا بد من حلٍّ جذري ومن هنا كانت نقطة البداية في الاقتصاد الإسلامي في البحث على العمل وإتقانه وزيادة الإنتاج ورفع التنمية الاقتصادية إلى مرتبة العبادة ، ثم يأتي ما تقرره الدولة عن مؤسسة الزكاة وذلك إذا لم تمكنه ظروفه الخاصة من مرض أو شيخوخة أو تعطل عن العمل [١] .

ولقد شملت رعاية الإسلام للعمال نواحٍ متعددة فبعد أن أكدت على أهمية العمل والسعي على اكتساب الحلال وكراهية السؤال اهتم الإسلام بحماية العامل وإعطائه الأجر المناسب لعمله والذي يكافئ جهده الذي يبذل ، قال تعالى : ﴿ **وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ** ﴾ [الأعراف : ٨٥] كما طلب ألا يرهق العامل بالعمل حيث يقول اللَّه تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

وقال الرسول – عليه الصلاة والسلام – : « **ولا تكلفوهم ما لا يطيقون** » رواه مسلم .

كما دعا الرسول – عليه الصلاة والسلام – إلى حماية العامل وراحته ويؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام : « **إن لنفسك عليك حقًّا** » رواه البخاري .

كذلك اهتم الإسلام برعاية الظروف المعيشية للعامل وتوفير الظروف الملائمة له حيث نرى الرسول – عليه الصلاة والسلام – يقول : « **ومن ولى لنا عملًا وليس له منزل فليتخذ منزلًا أو ليس له زوجة فليتزوج أو ليس له دابة فليتخذ دابة** » وذلك لتحقيق كفاية العامل واستقراره ، وليس معنى ذلك إلزام صاحب العمل بتوفير كل هذه الأمور للعامل ولكن يجب على الدولة أن تضمن للعامل هذا الحق إذا كان أجر العامل لا يكفيه ولا تتوقف الرعاية الاجتماعية للعامل على وجوده على قيد الحياة فقط ، بل تمتد هذه الرعاية لتشمل أسرته بعد وفاته إذا كان العامل قد توفى ترك أسرة ليس لها مورد أو دخل حيث يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « **من ترك مالًا فلورثته ومن ترك ضياعًا (أي ورثه لا مال لهم) أو كَلًّا (أي ذرية ضعيفة) . فليأتني فأنا مولاه** » رواه البخاري . فهي رعاية تشمل العامل حال حياته وصحته وعند شيخوخته ، فهي تضمن التأمين على العامل في الضعف والعجز والشيخوخة وعند الوفاة وترك الورثة الفقراء .

---

(١) أحمد شوقي الفنجري ، الإسلام والضمان الاجتماعي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثالثة ، (١٩٩٠م) ، (ص ٤١) .

الأمر الذي يدل ليس فقط على الاهتمام بصحة العامل وعلاجه حتى يشفى ، بل ومتابعة علاجه فتقدم العون المالي الذي يمكنه من النقاهة وعدم اللجوء إلى العمل مباشرة بعد خروجه من المستشفى مما قد يؤدي إلى انتكاسته وعودة المرض إليه ثانيًا .

ولقد راعى الإسلام العامل وحماه من جشع صاحب العمل ، فقد قال رسول اللَّه ﷺ : « **إياكم والقسامة** » ، قالوا : وما القسامة ؟ قال : « **الرجل يكون على طائفة من الناس فيأخذ من حظ هذا وحظ هذا** » كذلك حماية العامل من مماطلة أصحاب العمل في دفع الأجور ففي الحديث : « **مطل الغني ظلم** » رواه الشيخان .

ومن أشكال الرعاية الإسلامية للعمال مساعدة الشباب والفتيات على الزواج إذا كانت ظروفهم المادية ضعيفة فلقد أوقفت الأوقاف الإسلامية لمساعدة الشباب والفتيات على الزواج من خلال منسجهما الإعانة المناسبة سواء كانت مالية أو عينية ، والتقاليد الإسلامية تدعو إلى هذا منذ القدم ، ومن الأوقاف الإسلامية ما هو محبوس على تجهيز الفتيات من القدرة لأهليهن على تجهيزهن [١] .

وكان عمر بن عبد العزيز في كل يوم ينادي ؛ أين الفارقون ؟ أين الناكحون ؟ أين المساكين ؟ أين اليتامى ؟ حتى أغنى كلًّا من هؤلاء .

ولذلك يمكن القول بأن عمر كان يعتبر الحاجة إلى الزواج في صف حاجة المدين المضطر المحتاج إلى أداء دينه وفي صف حاجة المسكين وحاجة اليتيم إن لم يكن يقدم عليهما [٢] ، الأمر الذي يدل على مدى الاهتمام برعاية العمال بعامة والشباب بخاصة والحرص على توفير سبل الحياة الكريمة الشريفة لهم بما لا يؤدي إلى الانحراف .

* * *

(١) ابن بطوطة ، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، الجزء الأول ، دار التحرير ، القاهرة ، (ص ٦٠) .

(٢) لبيب العبد ، دراسة إسلامية في العمل والعمال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (١٩٨٥م) ، (ص ٦٧، ٦٨) .

الخدمة الاجتماعية وبناء النماذج
دليل الملاحظة كنموذج
للتعرف على شخصية الطفل المسلم

أ .د. زين العابدين محمد

مقدمة

إن بناء الشخصية الإسلامية وخاصة في البداية أي في مرحلة الطفولة ليس مسألة – كما يتوقع البعض – وليدة الواقع ومسيرة البيئة وخاصة ونحن في زمان اختلطت فيه الثقافات والديانات واهتز في الكيان الإنساني تقوى اللَّه ، دون أن تكون هناك أدوات ووسائل تساعد على تحقيق هذه الشخصية بل وترسي القواعد والأسس الإسلامية في جنباتها من مرحلة الطفولة حتى مرحلة الكهولة .

ولقد تعددت الوسائل الإسلامية لتحقيق ذلك سواء أكان ذلك عن طريق القدوة أو الملاحظة أو الموعظة أو العقاب أو هم معًا جميعًا ، يشكل تكامل يحقق بناء الكيان الإسلامي في الطفل منذ بداية حياته .

وتعتبر الملاحظة إحدى الوسائل الأساسية للتنشئة الاجتماعية للطفل تنشئة إسلامية إيمانية ، بل من أهم الوسائل التي تساعدنا على التعرف على المدى الذي وصلت إليه الشخصية من إيمان وما تحتاجه إليه وما الذي يمكن أن نفعله لها ، وهذا ما دفعنا أن نستلهم التراث الإسلامي في الكتاب والسنة لكي نقيم على أسس ومنه أحد الأساليب ألا وهو أسلوب الملاحظة ، مقتنعين أن الكتاب فيه كل شيء وفقًا لقول اللَّه تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل : ٨٩] محاول تكوين وإقامة دليل للملاحظة يمكن استخدامه كنموذج وكمقياس التعرف على شخصية الطفل المسلم ووضع إطار تصوري لدور الأخصائي الاجتماعي يوضح متى وكيف وأين ولماذا يستخدم هذا الدليل في مجال الطفولة .

أولًا : الخدمة الاجتماعية الإسلامية والملاحظة

تعتبر الخدمة الاجتماعية الإسلامية هي طوق النجاة ، الذي يمكن من خلاله وفي

تصوري أن نحدد الشكل والمضمون السليم لعملنا كأخصائيين اجتماعيين ، وليس في هذا خلط كما يقول البعض بين الأعمال المهنية والدين .

فالدين الإسلامي كدين للمعاملة ، قد حدد كلَّ الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بين البشر أجمع ، ويكفي أن نقرر في الجانب الاجتماعي أن الإسلام نظام التكامل الاجتماعي الذي لو عمل به لحققنا حياة سعيدة ليس لمجتمعنا ولكن للبشرية جمعاء ... وقد وضع أسس ووسائل يمكن من خلالها تحقيق كل أهداف الغاية الإسلامية ومن بينها وسيلة الملاحظة .

١ - الملاحظة :

تعريف الملاحظة :

تعرف الملاحظة بأنها : « رصد مركز للوقائع بهدف معرفتها بشكل أفضل » [١] .

وهناك نوعان من الملاحظة ، الأولى الملاحظة الحسية ، والثانية الملاحظة العلمية فالملاحظة الحسية هي سابقة على العلم يقوم بها الملاحظ دون تحضير سابق ، ودون خطة محددة ، ولكن يقوده في ملاحظاته فقط الحدس والخيال .

أما الملاحظة العلمية ، فهي ملاحظة منظمة سبق الإعداد لها وهي منظمة تسعى إلى كشف ورصد كافة أبعاد الظاهرة محل الدراسة [٢] .

لذا كلما كانت الأبعاد والجوانب لهذه الظاهرة محددة ، كلما أحاط الباحث نفسه بأكبر قدر ممكن من الضمانات ليطمئن إلى صدق النتائج التي يتوصل إليها . وهذا ما سوف نتبعه ، حيث نجعل الملاحظة ملاحظة علمية وفق برنامج محدد هو دليل يسمى دليل للملاحظة كنموذج محدد ، يوضح أبعاد الشخصية الإسلامية للطفل ، يمكن أن يعطي نتائج أكثر تحديدًا ووضوحًا وأكثر فاعلية .

أهمية الملاحظة :

يمكن تحديدها في الآتي :

أ – أنها أسلوب يكشف لها عن كلمات الإنسان (وخاصة العميل) المسموعة وغير

---

(١) ج . ل . لوبيه ميل ، مقدمة في مناهج بحث العلوم الاجتماعية ، عرض علا مصطفى أنور ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، (سنة ١٩٨٥م) ، (ص ٦) .

(٢) المرجع السابق ، (ص ٦) .

المسموعة ، وما وراء هذه الكلمات من معانٍ وما يختفي خلف هذه المعاني من دلالات ، بل وما وراء السلوك من أحاسيس [١] .

ب – هناك اتفاق عام حولها بأنها من أهم الأسس الفنية والعملية التي تفيد كلًّ من الأخصائيين الاجتماعيين والباحثين والمهنيين في التعرف على حقائق ومعلومات لها أهمية خاصة يريدون معرفتها .

جـ – لا يمكن للباحث أو للمهني أو للمربي أو للمعلم أن يلاحظ بطريقة عرضية أو ارتجالية ، طالما أردنا أن نتحرك ونعمل بأسلوب علمي ، وإنما لا بد وأن يعرف أيًّا منهما ، وبالتحديد ما الذي يركز انتباهه عليه وكيف يسجل ما يراه وما يسمعه وما يحسه بدقة تامة [٢] . وهذا هو ما تعرف به الملاحظة .

د– تتميز الملاحظة عن غيرها من الأسس الفنية وأدوات جمع البيانات بأنها تستخدم لجمع بيانات تتصل بسلوك الأفراد الفعلي ، وكذلك يستخدمها الباحث في دراساته الكشفية والوضعية والتجريبية [٣] .

هـ – على الرغم من قيام المتخصصين والمهنيين باستخدام هذا الأسلوب الفني المهاري في المجالات المهنية المتنوعة ، إلا أن استخدامه هنا له أهميته حيث أنه يتم بناء تحضيراته النظرية وفق الأسس والقواعد الإسلامية الواضحة والمحددة تحديدًا دقيقًا وفق المنهج الرباني وإطاره يستخدم كدليل يسمى دليل الملاحظة وكنموذج من خلاله يتم التعرف على شخصية الطفل المسلم كما رسمها الإسلام في كلٍّ من الكتاب والسنة .

٢ - الخدمة الاجتماعية والملاحظة :

تعتبر الملاحظة أحد الأساليب الفنية الأساسية للخدمة الاجتماعية بصفة عامة ولخدمة الفرد والجماعة بصفة خاصة ، حيث يعتمد عليها الأخصائيون الاجتماعيون في التعرف على سلوك الأفراد والجماعات والمجتمعات ، ومن خلالها يتم تحديد سلوكهم وتحديد أبعاد السلوك ومداه وقربه أو بعده من السلوك السوي أو اللا سوي ومن السلوك

---

(١) عبد الفتاح عثمان ، خدمة الفرد بالمجتمع المعاصر القاهرة ، الأنجلو المصرية ، (جـ ٣) سنة (١٩٧٣م) ، (ص ٢٤٥) .

(٢) ديوبولدن . ن فان دالين ، مناهج البحث الاجتماعي في التربية وعلم النفس ، ترجمة محمد نبيل نوفل وآخرون ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، بدون تاريخ (د.ت) (ص ٤٩١) .

(٣) Selltiz , G, et . Sl.Reseorch Methods in Social Relation , Henrs Holt, (1961) , P (404) .

الإيجابي أو السلبي ... ومن ثَمَّ التعرف على السلوك الذي يحتاج إلى تدعيم والسلوك الذي يحتاج إلى تعديل .

وإذا كنت أرى أن الخدمة الاجتماعية هي « عملية إحداث تغيير اجتماعي مقصود للأفراد والجماعات والمجتمعات ، حتى يمكنهم القيام بمسؤولياتهم على أكمل وجه ممكن » [١] .

وأن عملية التغيير الحادثة والتي يحب أن يقوم بها الأخصائي الاجتماعي لم تأت من فراغ ولكن جاءت نتيجة لملاحظة الأخصائي الاجتماعي بأنهم لا يقومون بمسؤولياتهم على أكمل وجه ممكن ... لذلك نجد أن الأخصائي يستخدم حواسه المختلفة وخاصة حاسة البصر بشكل مقصود وإرادي لخدمة أغراض عمله وعميله من خلال المقابلات المهنية والأنشطة الفعلية ... وفيها يحاول الأخصائي توظيف حواسه كالسمع والبصر واللمس والشم والتذوق ، حتى يمكن أن يقيم ملاحظاته ويقيمها ويفسر ما تعرفت عليه هذه الحواس ، وكلما كان هناك نموذج للملاحظة واضح محدد لموضوع معين ، كلما كانت ملاحظاته أكثر إفادة وقيمة .

ولما كان من الأهمية عند القيام بعملية الملاحظة التفرقة بين التعبير الصادق والمصطنع وبين الواقع والخيال وبين السلوك الفعلي والمستتر وخاصة ونحن نلحظ أوجه التناقض والاختلاف بين القول والفعل ، وبين اتجاه الفرد وسلوكه ، لذلك سوف نعتمد على السلوك الفعلي في رصدنا للوقائع المختلفة المتمثلة في الأسس والقواعد الإسلامية في إطار واحد محدد للتعرف على شخصية العميل الطفل الذي يتعامل معه الأخصائي الاجتماعي في دليل يسمى دليل الملاحظة .

ولما كانت الخدمة الاجتماعية ، وهي تتعامل مع الأفراد لا تنظر إلى زاوية واحدة من الشخصية ، بل تنظر إلى جميع الزوايا والجوانب المختلفة من الشخصية وترى أبعادها وتفاعلها مع الجوانب الأخرى في البنيان الشخصي وعند مواجهتها للواقع أو تفعلها معه ؛ لذلك يكون استخدام الأخصائي الاجتماعي لأسلوب الملاحظة بغرض التعرف على كلٍّ من :

١ - الجوانب المختلفة من الشخصية ، الجسمية والعقلية والنفسية والاجتماعية .

٢ - حقيقة التفاعل بين الجوانب المختلفة من الشخصية .

٣ - الشخصية ككيان كلي تفاعلي .

---

(١) عبد الفتاح عثمان ، مقدمة في الخدمة الاجتماعية ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، (١٩٧٩م) ، (ص ١٧٩) .

٤ – اقتراب هذا الكيان الكلي من الشخصية .

٥ – اقتراب الشخصية من الكيان الاجتماعي الإسلامي .

الإسلام وأسلوب الملاحظة :

تعتبر الملاحظة أحد الأساليب في الإسلام ، حيث أكدت عليها النصوص الدينية سواء في الكتاب أو السنة ، وقد جاء هذا التأكيد إما بشكل واضح مباشر أو بشكل استنباطي غير مباشر أي يمكن استنباطه من معنى الكلام ؛ لنقف كباحثين لنتعرف عليه ، حتى يمكننا استخدامه ، كما استخدمه المسلمون الأوائل في بناء الإنسان المسلم أو في التنشئة الاجتماعية للطفل أو في تعديل سلوكه أو في توجيه للصراط المستقيم ... ولقد مدّنا الإسلام بالعديد من الآيات والأحاديث التي يمكن أن توجهنا إلى استخدام أسلوب الملاحظة ، للتعرف على شخصية الطفل المسلم ، وكيفية التعامل معه وكذلك قد حددت لنا الأعمار التي نحاسبها على عدم اتباعها الأسس والقواعد الإسلامية .

حيث نجد اللَّه ﷻ يقول : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه : ١٣٢] وهذا يعني أن الراعي عليه أن يأمر أهله بالصلاة ولا يتم ذلك إلا إذا لاحظهم بأنهم لم يصلوا ، وكذلك اصطبر عليهم ، تعني أنه على الراعي أن يصطبر عليهم وهو يلاحظهم حتى يتأكد من أنهم يصلون ، أو لا يصلون حتى يواجههم . كما قال رسول اللَّه عليه الصلاة والسلام : « **علموا الصبي الصلاة لسبع سنين واضربوه عليها ابن عشر سنين** » [(١)] .

وكيف يضربه والده على الصلاة ابن عشر سنين إلا إذا لاحظ أنه لا يصلي ولذا أرشدنا الإسلام إلى استخدام أسلوب الملاحظة حتى نرى حدود اللَّه تنفذ وأن القائم بها لا يقيمها بشكل سليم .

كما أن أسلوب الملاحظة في الإسلام لم يقتصر على جانب واحد ألا وهو الجانب الديني الإيماني من الشخصية والسلوك ، بل تعداه ليشمل جميع الجوانب الأخرى سواء في الشخصية الإسلامية أو في السلوك المجتمعي ، حتى يكون أساسًا للإصلاح الشامل في الكيان الإسلامي الفردي والجماعي ، الديني والدنيوي ، ومن ثَمَّ في كيان الأمة الإسلامية جمعاء .

لذلك سوف نأخذ اتجاه الإسلام في ملاحظته لجوانب شخصية الطفل البالغ من العمر ما بين سن السابعة والرابعة عشر وبصفة خاصة من ١٠ – ١٤ سنة أو من عشر

(١) فتح الباري ، (٥٠٣/١) .

سنوات حتى قبل البلوغ أي أن الطفل في المرحلة الإعدادية حيث نرى أن هذا الطفل قد أمره اللَّه باتباع قواعده طالما وصل إلى مرحلة التمييز والأمر ، وهي المرحلة التي يأمر الإسلام باتباع وتنفيذ حدود اللَّه فيها ، وفيها نجد أن حدود الإسلام تشتمل على كل جوانب الشخصية وليس جنبًا واحدًا منها ، **وهذه الجوانب هي :**

١ - ملاحظة التكوين الجسمي و الصحي .

٢ - ملاحظة الإعداد النفسي الانفعالي .

٣ - ملاحظة الإعداد الاجتماعي التعاملي .

٤ - ملاحظة التكوين العقلي المعرفي .

٥ - ملاحظة الإعداد الإيماني الأخلاقي .

وفي كل جانب من الجوانب السابقة نجد أن الإسلام قد أشار بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر على كيفية الإعداد والتكوين والتعديل والتغيير في هذه الجوانب مستخدمًا أسلوب الملاحظة فيه ومحددًا المرحلة العمرية له ...

ويتضح ذلك من خلال النصوص الدينية في الآيات والأحاديث على النحو التالي :

١ - ملاحظة التكوين الجسمي والصحي :

حيث ركز على ذلك من خلال العديد من القواعد الصحية في كل من المأكل والمشرب والمنام .

* ما رواه البخاري ومسلم عن عمر بن أبي سلمة ﵄ قال : كنت غلامًا في حجر رسول اللَّه ﷺ (أي تحت نظره) ، وكانت يدي تطيش (تتحرك) في الصحفة (في وعاء الطعام) ، فقال لي رسول اللَّه ﷺ : « **يا غلام سمِّ اللَّه ، وكل بيمينك وكل مما يليك** » [١] .

* حين رأى عليه الصلاة والسلام من يشرب الماء شربًا واحدًا كشرب البعير (الجمل) ، فقال لهم - كما روى الترمذي : « **لا تشربوا شربًا واحدًا كشرب البعير ولكن اشربوا مثنى وثلاث ، وسموا إذا أنتم شربتم ، واحمدوا إذا أنتم رفعتم** » [٢] .

---

(١) الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي ، رياض الصالحين ، القاهرة ، دار التراث (ط ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) ، (ص ٢٧٤ ، ٢٧٥) .

(٢) النووي الدمشقي ، المرجع السابق (ص ٢٨٢) .

* روى الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « **ما ملأ آدمي وعاءً شرًّا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا بد فاعلًا ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه** » ومن هديه صلوات اللَّه وسلامه عليه في الشراب ، والشرب مثنى وثلاث ... والنهي عن التنفس في الإناء والشرب قائمًا [١] .

* روى مسلم في صحيحه عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « **المؤمن القوي خير وأحب إلى اللَّه من المؤمن الضعيف** » .

* روي مسلم في صحيحه أن رسول اللَّه ﷺ قال : قول اللَّه تعالى : « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ، ثم قال : **ألا أن القوة الرمي ، ألا أن القوة الرمي ، ألا أن القوة الرمي** » .

* وقد كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الولاة ما يلي : « أما بعد فعلِّموا أولادكم الرماية والسباحة وركوب الخيل » .

* وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **ارموا واركبوا وإن ترموا خير من أن تركبوا** » . وكذلك تعويد الطفل على ممارسة الرياضة لتقوية الجانب الحركي وألعاب الفروسية تحقيقًا لقول اللَّه تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، وكذلك ما رواه البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ كان يمر على أصحاب في الرمي فيشجعهم ويقول لهم : « **ارموا وأنا معكم كلكم** » [٢] ، كما روى الإمام أحمد وابن نعيم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعًا : « إياكم والتنعم فإن عباد اللَّه ليسوا بالمتنعمين » [٣] .

٢ – الإعداد النفسي الانفعالي :

مسؤولية التنشئة الاجتماعية الإسلامية تتحدد في خلق شخصية الطفل ، شخصية تتميز بالالتزام والهدوء ، وتتحرك بالإقدام والجرأة ، والصراحة والشجاعة ، والشعور بالكمال والكرامة [٤] .

وبالتالي أتت التنشئة الإسلامية وتوجيهاتها لكي تضع ركائز أساسية حتى تكون

---

(١) فتح الباري ، (٤٣٨/٩) .
(٢) صحيح البخاري .
(٣) فتح الباري (ص ٩٧) .
(٤) عبد اللَّه ناصح علوان ، تربية الأولاد في الإسلام الجزء الأول والثاني – بيروت – دار الطباعة للنشر والتوزيع (١٤٠١هـ – ١٩٨١م) .

الشخصية متزنة منذ البداية أي في مراحل تكوينها الأولى وتبعد الاهتزاز عن الكيان الإنساني كله على أساس إيماني سليم ... حيث قال اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٣] من هذا المنطلق نجد أن التحرك نحو تنشئة الأولاد على حياة الاتزان والالتزام بالصلاة والتقوى هي البداية الحقيقية للإعداد النفسي السليم للطفل المسلم .

٣ – ملاحظة الإعداد الاجتماعي التعاملي :

يعتبر إعداد الإنسان المسلم في جانبه الاجتماعي هو جوهر الإسلام ؛ نظرًا لأن الإسلام هو دين معاملة في المقام الأول تحريكًا وتشريعًا وتيسيرًا لأمور المسلمين ، ولم يترك الإسلام تعاملًا إلا وقد وضع له كيانًا وحدودًا ونصوصًا وحسن معاملة .

وقد حدد الإسلام أسلوب التعامل الاجتماعي في الجوانب الآتية :

– **التقوى** : وتتحدد في عدم المساس بكرامة الناس أو الإضرار بهم .

– **الأخوة** : وهي معاملة المسلمين بعضهم لبعض كأخوة وهي واضحة في قول اللَّه تعالى : ﴿ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٣] وكذلك سورة [الحجرات : ١٠] ، [القصص : ٣٥] .

– كما تأكدت هذه المعاني ، فيما أخرجه البخاري ومسلم : « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه** » (١) .

– **الرحمة** : وهي تعني الرأفة في التعامل مع الآخرين ، وقد أكد الرسول عليه الصلاة والسلام مثل هذه المعاني من خلال ما رواه الترمذي وأبو داود وغيرهما عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « **لا تنزع الرحمة إلا من شقي** » .

– **الإيثار** : وهو إحساس اجتماعي يترتب عليه تفضيل الإنسان غيره على نفسه في الخيرات والمصالح الشخصية النافعة ، وأكد اللَّه ﷻ في قوله : ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠] .

– **العفو** : وهو يعني التسامح والتنازل عن الحق مهما كان المبتدي ظالماً وجائرًا بشرط أن يكون المعتدي قادرًا على الانتقام ، حيث أوضح ذلك العلي القدير بقوله :

(١) صحيح البخاري (٧٣/١) .

﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٣٧] . وكذلك ما جاء في سورة [الفرقان : ٦٣] ، [آل عمران : ١٣٢] ، [فصلت : ٣٤] .

٤ – التكوين العقلي المعرفي :

إن الاهتمام بهذا الجانب ، ودفع الأسرة والمؤسسات التعليمية للطفل لكي يتعلم وينمي قدراته العقلية له من الأهمية حتى نصل من خلاله إلى نضج العقول وإظهار العبقريات ، ونجد أن هذا الجانب كان له التكوين الأول فنزلت الآيات الأولى تدل على ذلك دلالةً لا جدال فيها حيث قال اللَّه تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ – ٥] ، وقد أُكدت هذه المعاني وغيرها في هذا الجانب في كل من سورة [الزمر : ٩] ، [طه : ١١٤] ، [المجادلة : ١١] ، [القلم : ١ ، ٢] وغيرها .

إن مسؤولية الاهتمام بالجانب الفكري والتعليمي يجب أن تبدأ من الصغر ، ويجب أن تكون إجبارية وهي تعتبر أمانة كبرى في عنق الآباء والمربيين والمعلمين منذ نعومة أظافر الطفل ، إلى أن يصل إلى سن الرشد يبدأ هو – الإنسان – بتحمل مسؤوليته نحو ذلك ويستكمل جوانب حياته العلمية ؛ لأن الاهتمام بهذا الجانب يبدأ منذ البداية يتركيز أذهان الأطفال على الفهم المستوعب والمعرفة المجردة والإدراك الناضج الصحيح ، والمسؤولية هنا يجب أن توجه نحو ارتباط الطفل منذ بداية حياته بالإسلام ووعيه به دينًا ودولةً ، وبالقرآن الكريم نظامًا وتشريعًا ، وبالتاريخ الإسلامي عزًّا ومجدًا ، وبالثقافة الإسلامية العامة روحًا وفكرًا ، والارتباط الحركي بالدعوة الإسلامية اندفاعًا وممارسةً [١] .

٥ – ملاحظة الجانب العقائدي (الإيماني) :

وهي ملاحظة ارتباط الطفل المسلم باللَّه ربًّا ، وبمحمدٍ رسولًا ونبيًّا وبالإسلام دينًا وروحًا : وذلك من خلال :

* ملاحظة الجانب الروحي ... والذي يلاحظ من خلال ذكر اللَّه تعالى في بداية كل عمل أو عند تأدية أي حاجة ، وذكر رسول اللَّه ﷺ عند سماعه اسمه والثناء عليه ، وتعامله بروح القرآن وآياته قراءة وتلاوةً وحفظًا وشكرًا للَّه وحمده له عند نجاحه في عمله أو إتمام عمله أو تأدية حاجته .

* ملاحظة الجانب الخاص من العبادة وتطبيقها ... والذي نلاحظ فيه سلوك الطفل

(١) عبد اللَّه علوان ، مرجع سبق ذكره (ص ٢٥٩) .

عند تأديته للعبادة من صلاة وصوم وذهاب إلى مجالس العبادة والعلم والفقه للتعبد والتفقه في الدين وأحكام العبادات .

* وملاحظة تأديته الأدعية المأثورة بما يتناسب مع سنه ... وهي في المجالات العديدة وفي بداية كل حاجة ونهايتها ، ففي الصباح والمساء وعند النوم وعند الاستيقاظ ، وعند الشرب والشبع ودخول البيت والخروج منه في السفر ، وكذلك المطر والتعرض للأخطار والمهالك ، وكذلك عند الأرق أو المرض أو الخوف .

* وملاحظة الجانب الخاص بالأخلاق ... والمرتبط بالصدق في القول والعمل . وكذلك الإخلاص والوفاء وحفظ الأمانة وتأديتها ، وحفظ اللسان وعفته من أي سباب أو شتائم أو ألفاظ قبيحة .

وقد قمت بتجسيد الأحاديث والآيات القرآنية وتحويلها إلى سلوك في محاولة لملاحظته في الدليل الهادف إلى التعرف على شخصية الطفل المسلم .

ثانيًا : دليل الملاحظة (كنموذج)

يمكن القول أن دليل الملاحظة (كنموذج) يعد إطارًا من الأسس والقواعد الإسلامية التي من خلالها يتم التعرف على شخصية الطفل المسلم ، حيث أرى أن الملاحظة تفيد بعد تقنيتها وتحديد الأبعاد الأساسية التي يجب أن تلاحظ أو التي يمكن وضعها في نطاق الملاحظة والقياس ... في التعرف على شخصية الطفل المسلم ... مما يساعدنا ويمكننا من السيطرة على هذه الأبعاد وتحديدها وكذلك توجيهها وفق الأسس والقواعد الإسلامية في حالة عدم تواجدها أو تواجدها بشكل غير إسلامي .

ولقد قمت بتحليل العناصر الأساسية للشخصية في ضوء التراث الإسلامي ... متمثلة في سلوك الطفل في محاولة لتحديده وملاحظته ومن ثَمَّ تفسيره ، ومعرفة قبله أو بعده من السلوك الإسلامي في هذه المرحلة ، وكانت هذه المحاولات بهدف :

- مراعاة الدقة في الملاحظة والتسجيل والقياس .

- ضرورة التحكم في الظروف التي يمكن أن تؤثر في عملية الملاحظة وخاصة في عنصرها البشري المتمثل في الملاحظ ... مما يساعد بقدر الإمكان على تجنب أي نوع من أنواع التحيز الشخصي في التقدير .

- تحديد الأبعاد والجوانب التي تخضع للملاحظة حتى نرى مقدار ما يتكشف لنا

من ملاحظات بناء على تجانس بناء الأبعاد الفرعية في كل جانب أي تجانس الملاحظات وتركيزها في جوانب وأبعاد متقاربة ومتلاصقة .

– الوصول إلى الموضوعية ... اعتمدت على تحليل المصادر المعرفية الإسلامية في تصوره لأبعاده الشخصية ، مركزًا على الاستعانة بالأحاديث المحمدية كقواعد وأسس مع الآيات القرآنية كإطار عام ، ونحن كمسلمين لا نستطيع أن نشك لحظة في الأسس الإسلامية وقواعدها ، حيث إنها تحدد لنا الأطر التي يجب أن نتحرك من خلالها والسلوك الذي يجب أن نفعله وكذلك لا نستطيع أن نشك في علميتها ، وسلامة قيمه .

– كما أن القيام بإجراء الملاحظة يعني أننا يجب أن نحدد ما هو الشيء الذي يجب أن نلاحظه ونتعرف على أبعاده ونحدده بدقة ووضوح وموضوعية ونخرج من خلال ذلك بإطار محدد لظاهرة أو موضوع أو كيان اجتماعي أو شخصية بوضوح للملاحظة ... وهنا نحدد شخصية الطفل في الإطار الإسلامي أو شخصية الطفل المسلم .

١ - الهدف من النموذج :

يتحدد هدف النموذج (الدليل) في المقام الأول في توجيه الأخصائي الاجتماعي الذي يعمل في مجال الطفولة للتعرف على سلوك الطفل وتصرفاته وأفعاله والتي يمكن من خلالها فهم أبعاد هذا التكوين الشخصي للطفل ، ومداه وقربه أو بعده عن شخصية الطفل المسلم ، كما جاء في الكتاب والسنة .

أما بالنسبة للأهداف العملية الأخرى ... يمكن تحديدها في الآتي :

– إن إقامة هذا الدليل يعبِّر عن محاولة تأصيل مجال من أهم مجالات العمل المهني ألا وهو مجال الطفولة ، في المصادر المعرفية الإسلامية .

– إنه يحدد لنا أبعاد شخصية الطفل المسلم وجوانبها وبتطبيقه يعرفنا مدى قرب شخصية الطفل من الشخصية الإسلامية أو بُعده عنها .

– يساعدنا بتحديد الأبعاد الإسلامية الناقصة في شخصية طفلنا المسلم على العمل على معالجة هذا النقص أو جوانب الانحراف ، قبل أن تتوغل فيه فتحدث خللًا في الكيان الإنساني الشخصي للطفل المسلم . وحتى لا تضيع كل الأبعاد في زماننا هذا .

– كما أن استخدام هذا النموذج لأطفال مدرسة أو مؤسسة يوضح لنا إلى أي مدى ترتبط هذه المدرسة أو المؤسسة بمناخها وبيئتها التي تحتويها مع الإطار الإسلامي ، وهذا

ما نتعرف عليه من خلال قُرب وبُعد الأطفال في كلٍّ منهم من هذا الدليل .

– كما أن استخدام هذا الدليل لأطفال بيئة معينة ، يوجهنا إلى علاج البيئة كلها في الجوانب الناقصة أو المنحرفة بدلًا من العمل على التعامل الفردي مع كل طفل على حدة .

– كما يمكن استخدام عناصر هذا النموذج وأبعاده في تنشئة الأطفال تنشئة اجتماعية سليمة وخاصة للأطفال الذكور .

وهذا النموذج وهذه الأهداف من وراء استخدامه توجهنا نحو الاهتمام بشخصية الطفل المسلم ، وكذلك إلى الاهتمام بالبيئة الأسرية أو المدرسية أو المؤسسة التي تكوِّن هذه الشخصية ، حيث يعتمد تكوينها على هذه البيئة .

وكذلك يبين لنا استخدامه إلى أن دور الإخاء يتعدى تعامله مع الطفل وكذلك مع الأسرة والمدرسة والمؤسسة ، إلى التعامل في بعض الأحيان – وإن كان في تصوري في الكثير من الأحيان – مع البيئة كلها وخاصة لو استخدم التعامل مع البيئة المحلية يكون التأثير أقوى .

٢ - بناء الدليل (النموذج) :

في اعتقادي أنه على الرغم من وجود مقومات الشخصية الإنسانية كاملة الأبعاد ، متكاملة الجوانب في الإسلام ، منذ نشأتها وكذلك في مرحلة طفولتها وشبابها ورجولتها ، كأحد الأطر في الدليل والذي أخذنا منها موضوع شخصية الطفل المسلم ، بناءً على القواعد والأسس الإسلامية في الكتاب والسنة ، ووجود الأبنية الأساسية لهذه الشخصية في أبعادها الجسمية والنفسية والعقلية والاجتماعية والإيمانية في نطاق العقيدة والعبادة والمعاملة والسلوك والأخلاق والفكر والمعرفة ، ومن ثَمَّ المطلوب عند بناء الدليل من وجهة نظري أن على وسائلنا المهنية وأساليبها أو آلياتنا المهنية العمل على التأصل لبناء نسيج اجتماعي إنساني على أسس إسلامية وقواعد إيمانية ، وكذلك العمل على تأصيل كيفية التفاعل والانسجام والتلاحم والانصهار مع الكيان الإسلامي في عقيدته وأسسه وقواعده .

وعلى الرغم من اعتقادي بأن تكامل بناء الشخصية في الإسلام في مراحلها المتعددة ، قد حددها اللَّه ﷻ في قوله : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ ﴾ [البقرة : ١٣٨] إلا أنه يبقى المطلوب منَّا هو محاولة تشكيل الكيان المهني في ضوء الأصول الإسلامية ، كما يبقى علينا أيضًا أن نحاول تفريغ الشكل المهني من المواريث الفكرية المنقولة أو المنظورة والتي يجب أن يتم تمحيصها وتنقيتها من الأصول غير الإسلامية ، والتي يمكن

بوجودها أن تشكل عائقًا بل عوائق تقودنا إلى انهيار المجتمع الإسلامي ، إذا لم نتمكن من وضع المواريث في موقعها المناسب الصحيح الذي يتماشى مع الإسلام .

ولبناء دليل الملاحظة « كنموذج » لنتعرف على شخصية الطفل المسلم .. فقد اتبع الباحث عددًا من الخطوات المتتابعة ، **سوف نقوم باستعراضها على النحو التالي :**

– تحديد الموضوع الرئيسي ، الذي يتم على أساسه بناء هذا الدليل ، ألا وهو ملاحظة شخصية الطفل المسلم .. بل والتأكد من قابلية النصوص والقواعد والأسس المحددة للملاحظة ، باعتبارها سلوك يعبِّر عن كيان شخصية الطفل المسلم .

– تم تحديد المرحلة العمرية التي من خلالها يتم تحديد الأبعاد الأساسية للشخصية ، وقد تم تحديد العمر من عشر سنوات حتى الرابعة عشر وهي المرحلة التي يكون أوامر الدين بدأت تنفذ ونجدها في سلوك الطفل قبل البلوغ .

– على ضوء ذلك ، قام الباحث باستعراض الإطار المعرفي الإسلامي في أسسه وقواعده وأحكامه .

– تم تحديد الأبعاد الأساسية للشخصية في الجوانب الجسمية والنفسية والعقلية والاجتماعية والإيمانية العقائدية ، وقد تم تحديد العبارات الخاصة والدالة في كل جانب من الجوانب السابقة بناء ، على دراسة موضوع الشخصية في الإسلام في مرحلة الطفولة ، وفي العمر المحدد ، وعلى الأسس والقواعد الإسلامية التي يجب أن تكون في سلوك الطفل في هذه المرحلة العمرية ، وقد تحقق من ذلك الصدق الموضوعي للنموذج .

– تم عرض هذا النموذج – بعد صياغة عباراته ، والتحقق من الصدق الموضوعي بالرجوع إلى العديد من المراجع الإسلامية – على هيئة من المحكّمين من أعضاء هيئة التدريس بكلية الخدمة الاجتماعية – عشرة من أعضاء هيئة التدريس – حتى يمكن أن أحقق الصدق الظاهري لهذا النموذج أيضًا ، وقد تم الاسترشاد بآرائهم وخاصة في صياغة بعض العبارات أو حذف بعض العبارات .

– قام الباحث بمراعاة مجموعة من الاعتبارات في وضع الصورة النهائية للنموذج يمكن عرضها على النحو التالي :

أ – أن تكون الأبعاد الأساسية معبرةً عن أبعاد الشخصية الإسلامية .

ب – أن تكون التقسيمات الفرعية – داخل كل بُعد أساسي – شاملةً ومعبرةً عن البُعد الأساسي .

جـ – رُوعي في العبارات التعبير الدقيق الصادق – قدر الإمكان – عن الشيء وارتباطها بالبُعد ارتباطًا أساسيًّا ، كما أن محتواها لا يعبِّر إلا عن البُعد نفسه .

د – تم وضع بعض العبارات في بُعدها الأساسي ، على الرغم من وجودها في أكثر من بُعد وفي مقدمة بعض الأبعاد ؛ وذلك نظرًا لانتهائها إلى البُعد الذي وضعت فيه فمثلًا ؛ « **سم اللَّه ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك** » وضعت سمٌ اللَّه في البُعد الإيماني العقائدي وليس البعد الخاص مع القواعد الصحية المرتبطة بالجانب الجسمي . وهكذا .

هـ – قام الباحث بصياغة النموذج كمقياس في شكله النهائي ، ثم قام بوضع الأوزان على اعتبار أربع أوزان أساسية للملاحظة وهي دائمًا ، أحيانًا ، نادرًا ، لا .

نظام تصحيح النموذج (كمقياس) :

١ – يتم تصحيح النموذج بناءً على أربع مستويات متدرجة وهذه المستويات هي :

دائمًا	٣	ثلاث درجات
أحيانًا	٢	درجتان
نادرًا	١	درجة واحدة
لا		

* هناك بعض العبارات سالبة ، ويتم تصحيحها عكسيًّا ، أي أن : –

دائمًا	صفر	
أحيانًا	١	درجة وا حدة
نادرًا	٢	درجتان
لا	٣	ثلاث درجات

الأرقام السلبية :

٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٩٥ .

* **الأبعاد الأساسية للنموذج وتقسيماتها :**

ويمكن إيضاحها بهذا الشكل في الجدول الآتي :

م	الابعاد	عدد العبارات	الأبعاد الفرعية	أرقام العبارات	عدد العبارات الفرعية
١	الجسمي	٣٠	أ- القواعد الصحية الجسمية .	١ - ٢٢	٢٢
			ب - سلامة الجسم وقوته .	٢٣ - ٣٠	٨
٢	النفسي	٢٢	أ - الذات النفسية .	٣١ - ٣٥	٥
			ب - بعض الظواهر النفسية .	٣٦ - ٥٢	١٧
٣	العقلي	١٢	أ- اقباله على العلم وخاصة الديني .	٥٣ - ٥٨	٦
			ب - وعيه بالاسلام فكريًا .	٥٩ - ٦٤	٦
٤	الاجتماعي	٣٦	أ - تعاملاته الاجتماعية .	٦٥ - ٧١	٧
			ب - تفاعلاته الاجتماعية .	٧٢ - ٩٤	٣٢
			جـ - مشاعره مع الآخرين .	٩٥ - ١٠٠	٦
٥	الإيماني	١٧	أ - الجانب الروحي .	١٠١ - ١٠٤	٤
			ب - تطبيقه للعبادة .	١٠٥ - ١٠٩	٥
			جـ - الجانب الأخلاقي .	١١٠ - ١١٧	٨

* يتكون المقياس من ١١٧ عبارة ، تعبر عن شخصية الطفل المسلم ، ومدى اقترابه أو ابتعاده عن الأسس والقواعد الإسلامية في الكتاب والسنة ، وقد قسمت ووضعت في أبعاد تدل عليها ، وداخل كل بُعد ، أبعاده الفرعية الدالة عليه .

* ينبغي أن نوضح في هذا الشأن الدرجة النهائية على النموذج (المقياس) وهي التي يتم وضعها بناءً من ملاحظتنا للسلوك وتصرفات الطفل وفقًا للعبارات الموضوعة ، على أساس أن الدرجة الكلية للمقياس هي عبارة عن عدد العبارات × الدرجة الكبرى للعبارة الواحدة .... أي

= ١١٧ × ٣ = ٣٥١ .

أي أن لو استكملت ملاحظتنا تمامًا لشخصية الطفل ورصدنا التزامه التام بالنهج الإسلامي يحصل على ٣٥١ درجة ، وهي تعبر عن الدرجة النهائية ، إلا أن حسابنا للدرجة الكلية لملاحظتنا وفقًا للقياس ... تحسب على النحو التالي :

الدرجة الكلية : = درجة ملاحظة الأبعاد / الدرجة النهائية للمقياس = ... ٪

أو الدرجة الكلية : = درجة ملاحظة الأبعاد / ٣٥١ = ... ٪

كما يمكن حساب كل بعد فرعي على حدة من خلال عباراته ، ونعطي مثالًا لذلك :

الدرجة الكلية للبعد الجسمي : = درجة ملاحظة البعد الجسمي / الدرجة النهائية للبعد = ... ٪

الدرجة الكلية للبعد الجسمي : = درجة ملاحظة البعد الجسمي / ٣ × ٣٠ = ... ٪

وهكذا يمكن حساب كل الأبعاد الفرعية بل الجوانب الفرعية للأبعاد .

* نود أن نشير إلى أن هناك أبعادًا جزئيةً في بعض الأبعاد الفرعية بالنموذج يمكن توضيحها على النحو التالي :

- ففي البُعد الجسمي وفي بُعده الفرعي أو الخاص بالقواعد الصحية الجسمية ، نجد أنها قسمت إلى ثلاثة أجزاء ، الأول خاص بالمأكل (١ - ١٤) ، والثاني خاص بالمشرب من (١٥ - ١٨) ، والثالث خاص بالنوم من (١٩ - ٢٢) .

- وفي البُعد النفسي وفي بُعده الفرعي والخاص ببعض الظواهر النفسية ، نجد أنه يقسم إلى أربعة أجزاء وهي خاصة بكل من :

ظاهرة الخجل من (٣٦ - ٤٠) .

وظاهرة الخوف من (٤١ - ٤٣) .

وظاهرة النقص من (٤٤ - ٤٩) .

obeikandl.com

وظاهرة الغضب من (٥٠ - ٥٢) .

وهذا التوضيح بغرض سهولة استخدام بعض جوانب المقياس الفرعية بصفة خاصة .

وسوف نقوم بعرض النموذج بأبعاده الأساسية والفرعية على النحو التالي :

دليل الملاحظة (كنموذج) (*) للتعرف على شخصية الطفل المسلم :

أولًا	ملاحظات خاصة بالجانب الجسمي	يلاحظ			
		دائمًا	أحيانًا	نادرًا	لا
أ	**ملاحظات خاصة باتباعه القواعد الصحية الجسمية :**				
١	يغسل يده قبل الأكل .				
٢	يأكل بهدوء .				
٣	يأكل مما يليه (أي من الطعام الذي أمامه مباشرة) .				
٤	لا يسبق غيره في تناول الطعام .				
٥	يتناول الطعام بيمينه .				
٦	يمضغ الطعام جيدًا .				
٧	لا يأكل متكئًا .				
٨	لا يأكل أكثر من حاجته .				
٩	لا يأكل الفاكهة وهي فجة .				
١٠	لا يأكل الخضار قبل غسله .				
١١	لا يعيب على طعام يقدم إليه .				
١٢	لا يستهزأ بالنعمة .				
١٣	يتحدث على الطعام (فهو شيء مستحب) .				

(*) لقياس مدى اتباع الطفل الأسس والقواعد الإسلامية .

obeikandl.com

أولًا	ملاحظات خاصة بالجانب الجسمي :	يلاحظ			
		دائمًا	أحيانًا	نادرًا	لا
١٤	يغسل يده بعد الأكل .				
١٥	يشرب بهدوء .				
١٦	يشرب مثنى وثلاث (في المرة الواحدة) .				
١٧	لا يتنفس في الاناء .				
١٨	لا يشرب فوق حاجته .				
١٩	ينام على الجانب الأيمن .				
٢٠	ينام مبكرًا .				
٢١	يستيقظ من النوم مبكرًا .				
٢٢	لا ينام بعد الأكل مباشرة .				
	ب – ملاحظات خاصة بسلامة الجسم وقوته :				
٢٣	يحرص على ممارسة الرياضة .				
٢٤	يمارس حياة الجد .				
٢٥	يمارس أنشطة التسلق والقفز والجري				
٢٦	يمارس الرماية .				
٢٧	يمارس ألعاب الفروسية أو ركوب الخيل .				
٢٨	يمارس السباحة .				
٢٩	لا يدخن .				
٣٠	لا يتناول المسكرات أو المخدرات .				
ثانيًا ملاحظات خاصة بالجانب النفسي :					
	أ – ملاحظات خاصة بالذات النفسية :				
٣١	يثق في نفسه .				
٣٢	يحترم نفسه .				
٣٣	يشعر بحاجته للنجاح .				
٣٤	يعتمد على نفسه في القيام بواجباته .				

obeikandl.com

٣٥	لا يقبل الفشل ويصر على النجاح .				
	ب – ملاحظات خاصة ببعض الظواهر النفسية :				
٣٦	ينكمش على نفسه (ولا يتفاعل مع أقرانه) .				
٣٧	ينطوي على نفسه (ولا يرغب في التعامل مع الآخرين) .				
٣٨	يبتعد عن مواجهة الناس .				
٣٩	لا يرغب في الدخول في علاقات حتى مع أقرانه .				
٤٠	لا يبدي رأيه أمام الناس .				
٤١	يشعر بالجبن من أي شيء .				
٤٢	يتردد في اتخاذ قرار بنفسه .				
٤٣	يهرب من تحمل المسؤولية .				
٤٤	يتردد في اتخاذ قرار بنفسه .				
٤٥	يقبل قرار أقرانه دون مناقشة .				
٤٦	لا يشارك أقرانه في المناقشة .				
٤٧	يكثر من التحدث عن نفسه .				
٤٨	يلفت الانظار إليه بأي وسيلة .				
٤٩	ليس له صاحب .				
٥٠	يغضب لأتفه الأسباب .				
٥١	يثور بما لا يتناسب مع المواقف .				
٥٢	لا يملك زمام نفسه عندما يغضب مع زملائة .				
ثالثًا ملاحظات خاصة بالجانب العقلي :					
	أ – ملاحظات خاصة بإقباله على العلم وخاصة العلم الديني :				
٥٣	يحفظ القرآن .				

obeikandl.com

٥٤	يتعلم أحكام العبادات .				
٥٥	يقرأ الكتب الدينية .				
٥٦	يحفظ الأحاديث الدينية .				
٥٧	يتعلم تفسير الأحاديث الدينية .				
٥٨	يقدم بجراءة على العلم وخاصة العلم الديني .				
	ب – ملاحظة وعيه بالإسلام فكريًا :				
٥٩	يستشهد بالآيات القرآنية عند حديثه مع زملائة .				
٦٠	يستشهد بالآحاديث النبوية مع زملائه .				
٦١	يلجأ إليه زملاؤه لتفسير بعض الأحاديث الدينية .				
٦٢	يحتكم إليه زملاؤه في بعض المواقف الدينية .				
٦٣	يستشهد بالتاريخ الإسلامي في بعض المواقف .				
٦٤	يسرد قصص الرسول والأنبياء .				
ملاحظات خاصة بالجانب الإجتماعي :					
	أ – ملاحظات خاصة بتعاملاته الاجتماعية :				
٦٥	يحسن معاملة والديه ، أو من يقوم مقامهما .				
٦٦	يحسن معاملة ذوي الأرحام .				
٦٧	يحسن معاملة جاره .				
٦٨	يحسن معاملة معلمه ، (يحترمه ويوقره) .				
٦٩	يحسن اختيار الرفيق والجليس الصالح .				
٧٠	يحترم الأكبر سنا ويوقره .				

obeikandl.com

٧١	يطي الأكبر سنًا .				
	ب – ملاحظات خاصة بتفاعلاته				
	الاجتماعية :				
٧٢	يلقي السلام .				
٧٣	يرد على التحية بأحسن منها .				
٧٤	يحسن أداب المجلس ؛ من حيث :				
٧٥	يصافح من يلتقي به من بني جنسه .				
٧٦	يجلس في المكان الذي يخصص له .				
٧٧	لا يجلس بين اثنين إلا بعد استأذانهما .				
	يستأذن قبل انصرافه من المجلس .				
٧٨	يراعي أداب الحديث عند التحدث مع الآخرين .				
٧٩	يتحدث باللغة العربية الفصحى (لأنها لغة القرآن) .				
٨٠	يتمهل في الكلام أثناء الحديث .				
٨١	يخاطب الآخرين على قدر الفهم .				
٨٢	يصغي إلى المتحدث .				
٨٣	يقبل كمتحدث على الجلساء جميعًا .				
٨٤	بسيط في حديثه .				
٨٥	مهذب في سؤاله .				
٨٦	يحسن الوصول لما يريده في رقة وأدب .				
٨٧	يمسح أثار الخطأ في حديثه إذا صدر منه .				
٨٨	يحسن الاعتذار للآخرين .				
	يراعي أداب المزاح :				
٨٩	حسن المزاح .				
	لا يكذب في مزاحه .				
٩٠	لا يجادل في مزاحه (حتى وإن كان صادقًا) .				

obeikandl.com

٩١	يحسن تهنئة الناس ببشاشة وسرور .				
٩٢	يقدم على زيارة المريض بحب وتعاطف .				
٩٣	يحمد اللَّه عند العطاس والتثاؤب .				
٩٤	يرد على الأخرين عند العطاس ؛ يرحمكم اللَّه .				
	جـ – ملاحظات خاصة بمشاعره النبيلة مع الأخرين :				
٩٥	ليس أنانيًّ في تعامله مع الآخرين .				
٩٦	يحب للأخرين كما يحب لنفسه .				
٩٧	يعامل الآخرين بحب ورفق ومودة .				
	يتقبل القضاء والقدر .				
٩٨	لا يحزن إذا مرض .				
٩٩	لا يغضب إذا انفعل عليه أحد .				
١٠٠	لا يعترض عند وفاة أحد والديه ، أو عزيز عليه .				
رابعًا ملاحظات خاصة بالجانب العقائدي الإيماني :					
١٠١	يذكر اسم اللَّه في بداية أي عمل أو تأدية أي حاجة (*) .				
١٠٢	يصلي على الرسول عند ذكر اسمه .				
١٠٣	لا يتحدث عند سماعه القرآن يُتلى .				
١٠٤	يحمد اللَّه عند قضائه حاجة أو الإنتهاء من عمل .				
	ب – ملاحظات خاصة بجانب تطبيقه للعبادة :				
١٠٥	يؤدي الصلاة بانتظام في أوقاتها .				
أ – ملاحظات خاصة بالجانب الروحي الإيماني :					
١٠٦	يصوم في شهر رمضان .				

(*) قبل الأكل والشرب والنوم أو المذاكرة .

obeikandl.com

١٠٧	يذهب إلى مجالس العبادة .				
١٠٨	يذهب إلى مجالس العلم والفقه .				
١٠٩	يؤدي الأدعية (*) .				
	جـ – ملاحظات خاصة بالجانب الأخلاقي :				
١١٠	لا يكذب في أقواله .				
١١١	لا يخلف في وعوده .				
١١٢	يؤدي الامانه إلى أصحابها .				
١١٣	لا يسرق (ولو كانت أشياء تافهة) .				
١١٤	لا يتلفظ بالسباب .				
١١٥	لا يتفوه بالشتائم .				
١١٦	يحترم من هم أكبر منه .				
١١٧	يعطف على من هم أصغر منه .				

ثالثًا : إطار تصوري لدور الأخصائي الاجتماعي في استخدامه لدليل الملاحظة كنموذج ومقياس

تعتبر الملاحظة من أهم المهارات الأساسية التي يجب أن يتميز بها الأخصائي الاجتماعي في عمله ؛ حيث إن مهارة الأخصائي الاجتماعي فيها تُحدد في الشفافية الحسية في التعرف على سمات شخصية العميل ؛ بصرف النظر عن نوع العميل ، وسنه ومشكلته أو حاجته ، ومحاولة استنباط العلاقات بحسه المهني بما يمكنه من تحقيق عملية المساعدة بأحسن صورة ممكنة .

من هذا المنطلق يتوقع الكثير من المهنيين ، وربما الأخصائيين الاجتماعيين أن أسلوب الملاحظة بما فيه من مهارة يستخدمها الأخصائي الاجتماعي لا يستخدمه إلا لفهم أبعاد الشخصية وعلاقاتها بالموقف الإشكالي ، وغالبًا ما تكون هذه الأبعاد قد رسمتها علوم النفس والاجتماع ... إلا أنه يجب أن تتنبه الأذهان أن استخدام أسلوب الملاحظة يختلف باختلاف الاتجاه الذي يتحرك به الأخصائي الاجتماعي وكذلك بالشيء

(*) مثل الدعاء عند النوم والإستيقاظ والإفطار وفي حالة الأرق والحزن والهم والسفر .

obeikandl.com

الملاحظ ؛ ولذلك سوف نوضح هذا الدور من خلال ارتباطه بمجموعة من المتغيرات الأساسية التي تحركنا في استخدام أسلوب الملاحظة وبالتالي دليل الملاحظة .

ويمكن لنا استعراض هذه المتغيرات بما فيها من تصور للأدوار على النحو التالي :

١ – ارتباط دور الأخصائي الاجتماعي بمبادئ أساسية :

لكي يتحرك الأخصائي الاجتماعي في عمله ويقوم بدوره ، لا بد أن يلتزم بمبادئ أساسية ، اتفقت عليها غالبية كتب الخدمة الاجتماعية دون شك أو تناقض بينهم ، ودون تفضيل إحداهما على الآخر ، وهذه المبادئ هي الالتزام الديني في المقام الأول ، ثم الالتزام الأخلاقي ، ثم الالتزام المجتمعي . وفي تصوري أن الالتزام الأخلاقي ما هو إلا ترجمة عملية للالتزام الديني إلا أن توضيحه والتركيز عليه هو عبارة عن الاعتراف بالكيان الاجتماعي وما أنتجه من نسيج أخلاقي ... وأن الالتزام المجتمعي لا بد وأن يضع الدين في مقامه الحقيقي .

ويعود التزام الأخصائي الاجتماعي بمبدأ الالتزام الديني إلى اعتبار أساسي ألا وهو إن فلسفة الوجود الإنساني من المنطلق العقائدي هي الإيمان باللَّه وتوحيده والعمل على تحقيق سننه على الأرض ؛ لأن الإنسان ما هو إلا خليفة اللَّه على الأرض . وعليه أن يقوم في حياته ملتزمًا بما أنزله اللَّه ، وبما يدعو إليه نبيه ، ونود الإشارة إلى أنه بدون أن ننادي به لا بد من تطبيق هذا المبدأ في عملنا مع جميع عملائنا وأفراد المجتمع ، إلا أن التأكيد عليه يعني أن هناك مؤثرات متعددة تدعونا إلى ذلك وهي :

أ – تزايد النزعات الفردية الذاتية – مغريات الوجود الإنساني – مما دفع بعض الناس ، بل الكثير منهم نحو الابتعاد عن الالتزام بالأسس والقواعد الدينية .

ب – تزايد جهل الناس بالنواحي الدينية ؛ وذلك نظرًا لانشغالهم بأمورهم الدنيوية وخاصة المادية وبالتالي تكوين النشأة بعيدًا عن الإطار الإسلامي .

جـ – تفسير بعض الناس لبعض الجوانب الدينية بطريقة خاطئة أو غير سليمة ؛ نظرًا لنقص الدعاة أو تزايد الناس ، أو عدم التركيز في الفهم ، أو عدم الرغبة في فهمها إلا بالشيء الذي يحقق بعض الأغراض الوقتية ، بما يجعل تنشئةً الطفل تنشئة مهزوزةً دينيًا أو مضطربةً في جانبها الديني .

٢ – ارتباط دور الأخصائي الاجتماعي بمجال الطفولة :

يعمل الأخصائي الاجتماعي في العديد من المجالات ومن بينها مجال الطفولة ،

وتوجد العديد من المشكلات في مجال الطفولة من بين هذه المشكلات اهتزاز الكيان الاجتماعي للطفل أو اهتزاز بنائه الشخصي نتيجة لتنشئته على أساس برامج وأساليب ومناهج وضعية وربما غربية ، زاد هذا الاهتزاز تداخل الثقافات الغربية بعرضها العديد من البرامج والأفلام ليست من قيمنا وديننا وإطارنا الثقافي وتنوع المدارس وخاصة للأطفال بمناهجها الغربية والتي ربما يكون فيها جانب علماني ؛ مما يخلق تناقضًا بين الوجود الاجتماعي الذي يعيشه الطفل في بيئته الاجتماعية وبين ما يتعلمه ، ويسمعه من البرامج المدرسية أو الإعلامية ... وهنا تضطرب شخصية الطفل ويدخل في العديد من المشكلات والانحرافات السلوكية ... ويتحرك الأخصائي الاجتماعي في عمله معه ... لذلك لا بد وأن يبدأ الأخصائي في معرفة إلى أي مدى تقترب هذه الشخصية من كيانها الطبيعي القيمي أي إلى أي مدى تقترب من شخصية الطفل المسلم ... وهنا يتحدد دور الأخصائي الاجتماعي في جانبين أساسيين :

– إما أن يساعد الأبوين على فهم كيفية تحقيق ملاحظتهم للتعرف على شخصية طفلهم .

– وإما أن يقوم أثناء تواجده في المدرسة بملء هذا الدليل أو النموذج ، وهنا يبدأ دور الأخصائي الاجتماعي في استخدام ملاحظته نحو العميل على التعرف على شخصية الطفل .

إلا أننا نوجه الأذهان إلى أن ملاحظات الأخصائي الاجتماعي في هذا الشأن كثيرة ... ويمكن له إقامة ملاحظاته وتسجيلها أولًا بأول وذلك من خلال :

أ – قيامه بنفسه أثناء تواجده مع الأطفال في الجماعات المختلفة بالمدرسة وخاصة في أنشطتها التي يمكن أن تستغرق ساعات أو أيام ؛ مثل الرحلات أو المعسكرات أو الأندية الصيفية حتى تكون مساعدته لأطفالنا مبنية على أساس إسلامي سليم من خلال ملاحظته والتعرف على الجوانب الناقصة في شخصيته .

ب – مساعدة الأبوين أو المعلمين عن طريق تعليمه (وهنا يقوم بدور الخبير) بملء دليل الملاحظة .

جـ – يمكن أن نستعين بأكثر من شخص يملأ دليل الملاحظة ، وإن كان هذا يمكن أن يعطي انعكاسًا خاطئًا لاختلاف الملاحظين ، ولذلك أرى أنه يمكن أن يملأ دليل الملاحظة وفق ملاحظاته ويستعين بالأبوين أو من يقوم مقامهما وبالمعلمين والمربيين ويقارن الملاحظات أو يأخذ متوسط درجة الملاحظة بين الملاحظين .

٣ – تنوع المؤسسات التي يعمل معها :

نجد أن هنالك العديد من المؤسسات التي يتاح فيها تعامل الأخصائي تعاملًا لصيقًا مع الأطفال لفترات طويلة ، وعلى سبيل المثال كما قلنا المدرسة إلا أن هنالك مؤسسات أكثر من بينها مؤسسات الأحداث ، والمؤسسات الخاصة باليتيم ، ولو أضفنا الأندية والساحات الشعبية لوجدنا أن الأخصائي الاجتماعي يقضي وقتًا طويلًا ملاحظًا لسلوك أعضاء هذه المؤسسات خاصةً مؤسسات الأحداث بالذات نظرًا لانحراف سلوكهم ، فهم بدرجة أو بأخرى بعيدين عن النهج الإسلامي ؛ لذلك لا بد وأن يحدد الأخصائي الاجتماعي إلى أي مدى يكون هذا البُعد من خلال تواجده المتلاصق بهؤلاء الأحداث وعلى ضوء ملاحظاته يكون قياسه لأبعاد الشخصية الإسلامية في الطفل ، ثم يبدأ في بناء برامجه العلاجية مستخدمًا أسلوب القدوة في علاج الكثير من جوانب الانحراف .

٤ – تنوع الأهداف التي يسعى لتحقيقها :

هناك العديد من الأهداف التي يسعى الأخصائي الاجتماعي لتحقيقها ومنها الأهداف العلاجية والوقائية والإنشائية ، ونجد أن دوره في الاستخدام لدليل الملاحظة كمقياس يساعد على قيامه بالدور الوقائي حتى لا تنحرف شخصية الطفل عن الشخصية الإسلامية ، إلا أنني أرى أن وجود الدليل مع الأخصائي الاجتماعي يمكن أن يقوم بأهدافه الإنشائية بناءً على برامج اجتماعية تتحرك في الكثير من البرامج المهنية ، وتتحرك أدوار الأخصائي الاجتماعي نحو :

أ – دفع الأفراد إلى اختيار برامج تلفزيونية لها الصبغة الدينية في الكثير من الأوقات .

ب – دفع أعضاء الجماعات المدرسية إلى اختيار رحلات فيها طابع إسلامي وفي حالة اختيارهم رحلات إلى مدن للترفيه ، يمكن أن يضع في البرنامج زيادة بعض المتاحف الإسلامية أو الآثار الإسلامية داخل برنامج الرحلة .

جـ – عند قيام جماعات المدرسة أو المؤسسات أو الأندية أو الساحات الشعبية بعمل حفلات لا بد وأن يوجههم الأخصائي إلى القيام بحفلات لها طابع إسلامي ويساعدهم على سرد القصص الإسلامية والسيرة النبوية وسيرة الأنبياء .

كما نود الإشارة إلى أن قيامه بدوره الإنشائي يمكن أن يتحدد بناء على استخدام الدليل لتحديد أي جانب يحتاجه إلى المساعدة نتيجة لبُعده أكثر عن الكيان والنهج الإسلامي ، مستثمرًا برامجه المتنوعة وأنشطته المختلفة وأدواره المتعددة في تحقيق أهدافه

العلاجية والوقائية والإنشائية .

من خلال هذه العملية البسيطة يتضح لنا أن استخدام الأخصائي الاجتماعي لهذا النموذج كمقياس يفيد ليس فقط لمرحلة الطفولة في مجالها المدرسي ولكن لمرحلة الطفولة في مجالات ومؤسسات متنوعة وبأهداف عديدة أهمها المحافظة على شخصية الطفل المسلم .

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

نحو مكنز إسلامي للخدمة الاجتماعية

أ. زينب عطية محمد

المستوى الأول

أولًا : النظرية .

ثانيًا : المنهج .

ثالثًا : التطبيق .

المستوى الثاني

أولًا : النظرية :

أ – سنن اللَّه في النفس والمجتمع .

ب – الضوابط الشرعية .

جـ – مقاصد الخدمة الاجتماعية .

د – موضوعات الخدمة الاجتماعية .

ثانيًا : المنهج :

أ – مبادئ الخدمة الاجتماعية .

ب – طرق وأساليب الخدمة الاجتماعية .

جـ – أدوات الخدمة الاجتماعية .

ثالثًا : التطبيق :

أ – الخدمة الاجتماعية كمهنة .

ب – مجالات الرعاية الاجتماعية .

obeikandl.com

المستوى الثالث

أولًا : النظرية :

أ – سنن اللَّه في الأنفس والمجتمع :

١ – سنن فطرية .

٢ – سنن ذات علاقة سببية .

ب – الضوابط الشرعية :

١ – عقيدة .

٢ – قيم أخلاقية .

٣ – أحكام تكليفية .

جـ – مقاصد الخدمة الاجتماعية :

١ – جانب وقائي : سد خلة المجتمع (التكافل الاجتماعي) ، سد ذرائع الفساد (الرعاية الاجتماعية) .

٢ – جانب علاجي : الإصلاح الاجتماعي (علاج المشكلات الاجتماعية) ، تفريج الكرب (علاج المشكلات الفردية) ، إغاثة الملهوفين (نجدة ضحايا الكوارث) .

٣ – جانب إنمائي : عمارة الوقت ، تزكية النفس (الارتقاء الأخلاقي) ، تهيئة الحياة الطيبة (الارتقاء الاجتماعي) .

د – موضوعات الخدمة الاجتماعية :

١ – الرعاية الاجتماعية .

٢ – التنمية الاجتماعية .

٣ – المشكلات الفردية الاجتماعية .

٤ – الإصلاح الاجتماعي .

ثانيًا : المنهج :

أ – مبادئ الخدمة الاجتماعية :

١ – الرفق في المعاملة (التقبل) .

obeikandl.com

٢ – التدرج في تعديل السلوك .

٣ – مراعاة اختلاف البشر (الفروق الفردية) .

٤ – الستر والسرية .

٥ – المحاسبة والمراقبة (التقويم الذاتي) .

٦ – المجاهدة واستفراغ الوسع (المساعدة الذاتية).

٧ – التعاون والمشاركة الإيجابية .

٨ – لا ضرر ولا ضرار (المصلحة الشخصية في إطار المصلحة العامة).

ب – طرق وأساليب الخدمة الاجتماعية :

١ – العمل مع الأفراد .

٢ – العمل مع الجماعات .

٣ – تنمية المجتمع المحلي .

٤ –التخطيط والسياسة الاجتماعية .

٥ – الإدارة في الخدمة الاجتماعية .

٦ – البحوث في الخدمة الاجتماعية .

جـ – أدوات الخدمة الاجتماعية :

١ – المقابلة الفردية .

٢ – الزيارة المنزلية .

٣ – المقابلة الاجتماعية .

٤ – اجتماعات الجماعة .

٥ – تصميم البرامج .

٦ – التسجيل .

ثالثًا : التطبيق :

أ – الخدمة الاجتماعية كمهنة :

١ – سمات شخصية (الأخصائي الاجتماعي) .

٢ – الإعداد العلمي .

obeikandl.com

٣ - التدريب الميداني .

٤ - التنظيم المهني .

ب - مجالات الرعاية الاجتماعية :

١ - المساعدات العامة .

٢ - رعاية الأسرة .

٣ - رعاية الطفولة .

٤ - رعاية الشباب .

٥ - رعاية المسنين .

٦ - رعاية المعوقين .

٧ - رعاية الأحداث .

٨ - رعاية المسجونين .

٩ - الرعاية الصحية الاجتماعية .

١٠ - الرعاية النفسية الاجتماعية الطبية .

١١ - الرعاية الطبية الاجتماعية .

١٢ - مجال مكافحة المخدرات وعلاج الإدمان .

١٣ - مجال التربية والتعليم .

١٤ - الرعاية العمالية .

١٥ - الرعاية الاجتماعية في مجال القوات المسلحة .

١٦ - المجال الأمني والشرطة .

١٧ - الكوارث والإغاثة والتجهيز .

١٨ - الإسكان والمواصلات .

١٩ - تنمية المجتمعات الريفية والصحراوية والحضرية .

٢٠ - التعاون الدولي والإقليمي .

٢١ - مجال الدعوة إلى اللَّه .

٢٢ - رعاية معتنقي الإسلام حديثًا .

obeikandl.com

المستوى الرابع
أمثلة من النظرية

أ - سنن الله في الناس والمجتمع .

١ – سنن فطرية : أمثلة منها :

- العبودية لله وحده .
- الاستخلاف في الأرض .
- الهداية العامة (هداية النَّجْدين) .
- أمانة الفطرة (الاختيار – الإرادة) .
- وحدة الإنسان (جسد – روح – وجدان – عقل) .
- الإنسان عرضة للأغيار (التغير النفسي والبدني) .
- حب الشهوات (النفس – الحس – الإنجاب – المال – الجاه) .
- الاختلاف بين البشر (الخَلَق – الخُلق – الأرزاق – الآجال) .
- القابلية لتعديل السلوك (الاستعداد الفطري) .
- التعارف والتكامل والتعاون (الإنسان كائن اجتماعي) .
- الإنسان عرضة للفناء (إخفاء مكان وزمان وكيفية الموت) .
- القضاء والقدر (الابتلاءات) .
- مداولة الأيام بين الناس (التغير الاجتماعي) .
- الرزق (ضمانه – تقديره – إخفاؤه – التفاوت فيه) .

٢ – سنن ذات علاقة سببية :

- السلوك الإنساني والأحداث الكونية .
- التغير النفسي والتغير الاجتماعي .

ب - الضوابط الشرعية :

١ – العقيدة :

- التوحيد .

obeikandl.com

- الإيمان باللَّه تعالى .
- الإيمان بالملائكة .
- الإيمان بالكتب المنزلة .
- الإيمان بالرسل .
- الإيمان باليوم الآخر .
- الإيمان بالقدر خيره وشره .
- الأسوة الحسنة برسول اللَّه ﷺ .

٢ - القيم الأخلاقية :

- بر الوالدين .
- صلة الرحم .
- التعاون على البر والتقوى .
- الإحسان .
- الخير والبر .
- المعروف .
- الإيثار والعطاء .
- نصرة المظلومين .
- إغاثة الملهوفين .
- تفريج الكرب .
- الستر للمسلم ورعاية الحرمات الخاصة .
- إصلاح ذات البين والإصلاح بين الأخوة .
- الإصلاح بين الناس .
- النصيحة .
- التنافس المحمود والمساعدة في الخيرات .
- التواصي بالحق والصبر والرحمة .
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

obeikandl.com

- كف الأذى عن الناس .
- الأمانة في المعاملات .
- الصدق والإخلاص .
- الوفاء بالوعد .
- التسامح والعفو والحلم وكظم الغيظ .
- التواضع .
- العدل الاجتماعي والمساواة .
- الرضا بقضاء اللَّه وقدره .
- المسؤولية الفردية والاجتماعية .
- الشورى .
- تأكيد قيمة العمل .
- تأكيد قيمة الوقت .

٣ – أحكام تكليفية لها علاقة بالخدمة الاجتماعية :

أ – فيما يتعلق بالسنن الفطرية :

- الميثاق الفطري .
- عمارة الأرض والإصلاح .
- تجنب الإفساد في الأرض .
- التكليف والمسؤولية والجزاء (التكليف بالوسع – رفع الحرج) .
- التوازن في إشباع الملكات .
- التحكم في الانفعالات .
- الفلاح لمن زكّى نفسه .
- الخيبة لمن دسّ نفسه .
- مشروعية التوبة (المحاسبة – المراقبة – المجاهدة) .
- عقد الزواج بشروطه – الإتيان المشروع للزوجة .
- الإنجاب المشروع – تجنب أبناء السفاح .

obeikandl.com

- حفظ العائلة - القيام بمسؤوليتها .
- حفظ النفس (من المكروه والانتحار والإدمان والضياع) .
- حفظ المال (الكسب الحلال - الإنفاق في الحلال - الاعتدال في الإنفاق - مراعاة مصالح الآخرين - أداء حق الآخرين في المال - الشكر لله) .
- تسخير الكون للإنسان لعمارته .
- تسخير البشر بعضهم لبعض للتكامل والتعاون بينهم .
- تقسيم المعيشة بين الناس للابتلاء والرضا بالمقسوم .
- تداول الأيام بين الناس للابتلاء .
- تفاوت الدرجات بتفاوت المساعي .
- الرزق على قدر الهمة .
- الأخذ بالأسباب وربط الأسباب بالمسببات .
- التوكل على اللَّه والتسليم له وتفويض الأمر لله .
- فتنة الناس بعضهم لبعض للابتلاء .
- ابتلاء الشهوات (السراء والضراء - الرخاء والشدة) .
- ابتلاء الشبهات (الشك - الكفر - النفاق) .

ب - فيما يتعلق بالسنن ذات العلاقة السببية :

١ - السلوك الإنساني والأحداث الكونية - المعاصي والكوارث .

الأحكام التكليفية - تقوى اللَّه - انتشار الفساد والإهلاك بالذنوب .

٢ - التغير النفسي والتغير الاجتماعي - الاستغناء والطغيان .
- البسط والبغي في الأرض .
- الترف والظلم .
- الإنعام والإعراض .

٣ - الأحكام التكليفية - السراء والبطر :

- الشكر في السراء .
- الضراء والقنوط .
- الصبر في الضراء .
- التمتع والعتو ونسيان الذكر .

obeikandi.com

- أداء حق اللَّه في المال . - الإعطاء والأكداء .

جـ - أحكام لها علاقة بموضوعات الخدمة الاجتماعية :

١ - الرعاية الاجتماعية فيما يتعلق برعاية الحقوق الإنسانية .

- حقوق الوالدين :

« البر والإحسان بهما - الطاعة - النفقة - الإرث من الأبناء » .

- حقوق الزوج :

القوامة .

الطاعة .

إحسان العشرة .

الاستمتاع .

قرار الزوجة في البيت - السكن والمودة والرحمة .

العدة والإحداد عند الوفاة - الإرث في حالة وفاة الزوجة .

- حقوق الزوجة :

الصداق .

النفقة .

الاستمتاع - عدم العزل .

إحسان العشرة - المودة والرحمة .

العدل بين الزوجات - الإرث في وفاة الزوج .

- حقوق المطلِّق :

العدة .

الإمساك .

عدم كتمان ما في الأرحام .

- حقوق المطلقة :

نفقة العدة - المتعة .

التسريح بإحسان .

obeikandl.com

عدم الإضرار بها أو العضل .

الخلع - الافتداء .

- حقوق الحوامل والمرضعات :

الإنفاق عليهن .

مشروعية أخذ أجر على الإرضاع .

السكنى المناسبة .

استئجار مرضع .

- حق الجنين :

الحياة وتحريم الإجهاض .

حق الأيامى (العوانس والمطلقات والأرامل) .

التزوج للعفة والإحسان والستر .

- حق الطفل :

الحياة .

الإنبات الحسن .

صلاح الأم .

العدل بين الأبناء .

الإنفاق عليهم - الولاية والرعاية .

الإرث من الوالدين .

- حق ذوي القربى :

صلة الرحم .

الإنفاق الواجب .

الستر والمواساة .

- حق اليتامى :

الولاية والكفالة .

الرفق والرحمة بهم .

obeikandi.com

- حق المساكين والفقراء :

سد الخلة .

- حق السائل والمحروم :

العدل الاجتماعي .

- حق القانع والمعتر :

توفير حد الكفاية

- حق الجار :

الإحسان إليه .

أمن البوائق .

- حق أبناء السبيل :

الإعانة والإيواء .

- حق الضيف :

القري والضيافة والإكرام .

- حق الغارمين :

سداد ديونهم .

- حق المشردين :

الإيواء .

إكرام المثوى .

- حق المسنين :

الإكرام والرعاية .

- حق المرضى :

العلاج .

العيادة .

- حق المنبوذ :

الالتقاط .

obeikandl.com

الكفالة والولاية .

- حق الملهوفين :

الإغاثة .

- حق المظلومين :

النصرة .

- حق المستضعفين :

الرعاية والولاية .

- حق الخدم :

الإحسان .

الرفق .

الإعانة على ما غلبهم .

- حق ضحايا الحروب والكوارث

النجدة .

الإيواء .

العلاج .

التأهيل .

التهجير والتوطين والتعمير .

- حق العامل :

الأجر العادل الفوري .

الراحة .

عدم السخرة .

- حق العمل :

الإتقان .

الإخلاص .

obeikandl.com

- حق الصحبة :

النصيحة .

الإعانة .

الأخوة .

- حق المواطن :

القرار في وطنه .

- حق أهل الذمة :

التسامح .

الحماية نظير الجزية .

- حق الناس :

الإصلاح بينهم .

كف الأذى عنهم .

- حق الطريق :

غض البصر - كف الأذى - إماطة الأذى عن الطريق - هداية الأعمى - إعانة المظلوم - إرشاد السبيل - إعانة على الحمولة - حسن الكلام - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

- حق الموتى :

الغُسل .

التكفين .

الصلاة عليه .

إكرامه بالدفن - مواراته التراب .

سداد ديونه .

إنفاذ وصيته .

- حق الحيوان :

الرفق به .

obeikandi.com

٢ – التنمية الاجتماعية :

أحكام تكليفية لها علاقة بالتنمية الاجتماعية :

- استباق الخيرات (المبادرة والتنافس المحمود) .
- تسخير الناس بعضهم لبعض (تحقيق التكافل الاجتماعي) .
- تكريم الإنسان (توفير حد الكفاية للفرد) .
- التعاون على البر والتقوى (المشاركة الإيجابية) .
- الإيثار رغم الخصاصة (التطوعية والغيرية) .
- الأخذ بالأسباب ثم التوكل على اللَّه .
- لا ضرر ولاضرار (مراعاة مصالح الآخرين) .
- استفراغ الوسع (استثارة الطاقات المعطلة والموارد الكامنة) .
- نبذ الإسراف والتقتير – الاعتدال والقوام .
- نبذ التواكل والبطالة والكسل والعجز .
- الكدح والكد (تأكيد قيمة العمل وإتقانه والمثابرة عليه) .
- استثمار وعمارة الوقت (تأكيد قيمة الزمن تربويًّا واجتماعيًّا) .
- الأمر بالعُرف – العادة مُحَكَّمة (العادات والتقاليد والأعراف – الدراسة – الترشيد – التحكيم) .

٣ – المشكلات الفردية والاجتماعية :

أحكام تكليفية لها علاقة بالمشكلات :

- النهي عن الأضرار بالذات (الانتحار – الإدمان – الضياع) .
- النهي عن الأضرار بالغير (القتل – الإيذاء – المكر السيئ) .
- النهي عن التقصير في حقوق ذوي القربى (قطيعة الرحم) .
- النهي عن عقوق الوالدين .
- النهي عن أكل الأموال بالباطل (الميسر – الربا – السرقة – السحت – النصب والاحتيال) .

obeikandi.com

- النهي عن استغلال أموال اليتامى إلا بالتي هي أحسن - النهي عن دع اليتيم .

- النهي عن انتهاك حرمة الأعراض (الزنا - النظر للمحرمات - هتك الأعراض - قذف المحصنات - الجنسية المثلية) .

- النهي عن انتهاك حقوق الغير (الغيبة والنميمة - الاحتيال والطمع والجشع - السخرية - التجسس - الحقد والحسد) .

- النهي عن انتهاك حقوق المجتمع (الرشوة - الوساطة والشفاعة السيئة - استغلال النفوذ) .

- النهي عن الإفساد في الأرض (الحرابة - شهادة الزور - تهريب وتجارة المخدرات) .

٤ - الإصلاح الاجتماعي :

أحكام تكليفية لها علاقة بالإصلاح الاجتماعي :

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
- التعزيز (الدفاع الاجتماعي) .
- الحدود .
- التحكيم في الخلافات الزوجية .
- الإصلاح بين الناس (الإصلاح بين الإخوة - إصلاح ذات البين) .
- الكفارات (جزاءات مادية وعينية) .
- أساليب العلاج الفردي : مشروعية التوبة - التطهير النفسي - تزكية النفس - الصدقة تطهير وتزكية - الترغيب والترهيب - تقوية الإرادة بالمجاهدة بالصوم والصبر - ذكر اللَّه « الصلاة وقراءة القرآن الدعاء - التسبيح والتحميد والاستغفار » .

د - أحكام تكليفية لها علاقة بمقاصد الخدمة الاجتماعية :

- سد ذرائع الحاجة :

التكافل الاجتماعي :

- المال مال اللَّه والإنسان مستخلف فيه .
- إدالة الثروة .
- الزكاة فريضة اجتماعية .

obeikandl.com

- نوافل الصدقات .
- الإنفاق الواجب .
- الإنفاق في سبيل اللَّه .
- إنفاق العفو .
- القرض الحسن .
- الحض على طعام المسكين .
- سد ذرائع الفساد : درء المفاسد .
- حماية الأعراض (تحريم الزنا - غض البصر - حفظ الفرج - الحجاب - تضييق دائرة الاختلاط) .
- حماية الأنساب (حفظ العائلة - تشجيع الزواج) .
- حماية النفس .
- حماية العقل .
- حماية الدين .

هـ - أحكام تكليفية لها علاقة بمنهج الخدمة الاجتماعية :

١ - المبادئ :

- الرفق والتيسير ورفع الحرج - المشقة تجلب التيسير (التقبل) .
- التدرج في تعديل السلوك (آيات تحريم الخمر على مراحل تدريجية) .
- اختلاف البشر - كلٌّ ميسر لما خلق له - كلٌّ يعمل على شاكلته (الفروق الفردية) .
- المحاسبة والمراقبة الذاتية (التقويم الذاتي) .
- المجاهدة واستفراغ الوسع (بذل الجهد والمساعدة الذاتية) .
- الستر ورعاية الحرمات الخاصة (السرية) .
- لا ضرر ولا ضرار (المصلحة الشخصية في إطار المصلحة العامة) .
- التعاون والتنافس واستباق الخيرات (المشاركة الإيجابية) .

obeikandl.com

٢ - الطرق والأساليب :

- العمل مع الأفراد : الدين النصيحة (الإرشاد والتوجيه الاجتماعي) .
- العمل مع الجماعات : التواصي والتناهي والأخوة الإسلامية (التفاعل الجماعي الموجه)
- تنمية المجتمع : الدعوة إلى الخير - التعاون على البر
- إدارة المؤسسات الاجتماعية : الولاية على النفس (الناقص الأهلية)
- تخطيط وسياسة اجتماعية : درء المفاسد مقدم على جلب المنافع
- بحوث اجتماعية : حصر مصارف الزكاة في ثمانية يقتضي البحث الاجتماعي : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٦٠] إنما تفيد الحصر .

٣ - الأدوات :

المقابلة الشخصية : (الستر ورفع الحرج) .
الزيادة المنزلية : (عيادة المريض - المواساة - تفقد الأحوال) .
المقابلة الجماعية : (التواصي والتناهي) .
الاجتماعات : (الشورى - الجدال بالتي هي أحسن) .
تصميم البرامج : (التعارف - استثمار الوقت - السير والنظر والاعتبار) .
التسجيل : تأكيده « كتابة الدَّين » .

و - أحكام تكليفية لها علاقة بالتطبيق :

- المهنيون :

أحكام تكليفية خاصة بهم .

- مشروعية أخذ الأجر على الخدمة الاجتماعية بتخصيص مصرف للعاملين عليها ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ ﴾ ﴿ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ [التوبة : ٦٠] .
- التصدي لتحمل المسؤولية ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾ [يوسف : ٥٥] .
- المبادرة والنجدة ﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [المائدة : ٤٨] .

obeikandl.com

مدخل جديد في علم الترويح من خلال النظرة الإسلامية

أ.د. يحيى بسيوني مصطفى

مفهوم علم الترويح

علم الترويح من أحدث العلوم الإنسانية التي تهتم ببرامج شغل أوقات فراغ الإنسان ، والنشاطات التي يقوم بها ، والنظريات التي تحدد أنواع وأشكال وأساليب هذه النشاطات ، حتى يتحقق للإنسان التوازن المطلوب في حياته ؛ ليواصل المهام العملية الجادة في حياته .

والمعروف أن المرء يعمل ويكدح وينتظر وقت الفراغ ليستمتع بنشاط مغاير ينعشه ويسريه ، ويزيل عنه المشقة والتعب البدني أو العقلي الذهني أو النفسي ، فتتحقق له الراحة . والنشاط الترويحي هو الحالة التي تصاحب الإنسان عند ممارسته لنشاط محبب لديه يأنس له ويستمتع به . وقد يكون هذا النشاط جسميًّا أو عقليًّا أو وجدانيًّا ، وقد استخلص هذا العلم الحديث من عدة علوم إنسانية وفنون مثل علم الاجتماع وفن الخدمة الاجتماعية في مجال خدمة الجماعة Group Work وعلم النفس الاجتماعي ، وعلم الاتصال ، والنظريات التربوية ، وفنون الأدب والدراما ، والتربية الرياضية ، وفنون الصياغة السينمائية والتليفزيونية والإذاعة ، ويعتبر الترويح علمًا ، وفنًّا وطريقة ...

أ – فمن حيث إنه علم أنه قائم على نظريات أسست بالتجريب والممارسات وتلافي الأخطاء حتى رسخت المبادئ والأسس التي يقوم عليها .

ب – ومن حيث إنه فن فذلك يرجع إلى ما يكتنف النشاطات الترويحية من عمليات إبداعية قد تكون في معظم أحوالها جمالية وتكوينية ، وقد تعتمد على المهارات الفردية والجماعية ، وتخضع للذوق الشخصي أو الجماعي .

جـ – ومن حيث إن الترويح عملية Process فذلك لاعتماد الترويح على طرق محددة واضحة يظهر فيها المؤثر والمتأثر وموضوع الإثارة أو أداتها .

تعريف الترويح

اختلف المتخصصون في تفسير معنى الترويح وتعددت تعريفاتهم فهناك من يربط بين الترويح والغرض الذي يؤديه ، ويعبر عن ذلك بأن الترويح هو التسرية عن النفس ... [١] .

وهناك آخرون يعرفون الترويح بأنه : الرياضة أو النشاط البدني [٢] .

وهناك من يعتبرون الترويح (التعبير المضاد للعمل) على أساس أن الإنسان قليلًا ما يجد في عمله نوعًا من الترويح [٣] .

وهناك من يعرف الترويح بأنه (التسلية أو التغيير) .

ومعظم هذه التعاريف وغيرها لها صفة العمومية ، ولا تعطينا المعنى الوافي الجامع المانع ؛ لأن الترويح في حد ذاته ، هو إشباع لحاجة من حاجات الإنسان الأساسية ، وشأنه في هذا كالحاجة إلى الطعام ، أو الحاجة إلى الأمن والطمأنينة .. إلى غير ذلك من حاجات الإنسان .

والواقع أن الترويح يشمل كل ما يقوم به الإنسان من نشاط لمجرد رغبته التلقائية الحرة .... على أن يكون هذا النشاط مقبولًا ومفيدًا واستجابة لدافع نفسي ، وليس للكسب المادي [٤] .

وقد توصل الباحث لتعريف يشمل معظم التعريفات السابقة مستفيدًا بالمعاني الاصطلاحية واللغوية ويوفق بين النظريات التي عرفت الترويح ويتلخص في الآتي :

(الترويح هو طريق الحياة الإنسانية) يتحقق بأداء أنشطة بدنية أو عقلية أو فنية ، تغير نوع العمل ، وتتم وفق الرغبة التلقائية الحرة ، وتحقق النفع العام أو الشخصي ، في إطار الضوابط الخلقية والاجتماعية المنبثقة من الدين والعرف .

أهمية الترويح في حياة الإنسان

يعتبر الإنسان المؤثر الحقيقي لتوجيه الحضارات ، حيث وهبه اللَّه نعمة قوة البدن ونعمة العقل والفكر ، وإضافة إلى القدرات الخاصة والمهارات وهو بهذا يعتبر المؤثر في

---

(١) تعريف G. Elyot-Commen Kuman Needs, P. (13).

(٢) تعريف جوث روستي – النشاط الترويحي وبرامجه – (ص ١٤) .

(٣) تعريف جورج باتلر – المرجع السابق .

(٤) تعريف المجلس الأعلى للشباب والرياضة بالقاهرة في المؤتمر الأول للتربية الاجتماعية في مايو (١٩٦١م) .

الحياة واتجاهاتها فكرًا وعملًا وإنتاجًا ، وعلى هذا فالدراسات الإنسانية تهتم بموضوع الإنسان من كل جوانبه (بدنه وأجهزته وأعضائه) ، للتعرف على طبيعته ونظامها ووظائفها وما يعري الجسم من علل أو قصور بقصد زيادة كفاءة هذا الجسم ووقايته ، وأيضًا تهتم الدراسات الإنسانية بالنفس الإنسانية من حيث طبيعتها وخصائصها وتأثيرها ، وسلوكها ، ودوافعها ، والذكاء الموروث والمكتسب وما يطرأ عليها من أحوال أو جنوح ... بل إحداث التكيف المناسب مع البيئة والظروف والمجتمع لتحقيق الطمأنينة والاستقرار النفسي ، فيزيد عطاء الإنسان للمجتمع بصفاء نفسه وأمنها وسلامها .

ويشمل اهتمام تلك الدراسات مجال تربية الإنسان وتعليمه لإكساب الإنسان مجموعة المعارف والمهارات والأساليب الحياتية ، ودراسة قدراته العامة وتنميتها والإفادة منها ، والتوصل إلى القواعد والقوانين التي تعلم حسن انتظام الفرد مع المجتمع وأدائه واجباته وأخذه حقوقه . وتمتد دراسة العلوم الإنسانية إلى الاقتصاد والسياسة ، والاجتماع وعلوم الاتصال ... وكلها تسعى إلى دراسة الإنسان وإمكانية تحقيق أكبر نفع له ليتحقق بالتالي النفع الأعم على المجتمع .

وتهتم هذه الدراسات بعامل الوقت لدى الإنسان فتدرس مدده في العمل ، ومدد الفراغ ، والأنشطة المناسبة التي تشغل مدد الفراغ ... ولقد حظى موضوع الترويح باهتمام المفكرين منذ أوائل القرن العشرين حيث إن الإنسان يعيش في حياته باذلًا جهدًا وطاقةً في أداء عمل يعيش من ناتجه وتعارف الناس على أن هذا الوقت يسمى وقت العمل أو الشغل وما تبقى بعد ذلك يسمى وقت الراحة والفراغ ... وقضاء الفراغ ضرورة حيوية لا تقل عن ضرورة إنجاز الأعمال والإنتاج حيث إن الاستمرار في نشاط العمل يورث الملل والكلل وقد يؤدي إلى فتور الهمة واسترخاء العزيمة ، والترويح ضروري للنفس لشعور الإنسان بالرضا والسعادة والاستجمام فيتجدد النشاط وهذا يدفع إلى العمل من جديد ، ومع تعاقب اللونين من ألوان الحياة ، شغلها وراحتها ، ومع حسن استخدام تلك الألوان الحياتية يتحقق الإنتاج الأوفر والسعادة والصحة واستدامة العمل .

وللترويح قيمة علاجية لمن وقعوا فريسة للأمراض النفسية والاكتئاب ، بجانب القيمة الوقائية في حياة الناس ، وقد توصل علماء النفس إلى حقيقة أنه من الممكن دراسة شخصية الفرد وتحليلها وعلاج انحرافها عن طريق دراسة أنواع سلوكه وتصرفاته في أوقات فراغه ، أي عندما يكون حرًا طليقًا على سجيته بعيدًا عن قيود العمل والتزاماته ، وقياسًا على ذلك من الممكن تقويم حضارة شعب معين عن طريق معرفة وسائله في

استخدام وقت الترويح .

ولا توجد أساليب موحدة في الترويح لكل الشعوب على الأرض ، حيث إن أساليب الترويح تختلف باختلاف الشعوب والأقوام ، وحيث إن لكل شعب شخصيته المتميزة ؛ لذلك فإنه من الخطأ أن تستهوينا بعض أساليب الترويح في المجتمع الأمريكي أو الأوروبي مثلًا فننقلها بحذافيرها إلى بلادنا الإسلامية دون التفكر في مدى توافق الأساليب الترويحية مع شعوبنا وتقاليدنا وعاداتنا وثقافتنا ودون تحوير تلك الأساليب حتى تتفق مع واقعنا الإسلامي .

السياسة العامة الترويحية المفقودة في العالم الإسلامي

من العجيب الغريب أن دول العالم الإسلامي لا تملك (سياسة عامة للترويح) داخل حكوماتها ، بل ترك أمر الترويح على أنه فضل زائد لا شأن للدول به ... اللَّهمَّ إلا بعض الدول التي أقامت منشآت رياضية أو اجتماعية للشباب فقط ... وهذا أيضًا قد تم بعيدًا عن (سياسة عامة) مرسومة بالشكل الشمولي أدى لتتم خدمة قطاعات الشعوب وفئات أعمارهم وجنسهم ... واعتمدت الخطط الترويحية – إذا جاز لنا استخدام هذا التعبير على ما يوجد من خدمات متقطعة غير ثابتة – على المستورد – المنقول بحذافيره من فكر غير إسلامي ومن مصادر غير إسلامية .

إن غياب (السياسة العامة الترويحية) عن الساحة الاجتماعية يشكل أمرًا له خطورته ، وسياسة الارتجال والاجتهاد اللحظي الذي تقوم بشكل انفعالي بين عام وآخر تحت مسميات خدمة ورعاية الشباب أو إنشاء مسرح الطفل أو بناء دارًا للترفيه وإنشاء حديقة عامة أو تكوين معسكر دائم للكشافة ، كلها مشروعات لها فضلها وخدمتها ولكن غياب (السياسة العامة) الشاملة والتي تفي بحاجات القطاعات المختلفة تجعل إنشاء مثل هذه المشروعات أمرًا مقطوع الصلة بالخطة العامة للدول ، وتغفل أهمية الخدمة الترويحية ودورها في التنمية البشرية وأسعار المواطنين ... (والسياسة العامة) في مفهومها العام ... لا تعطي جانبًا من الأهمية لنشاط دون آخر ، ولا لفئة دون أخرى ، ولكن الفيصل في الأمر للآراء العلمية ولنتائج البحوث والدراسات واستطلاعات الرأي والتعرف العلمي على احتياج القطاعات والفئات وعلى مستوى المدن الكبرى والقرى وتتبع الإنسان في كل مكان .

وإذا كانت الدول عامة تحتاج إلى (سياسة عامة ترويحية) فإن دول (العالم

الإسلامي) في مسيس الحاجة إلى هذه السياسة العامة للأمور الآتية :

١ - المجتمعات الإسلامية مستهدَفة للتأثير على عقيدة شعوبها ، ثم لسحب مؤسساتها وتنظيماتها إلى النظم والمعسكرات الشرقية أو الغربية واتباع سياسات تبعد كل البُعد عن الدين والإسلام ... ويستخدم هذا التأثير المجالات الثقافية والاجتماعية من خلال البرامج الترويحية التي تعمل بالتدريج على الإيمان بفكرة الانسلاخ عن السلوك الإسلامي ، وفكرة حصر الدين في الجانب التعبيري فقط وجعله علاقة شخصية بين الفرد وربه ... ثم الترويج للأفكار المادية والنظرية النفعية والدعوة غير المباشرة إلى الصراحة الجنسية والإباحة ، والمبادئ الأخرى التي تضاد الإسلام فكرًا واعتقادًا وسلوكًا ... وتلعب القصة والرواية والمسرحية والفيلم السينمائي والمسلسلة التليفزيونية اليومية واللوحات التشكيلية المرسومة والأغاني ذات - المضامين المنوعة - دورًا له خطورته في التأثير .

وهذا يتطلب من الدول الإسلامية أن تضع الأسس القوية الشاملة لرعاية أفرادها وجماعاتها حسب فئاتهم المختلفة ... وتكون (السياسة الترويحية العامة) بأسسها وخططها وما يتبع ذلك من نشاطات وبرامج وقاية ضد تيارات الغزو الفكري .

٢ - لقد سيطر الاستعمار على كثير من دول العالم الإسلامي خلال حقبة طويلة من الزمن ، وعمل المستعمرون على القضاء على اللغة العربية التي هي لغة دين الإسلام . كما عملوا على تسفيه العادات والقيم التي تسود مجتمعات المسلمين وعلى تحطيم الشعور بالولاء للأفكار والثقافة بالتخلف مرة ووسموها بالرجعية مرات وأقاموا - هم وأتباعهم - الحرب الضارية الواضحة والمستترة على كل من ينادي بالعودة إلى منابع الدين أو تجديد الفكر الإسلامي أو الدعوة إلى الحفاظ على الكيان الإسلامي ... وقد أدت هذه الحروب إلى انحراف كثير من الناس عن الأخلاقيات الإسلامية والتقاليد والعادات الإسلامية .

أما وقد تطهرت هذه الدول من رجس الاستعمار ، فقد آن لها أن تتجه نحو التقدم معتمدة على (سياسات عامة) وخطط بعيدة الآن ، وقصيرة ومرحلية في شتى مجالات الحياة ، هذه السياسات ترتكز أولًا وآخرًا على التراث الإسلامي الأصيل ، والقيم الإسلامية المستمدة من توجيهات رب العالمين وسنة الرسول الخاتم .

٣ - بلاد العالم الإسلامي تمتاز بصيف طويل ، وعطلات دراسية كثيرة مع جهل

الكثير من الناس بقيمة الاستفادة من أوقات الفراغ ، وعدم وجود (سياسة عامة) تضم توجيه الفتيان والفتيات لاستثمار تلك الثروة الهائلة من هذا الوقت الثمين في ترويح يعود على الأفراد وعلى المجتمع بالنفع .. ولا شك لدىّ أن سوء استخدام هذه الثروة الطائلة من الوقت يؤدي إلى كثير من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والخلقية ، وكل هذا يؤدي إلى تهديد كيان الأمة ، ومعروف قيمة الوقت والمحافظة عليه في التصورات الإسلامية [١] .

إن غياب (السياسة الترويحية العامة) مع الجهل لأصول الاستمتاع بوقت الفراغ يؤدي بالناس إلى نوع من الكسل والجمود وفي هذا السلوك تخلف للأمة وتعطيل لملكات يجب أن تستثمر ومواهب يلزم أن تكتشف وتتطور ، وطاقات من الأهمية تفجيرها والاستفادة من ورائها وفي وجود السياسة العامة للترويح ستتم عمليات التوعية بقيمة ووقت الفراغ واستثماره وتوضيح مردوده على الاتزان النفسي وأثره على الأفراد والجماعات والمجتمع الأكبر .

أنواع النشاط الترويحي

قد يكون تقسيم النشاط الترويحي إلى أنواع مختلفة من الضرورات التي يتطلبها البحث العلمي ، إلا أن الهدف من التقسيم هو الذي ينبغي أن يحدد الطريقة التي نتبعها ومن ثَمَّ تتعدد الأقسام بتعدد الزوايا التي ينظر فيها إلى ذلك الهدف وتلك الأهداف .

فيمكن مثلًا تقسيم النشاط الترويحي – من زاوية أنه نشاط إنساني : إلى نشاط فردي وجماعي ، كما يمكن أن يكون سلبيًّا أو إيجابيًّا ، تلقائيًّا أو موجهًا .

ويمكن من ناحية مراحل النمو ؛ أن يقسم إلى ترويح خاص بالأطفال أو – بالفتيان أو الشباب أوالشيوخ والكهول ، ويمكن من ناحية الطابع البيئي ، أن ينقسم إلى ترويح ريفي أو حضري أوبدوي ، زراعي أو عمالي ... إلى غير ذلك من أقسام لا تقع تحت حصر ، ولكل منها قيمة تحليلية معينة .

وفي هذا البحث المختصر يرى الباحث أن يكون التقسيم على أساس الغرض أو على أساس أنواع الخدمات والفوائد التي يمكن أن يحققها النشاط الترويحي للإنسان فقد يؤدي الترويح خدمات بدنية أو نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية .

---

(١) يتناول الباحث موضوع الوقت وحياة المسلم في غير هذا الموقع من البحث .

وعليه ... فإنه يمكن تقسيم النشاط الترويحي إلى أربعة أنواع رئيسية هي : « الترويح البدني أو الجسماني ، والترويح النفسي ، والترويح الاجتماعي ، والترويح الاقتصادي » .

وهناك حقيقتان ينبغي أخذهما في الاعتبار عند تقسيم أنواع النشاط الترويحي على أية صورة من **صور التقسيم هي** :

أولًا : أن كلًّا من تلك الأنواع لا يمكن أن يكون مستقلًّا بذاته دون أن تدخل فيه عناصر أخرى بشكل أو آخر ، فالترويح النفسي قد يحقق فوائد جسيمة أو اجتماعية أو اقتصادية ... ومن المؤكد أن النشاط الثقافي سيدخل ضمن النشاط الاجتماعي وأن النشاط الكشفي سيدخل ضمن النشاط البدني أو الجسمي .

ثانيًا : أن الطريقة التي اتبعت في هذا التقسيم لا تمنع الاستعانة بالتقسيمات الأخرى التي سبق ذكرها باعتبارها تقسيمات فرعية يتضمنها كل نوع من الأنواع الأربعة ، وسوف يلجأ الباحث إلى هذه التقسيمات كلما دعت الضرورة إلى ذلك .

١ - الترويح البدني أو الجسماني :

يعرف الإنسان منذ العصور الأولى للتاريخ قيمة الحركة في تنمية العضلات واكتساب القوة ، وقبل اكتشاف طاقات البترول والبخار واختراع الآلات التي خفضت عن الإنسان المجهود البدني في شتى مجالات الحياة اليومية ، كان على الإنسان أن يعتمد كثيرًا على قوته البدنية وعضلاته مما ساعد على سلامة أعضائه وأجهزته البدنية ، وبظهور الطاقات المختلفة والسيارات والآلات - ودخولها في حياة الإنسان ... قل المجهود البدني مع زيادة وقت الراحة والفراغ ، وأصبحت حياة الإنسان مهددة بالخطر ؛ لذا أصبح من مسلمات الأمور أن يحصل كل فرد على قدر من الترويح الجسمي أو البدني الذي يتناسب مع سنه وحالته للوقاية أو العلاج .

وينبغي أن يخضع الترويح البدني لتحقيق أهداف بعينها منها :

١ - مساعدة الجسم على النمو الطبيعي في الأعمار المختلفة .

٢ - تقوية كفاءة العضلات وأجهزة الجسم .

٣ - تنمية التوفيق الحسي العصبي والحركي .

٤ - بث الحيوية في الجسم .

٥ - الوقاية من الأمراض .

٦ – تنمية القدرة على الدفاع عن النفس .

٧ – استكمال تناسق الجسم وتجميل القوام وتحسين اللياقة .

٢ - الترويح النفسي :

وينطوي تحته كل نشاط ترويحي تبرز فيه العوامل النفسية بشكل واضح . ويكاد يكون لعب الأطفال الصغار تعبيرًا نفسيًّا ، وأما الكبار فيتمثل الترويح عندهم في كثير من أنواع التسليات البريئة الهادئة التي قد تحتاج إلى عنصر التفكير والذكاء أو تتمثل في ميل الإنسان إلى المرح والضحك والاستماع إلى النوادر والفكاهات أو الاسترواح بإشباع حب الاستطلاع كما في ارتياد المتاحف والمعارض وقراءة القصص والمغامرات ، والترويح النفسي إما أن يكون تلقائيًّا أوموجهًا .

والنوع الأول يأخذ طابع اللعب الحر ، وإذا استخدمت القياسات والتسجيلات كانت له فائدة تشخيصية أو تحليلية ، ومن المعروف أن بعض اختبارات الذكاء ووسائل التحليل النفسي تعتمد على التداعي الطليق الحر للمعاني والأفكار التي تتوارد على ذهن الفرد حينما يكون في حالة استرخاء وهدوء . فإذ أحسنت طريقة استخدام التداعي الطليق في اللعب مع استخدام دراسة سلوك الفرد عن كتب كانت تلك وسيلة مهمة من وسائل تفهم الشخصية .

أما الترويح النفسي الموجه فهو الذي يتدخل فيه الرائد بتوجيه مباشر أو غير مباشر ولهذا النوع وظائف مهمة في الناحيتين الوقائية والعلاجية .

٣ - الترويح الاجتماعي والثقافي :

أ – **الاجتماعي** : ويهدف إلى تدعيم العلاقات بين الأفراد والجماعات على أساس الصداقة والتعاون ويهدف أيضًا إلى تشجيع التطوع للخدمات الاجتماعية بمختلف أنواعها . ويعد هذا النوع من أعظم أنواع الترويح شأنًا وأكثرها دلالة على رقي المجتمع ونضوجه [١] . حيث إن الترويح الاجتماعي إيجابي بطبعه وهو يتوقف على ما يبذله الأفراد من تضحية في سبيل خدمة المجتمع ، وقد تختلف تلك التضحية من فرد لآخر كمًّا وكيفًا وسواء كانت التضحية بالوقت أو الجهد أو المال أو بهما جميعًا ، كما تختلف أيضًا من ناحية الدوافع من دينية أو أخلاقية أو عنصرية أو غير ذلك ، ولكنها

(١) محمد علي حافظ وآخرون ، الترويح وخدمة الجماعة ، (ص ٤٥) .

مهما اختلفت تنتهي دائمًا عند هدف واحد هو السعادة والشعور بالارتياح بعد الإحساس بإسعاد الآخرين أو التخفيف عنهم أو مساعدتهم .

ويمتاز الترويح الاجتماعي باتساع ميادينه وتعدد ألوانه وفروعه وأساليبه كما يمتاز بالمرونة لخضوعه لعوامل تغير المجتمع وتطور وسائل الرعاية الاجتماعية .

ب – **الثقافي** : ويندرج تحت هذا النوع الترويح عن طريق ممارسة أو تذوق مختلف الفنون التشكيلية أو التعبيرية وموضوعات الثقافة المقروءة أو المسموعة أو المرئية (كقراءة القصص والمقالات الأدبية وتأليفها أو ترجمتها وفرص الشعر ومشاهدة التليفزيون والسينما والفيديو والمسرحيات المختلفة والعروض الفنية) ، وما تقدمه وسائل الإعلام على مختلف صورها من مواد وبرامج ومسلسلات وبرامج دينية وندوات ، أو الاسترواح عن طريق تلاوة القرآن الكريم أوسماعه أو زيارة المساجد والساحات الدينية .

ويدخل في هذا النوع أيضًا الهوايات العلمية في الفلك والكيمياء والميكانيكا والكهرباء والإلكترونيات وغير ذلك .

٤ - الترويح الاقتصادي :

ويتضمن هذا النوع كل نشاط ترويحي يؤدي إلى جلب منفعة اقتصادية بحيث لا يكون الكسب المادي هو الهدف كما في العمل الجدي اليومي ولكن الهدف أو استرواح الفرد من ممارسة هواية تدر نفعًا ماديًّا ، ويعتبر الترويح هنا حلقة تربط الهواية بالاحتراف ، كما يحقق فكرة التكامل في الحياة بين عناصر العمل والترويح .

وتعد هوايات الفنون الجميلة والأشغال الفنية اليدوية أمثلة واضحة لهذا النوع من الترويح كذلك هواية صيد الأسماك وتربية الخيول والمناحل والدواجن والكتابات الفنية والأدبية التي يؤجر عليها صاحبها .

وقد تتطور الهوايات لدى بعض الناس وأصبحت عملًا أساسيًّا نتيجة للنبوغ والتفوق الفني وفي حياة المشهورين من الأدباء والفنانين أمثلة تدل على صدق هذه الدعوى ، وإذا تناول هذا اللون من الترويح سياسة منظمة كان له الأثر الملحوظ في رفع مستوى معيشة الأفراد .

وقد تعتبر بعض نظريات الترويح الغربية أو الشرقية مجال مراهنات سباق الخيل أو لعب الميسر أو مراهنات سباق السيارات من أنواع الترويح الاقتصادي ، إلا أننا ننكر هذا اللون

لاعتبارات أن الربح المادي العائد يخضع لعوامل الصدفة ولا دخل لهواية أو مهارة أو خدمة فنية مفيدة فيه ، والأهم من ذلك أن الميسر والمراهنات من الأرجاس المحرمة شرعًا وهي تدفع بمقترفها إلى غياهب القلق النفسي والتوتر العصبي دون إعلاء قيمة أو استفادة عامة ، ويعتبر ذلك من أكل الأموال بالباطل .

وهناك عوامل في تنظيم النشاط الترويحي وأسس تراعى عند وضع السياسة الترويحية من أهمها هدف مساعدة الأفراد والجماعات على اختيار ما يناسبهم من نشاط . ومعاونتهم على تحصيل أكبر قدر من الفائدة وذلك بدراسة العوامل الذاتية والبيئية للفرد والجماعة من حيث السن والجنس ونوع العمل والثقافة والظروف والقدرات .

العوامل التي تؤثر في الترويح المعاصر

لم تتخلف حضارة قديمة من الحضارات عن الأخذ بأشكال ترويحية مارسها الشعب في مصر القديمة وبلاد الفرس والصين وعند الإغريق والرومان وفي العصور الوسطى وعند العرب قبل الإسلام وبعده ، وفي عصر النهضة في أوروبا ، وفي العصر الحديث .

ولا شك أن الشكل العام للممارسات الترويحية كان يتأثر بالثقافات والديانات والعادات والتقاليد التي كانت تسود كل مجتمع وتتمشى مع متطلبات النظام العام السائد وفي حدود الإطار الأخلاقي والقيمي لكل حضارة .

وفي العصر الحديث : ومع بداية القرن العشرين تطورت الحياة وأنشطة الإنسان وتطور معها الترويح ووسائله ومجالاته وظهر بالنشاط الرياضي في المدارس ، وبدأت الأفكار التحررية في الظهور وملأت نفوس الأوروبيين والأمريكيين بضرورة الاهتمام بالفروسية وحياة الجلاء والمصارعة والرقص والصيد .

ولقد قادت أوروبا حركة تطوير الترويح في ألمانيا والسويد وإنجلترا عقب الحرب العالمية الأولى . وأشرفت الدولة في ألمانيا على نشاط الترويح في عهد النازي إشرافًا كاملًا ، وأنشأ (هتلر) حركة (القوة من السرور) [١] حيث ينظم الشباب في هذه الحركة التي نظمت لها برامج واسعة ومتنوعة – كما بدأت ألمانيا زيادة حركة (بيوت الشباب) ، وتابعت المسيرة إنجلترا وظهرت فيها (حركة الكشافة) التي انتشرت في العالم ، وتأكيد مشاركة طلاب الجامعة في الأنشطة الترويحية كجزء مهم لصقل شخصياتهم ، وبالمثل قامت حكومات السويد والدانمارك ، وتعتبر أمريكا من أعرف البلاد

(١) محمد عادل خطاب ، النشاط الترويحي وبرامجه ، (ص ٥٥) .

في الأنشطة الترويحية المنظمة على المستوى الحكومي والأهلي ، والاهتمام بنظريات الترويح ودراسة أنواعه – وتدريس هذه العلوم في الجامعات والمعاهد المتخصصة .

الآراء والفلسفات والأفكار التي تسود الترويح والإعلام

الحياة الاجتماعية المعاصرة تقوم على نظريات وفلسفات وأفكار ومبادئ كثيرة ومتعددة وأغلبها يقوم على أسس مادية بحتة ، وقد انطلق الناس ينسلخون من الدين وينفلتون من قيود الأخلاق انسياقًا وراء تلك الآراء والنظريات والفلسفات التي نبتت في أوروبا أو في بلاد الشيوعية التي لا تعترف بالأديان وسادت هذه الفلسفات برامج الإعلام وغيرت فلسفته ، وصبغت المواد المقدمة في وسائله بصبغة هذه الآراء والعقائد وبخاصة في مجال التليفزيون والسينما .

١ - نظرية العلمانية (أي اللادينية) :

وهي تعني عزل الدين عن الحياة الاجتماعية للأفراد ، وتعني أن العقيدة الدينية والهدي السماوي وما يتبع ذلك من طاعة اللَّه والوقوف عن شرعه ، لا يجب الالتزام به إلا في حياة الأفراد الشخصية أما ما عدا ذلك من شؤون العالم في حياة الناس فإنه يجب أن يعالج على أساس المادية البحتة ، ووفق رغبات البشر ووجهات نظرهم وميولهم ، وعلى هذا المبدأ أرسى الترويح والإعلام مراسيه وتم التحرير من السلطة الإلهية والتشريعية وتأثرت حياة العالم الإسلامي ونقلت العلوم الإعلامية والترويحية كما هي مدونة دون دراسة أوتمحيص ، ولا زالت تدرس في كليات الجامعات الإسلامية بحذافيرها بعيدةً عن التصور الإسلامي .

٢ - نظرية التفسير المادي للإنسان :

وتتلخص هذه النظرية التي يطلق عليها (نظرية دارون في التطور) ... « إنه لا شيء ثابت على وجه الأرض ولا قصد على الإطلاق من الخلقة وإنه لا يوجد إله خالق بل الخالق هو الطبيعة ولم تقصد أن تخلق إنسان ، وإنما جاء الإنسان هكذا نتيجة عملية التطور البطيئة التي استغرقت ملايين السنين وأن الإنسان في نشأته الأولى لم يكن على صورته الحالية ، وإنما كان أصله حيوانًا لا ينطق ولا يعقل ويمشي على أربع ولم تكن لديه تصورات دينية ولا أخلاقية » .

ومع هذه النظرية ولد التفسير المادي والاقتصادي للتاريخ ، وظهر الرأي الذي يقول

إن الأفكار والمشاعر والعقائد ليست هي التي تحرك الناس أو ترسم سلوكهم العملي في حياتهم وإنما هي تجيء لاحقةً لكل وضع اجتماعي أو اقتصادي فهي ليست قوة موجهة ولا تثبت على حال ، وتأثر الترويح والإعلام بالتفسير المادي الذي واكب التفسير الحيواني للإنسان ، فليس سعي الإنسان للحق والعدل الأزليين وإنما يسعى للطعام بلا عقيدة ولا مبدأ ولا شعور ، وإنما حيوان يعيش في شهوة البهائم .

٣ - نظرية وآراء فرويد في الجنس :

وسائل الترويح المعاصرة قد تقدم باستدراج الناس واستجلابهم إلى فكرة الانسلاخ عن الدين في أسلوب إرضاء الإشهواء ويظهر هذا بوضوح في الأعمال (الدرامية) أي أفلام السينما ومسلسلات التليفزيون وأفلام (التليسين) التي تحول الشرائط السينمائية إلى أفلام (فيديو) ، ويدعي صناع المواد الترويحية بأنهم يحققون مبدأ الحرية والتقدم والتحرر من القيود التي تحد من تصرفات الإنسان الطبيعية ويرهق هؤلاء أن في الصراحة الجنسية والإباحة الجنسية متنفس للنفس البشرية .

ويرتبط موضوع الجنس والصراحة الجنسية بالعالم اليهودي (فرويد) الذي ولد بعد (دارون) وتأثر بفكره وآرائه مما يتعلق بحيوانية الإنسان ، وطلع (فرويد) على البشرية بتفسيره للسلوك البشري على أساس حيوانية الإنسان المطلقة دون نظر إلى ميزة الإنسانية أو رفعة الإنسان وتفضيله . وذكر في نظرياته وآرائه أن الجنس بمعناه الحيواني وعن طريق الشهوة الجنسية ومشاعر الجسد هو الدافع والمحرك الأساسي للكيان البشري وأن الجنس هو كل شيء في الإنسان وهو المشاعر والأحاسيس ، إن السلوك البشري أولًا وآخرًا نابع من الجنس والعلاقة القائمة بين الطفل وأمه وبين البنت وأبيها وغير ذلك كل علاقات قائمة على الجنس .

٤ - ظروف وفلسفات أخرى أثرت في الإعلام والترويح :

لقد تأثرت برامج الإعلام وبخاصة البرامج الترويحية منها - في ظل المدنية المعاصرة - بأفكار وآراء وظروف كثيرة لا يمكن للباحث في هذا المجال أن يلم بها ولكن يمكن التركيز على تلك الظروف والفلسفات التي أثرت في تلك البرامج مثل :

١ - ميلاد الثورة الصناعية وتحول الناس من الإقطاعيات إلى المدن وما صاحب ذلك من دخول المرأة ميدان العمل ومطالبتها بالمساواة مع الرجل في الأجر والحقوق السياسية وما صاحب تلك الثورة من تخلخل في العادات والتقاليد ، ثم التحلل من الدين .

٢ – تحلل الأسرة وفقدها لقيمة ترابط أعضائها مع ضعف سلطة الوالدين وسيطرة الأنانية والوصولية والانتهازية والنفاق وإنكار القيم الجماعية .

٣ – ظهور الفلسفة الطبيعية التي توهم الإنسان بأنه نتيجة لعلاقات طبيعية ضرورية وثابتة وليس هناك إله يحكم كل صغيرة وكبيرة في الكون ، والغايات الأخلاقية وهم من اختراع الإنسان .

٤ – الفلسفة الاجتماعية : وهي فلسفة توحي بأن الإنسان يكون كما يريده المجتمع خاضعًا للظروف الاقتصادية والسياسية والصناعية وتتجاهل الفطرة البشرية وخضوع الإنسان لغير اللَّه .

٥ – الفلسفة العامة وهي تهتم بتجارب الإنسان في الحياة ، وتفسيره الذي يستخلصه منها ، دون مراعاة لتوجيه من خارج أسرة أو طائفته المهنية أو حزبه أو جماعته ، وهي تطالب بذوبان الإنسان في المحتوى الذي ينتمي إليه .

مجالات الترويح المعاصرة

مجالات الترويح المعاصرة متنوعة وكثيرة ومتداخلة وهناك عدة وسائل يمكن اتخاذها أساسًا لتقسيم الترويح والنشاطات الترويحية إلى مجالات مختلفة وإنما متباينة لا يتسع هذا البحث الموجز لحصرها بالتفصيل . ويمكن تقسيم مجالات الترويح من حيث الرعاية والعناية : إلى خدمات ترويحية حكومية تنفق عليها الدول من موازناتها وخدمات تقوم بها هيئات ومؤسسات للخدمة العامة شبه حكومية . وهناك الترويح التجاري الذي يقوم به أفراد لإمتاع الناس لقاء ربح مالي .

ومن الممكن أن نقسم مجالات الترويح من زاوية النشاط الإنساني فنقول : « الأنشطة الفردية ومجال الأنشطة الجماعية ويمكن أن يتم التقسيم باعتبار مراحل النمو إلى ترويح خاص بالأطفال وآخر للفتيان أو الفتيات وثالث للمسنين والشيوخ ، ومن حيث البيئة يمكن التقسيم إلى ترويح ريفي وحضري وعمالي ومدرسي وأسري » .

والذي يهتم به من بين التقسيمات المختلفة تحديد مجال الترويح من حيث المواد الترويحية أو موضوعات الترويح وهو ما تأثر بالفلسفات والآراء والنظريات والملابسات والظروف التي ظهرت في بلاد إسلامية ، وهي المجالات التي يعني الباحث باستحداث مدخل إليها لأسلمتها وإعادتها في ثوب جديد كعلم وفن وطريقة تدرس المتخصصين في مجال الترويح والإعلام من حيث الأسس النظرية والتطبيقات العملية .

ويمكن تقسيم هذه المجالات إلى :

الأدب وفنونه : والصياغات التي تعبر عن النفس والواقع والحياة والمشكلات ، ويشمل القصة والشعر والمقال والمحاضرة والمسرحية والتمثيلية الإذاعية والرواية المقروءة (السيناريو) للمصورات السينمائية والتليفزيونية ، كما يشمل الغناء والموسيقى والفنون الشعبية ، والرياضة البدنية والأنشطة الخلوية .

وهناك تقسيم من حيث الأجهزة التي تقدم ألوانًا من الترويح كمجال الإذاعة والتليفزيون والسينما والمسرح .

المبادئ العامة لإسلامية الترويح وتطبيقها

١ - موقف الإسلام من الترويح :

لا ينظر الإسلام إلى الدنيا على إنها تلك الضرورات الملحة التي يكدح الناس وراءها ، ولكنها إلى جانب ذلك - مجال لإشباع النفس وشرح الصدر لكي يثار في النفس البشرية مشاعر الإحساس بالجمال - ولقد أودع اللَّه في كل مخلوقاته جوانب الجد وجوانب الترويح حتى الأرض الخصبة قد أودعها الأمرين معًا فهي تنبت الحبوب والخضر والفاكهة لغذاء الأجسام وهي تنبت الزهور والورود والأوراق الجميلة والسوق المختلفة الأشكال وما يشيع السرور والابتهاج في أرجاء القلب والوجدان من جمال وزينة قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٍ ﴾ [النمل : ٦٠] .

ولا يعتبر الإسلام الحياة جامدةً كالحةً ولكن يرى المرفهات والمبهجات والترويح إضافات لا تستغني عنها الحياة في مسيرتها .

والإسلام فيما افترض على الناس من عبادات - يرعى حقيقة - أن لكل إنسان طاقة يستطيع أن يؤدي في نطاقها ما يكلف به من أعمال أحسن أداء ، ولكن إذا تواصلت جهوده ونفذت طاقته وأدركه الملل أو التعب فإنه ينفد السيطرة على أعصابه ويقل منه التفكير وتكثر عنده الأخطاء حتى يصل إلى درجة أن يصبح العمل الإضافي لا جدوى منه ، بل ربما ينقلب إلى ضرر ولذا فالإسلام لا يكلف الإنسان ما لا يطيق . يقول تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، وفي هذا

يقول ﷺ : « **إن المُنْبَتّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى** » (١) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « **ليصل أحدكم نشاطه فإذا كَلَّ أو فترَ فليرقد** » (٢) ، وقال : « **لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم ، فإن قومًا شددوا على أنفسهم ، فشدد عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات ، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم** » (٣) .

وجاء في الأثر : « روحوا عن القلوب ساعة بعد ساعة ، فإن القلوب تمل ، وإذا ملت كلَّت ، فإذا كلَّت عميت » ... ولقد كانت حياة الرسول ﷺ مثلًا رائعًا لحياة الإنسان المتوازن فكان حين يصلي يطيل الخشوع والقيام حتى تتورم منه الأقدام ولكنه مع أصحابه في الحياة العامة يحب الطيبات ويمشي في الأسواق ويهش ويبتسم ويداعب ويمزح ولا يقول إلا حقًّا ، وكان يكره التجهم والحزن وما يدفع إليه من دين أو متاعب ويستعيذ باللَّه من شره ويقول : « **اللَّهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدَّين وقهر الرجال** » (٤) . وإذا كان الإسلام في واقعه ومنهاجه يتسع لكل حاجات البشر المتعددة ويضع للأفراد والمجتمع المبادئ العامة الرشيدة للتكيف في هذه الدنيا والحياة ؛ فإنه بذلك يتداخل مع كل فروع المعرفة ومع أغلب نشاطات الإنسان في النواحي النفسية والاجتماعية والسياسية والثقافية ويمس كل زوايا الحياة وفي هذا تثبيت لدعائم العقيدة في نفوس الناس عن طريق الممارسات ؛ إذ الإسلام ليس طقوسًا تعبدية وتكاليف تربط العبد بربه فحسب ولكنه دين ممارسة الحياة في شتى مجالاتها وقد نظم الإسلام كل المجالات لينتظم الفرد والجماعة كل يعرف مسؤوليته الكاملة وواجبه في الأداء . ولا يضع الإسلام قيودًا للعقل ولا يحبس الفطرة في سجن ، وممارسة الأنشطة الترويحية في حدود أوامر الدين ونواهيه وهي أوامر ونواة لا تعارض العقل ولا الفطرة .

٢ - التزام الترويح بالرأي العام الفاضل :

المجتمع الإسلامي يسوده قول الرسول ﷺ : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا** » وقوله : « **مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى** » . هذا المجتمع تسوده توجيهات رب العالمين من حيث الاستقامة والتعاون والتكافل ويسوده الرأي العام الفاضل والمستنير الذي يؤثر في

---

(١) صحيح البخاري .
(٢) صحيح مسلم .
(٣) صحيح مسلم .
(٤) سنن أبو داود .

الفرد وفي الجماعة ، والرأي العام من أشد العناصر لإقامة المجتمع الصالح وإذا كانت أهميته الإعلامية والترويحية تأتي في مقدمة أهميته الاجتماعية والاقتصادية ، فإن ذلك لشدة تأثيره وتغيير أنماط السلوك وتوحيدها نحو الاستفادة والهدى والحياء :

أ – يقيم الإسلام المجتمع الفاضل الذي تتعاون فيه كل القوى بحيث لا يطغى جانب على جانب وأول مظاهر هذا المجتمع هو سيادة الرأي العام الفاضل الذي تترعرع في ظلاله الفضيلة وتختفي منه الرذيلة كنتيجة حتمية لتطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وفي هذا المناخ يتشجع صاحب الخير بإعلان خيريته وإحسانه وإجادته للعمل لا للرياء والتظاهر ولكن للتذكير والاقتداء وأيضًا ينطوي صاحب الشر على نفسه فلا يظهر استحياء من اللَّه ومن الناس ومن نفسه .

وبتطبيق هذا المبدأ نلمس تهذيب الأفراد ؛ لأنه يعلن الكلمة الطيبة والفعل الطيب ويشيع في الناس الأحسن وموجبات التراحم والتعاضد والسلوك القويم ، والقرآن الكريم يذكر أن الجماعة الإسلامية تعد خير أمة أخرجت للناس إذا تمسكت بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... يقول تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

ب – الأخذ على يد الآثمين : تعتبر الأمة كلها آثمة إذا سكنت وتسترت على الآثمين ولقد ذم القرآن بني إسرائيل ؛ لأنهم كانوا يتناهون عن منكر فعلوه ، قال تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة : ٧٨ ، ٧٩] .

وإذا ترك الآثمون من غير رادع فإنهم يهدمون المجتمع ، وإذا لم يأخذ الفضلاء على أيديهم سقطوا معًا في الهاوية . قال ﷺ في هذا المعنى : « **مثل القائم في حدود اللَّه ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذِ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعًا** » (١) .

جـ – الحث على الحياء ، إذ الحياء يعطي صورة للمجتمع النظيف السليم ويدفع إلى

(١) صحيح البخاري .

السلوك والذوق الرفيع ... قال ﷺ : « **الحياء والإيمان قرناء جميعًا فإذا رُفع أحدهما رُفع الآخر** » (١) ، والحياء مبدأ من مبادئ الترويح الإسلامي يعمل كقيد نفسي ضابط يضبطها باللياقة الاجتماعية .

د – عدم إشاعة الفحشاء ؛ حيث إن الإسلام يحرص على إظهار الفضائل وستر الجرائم فلا يكشف الرأي العام أستار المخازي أمام الناس ولا دقائق الهبوط الجنسي ، وقد تكون العقوبات علنية بقصد الردع في إقامة حدود الزنا والقتل والسرقة ولكن ملابسات الجريمة ووقائها يجب أن تكون بمنأى عن الرأي العام ويكون الإعلان عنها وقت تطبيق الحدود باقتضاب ؛ وذلك لأن إعلان الجريمة يفسد الجو الخلقي ويظهر الشر مما قد يؤدي إلى الإغراء بتقليده يقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور : ١٩] .

٣ - عنصر الإيجابية :

واجب المؤمنين التضافر لإيجاد المجتمع الفاضل والدعوة إلى ذلك والتفاعل مع الأحداث لإحقاق الحق وإبطال الباطل دون أن يتصف الفرد بالانعزالية أو الركون إلى الحياد والسلبية في معركة الخير والشر ، قال ﷺ : « **لا يكن أحدكم إِمَّعَةً فيقول أنا مع الناس ، إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساؤوا أسأت ، ولكن وطِّنوا أنفسكم ، إن أحسن الناس أحسنتم ، وإن أساؤوا فتجنبوا الإساءة** » (٢) .

وبرامج الترويح في التصور الإسلامي لا بد أن تلتزم هذا الإطار حتى يكون الإسلام شاملًا لحياة الفرد الجادة والترويحية .

٤ - حدود الترويح الإسلامي :

إن حدود الترويح الإسلامي شأنها حدود الجوانب المهمة في حياة الإنسان وكلها تدور في ذلك التشريع الإسلامي العام ، وهو كما أسلف الباحث تشريع قائم على أساس تحقيق الخير للبشر ، ودفع الحرج والعنت عنهم ، وإرادة اليسر بهم ويقوم على درء المفاسد وجلب المصالح للإنسان ؛ جسمه وروحه وعقله ومصلحة الجماعة كلها ، أغنياء وفقراء حكامًا ومحكومين ورجالًا ونساء ومصلحة النوع الإنساني كله بمختلف أجناسه وألوانه وفي شتى البيئات والأقطار وعلى مر العصور والأجيال ، لأن الإسلام جاء رحمة

---

(١) الحاكم والطبراني .

(٢) سنن الترمذي .

إلهية شاملة لعباد اللَّه حيث قال خالقهم : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] . وقال رسوله ﷺ : « **إنما أنا رحمة مهداة** » (١) .

وكان من آثار هذه الرحمة أن وضع اللَّه عن هذه الأمة الخاتمة كل العنت والتشديد وأوزار الإباحية والتحلل التي أدخلها الوثنيون والكتابيون على الحياة ، فحرموا الطيبات وأحلوا الخبائث . قال تعالى : ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ [الأعراف: ١٥٦ ، ١٥٧] .

ومن ألزم الأمور أن نستند إلى الآيتين الكريمتين الآتيتين لنجعلهما أساسًا لحدود الترويح الإسلامي ودستورًا لبيان حلال الترويح وحرامه . يقول تعالى : ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٢ ، ٣٣] .

وعلى الترويح وتطبيقاته المعاصرة في عالمنا الإسلامي يستقي برامجه ومواده من خلال التصورات الأمريكية أو الغربية أو من خلال الفكر الشرقي الملحد ، ويحاول أبناء العالم الإسلامي أن يوجدوا نوعًا من التوفيق بين ما تتلمذوا عليه من فكر ونظريات وبين ما يواجهونه من مشكلات ويضعون النظريات المستوردة كقضايا مسلمة شأنهم شأن زملائهم في الاجتماع والاقتصاد والسياسة والإعلام وشتى المعارف الإنسانية ، وهم حينما يجدون بعض فقرات ما علموه من قضايا فكرية يوافق الإسلام ، فلا بأس – وإن عارضها – يحاولون التقريب والتأويل والتحايل أو التبرير والتحريف ليطوعوا الإسلام لما منوا به وتعلموه ... وكأن هؤلاء قد نسوا أن كلمة اللَّه هي العليا دائمًا وأنها هي التي ينبغي أن تعلو وتتبع لأنها هي التي تهدي للفلاح .

ولا يخضع الخالق لأهواء المخلوقين ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ

---

(١) رواه الحاكم .

وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون : ٧١] .

ومن أول المبادئ التي أقرها الإسلام ، أن الأصل فيما خلق اللَّه من أشياء ومنافع هو الحل والإباحة ، طالما أنه لا يوجد نص صحيح وصريح من الشارع بتحريمه ، والترويح شأنه شأن المنافع المباحة الأخرى ، وقد أوجد اللَّه النعم للإنسان وسخرها له وما كان ليحرمه منها بتحريمها عليه . وفي هذا يقول ﷺ : « **ما أحل اللَّه في كتابه فهو حلال وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو . فاقبلوا من اللَّه عافيته** » (١) .

كيفية تأثير تطبيق مبادئ الترويح على طرق البحث في مجال الترويح :

هناك أثر فعال لتطبيق المبادئ العامة الإسلامية على طريقة البحث في مجال الترويح تتمثل في الآتي :

١ – إن التحليل والتحريم حق لله وحده : وأن الباحث أو الفقيه عليه أن يلتزم ببيان حكم اللَّه فيما أحل أو ما حرم من مواد الترويح ، باعتبار أن الباحث أو الفقيه ليس من مهمته التشريع للناس فيما يجوز لهم وما لا يجوز ، وقد كان الأئمة ومنهم ابن تيمية يرون أن السلف لم يطلقوا الحرام الأعلى ما علم تحريمه قطعًا ، وكانوا يتورعون في إطلاق كلمتي الحلال والحرام ...

٢ – رحابة الصدر والبعد عن التنطع والتزمت والتشدد : باعتبار أن الرسول قد حارب هذه النزعة ، وذم المتنطعين وتوعدهم بالهلاك إذا يقول : « **ألا هلك المتنطعون** » وكررها ثلاثًا (٢) . وأعلن عن رسالته فقال : « **بعثت بالحنيفية السمحة** » (٣) ؛ والباحث العلمي يتخذ هنا الموضوعية والحيدة متأثرًا بهذا المبدأ متخذًا الوسطية دون غلوٍّ أو تعدٍّ ما دامت المواد الترويحية في حدود تقوى اللَّه والإيمان به وعدم الإضرار بالناس .

٣ – الاستفادة من علل الأحكام : فإن رحمة اللَّه بعباده أن عمليات التحليل والتحريم جاءت لعلل معقولة راجحة المصلحة للبشر ، فلم يحلل سبحانه إلا طيبًا لو يحرم إلا خبيثًا . وكل ما كان ضرره أكبر فهو حرام ، وما كان نفعه أعم وأشمل أكبر فهو حلال . يقول تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾ [البقرة : ٢١٩] .

٤ – مبدأ التعويض : ويؤخذ في الاعتبار أن اللَّه تعالى حينما يضيق على عباده في أمر

(١) المستدرك للحاكم .
(٢) رواه مسلم وأحمد وأبو داود .
(٣) مسند أحمد .

من الأمور ، فإنه يوسعه في جانب آخر من جنسه ؛ لأن اللَّه لا يريد بعباده الضيق ولا العسر ولا الإرهاق ، يقول تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨] .

ويبين ذلك ابن القيم حين قال : « إن اللَّه حرم الربا وعوض عنه بالتجارة الرابحة ، وحرم القمار وعوض عنه بالمسابقات النافعة بالخيل والإبل والسهام ، وحرم الحرير وعوض بالملابس الفاخرة من الكتان والصوف والقطن وحرم الزنا وعوض بالزواج ، وحرم المسكرات وأعاض بالأشربة الطبية » [١] .

٥ - تحريم ما يؤدي إلى الحرام : يتأثر البحث العلمي في موضوع الترويح بمبدأ الإسلام إذا حرَّم شيئًا ، فإن ما يقضي إلى هذا الشيء من وسائل تكون حرامًا وعلى الباحث أن يعمل على سد الذريعة الموصلة إليه . مثال ذلك ؛ أن الزنا محرم ، وعليه فإن كل مقدماته ودواعيه من تبرج وزينة ، وخلوة بأجنبي ، وخضوع بالقول ، أو اختلاط عابث أو صور عارية ، أو أدب مكشوف ، أو غناء فاحش يكون محرمًا ، ويقع الوزر على كل من شارك فيه بجهد فني أو أدبي ومن يشارك بالرؤية أو القراءة ، وكل من أعان على هذه الوسيلة .

٦ - التحايل على الحرام : حرم الإسلام التحايل على ارتكاب المحرمات بالوسائل غير المشروعة الخادعة ونعى على اليهود ما صنعوه من استباحة ما حرم اللَّه بالحيل ... ومن الحيل الآثمة تسمية الشيء الحرام بغير اسمه ، وتغيير صورته مع بقاء حقيقته فسميت الخمور باسم المشروبات الروحية والصور العارية بالفن الحي والربا بسعر الفائدة ، وفي الحديث : « **ليستحلن طائفة من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها** » [٢] رواه أحمد ، « **يأتي على الناس زمان يستحلون الربا باسم البيع** » [٣] رواه البخاري .

٧ - قد يكون الترويح عبادة وقربة إلى اللَّه بالنوايا الطيبة قد تتحول المباحات والعادات إلى طاعات لقول رسول اللَّه ﷺ : « **إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى** » فمن صاغ مسرحية أو قصة بقصد توجيه الأمة إلى فضيلة وكانت نيته خالصة

---

(١) ابن القيم ، روضة المحبين .
(٢) ابن القيم ، إغاثة اللهفان ، (٣٥٢/١) .
(٣) صحيح البخاري .

للَّه ، فإن عمله يعتبر عبادة وقربة إلى اللَّه وليست النوايا الطيبة وحدها تبرر الصياغات المحرمة سواء في الدراما أو الأسلوب الأدبي ، ومبدأ (الميكافيلية) الذي يقول بأن الغاية تبرر الوسيلة مبدأ مرفوض على الساحة الإسلامية .

٨ – **الحلال بين والحرام بين** : من الورع أن يتجنب المسلم الشبهات حتى لا تجره إلى الوقوع في الحرام . وهو نوع من سد الذرائع ولون من ألوان التربية ، وأصل هذا المبدأ قول الرسول ﷺ : « **الحلال بيِّن والحرام بيِّن ، وبين ذلك أمور مشتبهات ، لا يدري كثير من الناس ؛ أمن الحلال هي أم من الحرام ؟ فمن تركها استبرأ لدينه وعرضه فقد سلم ، ومن واقع شيئًا منها وشك أن يوقع الحرام ، كمن يرعى حول الحمى ، أوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى اللَّه محارمه** » (١) .

٩ – **المساواة أمام الحرام بين الجميع** : فالسرقة حرام على المسلم وغير ذلك وكذلك بقية المحرمات والجزاء لازم على من ارتكب المحرم مهما كان نسبه أو مركزه أو عقيدته ، والدليل قول الرسول ﷺ : « **وأيم اللَّه لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها** » (٢) .

١٠ – **الضرورات تبيح المحظورات** : عند اضطرار المسلم لحفظ الحياة مثلًا ، فإنه قد يتعاطى المحظور خوف الهلاك أو فقد الحياة شرط أن يكون المضطر (غير باغٍ ولا عادٍ) ويكون هذا التعاطي بقدر ما يدفع الضرر فقط ، وهذا من تيسير اللَّه ورحمته والتخفيف عن الإنسان الضعيف ، ولهذا قال اللَّه تعالى بعد أن ذكر محرمات الطعام من الميتة والدم ولحم الخنزير : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٧٣] .

النتائج المتوقعة لتطبيق المبادئ :

وأفضل نتيجة متوقعة لتطبيق مبادئ الترويح المعدل على ضوء الإسلام أننا سنعد الإنسان الصالح الأتقى الذي يعبد اللَّه بما شرع من عبادات وبكل عمل وفكر وشعور وبالنشاط الحيوي الذي يرضي به اللَّه وأن يتوجه بكل عمل يقوم به إلى اللَّه ، مستهديًّا في كل الأعمال بهدى اللَّه وبهذا يستعيد مكانته من القرب إلى اللَّه حتى يستحق خلافة الأرض . ويمكن تلخيص مردود التطبيق في النقاط الآتية :

١ – تفجير طاقات الإنسان كلها لترقية الحياة وتنميتها والاتجاه نحو القوة الكاملة قوة البدن والروح والتفوق العلمي والتقني وكل ما يؤدي إلى القوة .

---

(١) سنن الترمذي .

(٢) صحيح البخاري .

٢ – حدوث التوازن النفسي الذي هو من سمات الإنسان الصالح والتوازن بين كافة العقل وطاقة الجسم وطاقة الروح ، أي بين ماديات الإنسان ومعنوياته . وفي هذا القضاء على القلق والاضطراب .

٣ – الوصول بالإنسان إلى الإيجابية السوية الفعالة في الحياة والتي تأخذ حياتها أساسًا بمبدأ إقامة الرأي العام الفاضل والمستنير في إطار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٤ – إحياء المعاني الربانية من الإيمان والتقوى لله والإخلاص له .

٥ – تثبيت دعائم الحق والخير والجمال في نفوس الناس على ضوء الإيمان بعيدًا عن المذاهب الفلسفية والفكرية الغريبة عن روح الإسلام .

٦ – إبراز القدوة الحسنة من التاريخ ومن الحياة الواقعة المعاصرة .

٧ – الاعتزاز بالإسلام ورسالته وعقيدته وشريعته وحضارته ونظمه الشاملة المتكاملة .

٨ – مقاومة البدع والخرافات والشوائب التي جلبتها الفرق والرجوع إلى نبع الإسلام الصافي .

٩ – احترام وقت الفراغ مثل وقت العمل ، والعمل على الاستفادة منه .

ولا يمكن تحقيق هذه النتائج إلا حين يكون الإسلام هو الموجه والقائد لمجال الترويح وغيره ، وأن يتجه الترويح في الإطار مع ما تتجه إليه الحياة كلها إلى الوجهة الإسلامية وإن تصبغ مجالات الحياة كلها من حيث التأسيس والعرض والإطار شكلًا ومضمونًا بالصبغة الإسلامية .

الثمار المتوقعة للثورة المعرفية الحالية لترويح المعاصر

والثمار المتوقعة للثورة المعرفية في مجال الترويح يمكن تلخيصها في الآتي :

١ – تقدير قيمة الكلمة وقوتها في التوجيه ، واستثمار الكلم الطيب الصادق في مختلف صور الكلمة للهداية الإنسانية والبشرية .

٢ – ستقوم دعوة كبرى لمجاهدة النفس وتصحيح مسارها وتعديل سلوكها وعدم اتباع هواها ، وتحكيم العقل والشرع وتنقية النفس من أوهان الاضطرابات وإرجاع التوازن إليها واعتدالها بعيدًا عن العلل والتفكك .

٣ – والثمرة المرتقبة هي التوجيه لاستثمار أوقات الفراغ حيث إن قيمة الوقت في

الإسلام لها أهميتها وأن عمر الإنسان مسؤولية كبرى سوف يسأل الفرد عنها ، كقول رسول اللَّه ﷺ : « **لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن عمله ماذا عمل فيه** » (١) .

٤ – التوجيه بعدم السخرية واللمز ، وخاصة بعد استغلال عاهات الناس أو فقرهم أو جهلهم أو انتماءاتهم كوسيلة لصياغة (الدراما) التي تثير الضحك من هؤلاء ، وتوجيه السخرية إلى أصحاب التدني الخلقي والمخالطين .

٥ – إبعاد الهم والحزن عن الناس ؛ لأن منهج الترويح الإسلامي يستقبل الحياة بالبشر والأمل والبشاشة ، ويكره لأفراده القنوط والتشاؤم والحزن والعبوس ، وذلك لإدراك الإسلام بأن الاستسلام إلى الكآبة والتقطيب مؤداه إلى الانهيار الشامل في حياة الإنسان وإرادته ، والمنهج الإسلامي بقدر ما تشيعه البهجة والبسمة والطلاقة والسرور من شرح الصدور وتنقية النفس من كدر التجهم والعبوس .

٦ – نتيجة إدراك منهج ومبادئ الترويح الإسلامي ما للقلق والهم والحزن من نتائج سيئة على الأفراد وللجماعات وتحطيم نفوسهم مع أبدانهم ، فقد استمد الإسلام منهجه لمحاربة القلق والحزن من قصص الأنبياء وسير الصالحين كقصة يعقوب ويوسف . وغيرها للتسلية والتوجيه والاطمئنان .

الخطط المقترحة لتحريك المفهوم الجديد للترويح

١ – هناك حاجة ماسة وضرورية إلى البحوث الميدانية والعملية في مدة الترويح وموضوعاتها على ضوء الإسلام ، ولا يتسنى ذلك إلا بتدريس مادة الترويح في كليات أصول الدين والشريعة والدعوة والإعلام والخدمة الاجتماعية ودار العلوم ومعاهد السينما والفنون المسرحية ، وتخصيص الأقسام العلمية في هذه المعاهد بكافة بلاد العالم الإسلامي لإعداد الباحث في هذا المجال وتأهيله في الدراسات العليا لمواصلة البحث والدروس في موضوعات ومجالات الترويح .

٢ – لا تستغني الحياة في العالم أجمع والعالم الإسلامي عن الجانب الترويحي لحياة الناس ولا يمكن أن يقف العالم الإسلامي موقفًا سلبيًّا أو عاجزًا أمام متطلبات المسلمين

---

(١) سنن الترمذي .

من ترويح يناسب سلوكهم وعاداتهم الإسلامية ومقتضيات أوامر ونواهي دينهم ، ولا يستقيم الأمر إلا بإقامة عدة أكاديميات في عواصم العالم الإسلامي حتى تتوفر في المساحة الترويحية الإسلامية الأعداد المناسبة من مختلف المتخصصين .

٣ – دعوة الجامعات الإسلامية في العالم وأقسام الدراسات الدينية في جامعات أوروبا وأمريكا والكتلة الشرقية إلى مؤتمر يتبناه المعهد العالمي للفكر الإسلامي ليعرض بطرق غير مباشرة منهاج الترويح من المتطور الإسلامي ومشاركة الجمعيات الدولية للترويح والمنتشرة في أمريكا وأوروبا في تقديم آرائهم حول النظرية ومطالبة هذه الجمعيات بمحاولة التطبيق .

٤ – مخاطبة دول العالم الإسلامي بضرورة رسم سياسة ترويحية متكاملة على النحو الذي عرضناه ، ومساعدة تلك الدول بتقديم المقترحات وإيفاد الخبراء .

٥ – مخاطبة أجهزة الإعلام في شكل نشرات دورية توضح الدور الهائل الذي يتردى فيه العالم الإسلامي بانجراف وسائل إعلامه وأجهزته في تيار الفكر غير الإسلامي الناتج من الاعتماد على البرامج المستوردة دون العناية بإنتاج محلي مبهر وقوي وقادر على المواجهة والصمود والتحدي ومتميز بجذب الانتباه والإثارة ومتداخل مع حياة الناس اليومية .

٦ – الاستفادة من أصحاب الأموال المسلمين في إنتاج برامج ترويحية إعلامية ذات مستوى راقٍ في التأليف والإخراج والتنفيذ ، دون الاعتماد على المصادر التاريخية لإنتاج أعمال إسلامية قبل إنتاج أفلام معاصرة تغسل أوزار ما يقدم على الساحة العربية من أعمال هابطة .

٧ – توصية أجهزة التليفزيون الإسلامية والعربية بضرورة اختيار مراقبي البرامج والمسلسلات من بين ذوي الدراسات الاجتماعية الإسلامية لمنع عرض الهابط والمؤثر سلبًا في عقائدنا وخاصة شبابنا وأطفالنا .

٨ – عقد اجتماعات مع وزارات الشباب والرياضة وعرض نماذج من الفكر الإسلامي في مجال الترويح لمحاولة التطبيق ، وعقد دورات تدريب لقادة الترويح على مستوى دول الخليج ودول الجامعة العربية والدول الإسلامية للاستفادة من المنهج المقترح .

٩ – التخطيط على مستوى العالم الإسلامي للإنتاج الفني والأدبي والرياضي ويشترك في التخطيط مفكرون وعلماء وأدباء وأصحاب رؤوس أموال ، مع الاستفادة من التجارب العالمية والخبرات السابقة .

١٠ - الإلحاح في مخاطبة الحكومات التي تسمح بإقامة محلات الترويح السلبي والمحرم والتي تشيع فيها الفاحشة وتنتهك فيها الحرمات .

١١ - مخاطبة دور الإنتاج العربي والعالمي عن طريق المنشورات والتوجيهات والخطابات الهادئة ؛ للارتقاء بالفنون التعبيرية والتشكيلية لكي يؤدي الفن رسالته في الارتقاء بالإنسان وقيمه العليا بعيدًا عن التدني وراء الغرائز وتلويث الأفكار .

١٢ - إقامة مهرجانات للمسرح والسينما والمسلسلات التليفزيونية ورصد جوائز مختلفة للذين اتبعوا المنهج الأخلاقي وحاربوا التحلل الأخلاقي ، والذين أقاموا من الفن الإعلامي وسيلة لهداية الناس ومساعدتهم في أي عاصمة إسلامية أو عالمية .

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

أبحاث ندوة
الخدمة الاجتماعية في الإسلام

المحور الثاني

مجالات الخدمة الاجتماعية في المنظور الإسلامي

- المنظور الإسلامي لتفسير المشكلات الفردية .
- العلاج الإسلامي للحالات الفردية .
- الإنسان وعلاقته بالبيئة من منظور إسلامي .
- الخدمة الاجتماعية في مجال الدعوة الإسلامية .
- المدخل الوقائي للخدمة الاجتماعية في رعاية الطفل إسلاميًا .
- تنظيم المجتمع ودراسة حاجات ومشكلات معتنقي الإسلام حديثًا .
- المعاونة المهنية من الخدمة الاجتماعية لإحدى مؤسسات العمل : دراسة حالة .
- دور الخدمة الاجتماعية في العمل مع المنحرفين منظور إسلامي .

obeikandl.com

obeikandl.com

المنظور الإسلامي لتفسير المشكلات الفردية

أ.د. عفاف إبراهيم الدباغ

تحاول الخدمة الاجتماعية في الآونة الأخيرة أن توجه الهدف من أنشطتها إلى مشكلات الفرد الاجتماعية ، ذات الصلة بتفاعله مع الآخرين في المواقف المختلفة ، حتى يمكن الفصل بينها وبين المهن الأخرى التي تهتم بمشكلات الفرد ذات الصبغة الذاتية ، إلا أن الهدف القائم لمعظم الأنشطة المهنية – في المجتمعات الغربية وغيرها – ما زال يركز على أحداث تغيير في الشخصية والسلوك . ولذلك يحتفظ مفهوم المشكلات الفردية بأهميته البالغة في ممارسة الخدمة الاجتماعية حتى وقتنا الحاضر .

وعلى الرغم من تعدد واختلاف المشكلات التي يتعين على الأخصائي الاجتماعي أن يتعامل معها ، وتداخل العوامل المسببة لها ، إلا أنه من الضروري أن تعتمد ممارسة المهنة على قاعدة معرفية أساسية واحدة لفهم الدوافع والعلاقات الإنسانية ، ومن ثَمَّ تفسير المشكلات بناءً على ذلك .

ولا شك أن المشكلات الفردية تؤثر وتتأثر بالمشكلات الاجتماعية ، بل قد تعتبر جزءًا منها ، إلا أن وضع تصور نظري يفسرها كوحدة واحدة ، يعتبر عملًا شاقًّا ومعقدًا ، لم تنجح العلوم الإنسانية حتى الآن في الوصول إليه . وعليه يصبح النظر إلى تفسير كل منها على حدة أمرًا مقبولًا ، خاصة ونحن في أولى مراحل التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية .

ويهدف هذا البحث إلى الإسهام في الكشف عن بعض الأسس الإسلامية التي يمكن تفسير المشكلات الفردية في ضوئها . محاولًا – بقدر المستطاع – الالتزام بمنهج التأصيل الإسلامي الذي يعمل على استخلاص الأصول الإسلامية من القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، وتراث السلف ، مع الاستفادة من أفضل ما توصلت إليه العلوم الإنسانية .

ويلاحظ أن البحث قد توجه نحو التركيز على العوامل التي يمكن أن يعتبرها القارئ ذاتية خاصة بالفرد صاحب المشكلة ، إلا أن هذا التوجه لم يكن مخططًا له ، ولكنه جاء نتيجة تلقائية تظهر طبيعة المعلومات المتوافرة في المصادر الإسلامية ونوعيتها .

المنظور الغربي للمشكلات الفردية

تعريف المشكلة :

تنوعت تعريفات « المشكلة » تبعًا لتنوع وجهات النظر العلمية ، فمن وجهة النظر النفسية ، عَّرف أحمد عزت راجح المشكلة بأنها : « كل موقف غير معهود لا تكفي لحله الخبرات السابقة والسلوك المألوف » (١) . وعَّرفها أحمد زكي بدوي من وجهة النظر الاجتماعية ... بقوله : « إنها ظاهرة تتكون من عدة أحداث أو وقائع متشابكة وممتزجة بعضها ببعض لفترة من الوقت ويكتنفها الغموض واللبس ، تواجه الفرد أو الجماعة ويصعب حلها قبل معرفة أسبابها والظروف المحيطة بها وتحليلها للوصول إلى اتخاذ قرار بشأنها » (٢) . ويفرق رايت ميلز (Wright Mills) بين المشكلات الشخصية (Personal Troubles) والقضايا العامة (Public Issues) قائلًا : « أن المشكلات تظهر في شخصية الفرد وفي علاقاته المباشرة مع الآخرين ، فهي تتعلق بنفسه وبالحياة الاجتماعية المحدودة التي يدركها هو شخصيًا ، وهي أمر خاص يجعل الفرد يشعر بتهديد موجه للقيم التي يعتز بها » (٣) . كما تصف هيلين نورثن (Helen Northen) المشكلات التي يتقدم بها العملاء إلى الأخصائي الاجتماعي ، طالبين المساعدة في حلها ، بأنها : « أوضاع أو مواقف محيرة ، أو صعبة أو غير مرغوب فيها . وهي تمد الأخصائي بنقطة البداية في عملية تقدير حاجات العميل » (٤) .

هذا ويربط كثير من علماء النفس والتربية المشكلات الشخصية بالحاجات الإنسانية ، وبمقدرة الشخص على التوافق ، فقد وصف جيمس كولمان (James C. Colemon) الحياة بأنها : « عمليات توافق مستمرة ، يكافح فيها الناس لمقابلة حاجاتهم ، وبقاء علاقات منسجمة مع بيئاتهم ، وعندما يتعامل الفرد بفاعلية مع مشكلاته يوصف بأنه في حالة توافق جيد ، حيث يتكيف بنجاح مع الضغوط الداخلية والخارجية الموضوعة عليه ؛

---

(١) أحمد عزت راجح ، أصول علم النفس ، (ط٧) ، القاهرة ، دار الكتاب العربي (١٩٦٨م) ، (ص ٢٨٩) .

(٢) أحمد زكي بدوي ، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ، بيروت ، مكتبة لبنان ، (١٩٧٧م) ، (ص٣٢٧) .

(٣) Allen Pincus and Anne Minahann, Social Work Practice Model & Method, 12 th, Printing Itasa, lllinois F.E. Peacock Publishers, Inc, (1980), p. (13).

(٤) Hellen Northen , ‘‘Assessment in Direct Practice’’ Encyclopedia of Social Work 18 th ed. Maryland, National Association of Social Workers, (1987) , Vol . 1, P. (162).

أما حين تكون المشكلة أكبر منه ، ويظهر عليه القلق ، وعدم الكفاءة، وعدم السعادة ، أو أعراض أخرى أخطر من تلك ، فيوصف بأنه في حالة سوء توافق » [١] .

تفسير المشكلات الفردية في مداخل ممارسة الخدمة الاجتماعية :

لقد استمدت الخدمة الاجتماعية تفسيرها للمشكلات الفردية من النظريات النفسية والاجتماعية المتوافرة ، ولذلك نجد العديد من مداخل الممارسة قد اختلفت مواقفها من ذلك باختلاف توجهها النظري . ويمكن تصنيف هذه التوجهات حسب منطلقاتها الأساسية إلى ثلاث فئات : فئة تفسر المشكلات على أساس ترجيح العوامل الفردية ، وأخرى ترجح العوامل الاجتماعية ، وثالثة تجمع بين الاثنين في إطار تكاملي .

وفيما يلي تعريف موجز بكل فئة وأمثلة لها .

الفئة الأولى

وهي التي أخذت بالتفسير الفردي ، ومنها :

١ – **مدخل التحليل النفسي** (Psychoanagytic Approach) :

اعتمد في تفسيره للمشكلات الفردية على مفاهيم نظرية فرويد المعروفة والمكونات الشعورية واللاشعورية . وهذا المدخل يرجع ما يقابل الناس من صعوبات أو مشكلات إلى ما يحدث من إعاقة ونكوص في عمليات النمو ، عندما لا تبني مكونات الشخصية (الأنا الدنيا – الأنا – الأنا العليا) البناء السليم فينتج صراع بين هذه المكونات وتظهر الحيل الدفاعية اللاشعورية – مثل الإسقاط والتحويل – بحيث تتحكم في الأداء الوظيفي للفرد [٢] .

٢ – **مدخل سيكولوجية الذات** (Ego - Psychology) :

ينظر إلى المشكلة التي تواجه الفرد على أنها مشكلة نفسية – اجتماعية ، فالإنسان يمثل المنطقة التي ترتبط بالواقع ، وتتوقف قوة الذات على مدى إدراكها لهذا الواقع الذي يمثل الجوانب الاجتماعية للفرد والبيئة التي يعيش فيها ؛ لذلك يتم فهم الإنسان ومشكلته في ضوء تفاعل العوامل البيئية الخارجية بالعوامل الذاتية [٣] .

---

(١) James W.Cogeman and Donald R.Cressey, Social Problems, 3rd Ed. New York. Harper & Row Pubishers, Inc , (1987) , P . (143).

(٢) Max Siporin, Introduction to Social Work Practice, New York; Macmillan Publishing Co, Inc , (1976) , P . (143).

(٣) Sidney L.Wasserman, ‘‘Ego Psychology’’ Social work Treatment, Ed. By Francis J.Turner. New York. Macmillan Publishing Co, Inc, (1974), P. (50).

غير أن المقارنة بين هذا المدخل والمداخل التي ركزت على العوامل البيئية ، تظهر تركيز هذا المدخل على العوامل النفسية وإرجاعه القصور الذي يحدث في الأداء الوظيفي للفرد عند تفاعله مع البيئة إلى وظائف الذات (الإدراك - الإحساس - التفكير - التنفيذ) فهي التي تعمل على توازن شخصية العميل .

٣ - **المدخل الوظيفي أو النظرية الوظيفية** (Functional Throry) :

يرجع السبب في حدوث المشكلة إلى عطل أو ضعف في إرادة الإنسان أثناء موقف معين ، يرجع غالبًا إلى التجارب السلبية في علاقات الفرد المبكرة ، خاصة علاقاته الحيوية مثل علاقاته بوالديه ، مما يجعل إرادته ترفض عملية الانفصال الضرورية للنمو ، ولذلك ينظر إلى المشكلة على أنها أزمة نمو ، فالإنسان منذ تجربة الانفصال الأولى (Birth Trauma) يمر بتجارب مؤلمة من الانفصال والاتصال ، والبداية والنهاية فهو يدخل في علاقات متكررة مع الآخرين يتصل بهم ، ثم ينفصل عنهم . وانطلاقًا من هذه القاعدة جاءت النظرية بمفاهيم منها : الإرادة المضادة (Counterwill) ، والصراع (Conflict) ، والمقاومة (Resistance) التي تراها حيوية وضرورية لنمو الإنسان [١] .

٤ - **المدخل الوجودي** (Existential Approach) ، **والمدخل المعرفي** (Cognitive Approach) :

تقع النظرية الوجودية تحت التصنيف المعرفي ؛ لذلك نجد هذا المدخل يتفق إلى حدٍّ كبير مع المدخل المعرفي في تفسيره للمشكلات ، فالمدخل الوجودي يحلل المشكلة في ضوء المعتقدات والقيم التي يعتنقها الفرد ، وهدفه في الحياة ونظرته إلى نفسه [٢] . والمدخل المعرفي يفسر المشكلة في ضوء الأهداف التي توجه الفرد ، ومدى إدراكه للحقيقة وأسلوبه في الحياة [٣] .

الفئة الثانية

وهي التي أخذت بالتفسير الاجتماعي والبيئي ومنها :

١ - **المدخل السلوكي** (Behavioral Approach) :

---

(١) Shankar A.Yelaja , Functinal Theory for Social Work Practice , Social Work Treatment 3 .rd Ed, . By Francis J.Turner, New York, Macmillan Pubgishing Co, (1986) ,P. (55-56).

(٢) Max Siporin, Op.cit,. P, (144).

(٣) Harild D.Werner "Cognitive Theory" Social Work Treatment, 3rd Ed,. op.cit, . P . (115).

ولقد أطلق سيبورين (Siporin) على هذا المدخل اسم « المدخل السلوكي الاجتماعي » (Sociobehavioral Approach) ؛ نظرًا لأنه يعتمد على نظريات التعلم وتعديل السلوك ونظريات التنشئة الاجتماعية [١] . ويربط هذا المدخل وجود المشكلة الفردية بأحد أو بعض أو كل العوامل التالية :

أ – عدم قدرة المثيرات القائمة على إحداث الاستجابة المطلوبة .

ب – وجود مثيرات من شأنها إحداث استجابات مشكلة .

جـ – وجود نقص في الأدلة التي تساعد على التمييز .

د – تدعيم نتائج السلوك المشكل .

هـ – عدم كفاية تدعيم السلوك السوي .

و – وجود وقائع عقابية تكف السلوك السوي [٢] .

٢ – **مدخل الإمدادات الاجتماعية** (Social Provision Approach) :

ينظر هذا المدخل إلى الفرد بصفته مواطنًا له احتياجات يجب إشباعها من قبل النظم الاجتماعية المختلفة ، ولذلك يركز على الحقوق الاجتماعية والمساواة . ويرجع أسباب المشكلات التي يعاني منها الناس إلى سوء الأداء الوظيفي للبناء الاجتماعي والنظم الاجتماعية ، خاصة نظام الرعاية الاجتماعية والمتمثل في عدم توفير الموارد الكافية وعدم إعطاء فرص متكافئة للمعيشة على مستوى مناسب . ولقد وصف هذا المدخل بأنه حركة اجتماعية ضد الفقر ، وقدم لوتز (Lutz) هذا المدخل كنموذج للمساعدة في خدمة الفرد ، بينما قدمه بابل روثمان (Papell Rothman) باسم نموذج الأهداف الاجتماعية في خدمة الجماعة . وهو منظور تقليدي في حركة تنظيم المجتمع ، للإبقاء على التكيف الفعال بين مصادر الرعاية الاجتماعية وبين احتياجاتها [٣] .

٣ – **المدخل الإيكولوجي** «Ecologica Systems Approach » :

يعتمد هذا المدخل على مزيج من نظرية الأنساق الاجتماعية ، ونظرية الأنساق العامة ، والنظريات الإيكولوجية الإنسانية وهو ينظر للمشكلات على أنها تظهر نتيجة

---

(١) Max Siporiñ op. cit, . p. (145).

(٢) عبد العزيز فهمي إبراهيم النوحي ، نظريات خدمة الفرد ، (ط٢) ، بدون دار للنشر ، (١٩٨٣م) ، (ص ٥٩ – ٦١) .

(٣) Max Siporiñ op. cit, . p. (139 - 141).

للعمليات الانتقالية التي تحدث للفرد أثناء حياته ، ولعمليات التفاعل بين الأفراد ، كما ترجع إلى بعض القضايا البيئية [١] .

الفئة الثالثة

هي التي أخذت بالاتجاه التكاملي ومن أهمها وأكثرها انتشارًا ؛ المدخل النفسي الاجتماعي (Psychosocial) . وهو يميل إلى إرجاع المشكلة إلى تفاعل العديد من العوامل المادية ، والجسمية ، والبيولوجية ، والشخصية ، مع العوامل البيئية المختلفة . ولذلك تسعى الممارسة القائمة على هذا الاتجاه إلى فهم متكامل للفرد في مواقفه النفسية الاجتماعية كي تستطيع تقديم أفضل مساعدة له لاستغلال طاقاته بطريقة مرضية [٢] .

وعلى الرغم من وجود أكثر من اثنين وعشرين مدخلًا أو نظامًا فكريًّا – كما يسميها تيرنر (Turner) – لممارسة الخدمة الاجتماعية تختلف فيما بينها بدرجات متباينة ، فإن هناك إدراكًا متزايدًا واتفاقًا على أهمية التركيز على الموقف النفسي الاجتماعي للعميل (Psychosocial Situation) أكثر من التركيز على الوظائف الداخلية له (Inner-Functioning) ، وأهمية فهم الموقف الحالي للعميل بدلًا من الرجوع إلى تفاصيل مطولة لماضيه . كذلك فإن الاتفاق يفوق الاختلاف فيما يختص بأهمية العناصر المميزة لبيئة العميل وتداخلها [٣] .

أنواع المشكلات الفردية :

تصنف بيرلمان (Perlman) ، أهم المشكلات التي تواجه عملاء الخدمة الاجتماعية والمتعلقة بأدائهم لأدوارهم إلى :

١ – ضعف الوسائل المادية الملموسة أو عجزها ، وضعف في القدرات الشخصية يحد من أداء الدور ، وضعف في المعلومات والاستخدامات .

٢ – اضطراب الشخصية ، والضعف العقلي .

---

(١) Carel B.Germain , Introduction : Ecology and Social Work, "Social Work Practice, People and Environments, Ed, By Carel B.Germain , New York, Columbia University Press, (1979), p (18).

(٢) Francis J.Turner, "Psychosocial Theory", Social Work Treatment,3 rd,ed., op. cit,. p. (486).

(٣) Francis J.Turner? " A Multitheory Perspective for Practice" Social Work Treatment 3rd. Ed. Op. cit, p. (646 - 647).

٣ – التناقضات التي توجد في الدور ، وتشمل التعارض بين عدة أدوار ، والتعارض بين توقعات الفرد والآخرين ، أو بين الاحتياجات الشخصية ومتطلبات الدور : أو التعارض الناتج عن غموض تعريفات الدور وتناقضها .

كما صنف ريد (Reid) المشكلات التي يتعامل معها الأخصائي الاجتماعي كما يلي : صراعات بين الأشخاص ، وعدم الرضا في العلاقات الاجتماعية ، ومشكلات مع المؤسسات الرسمية ، وصعوبات في أداء الدور ، ومشكلات خاصة بالقرارات ، ورد فعل للضغوط الانفعالية ، ونقص الموارد ، ومشكلات نفسية أو اجتماعية أو سلوكية أخرى مما لم ترد في الأنواع السابقة . والتعريف المأخوذ به هنا للمشكلات هو : أنها رغبات غير مشبعة [١] .

يلاحظ مما سبق أن المنظور الغربي وإن كان قد أرجع حدوث المشكلات الفردية إلى العديد من العوامل ، إلا أنه أكد على العلاقة الطردية بين المشكلات والنقص في إشباع الحاجات الإنسانية ؛ ولذلك لا بد من عرض مفهوم الحاجات الإنسانية في النظريات الغربية ، ثم محاولة اكتشاف التصور الإسلامي لهذه الحاجات حتى يكون مدخلًا لتفسير المشكلات الفردية من المنظور الإسلامي .

الحاجات الإنسانية في العلوم الاجتماعية

مفهوم الحاجة (Need) :

اختلفت تعريفات الحاجة باختلاف العلوم المعرفة لها ، ففي علم النفس نظر إلى الحاجة على أنها مفهوم فرضي ، أي حالة مجردة أو فرضية ، ولكنه يرتبط بالعمليات الفسيولوجية الكامنة في الدماغ . ويرى (موراي) أن الحاجات إما أن تستثار داخليًا ، أو أن تأخذ في التحرك نتيجة لتنبيه خارجي . وفي أي من الحالتين تؤدي الحاجة إلى نشاط من جانب الكائن ، يستمر حتى يتغير موقف الكائن – البيئة بحيث تقل الحاجة ، فالحاجة مفهوم دافعي يماثل الاصطلاحات الأخرى كالدافع أو الرغبة أو الباعث أو المحرك [٢] .

وفي مجال السياسة الاجتماعية ظهر مفهوم الحاجات الأساسية (Basic Needs) وقسمت الحاجات الإنسانية الأساسية إلى نوعين :

---

(١) Hellen Northen, op. cit,. p . (173) .

(٢) ك . هول ، ج ، لندزي ، نظريات الشخصية : ترجمة ؛ فرج أحمد فرج ، وقدري محمود حنفي ، ولطفي محمد فطيم ، بدون دار للنشر ، (١٩٦٩م) ، (ص ٢٣١ – ٣٠١) .

الأول : الحاجات المادية (Material Needs) الضرورية لبقاء الإنسان على قيد الحياة مثل : الطعام ، المسكن ، الملبس ، سهولة التوصل للماء ، الصحة والأحوال المفضية إليها .

والثاني : الحاجات غير المادية : (Non Material) مثل : التعليم ، الحقوق الإنسانية الأساسية بمعناها الواسع الذي يشمل مثلًا الحق في العمل ، والحق في الاشتراك في إصدار القرارات السياسية والمشاركة في الحياة الثقافية القومية [١] .

ويعتبر تعريف الحاجة من المشكلات التي تتحدى البحوث في هذا المجال والتي لم تحل إلى الآن ، والحقيقة المهمة التي يجب أن تؤخذ في الاعتبار عند محاولة تعريف الحاجات هي أنها – أي الحاجات – عبارة عن أبنية نظرية (Theoretical Constructs) ولذلك فإنه لا يمكن إثبات وجودها بالطرق الفيزيائية المباشرة [٢] . والحكم على شخص ما أنه في حاجة إلى أشياء ضرورية لن يكون حكمًا قائمًا على حقيقة موضوعية ، ولكنه سيكون وجهة نظر ؛ لأن هناك متسعًا للاختلافات حول القيم التي بني عليها هذا الحكم [٣] .

تحديد الحاجات :

اختلف أصحاب نظريات الشخصية في وضع تصور لتحديد الحاجات التي يمكن من خلالها دراسة السلوك . فمنهم من أخذ بتنوع الدافعية وتعددها لدى الإنسان ، ومنهم من أخذ بعدد قليل من التصورات الدافعية .

ويعتبر (موراي) من ممثلي الفريق الأول حيث توصل نتيجة لدراساته إلى قائمة تتكون من عشرين حاجة ، ميَّز بينها على عدة أسس ، منها التفرقة بين الحاجات الأولية التي ترجع إلى إشباعات بدنية مثل : (الحاجة إلى الطعام ، الهواء ، الجنس ، الرضاعة) . الحاجات الثانوية ذات الأصل النفسي مثل : (الحاجة إلى الإنجاز ، والتقدير ، والسيطرة) . وهو يرى أن الحاجات لا تعمل منعزلة عن بعضها ولكن في تفاعل وتأثير متبادل ، ولقد بذل محاولات جادة لكي يصف ذلك التفاعل الجاري بين محددات السلوك ، فأقام الحجة على أن الحاجات تعمل دائمًا في خدمة بعض القيم ، أو بهدف تمهيد السبيل للوصول إلى

(١) Micheal Mann, Macmillan Student Encyclopedia of Sociology London; Macmillan Press,, (1983) , p . (259) .

(٢) Katrin Lederer, " Introduction " Human Needs Ed. By Katrin Lederer. Cambridge, Massachusetts, Oelgeschlager, Gunn & Hain, Publishers, Inc. , (1980) , p. (3) .

(٣) Micheal mann. Op. cit,. p. (258) .

حالة نهائية ، وبذلك فإن القيمة يجب أن تكون جزءًا من تحليل الدوافع [١] .

أما الفريق الثاني فمن أشهر ممثليه جولد شتين الذي يرى أن تحقيق الذات هو الدافع الوحيد لدى الكائن العضوي ، وما يبدو أنه تحركات مختلفة كالجوع والجنس والإنجاز ؟ ليس إلا مظاهر لغرض أسمى للحياة ، وهو تحقيق المرء لذاته . فعندما يكون الشخص جائعًا فإنه يحقق ذاته بتناول الطعام ، ويحتل إشباع أي حاجة نوعية المقام الأول عندما تكون شرطًا لتحقيق الذات للكائن العضوي بأسره [٢] .

نظرية ماسلو : (Maslow Theory) :

اشتهرت نظرية ماسلو في الدافعية الإنسانية ، واتفقت العديد من الآراء على أنها يجب أن تكون الأساس للبحوث والمناقشات ؛ فالنظام الهرمي الذي وضعه ماسلو يمثل نقطة انطلاق مهمة ومثمرة لعملية التنظير للعلاقة بين الحاجات الإنسانية وبين السياسة والمشكلات الإنسانية . وقول باي (Bay) أنه على الرغم من عدم وجود إثبات علمي كافٍ لصدق هذا النظام إلا أنه لا توجد أي نظرية بديلة في الحاجات الإنسانية أفضل من نظريته [٣] .

لذلك يفضل تناولها بقليل من التفصيل فيما يلي : يقرر ماسلو أن الحاجات الإنسانية تنتظم في تسلسل هرمي تبعًا لأولويتها ، وأطلق اسم الحاجات الدنيا على الحاجات الأكثر إلحاحًا ولها الأولوية ، وهي منظمة حسب قوتها كما يلي :

الحاجات الفسيولوجية أولًا ، ثم الحاجات المتعلقة بالأمن ، تليها الحاجات المتعلقة بالانتماء والحب ، ثم الحاجات المتعلقة بالقيمة والتقدير . وظهور أي حاجة للفرد يتوقف على إشباع الحاجة السابقة لها ؛ لذلك فإن الإنسان الذي في حاجة إلى الطعام والأمن والحب والتقدير ، سوف يسعى إلى الحصول على الطعام بقوة أكبر من سعيه إلى إشباع الحاجات الأخرى .

أما الحاجات العليا فهي الحاجات المتعلقة بتحقيق الذات ، فإذا أُشبعت لدى الإنسان الحاجات الدنيا ، ولو بدرجة جزئية ، عندها فقط يمر بتجربة الحاجات العليا (تحقيق

---

(١) ك . هول ، لندري ، مرجع سبق ذكره ، (ص ٢٣١ - ٢٣٧) ، (ص٢٤٦ ، ٣٩٨) .

(٢) ك . هول ، ج ، لندزي ، مرجع سبق ذكره ، (ص ٢٣١ - ٢٣٧) ، (ص ٢٤٦ ، ٣٩٨) .

(٣) Ross Fitzgerald, "Abraham Maslow's Hierarchy of Needs An Expositition and Evaluayion" Human Needs and Politics. Ed. By Ross Fitzgerald. New York, Pergamon Press, (1977) , p . (51) .

الذات) ، حيث لايكون قلقًا على حياته وعلى بقائه .

ويمكن إعطاء أمثلة من كل نوع ؛ فالحاجات الفسيولوجية مثل الحاجة للتخلص من الجوع والعطش ، والحاجة للنوم ، والحاجة للجنس ، والحاجة للتخلص من الألم ، ومن الأمثلة على حاجات الأمن ، الحاجة للحماية ، والبُعد عن الأخطار ، والاطمئنان على المستقبل .

أما حاجات الحب والانتماء فمن أمثلتها : الحاجة للأصدقاء ، والأسرة ، والانتماء لجماعة . ومن الأمثلة على حاجات القيمة والتقدير ؛ الحاجة للاحترام وللإعجاب ، والحاجة للشعور بالإعجاب بالنفس وبقيمتها ، والحاجة للشعور بالرضى عن الذات .

أما الحاجات العليا وهي حاجات تحقيق الذات ، فمن أمثلتها : الحاجة لتحقيق الطاقات الشخصية ، وتطوير الطموح والقدرات ، والقيام بالعمل الذي يناسب الشخص ، والحاجة إلى إنماء وتوسعة الاحتياجات العليا عن طريق اكتشاف الحقائق ، وإيجاد النظام ، وإظهار العدالة .

هذا ولم يضع « ماسلو » الحاجة إلى المعرفة والفهم في مكان محدد من التسلسل الهرمي للحاجات ، إلا أنه يؤكد أن الرغبة للمعرفة والفهم هي دوافع حقيقية نابعة من الحاجات الأساسية ، فالإنسان العادي لا يستطيع أن يأخذ موقفًا سلبيًّا تجاه العالم الذي يعيش فيه ، كما أنه لا يأخذ الأمور على علاتها ولكنه يستفسر ويطالب بمعرفة الأسباب . ولقد صنف « ماسلو » الحاجات المعرفية في تسلسل هرمي أيضًا . فتعتبر – مثلًا – الحاجة إلى معرفة العالم أساسية بشكل أقوى من الحاجة إلى ترتيب الأحداث في إطار . ومن أمثلة الحاجات المعرفية : الحاجة إلى التحليل ، الحاجة إلى إجراء تجارب ، وهي تظهر واضحة لدى الأطفال خاصة ، كذلك الحاجة إلى تفسيرٍ للأحداث وليس معرفتها فقط ، والحاجة إلى إيجاد معنى للحياة [١] .

ولم يذكر « ماسلو » أن هذه هي كل الحاجات الإنسانية ، لكنه أكد أن كل إنسان لديه هذه الحاجات . كما أنه أشار إلى أنه في حالة كون الحاجات العليا في مرحلة من مراحل عمر الإنسان نشيطة للغاية ، ثم تبعها حرمان من إشباع الحاجات الدنيا ، فإنه ليس من الضروري أن تُطفأ أو تخمد الحاجات العليا . ومثّل على ذلك بشخصية

---

(١) Nicholas S.Dicaprio, Personality Theories, Philadelphia, W.B.Saunders Company, (1974), p. (236 - 244).

« غاندي » الذي كان يحرم نفسه من الطعام في سبيل أهداف سامية ؛ لأن الحاجات العليا أصبحت أكثر أهمية لديه ، إلا أنه يقول : « إن الشخص الذي عاش حياته ولم يكن لديه قط طعام يكفيه - أي عاش في حرمان مستمر - لن تنشط عنده الحاجات العليا أبدًا » [١] .

ولقد وجه أنصار علم النفس التحليلي وعلم النفس السلوكي النقد إلى ماسلو ، كما وجهوه إلى علم النفس الإنساني بصفة عامة ، فوصف السلوكيون مفاهيم نظرية ماسلو بأنها غامضة وميتافيزيقية ، وعارضوا قوله بأن الحاجات الأساسية هي حاجات غريزية عالمية ، كما قال البعض أن نظريته تعتبر حيوية (Vitalist) وغائية (Teleogical) خاصة فيما يتعلق بمفهوم تحقيق الذات ، وأنها محملة بالقيم .

وهناك من يدافع عن نظرية ماسلو أمثال ميس (Mace) ، وتايلور (Taylor) ، فيعَّرف ميس الحاجة بأنها عمليات غرضية تهدف توجيه إلى السلوك إلى النهاية التي تقود إليها دينامية الاتزان . وهو يحل مشكلة الفرق بين القيمة والحقيقة بقوله : إن هذا الفرق يتضاءل جدًّا حتى يصبح خير الإنسان يتمثل في إشباع حاجاته . وإذ يعترف ماسلو بأن نظريته محملة بالقيم ولا يوجد غضاضة في ذلك ، نجده يطالب بأن تؤخذ - وبجدية - إمكانية تعامل العلم مع القيم بل إمكانية اكتشاف القيم بواسطة العلم ، إلا أن روس (Ross) يرى أن العلم الذي يصفه ماسلو ليس له علاقة بالقيم ، وأن أي اهتمام بالقيم غير علمي ، أما العلوم ذات الطبيعة فإنها درست القيم باعتبارها حقائق ، وعندما هاجم تايلور وجهة النظر التي تقول إن التفسير الغائي لا يمكن إدراكه بالحواس - (Non Empirical) « وأنه ميتافيزيقي ، علق روس قائلًا : « أنه حتى لو كان التفسير الغائي مقبولًا ، فإن هذا لا ينقذ نظرية ماسلو » ، حيث إن المشكلة الأساسية - من وجهة نظره - لا زالت قائمة والمتمثلة في التساؤل الذي لم يجب عنه ، والخاص بكيفية تحديد الهدف أو نموذج السواء أو المعيار الذي نقيس عليه إشباع حاجات الإنسان « أي كيف نقرر إن كان على مستوى راقٍ أو دون ذلك » .

أما عن التسلسل الهرمي للحاجات فقد لقي التأييد من العديد من المختصين حيث أثبتت التجارب العملية أولوية الحاجات الدنيا مثل : الجوع والعطش ، والحاجة إلى الأمن عن بقية الحاجات [٢] . وعندما سئل ماسلو عن السبب الذي جعل من الوصول إلى تحقيق الذات أمرًا نادرًا جدًّا بين الناس حيث تقل نسبته عن ١٪ ، أجاب بأن الحاجة إلى

(١,٢) Pross Fizgerald, op, cit. p.p. (236 - 244).

تحقيق الذات تقع في أعلى درجات السلم الهرمي لذلك فهي أضعفها ، كما أن ما يحدث أثناء التنشئة الاجتماعية من نقص في إشباع الفسيولوجية والحاجة إلى الأمن والتقدير يجعل من تحقيق الذات أمرًا صعبًا للغاية ، بالإضافة إلى أن تحقيق الذات يحتاج إلى كثير من الشجاعة ، ولا يكفي إشباع الحاجات الدنيا جميعها لكي ينشط تحقيق الذات ، بل يحتاج الأمر إلى بذل جهد وضبط للنفس ، ونظام ، وعمل شاق بل قد يكون الأمر مؤلمًا في بعض الأحيان ؛ لذلك فمن الأيسر على الإنسان أن يتخذ الموقف الأسهل الذي لا يحتاج فيه إلى بذل جهد ، ويضمن له الأمن والسلامة بعيدًا عن أي تحديات ، فالشخص المحقق لذاته يختبر نفسه باستمرار ويتحداها ، ولديه الشجاعة الكافية التي تجعله يسلك بطريقة بعيدة عن الروتين الذي يعهده ويضمن نتائجه [١] .

هذا أهم ما يمكن ذكره عن المفهوم الغربي للحاجات الإنسانية وفيما يلي محاولة للنظر إليها من المنظور الإسلامي ، يسبقها إشارة إلى موقف المختصين المسلمين في علم النفس والتربية تجاه هذه القضية .

الحاجات الإنسانية من المنظور الإسلامي

كتب العديد من المختصين المسلمين في علم النفس والتربية في قضية الحاجات والدوافع من المنظور الإسلامي ، ولقد اتسمت طبيعة كتاباتهم بالسمات التالية :

١ - الأخذ بمفهوم الحاجة وفقًا للتعريفات الواردة بالنظريات الغربية .

٢ - الالتزام بالتصنيف المعتاد عند أصحاب النظريات الغربية للحاجات (حاجات جسمية ، نفسية ، اجتماعية) مع تفسيرها والتدليل عليها من القرآن والسنة .

٣ - إضافة ما أسموه الحاجات الروحية ، وهنا نجد أن بعضهم قد أفردها وميزها عن الحاجات النفسية أمثال (يالجن) ، والبعض الآخر ضمها للحاجات النفسية) أمثال (نجاتي) ، وآخرون ضموها للحاجات الاجتماعية أمثال (محمد عودة وكمال إبراهيم) .

وقد عبر أصحاب الاتجاهين الآخرين عن تلك الحاجات الروحية بالحاجة إلى الدين ، أو الدافع إلى التدين والدوافع الأخلاقية .

٤ - الالتزام بالمصطلحات الغربية على الرغم من اختلاف مضمونها في بعض

---

(١) Duane Schultz, Theories of Personality, Second Ed. Monterey, California, Brooks/ Cole Publishing Company, (1981), p. (253) .

الأحوال عن المضمون المقصود من وجهة النظر الإسلامية ؛ مثال على ذلك مصطلح « تحقيق الذات » ، كما قد يختلف بعضها الآخر في معناه اللغوي مثل مصطلح « صراع » الذي يستخدم كثيرًا ، فهو يعني – كما جاء بالقرآن الكريم – أن يصارع طرف الطرف الآخر بهدف أن يصرعه ، فيفنيه [١] .

ونظرًا لأن الأخذ بمفهوم الحاجة كما جاءت به النظريات الغربية ، والمحدد في المتطلبات الضرورية للحفاظ على سلامة حياة الإنسان ونموه في الحياة الدنيا ، لا يتضمن الإشارة إلى ضوابط الإشباع ، بل تحدث عن الإشباع مطلقًا ، كما لو كان خيرًا كله ، فإنه يبتعد بهذا عن المنظور الإسلامي ، لذلك فلعله من الأفضل وضع تعريف للحاجة يمثل النظرة الإسلامية ، ويمكن أن يكون كما يلي :

الحاجة :

هي : كل « ما تستقيم به مصالح الإنسان في الدنيا والآخرة » . والإنسان وفقًا لهذا التصور يكون في حاجة إلى كل ما يجلب له المصلحة ، وإلى كل ما يدفع عنه المفسدة في الدنيا والآخرة . وتقدير المصالح هذا يتم في ضوء التوجيه الإلهي ، ولا يترك للعقل الإنساني حرية تقديره منفردًا . وهي بهذا تختلف عن الأهواء والرغبات ؛ فقد يرغب الإنسان في شيء يجلب إليه لذة مؤقتة – حتى لو كانت مستمرة طوال عمره – دون أن يكون في هذا مصلحته الحقيقية ، سواء أدرك ذلك أم لم يدركه . ومصلحة الإنسان الحقيقية – في التصور الإسلامي – هي في نعيم الدنيا والآخرة ، وليس الدنيا وحدها ؛ لذلك فإن المصلحة الأخروية الدائمة تصبح الهدف الصحيح الذي يجب أن يسعى إليه الإنسان من تحقيق مصالحه أو رغباته الدنيوية . وكما يقول الشاطبي : « إن المصالح المجتلبة شرعًا والمفاسد المستدفعة إنما تعتبر من حيث تقام الحياة الدنيا للحياة الأخرى ، لا من حيث أهواء النفوس في جلب مصالحها العادية أو درء مفاسدها العادية » [٢] . أي أن مجرد كونها مصلحة في نظر الشخص لا يعتبر ، والمعتبر هو أن تكون بحيث تقوم بها الحياة الدنيا للأخرى .

---

(١) محمد عمارة ، منهج في التعامل مع المصطلحات ، الجزائر ، ندوة قضايا المنهجية في الفكر الإسلامي ، (١٩٨٩م) ، (ص ٩) .

(٢) أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي ، الموافقات في أصول الشريعة ، الرياض ، مكتبة الرياض الحديثة ، بدون سنة النشر ، (٣٧/٣) .

وبذلك نرى أن تضمين المفهوم الإسلامي للحاجة لبعد الإيمان بالآخرة ووجوب طاعة اللَّه ﷻ قد منح المفهوم ضابطًا واضحًا وبينًا لإشباع الحاجات . وهو بذلك لا يسمح بحدوث أي اختلافات حول القيم التي يبنى عليها الحكم في كون حاجة ما ضرورية أم لا ؛ لأن القيم الإسلامية ثابتة لاخلاف عليها ، على عكس القيم في الثقافات الأجنبية غير الإسلامية التي تختلف من مجتمع إلى آخر . كما أنه يحدد لنا نموذج السواء ، أو المعيار المثالي الذي نقيس عليه مدى سلامة ورقي الأسلوب المتبع لإشباع الحاجات والذي تساءل عنه روس ، حيث لم تتمكن النظريات الغربية من الوصول إليه ، واللَّه – جل قدره – عليم ورحيم بعباده ؛ لذلك حدد في شريعته هذا النموذج السوي وأرشد إلى كيفية الأخذ به على يد رسله ، (فلا حجة لنا بعد الرسل) . كذلك فإن ربط الحاجة الإنسانية بالمصلحة الشرعية يجعل لها محتوى موضوعيًا يمكن تحديده وإثباته من القرآن والسنة . وبذلك لا تصبح هناك قيمة للرأي المذكور سابقًا والقائل بأنها أبنية نظرية لا يمكن إثبات وجودها بالطرق الفيزيائية .

تحديد الحاجات من المنظور الإسلامي :

بالرجوع إلى آيات القرآن الكريم ، يتضح لنا أن هناك حاجة أساسية ومهيمنة على جميع الحاجات – لأنها ضامنة لإشباعها جميعًا – ألا وهي الافتقار إلى اللَّه ﷻ ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر : ١٥] ويفسر ابن كثير قوله تعالى : ﴿ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ أي أنتم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات [١] .

كما يفسر الرازي قوله تعالى : ﴿ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ﴾ إعلام بأنه لا افتقار إلا إليه ولا اتكال إلا عليه ، وهذا يوجب عبادته لكونه مفتقرًا إليه ، وعدم عبادة غيره لعدم الافتقار إلى غيره ، كما أن المعنى المقصود بقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ هو ؛ فلستم أنتم فقراء واللَّه مثلكم من الفقر بل هو غني على الإطلاق ، ولستم أنتم لما افتقرتم إليه تركككم غير مقضي الحاجات بل قضى في الدنيا حوائجكم ، وإن آمنتم يقضي في الآخرة حوائجكم فهو حميد [٢] . فالإنسان في حاجة إلى اللَّه ؛ لأنه تعالى هو الذي

---

(١) أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي ، تفسير القرآن العظيم (جـ٤) ، ط . ١ ، بيروت ، دار الفكر ، (١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م) ، (٥٥٢/٣) .

(٢) محمد الرازي فخر الدين بن ضياء الدين عمر ، تفسير الفخر الرازي ، (١٦م) ، ط . ٣ ، بيروت ، دار الفكر ، (١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م) ، (م١٣) ، (١٣/٢٦) .

خلق وسخر ما في السموات وما في الأرض ؛ لإشباع حاجات الإنسان الدنيوية ، وهو في حاجة إلى شكر اللَّه (بعبادته) حتى تقضي احتياجاته في الدنيا وأيضًا في الآخرة .

والقرآن الكريم زاخر بالآيات التي توضح فضل اللَّه على عباده ، وحاجتهم إليه ، من أمثلة هذه الآيات : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴾ [الملك : ١٥ ، ١٦] ، كما قال ﷻ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك : ٣٠] ، كما قال في سورة النحل : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النحل : ٧٢] ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾ [النحل : ٨٠] والآيات [٥ : ١٦] من سورة النحل أيضًا توضح فضل اللَّه وتسخيره للسموات والأرض من أجل الإنسان ومن أجل قضاء حاجاته الدنيوية ، ثم قال عز من قائل : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : ١٨] ، كما قال تعالى على لسان سيدنا إبراهيم : ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ [الشعراء : ٧٥ - ٨١] . إذن فالله خالق الإنسان وخالق كل شيء ، مقدر الحاجات على الناس لعلمه ، ورازقهم بما يشبعها برحمته ، حتى أصبحت كل الحاجات إليه وحده وكل التوجه إليه وحده سواء أعطى أو منع بحكمته ، فإن أعطى ما يشبع الحاجات ، فلا يجوز إشباعها إلا وفقًا لأمره وإن منع فلا راد لقضائه ، وتكون استجابة الإنسان القبول لحكم اللَّه واليقين بما عنده .

ويمكن تحديد الحاجات الإنسانية بالنظر إلى مقاصد الشريعة الإسلامية كما صنفها الشاطبي في المواقف ، وذلك على الوجه التالي :

الحاجات الأساسية من منظور المصالح المقصودة من التشريع :

قسمت المصالح المقصودة من التشريع باعتبار آثارها في قوام أمر الأمة إلى ثلاثة أقسام : « ضرورية ، وحاجية ، وتحسينية » . والمصالح الضرورية هي التي تكون الأمة بمجموعها وآحادها في ضرورة إلى تحصيلها بحيث لا يستقيم النظام بإخلالها . وليس المقصود باختلال نظام الأمة هلاكها واضمحلالها ؛ لأن هذا قد سلمت منه أعرق الأمم الوثنية والهمجية ، ولكن المقصود أن تصير أحوال الأمة شبيهة بأحوال الأنعام بحيث لا تكون على الحالة التي أرادها الشارع منها .

وقد مثَّل الغزالي والشاطبي هذا القسم الضروري بما يلي :

« حفظ الدين – حفظ النفس – حفظ العقل – حفظ المال – حفظ النسل » [١] .

وبالنظر إلى هذه الضروريات على أنها تمثل الحاجات الأساسية للإنسان ، وذلك باعتبار الحالة التي يريدها اللَّه للإنسان وهي : أن يعرف الحق ويعتقده ، ويعرف الخير ويعمل به حسب وسعه ، فيحقق بذلك إنسانيته بعبوديته للَّه ، على عكس حالة الإنسان الذي انسلخ من إنسانيته لعدم قيامه بعبادة اللَّه ، فصار حيوانًا أو دون الحيوان كما وصف اللَّه تعالى الكفار : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٤] .

فعلى هذا الأساس يصبح ترتيب الحاجات الإنسانية كما يلي :

أولًا : الحاجة إلى حفظ الدين :

والدين هو عقيدة وشريعة ، والحفاظ عليه يقتضي الحفاظ على كل منهما . وحفظ العقيدة هو حفظ فطرة الإنسان السليمة (التوحيد) من أن يدخل عليها ما يفسدها وحفظ تصوراته من الفساد أو دخول الشك والريبة بها ، وحفظ الشريعة أي حفظ إرادة الإنسان وتوجهاته وأعماله من الفساد والانحراف عما شرعه اللَّه .

ثانيًا : الحاجة إلى حفظ النفس :

أي حفظها عن التلف قبل وقوعه [٢] ، ويتضمن هذا توفير الأمن على الحياة وهو من أعظم حاجات الكائن الحي .

ثالثًا : الحاجة إلى حفظ العقل :

أي حفظه من أن يدخل عليه خلل ؛ لأن دخول الخلل على العقل مؤدٍّ إلى فساد عظيم من عدم انضباط التصرف ، فالإنسان في حاجة إلى أن يبقى عقله في حالة صحية جيدة (الصحة العقلية) لكي يستطيع أن يقوم بمهام التكليف .

رابعًا : الحاجة إلى حفظ المال :

والمقصود بالمال هو ما يقع عليه الملك ، ويستوي في ذلك الطعام أو الشراب واللباس وجميع المتمولات التي لا غنى عنها لبقاء الإنسان على قيد الحياة [٣] .

---

(١) محمد الطاهر ابن عاشور ، مقاصد الشريعة الإسلامية ، تونس ، الشركة التونسية للتوزيع ، (١٩٧٨م) ، (ص٧٨ – ٨٠) .

(٢) محمد الطاهر ابن عاشور ، المرجع السابق ، (ص٨٠) .

(٣) أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي ، مرجع سبق ذكره ، (١٧/٢) .

خامسًا : الحاجة إلى حفظ النسل :

والنسل هو حفظ أفراد النوع ، فلو تعطل يؤول تعطيله إلى اضمحلال النوع وانتقاصه [١] ، هذه هي الحاجات الأساسية أو الضرورية التي لا تستقيم مصالح الإنسان في الدنيا والآخرة إلا بإشباعها .

أما مستويات الإشباع فيمكن تقسيمها كما يلي :

- المستوى الأول :

هو حفظها من العدم ، فلو عدم الدين عدم ترتب الجزاء المرتجى (وهو الفوز بالجنة والنجاة من النار) ، ولو عدمت النفس ، عدم من يتدين . ولو عدم العقل ، ارتفع التدين لأن العقل من شروط التكليف ، ولو عدم المال لعدم العيش ، ولو عدم النسل لم يكن هناك بقاء .

- المستوى الثاني :

ويتمثل في حفظ استمرار إشباع الحاجات الضرورية دون حرج أو مشقة ، بحيث يؤدي إلى انتظام المصالح على وجه حسن . ولهذا قد تتفرع من الحاجات الضرورية الخمس حاجات أخرى مكملة لها ، فتحسِّن من مستوى الإشباع .

- المستوى الثالث :

ويتمثل في حفظ استمرار إشباع الحاجات الضرورية بأحسن صورة ممكنة ، أي في أعلى المستويات . وغالبًا ما يحتاج الإنسان إلى أنواع أخرى من الحاجات متفرعة من الحاجات الضرورية الخمسة ، ومتممة لها ، وهذا المستوى يقابل المصالح التحسينية التي تقع موقع التحسين والتيسير للمزايا ، ورعاية أحسن المناهج في العادات والمعاملات .

هذا والآيات [٣٥ : ٤٠] من سورة إبراهيم ، تشير إلى أهم الحاجات التي طلب سيدنا إبراهيم من اللَّه ﷻ إشباعه له ولأهله ، وهي لا تخرج عن الحاجات السابقة الذكر ، فالحفاظ على الدين يتمثل في طلب سيدنا إبراهيم العصمة من الشرك أي التوحيد وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴾ . وطلبه أن يوفقه اللَّه للأعمال الصالحة أهمها الصلاة في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ ﴾ وكذلك في طلبه أن تتقبل عبادته وذلك في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴾ والحفاظ على النفس يتمثل في طلبه الأمن ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ . حيث ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد هنا جعل أهلها

(١) محمد الطاهر ابن عاشور ، مرجع سبق ذكره ، (ص٨١) .

آمنين . والحفاظ على المال يتمثل في طلبه الرزق في قوله تعالى : ﴿ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ . أما الحفاظ على النسل فيتضح في دعائه لبنيه وذريته .

ويذكر الرازي في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] أنه يدل على أن المقصود للعاقل من منافع الدنيا أن يتفرغ لأداء العبادات وإقامة الطاعات ، فإن إبراهيم عليه السلام بين أنه إنما طلب تيسير المنافع على أولاده لأجل أن يتفرغوا لإقامة الصلوات وأداء الواجبات [١] . ومن هنا يتضح السبب من تقديم الحاجة إلى صيانة الإنسان من الشرك عن الحاجة إلى الطعام ، حيث إشباع الحاجة إلى الطعام وغيرها من الضروريات المعيشية ، هي وسيلة لتحقيق الهدف الذي من أجله خلق الإنسان ، وهو عبادة اللَّه . كما أن التوحيد وعدم الشرك هو الأساس الذي تقوم عليه سائر العبادات والطاعات والأعمال الصالحة المقبولة ، فلن ينفع الإنسان أن يبقى على حياته بتوفر وسائل العيش ، إذا لم يكن موحدًا باللَّه ؛ لأن ذلك سيجعل نهايته النار في الحياة الأخرى ؛ فاللَّه يغفر الذنوب جميعًا إلا الشرك به . وبهذا نرى أن هذا الترتيب للحاجات يدعم مفهوم الحاجة ، كما سبق ذكره من المنظور الإسلامي .

يتضح من كل ما سبق أن المنظور الغربي يغفل تمامًا البُعد المتعلق بصلة الإنسان بخالقه والإيمان باليوم الآخر في تفسيره للمشكلات الفردية وتناوله للحاجات الإنسانية .

كما أنه من هذا المنظور يتصور أن بيئة الإنسان – مهما بلغت من كفاية – لن يمكنها إشباع كافة حاجاته ورغباته بصورة تشعره بالرضا والسعادة ، نظرًا لتنوع هذه الحاجات وتغيرها وتجددها بين لحظة وأخرى [٢] . ولا شك أن هذا الرأي – من المنظور الإسلامي على الأقل – قد جانب الصواب ، فتصور الرضا والسعادة بأنها لا تتحقق إلا إذا أشبعت حاجات الإنسان المادية والاجتماعية تصور غير صحيح ، وهو التصور الدنيوي البحت الذي يأخذ به من لا يؤمن بالآخرة وبالثواب والعقاب ، أما من يؤمن بها فإنه يرى في عدم إشباع حاجاته – لأي سبب كان – ابتلاءً إذا صبر عليه سيلقى خيرًا في الدنيا والآخرة ، فإن اللَّه عز وجل إن أراد يهد قلب المؤمن لليقين فيطمئن ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه . وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال : « **عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير . وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سرَّاءُ شكر . فكان**

(١) محمد الرازي فخر الدين ، مرجع سبق ذكره ، (م١٠) ، (١٤٠/١٩) .

(٢) عبد الفتاح عثمان ، خدمة الفرد والمجتمع المعاصر ، الطبعة السادسة ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، (١٩٧٧م) ، (ص١٦) .

خيرًا له . وإن أصابته ضرَّاءُ صبر فكان خيرًا له » [١] فالمؤمن يصبر على الضراء وقلبه يملأه الرضى واليقين بثواب اللَّه له في الآخرة .

هذا وعلى الرغم من إشارة بعضهم إلى أهمية القيم ووجوب أخذها في الاعتبار عند تحليل الحاجات مثل موراي الذي أكد على أن الحاجات تعمل في خدمة القيم ، وماسلو الذي دلل على ذلك إلا أن الأهداف في النهاية هي أهداف دنيوية فقط مهما كانت محملة بالقيم ، فالحياة الأخرى لم تدخل في اعتبارهم أصلًا وكأن حياة الإنسان في هذه الدنيا هي نهاية المطاف وأنه خلق عبثًا .

كما أن قول ماسلو بأن الإنسان الذي عاش حياته في حرمان مستمر ولم تشبع لديه الحاجة إلى الطعام ، لن تنشط لديه الحاجات العليا وبالتالي تحقيق الذات ، قول لا يتفق مع المنظور الإسلامي ، فالمعروف عن الرسول ﷺ وعن أصحابه ﷺ أنهم كانوا يجوعون كثيرًا . (نتيجة نقص الموارد) . كما ورد في الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت : « ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من خبز برٍّ ثلاث ليال تباعًا حتى قبض » [٢] .

ويشير محمد عودة ، وكمال إبراهيم - إلى هذه الفئة من المسلمين الأوائل أنهم كانوا يجدون تحقيق ذواتهم في الالتزام بما فرضه اللَّه من عبادات ومعاملات ، ويجدونها في التوبة والاستغفار بالليل والنهار ، ويجدونها في الحمد والشكر في السراء ، والصبر والاحتساب في الضراء . فتحقيق الذات عند المؤمن يكون في بقاء نفسه على مستوى حسن من الإحساس الدائم باللَّه ، والمصاحبة المستمرة له ، والشعور بالمسؤولية الكبيرة والواجب العظيم والأمانة السامية التي يحملها الإنسان في الحياة [٣] .

إذًا فتحقيق الذات عند المؤمن هو تحقيق العبودية للَّه ﷻ ، وبذلك يظهر الفرق بين المنظور الغربي والمنظور الإسلامي لمضمون تحقيق الذات . وبينما يضع ماسلو الحاجة إلى تحقيق الذات في أعلى درجة للحاجات الإنسانية ، يضع المنظور الإسلامي الحاجة إلى حفظ الدين - الذي يتمثل فيه تحقيق ذات المؤمن أو العبودية للَّه - في أول درجات سلم الحاجات .

كما اتضح أن إشباع الحاجة إلى حفظ الدين تعتبر الهدف من إشباع الحاجات المادية

---

(١) أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم ، (٤م) ، ط . ٢ ، بيروت ، دار الفكر ، (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م) ، (م٤) ، كتاب الزهد ، باب (١٣) .

(٢) أبو الحسين مسلم بن الحجاج ، المرجع السابق ، (م٤) كتاب الزهد .

(٣) محمد عودة محمد ، كمال إبراهيم مرسي ، الصحة النفسية في ضوء علم النفس والإسلام ، الطبعة الثانية ، الكويت ، دار القلم ، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م) ، (ص ١٠٨) .

الأخرى التي تحافظ على بقاء الإنسان ؛ لذلك يمكن اعتبارها وظائف غائية (Consummatory Functions) واعتبار إشباع الحاجات المادية الأخرى وظائف وسيلية (Instrumental Functions) وذلك على غرار التصنيف الذي وضعه بارسونز (Parsons) لوظائف النظم الاجتماعية التي تعمل على بقائها واستمرارها [١] . فإذا تصورنا الإنسان كنسق له وظائف غائية وأخرى وسيلية ، تنشأ المشكلات المختلفة باختلاف نوعية الخلل ودرجته ، فإذا كان هناك خلل في الوظائف الغائية ، أي في إشباع الحاجة إلى حفظ الدين ، إما بفساد في التصور (أي في الاعتقاد) وإما بفساد الأعمال (السلوك المنحرف عن الشريعة) أو بكليها ، وذلك مع صحة وسلامة الوظائف الوسيلية المتمثلة فبإشباع الحاجات المتصلة بالبقاء ؛ سينتج هناك مشكلات قد تكون واضحة وملموسة ، وذلك في حالة كون الفساد في الأعمال أو غير ملموسة ، أو غير مدركة في حالة كون الفساد في الاعتقاد . وهنا يظهر مرة أخرى الفرق بين النظرة الإسلامية للمشكلات والنظريات الغربية التي لا تعتبر هناك مشكلة في مثل هذه الحالة ؛ حيث الحاجات المادية المشبعة بطريقة سليمة لم تدفع الإنسان إلى الخروج عن السواء أو تعدي القوانين المجتمعية ، أما سلامة الاعتقاد وصحة تصور الإنسان للخالق وعلاقته به ، لا تدخل أصلًا ضمن الوظائف الغائية للنسق الإنساني من المنظور الغربي ؛ لذلك لا يرونها مشكلة ، فسلامة الاعتقاد أو فساده ، لا تهم ما دام الإنسان قادرًا على التوافق مع بيئته الاجتماعية . أما المنظور الإسلامي فيراها مشكلة عظيمة ؛ وذلك لأنه يأخذ في اعتباره الحياة الأخرى ، فإذا فسدت عقيدة الإنسان بالكفر باللَّه أو الشرك به فإن عاقبته النار . فمهما تمتع في حياته الدنيا فإنها فانية والحياة الأخرى هي الباقية ، يقول عز من قائل : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران : ١٩٦ ، ١٩٧] ، وفي آية أخرى يتضح بجلاء أهمية صحة الاعتقاد وسلامة الوظائف الغائية ، حيث تعقد مقارنة بين مجموعة من الناس وظائفهم الغائية سليمة بجانبيها (اعتقاد – وسلوك) وبين مجموعة أخرى وظائفهم الوسيلية سليمة ولديهم خلل في وظائفهم الغائية خاصة الجانب الاعتقادي .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد : ١٢] .

---

(١) Fred M.Cox, ‘‘Introduction’’, Strategies of Community Organization, Ed. By Fred M.Cox, and Others, Itasca, Illnois; F.E Peacock Publishers, Inc, (1987) , p . (192).

فالإيمان والعمل الصالح يمثلان الوظائف الغائية السليمة لدى المجموعة الأولى ، والكفر يمثل فساد الوظائف الغائية لدى المجموعة الثانية كما يمثل تمتعهم بالمأكل والمشرب في الحياة الدنيا بسلامة الوظائف الوسيلية .

أما إذا كان الخلل في الوظائف الوسيلية ، أي يكون هناك نقص في إشباع الحاجات المادية والنفسية الضرورية ، مع سلامة الوظائف الغائية بجانبيها ، فلا شك أن الإنسان سيكون معرضًا لمشكلات ، مثل : الفقر ، الشعور بالظلم الاجتماعي ، قد يتعوض للمرض ، الجهل ، وهو قد يستطيع أن يتغلب على هذه المشكلات بفضل اللَّه عن طريق قوة الوظائف الغائية أي قوة الإيمان باللَّه والتوكل عليه وطاعته وعدم الوقوع في المعاصي . ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في قصص الأنبياء عن ابتلاء اللَّه تعالى لهم ، وكيف صبروا على ذلك وتوجهوا للَّه ﷻ يدعونه رغبةً ورهبةً وكانوا له خاشعين ، فاستجاب لهم ربهم ونجَّاهم وأعطي لكل طلبه في الدنيا قبل الآخرة ، ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣- ٩٠] كما يقول تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥] ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١] .

وتظهر من هذه الآيات أهمية مجاهدة النفس والصبر حتى ينال الإنسان رضا اللَّه فيستطيع بفضله أن يتغلب على مشكلاته ، ويتفاوت الناس في مدى استطاعتهم التغلب على مشكلاتهم نظرًا لتفاوتهم في المقدرة على جهاد النفس والصبر المتوقفة على قوة إيمانهم باللَّه وتوكلهم عليه والتزامهم بطاعته أي على مستوى إشباعهم الحاجة لحفظ الدين (الوظائف الغائية) ، فقد يكون الفساد تامًّا فلا يشكل لدى صاحبه مشكلة ؛ لأنه لا يشعر بإزعاج بل يتمتع بحياته الدنيوية ، أو ربما لا يكون

الفساد تامًّا بحيث يشكل لديه نوعًا من القلق والشك وعدم الاطمئنان بما وجد عليه نفسه من كفر أو شرك . وتؤكد النتائج التي جاءت بها الدراسة التي قام بها سوليفان على أشخاص مسلمين يمرون بأزمات ويشعرون بتوتر نتيجة عدم استطاعتهم تحمل أعبائهم ، أن السبب في ذلك يرجع إلى العديد من العوامل التي أهمها تفسيرهم الخاطئ لأحداث الحياة وللودائع التي يمنحها اللَّه لهم (الثروة ، القوة ، العقل) باعتقادهم أنها إنجازات بشرية . كما أنهم يوجهون اعتمادهم وخضوعهم إلى الوجهة الخاطئة (الشرك) ، وتقرر الدراسة أيضًا أن الشخص الذي يعاني من الاضطراب العصبي أو الاختلال العقلي هو شخص إما أنه قد أنكر الإيمان باللَّه ، أو أن توجهه لعبادة اللَّه والإيمان به تتخلله تناقضات ، ومعتقدات خاطئة [١] .

وبهذا نرى أنه لكي نحدد أبعاد المشكلة الفردية ونتوصل إلى مسبباتها ، لا بد من التعرف على مدى قوة إيمان الفرد باللَّه ﷻ وصحة اعتقاداته وتوجهاته ، والقلب كما جاء في الكتابات الإسلامية هو محل معرفة اللَّه ﷻ والإيمان به ؛ لذا فمن خلال دراسة أحوال القلوب نستطيع أن نكوِّن خلفية معرفية تمكنا من تقدير موقف الفرد من حيث معرفته باللَّه واستعانته به .

فما هي أحوال القلوب ؟

لقد أوجزها الرسول ﷺ في الحديث الذي صح عن حذيفة ﷺ ، أنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **القلوب أربعة ؛ قلب أجرد فيه سراج مزهر فذلك قلب المؤمن ، وقلب أغلف فذلك قلب الكافر، وقلب منكوس فذلك قلب المنافق ، عرف ثم أنكر، وأبصر ثم عمي ، وقلب تمده مدتان ؛ مدة إيمان ، ومدة نفاق ، فهو لما غلب عليه منهما** » [٢] وفيما يلي شرح لهذا الحديث :

أولًا : حالة قلب المؤمن :

هو قلب أجرد أي متجرد عما سوى اللَّه ﷻ ورسوله صلوات اللَّه عليه ، فقد تجرد وسلم مما سوى الحق ، وفيه سراج يزهو وهو مصباح الإيمان [٣] .

والإيمان هو اعتقاد بالقلب ، ونطق باللسان ، وعمل بالأركان . وعن الشافعي أنه

---

(١) جون ، سوليفان ، وجهة النظر الإسلامية بالنسبة للأشخاص المعرضيين للأزمة ، المسلم المعاصر ، العدد (٢١) ، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م) ، (ص ١٢٨ - ١٣٠) .

(٢ ، ٣) محمد السفاريني الحنبلي ، شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد ، ط . ٢ ، الطبعة الثانية ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، (١٣٩١هـ) ، (٥٤٦/٢) .

قال : « الإيمان قول وعمل ، ويزيد وينقص ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية » [١] . ولقد حدد ابن تيمية أصول الإيمان وقواعد الدين في :

« محبة اللَّه ورسوله ، والتوكل على اللَّه ، وإخلاص الدين للَّه ، والصبر على حكمه ، والشكر له ، والخوف منه ، والرجاء له ، وما يتبع ذلك » . وقسم الناس بالنسبة إلى قيامهم بهذه الأعمال على ثلاث درجات هي :

١ - ظالم لنفسه : العاصي بترك مأمور أو فعل محظور .

٢ - المقتصد : المؤدي الواجبات والتارك المحرمات .

٣ - السابق بالخيرات : المتقرب بما يقدر عليه من فعل واجب ومستحب والتارك للمحرم والمكروه [٢] .

وعن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما أن الرسول ﷺ قال : « **ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ؛ أن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا للَّه ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار** » . ويذكر ابن حجر في شرح هذا الحديث عن الشيخ محيي الدين أنه قال : « معنى حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات ، وتحمل المشاق في الدين ، وإيثار ذلك على أعراض الدنيا » ، ومحبة العبد للَّه تحصل بفعل طاعته وترك مخالفته ، وكذلك الرسول . كما قال البيضاوي ؛ المراد بالحب هنا الحب العقلي الذي هو إيثار ما يقتضي العقل السليم رجحانه ، وإن كان على خلاف هوى النفس كالمريض يعاف الدواء بطبعه فينفر منه ، ويميل إليه بمقتضى عقله فيهوى تناوله . فإذا تأمل المرء أن الشارع لا يأمر ولا ينهى إلا بما فيه صلاح عاجل أو خلاص آجل ، والعقل يقتضي رجحان ذلك ، تمرن على الائتمار بأمره بحيث يصير هواه تبعًا له ، ويلتذ بذلك التلذذ عقليًا ؛ إذ الالتذاذ العقلي إدراك ما هو كمال وخير من حيث هو كذلك [٣] .

---

(١) أحمد بن تيمية ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، (جـ٣٦) ، ط.١ ، جمع وترتيب ، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي وابنه محمد ، الرياض ، مطابع الرياض ، (١٣٨١هـ) ، (٦/١٠ ، ٧) .

(٢) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، (١٣م) ، بيروت ، دار المعرفة ، (١٣٧٩هـ) (م١) ، (ص ٤٦ ، ٤٧) .

(٣) أحمد بن تيمية ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، (٣٦) ، ط.١ ، جمع وترتيب : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي وابنه محمد ، الرياض ، مطابع الرياض ، (١٣٨١هـ) ، (٦/١٠ ، ٧) .

ويقول الغزالي ؛ إن المحبة هي علامة المعرفة ، فمن عرف اللَّه تعالى أحبه وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها . من المحبوبات [١] كما يقول ابن تيمية أنه « كلما ازداد القلب حبًّا للَّه ازداد له عبودية (طاعة وتقوى) ، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبًّا وحرية عما سواه » [٢] .

هذا ويذكر الرازي ما قاله الواحدي في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢] إن كل من كانت الدلائل عنده أكثر وأقوى كان أزيد إيمانًا ؛ لأنه عند حصول كثرة الدلائل وقوتها يزول الشك ويقوى اليقين [٣] . ولقد جاء في حديث للرسول ﷺ ما يفيد أنه أعلم الناس باللَّه ﷻ وأتقاهم [٤] ، وبهذا يتضح أن هناك علاقة طردية بين معرفة الإنسان للَّه ﷻ وبين إيمانه وتقواه .

كما يمكننا أن نحدد مدى قوة أو ضعف إيمان الفرد بدقة أكبر إذا ما استطعنا الاستفادة من مفهوم شعب الإيمان . حيث قال الرسول ﷺ : « **الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا اللَّه ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان** » [٥] .

يقول ابن حجر : إن معنى الشعبة القطعة ، ولكن المراد هنا الخصلة ، ولقد قسم عمر ابن عبد العزيز ﷺ شعب الإيمان إلى :

– فرائض أي أعمالًا مفروضة ، شرائع أي عقائد دينية ، حدود أي منهيات ممنوعة ، سنن أي مندوبات .

كما قسمها القاضي عياض إلى :

– أعمال القلب الذي فيه المعتقدات والنيات ، وتشتمل على أربع وعشرين خصلة ، أعمال اللسان وتشتمل على سبع خصال ، أعمال البدن وتشتمل على ثمانٍ وثلاثين خصلة [٦] ولقد ذكر جميع الخصال بالتفصيل .

---

(١) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، مرجع سبق ذكره ، (م١) ، (ص٦٠ ، ٦١) .

(٢) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، (٤جـ) ، دمشق ، مكتبة عبد الوكيل الدروبي ، (د.ت) ، (٥٤/٣) .

(٣) أحمد بن تيمية ، مرجع سبق ذكره ، (م١٠) ، (ص١٩٣) .

(٤) محمد الرازي فخر الدين ، مرجع سبق ذكره ، (م ٨) ، (ص١٢٢) .

(٥) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، مرجع سبق ذكره ، (م١) ، (ص٧٠) .

(٦) أبو الحسين مسلم بن الحجاج ، مرجع سبق ذكره (كتاب الإيمان) ، (م١) .

فإذا أمكن الاستفادة من هذه التقسيمات بالإضافة إلى تقسيم ابن تيمية للناس – سابق الذكر – في تصميم أداة أو أكثر لقياس مدى التزام العميل المسلم بشعب الإيمان وتحديد مواطن الضعف والقوة لديه ، وتحديد ما ينقصه من معرفة باللَّه أو ما هو غافل عنه ، فإن ذلك دون شك سيساعد على التشخيص السليم لما يعانيه من مشكلات أوأزمات .

والجدير بالذكر أن هناك من قام بالفعل بتصميم مقياس لمستوى التدين يمكن الاستفادة منه وتطويعه ليناسب عمل الأخصائي الاجتماعي [١] .

ثانيًا : حالة قلب الكافر :

وهو قلب أغلف ؛ لأنه داخل في غلافه وغشائه ، فلا يصل إليه نور العلم والإيمان [٢] . وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [البقرة: ٦ ، ٧] الختم هو الطبع ، قال ابن جرير : إن رسول اللَّه ﷺ أخبر أن « الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها ، وإذا أغلقتها أتاها حينئذٍ الختم من قِبَل اللَّه تعالى والطبع ، فلا يكون للإيمان إليها مسلك ، ولا للكفر عنها مخلص » [٣] .

هذا كما جاء في العديد من آيات القرآن الكريم أوصاف لقلوب الكفار حددها القرطبي في تفسيره بعشرة أوصاف هي : « الختم ، والطبع ، والضيق ، والمرض ، والرَّين ، والموت ، والقساوة ، والانصراف ، والحمية ، والإنكار » [٤] .

والكفر كما سبق الإشارة يمثل فساد الوظائف الغائية لدى الإنسان لذلك فهو أعظم المشكلات ولا سبيل لحلها سوى التحول من حالة الكفر إلى حالة الإيمان بتوفيق من اللَّه ﷻ .

ثالثًا : حالة قلب المنافق :

وهو القلب المنكوس أي المكبوب ، وهذا أشر القلوب وأخبثها فإنه يعتقد الباطل حقًّا

---

(١) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، مرجع سبق ذكره ، (م١) ، (ص ٤٧ ، ٥٢) .

(٢) صالح بن إبراهيم بن عبد اللطيف الصنيع ، « العلاقة بين مستوى التدين والسلوك الإجرامي » ، رسالة دكتوراه ، كلية العلوم الاجتماعية ، قسم علم النفس ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، (١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م) .

(٣) محمد السفاريني الحنبلي ، مرجع سبق ذكره ، (ص٥٤٦) .

(٤) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، جامع البيان في تفسير القرآن ، (٣٠جـ) ، بيروت ، دار المعرفة ، الطبعة الاولى ، (١٤٠٩هـ) ، (م١) ، (ص ٨٧) .

ويوالي أصحابه ، والحق باطلًا يمادي أهله [١] .

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة : ٨ - ١٠] .

ولقد أجمع المفسرون أن هذه الآيات جاءت في وصف المنافقين والمنافق هو من يقول بلسانه أنه مؤمن وضميره يخالف ذلك [٢] ، وتأويل المرض الذي وصف اللَّه أنه في قلوب المنافقين هو الشك في اعتقادات قلوبهم وأديانهم وما هم عليه في أمر محمد رسول اللَّه ﷺ ، وأمر نبوته وما جاء به [٣] .

ولقد وُصف قلب الكافر والمنافق بالموت ؛ لأنه لا يعرف ربه ، ولا يعبده بأمره ، وبما يحب اللَّه ويرضاه ، بل هو واقف مع شهواته وإرادته ، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه ، لعدم مبالاته إذا فاز بشهواته رضى ربه أم سخط ، فهو متعبد لغير اللَّه ، فهو إن أحب أحب لهواه ، وإن أبغض أبغض لهواه ، وكذلك منعه وإعطاؤه . وهو على عكس قلب المؤمن الذي سلم من كل ذلك وأخلص عبادته وعمله للَّه [٤] .

رابعًا : قلب له مدتان :

وهو القلب الذي لم يتمكن فيه الإيمان ، ولم يزهر فيه سراج ليدفع شبهات الباطل ، وشهوات الغي ، بل فيه مدة من الإيمان وهو كونه يشهد للَّه بالوحدانية ولنبيه ﷺ بالرسالة ، وأنه من أمته التابعين لظاهر شريعته وفيه مدة من خلافه ، وهي ظلمات الجهل ، وغيم الشبهات ، وهوى الشهوات الذي أطفأ مصباح بصيرته [٥] .

ومدة النفاق المذكورة في الحديث يقصد بها نفاق العمل فكما ذكر ابن كثير أن النفاق أنواع : « اعتقادي » وهو الذي يخلد صاحبه في النار ، و « عملي » وهو أكبر الذنوب [٦] .

وكما جاء في حديث رسول اللَّه ﷺ : « **آية المنافق ثلاث ؛ إذا حدث كذب ، وإذا**

---

(١) أبو عبد اللَّه محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (٢٠جـ) ، ط . ٢ ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) ، (١٨٦/١) .

(٢) محمد السفاريني الحنبلي ، مرجع سبق ذكره ، (ص٥٤٧) .

(٣) محمد الرازي فخر الدين ، مرجع سبق ذكره ، (م١) ، (ص٦٤) .

(٤) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، مرجع سبق ذكره ، (م١) ، (ص٩٤) .

(٥) محمد السفاريني الحنبلي ، مرجع سبق ذكره ، (ص ٥٤٣ ، ٥٤٤) .

(٦) محمد السفارينى الحنبلي ، مرجع سبق ذكره ، (ص٥٤٧) .

وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » . فهذا القول إنما خرج على سبيل الإنذار للمرء المسلم ، والتحذير له من أن يعتاد هذه الخصال ، فتقضي به إلى النفاق ، لإن من بدرت منه هذه الخصال أوفعل شيئًا من ذلك من غير اعتياد أنه منافق ويدل عليه التعبير بإذا ، فإنها تدل على تكرار الفعل [١] .

ولقد وصف هذا النوع من القلوب بالمرض ؛ لأنه قلب له حياة وبه علة ، فله مدتان بمد بهذه مرة وبهذه أخرى فهو ممتحن داعيين ، داعٍ يدعوه إلى اللَّه ورسوله والدار الآخرة ، وداعٍ يدعوه إلى العاجلة . فما يلقيه الشيطان في الأسماع والأذهان من الألفاظ ، وفي القلوب من الشبه والشكوك والظنون والتخيلات الباطلة ، فتنة للقلب الميت والقلب المريض ، وقوة للقلب الحي السليم ؛ لأنه يرد ذلك ويكرهه ويبغضه ، ويعلم أن الحق في خلافه ، فيخبت للحق قلبه ويطمئن وينقاد ، ويعلم بطلان ما ألقاه الشيطان من سوء الاعتقاد ، فيزداد إيمانًا بالحق ومحبة له وكفرًا بالباطل وكراهة له [٢] .

وهكذا يظهر دور الشيطان في إبقاء القلب الميت على حالته ، وإبقاء المريض على مرضه أو زيادته سوءًا ، فتزداد المشكلات حدة وإزمانًا .

هذا ولعل دور الشيطان كأحد العناصر المسببة للمشكلات من أبرز الفروق بين التفسير الإسلامي والتفسير الغربي . ونحن نجد الشخص المسلم العادي يضعه في اعتباره دائمًا ويرجع حدوث العديد من المشكلات إليه ، لذلك فإنه من المفيد الإشارة بإيجاز شديد إلى دور الشيطان في حدوث المشكلات وتعقيدها .

أولًا : موقع الشيطان من الإنسان :

قال اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف : ٥] ، وفي آية أخرى يوضح اللَّه ﷻ الموقع الذي يجب أن يتخذه الإنسان من الشيطان : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر : ٦] . كما جاء في حديث للرسول ﷺ : « **إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم** » [٣] ، وفي حديث آخر : « **كلَّ بني آدم يطعن الشيطانُ من جنبيه بأصبعيه حين يولد ....** » [٤] .

---

(١) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ، مرجع سبق ذكره ، (٤٨/١) .

(٢) أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد ، شرح السنة ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، وزهير الشاويش ، (٦ج) ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، (١٩٧١م) ، (٧٦/١) .

(٣) محمد السفاريني الحنبلي ، مرجع سبق ذكره ، (ص ٥٤٤، ٥٤٥) .

(٤) أحمد بن علي بن حجر ، مرجع سبق ذكره ، (م ١٣) ، كتاب الأحكام ، (ص ١٥٩) .

ثانيًا : يتحدد دور الشيطان في أهم الأعمال التالية :

١ - التزيين والإغواء والاستهواء [١] .

٢ - الوعد ، والتسويل ، والتخويف [٢] .

٣ - النزاع بين الناس وإيقاع العداوة بينهم والحزن [٣] .

٤ - مس الإنسان بالنصب والعذاب [٤] .

٥ - إيقاع النسيان لذكر اللَّه بالإنسان [٥] .

٦ - تعليم الناس السحر [٦] .

ويقول ﷻ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ٨٣] ، كما يقول تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل : ٩٩] . فالله بفضله يمن على المؤمنين المتوكلين عليه بدفع الشيطان عنهم ، إلا أن هذا لا يدل على أنه لا يتعرض لهم أبدًا بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠١] . فطائف من الشيطان هنا مس المتقين ، إلا أن اللَّه بفضله جعلهم يتذكرونه فيبصرون ، ويذهب ذلك الطائف . ولقد تفضل اللَّه عليهم بذلك لأنهم متقون . فلا بد للإنسان المؤمن المتوكل على اللَّه أن يحافظ على هذه النعمة ويتقي اللَّه حتى ينال فضل اللَّه في دفع الشيطان عنه ، ويغلق هذا الباب من أبواب دخول المشكلات .

ولقد فصل الغزالي مداخل الشيطان إلى القلب ، بطريقة توضح كيفية قيام الشيطان بدوره مع الإنسان بشكل يفيد في تفسير المشكلات الفردية ، فلقد مثل القلب بالحصن ، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن عن طريق أبوابه ومداخله . التي تتمثل في صفات العبد وهي كثيرة ، نشير إلى أهمها :

« الغضب ، والشهوة ، والحسد والحرص ، والشبع من الطعام ، وحب التزين من

---

(١) أحمد بن علي بن حجر ، مرجع سبق ذكره ، (م ٦) ، كتاب بدء الخلق ، (ص ٣٣٧) .

(٢) القرآن الكريم : [الحجر : ٣٩] ، [النساء : ٦٠] ، [الأنفال : ٤٨] .

(٣) القرآن الكريم : [النساء : ١٢٠] ، [البقرة : ٢٦٨] ، [محمد : ٢٥] ، [آل عمران : ١٧٥] .

(٤) القرآن الكريم : [الإسراء : ٥٣] ، [يوسف : ١٠٠] ، [المائدة : ٩١] ، [المجادلة : ١٠] .

(٥) القرآن الكريم : [ص : ٤١] ، [الأعراف : ٢٠١] .

(٦) القرآن الكريم : [يوسف : ٤٢] ، [المجادلة : ١٩] .

الأثاث والثياب والدار ، والطمع في الناس ، والعجلة وترك التثبت من الأمور ، وحب الأموال من العروض والعقار وغيره ، والبخل وخوف الفقر » [١] .

فالشيطان يدخل إلى قلب الإنسان من خلال صفاته هذه الذي طبع عليها ويستخدم أساليبه في التزيين والاستهواء ، والتخويف والتسويل ، حتى يوقع الإنسان في معصية اللَّه ﷻ فيتجاوز حدود اللَّه ويأخذ الشيء من حيث حذره اللَّه عليه . وبذلك تحدث المشكلات .

ولكن الشيطان ليس هو العدو الوحيد للإنسان ، فهناك النفس المذمومة فإنها تأمر بكل سوء هذا من طبيعتها ، فما تخلص أحد من شرها إلا بتوفيق اللَّه . قال تعالى على لسان نبيه يوسف : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [يوسف : ٥٣] وفي حديث صحيح عن الرسول ﷺ أنه استعاذ باللَّه من شرور الأنفس ومن سيئات الأعمال . فالشر كامن في النفس ، وهو يوجب سيئات الأعمال ، فإذا خلَّى اللَّه بين العبد وبين نفسه هلك بين شرها وما تقتضيه من سيئات الأعمال ، وإن وفقه اللَّه وأعانه نجا من ذلك كله. والنفس الأمارة بالسوء هذه جعل الشيطان قرينها ، فهو يعدها ، ويمنيها ، ويقذف فيها بالباطل ، ويأمرها بالسوء ويزينه لها [٢] .

ننتهي مما سبق إلى أن المشكلات الفردية غالبًا ما ترجع إلى أحد أو بعض العوامل التالية : -

١ - الفساد التام في الاعتقاد الذي أساسه عدم التوحيد باللَّه سبحانه ، وعدم الإيمان باليوم الآخر (موت القلب) .

٢ - أنواع من الفساد في الاعتقاد وفي الإرادة (مرض القلب ، مرض شبهة ، ومرض شهوة) .

٣ - النفس الأمارة بالسوء .

٤ - الشيطان .

وهذا لا يعني أن الإنسان المؤمن التقي لا تعرض له المشكلات ، فكما سبق الذكر أن النسق الإنساني إذا كان سليمًا تمامًا في وظائفه الغائية ، وأصابه خلل في وظائفه

---

(١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، مرجع سبق ذكره ، (٢٧/٣ - ٣١) .

(٢) ابن رجب الحنبلي ، ابن القيم ، أبو حامد الغزالي ، تزكية النفوس وتربيتها كما يقرره علماء السلف ، تحقيق : ماجد بن أبي الليل ، جمع وترتيب أحمد فريد ، بيروت ، دار القلم ، (د.ت) ، (ص٧٣ ، ٧٤) .

الوسيلية ، فلا شك أن هذا الخلل ينتج عنه مشكلات . فالرسول صلوات اللَّه عليه ذو القلب السليم ، الذي تغلب على نفسه ، وتغلب على شيطانه فجعله مسلمًا - كما ورد في الحديث الشريف [١] - كان يتعرض للعديد من المشكلات مثل : أذية المشركين له ، ونقص في الموارد المادية ، والمرض ؛ إلا أنه بفضل اللَّه عليه كان يواجهها بقوة وثبات . وإذا كان هذا حال الرسول ﷺ الذي اصطفاه اللَّه على العالمين ، فإن حال الصحابة والصالحين كان قريبًا من حال الرسول ﷺ بدرجة أو بأخرى . ولعل الموقف الذي تعرَّض له الرسول ﷺ وصاحبه أبو بكر عندما كانا مختبئين في غار ثور هربًا من المشركين ، وشعور أبو بكر بالجزع ، فطمأنه الرسول ﷺ بقوله : « **يا أبا بكر ما ظنك باثنين اللَّه ثالثهما** » [٢] . ولقد قال تعالى في ذلك : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] . يوضح هذا الموقف قوة وسكينة الرسول ﷺ أمام جزع وحزن أبي بكر ، فالاستجابة للموقف وللمشكلة الواحدة اختلفت لاختلاف ثبات قلب كل منهما .

والنظر إلى المشكلات الفردية من المنظور الإسلامي لا بد أن يعتمد على قاعدتين أساسيتين هما :

١ - أن اللَّه تعالى هو مالك الضر والنفع ، وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء لا معقب لحكمه ولا رادَّ لقضائه . يقول ﷻ : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٧ ، ١٨] .

٢ - قول اللَّه ﷻ : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾ [النساء : ٧٩] يقول الطبري في شرح هذه الآية : « ما يصيبك يا محمد من رخاء ونعمة وعافية وسلامة فمن فضل اللَّه عليك ، وما أصابك من شدة ومشقة وأذًى ومكروه فمن نفسك ، يعني بذنب استوجبتها بما اكتسبته نفسك [٣] أي بذنبك وأنا الذي قدرتها عليك » [٤] ، وعن قتادة : « ما أصابك من حسنة فمن اللَّه وما أصابك من سيئة فمن نفسك عقوبة يا ابن آدم بذنبك » . وذكر أن الرسول ﷺ كان يقول : « **لا يصيب رجلًا**

---

(١) أبو الحسين مسلم بن الحجاج ، مرجع سبق ذكره ، (م٤) ، كتاب المنافقين ، باب (١٦) .
(٢) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، مرجع سبق ذكره ، (م٨) ، كتاب التفسير ، (ص٣٢٥) .
(٣) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، مرجع سبق ذكره ، (م٤) ، (١١١/٥) .
(٤) أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، مرجع سبق ذكره ، (جـ١) .

خدش عود ولاعثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو اللَّه عنه أكثر » [١] .

وأخيرًا يجب ألا يُظن أن المنظور الإسلامي في تفسيره للمشكلات الفردية لا يأخذ في اعتباره البيئة الاجتماعية التي ينشأ فيها الفرد ، فلا شك أن للعوامل البيئية والتي أهمها التنشئة الاجتماعية والضبط الاجتماعي دورًا بالغ الخطورة ، والقول بأن الفرد هو نتاج بيئته قول صحيح إلى حدٍّ كبير من وجهة النظر الإسلامية ، فلقد جاء في الحديث الشريف : « **ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه كما تنتجون البهيمة ، هل تجدون فيها من جدعاء ، حتى تكونوا أنتم تجدعونها** » [٢] فقلب الإنسان عند ولادته قلب سليم مهيأ لتوحيد اللَّه ﷻ فإذا ما نشأ في بيئة تحافظ على الفطرة السليمة وتنميها بتعليمه العلم النافع وتربيته على الأخلاق الحميدة والعادات الحسنة التي منها تعوده على التحكم في شهواته ورغباته لكي يتغلب على نفسه اللوامة ويكسب معركته مع الشيطان ، فإنه يمكن أن يكون بذلك عبدًا صالحًا ، يقوم بما كلفه اللَّه ، ويلجأ إلى اللَّه عند تعرضه للمشكلات مع أخذه بالأسباب . أما إذا نشأ في بيئة لم تحافظ على صفاء قلبه وسلامته ، وانحرفت به في أي اتجاه آخر غير الإسلام للَّه وتوحيده ، فإن قلبه سيمرض أو يموت غالبًا ، وعندما يتعرض للمشكلات سوف يلجأ لغير اللَّه . وقد يشاء اللَّه غير ذلك ، فيهدي قلبه للإيمان ، واللَّه يفعل ما يشاء .

* * *

(١) أبو جعفر محمد بن جرير بن الطبري ، مرجع سبق ذكره ، (م٤) ، (١١١/٥) .

(٢) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، مرجع سبق ذكره ، (م١١) ، (ص١١) .

obeikandl.com

العلاج الإسلامي للحالات الفردية

أ.د. محمد سلامة غباري

مقدمة

التربية الإسلامية هي تنشئة الطفل وتكوينه إنسانًا متكاملًا من جميع نواحيه المختلفة ، من الناحية الجسمية والعقلية والروحية والأخلاقية في ضوء المبادئ التي جاء بها الإسلام وفي ضوء وأساليب وطرق التربية التي بيَّنها [١] .

من هذا التعريف للتربية الإسلامية وغيره من التعريفات الأخرى، نرى أن الإسلام يقدم لنا منهجًا تربويًّا متكاملًا تجد فيه الإنسانية علاجًا شافيًا لمشكلاتها ينتشلها من طريق البؤس والتيه والشقاء، وينتقل بها إلى طريق العزة والكرامة والمحبة والهناء ، فهو يهدف إلى تربية النشء على الإيمان باللَّه ومراقبته والخضوع له وحده ، وهو الذي يربي الإنسان على أن يُحكّم شرعية اللَّه في جميع أعماله وتصرفاته ، ثم لا يجد حرجًا فيما حكم اللَّه ورسوله ، بل ينقاد مطيعًا لأمر اللَّه ورسوله ، قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] .

ولما كان الإسلام هو المنهج الرباني المتكامل المواتي لفطرة الإنسان ، والذي أنزله اللَّه لتربية وتنمية الشخصية الإنسانية حتى تصبح شخصية متزنة كاملة ، لتصبح خير نموذج على الأرض ، يحقق العدالة الإلهية في المجتمع الإسلامي ، وذلك عن طريق التربية الإسلامية التي تغرس في الإنسان العزة والكرامة ، بل الاستماتة في سبيلها ، مهما أحاطت به الشدائد أو أبعدته عنها المغريات ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : ٨] .

والأخصائي الاجتماعي الذي يسعى لتطبيق العلاج الإسلامي مع عملائه فإنه يهدف إلى تعديل شخصياتهم وتنميتها عن طريق إكسابهم خبرات جديدة من خلال التربية الإسلامية تساعدهم على تعديل سلوكهم وتقويم انحرافهم ، وانتشالهم من الهوان

(١) مقداد بالجن « التربية الأخلاقية الإسلامية » ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، (١٩٧٣) ، (ص٥٤) .

والضياع بعد أن ضيعتهم فلسفات التربية الغربية التي كان من نتيجتها ما نسمعه من جرائم الأحداث وتعاطيهم المخدرات ومن تدخين جماعي في معسكرات الأطفال في بعض دول أوروبا ومقاطعات أمريكا ، ومن جرائم جنسية يندي لها الجبين .

لقد عقدت مقارنات مفيدة بين خصائص التربية الغربية وأهدافها وأساليبها ، وبين ما اتسمت به التربية الإسلامية من خصائص وأساليب وأهداف ، فاتضح أن التربية الإسلامية هي الطريق الوحيد للخلاص من هذا الضياع ، وهي المنقذ للطفولة الضائعة والبشرية المتردية .

والخدمة الاجتماعية عندما خذلتها وسائل العلاج التقليدية بأساليبها المستوردة من المجتمعات الغربية ، بدأت تبحث لنفسها عن أساليب مؤثرة بالعلاج الإسلامي ، الذي يعتمد على التربية الإسلامية ، فهي الوسيلة الوحيدة القادرة على إعادة التوازن إلى المجتمع الذي اضطرب واهتز ؛ ولذلك اتجهت الخدمة الاجتماعية للعلاج الإسلامي لتنمي فكر الإنسان وتنظم سلوكه وتعدله ، وتحرك في نفسه الأحاسيس والمشاعر ، وتغرس العواطف الجديرة بأن تدفعه إلى السلوك الذي نظمت الشريعة الإسلامية قواعده وضوابطه ، وعن طريقه تصل إلى تنمية شخصية الإنسان من جميع جوانبها في انسجام وتكامل .

والخدمة الاجتماعية عندما تطبق العلاج الإسلامي لعلاج المشكلات الاجتماعية ، فإنها بذلك تستبدل العلاج الاجتماعي الغربي الذي لا يناسب مجتمعاتنا الإسلامية بالعلاج الإسلامي الشرقي النابع من الدين الإسلامي معتمدة في ذلك على مصدرين مهمين هما القرآن والسنة وهما مصدر الدين الإسلامي نفسه .

وحاولت الخدمة الاجتماعية أن تصنف أساليب العلاج الإسلامي إلى مجموعة أساليب علاجية مناسبة لشخصية الإنسان بمكوناتها البنائية والوظيفية ، نجملها فيما يلي :

١ - العلاج الإسلامي بتنمية العقيدة الدينية .
٢ - العلاج الإسلامي بتنمية القيم الخلقية .
٣ - العلاج الإسلامي بالتنمية العقلية .
٤ - العلاج الإسلامي بتنمية العلاقات والقيم الاجتماعية .
٥ - العلاج الإسلامي بالتنمية النفسية .
٦ - العلاج الإسلامي بالتنمية الجسمية .

وفي الصفحات التالية يوضح الباحث بالتفصيل كل نوع من هذه الأنواع بأساليبه الفرعية المختلفة .

العلاج الإسلامي بتنمية العقيدة الدينية

يقصد بتنمية العقيدة التسامي بروح الإنسان إلى الأفق الأعلى من خلال القرآن والتوحيد والفقه والتفسير والسيرة النبوية والثقافة الإسلامية حتى تربي الأجيال على الإسلام ، وعلى تحقيق العبودية للَّه - جل جلاله - بكل ما في هذه الغاية من معنى ومدلول ، وبكل ما تؤدي إليه من نتائج في الحياة ، والعقيدة ، والعقل ، والتفكير ، والعبودية للَّه هي التلقي من اللَّه وحده في أمر الدنيا والآخرة ، ثم هي الصلة الدائمة باللَّه في هذا كله . وهذه الصلة في الحقيقة هي المنهج الإسلامي كله ، تتفرع منه جميع التفريعات وتعود في النهاية كلها إليه والعبودية للَّه والصلة الدائمة به تتم عن طريق العبادة ، والعبادة لا تقتصر على اللحظات القصيرة التي تشغلها مناسك التعبد ، وما كان هذا هو المقصد من الآية الكريمة : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] ، وإلا فما قيمة لحظات عابرة في صفحة النفس وفي صفحة الكون ، لا تترك لها أثرًا وتضيع في الفضاء ؟ وإنما قيمتها أن تكون منهجًا حيًّا ، يشمل كل قيمتها أن تكون خطة سلوك وخطة عمل وخطة فكر وخطة شعور ، قائمة كلها على منهج واضح ، يتبين فيه - في كل لحظة - ما ينبغي وما لا ينبغي أن يكون [١]

وفيما يلي أساليب تنمية العقيدة الإسلامي .

١ - العلاج الإسلامي بالقرآن الكريم :

العلاج بالقرآن غايته القريبة إتقان تلاوته ، وحسن فهمه ، وتطبيق تعاليمه ، وهذا فيه العبودية والطاعة للَّه ، والاهتداء بكلامه ، والخوف منه وتنفيذ أوامره ، والخشوع له . ويقول الإمام الفخر الرازي [٢] : « اعلم أن القرآن شفاء من الأمراض الروحانية ، وشفاء أيضًا من الأمراض الجسمية ، أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر ؛ وذلك لأن الأمراض الروحانية نوعان : (الاعتقادات الباطلة ، والعادات المذمومة) ... وأما الأخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريف ما فيها من المفاسد والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة الكاملة والأعمال المحمودة ، فكان القرآن شفاء من هذا النوع من

(١) محمد قطب ، منهج التربية الإسلامية ، مصدر سابق ، (ص٣٨) .

(٢) تفسير الفخر الرازي ، (٣٤٢١) .

المرض . فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحية » . ويجب أن نوضح هنا أنه ليس معنى أن القرآن شفاء لهذه الأمراض أن قراءته على المريض أو تعليق المكتوب من الآيات عليه ، وما شابه ذلك شفاء أيضًا كما يفهم ذلك بعض الجهل وإنما معنى الشفاء أنه جاء فيه من المبادئ التي تكفي لوقاية الإنسان من تلك الأمراض إذا التزم بها الناس ظاهرًا وباطنًا [١] .

أي أن دروس القرآن لو حققت غاياتها لكانت من أفضل الوسائل لتحقيق الهدف الأسمى [٢] للعلاج الإسلامي .

والأخصائي الاجتماعي الذي يطبق العلاج الإسلامي بالقرآن على عملائه يستطيع أن يحبب إليهم دراسة القرآن ، ويساعدهم على فهمه ، عن طريق الأنشطة والبرامج الدينية التي يستعين فيها بمن يختارهم من رجال الدين المتخصصين المفقهين القادرين على أداء هذه المهمة الجليلة ، على أن يراعي في هذه الأنشطة مناسبتها لأعمارهم ومستوياتهم العقلية ، بحيث يتم ذلك بصورة سهلة مبسطة وبطريقة جذابة شيقة ، حيث إن العلاج بالقرآن أنسب أساليب العلاج الإسلامي للمشكلات الاجتماعية ، وبذلك يهتدي العملاء إلى الطريق المستقيم ، فيعبدون اللَّه ويطيعونه ، ويهتدون بكلامه ، ويخافون منه ، ويخشعون له ، وينفذون أوامره ، وبعد ذلك يتم علاج مشكلاتهم ويقوم سلوكهم ، ويعتدل تفكيرهم عندما يسمعون قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ ﴾ [الأنعام : ١٥١] « وسيعرفون أن ارتكاب الفواحش ، وهي الجرائم الاجتماعية من شأنه أن يثير الاضطراب ، ويزيد الحقد في العلاقات بين الأفراد ، والاضطراب والحقد في العلاقات الاجتماعية من أشد العوامل فتكًا في تقويض المجتمع » [٣] .

٢ - العلاج الإسلامي باتباع الرسول ﷺ :

أما تنمية العقيدة باتباع الرسول ﷺ فهي التي تعلم الأطفال القيام بالعبادات والمعاملات وكل شؤون الحياة على هدي هذا الرسول الذي أرسله ربه ليطاع بإذن اللَّه ، فدروس الحديث والسيرة ، غايتها اتباع الرسول ﷺ ؛ لأنه مبين للقرآن ولتفاصيل شريعة اللَّه ﷻ .

---

(١) د . مقداد بالجن ، التربية الإسلامية ، مكتبة الخانجي ، القاهرة سنة (١٩٧٣م) ، (ص١١١) .
(٢) عبد الرحمن الحلاوي ، أصول التربية الإسلامية ، مصدر سابق ، (ص١١٥) .
(٣) د . محمد البهي ، نحو القرآن ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط . ٣ (١٩٧٢م) ، (ص١١٣) .

لقد كان رسول اللَّه ﷺ أقدر الناس على تربية العواطف الربانية والاعتماد عليها عند الضرورة ، فقد كان بشخصه وشمائله وسلوكه وتعامله مع الناس ، ترجمة عملية بشرية حية لحقائق القرن وتعاليمه وآدابه وتشريعاته ، ولذلك بعثه اللَّه ليكون قدوة للناس يحقق المنهج التربوي الإسلامي : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

والأخصائي الاجتماعي الذي يطبق العلاج الإسلامي على عملاء المؤسسات الاجتماعية يحاول تخييرهم وعلاجهم من خلال أنشطة دينية تحتوي على دروس الحديث والسيرة النبوية التي يعدها لهم مستعينًا في ذلك بعالم مسلم يساعده في تصميم وتنفيذ تلك الأنشطة والبرامج الدينية التي تمكن الأحداث من فهم السيرة النبوية ودراسة وفهم الأحاديث سواء كان ذلك من خلال قصة أوتمثيلية تعد خصيصًا لذلك ، أو من خلال زيارات للمساجد في مواعيد الصلاة والدروس الدينية وبذلك يتيح لهم الفرصة لاستماع تلك الدروس والأحاديث وهو معهم يشجعهم ويعاونهم ويبسط لهم بعض المعاني التي يصعب عليهم فهمها ، وبذلك يدعم حب الرسول في قلوبهم فيهتدون به ويتبعون تربيته بعد أن أحبوا اللَّه واهتدوا بقرآنه .

٣ - العلاج الإسلامي بدروس التوحيد :

بعد أن يحقق العلاج الإسلامي بأتباع الرسول أهدافه ، يأتي دور تنمية العقيدة الإسلامية عن طريق دروس التوحيد ، وهي تبدأ من توضيح الهدف الأسمى للتربية الإسلامية ، أي من توضيح معنى الألوهية والربوبية ، ومعنى عبودية الإنسان للَّه وحده ، وما هي الصفات الإلهية التي لا يجوز إسنادها لغير اللَّه ؟

ومن خلال دروس التوحيد تنمى العقيدة الإسلامية التي تتغلغل إلى أعماق الحدث وترتبط كل الارتباط بكيانه وتكون مقومًا ضروريًّا بطبيعته ، وليس في مقدوره أن ينفصل بفكره ووجوده عن رباطها الوثيق وصلتها العميقة بالنفس ، وعندئذ يستشعر المرء في نفسه من الخضوع والإذعان لأوامرها والوقوع تحت تأثيرها بمقدار ما يتجلى له من حقيقتها وما ينكشف له من معانيها ، وأيضًا بمقدار ما ينطبع عنها في ذهنه من آثار ، وما يكون لها في وجدانه من انفصال ، ثم ما يقول لها في قلبه في قداسة واعتبار [١] .

ولكي تنجح دروس التوحيد في تنمية العقيدة الإسلامية لعملاء مؤسسات الخدمة

(١) دكتور محمد بيطار ، العقيدة والأخلاق وأثرها في حياة الفرد والمجتمع ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط . ٣ ، (١٩٧٢م) .

الاجتماعية فلابد أولًا أن يستخدم الأخصائي الاجتماعي كل قدراته وأساليبه المهنية في تكوين الرغبة في الاعتقاد ، والامتناع بكل جانب من جوانب العقيدة ؛ لأن العملاء لن يؤثر فيهم ذكر أدلة الاعتقاد قبل أن تتكون الرغبة لديهم ، الرغبة في الاعتقاد والامتناع الكامل بكل جوانبه .

ذلك أن من لايرغب أولًا في الاعتقاد لا يعتقد ولو ذكرت له جميع الأدلة العقلية والعملية ؛ ولهذا لما تكلم اللَّه تعالى عن هؤلاء الذين لا يريدون أن يؤمنوا إلا لعدم وجود الأدلة وإنما لعدم رغبتهم في الإيمان [١] ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ ﴾ [الأنعام: ١١١] ، كما قال ﷻ : ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۖ ﴾ [الأنعام: ٢٥] .

والعقيدة الإسلامية هي إخلاص العبودية للَّه وحده ، فهي تُعّرف الإنسان بكل مقاصد العبادة والسلوك في الحياة ، وتُعّرفه بما يجب أن يحذره من كل مظاهر الشرك وعقائده .

هذا الجانب الاعتقادي من دروس الدين الإسلامي ، هو أهم وأول ما يجب الاهتمام به ، على أن تكون ثمراته ، ونتائج فهمه مطبقة على جميع جوانب الحياة ، فيعرف العميل أنه يتعلم القرآن ويعظمه لأنه كلام اللَّه ، ووسيلة لمناجاته ومعرفته والخضوع له وتحقيق أوامره .

والأخصائي الاجتماعي الذي يطبق العلاج الإسلامي لتقويم السلوك المنحرف عن طريق تنمية العقيدة الدينية يستعين بأهل الخبرة والمتفقهين في الدين ، ليقدموا للعملاء دروس التوحيد اللازمة لتنمية إيمانهم ، والأخصائي دائمًا معهم في جميع هذه الأنشطة الدينية حتى يشجعهم على استمرار الاستفادة منها ويبسط لهم ما يصعب عليهم فهمه وبذلك يستفيدون من هذه الفرص التي تساعد على تنمية شخصياتهم وتقويم انحرافهم وتعديل سلوكهم .

٤ - العلاج الإسلامي عن طريق دروس الفقه :

أما دروس الفقه في أسلوب آخر من أساليب تنمية العقيدة الدينية ، فهي التي تربي السلوك الإسلامي الفردي والاجتماعي ، بما تقدمه للعملاء من قواعد تفصيلية ، مستقاة من القرآن والسنة ؛ لبيان أساليب العبادة والسلوك التي يرضاها اللَّه في جميع شؤون

(١) التربية الأخلاقية الإسلامية ، مصدر سابق ، (ص١٩١) .

الحياة ، ولبيان نظم العلاقات الاجتماعية ، كما يأمرنا اللَّه أن نحققها في كل اتصالاتنا بالآخرين ، فيجب ربطها دائمًا بهدفها الأسمى « طاعة اللَّه » والاهتداء بهدي رسوله ، وتحقيق الخضوع بالعبودية للَّه كما يريد اللَّه .

ولكي تحقق دروس الفقه أهدافها العلاجية المطلوبة ، فإن الأخصائي الاجتماعي الذي يطبق العلاج الإسلامي لعلاج المشكلات الاجتماعية فإنه يختار لهم من يقدم لهم دروس الفقه ويوضحها ويبسطها لهم ويوصلها إليهم بطريقة محببة حتى يستفيدون منها أحسن استفادة ممكنة ، وعندما يختار أحد المتخصصين في دروس الفقه فإنه يخطط ويرسم معه أحسن البرامج وأنسب الأنشطة الدينية التي توصل لهم المطلوب من دروس الفقه بصورة سهلة مبسطة .

والخدمة الاجتماعية عندما تطبق العلاج الإسلامي مع عملائها فإنها تسعى إلى هدفين متكاملين في آنٍ واحد : أحدهما على المدى القريب وهو علاج المشكلات الاجتماعية ، والهدف الثاني على المدى الأبعد وهو بناء الجيل المسلم الذي يبني حياته على تحقيق عبادة اللَّه وهو الهدف الأسمى للتربية الإسلامية .

والأخصائي الاجتماعي عندما يطبق العلاج الإسلامي على عملاء مؤسسات الخدمة الاجتماعية فإنه يتعاون معهم في وضع الأنشطة والبرامج المختلفة التي تساعدهم في ذلك .

٥ - العلاج الإسلامي بالتنمية الخلقية :

والتنمية الخلقية : هي التدريب على السلوك الرشيد ، وتكوين الخلق الحميد ، وهي المصباح الكاشف لمسالك الرشد والغي ، وهي المعيار الذي توزن به نوايا العاملين وبواعثهم ، وهي التوجيه المستمر لأعمال الإنسان على طريق الاستقامة .

والتنمية الخلقية كما جاءت في الإسلام لها هدفان أحدهما على المدى القريب والآخر على المدى البعيد .

أما الهدف القريب فهو تكوين الإنسان الخيّر الذي حدد الرسول ﷺ شخصيته بأنه يصبح « **مفاتيح للخير مغاليق للشر** » [١] يتميز بالانفتاح للخير عن حب للخير والإسراع إليه عن رغبة فيه والاجتناب للمعاصي عن كره لهما ، لا اتباعًا للعادة ولا خوفًا من عقاب القوانين أو تغيير المجتمع ، يحبون الفضيلة ويؤثرون مصلحة غيرهم على أنفسهم

---

(١) المقاصد الحسنة ، (ص١٢٩) ، رواه ابن ماجه والطيالسي .

كما جاء في قوله تعالى : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] ، ثم إلى جانب هذه الصفات الخيرة النيرة يتسابقون في عمل الخيرات ﴿ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦١] .

أما الغاية البعيدة للتنمية الخلقية كما أرادها الإسلام فهي الوصول بالإنسانية إلى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، وقد أكد الرسول ﷺ صراحةً أن حسن الأخلاق طريق سعادة الإنسان وسوء الأخلاق طريق شقائه . فقال ﷺ : « **من سعادة المرء حسن الخلق ومن شقاوته سوء الخلق** » (١) .

تلك حقيقة واضحة إذا أمعنا النظر في حكمة الأخلاق الإسلامية والقيم التي تحملها ، وكذلك تجدها واضحة وصريحة في كثير من النصوص القرآنية والسنة النبوية ، لما لها من قيم صحية واقتصادية وإنسانية وإبداعية ومادية ومعنوية واجتماعية . الأمر الذي يجعلني أقول بكل تأكيد بأنه لا يمكن تحقيق السعادة بدون اتخاذ هذه الأخلاق طريقًا ومنهجًا في الحياة الفردية والاجتماعية معًا (٢) .

ويعلل الإسلام لماذا كانت الأخلاق الحسنة طريق السعادة والأخلاق السيئة طريق الشقاوة بأن مبادئ الأخلاق الحسنة تحمل في طياتها أسباب السعادة وسوء الأخلاق تحمل أسباب الشقاوة فمن أسباب السعادة ، وجود الصحة الكاملة من الناحية النفسية والجسمية ، وانعدام هذه الصحة يؤدي إلى التعاسة والشقاوة ، والإسلام قد قرر ذلك ، وبيَّن العلاقة بين الانحراف الأخلاقي والأمراض النفسية ثم بين الأمراض الجسمية بشكل واضح وصريح ، فقال الرسول ﷺ : « **من ساء خلقه عذب نفسه ومن كثر همه سقم بدنه** » (٣) .

ولذلك فإن العلاج الإسلامي الشافي لكل هذه الأمراض جاء واضحًا صريحًا في القرآن الكريم بمبادئه العظيمة التي لا شفاء بدونها ، فقال ﷻ : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

إن روح الإسلام هي الأخلاق الفاضلة الكاملة التي تستدعي من المسلم أن يخاف

---

(١) منتخب كنز العمال في هامش مسند الإمام أحمد (١٣٢١) ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ، بيروت ، (١٩٦٩م) .

(٢) الاتجاه الأخلاقي في الإسلام ، مقداد بالجن ، مصدر سابق ، (ص٣٠٧، ٣٥١) .

(٣) منتخب كنز العمال في هامش مسند الإمام أحمد ، (٥٨/١) .

اللَّه في السر والعلانية ، في ظل عمل يفكر فيه ، أو يقدم عليه ، ويتقي اللَّه حق تقاته ، ويفكر دائمًا في النواحي الإنسانية ، والأغراض النبيلة الإسلامية ويبتغي كل عمل إرضاء للَّه ، ويدعو إلى الخير ، ويستنكر كل شر ، ويعين أخاه المسلم ، ويتعاون معه على البر والتقوى ، ولا يتعاون على الإثم والعدوان ، ويخلص في أفعاله وأقواله الإخلاص كله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

وهكذا نرى أن الإسلام يوجب علينا تنمية الخلق ، وحسن السلوك ، وتهذيب الإرادة ، وتمييز الغث من الثمين ، والحسن من القبيح ، واختيار الفضيلة وتجنب الرزيلة ، حتى يربي رجالًا كريمي الأخلاق ، أقوياء العزيمة ، مهذبين في أقوالهم وأفعالهم ، نبلاء في تصرفاتهم وخلقهم ، صفاتهم الحكمة والفضيلة ، والأدب والإخلاص والطهارة .

والأخصائي الاجتماعي الذي يطبق العلاج الإسلامي لعلاج الانحرافات الخلقية للعملاء الذين انحرفت أخلاقهم ، وفسدت طباعهم . يحاول إصلاح ما فسد ، وتقويم ما انحرف عن طريق التنمية الخلقية التي تسعى إلى تثبيت القيم الأخلاقية الأصلية التي توارثتها الأمة الإسلامية جيلًا بعد جيلٍ ، مهتديةً بكتاب ربها وسنة نبيها ، الذي بعثه اللَّه ليتمم مكارم الأخلاق ، وإزالة ما تراكم عليها من رواسب عصور التخلف ، وما دخل عليها من تقليد الأمم الأخرى قديمًا وحديثًا ، فالسماء والإيثار ، والحياء والصبر على المكاره ، والثبات في الشدائد ، والتعاون على البر والتقوى ، والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والإحسان إلى الجار ، وإكرام الضعيف الملهوف ، والصدق في القول ، والأمانة في العمل ، والعدل في الحكم ، الشهادة بالحق ، ورحمة الصغير ، وتوقير الكبير ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، وخفض الجناح ، وعزة النفس ، والقصد والاعتدال في كل شيء ... إلى غير ذلك من فضائلنا العظيمة الأصيلة التي يجب أن تسود وتبقى وتعمق جذورها وتمتد فروعها [١]

ويرى المؤلف أن التنمية الأخلاقية كأهم أسلوب من أساليب العلاج الإسلامي يمكن تحقيقها عن طريق عدة أساليب فرعية يوضحها كما يلي :

---

(١) يوسف القرضاوي ، الحل الإسلامي فريضة وضرورة ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط . ٣ (١٩٧٧م) ، (ص٤٠٧) .

١ - التنمية الخلقية بتكون العادة :

يتكون الخلق بالممارسة والاعتياد وبكثرة تكرار الفعل والمواظبة عليه . ولعل ذلك من الملاحظ عند هؤلاء الذين عرفوا الخلق بأنه (عادة الإرادة) فعندما يراد تحويل الإنسان من خلق ذميم إلى خلق آخر حميد ، أو يراد تكوين خلق معين له لم يكن موجودًا من قبل ، يحمل الإنسان على تكرار هذا العمل وفعله باستمرار ، مع استعمال وسائل الإغراء والترغيب ، التي من شأنها أن تحبب إليه إتيان هذا الفعل الحميد والإقبال على ممارسته برغبة صادقة وميل أكيد واستخدام وسائل التنفير من ضده ، بحيث تصير نفرته والمداومة على هذا الفعل الحميد ، يصبح إتيانه وممارسته عادةً لازمةً ، وطبعًا دائمًا ، أي يصير خلقًا له [١] ويصدر عنه تلقائيًا من غير أن يسبقه تفكير وتقدير بحيث يكون انطباعًا من انطباعات النفس وحالاتها ، وتحملها على الفعل من غير حاجة إلى تأمل أو روية [٢] .

وقد بدأ الإسلام – وهو ينشأ في الجاهلية ، بإزالة العادات السيئة التي وجدها سائدة في البيئة العربية . واتخذ لذلك إحدى وسيلتين : إما القطع الحاسم الفاصل ، وإما التدرج البطيء ، حسب نوع العادة التي يعالجها ، وطريقة تمكنها من النفس [٣] .

فالقطع الحاسم استخدمه الإسلام بالنسبة للعادات التي تتصل بالعقيدة والارتباط المباشر باللّه مثل الشرك بكل عاداته ؛ لأنه لا يمكن أن يستقيم إيمان وشرك ، وعبادة للّه وعبادة لغيره من الكائنات ، وكذلك بالنسبة لوأد البنات أو بعض العادات النفسية من كذب وغيبة ونميمة وغمز ولمز وكبر ... إلخ من مثل هذه الأمور التي تشبه الأورام الخبيثة التي لا علاج إلا بالحسم والبتر من أول لحظة ، بضربة قاطعة حاسمة .

أما وسيلة التدرج البطيء فقد استخدامها الإسلام مع بعض العادات الاجتماعية التي لم تكن عادات فردية بقدر ما كانت عادات منتشرة في المجتمع ، ومن أمثلتها : الخمر والزنا والميسر والرق والربا ... إلخ وكلها عادات لا يمكن منعها دفعة واحدة ولا تستطيع أي نفس أن تحسم موقفها منها في لحظة .

أما بذر العادات الصالحة ، فله كذلك عدة طرق وعدة مراحل ، فمثلًا بالنسبة للعادات النفسية كالصدق والوفاء ، والمحبة والعطف ، والبذل والإيثار ، فقد لجأ الإسلام في ذلك

---

(١) العقيدة والأخلاق ، مصدر سابق ، (ص٢٠٩) .

(٢) العقيدة والأخلاق ، مصدر سابق ، (ص٢٠٩) .

(٣) منهج التربية ، مصدر سابق ، (ص٢٤٧) .

أولًا إلى إثارة الوجدان وإنشاء الرغبة في العمل ، ثم يحول الرغبة إلى عمل واقعي ذي صورة محددة واضحة السمات ، فيلتقي الظاهر والباطن ويتطابقان ويتكافآن ؛ رغبةً وسلوكًا ، ثم يحول الرغبة والعمل من مسألة فردية إلى رباط اجتماعي [١] .

والأخصائي الاجتماعي الذي يستخدم العلاج الإسلامي في علاج المشكلات الاجتماعية لعملاء الخدمة الاجتماعية ، يسعى جاهدًا لتنمية أخلاقهم عن طريق مساعدتهم على ممارسة الفضائل الأخلاقية بصفة مستمرة ، بعد أن يستثير مشاعرهم ويحرك وجدانهم ويوجد الرغبة لديهم ، ثم يحول هذه الرغبة إلى عمل يمارسونه فعلًا عن طريق أنشطة وبرامج يصممها خصيصًا لذلك .

٢ - التنمية الخلقية عن طريق القدوة الحسنة :

إن القدوة الحسنة تعتبر من الأساليب المهمة للتنمية الخلقية التي تهدف إلى إزالة الخلق السيئ [٢] ويرى الإمام الغزالي أن تغيير الخلق ممكن ويقول ذلك تعليقًا على قوله عليه الصلاة والسلام : « **حسنوا أخلاقكم** » لو لم يكن ممكنًا لما أمرنا الرسول ﷺ به ، ولو امتنع ذلك لبطلت الوصايا والمواعظ ، والترغيب والترهيب ، فإن الأفعال نتائج الأخلاق .

والتنمية الخلقية بالقدوة الحسنة هي التي غرست أخلاق الإسلام في النفوس عندما اقتدوا برسول اللَّه ﷺ : « وكم فشل فلاسفة ومفكرون تخيلوا مناهج للتربية وخططوا مدنًا فاضلة ، فبقيت مناهجهم ومدنهم خيالاً هائمًا ، وتصورا عقليًّا لم يتحول إلى واقع أبدًا ... وحين أنزل اللَّه كتابه لم يرد أن يكون نظرية تحفظ ، وإنما أراد أن يكون سلوكًا يترجم في واقع الحياة فاختار من بين الناس محمدًا ﷺ ليكون السراج المنير والمثل الأعلى والقدوة العظمى للإنسانية كلها » [٣] .

لقد اختار اللَّه الرسول ﷺ من علم كما قال سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] واختاره بعد أن رباه وأدبه : « **أدبني ربي وأحسن تأديبي** » [٤] ؛ ولذلك كانت حياته مشرقةً مضيئةً لا يخفى منها شيء حتى يكون الاقتداء بها على أتم وجه وأكمله ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ

(١) منهج التربية الإسلامية ، مصدر سابق ، (ص٢٥٠) .

(٢) زكي مبارك « الأخلاق عند الغزالي » ، المكتبة الرحمانية بمصر ، بدون ، (ص١٦٥) .

(٣) د . عبد الفتاح عاشور ، « منهج القرآن في تربية المجتمع » ، مكتبة الخانجي بمصر ، (١٩٧٩م) ، (ص٢٣٥) .

(٤) رواه ابن السمعاني في آداب الإسلام عن ابن مسعود ﷺ .

وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

إن أسلوب التنمية الخلقية بالقدوة الحسنة كأسلوب مهم من أساليب العلاج الإسلامي هو الذي عالج أمة كادت تموت فأحياها رسول اللَّه ﷺ بروح القرآن فإذا هي تبعث من جديد تنفضى غبار الزمن وتصنع الحياة والأحياء على خير وأجمل طريق وأروع مسلك ، وصدق قوله في رسوله الحبيب : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] .

« لقد زكاهم هذا الرسول وطهَّر أخلاقهم وسلوكهم وعقائدهم ورفعهم من الوهدة الهابطة والضياع القاتل إلى القمة العالية ، فإذا الأمة الأمية رائدة وقائدة تفيض حكمةً نابعةً من الكتاب الخالد ... الذي بعثها وأحياها وقد كانوا من قبل في ضلال مبين » (١) .

هذا العلاج الإسلامي الذي تحاول الخدمة الاجتماعية تطبيقه في علاج المشكلات الاجتماعية لعملاء الخدمة الاجتماعية بهدف تعديل سلوكهم وتقويم انحرافهم عن طريق التنمية الخلقية بتكوين العادات الخلقية الصالحة تارة بالقدوة الحسنة وتارة بالعادة ، لا يستطيع تطبيقه إلا الأخصائي الاجتماعي الذي يعرف الآثار والأسس التربوية للقدوة الحسنة وعندئذٍ يعرف جيدًا أن حياة الأخصائي الاجتماعي المسلم . الذي يطبق العلاج الإسلامي لحل مشكلات المجتمع – هي حياة الداعية إلى اللَّه بحيث يكون قدوة أمام عملائه فيتحلى بأفضل الأخلاق ، يستلهمها من القرآن ومن سيرة الرسول ﷺ ويصبر على تطبيقها والتحلي بها .

٣ - التنمية الخلقية بالترغيب والترهيب :

إن الترغيب والترهيب كأحد أساليب التنمية الخلقية قد لجأت إليه كل الأديان السماوية في دعوتها ، فرغبت بالثواب بالجنة ، ورهبت وخوفت من العقاب بالنار والخوف من العقاب المؤجل ، والطمع في الثواب المؤجل أرقى من الخوف والطمع في الأشياء العاجلة ؛ لأنه يعتمد على مبادئ عقلية وفضائل نفسية وخصائص إنسانية ، فالعاقل لا يبيع الحاضر بالغائب ، والمصلحة العاجلة بالمصلحة الآجلة إلا إذا فكر في عواقب الأمور ، وكانت له عقيدة ثابتة في العاقبة ، وكانت ثقته بما عند اللَّه أشد من ثقته بما في يده وكان له من قوة الضمير ، وضبط النفس ما يدفع عنه منتظر

(١) منهج القرآن في تربية المجتمع ، مصدر سابق ، (ص٢٤٦) .

المغريات [١] ، لذلك لا تجد خلقًا حميدًا إلا وحث عليه القرآن ، ولا تلقى خلقًا سيئًا إلا ونهى عنه ، وفي كل ذلك يبني قاعدته الكبرى التي قام عليها كل أوامره ونواهيه ، ألا وهي الإيمان باللّه واليوم الآخر ، وبين الجنات والخلود ، والأمان والرضا ، والسلام والنعيم ، والتعاسة في الآخرة ، والنار الموقدة ، والعذاب والهوان ، والشقاء في الدنيا ، وبين هذا وذاك يضرب القرآن على أوتار القلب المشدود من هنا بالخوف ومن هناك بالرجاء ، فتصدر عنها أنغامًا متناسقة ليس فيها نغمة نشاز ، إنما هو الأحكام في كل تصرف ، والارتباط بكل خير ، والابتعاد عن كل شر [٢] .

إن التنمية الخلقية عن طريق الترغيب والترهيب قد تنجح في تعديل الأخلاق الفاسدة وتغييرها، إلا أنها تعتبر أضعف أنواع التربية أو أبعدها عن القيم الإنسانية ، وفي الوقت نفسه هي أضعف أنواع العلاج أثرًا ، وأسرعها تقلبًا ، وأقلها ثباتًا .

ولذلك فإن هذا الأسلوب العلاجي لا يستخدم إلا بعد محاولات متكررة بشتى الأساليب الأخرى ، وعندئذ يصبح هذا الأسلوب مناسبًا لتلك الفئة التي لم تستجب لأساليب التنمية الخلقية الأخرى ؛ لأن هناك « درجات متفاوتة لدرجات من الناس ؛ فمن الناس من تكفيه الإشارة البعيدة فيرتجف قلبه ويهتز وجدانه ، ويعدل عما هو مقدم عليه من انحراف ، ومنهم من لايردعه إلا الغضب الجاهر الصريح ، ومنهم من يكفيه التهديد بعذاب مؤجل التنفيذ ، ومنهم من لابد من تقريب العصا منه حتى يراها على مقربة منه ، ومنهم بعد ذلك فريق لا بد أن يحس لذع العقوبة على جسمه لكي يستقيم » [٣] .

والإسلام يتبع جميع وسائل التربية فلا يترك منفذًا في النفس لا يصل إليه إنه يستخدم القدوة والموعظة ، والترغيب والثواب ... ولكنه كذلك يستخدم التخويف والترهيب بجميع درجاته من أول التهديد إلى التنفيذ .

والأخصائي الاجتماعي الذي يطبق العلاج الإسلامي لعلاج مشكلات عملاء الخدمة الاجتماعية ، قد يلجأ أحيانًا إلى هذا الأسلوب كمحاولة أخيرة لتقويم الانحراف وتربية الأخلاق ، وخاصة أن هناك صنف منهم لا ينصلح حاله إلا عن طريق الرغبة حينًا والرهبة أحيانًا أخرى ، وأنه لا بد من إصلاحه من استعمال وسائل الترغيب والترهيب .

---

(١) دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية ، مصدر سابق ، (ص٧٢) .

(٢) منهج القرآن في تربية المجتمع ، نفس المصدر السابق ، (ص٢٥٠) .

(٣) منهج التربية الإسلامية ، مصدر سابق ، (ص١٣٦) .

والأخصائي الاجتماعي عندما يطبق هذه الأساليب العلاجية المختلفة لعلاج عملائه فإنه يطبقها بما يناسب فرديتهم الخاصة ، وذلك بعد دراسة صفاتهم الشخصية ، ويعرف قدراتهم وإمكانياتهم ومدى استعدادهم وطرق التربية التي شبوا عليها وعندئذ يختار الأسلوب العلاجي المناسب لكل فرد منهم ، فليس من الضروري أن يطبق كل أساليب التنمية الخلقية على الجميع ، وليس من الضروري أن يطبق كل أساليب العلاج الإسلامي عليهم ، بل يختار منها ما يراه مناسبًا للتأثير في كل فرد على حدة حتى ينجح في تغييرهم ويتمكن من تعديل سلوكهم ، ويصل إلى تقويم انحرافهم ، ثم يعمل على تكوين العادات الأخلاقية الصالحة .

٤ - التنمية الأخلاقية بالأضداد :

إن طريق تنمية الأخلاق وتهذيبها عن طريق المضادات الخلقية ، هو أحد أساليب العلاج الإسلامي لكثير من الانحرافات والمفاسد الخلقية . وقد نجح هذا الأسلوب في علاج الأجسام عندما تعالج الحرارة بالبرودة ، والبرودة بالحرارة ... إلخ . فإن الأخلاق تنمي وتهذب أيضًا بالأضداد ، وقد أشار إلى هذا الأسلوب العلاجي الإمام الغزالي عندما قال : « وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن والموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها ؛ فإن كانت من حرارة فبالبرودة ، وإن كانت من برودة فبالحرارة ، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب ، علاجها بضدها ؛ فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخي ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض البشر بالكف عن المشتهي تكلفًا ، وكما أنه لا بد من احتمال مرارة الدواء ، وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة ، فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر ومداومة مرض القلب بل أولى ؛ لأن مرض البدن يخلص المرء منه ، بخلاف مرض القلب فإنه يدوم ، وكما أن كل مبرد لا يصلح لعلة سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص ، ويختلف ذلك بالشدة والضعف ، والدوام وعدمه ، وبالكثرة والقلة ، ولا بد من معيار يعرف به مقدار النافع منه فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد ، فكذلك النقائض التي تعالج بها الأخلاق لابد لها من معيار » [١] .

فالمدين مدينًا ما بقي عليه درهم ... ومحبة الشيء تلزمه العبودية له ... فاجعل محبتك خالصة لمن تلزمك عبوديته .

والأخصائي الاجتماعي الذي يطبق العلاج الإسلامي مع عملاء الخدمة الاجتماعية

---

(١) إحياء علوم الدين ، مصدر سابق ، (ص٦٤ ، ٦٥) .

عن طريق تنمية الأخلاق وتهذيبها بأسلوب المضادات الخلقية ، فإنه يسعى إلى تعديل سلوكهم وتقويم أخلاقهم ، ورد انحرافاتهم عن طريق هذا الأسلوب .

وهكذا يعالج الأخصائي مفاسد الأخلاق بأضدادها ، فالعميل الجبان الخائف يعالج بتعريضه لمواقف تتطلب الشجاعة ، والعميل الكاذب يعالج بالصدق ، والعميل الذي يشعر بالاضطهاد والظلم في حاجة إلى الأمن والطمأنينة من خلال علاقة المحبة الصادقة التي تكونت بينه وبين الأخصائي الاجتماعي ومن خلال المحبة التي يساعده الأخصائي الاجتماعي على تكوينها مع زملائه ورؤسائه بالمؤسسة ، وذلك يستبدل الخوف بالأمن ، والكراهية بالحب ، والسلبية بالإيجابية ، والشر بالخير ، والإلحاد بالإيمان ، وعندئذ تتغير أخلاقه وتهذب ويصبح العميل المنحرف حسن الطباع ، طيب الأخلاق ، ويعود إلى فطرته السليمة التي خلقه اللَّه فيها ، وينجح العلاج الإسلامي في الأخذ بيد العملاء وتوجيههم إلى الطريق المستقيم ، طريق الهدى والحب والإيمان .

٥ - العلاج الإسلامي بالتنمية العقلية :

التنمية العقلية أسلوب آخر من أساليب العلاج الإسلامي ، حيث إن العقل البشري طاقة من أكبر طاقاته ، ونعمة من أكبر نعم اللَّه عليه ، ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك : ٢٣] ، (والفؤاد) يستخدم في القرآن بمعنى العقل أو القوة الواعية في الإنسان أو القوة المدركة على وجه العموم [١] : ولذلك كرم اللَّه الإنسان بهذا العقل وما أودعه فيه من قدرات كثيرة منها القدرة على التعلم تثقيفًا لهذا العقل وتسديدًا لتفكيره وأحكامه ، ولهذا جاء الإسلام يحض على النظر العقلي والتفكير حتى جعل التفكير والتعلم فريضتين إسلاميتين [٢] : ولذلك كان الدين الإسلامي دين علم ونور ، لا دين جهالة وظلمة ، فأول أية نزل بها الوحي فيها أمر للرسول بالقراءة وتكريم لذلك الأمر ، وتنويه بشأن العلم والتعليم الذي تم إسناده إلى اللَّه .

﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ٣ - ٥] والإسلام دين الفطرة الذي يحترم الطاقات البشرية كلها ، ومن ثَمَّ فهو يحترم الطاقة ويشجعها ، وينميها لتتجه في طريق الخير ، ويبدأ الإسلام التنمية العقلية بتحديد مجال النظر العقلي ، فيصون الطاقة العقلية أن تتبدد وراء الغيبيات التي لا سبيل للعقل البشري

---

(١) منهج التربية الإسلامية ، مصدر سابق ، (ص٨٢) .

(٢) الحل الإسلامي ضرورة وفريضة ، مصدر سابق ، (ص٥١) .

أن يحكم فيها ، وهو يعطي الإنسان نصيبه من هذه الغيبيات بالقدر الذي يلبي ميله للمجهول ، ولكنه يكل أمر ذلك إلى الروح ، فهي القادرة على ذلك ، المزودة بوسائل الوصول ، أما العقل فوسيلته إلى اللَّه وإلى معرفة الحق ، هي تدبر الظاهر للحس والمدرك بالعقل ، ومن ثَمَّ يحدد الإسلام مجاله بهذا النطاق ، ولا يتركه يغرق في التيه الذي غرقت فيه الفلسفة واللاهوتيات ، ثم بعد ذلك يأخذ في تدريب الطاقة العقلية على طريق الاستدلال المثمر والتعرف على الحقيقة ، فيتخذ إلى ذلك وسيلتين : الوسيلة الأولى هي وضع المنهج الصحيح للنظر العقلي . والوسيلة الثانية هي تدبر نواميس الكون وتأمل ما فيها من دقة وارتباط [١] .

وبعد أن أعطى الإسلام كل هذا الاهتمام للتنمية العقلية ، اهتم أيضًا بتثقيف هذا العقل ، وتسديد تفكيره عن طريق العلم ، والعلم في نظر الإمام الشافعي قوام الدنيا وقوام الدين حيث قال : « من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعلية بالعلم ومن أرادهما معًا فعليه بالعلم » ، كما دعا الرسول إلى التعليم وأوجبه فقال : « **علموا أولادكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم** » ولم يقف عند الدعوة إلى نشر التعليم فحسب ، بل دعا إلى الاستمرار في طلب العلم والتعلم ، والبحث والاطلاع فقال : « **لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل** » ، ولذلك صار طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] .

واهتمام العلاج الإسلامي هذا الاهتمام الكبير بالتنمية العقلية يرجع إلى قول كثير من العلماء بأن العامل المؤثر في تكوين العقيدة هو العقل فما دام الارتباط بين العقل والعقيدة قائمًا على أوثق وجه، كان لا بد من إرجاع العقيدة في تكوينها وتكيفه وأوجه التأثير إلى عامل العقل [٢] . والعقيدة الدينية لشدة فاعليتها وقوة سلطانها على الأفراد والجماعات ، احتلت المكانة الأولى في دائرة النفوذ بين غيرها من العقائد ، خاصةً إذا كانت راسخةً ثابتةً تقوم على إدراك واضح وعلم يقين ثابت .

واهتمام العلاج الإسلامي بالتنمية العقلية ، يرجع لما لها من تأثير كبير في تكوين

---

(١) منهج التربية الإسلامية ، المصدر السابق ، (ص ٩٢) .

(٢) العقيدة والأخلاق، مصدر سابق ، (ص ٥٦) .

كل ما يلحق بها ، أو يؤثر فيها تأثيرًا ولو طفيفًا في قدرتها على التمييز بين الحق والباطل في المعتقدات ، والخطأ والصواب ، أوالضار النافع في التصرفات ، قولية كانت أو فعلية .

ولهذا كله لجأت الخدمة الاجتماعية إلى العلاج الإسلامي لعلاج المشكلات الاجتماعية ، متبعة في ذلك كل أساليبه المختلفة ومنها التنمية العقلية ، حيث إن هؤلاء العملاء ، قد اضطرب تفكيرهم ، وعجزت عقولهم عن التمييز بين الحق والباطل في المعتقدات ، والخطأ والصواب ، ولذلك انحرفوا ، وعندئذ ظهرت الحاجة الملحة إلى تنمية عقولهم والعناية بها وصيانتها حتى يستقيم تفكيرها .

ولذلك يحاول الأخصائي الاجتماعي الذي يطبق العلاج الإسلامي مساعدة هؤلاء العملاء على الاستفادة من الفرص التعليمية ، إن كانت موجودة بأكبر قدر ممكن ، أو يحثهم على استكمال تعليمهم إن كانوا توقفوا عن التعليم مستعينًا في إقناعهم بعلاقة الحب والمودة التي كوَّنها معهم ، كما أنه يستطيع تنظيم بعض البرامج والأنشطة لمحو أمية الأميين منهم والاستعانة ببعض الخبرات التي تعينه في ذلك ؛ لأنه عن طريق التعليم يساعدهم على اكتساب الخبرات الكثيرة التي تساعد على علاج المشكلات . ولكي يحقق الأخصائي الاجتماعي الهدف من التنمية العقلية في علاج عملائه فإنه يمارس معهم عمليات تعليمية وتربوية .

وأساليب الأخصائي الاجتماعي لتعليم هؤلاء العملاء يمكن حصرها فيما يلي [١] :

١ – أسلوب التنبيه :

التنبيه هو الأسلوب الذي يمارسه الأخصائي الاجتماعي لإيجاد الدافع للتعلم ، فوجود الدافع شرط أساسي لتحرير طاقة العميل وتوجيهها وجهة خاصة ويتم التنبيه بوسائل مختلفة أهمها : توضيح فوائد التعلم ، ثم توضيح أخطار عدم التعلم ، ثم إتاحة فرصة التعلم ، وتتم هذه العمليات تصريحًا أو تلميحًا ، حسب درجة نضج العميل ودرجة فاعليته .

٢ – أسلوب التوضيح :

أسلوب التوضيح يعقب أسلوب التنبيه ، حيث يتطلع العميل إلى الخبرة والمعرفة تلقائيًا ، سواء كانت خبرة خاصة بالمؤسسة أو بالأخصائي الاجتماعي ، أو بالموقف

(١) عبد الفتاح عثمان « خدمة الفرد في المجتمع النامي » ، (ص٣٧٩) .

أو بجوانب عامة مرتبطة بالتنشئة الاجتماعية ، وللتوضيح ثلاث مناطق رئيسية هي : تزويد العميل بمعلومات جديدة ، كتعريف الحدث طريقة استخراج كعب العمل أو تفسير لأسباب موقف معين ، أو كتوضيح أسباب حرمان الحدث من الخروج من المؤسسة أو تصحيح معلومات خاطئة لدى العميل ، أوكتصحيح معلومات الحدث وتفهيمه بأن إخلاء سبيله ليس رهنًا بقضاء مدة العقوبة ، بل بتحسن سلوكه حسب تقرير المؤسسة أو كتوضيح ما يغمض عليه من أساليب التنبيه السابقة التي قد يصعب على الحدث فهمها وتكون سببًا في مقاومة عملية التعلم .

٣ – أسلوب الإقناع :

الإقناع هو تأثير عقل على آخر ، وهذا الأسلوب يمارسه الأخصائي الاجتماعي عندما تلقى الخبرة المعرفية مقاومة من العميل ، مع مراعاة أن يكون هذا التأثير معتمدًا على المنطق والواقعية وحسن التقدير ، وهذا الأسلوب يتطلب من الأخصائي الاجتماعي رحابة الصدر واللياقة عند مناقشة العميل في المعتقدات الخاطئة ونواحي عدم صوابها ، كما أنه يمارس مع العميل الذي يتمتع بقدر مناسب من الذكاء وتكامل الشخصية .

٤ – أسلوب التدعيم :

إن استجابة العميل لأساليب التوضيح والامتناع يتحدد بناء على ما يعقبها من تثبيط والمقصود بالتدعيم هو مكافأة الفعل أو الثواب الذي يعقب الاستجابة .

٥ – أسلوب التعميم :

والتعميم هو العملية النفسية المسؤولة عن نقل ما اكتسبه العميل من عادات جديدة في موقف معين إلى غيره من المواقف المتشابة ، والأخصائي الاجتماعي لا يهدف إلى إكساب العميل عادات معينة فحسب ، بل إلى انتقال أثر السلوك إلى العديد من المواقف سواء واجهته أو واجهت آخرين من المحيطين به [١] .

العلاج الإسلامي بتنمية العلاقات والقيم الاجتماعية

والإسلام كما اهتم بالتنمية الخلقية والعقلية والدينية اهتم أيضًا بالتربية الاجتماعية اهتمامًا كبيرًا ، كما لها من أثر كبير على كل من الفرد والمجتمع ، وقد أوضح لنا الإسلام مجموعة من الأساليب العلاجية التي عن طريقها يتم العلاج بالتربية الاجتماعية

(١) عبد الفتاح عثمان « خدمة الفرد في المجتمع النامي » ، (ص٣٨١) .

نوردها فيما يلي :

١ - تنمية القيم والعلاقات الاجتماعية بالحب :

ونبني العلاج الإسلامي على أساس عواطف اجتماعية أهمها المحبة كاحتياج أساسي لكل إنسان ، لا بد من إشباعه وبذلك يصبح الإنسان على استعداد لمحبة الآخرين ، وإذا لم يشبع هذا الاحتياج المهم فسيشعر بكراهية الآخرين ، والضيق منهم والتبرم والسخط عليهم ، وعندئذ يصير عدوانيًّا يصب عدوانه على المجتمع بصفة عامة ، وعلى نفسه في أحيان كثيرة ، فيعوج سلوكه ويصبح إنسانًا منحرفًا .

ولذلك اهتم العلاج الإسلامي بإشباع تلك العاطفة السامية ، التي إن صلحت صلح كل شيء وإن طلحت فسد كل شيء ، فبدأ بالتأكيد على محبة الوالدين ، لما لها من أثر على الصحة النفسية للفرد ، ثم أضافت عليه ينبوعًا لا ينضب من ينابيع العاطفة الصادقة ، وهو محبة اللَّه الذي أنعم علينا ، والذي يرحمنا في المحن ، عندما نلجأ إليه وندعوه فيكشف السوء .

وعلى أساس محبة اللَّه يحب المؤمن كل من يشاركه الولاء للَّه ومحبة اللَّه وطاعته ، والانقياد لشريعته ، والاعتزاز بالسير تحت لوائه ، وهذا ما يسمى بالحب في اللَّه .

وقد جعل رسول اللَّه ﷺ محبة قوم ثبتت نصرتهم للَّه ورسوله من علامات الإيمان ، وبغضهم من علامات النفاق .

عن البراء بن عازب ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال في الأنصار : « **لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق من أحبهم أحبه اللَّه ومن أبغضهم أبغضه اللَّه** » [١] . كما جعل مصير الإنسان يوم القيامة مرتبطًا بمصير من يحبهم ويتعلق بهم ، ويربط بهم برباط اجتماعي في الدنيا ويعمل بعملهم ويبدل من أجلهم .

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن من عباد اللَّه عبادًا ليسوا بأنبياء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء** » ، قيل : من هم لعلنا نحبهم ؟ قال : « **هم قوم تحابوا بنور اللَّه من غير أرحام ولا أنساب ، وجوههم نور ، على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس** » ثم قرأ » : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢] . رواه النسائي وابن حبان في صحيحه .

---

(١) يحيى بن شرف النووي (أيًّا من الصالحين) الشمرلي بمصر ، بدون ناشر ، (٨٧/٣) .

وعن أنس ﷺ أن رجلًا سأل رسول اللَّه ﷺ : « متى الساعة ؟ » قال : « **وما أعددت لها ؟** » قال : لا شيء إلا إني أحب اللَّه ورسوله ، قال : « **أنت مع خير من أحببت** » رواه البخاري ومسلم (١) .

إن الحب في الإسلام يستمد وجوده من الحب الإلهي ، فإذا تحققت منه لذة فهي وسيلة لغاية مرادة للَّه ، وليست اللذة من أجل اللذة ، إنما هي ثمرة لاتباع أمر اللَّه ، كما أنه إذا بغض شيئًا ، فإنما يبغضه بأمر اللَّه ؛ لأن فيه إسراف أو إفساد أو خيانة أو إثم أو اعتداد أو ظلم ، فالبغض ما يبغضه اللَّه وينهى عن فعله ، كما ورد في كتابه الكريم . والأخصائي الاجتماعي الذي يطبق العلاج الإسلامي مع العملاء عن طريق الحب فإنه يبدأ بنفسه أولًا ، فعمله معهم وتأثيره فيهم يرتبط ارتباطًا وثيقًا بحبه لهم وحبهم له ، فهو يحبهم في اللَّه ولذلك يشقى ويتعب من أجلهم ، ويبذل الجهد ويضحي بالوقت في سبيل علاج مشكلاتهم وهو لا ينتظر من وراء ذلك جزاءً أو شكورًا ، فجزاءه على اللَّه وجزاءه من اللَّه وحبه في اللَّه وللَّه .

وعندما ينجح الأخصائي الاجتماعي في اكتساب حبهم ، فسيصبح القدوة الحسنة أمامهم ، فيتعلمون منه الحب ، ويبدؤون بحبه ثم يحبون بعضهم البعض ، ثم ينتشر الحب حتى يشمل كل الناس ويعم المجتمع ، وعندئذ تصفو قلوبهم وتتطهر نفوسهم ويقَّوم انحرافهم ويتعدل سلوكهم وتُعالج مشكلاتهم .

٢ - تنمية العلاقات والقيم الاجتماعية بالتعاون :

من القدر أن الحياة في أي جماعة من الجماعات لا تقوم دون أن يتحقق تعاون بين أفرادها ، وهذا التعاون لا بد من أن يُنظم وتُوضع له الروابط والضوابط التي تجعل عمله عملًا نافعًا مثمرًا ، وتقيمه على أسس من العدل والمحبة والإخاء (٢) .

وقال اللَّه تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ [المائدة : ٢] فاللَّه يأمر بالتعاون على البر وعمل الخير ومعاونة المعوزين والعاجزين والمساكين ، كما يأمر بالتعاون على التقوى والعمل الصالح وينهى عن التعاون على الإثم والشر والعدوان .

وقال ﷻ : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر : ١ - ٣] . فمن تمسك بالإيمان وفعل الخير ،

(١) (الترغيب والترهيب) ، (٢٦٢/٣) .

(٢) العقيدة والأخلاق ، مرجع سابق ، (ص٨٦) .

والتزم الحق ، والصبر نجح في حياته وعمله . ولن تهلك أمة يتواصى أفرادها بالإيمان ، ويتناهون عن الباطل . وكثيرًا ما سقطت الأمم ؛ لأن أبناءها كانوا لايجدون من يرشدهم إلى الطريق المستقيم وينهاهم عن الشرور التي يرتكبونها ، والآثام التي يعترفونها . وقد صح عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « **واللَّه في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه** » .

إن الفطرة البشرية قد جعلت تحقيق الخيرات لا يمكن أن يستقل به إنسان ، ينفرد بنفسه ويكون في معزل عن الناس ، فلقد كان من مقتضيات الطبيعة البشرية ، والفطرة الإنسانية أن يتعاون الناس على تحقيق خيراتهم مجتمعين ، كل يقوم بما يختص به من فروعها ونواحيها ، لذلك كان من المحتم بل ومن أوجب الواجبات على الناس أن يحب بعضهم بعضًا ، وبدون تلك المحبة ينفروا عقد المجتمع وتذهب كثير من الخيرات [١] .

وقد ربط اللَّه واجب الإيمان في النفس والجماعة بأسس من واقع الإنسان وهو ؛ أن للإنسان جانبين من جوانب شخصية أحدهما انفرادية بها يخاطب وبها يكلف ، وبها يتصرف في شؤونه الخاصة في دائرة أحكام اللَّه وإرشاده ، وبها يسأل عن نفسه أين وضعها ؟ وعن عمله ماذا قصد به ، وعن ماله فيما أنفق ؟ وعن عمره فيما أفناه ؟

والأخصائي الاجتماعي الذي يعالج العملاء عن طريق التعاون ، فإنه يبدأ بتدريبهم على ممارسة التعاون فيما بينهم عن طريق بعض الألعاب الرياضية التي تتطلب روح الفريق ، والتي لا بد أن يتعاون فيها العضو مع بقية أعضاء الفريق ، وعندئذ يعرف قيمة التعاون بالممارسة ، ثم يدربه على التعاون عن طريق تحمل بعض المسؤوليات الجماعية مثل مسؤولية الإعداد لرحلة بعقد تقسيم المسؤوليات ومعرفة كل عضو لمسؤوليته التي تكمل المسؤولية الجماعية ، أو توزيع مسؤوليات الاشتراك في حفلة والإعداد لها ، وفي كل ذلك يوضح لهم الأخصائي الاجتماعي قيمة التعاون وآثاره الإيجابية ونتائجه الطيبة على الفرد والجماعة . وبعد ذلك يتدرج معهم الأخصائي في إسناده بعض المسؤوليات إليهم خارج المؤسسة على أن تكون مكملة لمسؤوليات أخرى في مكان آخر وعندئذ يعرف العميل قيمة التعاون خارج المؤسسة ، كما عرفها داخل المؤسسة ، وبالتالي يعرف قيمة التعاون بالنسبة للمجتمع ككل . وبعد ذلك نجده يقلع عن السلوك المنحرف ويبتعد عنه ، ويتجه إلى البناء بدلًا من الهدم ، والنماء بدلًا من الضياع ، والايجابية بدلًا من السلبية ، ويصبح إنسانًا صالحًا متعاونًا في حقوقه وواجباته ، ويصير لبنة من لبنات بناء المجتمع .

---

(١) العقيدة والأخلاق ، مرجع سابق ، (ص٢٤٩) .

٣ - تنمية القيم الاجتماعية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

فالأمر بالمعروف وسيلة إصلاح الأفراد والجماعات والمجتمع ، كما أن النهي عن المنكر وسيلة يستطيع بها من أتى منكرًا أن يجد من ينهاه عنه ، ويرشده إلى الصواب ، ويأمره بالمعروف ، فيعتدل ويفيق إلى الحق ، وهو أسلوب رائع جميل فيه المحبة للناس ، وفيه المحبة للفضائل ، وفيه الكراهية للرذائل ، ومنع الناس من أدائها ، وقد ورد الحديث الشريف : « **من رأى منكم منكرًا فليغيرْه** » وهذا الأسلوب لو أهمله المسلمون لعمهم البلاء ، ولفسد المجتمع ، فقد قال الرسول ﷺ : « **ما أقر قوم المنكر بين أظهرهم ، إلا وعمهم اللَّه بعذاب محتضر** » . وهذا الأسلوب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) يشترك في أدائه الأفراد في المجتمع في المجال الفردي ، والهيئة الحاكمة في المجال الجماعي .

وقال الرسول ﷺ : « **لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن اللَّه عليكم شراركم ، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم** » [١] .

وقال اللَّه ﷻ : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ، فالله أمر بالدعوة إلى الإسلام وفعل الخير من صدقه ، وإيثار ، وتعاون ، وترابط وتضامن ، وأمر بالمعروف وهو ما استحسنه الشرع : كالتواصي بالحق والرحمة والإحسان والصبر ، ونهى عن المنكر وهو ما استقبحه الشرع : كالظلم ، وعدم إخراج الزكاة ، وكالخيانة والغدر والكذب .

٤ - تنمية القيم الاجتماعية بتطبيق الحدود الشرعية :

المرحلة الاجتماعية الأخيرة في ضبط السلوك وعلاج المشكلات هي الحدود الشرعية ، فمن الناس من لا ينفع معه وازع العقل ولا وازع الضمير ، ولا وازع الترهيب ، ولا وازع الكفارات والمحاسبة الشخصية على الأخطاء المستورة ، وكان سلوكه معوجًا حتى احتاج إلى من ينهاه عن المنكر ويأمره بالمعروف ، فلم يرتدع وأصبح مصدر عدوان على نفسه وعلى المجتمع ، فلا بد هنا من حدود وقائية وعلاجية تشرع لإكراهه بالقوة إلى اتخاذ المسالك الحسنة فيقام عليه الحد ، وأسلوب الحدود الشرعية هو أسلوب الحاكم وحده ، وإن اللَّه يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، فأعطى اللَّه السلطان

---

(١) روح الإسلام ، مصدر سابق ، (ص٢٥٤) .

تنفيذ حدود اللَّه وقد قال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩] ، فمن قتل يقتل ، ومن سرق يقطع يده ، ومن كان متزوجًا وزنى يرجم ، ومن شرب الخمر يجلد ... وهكذا باقي الحدود ، فالحدود تطهير للشخص مما ارتكب من الذنب ، وحفظ للمجتمع من الفساد والرذيلة ؛ إذ إن الحدود جوابر ، أي تجبر ما حصل من الإنسان ، وتكون واعية للاعتبار بها ، أي زواجر للناس ، فمن فضل اللَّه أنها جوابر لمن يرتكبها ، وزواجر لمن يفكر الإتيان بها ، وبذلك يحفظ المجتمع من الفساد والإفساد ، وهكذا يصبح الفرد رقيبًا على نفسه وعلى المجتمع ، ويصبح المجتمع رقيبًا على الأفراد [١] .

أما أسلوب تنمية العلاقة والقيم الاجتماعية عن طريق الحب ؛ فالأخصائي الاجتماعي يعتمد في عمله كله على العلاقة الطيبة التي يكوِّنها بينه وبين هؤلاء العملاء ، وهي علاقة حب صادق ، ومودة خالصة والتي يلمسها العلماء ويحسون بها ويعيشونها ، وعندئذ يعممون الحب على الآخرين الذين يتعاملون معهم . بعد أن افتقدوا الحب وحرموا من المودة ، وكان ذلك من أسباب مشكلاتهم ، ثم يتدرج هذا الحب إلى أن يصل إلى أعظم درجاته وهي المحبة الصادقة لكل الناس ، تقربًا إلى اللَّه واكتسابًا لمحبته .

أما تنمية القيم الاجتماعية عن طريقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن الأخصائي يمارس هذا الأسلوب معهم ، ويستغله ليعيد العملاء إلى فطرتهم الطاهرة ، ويصونها عن التدنس ، وارتكاب الأخطاء ، والتي تقيهم من الانحراف ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى بأن الأخصائي الاجتماعي يستغل هذا الأسلوب ، ليغرس في قلوب العملاء معاني الإيمان بشتى الطرق وفي مختلف المناسبات ، فهو يلفت أنظارهم إلى كل ظاهرة من ظواهر الكون ، الدالة على قدرة اللَّه وعظمته ووحدانيته وبعد ذلك يوجه سلوكهم بآداب الإسلام .

أما عن تنمية القيم الاجتماعية عن طريق الحدود الشرعية فإن الأخصائي الاجتماعي ما هو إلا ممثل للمجتمع ، يطبق دأبه ، ويرتبط بقيمه ، ويرجع إلى أمر اللَّه ، ويحكم شريعته في تنظيم المجتمع ، حيث إن ذلك يعتبر من أهم مصادر الروابط والأهداف الاجتماعية ؛ لأنه يهدف إلى تربية الأفراد وتأديبهم بطلب مرضاة اللَّه ، فإذا انحرف الفرد عن هذا الهدف ، أدانه المجتمع ، وأصبح من حق الأخصائي الاجتماعي أن يتخذ

---

(١) السلوك الاجتماعي بين علم النفس والدين ، مصدر سابق ، (ص٢٠٤) .

معه شتى الأساليب التربوية كمحاولة أخيرة للتأثير فيه أو تغييره ، وإذا لم تجد معه كل هذه الأساليب أصبح من حق الأخصائي الاجتماعي تسليمه للسلطة التي تنفذ أوامر اللَّه ؛ لتطبق عليه أي نوع من أنواع الحدود الشرعية ، حتى يعود الأفراد إلى حظيرة الإيمان والتوبة والندم ، ويرجعون إلى العمل بمقتضى الشريعة وآدابها .

العلاج الإسلامي بالتنمية النفسية

مَنْ نظر في تعاليم الدين الإسلامي وتأمل مقاصده ، ليدرك أنه يرمي إلى غرض واحد هو توفير الكمال النفسي للإنسان ، وتيسير أسباب السعادة له في دنياه وآخرته متمثلًا في تنظيم سلوكه وضبطه [١] .

إن الإسلام يقدم بتعاليمه الكاملة السليمة أفضل العون للنفوس ، وما العبادات في الإسلام إلَّا وسائل ربانية لتربية النفس وتنظيم طاقاته ، وهو إذا يخصنها بهذه العبادات لا يقتل حيويتها ولا يضعف منها أبدًا حتى تلك الغرائز الجنسية الشهوية ، لا يقف منها موقف العداء ؛ وإنما يعمل على تنظيمها ، فتتحول بذلك إلى طاقة بناءة للحياة .

إن القرآن أسلوب رائع للتنمية النفسية ؛ فهو يربي المرء على الإيمان بوحدانية اللَّه وباليوم الآخر . ويقول « محمد إقبال » في كتابه إعادة بناء الفكر الإسلامي : « ما يأتي به الدين من علم والإيمان به هو تجربة نفسية تخضع للممارسة الداخلية للإنسان أي تخضع لجهاد النفس ، وترويضها ، فكلما جاهد الإنسان شهوات نفسه ، ووقف في سبيل هواها ، كلما زاد إدراكه وضوحًا وعمقًا للطريق السوي في الحياة ، وكلما زاد إيمانه قوة باللَّه وبرسالته ، ونهاية هذه التجربة النفسية يتجلى في الصفاء النفسي » [٢] .

إن أسلوب القرآن في تنمية النفس ، يفرض الإقناع العقلي مقترنًا بإثارة العواطف والانفعالات النفسية ، فهو بذلك يربي العقل والعاطفة معًا ، متمشيًّا مع نظرة الإنسان في البساطة وعدم التكلف ، وطرق باب العقل مع القلب مباشرة .

يبدأ القرآن من المحسوس والمشهود المسلَّم به ؛ كالمطر ، والرياح ، والنبات ، والرعد والبرق . ثم ينتقل إلى استلزام وجود اللَّه ، وعظمته وقدرته ، وسائر صفات اللَّه مع اتخاذ أسلوب الاستفهام أحيانًا ، إما للتقريع ، وإما للتنبيه ، وإما للتحبيب والتذكير بالجميل .. أو نحو ذلك . مما يثير في النفس الانفعالات الربانية ؛ كالخضوع ، والشكر ،

---

(١) المرجع السابق ، (ص٨) .

(٢) نحو القرآن ، مصدر سابق ، (ص١٤٩) .

ومحبة اللَّه ، والخشوع له ، ثم تأتي العبادات والسلوك المثالي تطبيقًا عمليًا للأخلاق الربانية [١] .

إن الدين الإسلامي يعتمد في إصلاحه على تهذيب النفس الإنسانية ويكرس جهودًا ضخمةً للتغلغل في أعماقها وغرس التعاليم في جوهرها ، فالنفس الإنسانية هي موضوع عمله ومحور نشاطه ؛ لأن الإسلام دين الفطرة ، قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠] .

والنفس المنحرفة تثير الفوضى في حكم النظم وتستطيع النفاذ منه إلى أغراضها الدنيئة ، والنفس الكريمة ترقع الفتوق ، وتحسن التصرف في الأمور ، وتسير وسط الزوابع والأعاصير [٢] .

والعلاج الإسلامي لكي يصل إلى تحقيق أهدافه في التنمية النفسية « فإنها تنطلق من محركين أساسيين ، محرك ترغيب ، ومحرك ترهيب ، فالنفس تنزع بفطرتها إلى الهوى ، وتميل إلى الشهوة ، وتركن إلى تحقيق ذلك ركونًا عظيمًا » .

والتنمية النفسية كأسلوب مهم من أساليب العلاج الإسلامي يمكن تحقيقها بالأساليب التالية :

١ – تنمية الإرادة :

لقد أوضح الإسلام المنهج العلمي لتنمية الإرادة [٣] ، وتدريبها على الالتزام بموقف الحكمة والهدى والثبات أمام تيار الهوى كما يلي :

أ – تنمية الإرادة بالتحكم في المشاعر (كظم الغيظ والحد من الغضب) :

وهنا يطالبنا الشرع الحكيم في أشد حالات الغضب ، مادمنا متمتعين بوعينا وإدراكنا أن نسيطر على حركات ألسنتنا وجوارحنا ، ويحاسبنا على الأسلوب القولي والفعلي الذي نختاره في التعبير عن شعورنا .

وبالمثل نستطيع أن نتصرف في مواقف الغضب لا بمصادمة هذه الغريزة نفسها ، ولا بمقاومة حركتها الطبيعية في بداية اندفاعها ، ولكن بتوجيه هذه الحركة وتحويل خط

---

(١) التربية الإسلامية ، مصدر سابق ، (ص٢١) .

(٢) السلوك الاجتماعي بين علم النفس والدين ، مصدر سابق ، (ص٨٩) .

(٣) دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية ، مصدر سابق ، (ص٤٥ – ٥٠) .

سيرها على النمط الذي رسمه لنا القدوة الأعظم صلوات اللَّه عليه ، فلنستمع إلى شيء من إرشاداته الحكيمة التي يوجهها إلى من يقع تحت سلطان الغضب ، وهي إرشادات تبرهن على ما لصاحبها من علم واسع عميق ، وإدراك كامل دقيق لمدى هذه القوى النفسية في حدودها الطبيعية وفيما وراء تلك الحدود ، ففي اللحظة التي يدفعنا فيها الغضب إلى التفوه بكلمة ننفس بها عن غضبنا ، لا يأمرنا الرسول الكريم بأن نسكت ونحبس أنفاسنا ، بل يرشدنا بالعكس إلى أن نقول شيئًا ، ولكنه يختار لنا الصيغة المعبرة عن هذا الانفعال وهي ؛ « أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم » أليست هذه الكلمة وحدها كافية لفتح صمام المرجل الذي يغلي في الصدور ، وتخفيف الضغط الذي كان يولد فيه الانفجار .

فإذا ما دعتنا حدة الغضب إلى شيء أكثر من القول ، وانبعثت فينا نزعة قوية إلى البطش باليد أوغير ذلك من الحركات البدنية ، فإن الإرشاد النبوي يساير هذه الحركة الطبيعية أيضًا في مبدئها ، ولكنه لا يلبث أن يحول مجراها برفق بعيدًا عن هدفها ، ولنستمع إليه ﷺ حين يقول : « **إذا غضب أحدكم وهو قائم فليقعد ، ليذهب عنه الغضب ، وإلا فليضجع** » [١] .

وللغضب أنواع متعددة من العلاج [٢] :

أولها : كظم الغيظ الذي يرد الغضب ويسكنه فإنه أعظم وسيلة لرده وأعظم علاج لدفعه ، قال الرسول ﷺ : « **إذا غضبت فاسكت** » ، وقال ﷺ : « **من كظم غيظًا ولو شاء أن يمضيه لأمضاه ملأ اللَّه قلبه أمنًا وإيمانًا** » ، وقال اللَّه تعالى في معرض المدح لهم : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

ثانيها : هو الحلم عند الغضب ، وقد أجمع العلماء على أن أفضل الأحلام ، الحلم عند الغضب والصبر عند الجزع . وقال الرسول ﷺ : « **إنما العلم بالتعلم ، والحلم بالتحلم ، ومن يتخير الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه** » ، وقال الرسول ﷺ : « **ابتغوا الرفعة عند اللَّه** » قالوا : وما هي يا رسول اللَّه ؟ قال : « **تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتحلم على من جهل عليك** » وعلى ذلك يكون الحلم أفضل من الكظم مثوبةً وأين أهل الدرجات من أهل المثوبات ؟ .

ثالثها : هو العفو والصفح ، وهي درجة لا يقدر عليها إلا من اتصفوا بالإيمان واليقين

---

(١) دراسات إسلامية ، مصدر سابق ، (ص٥٠) .

(٢) السلوك الاجتماعي بين علم النفس والدين ، مصدر سابق ، (ص١٣٢) .

ويتضح عظيم درجاته من قوله تعالى : ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] ، وقال : ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] ، وقال : ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ٢٢] .

رابعها : وإذ لم يستطع الإنسان أن يكظم غيظه أو يحلم أو يعفو ويصفح فعليه أن يتبع الأساليب الأخرى التي أشار بها الرسول ﷺ وهي تغيير الوضع أو القيام للوضوء ؛ فقد قال الرسول ﷺ : « **إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء ، فإنما الغضب من النار** » .

ب – تنمية الإرادة بممارسة الحب :

الحب والكره حالتان نفسيتان ؛ وليدة أسباب يبدو لنا بعضها ويخفي عنَّا البعض الآخر ، فقد يكون مردها إلى مجرد تجاذب الأرواح أو تنافرها ، أو إلى تقارب الأذواق والآراء ، أو تباعدها أو إلى غير ذلك من البواعث ، وأما ما كان منهما من صنع اللَّه مقلب المقلوب وكذلك ما يتبعها من الآثار الجبلية التي لا تنكر قرة عين ، وإشراق جبين ، وانفساح صدر ، وراحة ونعيم في لقاء من تحب ومناجاته . وأضداد ذلك في لقاء من تبغض . إلى هنا يقف عمل الفطرة التي رفعت عنها الأقلام ، ولكننا في غالب الأمر نضيف إليها آثارًا من صنعنا ؛ إذ نفرق في المعاملة بين من نحب ومن نبغض ، ولا نسوى بينهما في الحكم ، بل نكيل لهما بكيلين ونزن بميزانين ، فنحابي من نحب ، ونغضي عن هفواته ، ونتحامل على من نكره ، ونغطي على حسناته . وهذا هو الحوار الذي نهانا اللَّه عنه ؛ إذ يقول عز شأنه : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ ﴾ [الأنعام : ١٥٢] ، ويقول : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ﴾ [المائدة : ٢] ؛ هكذا يحملنا الإسلام مسؤولية عملنا ، وعافانا من كسبنا ، فلم يكلفنا اقتلاع عاطفة الرضا ونازعة السخط من أنفسنا ولا كف آثارهما الجبلية ، ولكن كف آثارهما الاختيارية الجائرة ، وقد جعل لنا في ذلك الأسوة الحسنة بصاحب الخلق العظيم ، فقد كان الرسول ﷺ يحد حق العدل بين زوجاته ؛ ثم يقول : « **اللَّهم هذا جهدي فيما أملك ولا طاقة لي فيما تملك ولا أملك** » [1] .

جـ – تنمية الإرادة بالصبر والتنفيس عن المشاعر :

ترى الناس إذا أصابهم ما يكرهون اندفعوا في هلع هالع ، وجزع خالع اعتذروا بشدة الصدمة الأولى وبعجزهم عن الصبر والتحمل ، كلا أنها حجة داحضة وللَّه الحجة البالغة ، فإن للحزن أثرًا طبيعيًّا لا جناح فيه ، وإنما السبيل على قول الهجر ، وفعل المنكر الذي تبرأ منه الفطرة .

---

(١) دراسات إسلامية ، مصدر سابق (ص٣٧) .

ها هنا أيضًا تجد في مشكاة الشريعة من الأضواء الباهرة ، ما يكشف لنا حدود مسؤولياتنا ، وما وراء تلك الحدود ، ففي أمر الصحيح الذي يرويه البخاري أن النبي ﷺ دخل على ابنه إبراهيم وهو يعالج سكرات الموت ، فلما رآه رق له قلبه ، وجعلت عيناه تذرفان الدموع ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : وأنت يا رسول اللَّه !! فقال : « **يا ابن عوف إنها رحمة** » ، ثم قال : « **إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإننا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون** » هكذا فرق الرسول الحكيم بين الظواهر الحيوية والنفسية التي ليست من كسبنا ، وبين الأقوال والأفعال التي تتبع هذه الحالات الطبيعية ولكنها محض علمنا ، واقعة تحت مسؤوليتنا [١] .

وهكذا نتعلم من الرسول ﷺ الصبر عند الشدائد ، والصبر يأتي بتنمية الإرادة وتدريبها وتكرار هذا التدريب في كثير من المواقف حتى يصبح الصبر عادة للإنسان وصفة من صفاته ، ولن يتحقق ذلك إلا بتنمية الإرادة .

كما تعلمنا من الرسول ﷺ كيف نعبر عن مشاعرنا ، وكيف ننفس عن مشاعرنا وخاصة السلبية منها مثل الحزن ، فالتعبير عنها وتنفيسها فيه راحة للنفس ، وتنمية للإرادة ، وقد وصفه الرسول ﷺ بأنه خير ، خير للإنسان ، وخير للمجتمع الذي يحيط به ، ولكن يصاحب هذا التنفيس التحكم في أقوالنا وأفعالنا المصاحبة لهذه المواقف المحزنة حتى لانفعل ما يغضب اللَّه أو نتلفظ بما لا يرضيه ، وأي تنمية للإرادة بعد ذلك إن الشريعة الباهرة وضحت لنا مسؤولياتنا وحدود سلوكنا في مثل هذه المواقف بما يؤدي إلى تنمية الإرادة .

إن اللَّه ﷻ لا يطلب منَّا أن نكبت غرائزنا ، ونغيِّر من تكوينها ، ولكنه يعلِّمنا كيف نوجهها ، ونضبط سلطانها ، وننظم آثارها العملية حتى لا نصبح عُبَّادًا لغرائزنا ، وصفافًا أمام مشتهياتها ورغباتها ، وبدلًا من ذلك علمنا كيف نغير اتجاهها ونحوله إلى مسار آخر إن استطعنا ، أو نوقف سيرها في الظروف التي تتطلب ذلك .

د – تنمية الإرادة بتحويل اتجاه بعض الغرائز أو وقف سيرها :

فقد علَّمنا القرآن الكريم كيف يكون موقفنا أمام إلحاح رغباتنا الجامحة ؛ فطورًا يأذن لنا أن نشبع رغباتنا بأسلوب آخر نستبدل فيه الحلال بالحرام ، والطيب بالخبيث ، وطورًا يوجهنا نحو معالي الأمور وأسماها شأنًا وأرفعها قدرًا ، وهذه هي رتبة الصفوة الخاصة ، ولكنه لا يأمرنا بترك التشهي والتمني إطلاقًا ، ولكنه يرسم لنا أهداف هذا التمني ،

---

(١) دراسات إسلامية ، مصدر سابق ، (ص٤٨) .

فلنستمع له حين يقول : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [النساء : ٣٢] . ثم يقول : ﴿ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [النساء : ٣٢] . وهذا نفسه هو الأدب الذي أدَّب اللَّه به نبيه فأحسن تأديبه ؛ إذ قال : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه : ١٣١] .

هـ – تنمية الإرادة بالإيحاء :

كثيرًا ما ينصح رجال التربية باستخدام الإيحاء عامةً والإيحاء الذاتي خاصةً في تنمية الإرادة ، ويعرفه بعضهم « بأنها فكرة أو تنبيه عقلي ينادي المشاعر أكثر مما ينادي العقول » (١) .

ويعرفون الإيحاء الذاتي بأنه « هو إيحاء نوجهه إلى أنفسنا » (٢) ، ويشترطون لتأثير الإيحاء في أي ميدان من الميادين بوجود رغبة في عمل ما قبل الإيحاء ، كما يجب أن تكون الرغبات والعادات الشعورية مهيأة لقبول تلك الأفكار الموحي بها ، كذلك يجب ألا تتعارض تلك الإيحاءات الجديدة مع الإيحاءات الأخرى العميقة التي ثبت الامتناع بها قبل الإيحاء الجديد (٣) .

والشرط الأخير المهم لتأثير الإيحاء أو ذاك يمكن تحقيق الرغبات به عمليًا (٤) .

أما تنمية الإرادة بالإيحاء كما جاءت في التربية الإسلامية ، فإنها تشبه الوسائل الإيحائية لدى علماء النفس غير أن نظرة الإسلام تختلف من حيث المصادر التي يستوحي الإنسان منها الشعور بقوة الإرادة ، فإن علماء النفس إذا كانوا ينصحون بصفة عامة بالإيحاء الذاتي ، فإن الإسلام ينصح بهذا الإيحاء على أساس استمداده من القوة الروحية مثل الاستعانة باللَّه وبقوته ؛ ولهذا قال الرسول لابن عباس عندما كان صغيرًا : « **يا غلام إني معلمك كلمات ؛ احفظ اللَّه يحفظك احفظ اللَّه تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل اللَّه ، وإذا استعنت فاستعن باللَّه ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللَّه لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللَّه عليك** » (٥) .

وعن مصادر الإيحاء الذاتي بالقوة الاعتزاز بالإيمان باللَّه يقول تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ

---

(١) كيف تمارس الإيحاء الذاتي ، (ص١٧) .
(٢) نفس المصدر ، (ص١٩) .
(٣) نفس المصدر ، (ص٣٠) .
(٤) نفس المصدر ، (ص٦١) .
(٥) مسند الإمام أحمد (ص٢٩٣) .

ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر : ١٠] .

وإن من حق المؤمن أن يعتز بإيمانه باللَّه وباتباعه الطريق السوي طريق الهدى والصلاح وهو طريق الإسلام : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : ٨] . ولهذا أمر الإسلام أن يكون المؤمن قويًّا ؛ لأن المؤمن القوي أحب إلى اللَّه وخير من المؤمن الضعيف ، فقال الرسول ﷺ : « **المؤمن القوي خير وأحب إلى اللَّه من المؤمن الضعيف** » (١) ، ولهذا كان الرسول ﷺ يستعيذ من الضعف والعجز أو الشعور بالضعف والعجز ، وكان يقول : « **اللَّهم أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل** » (٢) .

و – تنمية الإرادة بالزهد في متع الدنيا :

إن الزهد في متع الدنيا والتقليل من العادات الضارة في المأكل والمشرب والملبس مثل الإفراط والشره والطمع والحرص على جمع المال ، يجعل الإرادة الإنسانية تخضع لصوت العلم والعقل والأخلاق لا الغرائز والدوافع الفطرية ؛ وهذا يقتضي تدريبها أو لإخضاعها لهذه الأمور ، وتربيتها بالسير في ضوء الحكمة والأخلاق ؛ لأن الإرادة إذا أصبحت حرة بدون قيد أو شرط قد تستقيم وقد تنحرف ، ولا ضمان للاستقامة المستمرة ما لم تتدرب على التقيد بالقيود الفعلية والعملية والأخلاقية .

فإن لم يدرب الإنسان إرادته على مغالبة تلك الدوافع البيولوجية والسيكولوجية ؛ سيكون مغلوبًا على أمره ، ولا يمكن أن يكون صاحب خلق ؛ لأن كثيرًا من مبادئ الأخلاق لا تتكون إلَّا عن ذلك الطريق أي بمخالفة الدوافع الطبيعية (٣) .

ز – تنمية الإرادة بالتأمل والتفكير :

إن الإرادة تقوى بالتأمل والتفكير وذلك عن طريق أعمال الفكر بالإرادة مدة معينة في كل ساعة أو في كل يوم في موضوعات معينة ؛ لأن التفكير والتأمل المركز على ذلك النحو يقوي الإرادة من **ناحيتين** :

١ – العمل العقلي ؛ كالعمل العضوي فيما ينفق فيه من بذل الجهد وتوجيهه إلى موضوعات معينة بإرادة ، فكلاهما رياضة بالنسبة للإرادة ، ولهذا نجد أن بعض علماء

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب القدر ، باب في الأمر بالقوة ، (٢٠٥٢/٤) .

(٢) الجامع الصغير ، (٦١/١) .

(٣) التربية الأخلاقية الإسلامية ، مصدر سابق ، (ص٦٣٣) .

النفس ينصحون بذلك لتقوية الإرادة [١] .

٢ - إن الإرادة تقوى إزاء عمل أو أعمال يرى الإنسان وضوح الحق فيها وزوال الشك منها ؛ لأن الحقيقة كلما كانت واضحة يقينية كانت أكثر جاذبية للإرادة ، ودافعة إلى العمل بموجبها ، وتوجيه التفكير والتأمل إلى الموضوعات وسيلة لجلاء الحقائق فيها ، ولإدراك ما يترتب عليها .

ولهذا نجد الإسلام يدعونا باستمرار إلى التأمل والتفكير في الموضوعات المختلفة وفي المناظر المثيرة والمدهشة في الكون وفي المبادئ التي جاء بها فيقول تعالى مثلًا : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ ﴾ [سبأ : ٤٦] .

ويبين اللَّه أن من يتفكر في دلائل اللَّه وآياته يهتدي إلى الحق فقال : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠ - ١٩١] .

والأخصائي الاجتماعي الذي يطبق العلاج الإسلامي في علاج العملاء عن طريق تنمية الإرادة كأسلوب مهم من أساليب التنمية النفسية ، يعرف جيدًا أن هذه الفئة من الناس أحاطت بهم الضغوط البيئية القاسية ، والتي ترتب عليها الكثير من الضغوط الداخلية النفسية ، والمؤلمة التي جعلتهم يندفعون وراء أهواء الشيطان وأهوائهم وميولهم الشخصية فينحرفون ويرتكبون شتى أنواع السلوك المنحرف أو تواجهه الكثير من المشكلات ، مما يجعلهم في مسيس الحاجة إلى من يقف بجانبه ويساعدهم ويحررهم من تلك الضغوط المؤلمة سواء كانت بيئية أو نفسية ، وهنا يظهر دور الأخصائي الاجتماعي الذي يحاول تقوية إرادتهم وتربيتها عن طريق مساعدتهم أولًا على التحكم في مشاعرهم ، وخاصة السلبية منها مثل كظم الغيظ والحد من الغضب .

ولكن الأخصائي الاجتماعي يحاول مساعدة العملاء في إفراغ هذه الشحنات الانفعالية بصورة إيجابية بدلًا من إفراغها بصورتها السلبية ، فهو يعلِّمهم أولًا كيف يواجهون الشيطان ووساوسه عن طريق الوصفة النبوية الشريفة ، وهي الاستعانة باللَّه من الشيطان الرجيم ، ثم بعد ذلك يتيح لهم الفرص التي تسمح لهم بالحركة والنشاط الذي

(١) الفلسفة العملية للحياة ، (ص١٨٢) .

يغير من وضعهم الذي كانوا فيه عند ثورة الغضب ، ثم يطلب منهم الوضوء ؛ لأن الماء يطفئ نار الغضب وثورته كما قال الرسول ﷺ ، ثم يخطط لهم بعض البرامج والأنشطة المختلفة التي تمتص هذه المشاعر ، وتنفس تلك الانفعالات .

فعل الرسول ﷺ عندما توفي ولده إبراهيم فقد أدمعت عيناه وأحس بمشاعر الحزن والألم على فراقه ولكنه تحكم في هذه المشاعر السلبية وأفرغ تلك المشاعر بتعبيرات لفظية ، ولكن بما يرضي اللَّه ولا يغضبه ، والتربية الإسلامية لا تمنعنا من التألم والتعبير عن المشاعر وفي نفس الوقت تعلمنا كيف نتحكم فيها ونغير من نتائجها بما يعود على النفس الراحة والطمأنينة دون انحراف ودون أي معصية للَّه .

ثم يلجأ الأخصائي الاجتماعي لتنمية إرادة العملاء بالأسلوب الثاني ، وهو الحب وذلك عندما يُنشط إرادتهم بالعلم الذي يمنحها القدرة على العمل ، فيعلمهم كيف يتحابون ؟ وكيف يتساوون جميعًا في الحقوق والواجبات ؟ جاعلًا من نفسه القدوة الحسنة والمثال الطيب الذي يتعلمون منه ويقلدونه ، فهو يحبهم جميعًا كما خلقهم اللَّه ، لا كما يجب أن يكونوا .

وليس معنى ذلك أنه يحب ولا يكره ولا ينفعل ، فهو كبقية البشر يحب ويكره ، يسعد ويشقى ، يرضى ويغضب ولكن الصورة التي يتحكم فيها في مشاعره وانفعالاته ؛ لأن العلاج الإسلامي علَّمه كيف يتحكم في تلك المشاعر ، وليس معنى ذلك أنه يكبت المشاعر الإنسانية ويمنعها ، ولكن يتحكم فيها ويعبر عنها بالانفعالات والكلمات التي لا تؤذي أحدًا ولا تغضب اللَّه وفي نفس الوقت لديه القدرة على استغلال النتائج وتطويعها لصالح العلاج .

وعندما يظهر الأخصائي الاجتماعي بهذه الصورة أمام هؤلاء العملاء المنحرفين ، سيتعلمون منه الحب ، ويتأثرون بإرادته القوية ، فتقوى إرادتهم ويصبحون قادرين على التحكم في مشاعر البغض والكراهية حتى لا تنصرف بالسلوك المنحرف ، بل يعرفون كيف يوجهونها الوجهة التي تعود عليها بالفائدة ، وهذا ما يسمى بتغيير الاتجاه وهو الأسلوب الثالث من أساليب تنمية الإرادة ، أما بعض الغرائز التي لا يمكن إشباعها عن طريق تحويل الاتجاه ، ولا يمكن التحكم فيها فإن الأخصائي الاجتماعي يساعدهم على وقف سيرها ، ومنعها عن طريق تربية النفس ومجاهدتها بألوان العبادات المختلفة مثل ؛ الصوم والصلاة والزكاة .

كما يمكن للأخصائي الاجتماعي تقوية الإرادة وتربيتها عن طريق الإيحاء الذي يستمد من القوة الروحية مثل الاستعانة باللّه وقوته والإيمان به والاعتزاز بقدرته وقوته ، باتباعه الطريق السوي ، طريق الهدى والصلاح ، وهو طريق الإسلام ، وكثيرًا ما ينجح الإيحاء في المواقف التي لا يصلح فيها التصريح والتوجيه المباشر ، وعندما يحاول الأخصائي تطبيق الإيحاء في تقوية إرادة العملاء ، فإنه يساعدهم على أن يتخيلوا بعقولهم ما يريدون عمله ويعبروا عنه تعبيرًا دقيقًا ، ثم يساعدهم على أن يذكروا بدقة وعناية في العقبات والأسباب التي تمنع تحقيق ما يريدون ، وما هي المشاعر التي تحول دون السير في خطوات العلاج المناسبة ، ثم يساعد كلًّا منهم على أن يستشعر في نفسه القوة والقدرة ، على ممارسة تلك الأساليب العلاجية ، وعندئذ تقوى إرادته ويصبح على استعداد لممارسة الأساليب العلاجية التي يقترحها عليه الأخصائي الاجتماعي ، وبذلك يتم تقويم الانحراف وتعديل السلوك وعلاج المشكلات .

أما أسلوب الترك والمنع والزهد فيما ترغبه النفس وتهواه ، فهو أسلوب آخر من أساليب تنمية الإرادة وتقويتها .

ولذلك فإن الأخصائي يقف بجانبه يشجعه ويوجهه ، يساعده ويعينه ، مستعينًا بالحب والمودة والثقة في مساعدته على رياضة النفس ومجاهدتها عن طريق كفها ومنعها عما تحبه وتشتهيه ، ويدربه على ذلك بالصبر والتدريب إلى أن يصبح قادرًا على الاستغناء عن كثير من ملذاته ، متحكمًا في كثير من غرائزه وشهواته ، ويستعين الأخصائي الاجتماعي في ذلك بممارسة العبادات المختلفة مثل : الصوم والزكاة والصلاة .

وعندما تقوى الإرادة تنضج الشخصية وتنمو ، ونمو الشخصية ونضجها هو هدف العلاج الإسلامي ، حيث الشخصية الناضجة قادرة على مقاومة الانحراف والابتعاد عن السلوك المنحرف ، وتصبح شخصية متوافقة تلتزم بآداب التربية الإسلامية .

وهناك أسلوب آخر لتقوية الإرادة وتربيتها ، وهو التأمل والتفكر في الموضوعات المختلفة ؛ لأنها وسيلة لجلاء الحقائق وإدراك ما يترتب عليها من خير وشر ؛ لأن الحقيقة كلما كانت واضحة يقينية كانت أكثر جاذبية للإرادة ، ودافعة إلى العمل بموجبها .

وبهذا الأسلوب الإسلامي في تنمية الإرادة يستطيع الأخصائي الاجتماعي مساعدة العملاء وتنمية نفوسهم بما يساعد على تقويم انحرافهم وتعديل سلوكهم ، وعلاج مشكلاتهم ويصبحون قادرين على أداء أدوارهم الاجتماعية في المجتمع كأفراد أسوياء

بعد أن عرفوا مكانهم على الطريق المستقيم الذي وجهتهم إليه التربية الإسلامية .

وهناك أسلوب آخر لتقوية الإرادة وتربيتها وهو التأمل والتفكير في الموضوعات المختلفة ؛ لأنها وسيلة لجلاء الحقائق وإدراك ما يترتب عليها من خير وشر ؛ لأن الحقيقة كلما كانت واضحة يقينية كانت أكبر جاذبية للإرادة ، ودافعة إلى العمل بموجبها .

وبهذا الأسلوب الإسلامي في تنمية الإرادة يستطيع الأخصائي الاجتماعي مساعدة العملاء وتنمية شخصياتهم ، وتنمية نفوسهم بما يساعد على تقويم انحرافهم ، وتعديل سلوكهم ، وعلاج مشكلاتهم ويصبحون قادرين على أداء أدوارهم الاجتماعية في المجتمع كأفراد أسوياء بعد أن عرفوا مكانهم على الطريق المستقيم الذي وجهتهم إليه التربية الإسلامية .

٢ – تنمية الضمير :

الضمير هو صوت ينبعث من أعماق الصدور ، آمرًا بالخير أو ناهيًا عن الشر ، وإن لم ترج مثوبة ، أو تخش عقوبة .

وخلاصة ما يمكن استخلاصه من تعريفات للضمير هو الرأي المختار الذي يأخذ من كل من الآراء المتقدمة بطرف ويطرح منها ما كان مثارًا للنقد والاعتراض ، وذلك هو القول بأن الضمير قوة فطرية في كل إنسان وإن كان للتنمية العقلية والأدبية دخلًا في نموها وتحقيق كمالها ، ولعل هذا ما أراده الإمام الغزالي عندما سماه أولًا (نورًا إلهيًا) مما يمكن تفسيره بأنه قوة فطرية وثانيًا (معرفةً) مما يبيح لنا القول بزنه قابل كذلك للتأثير في نموه وكمال حقيقته بعوامل التربية [١] .

إن التربية القرآنية اهتمت بقيمة الضمير وتهذيب الشعور الأخلاقي ، ومن أمثلة هذه التربية قوله في التنفير عن الغيبة : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتًا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ ﴾ [الحجرات : ١٢] ، وبذلك صور هذه الجريمة في أبشع صورة تتقزز منها النفوس ، وفي النهي عن الكبر والعجب والخيلاء : ﴿ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴾ [الإسراء : ٣٧] .

ومن التحذير في التسرع على الآخرين قوله تعالى : ﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات : ٦] .

---

(١) العقيدة والأخلاق ، مصدر سابق ، (ص٢٢٥) .

فانظروا كيف حذرنا مقدمًا من عمل ما قد يترتب عليه تأنيب الضمير ووخزه ، ثم انظر كيف نفرنا القرآن من جريمة الزنى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] ، وفي الحث على غض البصر وطهارة الذيل : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ [النور : ٣٠] ، هذه قطرات من بحر ، ففي القرآن الكريم أكثر من ألف موضوع يدعو فيها إلى الفضيلة لما فيها من طهر وسمو ، وينهى فيها عن الرذيلة لما فيها من فحش وسقوط ، بغض النظر عن كل اعتبار آخر غير الاعتبار الأخلاقي ، هذا هو تقدير الأعمال بقيمتها الذاتية وذلك كله إيقاظًا لضمائرنا وإنارة السبيل أمام أحكامنا الأدبية .

في كل هذه الأمثلة رأينا القرآن يزود محكمة الضمير بالمصابيح التي تبرز أمامها كل عمل من أعمالنا ، وتصور ما في طبيعته من حسن وجمال ، أو تشويه ودمامة ، أو خير وشر ، ثم رأيناه يعرض علينا عمل هذه المحكمة في تحضير قضاياها ، وفي أصول أحكامها .

والأخصائي الاجتماعي الذي يستخدم العلاج الإسلامي في علاج المشكلات الاجتماعية يعرف جيدًا أن القانون الأخلاقي قد طبع في النفس الإنسانية منذ نشأتها ؛ ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : ٧ ، ٨] . غير أن هذا القانون الأخلاقي المطبوع فينا ناقص وغير كافٍ ؛ وذلك لأن هناك مؤثرات كثيرة قد تكون بيئية أو وراثية ، أو مصالح مباشرة أوعادة من العادات المؤثرة ، وكلها تلقي أنواعًا من الظلال على نور البصيرة الفطري ، كما أن الضمير في بعض الأحيان ، قد يتأثر بدرجة كبيرة بتلك المؤثرات المختلفة ، وعندئذٍ يقوم الأخصائي الاجتماعي بمحاولة إيقاظ تلك الضمائر ، وإزالة الغشاوة عن النور الفطري الذي أودعه اللَّه في الناس جميعًا ، وبذلك يظهر النور الفطري وينتشر ، ويملأ جوانب النفس .

هكذا يستطيع الأخصائي الاجتماعي تقويم علاج مشكلات عملائه ، وتعديل سلوكه بعد أن أيقظ الضمير النائم ، وأنار البصيرة المظلمة وأصبح للإرادة قوة وفعالية تحفزها للعمل . والأخصائي الاجتماعي يستعين في ذلك بشتى أساليب التربية الإسلامية لتحقيق هذا الهدف ، وليس معنى ذلك أن الأخصائي يسعى إلى الأخلاق المثالية ويطلب الوصول إلى الكمال حيث إن الكمال للَّه وحده ، ولكنه يسعى إلى الأخلاق الحقيقية التي تضع الضمير الإنساني في وضع متوسط بين المثالي والواقعي ، وتجعله يدمج بينهما النفس ، قوى الإرادة ، متزن الضمير .

والأخصائي الاجتماعي الذي يطبق العلاج الإسلامي عن طريق التنمية فإنه يسترشد بالتربية القرآنية في تنمية الضمير ، وتدريب الإرادة وتقويتها ، وذلك عن طريق العبادات المختلفة ؛ مثل : تنمية الإرادة بالصوم والصلاة والزكاة ... إلخ من بقية العبادات .

فمثلاً تنمية الإرادة بالصوم الذي يمكن التعبير عنه بهذه الكلمات : ذق بنفسك ألم الجوع والعطش بامتناعك عن الشراب والطعام خلال ساعات محدودة ، إنه أولًا ، وقبل كل شيء نوع من التدريب المفروض على الإرادة الإنسانية ، حتى تحصل منها على قدر من الانتظام والثبات في خضوعها للإرادة الإلهية . ولما كانت إرادتنا سيدة نفسها ، من حيث سيطرتها على البدن ، ولكنها نائبة الرئيس إن صح هذا التعبير – أمام الخالق – فإن مهمتها أن توفق بين هذين الأمرين ، باتباع أحدهما للآخر ﷺ وخيرها يكمن في التزامها بدور الوسيط الذي يعرف قدر نفسه ، وشرها في أن تقلب النظام الأصلي ، فتتردى إلى أسفل ، وتكون مسترقة للشهوات .

وهكذا تلتقي نائبة الرئيس (أي الإرادة) بمناسبة عمل أحد أمرين متعارضين في كل يوم مرتين ؛ أحدهما بأن تكف ، والآخر بأن تعمل فإذا ما حرصت إرادتنا على القيام بتنفيذ هذين الأمرين في مجالها الخاص ، ومن أن تعيد نفس التدريب خلال الشهر فيا له من ترويض لتلك الإرادة !!)[1] .

أما إيقاظ الضمير وتنميته فيستطيع الأخصائي الاجتماعي تحقيقه بتعليم الصلاة وتعويدهم عليها ، ووجوده معهم باستمرار أثناءها – وخاصة بالمسجد – ثم يقوم بتوضيح أهدافها وفوائدها ، حتى يتوجه إلى اللَّه بفكر خالص .

وعندما يتعلم العميل الصلاة ويخلص في أدائها ، سيستيقظ ضميره ، وتقوى إرادته، وينجح الأخصائي الاجتماعي في تقويم انحرافه وتعديل سلوكه وعلاج مشكلاته .

٣ – رياضة النفس ومجاهدتها :

رياضة النفس ومجاهدتها هي محاولة السيطرة عليها والتحكم فيها « بفطمها عن العادات المألوفة ، والشهوات المرذولة ، واللذات المحرمة ، وتدريبها على مخالفة ما تهواه في كل وقت وحين ، فإذا انهمكت النفس في الشهوات ، وحب أحكام لجامها بالتقوى ، والخوف من اللَّه ، وإذا توقفت عن القيام بالطاعات ؛ ساق الإنسان نفسه بسياج الخوف ،

---

(١) الدستور الأخلاقي ، مصدر سابق ، (ص٦٣٨) .

فخالف هواها ومنع عنها حظوظها » [١] .

ورياضة النفس ومجاهدتها تتم بالمراقبة والمحاسبة ؛ لأن الإنسان عندما يعلم أن اللَّه يراقبه ويطلع على سره وجهره ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد عندئذ يحاسب نفسه ويضبط جنوحها ويلتزم طريق الحق ؛ فيعتدل السلوك ويقدم الانحراف .

والنفس إذا تركت دونما تهذيب وتربية وتأديب ، انحرفت عن الاستقامة ، وسارت في طريق الغواية ، واندفعت إلى النقائص ، وابتعدت من السواء .

هذه الحالة السيئة للنفس البشرية ، وما يترتب عليها من شحنات المشاعر السلبية التي ظهرت في صورة القلق والاضطراب ، والرعب والفزع ، والحقد والحسد والعدوان ، من الأعراض التي يعانيها العملاء ، وتجعلهم في مسيس الحاجة إلى العون والعلاج ، وعندئذ يقوم الأخصائي الاجتماعي بتطبيق مراحل الرياضة النفسية كما يلي :

أ – تفريغ الطاقة النفسية :

من وسائل الإسلام في تربية الإنسان وفي علاجه كذلك ، تفريغ الشحنات المتجمعة في نفسه وجسمه أولًا بأول ، وعدم اختزانها إلا ريثما تتجمع للانطلاق ، وبذلك يقي النفس من كثير من أنواع الانحراف المعروفة في علم النفس .

وهذه العملية هي التي يسميها علم النفس بالإفراغ الوجداني أو التنفيس الوجداني لتلك المشاعر والأحاسيس – التي تمثل ضغوطًا داخلية على نفس الإنسان وتجعله يعاني من التوتر والقلق ، ذلك التوتر الذي يدفعه إلى الانحراف أو ارتكاب السلوك المنحرف ، أو الوقوع في المشكلات من أساليب تفريغ الطاقة ولكن بطريقة سلبية .

ولذلك يحرص الإسلام على إفراغ النفس من سلبياتها وتحليتها بأضدادها وبذلك يملأ فراغ النفس بما يدعمها ويطهرها وينقيها ؛ فيستبدل الخوف أمنًا، والكراهية حبًا ، وتتبدل النفس الأمارة بنفس لوامة ، تتقبل كل تعديل ، وتسعى لكل تغيير يعود عليها بالنجاح الفلاح ، وعندئذ تبدأ النفس في الرياضة والمجاهدة .

والعلاج الإسلامي يفرغ هذه الطاقة ، ويطلق شحنتها بطريقة إيجابية يحقق فيها الإنسان كيانه ، ويحس بذاته .

والأخصائي الاجتماعي يحاول اتباع نفس الأسلوب مع الأحداث المنحرفين ؛ فهم غالبًا ما يعانون من مشاعر الكراهية لأنفسهم وللمجتمع ، فتدفع بهم تلك المشاعر إلى

(١) عبد القادر الجيلاني ، (الغنية) ، (ص١٨٣) .

الانتقام من المجتمع بارتكاب أساليب السلوك المنحرف التي يسعى الأخصائي الاجتماعي إلى علاجها ؛ ولذلك يعمل على تفريغ تلك الطاقة ، وتخلية النفس من مشاعر الكراهية ، بتوجيهها للشيطان تارة ، ولأعداء الإسلام تارة أخرى ، ولكل سلوك منحرف أو صفات مذمومة أو أخلاق سيئة وبذلك يتحررون من ضغوطها ويستريحون من توتراتها ويستبدلونها بألوان أخرى من المشاعر الإيجابية التي تدعم كيانها وتبني نفوسهم فلا تنحرف ولا يصيبها الاضطراب .

وعلى هذا النحو ذاته يفرغ الإسلام الطاقة الحيوية في الجهاد والزرع والإنتاج والتعمير تفريغًا بنائيًا إنشائيًا ، يهدم الباطل ويزيل ما يخلفه من أنقاض ، ويبني في مكانه الحق والعدل ويعالج بذلك بناء النفس فلا تنحرف ولا يصيبها اضطراب [١] .

والأخصائي الاجتماعي الذي يستخدم العلاج الإسلامي لعلاج عملاء الخدمة الاجتماعية فإنه يسير على نفس النهج ويهتدي بتربية الإسلام ، ويعمل على إفراغ الطاقة والتنفيس عن المشاعر السلبية منها والإيجابية ، حتى لا تسبب ضغوطًا نفسية ، توترات واضطرابات تدفع العميل إلى إفراغها في ألوان السلوك المنحرف الذي يهيأ له .

ب – شحن الفراغ النفسي :

كما يُفرغ الإسلام طاقة الجسم والنفس كلما تجمعت ، ولا يختزنها دون ضرورة ، فإنه في الوقت ذاته يكره الفراغ ، فالفراغ مفسد للنفس ، إفساد الطاقة المختزنة بلا ضرورة ، وأول مفاسد الفراغ هو تبديد الطاقة الحيوية ، لملء الفراغ ، ثم التعود على العادات الضارة التي يقوم بها الإنسان لملء الفراغ [٢] والإسلام حريص على تحلية النفس بالأوصاف المحمودة كالمحبة ، والشفقة ، والرحمة ، والتسامح ، والإيثار ، والإخلاص ، والصدق في مجاهدة النفس .

وكما اهتم العلاج الإسلامي بملء الفراغ الذاتي للإنسان فقد اهتم أيضاً بملء الفراغ البيئي ؛ لأن كلًّا منهما يتمم ويكمل الآخر ، ولذلك أوضح لنا بعض أساليب ملء الفراغ عن طريق العبادة ، وذكر اللَّه في القلب ، وغفوة الظهرية في الهاجرة ، السمر البريء مع الأهل والأصحاب ، وزيارة الأقارب ، والمعارف ، والأصدقاء ، والدعابة اللطيفة النظيفة ... إلى آخر أنواع الترويح .

ولكن المهم ألا يوجد في حياة الإنسان فراغ لا يشغله شيء ، أو فراغ يشغله الشر والفساد والتفاهة ، وحين ألغى الإسلام عادات الجاهلين ، وأعيادها ، ومواسمها ، وطرائق

---

(١) محمد قطب ، مصدر سابق ، (ص٢٥٣) .

(٢) محمد قطب ، مصدر سابق ، (ص٢٥٢) .

حياتها لم يترك ذلك فراغاً يتحير المسلمون في ملئه أو يملؤونه دون شعور منهم فيما لا يفيد ، بل جعل لهم في الحال عادات أخرى وأعياد ومواسم وطرائق حياة تملأ الفراغ .

وتلك من أنجح الوسائل في تنمية النفس وعلاجها ، وخاصة حين تمنع النفس – لتقويمها – من شيء من رغائبها فالوسيلة الصحيحة لملء فراغ هذه الرغبة هي إيجاد نشاط جديد لهذه الرغبة ذاتها ، أو لرغبة سواها فالنفس من الداخل كلها وثيقة الاتصال [١] .

وتحلية النفس بالتوقي ومخافة اللَّه ومحاسبتها وضبط جنوحها وإلزامها بطريق الحق وحفظها عن الآفات والنقائص ، بعد تخليتها من عيوبها ليست بالعملية السهلة على الأخصائي الاجتماعي الذي يطبق العلاج الإسلامي في تقويم انحراف عملائه ؛ لأنها عملية متصلة بعيوبهم وذنوبهم وسلوكهم الانحرافي والتي غالبًا ما تكون مخجلة ومؤلمة ، وكثيرًا ما قابلها المجتمع بالعقاب أو التأنيب والتوبيخ ، ولذلك يظهر العميل كثيرًا من ألوان المقاومة لعملية التخلية والتحلية ، وعندئذ يبذل الأخصائي الاجتماعي مزيدًا من الجهد إلى أن ينجح في تكوين علاقة المحبة والمودة والاحترام المتبادل ، التي تكسبه ثقة العميل كاملة ، فينجح الأخصائي في تحطيم كل ألوان المقاومة ويبدأ في عملية التغيير ، فيشعر بالزمن والطمأنينة بدلًا من الخوف والقلق وهنا ينتهز الأخصائي الاجتماعي الفرصة ليشحن فراغ النفس بعد تحليتها بمفاهيم إيجابية جديدة ، ومبادئ سامية قوية ، وعندئذ تتغير حال النفس وتتطبع بالمثل العليا والأخلاق الفاضلة ، وتسلك طريقًا أكثر أمنًا وأعظم أملًا وأكثر سعادة .

جـ – التوبة :

التوبة هي الأسلوب الثالث من أساليب الرياضة النفسية بعد عملية إفراغ الطاقة وعملية ملء الفراغ ، حيث يصبح الإنسان في حالة نفسية جيدة تجعله قابلًا للتعديل والتغيير ، ومن هنا يبدأ العلاج الإسلامي عن طريق التوبة .

فهي أسلوب علاجي مضمون يغفر به اللَّه ذنوب من أساء ، وهي أسلوب وقائي مضمون يمنع الإنسان من العودة إلى الذنوب ، وهي رصيد مفتوح لمن يخطئ فيستغفر اللَّه ، فيغفر له ؛ لأن اللَّه يغفر الذنوب جميعًا ؛ لأن اللَّه تعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين ، وقد ورد في الحديث الشريف : « **التائب حبيب الرحمن ، التائب من الذنب كمن لا ذنب له** » والنبي ﷺ كان يستغفر في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة .

---

(١) محمد قطب ، مصدر سابق ، (ص٢٠٣) .

وجاء في معنى الحديث الشريف : « **من لزم الاستغفار جعل اللَّه له من كل همٍّ فرجًا ، ومن كل ضيق مخرجًا ، ورزقه من حيث لا يحتسب** » (١) .

ومن ذلك نرى أن التوبة هي الباب المفتوح للعاصين ، كما أنها الدرع الواقي للمؤمنين الصالحين ، وقد ورد ما معناه لو لم تذنبوا ، وتستغفروا لذهب اللَّه بكم ، ولأتى بغيركم يذنبون ويستغفرون فيغفر اللَّه لهم .

د – الرياضة النفسية بالأضداد :

الرياضة النفسية هي مجاهدة للنفس المريضة بأضدادها وذلك برياضة النفس الشحيحة على الإنفاق ، وإكراه النفس الشهوانية على التعفف ، ودفع النفس الأنانية إلى البذل والتضحية ، وحث النفس المختالة المزهوة على التواضع واستنهاض النفس الكسولة إلى العمل ، وبمعالجة الضدد بالضدد تصل النفس إلى الوسط العدل ، وهو صراط الحكمة وهو حظ الناصحين من البشر .

ولا تتم المجاهدة إلا بالمراقبة ؛ والمراقبة هي : أن يعلم الإنسان أن ربه يطلع على سره وجهره ، وأنه يصل إلى تمام المراقبة إلا بعد المحاسبة ، والمحاسبة عملية ضبط لجنوح النفس والتزام طريق الحق ، وحفظها عن الآفات والنقائص ... (٢) .

والأخصائي الاجتماعي الذي يطبق العلاج الإسلامي مع العملاء ، يساعدهم على فطام أنفسهم عن كل سلوك منحرف ، وذلك عن طريق التربية الإسلامية في تعالجهم بالأضداد كما سبق ذكره ، وتعلمهم تقوى اللَّه والخوف من عقابه ، ويقوي في نفوسهم الإيمان الذي يجعلهم يوقنون بأن اللَّه مطلع على سرهم وجهرهم ، وعندئذ يعرفون طريق الحق ويصلون إلى درجة المحاسبة . وعندها يتم ضبط جنوح النفس ، ويتم علاج السلوك المنحرف عن طريق رياضة النفس ومجاهدتها .

ويصدق فيها قول الحق ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر : ٢٧ ، ٢٨] . ولكي ينجح الأخصائي الاجتماعي الذي يطبق العلاج الإسلامي في علاج الصلاة عن طريق الرياضة النفسية ، فلابد أن يعلمهم خصال أربعة (٣) :

١ – معرفة اللَّه تعالى : ومعرفة اللَّه لا تقتصر على القول والامتناع والاعتقاد فحسب ،

---

(١) سنن أبي داود ، باب الإستغفار ، (٨٥/٢) .

(٢) حسن محمد الشرقاوي ، مصدر سابق ، (ص ٢٥٢) .

(٣) حسن محمد الشرقاوي ، نفس المصدر ، (ص ٢٥٢ ، ٢٥٣) .

بل الإيمان قولًا وفعلًا أن لا إله إلا اللَّه وهذا هو ذروة التوحيد .

٢ – معرفة عدو اللَّه إبليس : وتصدق معرفة الإنسان لعدو اللَّه وعدوه إبليس بمحاربته في الظاهر والباطن ، ومخالفة كل خاطر شيطاني ، يهجم على النفس ، والتعوذ الدائم من وسوسة الشيطان وتهاويله وأباطيله ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر : ٦] .

٣ – معرفة النفس الأمارة بالسوء : لقد تعلمنا من القرآن الكريم أن النفس أمارة بالسوء في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٣] ، وكل نفس لها أماني تود تحقيقها ، وشهوات لا تشبع منها ، وأمال في الدنيا لا تنتهي والعملاء المنحرفون قد أطاعوا نفسهم الأمارة بالسوء ولم يستطيعوا مجاهدتها ؛ لأنهم مازالوا يعانون من شتى الضغوط الداخلية والخارجية وينقصهم النضج وفي حاجة إلى التربية الإسلامية ، وعندما لم يجدوها ضلوا وانحرفوا .

ولهذا فإن الأخصائي الاجتماعي الذي يطبق العلاج الإسلامي يحاول إعادة تربيتهم واستكمال تنميتهم عن طريق التربية الإسلامية التي لم يتعلموها أو يسمعوا عنها من قبل ، والتربية الإسلامية قادرة على إصلاح ما فسد ، وقادرة على تعليمهم كيف يجاهدون أنفسهم وكيف يعرفون أنها أمارة بالسوء وعندئذ يخالفونها في كل ما تهوى ويجاهدونها بالتقوى والخوف من اللَّه ، بعد أن عرفوا اللَّه حق المعرفة ، وعرفوا عدو اللَّه وعدوهم إبليس الذي زين لهم انحرافهم ، عرفوا النفس بدوافعها وشهواتها ، وعندئذ اتجهوا إلى رياضتها ومجاهدتها .

٤ – معرفة العمل للَّه تعالى : إن الدين الإسلامي دين يقوم على علاقة متينة بين الإنسان وربه خالق الأكوان ، وهو دين يطالبنا بالأعمال الصالحة التي يرضاها اللَّه ، كما يطالبنا أن نوجه كل سلوكنا وغرائزنا وحياتنا توجيهًا يحقق الآداب والتشريعات الإلهية تحقيقًا عمليًا .

ذلك أن الكائن البشري مكون من روح وجسد والإسلام أقام توازنًا بين الروح والجسد ، بين الواقع البشري الاجتماعي ، والأهداف والتشريعات الإلهية في وقت معًا .

لذلك كان لأعمال الإنسان المكانة الأولى في نجاته من عقاب اللَّه يوم الحساب [١] ، ولذلك اهتم الإسلام بالعمل ؛ لأنه مجاهدة للنفس وجهاد أكبر في سبيل اللَّه : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ ﴾ [التوبة : ١٠٥] ، كما قال ﷺ : ﴿ وَلِكُلٍّ

(١) عبد الرحمن النحلاوي ، مرجع سابق ، (ص٢١٦) .

دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ ﴾ [الأنعام: ١٣٢] ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٣٠] ، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] ، ولقد ضرب المسلمون الأوائل أروع الأمثلة للعمل والجهاد تطبيقاً لمبادئ الإسلام وتحقيقًا لأحكامه .

والأخصائي الاجتماعي الذي يطبق العلاج الإسلامي في علاج عملاء الخدمة الاجتماعية يعلمهم كيف يوجهون سلوكهم وأعمالهم وغرائزهم ، توجيهًا يحقق الآداب الإلهية تحقيقًا عمليًا ، ويؤكد لهم قيمة الأعمال الصالحة وما لها من مكانة في حق الإنسان من عقاب اللَّه ؛ حيث إن العمل الإنساني هو عمل لخير الدنيا والآخرة ، ويحثهم على أن يعمل كل منهم للآخرة كأنه يموت غدًا ، كما يعمل كل منهم لدنياه كأنه يعيش أبدًا ؛ وعندئذ يهجرون السلوك المنحرف ، ويتوبون عن الإثم والمعصية ، وتعالج مشكلاتهم ، ويقبلون على عمل الخير ، ويكون عملهم خالصًا للَّه تعالى .

ولذلك يجب أن تكون الرياضة النفسية نابعة من المعرفة ؛ معرفة اللَّه تعالى ، ومعرفة عدوه إبليس ، ومعرفة النفس الأمارة بالسوء ، ومعرفة للعمل للَّه تعالى ، وهو الجهاد الأكبر في سبيله .

وإذا استطاع الأخصائي الاجتماعي تعليم العملاء ، وخاصة الأحداث المنحرفين تلك الصفات الطيبة ؛ فسينجح في تقويم انحرافهم ، وتعديل سلوكهم ، ولكي ينجح في ذلك ؛ فلابد أن يكون القدوة الحسنة أمامهم ؛ لأن ما ينشر به الأحداث يتقمصونه من القدوة الحسنة ، أكثر تأثيرًا وثباتًا مما يسمعونه بالقول ، ولا بد من تدعيم القول بالفعل ، بذلك يعينهم على رياضة النفس ومجاهدتها .

العلاج الإسلامي بالتنمية البدنية

إن التربية الإسلامية لا تنسى تقوية البدن وتنميته حتى توجه هذه الطاقات والقدرات نحو خير الإنسان وخير المجتمع ؛ وذلك استكمال للتنمية العقلية التي أولتها اهتمامًا كبيرًا ، حتى تربي الإنسان المؤمن الناضج ، العقل السليم التفكير ، ولكن هل يصح العقل إذا اعتل الجسد ؟ بالطبع لن يحدث ذلك ؛ لأن العقل السليم في الجسم السليم .

وقد عنيت الشريعة الإسلامية بكل ما يكفل للإنسان قوة الجسم ، وقوة الروح ؛ ففرضت العبادات ، وفرضت التذكر والتدبر في ملكوت السموات والأرض ، وفرضت النظر والاعتبار بسنن اللَّه في الكائنات ، وكان في ذلك كله تصفية الروح من أخلاق الهلع

والجزع واليأس ، والجبن ، والشح ، وما إلى ذلك من الأخلاق الرديئة التي تؤدي بعزة النفس وسعادتها ، وجمال الروح وحلاوتها ، وكان فيه غرس الأخلاق الفاضلة من الصبر والمصابرة ، ورباطة الجأش والتعاون وقوة الإيمان ، والتي تدفع بالإنسان إلى عمل الخير والركون إلى جانب التقوى .

ولم تكن عناية الشريعة الإسلامية بما يحفظ على الإنسان قوة بدنه ، بأقل من عنايتها بما يحفظ عليه قوة روحه ، فقد أمرت بنظافة الجسم واعتدال المأكل والمشرب ، وطيب المسكن والهواء، وأمرت بالعلاج عند المرض ، وبالوقاية للمرض [١] .

ثم لم تخل الإرشادات الواردة في أقوال الرسول ﷺ عن لفت الأنظار إلى أنواع الرياضة البدنية ، وقد صح أن النبي ﷺ باشر بعض تلك الأنواع بنفسه .

ومن الأنواع التي لفت الرسول ﷺ إليها الأنظار ما يلي :

أولًا : الرياضة بالرمي : وبه فسر النبي ﷺ القوة المأمور بإعدادها في قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، وقال ﷺ : « **ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي** » وكرر النبي عباراته للترغيب في تعليم الرمي .

ثانيًا : الرياضة بالسباحة : وقد روي أيضًا أنه ﷺ **قال** : « **حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمي** » فالكتابة طريق العلم والمعرفة ، والسباحة طريق الصحة والعافية ، والرماية طريق القوة والنصر على الأعداء .

ثالثًا : الرياضة بالعدو (الجري) والمصارعة : كما أوصى ﷺ بالرمي والسباحة ، فقد ورد أن النبي ﷺ كما يرى أصحابه يتسابقون على الأقدام (الجري) ويقرهم عليه ، وقد صح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : سابقني رسول اللَّه ﷺ فسبقته ، ثم سابقني فسبقني ، فقال : « **هذه بتلك** » ، وروي أن النبي ﷺ صارع رجلًا معروفًا بالشدة فصرعه النبي ﷺ ، فقال : عاودني في أخرى فصرعه النبي ﷺ في الثانية ، فقال : عاودني ، فصرعه النبي ﷺ في الثالثة ، فقال الرجل : ما أقول لأهلي ؟ شاة أكلها الذئب ، وشاة نشزت ، فماذا أقول في الثالثة ؟ فقال النبي ﷺ : « **ما كنا لنجمع عليك أن نصرعك ، فنغرمك ﷺ خذ غنمك وانصرف** » .

رابعًا : رياضة المبارزة : عن أبي هريرة أنه قال : بينما الحبشة يلعبون عند النبي ﷺ بحرابهم ، دخل عمر ، فأهوى إلى الحصباء ، فحصبهم بها ، فقال رسول اللَّه ﷺ ؛

---

(١) محمود شلتوت « توجيهات الإسلام » مكتبة الخانجي بمصر ، الطبعة الأولى ، (١٩٧٧م) .

« **دعهم يا عمر** » وقد قال العلماء : (اللعب بالحراب ، فيه تدريب للشجعان على مواقع الحروب والاستعداد للعدو) .

خامسًا : الرياضة بركوب الخيل : وقد نوه القرآن بالخيل وذكر رباطها في إعداد القوة للجهاد ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

وصح أن النبي ﷺ سبق بين الخيل وأعطى السابق ، وأنه كان يسابق على ناقته العضباء وكانت لا تسبق .

وإذا كان وضع الرياضة البدنية في نظر الإسلام بهذه المكانة ، وقد نظمت في عهدنا الحاضر هذا التنظيم الذي نشاهده ، حتى سهل على الإنسان أن ينتفع بها وهو في بيته ، فجدير بالإنسان أن يحرص عليها لنفسه ولأبنائه ، وأن يقوموا بها في وقتها فينعموا بقوة الجسم ، وقوة الروح ، وبذلك يأخذون إلى السعادة طريقًا وإلى الخير سبيلاً ، فالتربية البدنية مكملة لأساليب التربية الأخرى .

وعندما يحاول الأخصائي الاجتماعي تطبيق العلاج الإسلامي على الأحداث المنحرفين ، فإنه يمارس معهم أساليب التربية الإسلامية المتعددة ، ومنها التربية البدنية .

ولذلك يهتم الأخصائي الاجتماعي بالتنمية الجسمية للعملاء ، ويساعد على الاستمتاع بالرياضة البدنية لما لها من أثر عظيم في تقوية الجسم ومناعته ، كما أن الرياضة الروحية أثر عظيم في قوة الروح وعزيمتها .

وكما يستعين الأخصائي الاجتماعي بالخبراء والمختصين في تنمية العقيدة الدينية والصحية والنفسية ، فإنه يستعين أيضًا بالخبراء والمختصين في التنمية البدنية حتى يدرب العملاء على أنواع الرياضة المختلفة ، بما يناسب أعمارهم وميولهم واستعدادهم ، وبذلك يشغل فراغهم في أنشطة نافعة ومفيدة يصممها خصيصًا لتحقيق أهدافه العلاجية ، وعن طريقها يعلم العملاء الكثير من العادات الطيبة والاتجاهات الصالحة ، ويبث فيهم القيم المختلفة .

وأخيرًا نقول : إن الخدمة الاجتماعية بأساليبها العلاجية التقليدية المستوردة من الغرب ، لم تؤت بالنتائج المطلوبة في علاج المشكلات الاجتماعية وخاصة مشكلات الطفولة ؛ ولذلك اتجهت إلى التربية الإسلامية وآمنت بأنها طريق الخلاص وسبيل النجاة لكل مشكلات المجتمع ، كما أنها تشتمل على الوقاية والعلاج لما تعانيه الإنسانية اليوم من ضياع الطفولة . وكما فشلت التربية الحديثة في تربية الأجيال ، وفشلت الخدمة

الاجتماعية بأساليبها الغربية المستوردة في علاج مشكلاتهم ، ولم تجد بدًّا من البحث عن بديل عنها .

وقد وجدت الخدمة الاجتماعية أن العلاج الإسلامي هو البديل الوحيد ، والدواء الناجح ، والبلسم الشافي لجميع أنواع المشكلات التي يعاني منها المجتمع ، والعلاج الإسلامي يقدم لنا منهجًا تربويًّا متكاملًا وأسلوبًا علاجيًّا صالحًا لعلاج كل مشكلات الخدمة الاجتماعية ، لذلك فآمنت به ، وسارت في طريقه ، واهتدت بهديه ، واقتنعت بتأثيره ، شمرت عن ساعديها ، وقامت تحاول تطبيقه ، وتلك هي المحاولة الأولى لتطبيقه في علاج الأحداث المنحرفين [١] .

ثانيًا : العلاج البيئي الإسلامي

اهتم العلاج الإسلامي أيضًا ببيئة الإنسان ، سواء كانت بيئية داخلية متمثلة في الأسرة أوبيئة خارجية متمثلة في كل الجوانب البيئية المحيطة بالإنسان وأسرته ، والتي يمكن التأثير فيها والاستعانة بها بما يساعد على نجاح أساليب العلاج الإسلامي البيئي .

العلاج الإسلامي البيئي يمكن عرضه كما يلي :

١ – البيئة الخارجية :

إن الأخصائي الاجتماعي الذي يطبق العلاج الإسلامي في المؤسسات الاجتماعية مع عملائه ، يهتدي بعلاج « المنهج القرآني الذي لم يغفل أثر البيئة ، وما تتركه في النفس من انطباعات وانفعالات ، إنها المدرسة الحقيقية التي يأخذ عنها الإنسان عاداته وتقاليده ، وأن البيئة الفاسدة تدعو إلى الفساد وتجر إلى الهلاك ، وأن الإنسان – لضعفه – يندر أن يقاوم عوامل الفتنة والإغراء ، ومن الصعب تكليفه بالاعتدال » [٢] ؛ ولذلك أراد المنهج القرآني – وهو يربي خير أمة أخرجت للناس – أن توجد البيئة المناسبة لإخراج هذه الأمة وأن ييسر لها الطريق ، ويذلل لها عقباته ، ولم يفرض عليها ما فرض من حدود إلا بعد أن أصلح لها ما حولها وسد عليها أبواب الشهوات . وهذه البيئة التي أنشأها القرآن والتي تمثلت في المجتمع الإسلامي الأول هي الهواء النقي الذي يستنشق المسلم فيه عبير الحياة فيحس بالنشوة والارتياح ، فهو حيثما سار وأينما نظر لا يجد إلا

---

(١) انظر : العلاج الإسلامي لانحراف الأحداث للمؤلف ، مرجع سابق ذكره .

(٢) عبد الفتاح عاشور ، منهج القرآن في تربية المجتمع ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، (١٩٧٩م) ، (ص٢٦٦) .

دوافع الطهر ودواعي العفة .

ولا نجاة للإنسان إلا إذا عاد لمنهج القرآن ، وخلق البيئة الصالحة التي تنبت فيها الأخلاق الكريمة [١] .

والأخصائي الاجتماعي الذي يطبق العلاج الإسلامي يعرف جيدًا أن البيئة هي السبب الرئيسي في انحراف الأحداث وهي المؤثر الرئيسي في علاجهم ، ولذلك فهو يحاول تعديل البيئة المحيطة بهؤلاء الأحداث حتى تصبح بيئة نظيفة خالية من المؤثرات التي تسبب الإنحراف سواء كانت بيئة داخلية مثل الأسرة أو بيئة خارجية مثل المجتمع والعمل والمدرسة والمؤسسة ... إلخ من المؤثرات البيئية ، وكذلك كل المشكلات التي يعاني منها العملاء لا تخلو من تلك المؤثرات .

والمؤلف يرى تصنيف ألوان العلاج البيئي الإسلامي – الذي يصلح ممارسته في علاج عملاء الخدمة الاجتماعية – كما يلي :

أولًا : البيئة الخارجية :

١ – العلاج الإسلامي عن طريق المسجد : كان المسجد أول مؤسسة أنشأها رسول اللّه ﷺ في تنظيمات المجتمع الجديد بعد الهجرة ، تعمل في بناء الحياة الإسلامية المطهرة على أسس التوجيه السماوي رابطًا عن طريقها دنيا الناس بآخرتهم ، فأصبح المسجد مركز الإشعاع الذي يزود الأفراد بالمفاهيم الصحيحة لحقائق الحياة ، فيعرفون الحلال والحرام ، والحق والواجب ، والمباح والمحظورات ، وما يستحسن وما يستهجن ، ثم أنه مركز التدريب على تحقيق معاني الإسلام فتتلاقى فيه الجماعة من الناس فتتعارف قلوبهم ، وأجسامهم ، وتتقارب مستوياتهم ؛ إذ يجد الضعيف نفسه بجانب القوي ، والحاكم بجانب المحكوم ، والفقير على قدم المساواة مع الغني فلا يلبثون أن تمتلئ نفوسهم بشعور الوحدة التي تفتت الفوارق ، حتى يستيقنوا أنهم كتلة متضامنة كل جزء منها لخدمة الكل وبذلك تتلاشى من نفوسهم أية مكانات أواختلافات أو فوارق كانت موجودة ومؤثرة خارج المسجد .

والمسلم الذي يرتبط قلبه بالمسجد يعتبره نقطة الانطلاق الأولى في طريق الحياة الأبدية ، منها يبدأ سعيه إلى الآخرة وهو مطمئن ؛ لأنه سار في الطريق الذي لا يضل سالكوه .

---

(١) عبد الفتاح عاشور ، منهج القرآن في تربية المجتمع ، مصدر سابق ، (ص٢٧١) .

لهذا كلِّه يستعين الأخصائي الاجتماعي الذي يمارس العلاج الإسلامي مع العملاء بالمسجد كوسيلة علاجية مهمة من وسائل العلاج البيئي الإسلامي ، حيث إنه من أعظم المؤثرات التنموية في نفوس العملاء ، ففيه يرون الراشدين مجتمعين على اللَّه ، فينمو في نفوسهم الشعور بالمجتمع المسلم ، والاعتزاز بالجماعة الإسلامية ، وفيه يسمعون الخطب والدروس العملية ، فيبدأون بوعي العقيدة الإسلامية ، وفهم هدفهم من الحياة ، وما أعده اللَّه لهم في الدنيا والآخرة ، وفيه يتعلمون القرآن ويرتلونه ، فيجمعون بين النمو الفكري والحضاري والنمو الروحي وهو الارتباط بخالقهم .

وفيه يتعلمون الحديث والفقه ، وكل ما يحتاجون من نظم الحياة الاجتماعية ، كما أراد اللَّه أن ينظمها للإنسان ، ومن هداية اللَّه وسنة رسوله ﷺ [١] .

وعندئذ يتعودون على المسجد ، ويستشعرون بنور الإيمان يملأ قلوبهم ، فتصفوا نفوسهم ، وتستيقظ ضمائرهم ، ويتعلمون طاعة اللَّه وتحقيق شريعته وعدالته ورحمته بين البشر . وهكذا نربي العملاء في المسجد في ظل مجتمع إسلامي رباه القرآن وهذبه الإسلام ، فيعرف طريقه المستقيم ، ويتحرر من وسوسة الشيطان الرجيم ، ويرتبط بطاعة الرحمن الرحيم ، الغفور الكريم وعندئذٍ يتعدل سلوكهم وتُعالج مشكلاتهم ويصبح كلٌّ منهم قادرًا على أداء وظائفه الاجتماعية بما يرضي اللَّه ويرضي رسوله ﷺ .

والأخصائي الاجتماعي الذي يعالج عملاء الخدمة الاجتماعية بالعلاج الإسلامي عن طريق المسجد يحرص دائمًا على مصاحبتهم في كل أوقات الصلاة إلى المسجد وخاصة يوم الجمعة وفي المناسبات الدينية المختلفة ، ويشرح لهم باستمرار ما يصعب عليهم فهمه ، ويعمل على توعيتهم التوعية الدينية السليمة التي تحببهم في المسجد وتربطهم به ، فيستقيم تفكيرهم ، ويقوي ضميرهم ، وتنشط إرادتهم فيسهل تقويم انحرافهم ، وتعديل سلوكهم ، وعلاج مشكلاتهم .

٢ – العلاج الإسلامي البيئي عن طريق المدرسة : إن الوظيفة الأساسية للمدرسة في نظر الإسلام هي تحقيق التربية الإسلامية بأسسها العقيدية والتشريعية وبأهدافها ، وعلى رأسها هدف عبادة اللَّه وتوحيده والخضوع لأوامره وشريعته أو تنمية كل مواهب النشء وقدراته على الفطرة السليمة التي فطر اللَّه الناس عليها ، أي صون هذه الفطرة من الزلل والانحراف ، حذرًا مما حذرنا من رسول اللَّه ﷺ عندما قال : « **كل مولود يولد على**

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها ، نفس المصدر ، (ص ١٢١) .

الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أويمجسانه » وأراد بذلك أن يحذر المربين من انحراف الناشئ عن فطرته [١] ، مما يساعد على المحافظة على سلامة فطرتهم وتزكيتها وحفظها من الانحراف ، وذلك عن طريق خطة علاجية تتطلبه التربية الإسلامية يتطبع بطباعها ، ويتصف بأهم صفاتها ومميزاتها ويحقق أهدافها ، ويبني على أسسها وتصوراتها الفكرية عن الكون والحياة والإنسان على أن يكون في ترتيبه وموضوعاته موافقًا للفطرة الإنسانية ، يعمل على حفظها وحمايتها من الانحراف ، وأن يكون محققًا لهدف التربية الإسلامية الأساسي ؛ وهو إخلاص الطاعة للَّه وعبادته ولجميع أهدافها الفرعية التي ترمي إلى تقويم الحياة ، وتوجيهها لتحقق هذا الهدف في جميع جوانب الثقافة والتربية ، التي وضع خطة لعلاجه لتعهدها والنهوض بها ؛ كالجانب العقلي ، والجانب الجسمي ، والجانب النفسي ، والجانب الاجتماعي ؛ على أن يراعي في تطبيق العلاج وأنشطته وأمثلته ؛ ونصوصه حاجات المجتمع الواقعية والمعاشية ومنطلقاته الإسلامية المثالية ؛ كالاعتزاز بالأمة الإسلامية والولاء لها وذلك بتحقيق الولاء للَّه ، والطاعة لرسوله الذي أرسله اللَّه ليطاع بإذن اللَّه ، ومراعاة الاختصاصات التي تحتاجها الأمة الإسلامية في كل بقعة بحسب ظروفها الطبيعية التي يسَّرها اللَّه ، على أن يكون منهجًا واقعيًّا ممكن التطبيق ، وأن يكون مرنًا في أسلوبه يمكن تكييفه مع مختلف الظروف حتى يصبح فعالًا ، يعطي نتائجه التنموية ويترك آثاره في نفوس الأجيال ، بما يمتاز به من أساليب علاجية سليمة بعيدة الأثر ، ونشاطات إسلامية عظيمة الأثر ، سهلة المنال والتطبيق ، وأن يكون جزء منه مناسبًا للمرحلة التي يوضع لها من مراحل أعمار العملاء .

الأخصائي الاجتماعي الذي يطبق العلاج الإسلامي في علاج عملائه من التلاميذ ، فإنه يعرف أن الكثير منهم مقيدون في مدارس مختلفة ؛ ولكنهم تعثروا فيها ؛ ولذلك من واجبه تجاههم هو المساعدة على الانتظام بالمدرسة ، حتى تصبح المدرسة المكان المناسب للاستفادة من الخبرة التعليمية ، وحتى تصبح بيئة محبة للتلاميذ ، وعندئذٍ يحضرون إليها ، وهم في شوق إليها ومحبة لها .

ومن الممكن أيضًا أن يخطط الأخصائي الاجتماعي لبعض الندوات والمحاضرات الدينية بالمدرسة يدعو إليها بعض المتخصصين من رجال الدين ؛ بحيث تختار موضوعاتها وتوجه لتحقيق أهداف الخطة العلاجية التي يسعى الأخصائي الاجتماعي لتحقيقها .

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها ، مصدر سابق ، (ص١٣٤) .

كما يستطيع الأخصائي الاجتماعي أن يتفق مع مدرس اللغة العربية على بعض الأنشطة والبرامج الثقافية التي تخدم أهداف العلاج الإسلامي ، مثل تنظيم زيارات للمكتبة المدرسية بمرافقة مدرس اللغة العربية أو مدرس التربية الدينية الذي يساعدهم على اختيار الكتب ، والموضوعات المناسبة للعلاج الإسلامي ، ويقوم بتفسير وتوضيح ما يصعب عليهم ، ولامانع من اختيار بعض التمثيليات الدينية ، والتدريب عليها وممارستها على أن ترسم الأدوار لكل حدث بما يناسب نوعية المشكلة ، ونوعية خطتها العلاجية ، أو يختار لهم مجموعة من القصص التي تصلح للتربية الدينية يعدها الأخصائي ، ويختارها بالاشتراك مع مدرس اللغة العربية أو مدرس التربية الدينية حيث إن القصة تعتبر من الأساليب التربوية المهمة المؤثرة في نجاح العلاج الإسلامي .

كما يستطيع الأخصائي الاجتماعي استغلال مسجد المدرسة ؛ ليعود الأحداث على ممارسة العبادات المختلفة ؛ مثل الصلاة في المسجد مع جماعة من الطلاب ، مع توضيح مميزاتها الدينية ، ويرشدهم إلى كيفية الاستفادة منها في تكوين بعض العادات والقيم الصالحة .

كما يوضح لهم الأخصائي الاجتماعي كيف يستعد العميل لدخول المسجد عن طريق الوضوء الحسن ، ويعرفهم الحكمة العظيمة من وراء الوضوء ؛ لأن الكثير منهم يظن الوضوء نظافة صحية فقط ، ويغفل عن أنها نظافة روحية أيضًا ، فغسل اليدين تنظيف لها من الأوساخ ، وتنظيف لها من الذنوب التي ارتكبتها ، وتذكير لصاحبها بعدم ارتكابها مرة ثانية .

٣ – العلاج الإسلامي البيئي عن طريق العمل : إن الأخصائي الاجتماعي الذي يمارس العلاج الإسلامي مع عملائه عندما يحاول الاستفادة من المدرسة كبيئة خارجية في تعديل السلوك ، فإنه يقابل بعض أحداث العملاء الذين لايذهبون إلى المدرسة بعد أن فشلوا فيها ، وبالتالي التحقوا ببعض الأعمال ، سواء كانت هذه الأعمال تناسبهم أو لا تناسبهم ، عندئذ يصبح دور الأخصائي الاجتماعي أولًا تعديل بيئة العمل ، بما يناسب قدرات وميول واتجاهات هؤلاء العملاء ، بحيث يتم وضع كل واحد منهم في العمل الذي يناسبه ، ثم يساعدهم على الحصول على الأجر المناسب ، ويشجعهم ويحثهم على الأمانة والإخلاص والأداء الطيب للعمل ، ويذكرهم باستمرار بقول الرسول ﷺ : « **الدين المعاملة** » ويطالبهم بتنفيذ تعاليم التربية الإسلامية التي تقول : « من أخذ الأجر حاسبه اللَّه على العمل » .

أما الفئة التي لا تجيد أي عمل وفشلت أيضًا في المدرسة ، فالأخصائي يحاول تدريبهم مهنيًّا في ورش المؤسسة أو في الورش الخارجية على الأعمال والمهن التي يميلون إليها والتي تتناسب مع قدراتهم ومهاراتهم ، ويقف بجانبهم في كل ذلك موجهًا ومشجعًا ومساعدًا ومعينًا ، إلى أن يتقن كل منهم الحرفة المناسبة ، وعندئذ يصبحون قادرون على الاعتماد على أنفسهم في الإنفاق والمعيشة ، وبذلك يجنبهم أهم عامل من عوامل الانحراف .

كما يحرص الأخصائي الاجتماعي أيضًا على أن يحصلوا على وقت كاف للراحة بالإضافة إلى الحصول على الأغذية المناسبة ، كما يساعدهم على الاستمتاع بوقت الفراغ بالطريقة المفيدة ، وبذلك يغلق أمامهم أبواب الانحراف بابًا بعد الآخر ، إلى أن يصل في النهاية إلى تقويم انحرافهم وتعديل سلوكهم وعلاج مشكلاتهم ويصبح كل منهم إنسانًا صالحًا ، يتمتع بشخصية ناضجة ، كما يريده له العلاج الإسلامي أن يكون .

والعلاج الإسلامي عندما يسعى إلى إعداد الإنسان الصالح ، لا يترك الناس حيارى يتخبطون ، كل منهم يرسم الصورة على هواه ، وإنما يحدد لهم مواصفات هذا الإنسان في دقة ووضوح ويتضح أمامهم المنهج الإسلامي الذي يصلون به إلى تحقيق تلك الغاية ، ومواصفات هذا الإنسان تتجمع في كلمة واحدة وهي التقوى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، والإنسان التقي هو الذي يعبد اللَّه ويهتدي إليه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ولكن العبادة ليست مقصورة على المناسك التعبدية المحدودة ، وإنما هي شاملة وواسعة جدًّا ، بحيث تشمل دقائق الحياة وتفصيلاتها ، وتشمل كل عمل وكل فكرة وكل شعور ؛ وهي التوجه بكل نشاط حيوي إلى اللَّه ومراعاة ما يرضي اللَّه في هذا النشاط ، وما يغضبه ، وتوقِّي غضبه ويعمل على رضاه ، وبذلك يصل العلاج الإسلامي بالإنسان إلى إنسانٍ تقي يعبد اللَّه ويهتدي بهداه ؛ ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨] ، بحيث يستمد هذا الإنسان من هذا الهدي منهج حياته ومنهج شعوره ومنهج سلوكه ، ولا يتلقى من مصدر سواه [١] .

٤ – العلاج الإسلامي البيئي باستغلال إمكانيات المؤسسة : المؤسسة هي المكان الذي تم إعداده لعلاج عملاء الخدمة الاجتماعية والتي يمارس فيه الأخصائي الاجتماعي عمله

---

(١) منهج التربية الإسلامية ، مصدر سابق ، (ص١٥) .

مستعينًا بشتى الإمكانيات والوسائل التي تساعد على تحقيق أهداف وفلسفة المؤسسة .

والمؤسسة كإحدى عناصر البيئة الخارجية يستغلها الأخصائي الاجتماعي الذي يمارس العلاج الإسلامي ، فعن طريقها يستطيع تصميم وتنفيذ الكثير من الأنشطة والبرامج المختلفة التي تحقق له أهداف الخطة العلاجية .

وهذه الأنشطة والبرامج تتكون من أنشطة ثقافية مثل المكتبة التي يحرص الأخصائي على تدعيمها بالعديد من الكتب الدينية المبسطة التي تتناسب مع أعمار وثقافة العملاء ومستوى تفكيرهم مثل قصص الأنبياء والرسل ، حيث إن القصة من أنجح الأساليب التي تستخدم في التربية الإسلامية ، حيث إنها تتعامل مع النفس البشرية في واقعيتها وخاصة وأن القصة القرآنية جاءت علاجها لواقع البشر ، وعلاج الواقع البشري لا يتم إلا بذكر جانب الضعف والخطأ في طبيعته ، ثم يوصف الجانب الواقعي المتسامي الذي يمثله الرسل المؤمنون ، الذي تنتهي به القصة بعد الصبر والمكابرة والجهاد والذي ينتهي عنده علاج النقص البشري علاجًا ينهض بالهمم ، ويدفع النفس للسمو والتأمل بما فيه من محاورات فكرية ينتصر فيها الحق ، ويصبح مرموقًا محفوفًا بالحوادث والنتائج التي تثبت صحته وعظمته في النفس وأثره في المجتمع .

وعلى نفس المنوال يستغل الأخصائي الاجتماعي بقية ألوان الأنشطة الثقافية ، سواء كانت ندوات دينية أو محاضرات قيمة التركيز فيها على التربية الإسلامية ، بضرب الأمثال أو عن طريق الموعظة التي تربي عند العملاء الأخلاق السامية والعواطف الربانية ، كما يمكن تحقيق نفس الأهداف عن طريق الحفلات والمسابقات الدينية وبرامج الإذاعة الموجودة بالمؤسسة أو التمثيليات التي تصمم بصورة خاصة تتناسب مع أهداف العلاج الإسلامي . وبذلك يجعل الأخصائي الاجتماعي من المؤسسة بيئةً صالحةً لتحقيق أهداف خطة العلاج .

أما النشاط الاجتماعي داخل المؤسسة ، فمن الممكن استغلاله أيضًا في العلاج الإسلامي عن طريق الرحلات إلي الأماكن الدينية أو الأماكن التي يرى فيها العملاء عظمة اللّه وقدرته .

كما أن النشاط الاجتماعي يشتمل أيضًا التزاور في المناسبات ، وحضور الاجتماعات الدينية ، والقيام ببعض الحفلات فيها حتى يشعر الأحداث فيها بالبهجة والسرور عن طريق البرامج المخططة خصيصًا لذلك ، وبما لا يجعل أيام بقائهم بالمؤسسة

تمر عبثًا ولهوًا ، وإنما جعلها أيام فرح وشكر وعبادة ، وقد حدد الإسلام أيام الأعياد والمناسبات الدينية ومظاهرها ، ولم يجعل من حق الناس أن يبتكروا لهم أعياد يصبغون عليها صبغة دينية ويحيون لياليها وأيامها بعبارات يلتزمون بها من تلقاء أنفسهم على أنها من وجوه القربى إلى اللَّه ، وبذلك يكون العيد في الإسلام وصفًا إلهيًّا لا يملك الإنسان فيه حق التغيير والتبديل .

والأخصائي الاجتماعي الذي يطبق العلاج الإسلامي يحاول الاستفادة من إحياء هذه المناسبات والذكريات بالصورة التي تربي في نفوس الأحداث عقيدةً وعبادةً وقدوةً واهتداءً ، وبذلك يُقوي إيمانهم ، ويُشعل جذوته فتلتهب الجوارح ، وتُبذل الأنفس ، وتصبح التربية الإسلامية ماثلة في كل شيء ، في أقوالهم إذا انطقوا ، وفي حركاتهم إذا تحركوا ، وفي سكوتهم إذا سكتوا ، وفي جميع شؤونهم الفردية والاجتماعية ، والسرية والعلنية ، والدنيوية والأخروية ، أساسها هذا النور المبين الذي جاء به محمد عن ربه فكان دستور الحياة ، وينبوع العزة والقوة والسعادة ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩] .

أما الأنشطة الرياضية ، التي تُصمم وتُنفذ ليمارسها العملاء داخل المؤسسة أو خارجها فإنه يُراعي مناسبتها لخطة العلاج الإسلامي بحيث تربي فيهم روح التعاون والمحبة وتكسبهم الكثير من المهارات والخبرات التي تصنع منهم الرجال الأقوياء والأسوياء ، وعن طريق تلك الأنشطة الرياضية يستطيع الأخصائي الاجتماعي امتصاص الطاقات الزائدة لديهم ، وإفراغ مشاعر العدوان التي تضغط عليهم بحيث تتم بطريقة إيجابية تعود عليهم بالفوائد الكثيرة ، بدلًا من إفراغها بطريقة سلبية عن طريق الانحراف والضياع .

وهكذا تصبح المؤسسة مكانًا صالحًا وبيئة مناسبة لتطبيق العلاج الإسلامي مع العملاء ، وبذلك ينجح الأخصائي الاجتماعي في تقويم انحرافهم وتعديل سلوكهم بعد أن غيرت التربية الإسلامية في كثير من طباعهم وصفاتهم ، فقد بدلت خوفهم أمنًا ، وكراهيتهم حبًّا ، وانحرافهم استقامة ، بعد أن وضعوا أقدامهم على الطريق المستقيم ، فامتلأت قلوبهم بالإيمان وطهرت العبادات نفوسهم ، وأنار القرآن صدورهم .

٥ – أساليب أخرى للعلاج الإسلامي البيئي : ومن المؤثرات البيئية الأخرى التي يتم الأخصائي الاجتماعي باستغلالها في العلاج الإسلامي هم الأصدقاء ، حيث إن لهم تأثيرًا مزدوجًا على العملاء ، فهم يتأثرون بهم في القول مرة وفي المحاكاة مرةً أخرى ، وشر بلاء ينزل بالإنسان أن يكون له صديق سوء ، يسلم له زمامه ، ويكون قدوته وإمامه .

كما أن الأخصائي الاجتماعي يدرك جيدًا أن شغل أوقات الفراغ بصورة إيجابية وبطريقة مخططة يساعد كثيرًا في علاج العملاء وفي تعديل سلوكهم وكذلك يخطط وينفذ معهم لكثير من الأنشطة المناسبة لشغل وقت الفراغ ، وكل الأنشطة السابق ذكرها تصلح لتحقيق هذا الهدف ؛ لأن الأحداث المنحرفين لو وجدوا من البداية ما يشغل فراغهم ويستغله بصورة إيجابية ، ما تعرضوا للانحراف ؛ لأن السلوك المنحرف للأحداث المنحرفين ، ما هو إلاشغل لوقت الفراغ بطريقة سلبية .

وهكذا تصبح البيئة الخارجية بكل مكوناتها المختلفة بيئة ، صالحةً ومناسبةً لممارسة العلاج الإسلامي البيئي للعملاء وينجح الأخصائي الاجتماعي عندئذٍ في تقويم انحرافهم وتعديل سلوكهم وعلاج مشكلاتهم .

وبعد ذلك يأتي دور العلاج الإسلامي للبيئة الداخلية وهي الأسرة .

ثانيًا : البيئة الداخلية (والأسرة) :

الأسرة : « التنظيم الاجتماعي الذي يقام عليه نظام الأمة كلها ، وهي المحضن الرئيسي للأجيال الناشئة ، والخلية الأولى في البناء الاجتماعي . وكذلك نرى أن كتاب اللَّه الخالد يفيض شرحًا وتفصيلًا وهدايةً في كل شأن له علاقة بالأسرة ، ويتقيمها على الوضوح الكامل حتى لا يدع مكانًا فيها للتصدع ، ولا يترك ثغرةً يمكن أن ينفذ منها أحدًا لهدم هذا الأساس .

ومثل هذا الإسهاب في بيان أمور الأسرة دليل على أهمية هذا الكيان الأسري ووضعه في المكان اللائق به ، وذلك أنه أساس البناء كله ، فإذا ما تطرق إليه الخلل والوهن هدى البناء وضاعت معالمه » [١] .

والأسرة المسلمة هي التي تحافظ على تحقيق شرع اللَّه ومواصفاته في شؤونها وعلاقاتها الزوجية ، وهذا معناه إقامة البيت المسلم الذي يبني حياته على تحقيق عبادة اللَّه ، أي على تحقيق الهدف الأسمى للتربية الإسلامية ، وبذلك ينشأ الطفل ويترعرع في بيت أقيم على تقوى اللَّه ورغبةً في إقامة حدود اللَّه ، وتحكيم شريعته ، فيتعلم ، بل يقتدي ويمتص عادات أبويه بالتقليد ، ويقتنع بعقيدة الإسلام حين يصبح واعيًا .

والأسرة المسلمة هي التي توفر لأبنائها كل احتياجاتهم وتشبعها لهم وتحقق لهم السكون النفسي والطمأنينة ، وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا

(١) منهج القرآن في تربية المجتمع ، مصدر سابق ، (ص٢٩٥) .

لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩] ، وقال ﷻ : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً ﴾ [الروم: ٢١] ؛ فإذا اجتمع الزوجان على أساس من الرحمة والاطمئنان النفسي المتبادل ، فحينئذٍ يتربى الناشئ في جو سعيد ، يهيئه الثقة والاطمئنان والعطف والمودة بعيدًا عن القلق ، وعن العقد والأمراض النفسية التي تضعف شخصيته ، وتجعله سهل الاستهواء ، وعندئذٍ يتعرض للانحراف والضياع .

كما تتحمل الأسرة إشباع الحاجة إلى الحب والحنان والرحمة والعطف على الأبناء ؛ لأن هذا كله من أسس نشأتهم ومقومات نموهم النفسي والاجتماعي نموًّا قويمًا ، وإذا لم تتحقق المحبة للأطفال بالشكل الكافي المتزن ، نشأ الطفل منحرفًا في مجتمعه ، لا يحسن التألف مع الآخرين ، ولا يستطيع التعاون معهم أو تقديم الخدمات والتضحيات .

كما اعتبر الإسلام الأسرة مسؤولة عن فطرة الطفل ، واعتبر كل انحراف يصيبها مصدره الأول الأبوان ، ومن يقوم مقامهما من المربي ، ذلك أن الطفل يولد صافي السريرة سليم الفطرة ، وفي هذا المعنى يقول الرسول ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة : « **ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه** » ، ثم يقول أبو هريرة ﷺ : ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠] .

ولذلك تهتم الخدمة الاجتماعية بالأسرة اهتمامًا كبيرًا ، وتعتبرها المؤثر الأول في انحراف الأحداث ؛ بل في كل المشكلات التي يعاني منها العملاء في علاجها لهم على الأسرة ، وتحاول تدعيمها بشتى الأساليب العلاجية والوقائية والإنمائية ، والأخصائي الاجتماعي الذي يطبق العلاج الإسلامي في عملاء الخدمة الاجتماعية فإنه يكون على صلة وثيقة بأسرهم ، ويكتسب ثقتهم ويكوِّن معهم علاقة مهنية قوية قوامها الثقة والحب والمودة ، وينظم معهم زيارات منزلية ليذكرهم بواجبهم نحو تعويد الطفل على تذكر عظمة اللَّه ونعمه ، والاستدلال على توحيده من آثار قدرته ، وتفسير مظاهر الكون من بر وبحر وليل ونهار وزلازل وأعاصير ونحو ذلك تفسيرًا يحقق هذا الغرض .

وذلك يستكمل الأخصائي الاجتماعي علاج انحرافهم وينجح في تقويم سلوكهم ، كما أنه يعد الأسرة لاستقبالهم بعد أن يتم علاجهم بالمؤسسة ، محاولًا استكمال مقومات الأسرة ويكون على صلة دائمة بهم حتى يتابع باستمرار نتيجة الخطة العلاجية وحتى يجعل من الأسرة عنصرًا مهمًّا من عناصر تدعيم الخطة العلاجية . وقد يتفق الأخصائي الاجتماعي مع والد العميل على خطة علاجية معينة ؛ مثل اصطحابه معه دائمًا إلى المسجد للصلاة في جماعة ، واصطحابه معه دائمًا في المناسبات الدينية المتعددة شارحًا

له ما يصعب عليه فهمه أو يصطحبه معه إلى محاضرة أو ندوة دينية ، وبذلك يستكمل العلاج الإسلامي للحدث بما تقوم به الأسرة من دورها في الخطة العلاجية وتتحمس إلى تربية أبنائها التربية الإسلامية التي فيها الوقاية والعلاج للسلوك المنحرف ، وفيها طريق الخلاص والهداية لهم .

الخاتمة

إن المنهج الإسلامي هو المنهج المناسب للحياة بما فيه من علاج ووقاية وإنماء بصورة كافية لعلاج كل المشكلات الاجتماعية ؛ ولذلك اتجهت إليه الخدمة الاجتماعية وتحمست لممارسة العلاج الإسلامي وتطبيقه في المؤسسات الاجتماعية لعلها تجد فيه أسلوب العمل المناسب وطريقة العلاج الأمثل بعد أن ضاقت لها السبل وعجزت أساليبها التقليدية من علاج المشكلات الاجتماعية .

والدين ليس علاجًا لتلك المشكلات فحسب ، بل هو العامل الحاسم في تطور المجتمعات ، ونهضة الحضارات على مرِّ العصور وهو جوهر التقدم الذي يوحد بين الأجيال ويحقق التكامل بين المجتمعات ، وهو الباعث الأساسي للتغير الاجتماعي .

وفي هذا المعنى يقول « توبسي » : « إن نمو الحضارة للتوقف في حالات الإخفاق ، ويعقب الإخفاق حالة تفكك اجتماعي ، والملاحظ أن خلال فترة تفكك الحضارة ، أن الثقافة لم تعد تنمو ككل ، وإنما بشكل غير منسق وقد تؤدي إلى تطورات في الفن والاقتصاد والدين . والسبيل الوحيد للخلاص في هذه المرحلة هو تغيير الشكل على أساس ديني ، على انتشار اتجاه ديني جديد لن يؤدي إلى اتعاظ الحضارة المحتضرة فحسب ، ولكنه قد يمهد السبيل لظهور أسلوب جديد ناجح من أساليب الحياة » .

وقد وقفنا من قبل رأي « دور كايم » الذي يؤكد أن الدين يمثل ضرورة اجتماعية هي إيجاد التماسك الاجتماعي والحفاظ على المجتمع .

ولذلك اهتم المؤلف بالعلاج الإسلامي ومبادئه الأساسية كأنسب وسيلة علاجية تمارس في المؤسسات الاجتماعية .

* * *

obeikandl.com

الإنسان وعلاقته بالبيئة من منظور إسلامي

أ.د. أحمد يوسف بشير

تمهيد

– شغلت البيئة كل البشر عبر جميع عصور التاريخ ، فكانت الطبيعة مصدر خوف وفزع حينًا ومهبط الوحي حينًا آخر ، ولكنها في جميع الأحوال دفعت الإنسان للتأمل في الكون خارج ذاته ، وحاول أن يترجم تأملاته إلى أنظمة عقائدية أو فكرية أعطته التوازن مرة ودفعته إلى الصراع مرات ... وسوف تظل البيئة بوجه عام مسرح الخلق الإنساني وملتقى ما يسطره التاريخ من صفحات تعكس نضال الإنسان معها من أجل استخدام أفضل لها ، ويتبارى البشر في اكتشاف أسرارها وبناء التكنولوجيا من موادها ، وهنا يتدرج الإنسان من أعلى سلم التقدم إلى أسفله من خلال مجتمعات يحكم مكانها في هذا السلم مبلغ ما استطاعت أن تطوع جانبًا أو آخر من الطبيعة لخدمة مصالحها [١] (ص١) حيث إن الإنسان – منذ بدء الخليقة – وهو يسطر قصة كفاحه المستمر مع الطبيعة سعيًا لفهمها ، والتعرف على أسرارها ، واستهدافًا للسيطرة عليها وتسخيرها لخدمته ورفاهيته ، وما التاريخ البشري إلَّا سجل حافل بمنجزات الإنسان في هذا المضمار كما أن مراحله المختلفة ـ بدءًا بالعصر الحجري القديم وانتهاء بعصر الفضاء ـ ليست إلَّا قفزات واسعة استطاع الإنسان قطعها على طريق التوافق مع البيئة من حوله ، أو التعرف على أسرارها ، أو السيطرة عليها ... (ص ٥ – ١١) .

فالبيئة تمثل بالنسبة للإنسان ذلك الإطار الذي يستمد منه مقومات حياته ، وعوامل قوته وأسباب نموه الفكري والمادي والأخلاقي والاجتماعي والروحي والإنساني بما وهبه اللَّه من خصائص بيولوجية تميزه عن باقي المخلوقات ، يعيش باستمرار في مستوى طاقة احتمال بيئته ، بينما باقي المخلوقات تعيش دون مستوى طاقة احتمال بيئاتها . ولقد أدى التقدم الهائل الذي أحرزه الإنسان في مجالات العلم والتكنولوجيا إلى إحداث إخلال ، بل تدهور في مكونات البيئة بحيث أصبح خطر العيش فوق طاقة احتمال البيئة متوقعًا ، بل لعله واقعًا في بعض المجالات وفي بعض الأقطار ؛ إذ بدأنا نعيش ونسمع عن « مشكلة

(١) السيد عبد العاطي السيد : « الإيكولوجيا الاجتماعية » دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، (١٩٨٥م) .

الغداء » ، و « مشكلة السكان » ، و « مشكلة التلوث » ، وهي مشكلات ناجمة في المقام الأول عن النشاطات البشرية في البيئة [١] (ص ٥٠) ، ومن هنا تنبه الإنسان أخيرًا إلى ما أدى إليه تعامله غير الرشيد وغير العقلاني مع النظم البيئية التي يعيش فيها ويتعامل معها ، وأصبحت قضايا البيئة ومشكلاتها هي الشغل الشاغل للدول المتقدمة والدول النامية على حد سواء ، وتحقق المسؤولون من أن تلك المشاكل قد أصبحت تهدد حياة الإنسان على هذا الكوكب ، ومن أنه إذا لم يتكاتف بنو البشر – لا فرق في ذلك بين مجتمعات متقدمة أو متخلفة – لإيجاد الحلول المناسبة وتلمس سبل الوقاية من هذه المشكلات فإنها سوف تتحول إلى كوارث محققة تهدد حياة الإنسان وغيره من الكائنات الحية على كوكب الأرض .

ويلخص البعض هذه القضية بقوله : إن الإنسان بدأ حياته على الأرض وهو يحاول أن يحمي نفسه من غوائل الطبيعة ، وانتهى به الأمر بعد آلاف السنين وهو يحاول أن يحمي الطبيعة من نفسه [٢] (ص ١٩) .

وينطلق البحث الراهن – استنادًا إلى ما سبق من اعتقاد مؤداه .

أن الإنسان يعتبر المسؤول الأول والأساسي ، عما تتعرض له البيئة من اختلال وتدهور نتيجة لتدخله غير العقلاني في النظم البيئية ، كما أنه وفي ذات الوقت المتضرر الأول مما يحدث في البيئة من مشكلات ، أي أن الإنسان هو المتسبب في مشكلات البيئة وهو أول الكائنات تأثرًا بها ، ومن هنا تبرز مسؤولية الإنسان تجاه البيئة ، وأهمية إيجاد علاقات متوازنة بين الإنسان والبيئة ، أساسها المصلحة المتبادلة التي تتيح للإنسان استمرار العيش المريح وللبيئة استمرار التوازن وتدفق العطاء ، وهو ما يعرف بالتعايش الإيجابي مع البيئة .

ومن هنا كان هذا البحث الذي يستهدف التعرف على طبيعة العلاقة بين الإنسان والبيئة في التصور الإسلامي ، وما إذا كان الإسلام قد رسم حدودًا وأطرًا معينة ينبغي أن تنتظم فيها علاقة الإنسان بالبيئة التي يعيش فيها تحقيقًا لرسالة الإنسان في التصور الإسلامي ، وتأكيدًا لأهمية البيئة ، باعتبارها مسرح تحقيق هذه الرسالة .

---

(١) رشيد الحمد – محمد سعيد صباريني : « البيئة ومشكلاتها » ، سلسلة عالم المعرفة العدد (٢٢) ، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، أكتوبر (١٩٨٩م) .

(٢) أحمد مدحت إسلام : « التلوث مشكلة العصر» ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد (١٥٢) يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت ، أغسطس (١٩٩٠م) .

هذا ويستند البحث الراهن إلى عدة اعتبارات ينبغي التأكيد عليها ، والتي تشكل مبررات وبواعث اختيار هذا الموضوع على النحو التالي :

أ – ما تشهده الآونة الحالية من اهتمام كبير من جانب العلماء والمخططين والسياسيين ورجال الاقتصاد وعلماء الاجتماع والنفس والتربية والخدمة الاجتماعية والبيولوجيين والفيزيائيين وغيرهم بالبيئة ومشكلاتها ، والتغيرات التي تطرأ عليها ، وأساليب التعامل معها ، والأضرار التي تلحق بها نتيجة مبالغة الإنسان والمجتمع ، أو محاولة الكشف عما لحق بالبيئة من أضرار وأذى قد يصعب علاجها أو تلافيها نتيجة لسوء الاستغلال وسوء الفهم .

ب – أن المشكلة البيئية ، مهما تعددت مجالاتها ومهما كانت درجة خطورتها فهي مشكلة سلوكية في المقام الأول ، ومن ثم إذا ما أردنا مواجهة مشكلات البيئة ، فإن الأمر يستلزم بداءة تعديل سلوكي للإنسان المتعامل مع البيئة والمتفاعل معها ، بحيث يتبنى قيمًا بيئية إيجابية وسلوكيات تستهدف حماية البيئة والمحافظة عليها .

جـ – واستنادًا إلى النقطة السابقة تأتي أهمية دور الخدمة الاجتماعية باعتبارها مهنة إنسانية تتعامل مع الإنسان وسلوكه في تعامله مع البيئة .

د – أن جهل الإنسان بنواميس الكون التي سنَّها اللَّه من ناحية ، وجهله برسالته في الحياة التي من أجل تحقيقها خلقه ، ومكَّنه في الأرض من ناحية أخرى ، وسعيه المستمر – في ضوء هذا الجهل – وراء المتعة الدنيوية التي تتميز بالأنانية من ناحية ثالثة ، كل ذلك أدى إلى ما أصبح العلماء يحذرون منه من مشكلات وأخطار بيئية ، ومن هنا كان التأكيد على إبراز وتوضيح هذه الأمور من الأهمية بمكان فيما يتعلق بالجهود المبذولة لحماية البيئة والمحافظة عليها .

هـ – أنه إذا كانت التربية البيئية تحتل أهمية كبرى ضمن وسائل وأساليب مواجهة المشكلات البيئية والوقاية منها ، فإن الباحث يعتقد أن القيم الدينية والتأكيد عليها يلعب دورًا مهمًّا في نجاح التربية البيئية وتحقيق أهدافها ، في ضوء هذه الاعتبارات عند الباحث إلى تناول علاقة الإنسان بالبيئة من منظور إسلامي كموضوع لهذا البحث ، ولذا سوف نعالجه من خلال العناصر التالية :

* المفاهيم الأساسية .
* الخدمة الاجتماعية والاهتمام بالتربية البيئية .
* مهمة الإنسان في البيئة كما حددها الإسلام .

* مكانة الإنسان المتميزة في البيئة .
* مكونات المنهج الإسلامي في رعاية البيئة .

أولًا : تحديد المفاهيم الأساسية

١ - مفهوم البيئة :

– البيئة لفظة شائعة الاستخدام ، يرتبط مدلولها بنمط العلاقة بينها وبين مستخدمها ، ومن هنا تعددت تعريفات البيئة بتعدد هذه العلاقات ، فرحم الأم بيئة الإنسان الأولى ، والمدرسة بيئة ، والحي بيئة ، والقُطر بيئة ، والكرة الأرضية بيئة ، والكون كله بيئة .. وهكذا ، كما يمكن النظر إلى البيئة من خلال النشاطات البشرية المختلفة ، فنقول البيئة الزراعية ، والبيئة الصناعية ، والبيئة الثقافية ..... إلخ (١٢/٢) .

– وبصفة عامة يعرف البعض البيئة بأنها : « مجموع الظروف والعوامل الخارجية التي تعيش فيها الكائنات الحية ، وتؤثر في العمليات الحيوية التي تقوم بها » [١] .

(ص١) ومن الملاحظ أن هذا التعريف يركز على البيئة الطبيعية ، بينما أهمل العوامل الاجتماعية والعلاقة المتبادلة بين الكائن الحي وبيئته .

– ويتسع تعريف آخر ليشمل هذه الجوانب حيث ينظر للبيئة على أنها : « الإطار الذي يعيش فيه الإنسان ، ويحصل منه على مقومات حياته من غذاء وكساء ومأوى ، ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بني البشر » [٢] (ص ٣٧٢) .

– ويوضح هذا التعريف أن البيئة ليست مجرد موارد يتجه إليها الإنسان ليستمد منها مقومات حياته ، وربما يؤكد التعريف على أن البيئة تشمل علاقة الإنسان بالاتصال والتي تنظمها المؤسسات الاجتماعية والعادات والتقاليد والأخلاق والقيم والأديان ، فالبيئة وفقًا لهذا التعريف كل متكامل يشمل إطارها الكرة الأرضية ، وما يؤثر فيها من المكونات الأخرى للكون ، ومحتويات هذا الإطار ليست جامدة بل إنها دائمة التفاعل مؤثرة ومتأثرة ، والإنسان واحد من مكونات البيئة ، يتفاعل مع مكوناتها بما فيها من يمثل بني جنسه .

---

(١) علي كامل فرج : (البيئة والنظام البيئي » دليل الشاب في رعاية البيئة ، المجلس الأعلى للشباب والرياضة ، القاهرة ، (١٩٨٧م) .

(٢) محمود سامي عبد السلام : « مشاكل تلوث الهواء في بعض البلدان العربية » في الإنسان ... البيئة ... التنمية « مؤتمر الخرطوم ، فبراير (١٩٧٠م) ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، جامعة الدول العربية ، (١٩٧٥م) .

– ولقد حدد مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة البشرية والذي انعقد في (أكتوبر سنة ١٩٧٢م) بمدينة استكهولم ، مفهومًا شاملًا للبيئة ، بحيث أصبحت تدل على أكثر من مجرد عناصر طبيعية (ماء وهواء وتربة ومعادن ومصادر للطاقة ونباتات وحيوانات) بل هي رصيد الموارد المادية والاجتماعية المتاحة في وقت ما ، وفي مكان ما لإشباع حاجات الإنسان وتطلعاته (٢٥/٢) .

ويتبنى هذا البحث تعريفًا شاملًا للبيئة يتسق وأغراض البحث وموضوعه ؛ إذ ينظر إلى البيئة على أنها : ذلك الوسط الذي يعيش فيه الإنسان بما يتضمنه من إمكانات وموارد طبيعية واجتماعية يتفاعل معها الإنسان مؤثرًا ومتأثرًا ، بغرض إشباع احتياجاته واستمرار حياته ، والبيئة بهذا المعنى هي كل ما يحيط بالإنسان في هذا الكون سوى الإنسان نفسه .

٢ - مفهوم تلوث البيئة :

– **المعنى اللغوي** : جاء في المعاجم : لوَّث الأمر أي لَبسه ، ولوَّث التبن بالقت أي خلطه ، وتلوث بالطين ، وتلوث بغلان رجاء متعة ، أي لاذَ به وتلبس بصحبته ، ولوَّث الماء أي كدَّره ، ويقال : التأثت عليه الأمور أي التبست ، والتأث في عمله أي أبطأ ، والتأث بالدم أي تلطخ به ، وفلان به لوثة أي به جنون [١] (ص ٦٧) ، ونستنتج من هذا أن التلوث له معنيان في اللغة معنى مادي : وهو اختلاط أي شيء غريب عن مكونات المادة بالمادة مما يؤثر عليها ويفسدها كتلوث الماء والتلوث بالتلوث بالطين . وأما التلوث المعنوي فهو يعني ذلك التغير الذي ينتاب النفس ، فيكدرها أو يكون تغيرًا من أجل غرض ما ، التلوث بنوعيه المادي والمعنوي يعني فساد الشيء سواء كان هذا الشيء كائنًا حيًّا كالإنسان أو الحيوان ، أو جسمًا غير حيٍّ كالهواء والماء والتربة وغيرها [٢] (ص ١١) .

– **المعنى الاصطلاحي لتلوث البيئة** : هو كل تغير كمي أو كيفي في مكونات البيئة الحية وغير الحية لا تقدر الأنظمة البيئية على استيعابه دون أن يختل توازنها ، أو هو وجود أية مادة أو طاقة في غير مكانها وزمانها وكميتها المناسبة (ص ١) (ص ١٤٩ ، ١٥٠) . ووفقًا لهذا التعريف ، فإن أي تغير كمي أو كيفي في مكونات البيئة إذا كانت النظم البيئية

(١) مختار الصحاح ، ط. ٨ ، وزارة المعارف العمومية ، القاهرة (١٩١٩م) .

(٢) محمد عبد القادر الفقي : « القرآن الكريم وتلوث البيئة » ، مكتبة المنار الإسلامية ، ط. ١ ، الكويت ، (١٩٨٥م) .

تستطيع أن تستوعبه دون أن يختل توازنها لا يعتبر تلوثًا ، وعلى ذلك فالإنسان في عصر ما قبل الثورة الصناعية لم يتعرض لمشكلة التلوث ؛ لأن كل مخلفات نشاطاته كانت مما تستطيع الدورات الطبيعية للأنظمة البيئية أن تستوعبه وتجربه في سلاسل تحولاتها ، ولذلك حظيت هذه المشكلة بالدراسة والاهتمام ؛ لأن آثارها الضارة شملت الإنسان نفسه وممتلكاته ، كما أخلت بالكثير من الأنظمة البيئية السائدة ، ولخطورة التلوث فلقد طفى على كل قضايا البيئة ومشكلاتها وارتبط بكل حديث عنها حتى رسخ في أذهان كثيرة أن التلوث هو المشكلة الوحيدة للبيئة ، ومع أن الواقع يؤكد غير ذلك ؛ إذ أن هنالك العديد من المشكلات البيئية الأخرى كنقص الطاقة ومشكلة الغذاء واستنزاف المصادر الطبيعية .. إلخ .

٣ - التربية البيئية :

– تعددت الآراء في معنى التربية البيئية ومدلولها بتعدد مدلول العملية التربوية وأهدافها من جهة ، ومدلول البيئة من جهة أخرى ، ومن تعريفات التربية البيئية أنها : « عملية تعليم المجتمع كيفية حماية نفسه من الأمراض والمشاكل البيئية » .

– كما يعرفها البعض بأنها : « عملية تغيير أفكار وأحاسيس وسلوك الناس فيما يتعلق بصحتهم وبيئتهم » [١] (ص ٢٥ – ٢٧) .

– ويرى آخرون أن التربية البيئية في العملية الأساسية التي تعني بإعداد المواطنين الواعيين بالبيئة البيوفيزيقية (البيولوجية – الطبيعية) وما يرتبط بها من مشكلات ، وبحيث يتكون لديهم المعرفة والمهارة والرغبة والالتزام بالعمل على حل المشكلات الراهنة والمستقبلة [٢] (ص ١٣٠) .

– ويمكن القول من خلال إعادة النظر في هذه التعريفات أنها تقصر التربية البيئية – وفقًا للمفهوم الجزئي للبيئة – على تناول البيئة من جوانبها البيولوجية والفيزيائية ، في حين أن المفهوم الشامل للبيئة ، يتضمن بالإضافة إلى ذلك – كما سبق أن أشرنا – الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ويبرز ما يوجد بين هذه العوامل المختلفة من ترابط ، ولذلك يمكن تعريف التربية البيئية في إطار المفهوم الشامل للبيئة على أنها : « عملية تكوين القيم والاتجاهات والمهارات والمدركات اللازمة لفهم وتقدير العلاقات المعقدة التي تربط

---

(١) فيولا البلاوي : التربية البيئية ومقوماتها السلوكية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، (١٩٨١م) .

(٢) William Stapp, “ The Concept of Environmental Education ” in The Journal of Environmental EducatioñVol. 1, 1969.

الإنسان ، وضرورة حسن استغلالها لصالح الإنسان حفاظًا على حياته الكريمة ، ورفع مستويات معيشته » (٢٢٤/١) . ومن هذا التعريف يتضح أن التربية البيئية هي عملية إعداد الإنسان للتفاعل الناجح مع بيئته بما تشمله من موارد مختلفة ، وتتطلب هذه العملية العمل على تنمية جوانب معينة لدى الإنسان ، منها : توضيح المفاهيم وتعميق المبادئ اللازمة لفهم العلاقات المتبادلة بين الإنسان وثقافته من ناحية وبين الوسط البيوفيزيقي من حوله من ناحية أخرى ، كما تتطلب أيضًا تنمية المهارات التي تمكن الإنسان من المساهمة في حل ما قد تتعرض له بيئته من مشكلات وما يتهددها من أخطار ، والمساهمة في تطوير ظروف هذه البيئة ، وتستلزم التربية البيئية أيضًا تكوين الاتجاهات والقيم التي تحكم سلوك الإنسان إزاء بيئته ، وإثاره ميوله واهتماماته نحو البيئة ، واكتسابه أوجه التقدير لأهمية العمل على صيانتها والمحافظة عليها ، وفي تصور الباحث فإن ذلك لن يتأتى إلا إذا ارتكزت عملية التربية البيئية على القيم الدينية واستثارتها في نفس الإنسان بحيث تصبح هذه القيم هي الموجهة لتصرفات الإنسان وسلوكه حيال البيئة التي يعيش فيها .

ثانيًا : الخدمة الاجتماعية والتربية البيئية

سبق أن أوضحنا أن مهنة الخدمة الاجتماعية تعد من بين المهن التي تعطي اهتمامًا واسعًا للبيئة – في الوقت الحالي – وموقف الإنسان منها وتأثره بها وتأثيره فيها ، وتسعى إلى الإسهام في مواجهة ما يترتب على ذلك من مشكلات ملحة مثل التلوث ، واستنزاف المصادر الطبيعية ، واختلال قوانين التوازن الطبيعي بين الأنظمة الأيكولوجية المختلفة ، وكذلك تبصير الإنسان بحقوقه البيئية وواجباته إزائها ، وإعداد الموطن البيئي الصالح ، فلم تعد الخدمة الاجتماعية كمهنة تقصر اهتمامها على الجوانب العلاجية على مستوى الفرد أو الجماعة فقط ، وإنما تطورت المهنة ، وإخذت تبلور لنفسها (أساليب) وأدوارًا جديدة ، حيث أصبحت تركز تدخلها المهني على محاولة أحداث تغييرات مرغوبة في الأفراد أو في العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات ، أو في المجتمعات المحلية والنظم الاجتماعية [١] (ص ٩) ، ومن هنا تؤمن الخدمة الاجتماعية بأهمية البيئة في حياة الإنسان ، سواء نظرنا إلى البيئة بمفهومها الضيق في الخدمة الاجتماعية (البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها الإنسان ويتفاعل معها ، أو بمفهومها الواسع والشامل (حيث

---

(١) إبراهيم عبد الرحمن رجب وآخرون : « نماذج ونظريات تنظيم المجتمع » سلسلة قراءات في تنظيم المجتمع ، الكتاب الثاني ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة (١٩٨٣م) .

تتضمن كل ما هو خارج عن كيان الإنسان ذاته ، أي كل ما يحيط بالإنسان من موجودات حية وغير حية) . وتأتي أهمية الخدمة الاجتماعية كمهنة تتعامل مع الإنسان والبيئة من عدة جوانب :

أولها : أن الخدمة الاجتماعية كما يصفها (فدريكو) هي أكثر مهن الرعاية الاجتماعية تعاملًا مع المواطنين بنظرة شمولية متكاملة ؛ إذ أنها تتعامل مع مجال حياة الإنسان كليًا ومحاولة في نفس الوقت استخدام موارد المجتمع وإمكانياته لإشباع احتياجاته [١] (ص ٢٣٠) ويؤكد آخرون على أهمية الخدمة الاجتماعية للمجتمع حيث يصفونها بأنها الضمير الاجتماعي للأمة [٢] (ص ٣) .

ثانيها : اعتماد الخدمة الاجتماعية كمهنة على نظرية الاتساق الاجتماعية كنظرية قاعدية ، حيث إنها تحقق التكامل المعرفي للمهنة بجانب توحيد نظرتها وتحليلها للوحدات الاجتماعية التي تتفاعل معها ، كما أن هذه النظرية تحقق رغبة الخدمة الاجتماعية التي تتفاعل معها ، كما أن هذه النظرية تحقق رغبة الخدمة الاجتماعية في النظر إلى الفرد (الإنسان) متفاعلًا ومتكاملًا مع بيئته [٣] (ص ٦١ - ٦٦) ، ومن هنا تأتي أهمية النظر إلى البيئة عند التعامل مع الإنسان كفرد أو كعضو في جماعة أو كمواطن في مجتمع محلي أو قومي .

ثالثها : أن الخدمة الاجتماعية تهدف ضمن ما تهدف إليه إلى إحداث تغييرات مرغوب فيها في الإنسان ، وذلك بقصد إيجاد تكيف متبادل بين الأفراد وبيئاتهم الاجتماعية بمكوناتها الاجتماعية والطبيعية لحل المشكلات المختلفة والوقاية منها ، وهي في ذلك تنظر إلى الإنسان باعتباره المكون الأساسي للبيئة وأهم عناصرها .

رابعها : أن للخدمة الاجتماعية دورها المهم في التربية البيئية من خلال العمل في المجالات والمؤسسات المختلفة ، وتؤكد على أن التربية البيئية عملية مستمرة من المهد إلى اللحد ، وتستهدف تعريف الإنسان بحقوقه البيئية ، وتوضيح أساليب حمايتها ، والمساهمة في خلق رأي عام مستنير نحو البيئة ، واستثارة الإنسان للمشاركة في حماية

---

(١) Ronald C.Federic: The Social Welfare Institution; An Introduction (Lexington; DC.Health and Company, Third Edition 1980).

(٢) Dean H.Hepworth & J.Ann Larsen, Direct Social Work Practice: Theory and Skills, (lll: The Dorsey Press; 1982).

(٣) Beulah Roberts Comptan & Burt Galaway: Social Work Processes (lll: Dorsy Press1975).

البيئة ومواجهة مشكلاتها ، وهي في سبيل ذلك تؤمن بأهمية الجوانب التالية :

* الإسهام في إحداث تغيير حقيقي في سلوك الناس تجاه بيئتهم ، بحيث يؤدي ذلك إلى إيجاد الشخصية المنضبطة ذاتها والتي تتصرف في البيئة بروح المسؤولية .

* مساعدة الناس على إدراك المشكلات البيئية المختلفة وخطورتها وأسبابها ودورهم في إحداث هذه المشكلات ، وكيفية الوقاية منها ومواجهتها .

* مساعدة الناس على تبني مشروعات وبرامج تستهدف حماية البيئة وتحسينها .

* النظر إلى الفقر على أنه نوع من تدهور البيئة ، وبالتالي فإن حماية البيئة في المجتمعات النامية والأحياء المتخلفة يتطلب تحقيق التنمية كشرط لازم لذلك .

* أن الإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي لا تقيده بيئته ، ومن ثَمَّ فهو يستطيع أن يغير فيها ، ولا ينبغي له أن يحميها فقط ، بل عليه أيضًا أن يعمل على تحسينها .

* دراسة المشكلات البيئية دراسة شاملة متكاملة لبحث العلاقات المتبادلة بينها ، ودور الإنسان في خلقها ، وكيفية التخطيط لمواجهتها .

* أن المشكلات البيئية ليست قاصرة على مشكلات الاستخدام الضار أو غير الرشيد للموارد الطبيعية أو مشكلات التلوث ، بل تمتد لتشمل العديد من مشكلات التخلف مثل نقص السكن ، وسوء ظروف الصحة العامة وسوء التغذية ، وقصور أساليب الإدارة والإنتاج ، وبعبارة أخرى تشمل جميع المشكلات الناجمة عن الفقر والتخلف .

ثالثًا : مهمة الإنسان في البيئة كما حددها الإسلام

خلق اللَّه الكون بما فيه ومن فيه – كما يقرر القرآن الكريم – قبل أن يخلق الإنسان ، فالإنسان هو الحلقة الأخيرة في سلسلة المخلوقات في هذا الكون الرحب الفسيح ، وفي ذلك إشارة إلى أمرين من الأهمية يمكن إبرازهما ، الأمر الأول : أن هذا الكون كله مخلوق للإنسان ليؤدي مهمته المقدسة في هذه الحياة ؛ ففي الحديث القدسي : « **يا ابن آدم خلقت الأشيئاء من أجلك وخلقتك من أجلي فلا تنشغل بما هو لك عمن أنت له** » (ص ٤٦) ، والأمر الثاني : أن الإنسان هو سيد هذا الكون وأرقى المخلوقات مرتبة ، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠] .

– ويوضح القرآن الكريم كيف أن الكون كله خلق قبل خلق الإنسان في قوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩] ، ففي هذا دلالة على أنه تعالى ابتدأ أولًا بخلق الأرض سبعًا ، وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ، ثم أعاليه بعد ذلك [١] (ص ٤٨) ، ثم يعقب القرآن الكريم على ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠] ، ولا شك أن المراد بالخليفة هنا ، كما أجمع العلماء ليس « آدم » فحسب ، وإنما المراد هو جنس الإنسان كله [٢] (ص ٤٩) .

– وهكذا خلق اللَّه الكون ، ثم خلق الإنسان من أجل مهمة أوضحها القرآن في كونه خليفة للَّه في هذه الأرض ، تلك هي وظيفة الإنسان ، وهذه الخلافة تعني أول ما تعني تعمير الأرض بإشاعة الخير والسلام فيها ، والعمل على إظهار عظمة الخالق وقدرته عن طريق الانتفاع الإيجابي بكل ما خلقه اللَّه . ويتجلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١] ، ومعنى استعمركم : أي طلب منكم عمارتها وذلك لا يتأتي إلا بأمرين ؛ أولهما : أن تبقى الصالح على صلاحه ولا تفسده وأن تصلح الفاسد وتزيد إصلاحه [٣] (ص ١٥) .

– ويحدد القرآن الكريم – إلى جانب هذه الوظيفة ، الغاية التي خُلِق الإنسان من أجلها في قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦ – ٥٨] ، فعبادة اللَّه إذًا هي الغاية التي يجب أن تكون هدف الإنسان في حياته .

– نحن إذًا أمام وظيفة للإنسان يؤديها في هذا الكون (البيئة) بوحي من خالقه وغاية نهائية يرمي إلى تحقيقها من خلال وأثناء أدائه لهذه الوظيفة ، ولا شك أن الوظيفة مرتبطة بالغاية ارتباطًا وثيقًا ولا تنفصل عنها ، كما سيتضح فيما بعد .

العلاقة بين الوظيفة والغاية :

– إن وظيفة الإنسان تقوم – كما أوضحنا – على تحقيق مبدأ الاستخلاف الذي

---

(١) محمد متولي الشعراوي : « الطريق إلى اللَّه » ، المكتب المصري الحديث ، القاهرة ، (١٤٠٠هـ) .
(٢) محمد علي الصابوني ، مختصر تفسير ابن كثير ، المجلد الأول ، المكتبة الفيصلية مكة المكرمة ، بدون تاريخ .
(٣) أحمد زين : « حوار مع الشيخ الشعراوي » ، المختار الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع ، ط. ١ ، القاهرة ، (١٩٧٧م) .

يقوم على أن الإنسان هو خليفة اللَّه في هذا العالم (البيئة) ، بُعث لتطويره وإعماره وتذليل صعابه والاستجابة لتحدياته من أجل تسوية أرضه كي تكون أكثر ملاءمة لحياة مطمئنة تعلو على الضرورات بعد أن تحرر منه وتكون أكثر قدرة للتوجه إلى خالقها جل وعلا ، إذن فمسألة الاستخلاف هذه تتكرر أكثر من مرة في القرآن الكريم : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [فاطر : ٣٩] ، وغير ذلك من الآيات [١] .

– على أن مبدأ الاستخلاف هذا يبدو خلال هذه الآيات مرتبطًا بمتصل ، يتمثل أحد طرفيه في العمل الجاد والتعمير والإبلاغ ومجانبة الإفساد في الأرض ، ويتمثل الطرف الآخر في تلقي القيم ، والتعاليم والشرائع عن اللَّه ، والالتزام الجاد بها خلال ممارسة الجهد البشري في البيئة بمفهومها الشامل في إطار قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

– ونود أن نؤكد على أن العلاقة بين هذين الطرفين علاقة أساسية متبادلة (ذات ... اتجاهين) بحيث إن افتقاد أي منهما في مسيرة الإنسان في الكون سيؤول إلى الخراب والضياع في الدنيا والآخرة معًا .

– وفي هذا الإطار ؛ فالإنسان مطالب بتعمير الدنيا وإحيائها كي ينعم الجميع بخيراتها وتسخير طاقاتها وإمكاناتها التي خلقها اللَّه له لخدمته وخدمة الأجيال التي تعقبه ، وفي هذا المعنى ورد الحديث الشريف : « **إن الدنيا حلوة خضرة ، وأن اللَّه مستخلفكم فيها**

---

(١) ومن الآيات التي تؤكد على معنى الاستخلاف قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] .

﴿ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٩] .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ١٤] .

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل : ٦٢] .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥] .

فناظر كيف تعملون » [١] ، وهو في سعيه نحو هذا الهدف لا بد أن يلتزم بمنهج اللَّه الذي أنزله إليه ليضبط حركته في الكون كما أراد له خالق الكون . ولكي يقوم الإنسان بأعباء قضية الاستخلاف فإن ذلك يستلزم عدة أمور نوضحها فيما يلي :

١ – **الخبرة والعلم** : أي أن يكون للإنسان الخبرة والعلم الكافي بما يمكنه من أداء هذه المهمة المقدسة ، ولقد أنعم اللَّه على الإنسان بما يحتاج إليه في هذا السبيل ، فمنحه القدرة على التعليم والانتفاع بكل ما تقع عليه حين منحه المعرفة التامة لخصائص الأشياء وأسمائها : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة : ٣١ – ٣٣] .

– وتوضح الآيات الكريمة أن الإنسان لم يبدأ من فراغ ، بل خلقه عالمًا مزودًا بالقدرات التي تمكنه من القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض وعمارة الحياة ، حيث كانت بداية المعرفة الإنسانية بهذا الكون ذلك العلم الوهبي لأبينا آدم عليه السلام ، ويفسر العلماء تعبير « الأسماء كلها » الوارد في الآيات السابقة بأنها [٢] (ص ٣٢) ، أسماء كل الكائنات الحية والجمادات التي خلقها اللَّه تعالى وألهم أبانا آدم معرفة ذواتها وخواصها وصفاتها في شمول يقتضيه لفظ « كلها » أي المعرفة اللازمة لحياته على الأرض والقيام بواجبات الاستخلاف فيها وعبادة اللَّه كما أمر ، وبالطبع فلقد علم آدم بنيه ما تعلمه من علم للَّه ، وورث بنوه ذلك العلم جيلًا بعد جيلٍ وأمة بعد أمة بأن القدرة على التعلم واكتساب المعرفة هي ميزة أساسية في الإنسان وضرورة من ضرورات وجوده ، ومن هنا كان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

– وبالإضافة إلى هذا العلم الوهبي ، فقد أوكل اللَّه تعالى الناس على ما وهبهم من قدرات على اكتساب المعرفة عن طريق النظر والتدبر في أشياء ومكونات هذا الكون واستقراء سنن اللَّه فيه ونواميسه ، وحتى هذا العلم الكسبي المؤسس على النظر والتأمل والتفكر والاستنتاج أو الذي يتم التوصل إليه استجابة لإلحاح الحاجة ، ولم يخل في

---

(١) رواه مسلم والنسائي .

(٢) زغلول راغب النجار : « قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر » ، سلسلة كتاب الأمة ، تصدرها رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر ، الطبعة الأولى ، الكتاب رقم (٢٠) ، أكتوبر (١٩٨٨م) .

أحيان كثيرة عن ومضة من ومضات الإلهام الرباني من قبل ذلك الذي حدث لابني آدم قابيل وهابيل حين اعتدى الأول على الثاني وقتله ثم حار في أمر جثته ماذا يصنع بها ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ ﴾ [المائدة: ٣١] .

٢ – تسخير المخلوقات للإنسان : ولتتم خلافة الإنسان عن اللَّه في الأرض كان لا بد أن تخضع له المخلوقات الأخرى ليتم انتفاعه بها كما ينبغي ، وتلك نعمة أخرى أسبغها اللَّه عليه ؛ إذ سخرها له وأسس قيادها لنفعه ، ومن اليسير أن ندرك أن تسخير هذه المخلوقات للإنسان يتم **بأحد سبيلين** :

أ – **أولها** : القوانين التي خلق اللَّه العالم عليها وجعلها بحيث تسد حاجات الإنسان المتباينة دون أن يكون له يد في تسخيرها أو تسييرها أو قدرة على تغيير مجراها ، وقد عبر عنها القرآن الكريم في أكثر من موضع مثل قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم: ٣٢ ، ٣٣] ، وغيرها من الآيات التي تشير إلى هذا المعنى (١) .

ب – **والطريق الثاني لتسخير المخلوقات الأخرى للإنسان** : هو القدرة على التعلم التي وهب اللَّه الإنسان إياها وبواسطتها يستطيع أن يَخضع هذه المخلوقات لإرادته ويوجهها الوجهة التي تصلح من شأنه وتسد من حاجته ، وقد عبر القرآن الكريم عنها بمثل قوله تعالى : ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا

(١) انظر أيضًا قوله تعالى ؛

– ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۗ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل: ١٠– ١٢] .

– ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٨– ٢٠]

– ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [لقمان: ١٠] .

بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٥ - ٨] (١) .

- ولما كان النوع الثاني من التسخير - والذي للإنسان يد في بعض نواحيه - مبنيًّا على النوع الأول ومعتمدًا عليه - إذ لولا خلق اللَّه العالم وما فيه لما كان هناك مكان للإنسان ولا مجال لاستعمال قدراته - كان من الحق أن يكون كلاهما من فضل اللَّه على النوع الإنساني ، وهو ما تجده في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [لقمان: ٢٠] ، وقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٣] .

- وهكذا يتبين من العرض السابق أن اللَّه خلق الإنسان من أجل وظيفة يؤديها في هذا الكون وهي القيام بأعباء الاستخلاف في الأرض كما أراد اللَّه ، ولقد وهبه اللَّه - كما بينا - كل ما يمكنه من القيام بهذه المهمة .

- ونأتي إلى الغاية من وجود هذا الإنسان في الكون والهدف من أداء هذه الوظيفة تلك الغاية وذلك الهدف الذي يتمثل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] فعبادة اللَّه إذًا هي الغاية التي يجب أن تكون هدف الإنسان في حياته ، ولكن ما معنى هذه العبادة ؟

---

(١) انظر أيضًا قوله تعالى :

- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٤].

- ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [النحل: ٨٠ ، ٨١] .

- ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٧١ - ٧٣] .

- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥] ، وغير ذلك من الآيات التي تذخر بها سور القرآن الكريم ولا يتسع المقام لحصرها .

معنى العبادة في الإسلام :

- إننا نعرف أن الإسلام لا يقر الانقطاع الكلي عن العلم باسم الدين وعبادة اللَّه ؛ لأن ذلك لا يحقق المهمة الأولى للإنسان في الأرض وهي خلافته للَّه ﷻ ، كما بينا أن تعاليم الإسلام تأبى أن تحدد العبادة المطلوبة منَّا بما هو شائع من أن العبادات شيء والمعاملات شيء آخر ، وهو ما يفهمه البعض من كتب الفقه الإسلامي عندما تفصل في تبويبها بين العبادات والمعاملات ، وتأبى كذلك تعاليم الإسلام أن تحدد العبادة بأنها الصلة بين الإنسان وربه فحسب بغض النظر عن نوع الصلة التي تكون بينه وبين بني جنسه ، وغيرهم من مخلوقات اللَّه في هذا الكون .

- وإذا كان ذلك كذلك .. فما المعنى المقصود بالعبادة ؟

إن العبادة التي يتطلبها الإسلام من أتباعه هي السير في الطريق التي تؤدي إلى تحقيق خلافتهم عن اللَّه في الأرض ، ومن لوازم هذا - بعد الإيمان باللَّه وأداء العبادات المشروعة والمقررة - الضرب في الأرض ، والتعاون مع الغير ، وأداء الواجب ، والمحافظة على حقوق الآخرين ، واستخدام ما سخر اللَّه له فيما يرضي اللَّه تعالى ، والالتزام بأن يكون عضوًا فاعلًا ونافعًا في هذا الكون ومصلحًا إليه لا مفسدًا فيه ، وهكذا يتضح لنا ذلك الارتباط الوثيق بين الوظيفة والغاية .

الوظيفة : هي تحقق مبدأ الاستخلاف القائم على النظر في الكون والكشف عن أسراره والتعرف على نواميس اللَّه فيه ؛ لتطبيق تلك الكشوف والقوانين في استثمار ثروات الأرض وإحكام السيطرة عليها ... وكل هذه الأمور هي من واجبات الاستخلاف ، ولا تتوقف هذه الجهود عند هذا الحد فحسب وإنما ينبغي أن يكون ذلك كله طريقًا للإنسان للتعرف على خالقه وإعجازه في خلقه وهما من واجبات العبودية للَّه .

الغاية : تلك العبودية التي تمثل الضمان الوحيد لعدم استخدام معطيات الجيد الإنساني والعلم والتقليدية في غير طاعة اللَّه فضلًا عن سوء توظيفها في العديد من صور الفساد والإفساد المنتشرة في عالمنا اليوم .

- ومن هنا فإن الإنسان وفقًا للتصور الإسلامي لا يرى في الكون عدوًّا له من الواجب أن يقهره ويقف في وجهه ويتحداه ، وإنما يرى فيه خلقًا سخره اللَّه له ينسجم معه بالطاعة ، كما ينسجم بتفهم السنن الإلهية التي تحكمه ويتوافق مع ظروفه بالالتزام بالحق ، كما يتوافق بتفهم القوانين التي تحكم تلك الظروف ويرضى بكل مجريات

الأمور فيه بعد استنفاد طاقته وأقصى جهده لارضاء المقهور ، ولكن رضاء المستسلم للَّه الذي يؤمن بأن أمور الكون وما فيه كلها بيد الخالق (ص ٧٢ ، ١٩) .

– ومن هنا فإن كل جهد للإنسان في هذا الكون ينسجم مع الغاية التي من أجلها خلق يصبح جهدًا مأمورًا به شرعًا في التصور الإسلامي ، والعكس صحيح فإن كل جهد لا ينسجم مع هذه الغاية يصبح لونًا من ألوان الفساد والإفساد الذي يحاربه الإسلام ويؤثر من يقوم به .

ويرتبط بذلك أمران أساسيان هما :

أ – **أن عبودية الإنسان لله** : وهي جوهر الدين ومحور التدين وأولى عقائد الإسلام والمدخل إلى رحابه هذه العقيدة الدينية العظمى على أهميتها هذه نجد أن الإسلام قد اعتبرها الحق الذي استوجبه اللَّه ﷻ على الإنسان لقاء إنعامه عليه بضرورات الحياة المادية والمعنوية ، فلقاء النعم المادية ولقاء نعمة « الأمن » استحق اللَّه ﷻ من الإنسان أن يفرده بالألوهية والعبادة ، قال تعالى : ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ [قريش : ١ – ٤] .

ب – **الأمر الثاني** : أن صلاح أمر « الدين » بهذا المعنى موقوف على صلاح أمر « الدنيا » ويستحيل أن يصلح أمر الدين إلا إذا صلح أمر الدنيا ، أي إلا إذا تمتع الإنسان بهذه الضرورات التي أوجبها الإسلام [١] (ص ١٦) .

ويعبر الإمام الغزالي عن هذه الحقيقة الإسلامية عندما يقول : إن نظام الدين لا يعمل إلابنظام الدنيا ، فنظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل إليهما إلا بصحة الأبدان وبقاء الحياة وسلامتها قدر الحاجات من الكسوة والمسكن والأقوات والأمن ، فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية ، وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقًا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة وطلب قوته من وجوه الغلبة متى يتفرغ للعلم والعمل وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة ، فإذن إن نظام الدنيا أعني مقادير الحاجة شرط لنظام الدين [٢] (ص ١٢٥) .

---

(١) محمد عمارة : « الإسلام وحقوق الإنسان » ، سلسلة عالم المعرفة ، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ، مايو ، (١٩٨٥م) .

(٢) أبو حامد الغزالي : « الاقتصاد في الاعتقاد » ، مطبعة صبيح ، القاهرة ، بدون تاريخ .

رابعًا : مكانة الإنسان المتميزة في البيئة

من أجل أداء الوظيفة الأساسية للإنسان – التي سبق الإشارة إليها – ومن أجل تحقيق الغاية التي خلق من أجلها كان لا بد وأن يكون للإنسان موقفًا متميزًا بين غيره من عالم الأحياء الذين يشاركونه الحياة على كوكب الأرض ، فالإنسان في الواقع كائن حي يشترك مع الأحياء الأخرى بمجموعة الخصائص التي تعرف بمظاهر الحياة ، والإنسان يصنف ضمن العالم الحيواني ؛ لأنه يشترك مع الحيوانات بخصائصها الأساسية ، من حيث نمط بناء الجسم والأسلوب الذي تتم فيه النشاطات الحيوية ، إلا أن اللَّه تعالى وهب الإنسان من الخصائص البيولوجية التي جعلت منه سيد الخلائق ، والتي يمكن أن نجملها فيما يلي : (١٢٩/٢ – ١٣٢) .

١ – **انتصاب القامة** : حيث أثر انتصاب قامة الإنسان في تكيفات عديدة في الهيكل والعضلات وتوزيع الأحشاء الداخلية ، ولعل من أبرز هذه التكيفات : المشي على قدمين وترك اليدين حرتين ليستعملان استعمالات مفيدة ودقيقة ، ولعل الإنسان مدين إلى « القبضة الدقيقة » في اختراع الكتابة التي هي مجموعة من الأساليب يقوم بها الكلام المنطوق بطريقة رمزية تجعل من الممكن توفير الاتصال البعيد المدى على مدونات دقيقة وتوفير نظم التعليم والبحث ، وهذه كلها وظائف حيوية للثقافة الإنسانية ، والإنسان أيضًا مدين للتكوين الخاص ليده الذي مكنه من الوصول إلى عصر الحضارة العلمية والتكنولوجية ، التي هي سبيل الإنسان إلى فهم البيئة وتسخير القوى والطاقات الموجودة فيها لمصلحته .

٢ – **طول مدة استكمال النمو بعد الولادة** : إن هذه الميزة تجعل مدة الرعاية التي يحاط بها الإنسان كبيرة بالمقارنة بالرئيسيات الأخرى ، مما يساعد على أن يبدأ حياته وقد أخذ خبرات متعددة فالإنسان يحتضن صغيره حتى سن الحادية والعشرين ، مؤدبًا ومعلمًا وهي فترة تعادل ثلث حياته في المتوسط يتعرض فيها وبعدها لعملية تعلم مستمرة يتزود خلالها بأساليب الحياة الملائمة للبيئة التي يعيش فيها .

٣ – **تعقيد الدماغ** : ونمو جهاز صوتي راق مكنا الإنسان من النطق بلغة واضحة بيِّنة ، كان لها الأثر في نشوء الثقافة الإنسانية ، التي جعلت من الصعب فصل « الإنسان البيولوجي » عن الإنسان الثقافي ، حيث إنهما متداخلان بشكل كبير ، ومن هنا يرفض الكثيرون القول بأن الإنسان حيوان ناطق ؛ لأن الإنسان قادر على تحقيق درجة عالية من

تمايز السلوك على أساس سيكولوجي ، يتجاوز – كثيرًا – حدود التنظيم البيولوجي الصارمة التي نجدها في بعض المجتمعات الحيوانية المنظمة ؛ كمجتمعات النمل والنحل . هذا هو الإنسان كائن حي فريد متميز بين أحياء البيئة المتعددة والمتنوعة لا يرقى إلى إمكانته وقدراته أي منها ، فهو غير مقيد في بيئة واحدة ؛ بل يعيش في كل البيئات ؛ ويغير فيها حتى تناسبه ولا يتغير من أجلها ، كما تفعل الحيوانات المتكيفة مع ظروف بيئتها .

– وإلى جانب هذه المميزات والخصائص البيولوجية ، فإن اللَّه قد ميز الإنسان عن سائر الكائنات الحية بعدة مميزات أخرى ، نذكر منها :

أ – أن اللَّه تعالى عندما خلقه نفخ فيه من روحه ، فهو الكائن الوحيد من بين الكائنات الحية الذي اختص بهذه الخصوصية ، قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٦ – ٩] . وهكذا فإن روح اللَّه التي نفخت فيه تفضله عن سائر المخلوقات وتهبه علاقته الفريدة بخالقه أنه كائن قادر على السلوك العقلي ، والحكم على الأشياء ، والتقرير الإرادي ، والاختيار الأخلاقي .

ب – أن الإنسان هو كائن مكلف : وهي خاصية ينفرد بها الإنسان بين سائر المخلوقات والكائنات الحية ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] ، والأمانة كما يرى علماء التفسير هي أمانة التكليف ، حسب منهج اللَّه تعالى : افعل ولا تفعل (ص ٣٢) [١] .

جـ – أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يصنع الحضارة من بين المخلوقات جميعًا بما وهبه اللَّه من خصائص وإمكانات تميزه عن غيره من المخلوقات ، هذه الخصائص جسمية كانت أو ذهنية مكنت له من التوصل إلى اكتشاف فوائد كثيرة في أشياء متعددة مما كان حوله وتحت بصره كالنار وبعض المعادن ، ومكَّنته من ابتكار أشياء أعانته على تيسير حياته ؛ كالأسلحة والفخار ، وهذه الأشياء نفسها شحذت ذهنه ، وأطلقت عقله ،

---

(١) جلال العشري : « الإنسان في الإسلام » مجلة الفيصل ، دار الفيصل الثقافية السعودية ، العدد (٥٩) السنة الخامسة، مارس (١٩٨٢م) .

فمضى يستزيد من الاكتشافات والمبتكرات زمانًا بعد زمان (ص ٣١) [١] .

تفاعل الإنسان مع البيئة :

وتأسيسًا على ما سبق ، يمكن لنا أن نقرر أن التفاعل بين الإنسان ، قدم ظهور الجنس البشري على كوكب الأرض ، منذ أن هبط آدم ليلتقي بحواء على الأرض لتبدأ مسيرة الجنس البشري على هذا الكوكب ، وتبدأ في نفس الوقت رسالة هذا الجنس كما أرادها الخالق . وكما سبق أن أشرنا فلقد شاءت حكمة اللَّه ﷻ أن يجعل من الأرض محورًا للحياة الإنسانية في هذا النسق الكوني العظيم فغمرها بجميع ما يحتاج إليه الإنسان من نبات وحيوان وثروات طبيعية وطاقة ، وأدار الحياة على الكرة الأرضية في تناسق بديع وتوازن محكم لا تكاد تجد له شبيه في هذا الكون ، فتجسدت المعجزة الإلهية الكبرى في تجدد الحياة في دورات متتابعة متكاملة مكَّنت الإنسان من الإفادة من الثروات الطبيعية الهائلة والتمتع بما في الأرض من مياه وغابات ومعادن وغيرها من المكونات الحية أو غير الحية ، ومن تطوير حضارات متقدمة أثرت الحياة البشرية وأتاحت لها فرصة الارتقاء بالجهاد الإنساني لتحقيق التنمية والتقدم المضطرب والرفاهية للملايين من سكان هذا العالم ، وتحقيق التقارب الذي نعيشه بين أجزاء الكرة الأرضية بفضل التقدم الذي أحرزه الإنسان في وسائل الاتصال والمواصلات الحديثة (ص ٨) [٢] .

وإذا نظرنا إلى علاقة الإنسان بالبيئة وتطور هذه العلاقة منذ بدء الخليقة ، لوجدنا أنها مرت بمراحل تروى على شكل قمة تعكس هذا التطور وندرة ظهور المشكلات البيئية وتعقدها ، كما تعكس تحول الإنسان في موقفه من البيئة المحيطة .

ويمكن استعراض تاريخ علاقة الإنسان بالبيئة والمراحل التي مرَّت بها هذه العلاقة بإيجاز على النحو التالي : (ص ٢٠ ، ٢٧٨) .

---

(١) حسين مؤنس : « الحضارة » ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ١ ، الكويت ، يناير ، (١٩٧٨م) .

(٢) اللجنة العالمية للبيئة والتنمية : « مستقبلنا المشترك » ترجمة محمد كامل عرف ، سلسلة عالم المعرفة، الكتاب رقم (١٢٤) ، الكويت ، (١٩٨٩م) .

راجع أيضًا في هذا العدد كل من : – رشيد الحمد محمد سعيد صباريني ، البيئة ومشكلاتها ، مرجع سبق ذكره ، (ص ١٣٤ – ١٣٨) .

– محمد عبد الفتاح القصاص : « الإنسان والبيئة » من منشورات اليونسكو بالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة للبيئة ، القاهرة ، (١٩٧٨م) ، (ص ٥١٥ – ٥١٧) .

١ – مرحلة الصيد والجمع :

حيث كان الإنسان يعيش وحشيًّا معتصمًا بالغابات يعيش على أغصانها وثمارها أول الأمر ؛ إذ أنه تميز في هذه المرحلة بالعجز والضعف عن حماية نفسه ، فلجأ إلى أمن الأشجار في الغابات ، وكان يجمع طعامه من ثمار النباتات أو أوراقه ، وكذلك يجمع ما يحتاجه للملبس والمسكن من ألياف الأعشاب على البيئة خينًا وضعيفًا لا يجاوز أثر غيره من آكلات العشب أو الحيوانات التي تجمع العسل (رحيق الأشجار) أو بيض الشجر ، وكان الإنسان في هذه المرحلة مشغول بحماية نفسه من غوائل البيئة التي تهدده ليل نهار في صورة أمطار وعواصف وثلوج وحيوانات متوحشة .... إلخ .

– ثم تحول الإنسان بعد ذلك بمرور الوقت وتطور الحياة البشرية إلى مرحلة أخرى يعبر عنه بمرحلة « الصيد والقنص » ويشير حسين مؤنس إلى هذه المرحلة ، حين يقرر قائلًا [١] .

« ولأسباب لم يكشف النقاب عنها حتى اليوم بارح الإنسان الغابات والأشجار ، ونزل إلى البطاح وهام على وجهه فيها ، طالبًا قوته بالصيد وجمع الثمار ، فإذا جن الليل لجأ إلى النيران والكهوف يحتمي بها ، وانقضت دهور متطاولة وهو على هذه الحالة .

والذي يهمنا التأكيد عليه في هذا الصدد أن أثر الإنسان في البيئة أصبح في هذه المرحلة يجاوز أثر آكلات العشب التي تميزت به المرحلة السابقة ، وانتقل إلى أثر آكلات اللحوم ، وهكذا تقدم الإنسان خطوة إلى الأمام في مجال علاقته بالبيئة وتفاعله معها وتأثيره فيها والبدء في إحكام سيطرته على بعض أجزائها وعناصرها ، حيث تعلم الإنسان في هذه المرحلة أساسيات التخطيط للقنص والصيد ؛ لأنه جهد يحتاج إلى العمل المشترك لجماعة متعاونة ، واستحدث الإنسان تكنولوجيا الصيد ، وطور أدواته من مصيدة وفخاخ ورماح ، وأهم من ذلك كله أن الإنسان اكتشف في هذه المرحلة النار وبها أصبحت له قدرة على التأثير البيئي تزيد بكثير عن قوته العظيمة .

٢ – مرحلة استئناس الحيوان والرعي :

وفي هذه المرحلة تحول إطار العلاقات البيئية للإنسان تحولًا بالغًا ، حين حول الإنسان أنواعًا من الحيوانات من الحياة البرية إلى حياة الاعتماد على الإنسان ، وجعل من هذه الحيوانات قطعانًا متكاثفة العدد ومتكاثفة الأثر البيئي على الكساء النباتي ، وتعلم

(١) حسين مؤنس : « الحضارة » ، سلسلة عالم المعرفة ، الكتاب رقم (١) الكويت ، (١٩٧٨م) ، (ص ٧٠ ، ٧٢) .

الإنسان حياة الرحلة الموسمية من المرابع إلى المصايف ، سعيًا وراء التحولات الموسمية في الكساء النباتي ، وتميزت هذه المرحلة باتساع مدى تأثير الإنسان في البيئة من حوله .

٣ – مرحلة الزراعة والاستقرار :

حيث استكمل الإنسان – في هذه المرحلة – سيادته على الأحوال والمكونات البيئية ، وبدأ يتحول من جمع الطعام إلى إنتاجه ، واستطاع أن يبدل الكساء النباتي البري بألوان وأنماط من الكساء النباتي يزرعها ويفلحها ، وهو يستعمل مياه الأنهار يضبطها بما ينشئه من سدود وما يشقه من قنوات وترع لري الأرض التي استزرعها ، وهو يبني القرى التي يعيش فيها حيث تتكاتف الجماعة الإنسانية ، واستحدث الإنسان آلات الحرث والري والحصاد واستخدام الحيوان في عمله ، أي أنه استخدم مصادر القوة والطاقة البيولوجية ، بالإضافة إلى قوة عضلاته .

– ومما سبق نلحظ أن الإنسان في مرحلة الزراعة أصبحت له آثار بيئية هائلة ، وأنه أحدث تغيرات بيئية بارزة المعالم ، ولكننا نتبين أنه لم ينشئ في عمله موادًا كيمائية غريبة على النظم البيئية ، وهذا يعني أن مخلفات العمل والحياة الإنسانية والنشاط البشري كانت مما تستطيع الدورات الطبيعية أن تستوعبه وتجربه في سلاسل تحولاتها بفعل الكائنات الأرضية التي تتم عمليات التحلل الطبيعي .

٤ – عصرالصناعة :

ثم يجيء عصر الصناعة وما اتصل به من عمران تميزت به حياة الحضر الصناعي عن حياة الريف الزراعي ، وأصبح في إمكان الإنسان أن يعيش في بيئة من صنعه بما يبني من مساكن ويهيئ لها من وسائل التدفئة والتبريد والإضاءة ، وطوع الإنسان مصادر القوة والطاقة التي جعلت بين يديه من آلالات الهائلة ما جعل آثار البيئة امتدادًا على مساحة من الأرض وفي البحار والهواء وعلى جميع مكونات البيئة .

– ويجدر بنا أن نؤكد في هذا الصدد على عدة أمور لها أهميتها في مجال علاقة الإنسان بالبيئة في هذه المرحلة :

أ – أن الإنسان تمكن في هذه المرحلة من استغلال مصادر حفرية للوقود هي الفحم والبترول ، وبذلك أصبح يحرق موادًّا كربونية أكثر بكثير من قدرة النظم البيئية على الاستيعاب ، ونتج عن ذلك تزايد مضطرد من أكاسيد الكربون في الهواء الجوي (تغير كمي في البيئة) .

ب – أن الصناعة أصبحت قادرة على إنشاء مركبات كيميائية طارئة على النظم البيئية غريبة عليها ، أي أن التحولات الطبيعية في دورات المواد البيئية غير قادرة على استيعابها ، إذ أن النظم البيئية لا تشتمل على كائنات قادرة على تحليلها وإرجاعها إلى عناصرها الأولى كما تفعل بالمركبات العضوية الطبيعية .

جـ – أن الإنسان أصبح يعتمد في مجال توليد الطاقة على مصادر مغرية غير متجددة بالإضافة إلى المصادر المتجددة ، مما ينتج عنه خطر استنزاف هذه المصادر غير المتجددة للنظام البيئي [١] .

– ومع تطور الحياة الإنسانية والتقدم العلمي والتكنولوجي الذي يحرزه الإنسان يومًا بعد يوم ازداد تأثير الإنسان على البيئة ، وتحكمه فيها ، وأصبح الإنسان يمثل في نظر العلماء والمهتمين بالبيئة – مشكلة البيئة .

ولقد ترتب على تطور العلاقة بين الإنسان والبيئة العديد من المشكلات التي يمكن أن نـمـيـز أهمها على النحو التالي :

١ – النمو الانفجاري في عدد السكان وما يترتب عليه من صعوبة توفير الغذاء ومتطلبات الحياة الأخرى ، فضلًا عن الأثر التي يحدثها هذا العدد الهائل من السكان في النظم البيئية .

٢ – الثورة العلمية والتكنولوجية ، وتسارع التغيرات التي أحدثتها وتحدثها هذه الثورة في البيئة وضخامتها وشمولية بعض أثرها ، حيث برزت قضيتان أو مشكلتان على جانب كبير من الخطورة هما : تلوث البيئة ، واستنزاف المصادر والموارد الطبيعية ، وهما قضيتان أبسط مايمكن أن يقال عنهما أنهما تهددان حياة الأجيال القادمة .

٣ – اختلال التوازن الطبيعي في البيئة حيث تعرضت الأنظمة البيئية ولا زالت

---

(١) حيث تصنف المصادر الطبيعية في البيئة إلى ثلاثة أنواع من الموارد هي :

أ – موارد دائمة : وهي المصادر التي لا تنضب ، مهما استهلك منها الإنسان ، وستظل متوفرة (حسب التوقعات العلمية) دائمًا ، وهذه الموارد من قبيل الشمس والهواء والماء .

ب – موارد متجددة : وهي المصادر الطبيعية التي تمتلك القدرة على التجديد باستمرار وتمثلها : النباتات وصور الحياة الأخرى وكذلك التربة .

جـ – الموارد غير المتجددة : هي مصادر طبيعية لاتتجدد أو تجدد ببطء حيث توجد بكميات محدودة في البيئة من شأنها أن تختفي ، إن آجلًا أو عاجلًا ، مثل الفحم الحجري ، البترول ، الغاز الطبيعي ، والخامات المعدنية .

تتعرض لتغييرات من صنع الإنسان لم تقدر في الكثير من الأحيان على استيعابها في سلاسلها ودوراتها الطبيعية ، كما أدى إلى إرباكها أو تدهورها .

خامسًا : مكونات المنهج الإسلامي في رعاية البيئة

إن اللَّه وهبنا الكون بكل مظاهر جماله ، وأنماط بهائه لا لنلهو به ونعبث بل لنعايشه في سلام ووئام ، تلك حقيقة ينبغي أن نقِررها بداءة ؛ ذلك لأنه إذا كان الإنسان – كما أشرنا – هو ذلك الكائن الحي الذي شاءت القدرة الإلهية أن تكوِّنه وترفعه فوجد كثيرًا من الكائنات الأخرى فسخرت له الوجود كله حتى يمكنه تحقيق خلافته لله على هذا الكوكب الأرضي ، فإنها قد حملته مسؤولية حمايته ورعايته ، ومن هنا كان على الإنسان العاقل الرشيد أن يقابل النعم بالشكر والعرفان لا بالجحود والنكران أو التمرد والعصيان ، إن الشريعة الإسلامية هي أعظم نظام للحياة وأنسب شرائع العالم حتى آخر يوم في الدنيا ، إنها الشريعة التي نفت فوقية الظواهر الطبيعية ، فلم يعد لها قصر يؤدي بالإنسان إلى السجود لها ، كما كان يحدث في عهود غابرة ، ثم هي أيضًا دعت إلى معايشة هذه الظواهر الطبيعية والمكونات البيئية في سلام وحسن جوار ، ونبذ كل صنوف العداء لعناصر البيئة أو إضاعة التناغم والانسجام الذي أودعه اللَّه في كل جزئية فيها .

إنها علاقة ألفة ومحبة واحترام وتواد تلك التي نظمها الإسلام بين الإنسان وما تحتويه بيئته من موجودات حية وغير حية ، إن الإسلام تتسع دائرته لتشمل كل نواحي الحياة فلا تجد خيرًا أوسعادة إلا وقد وجه لها ودفع للأخذ بأسبابها ، ولا تجد فسادًا إلا وقد نهى عنه وحذر منه ولعل دعوته إلى حسن تعامل الإنسان مع بيئته لواحدة من شمولية هذا الدين الحنيف .

ويمكن أن نجمل الجوانب الأساسية التي تشكل منهج الإسلام في رعاية البيئة على النحو التالي :

نتصور أن هذا المنهج الذي يضبط علاقة الإنسان بالبيئة يتكون هيكله من ثلاثة أجزاء رئيسية هي : الأسس والأهداف والمنهج أو الإجراءات . وهذه الإجراءات في الواقع مبنية على مجموعة من المعتقدات الإسلامية التي تحدد المنهج الإسلامي الذي يرمي إلى تحقيق الأهداف الإسلامية فيما يتعلق بعلاقة الإنسان بالبيئة ، ويمكن أن نوضح النقاط الثلاث على النحو التالي :

أولًا - الأسس (المعتقدات) :

وتقوم على أمرين أساسيين يشكلان حدود وضوابط علاقة الإنسان بالبيئة وهما :

أ – الإيمان بنظام إسلامي في السلوك والتصرف حيال البيئة .

ب – الإيمان بنظام إلهي في الثواب والعقاب في ضوء الالتزام بالسلوك الإسلامي من عدمه .

وهذا يعني أن الإنسان مطالب (وفقًا للتصور الإسلامي) بأن يقيم علاقته بالبيئة التي يعيش فيها ملتزمًا بألوان من السلوكيات والتصرفات التي رسمها المنهج الإسلامي المتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة ، والتي تحكم هذه العلاقة وتضبط مسارها ، وإن هذا الالتزام بالنظام الإسلامي في السلوك لن يتأثر إلا بعد الإيمان بنظام إلهي في الثواب والعقاب ، والثواب لمن التزم بالسلوك الإسلامي نحو البيئة والعقاب لمن خالف هذا السلوك .

وفي ضوء هذا الفهم يمكن لنا أن نحدد الأسس التي يستند إليها التصور الإسلامي في هذا الصدد في النقاط التالية :

١ – تبصير الإنسان بنواميس الكون ومكوناته :

أ – **التوازن الطبيعي للكون** : يوجب الإسلام على الإنسان أن ينظر ويتأمل ويتدبر في نواميس الكون من حوله ، وتتجلى أهمية ذلك التوجيه إذا ما علمنا أن البيئة الطبيعية (الكون) تتميز بتوازن دقيق محكم يبين عناصرها المختلفة ، فلو أن ظرفًا ما أدى إلى إحداث تغيير من نوع ما في أحد هذه العناصر ؛ فإنه بعد فترة قليلة قد تؤدي بعض الظروف الطبيعية الأخرى إلى تلافي آثار هذا التغيير ليعود النظام البيئي إلى صورة أخرى من صور التوازن ، ومن الأمثلة على ذلك أن النار إذا دمرت جزءًا من إحدى الغابات ، فإنه بعد عدة أعوام قليلة تعود هذه الأرض التي احترقت أشجارها إلى طبيعتها الأولى تنمو بها الحشائش والأعشاب ، ثم سرعان ما تكتسى بالأشجار الباسقة مرة أخرى (ص ٣ ، ١٨) وهكذا ، فلقد خلق اللَّه هذا الكون بمكوناته بمقدار وميزان وترتيب وحساب دقيق ، بحيث يتلاءم كل شيء مع مكانه وزمانه ، وبحيث يتناسق مع غيره من الموجودات القريبة منه والبعيدة عنه فلا يعطل وظيفته أو يعوق سيرها لما خلقت له ، وبحيث يتم بين المخلوقات كلها توازن شامل ينتظم به سير الوجود كله بما في ذلك الإنسان نفسه .

والأمثلة على ذلك كثيرة نعرض هنا لبعض منها :

– **فالماء مثلاً** : باعتباره مكون من مكونات البيئة غير الحية خلقه اللّه بقدر وأنزله بقدر بحيث لا يقل عن حاجة الكائنات الحية فيكون الجدب والقحط والهلاك ، ولا يزيد عنها فيكون الفرق والضرر ، ولا تطغى المحيطات على اليابسة ولا الملح على العذب وإلى هذا يشير القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾ [المؤمنون : ١٨] .

– **والشمس** : باعتبارها أحد مكونات الكون أحسن اللّه خلقها لتؤدي وظيفتها في إمداد الحياة بالطاقة الضوئية والحرارية ، ولكنه خلقها بحيث تجري إلى غايتها في مدار محدود لا تصطدم بكوكب آخر ، ولا تقترب من الأرض قربًا يحرق أحياءها ، ولا تبعد عنها بعدًا يحرمنا الحرارة اللازمة للحياة فيها . وإلى ذلك يشير القرآن الكريم ليبصر الإنسان بهذه الحقيقة في قوله تعالى : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٣٨ – ٤٠] .

وفي هذا الصدد يقول أحد علماء الطبيعة : تدور الكرة الأرضية حول محورها مرة في كل ٢٤ ساعة أو بمعدل نحو ألف ميل في الساعة ، ولو افترضنا أنها تدور بمعدل مائة ميل فقط في الساعة فماذا سيحدث عندئذٍ يكون نهارنا وليلنا أطول مما هو عليه الآن عشر مرات ، وفي هذه الحالة قد تحرق شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار وفي الليل قد يتجمد كل منبت في الأرض [١] (ص ٤١ ، ٤٢) .

* سبحانه خلق فقدر : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] ، ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام : ٩٦] ، وهكذا فإن الإسلام يوجب على الإنسان أن تتناغم حركته في الكون مع قانون التوازن بحيث تؤدي تصرفاته إلى الحفاظ على التوازن البيئي لا الإخلال به .

ب – الالتفات إلى مكونات البيئة : حيث نجد في القرآن الكريم العديد من الآيات التي تلفت نظر الإنسان إلى هذه المكونات حية كانت أو غير حية ؛ فإلى الماء وأهميته كعنصر من عناصر البيئة يشير القرآن الكريم بقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] ، ولقد ورد ذكر الماء في القرآن الكريم ثلاثة وستين موضعًا

(١) يوسف القرضاوي : « وجود اللّه » ، مكتبة وهبة القاهرة ، (١٩٧٩م) .

وقد جاء فيها بمعان مختلفة .

- وإلى الأرض : يلفت نظر الإنسان في عدة مواقع : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ [البقرة: ٢٢] ، وقوله : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: ٥] .

- وإلى الأنواع المختلفة من النباتات يشير القرآن الكريم في العديد من آياته : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤١] .

- وإلى الفضاء الكوني بما يحويه من مكونات وعناصر يشير قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٥ ، ٦] .

- وإلى عالم الحيوان يشير القرآن الكريم بقوله : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الإنعام: ٣٨] .

وغير ذلك كثير من آيات القرآن الكريم التي تلفت نظر الإنسان إلى ما يحيط به من مكونات بيئية وتدعوه إلى إعمال فكره فيها واستثمارها في تحقيق أعباء الخلافة وعمارة الأرض .

٢ - الإيمان بأن أي سلوك يصدر عن الإنسان لابد وأن يكون لصالح البيئة ومدعمًا لها ومضيفًا إليها ، وأن أي سلوك ضار بالبيئة هو سلوك مرفوض إسلاميًّا يستحق به عقاب اللَّه ﷻ يوم القيامة .

٣ - وفي المقابل فإن الإنسان في الإسلام غير مطالب بأن يقف مكتوف الأيدي أمام النظم البيئية ومكوناتها ، وإنما هو مطالب شرعًا بأن يعمل ويتخذ الأسباب في استثمار هذه المكونات لصالح البشرية ومن أجل حياة كريمة لبني البشر على هذا الكوكب .

ثانيًا : الأهداف :

وتتمثل في هدفين أساسيين بينهما ارتباط وثيق وهما :

١ – تحقيق المنفعة الدينية والأخلاقية .

٢ – تحقيق المنفعة الدنيوية .

فالمنفعة الدينية والأخلاقية إنما تحقق بتحقق الغاية التي من أجلها خلق الإنسان في هذا الكون وهي تحقيق مبدأ العبودية لخالق هذا الكون سعيًا لكسب رضوانه وثوابه : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة : ٥] .

وأما المنفعة الدنيوية فهي تحقيق التنمية والتقدم في إطار التصور الإسلامي الذي يعتمد على ركيزتين أساسيتين ينبغي أن يتنبه لهما الإنسان المسلم في سعيه لتحقيق التنمية المرجوة ، وهما :

أ – **الإعداد الذاتي** : ويتجلى في قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ ﴾ [الأنفال : ٦٠] . فالآية تحث على الإعداد بكافة جوانبه ومجالاته اقتصاديًا واجتماعيًا وبيئيًا وسياسيًا ونفسيًا وعسكريًا وأخلاقيًا وعلميًا ، مع التأكيد على الأخذ بأسباب العلم الحديث ، وابتكار الوسائل والأساليب التي تختزل آثارها الضارة بالبيئة [١] (ص ٢٠٢) ، ولا شك أن سلامة البيئة يعد من العناصر الضرورية لتوفير مقومات الحياة المطلوبة شرعًا ، والاهتمام بالبيئة بالوسائل الوقائية والعلاجية يعد خطوة ضرورية في سبيل تحقيق هذا الإعداد .

ب – **التغيير الذاتي** : والذي يتمثل بوضوح في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ [الرعد : ١١] .

والذي يوضح حد التغيير الإيجابي ، وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ [الأنفال : ٥٣] ، على أنه ينبغي أن تلفت النظر إلى أن التغيير المطروح في القرآن الكريم يمتد إلى كافة المساحات، وسائر المكونات النفسية والجسمية والروحية والعقلية والبيئية ، وكل العلاقات الداخلية والخارجة مع الذات أو مع الآخرين أو مع البيئة المحيطة والتي تمكن الإنسان المسلم من مواجهة حركة الحياة (ص ٣٠ ، ٣٠٣) .

ثالثًا : المنهج أو الإجراءات لتحقيق هذه الأهداف :

ويمكن القول أن المنهج الإسلامي في رعاية البيئة والحفاظ عليها يقوم على عدة

(١) أحمد يوسف محمد بشير : « القيم الدينية كمتغير للتخطيط لتنمية المجتمع المحلي » ، (رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الخدمة الاجتماعية ، جامعة حلوان) القاهرة ، (١٩٨٨م) .

مفاهيم أساسية :

١ – مفهوم الاعتدال :

ونعني به الاعتدال والتوسط في تعامل الإنسان مع مكونات البيئة ، فلقد أجمع علماء العالم وفلاسفته على أن الإنسان يعد من أكبر عوامل اضطراب التوازن الطبيعي في هذا الكون ، ذلك التوازن المحكم الذي وهبه اللَّه لكوننا الأرضي الذي شاء سبحانه أن يكون توازنًا مضبوطًا بقوانين وأسس دقيقة فهو القائل : ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾ [الحجر : ١٩] ، إلا أن الإنسان عاقلًا كان أو جاهلًا ، يتدخل في دولاب البيئة بما يفسد عليها نظامها المحكم الدقيق، وهو ينسى أو يتناسى أنه هو نفسه الضحية في نهاية المطاف ، ولقد صور القرآن الكريم هذا الموقف وتنبأ به في قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] .

ومن هنا أمر الإسلام بالتوسط والاعتدال في كل تصرفات الإنسان، بل أن الإسلام هو دين الوسطية والاعتدال ، قال تعالى : ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الأعراف : ٣١] . فالإسلام لا يقر وقوف الإنسان مكتوف الأيدي إزاء النظم البيئية المحيطة به ؛ فإن ذلك يتنافى مع مهمة الخلافة، وكذلك فهو لا يقر استنزاف هذه النظم والجور عليها بما يؤثر على التوازن البيئي ، وإنما على الإنسان أن يتعامل مع هذه النظم بما يمكنه من تطوير حياته ، وأن يضع نصب عينه أن يكون عنصرًا فاعلًا في المحافظة على التوازن البيئي، لا أن يكون مسرفًا يعطي لنفسه كل شهواتها، دون ضابط من عدل أو احترام لحقوق الناس وفق منهج اللَّه .

وهكذا نهى الإسلام عن الإسراف ﴿ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ ﴾ الذي يعني الإفراط ومجاوزة الحد ووضع الشيء في غير موضعه، وسبق أن أوضحنا أن من أخطر نتائج عدم الاعتدال في علاقة الإنسان بالبيئة هو تدمير التوازن البيئي ، ذلك التوازن الذي يعتبر أحد النواميس التي سنها الخالق لاستمرار الوجود واستمرار الحياة على كوكب الأرض ، وأجمعت كل الدراسات التي دارت حول تلوث البيئة أن هناك علاقة وثيقة بين إسراف الإنسان في تناوله المكونات البيئية وبين التلوث، كما أن الإسراف يفضى إلى مشاكل بيئية أخرى متعددة لا يقتصر تأثيرها على الإنسان وحده بل يمتد ليشمل باقي الأحياء التي تشاركنا الحياة على الأرض ، وخير وسيلة لتجنب الآثار البيئية الناجمة عن الإسراف واستنزاف

الموارد الطبيعية دون فائدة أو دون إدراك لخطورة ذلك تكون باتباع النهج السليم الذي سنَّته الشريعة الإسلامية ألا وهو القصد والاعتدال ، والذي أشارت إليه الآية الكريمة : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] . وأشار إليه قول الإمام الشاطبي : (ص ٣٢ ، ٦٥) . « الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل ، الأخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه ، الداخل تحت كسب العبد من غير مشقة ولا انحلال ، بل هو تكليف جارٍ على موازنة تقتضي من جميع المكلفين غاية الاعتدال » .

٢ – مفهوم المسؤولية الجماعية :

بمعنى مسؤولية الجماعة البشرية في الحفاظ على البيئة ؛ ذلك لأن الضرر الناجم عن سوء التعامل مع مكونات البيئة لا يصيب المتسببين في هذا الضرر فحسب ، وإنما يصيب الآخرين الذين تقاعسوا عن القيام بدورهم في المحافظة على البيئة ومنع هذه التصرفات ، ولذلك أوجب الإسلام على أهل الخير أن يمنعوا أهل الفساد عن الإفساد ، ففي الحديث المتفق عليه عن النعمان بن بشير ﷺ عن النبي ﷺ قال : « **مثل القائم على حدود اللَّه (الإنسان المستقيم) والواقع فيها (المنحرف أو الفاسد) كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ؛ فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعًا** » [(١)] (ص ٢٩) .

ولقد روى الإمام مالك في الموطأ عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **لا ضرر ولا ضرار** » ، وقال : « **من ضارَّ لله به** » (ص ٢٨ ، ٣١) .

وهناك قاعدتان يجعلهما كل مسلم أساسًا في الحكم على كل ما يصدر عنه من قول أو فعل : الأولى هي درء المفاسد ... أي دفع الفساد ورده ومنعه حتى لا يقع بالبلاد والعباد فيؤذيهم ، ومنع الشرور والمحافظة على الفرد والمجتمع والبيئة من كل ما يعود عليهم من ضرر حيث لا ضرر بالنفس ولا ضرار بالغير .

أما القاعدة الثانية فهي « جلب المصالح » وبذل كل الجهود ، التي من شأنها أن تحقق منفعة للفرد والمجتمع ، على أن القاعدة الأولى مقدمة على الثانية ، ومن هنا تأتي أهمية

---

(١) وهبة الاصيلي : « حفظ الصحة وسلامة البيئة » ، مجلة الوعي الإسلامي ، تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت ، العدد (٢٧٩) ، نوفمبر ، (١٩٨٧م) .

مسؤولية الإنسان بل والجماعة المسلمة أمام خالقها لا عن الامتناع عن الإضرار بالبيئة والإفساد فيها فحسب ، بل يتعدى الأمر ذلك إلى ضرورة منع الغير من الإضرار والإفساد بالنظم البيئية ، وذلك تحت قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ففي الآية : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

٣ – تقديم الجانب الوقائي على الجانب العلاجي :

اهتم الإسلام بإرساء الأسس والقواعد التي تنظم علاقة الإنسان بالبيئة والتي تجعل منه عضوًا نافعًا لا مفسدًا فيها ، بأن يتفادى كل ما يمكن أن يحدث في البيئة من المشكلات قبل وقوعها ، خاصةً إذا علمنا أن الإنسان في الواقع هو المشكلة الرئيسية للبيئة كما يقرر علماء البيئة ، وأن المشكلة البيئية هي مشكلة سلوكية في المقام الأول ، ومن هنا اهتم الإسلام بضبط سلوك الإنسان وتصرفاته إزاء مكونات البيئة وعناصرها بما يجنبه الوقوع في المشكلات التي يمكن أن تترتب على سوء تصرفه فيها .

ويمكن أن نذكر هنا بعض الأمثلة في هذا الصدد :

أ – **في مجال الاهتمام بالنظافة العامة والصحة** : هناك العديد من التعاليم الدينية التي تنظم هذا الأمر ، فلقد نهى الإسلام عن قضاء الحاجة في الطريق العام ، أو حتى في الظل الذي به يستظلون وكذلك شواطئ الترع والأنهار والقنوات ، ففي الحديث : « **اتقوا الملاعن الثلاث : البراز في الموارد وقارعة الطريق والظل** » [(١)] ، وقد أُطلق الحديث على هذه السلوكيات « ملاعن » ؛ لأنها تسبب لعن الناس لمن يفعلها ، وقد ثبت أن هذه الأعمال والتصرفات تسبب الأمراض الوبائية والمتوطنة وتساعد على انتشارها .

كما حث الإسلام على النظافة وأكد على أن « الطهور شطر الإيمان » ، وفي القرآن : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر : ٤] ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، ونهى الرسول ﷺ عن التبول في الماء سواء كان راكدًا أو جاريًا [(٢)] (ص ٢٤) .

---

(١) محمد عبد القادر الفقي : « الإسراف وتأثيره على البيئة واستنزاف مواردها » ، مجلة منار الإسلام ، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف بدولة الإمارات العربية المتحدة ، أبو ظبي ، العدد (٨) السنة (١٨) مارس ، (١٩٨٩م) .

(٢) رواه أبو داود وأحمد ومسلم ، انظر : السيد سابق « فقه السنة » العبادات ، المجلد الأول ، دار التراث العربي ، بدون تاريخ (ص ٢٤) .

ولقد أمر الإسلام في الوضوء للصلوات الخمس بغسل الوجه والأيدي والأرجل ومسح الرأس والأذن ، كما طلب منا السواك والمضمضة والاستنشاق ؛ حفظًا للفم والأنف والأسنان ، ففي الحديث : « **لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة** » (رواه الشيخان) ، كذلك أمر الإسلام بغسل اليدين قبل وبعد تناول الطعام ، ففي الحديث : « **بركة الطعام الوضوء قبله وبعده** » (رواه أحمد والترمذي) .

وأمر بنظافة البيوت والشوارع ، وأوصى بالامتناع عن إلقاء القاذورات في الشوارع والطرقات ، ففي الحديث : « **نظِّفوا بيوتكم ولا تشبهوا باليهود التي تجمع الأكباء في دورها** » (رواه مسلم والترمذي) والأكباء أي القاذورات ، ويأمرنا بنظافة الشوارع ، وإماطة الأذى عن طريق الناس ، ففي الحديث : « **من سمَّى اللَّه ورفع حجرًا أو عظمًا أو شجرًا من طريق الناس مشى وقد زحزح نفسه عن النار** » (رواه مسلم والنسائي) .

ويقول أيضًا : « **من آذى المسلمين في طريقهم وجبت عليه لعنتهم** » (رواه مسلم) وغير ذلك من التعاليم والتوجيهات الإسلامية ، ويكفي أن نعلم أنه ورد في القرآن الكريم ألفاظ التطهر والتطهير والطهارة في أكثر من ثلاثين آية ؛ لإيجاب طهارة النفس المؤمنة والبيئة الإنسانية في الظاهر والباطن .

ب – وفي مجال إنتاج الغذاء والوقاية من المجاعات ونقص الغذاء : وهو من المشكلات البيئية ، فإن الإسلام أعلى شأن الزراعة وجعلها من أصول المكاسب ، ففي الحديث : « **ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا ، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة** » (رواه البخاري) ، وهو حديث يدعو صراحة إلى الاهتمام بالزراعة ويبين الغاية منها بالنفع للإنسان والحيوان ويرغب فيها .

كما نهى الإسلام عن ترك الأرض بغير زراعة وتبويرها ، ففي الحديث : « **من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه ، فإن أبى فليمسك أرضه** » وفي الحديث أيضًا : « **من أعمر أرضًا ليست لأحد فهو بها أحق** » (رواه البخاري) ، وشجع الإسلام على استصلاح الأرض وكذلك جاء في الحديث : « **من أحيا أرضًا مواتًا فهي له** » .

وأكثر من هذا بلغت عناية الإسلام بالزراعة والغرس وتعمير الأرض ، أن ينبهنا إلى ذلك حتى ولو بدت علامات القيامة ، ففي الحديث : « **إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فَسيلة ، فاستطاع ألا تَقوم حتى يغرسها فليغرسها** » ، والأحاديث في شأن رعاية النبات الأخضر والإبقاء على الأشجار والعناية بالنخيل عديدة ويضيق المقام عن سردها وتقصيها .

جـ – في مجال المحافظة على مكونات البيئة وعناصرها : فقد عني الإسلام بذلك عناية بالغة ، فلقد أمر بالرحمة والإشفاق على الحيوانات باعتبارها أحد العناصر الحية في البيئة ، ففي الحديث : بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرًا فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني فنزل البئر، فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفمه ، حتى رقى فسقي الكلب فشكر اللَّه له ، قالوا : يا رسول اللَّه ، وإن لنا في البهائم لأجرًا قال : « **في كل كبد رطبة أجر** » وسمي الحيوان كبدًا رطبة ، إشارة إلى جسده كله ، فهو رطب ما دام حيًّا ، فإذا مات جف .

وهكذا كلما أمعنت النظر في نصوص الشريعة الإسلامية رأينا كيف ينهي الإسلام الإنسان عن العبث بالبيئة المحيطة به أو إفسادها ، وكيف يحثه على المحافظة على مكوناتها ، بل ينهى عن الإفساد في البيئة ، حتى في أشد الحالات وأحلك اللحظات خلال المعارك والجهاد ضد الأعداء ، فيقول الرسول ﷺ آمرًا جنده والمجاهدين معه : « **لا تقتلوا امرأةً ولا وليدًا ولا شيخًا ولا تحرقوا نخيلاً ولا زرعًا** » . (رواه أحمد) ، وفي وصية أبي بكر الصديق لأسامة بن زيد حين وجَّهه إلى الشام يقول :

« لا تخونوا ولا تغدروا ولا تقتلوا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً ، ولا شيخًا كبيرًا ، ولا امرأةً ، ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً ، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيرًا إلا للأكل ، وإذا مررتم بقوم فرغوا لأنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم من أجله . (٢/٢٢٣ ، ٢٢٤) .

إنها لوصية فذَّة تحمل كل معاني القيم التي أراد أبو بكر الصديق من أسامة بن زيد وصحبه الالتزام بها وأنها في فقرة منه : « لا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيرًا إلا للأكل » – تنم عن وعي بيئي عميق ، وهي في ذلك بمثابة درس في التربية البيئية جاء في زمن لم تكن البيئة تشكو من تدخل الإنسان الجائر في أنظمتها ، إنه درس يجب أن يبقى في ذهن وفكر كل من يخطط لبرامج التربية البيئية على أي مستوى .

كما أن دائرة الرحمة شملت أيضًا المحافظة على ما خلق اللَّه من جمال في المخلوقات كالحيوانات ، فلقد نهى الرسول ﷺ عن وشم الحيوان أو قطع بعض أجزائه ، فإذا به يرى حمارًا ذات يوم وقد وُشِمَ وجهه ، فقال : « **لعن اللَّه من وشمه** » (رواه مسلم) .

إن الإسلام حين ينهى عن العبث بجماليات الحياة ووفق البيئة ، فإنه يفرض بذلك قاعدة

جلية تُستمد منها التشريعات والقوانين ، ألا وهي الدعوة للعناية بالمخلوقات وكافة الموجودات التي خلقها اللَّه في البيئة ، خاصة إذا كانت لا تؤدي إلى إيذاء الإنسان وإيقاع الضرر به ، ثم تعويد الإنسان لأن يكون عنصر خير ، وعاملًا أصلح في بيئته المحيطة به ، وتعميقًا لهذه القاعدة الجليلة يلفت الرسول نظرنا بقوله : « **عُذِّبت امرأة في هرة لم تطعمها ولم تسقها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض** » . (رواه مسلم) .

وهكذا نهى الإسلام عن الإفساد في البيئة ويحض على المحافظة على عناصرها ومكوناتها ، وبالنظر إلى البيئة على أنها نعمة اللَّه للإنسان ، وعليه أن يحصل على رزقه ويمارس علاقاته دون إتلاف أو إفساد مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ [البقرة : ٦٠] .

وما التلوث الذي نراه ونلمسه ونعيشه في مكونات البيئة ماءً كانت أم هواءً أم تربةً إلا مظهرًا من مظاهر الإفساد في الأرض الذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴾ [البقرة : ٢٠٤ ، ٢٠٥] .

خاتمة

وهكذا حاولنا في الصفحات السابقة أن نلقي الأضواء على كيفية معالجة الإسلام وتنظيمه لعلاقة الإنسان بالبيئة على اعتبار أنها الوسط أو الإطار الذي يعيش فيه الفرد (الإنسان) ليستمد منه مقومات حياته ويمارس فيه علاقاته ، ورأينا كيف أن الإنسان من المنظور الإسلامي إنما خلق لمهمة وغاية أما المهمة فهي خلافة اللَّه في أرضه ، والخليفة مؤتمن على ما استخلف فيه ، والغاية هي تحقق العبودية لله تعالى ، بما يعنيه ذلك من الالتزام بالمنهج الذي وضعه الخالق للإنسان في هذه الحياة .

وفي ضوء هذه المهمة والغاية .. تأتي علاقة الإنسان بالبيئة والنظم البيئية التي تمثل مكونات هذا الكون بما فيها من عناصر حية أو غير حية ، وتبين لنا أن الإنسان يأتي على رأس قائمة هذه المكونات ؛ فهو الكائن المسيطر والمتحكم والمؤثر في بقية المكونات ، ومن هنا كانت خطورة وضع الإنسان في البيئة إلى الدرجة التي أصبح علماء البيئة والمهتمين بقضاياها يطلقون على الإنسان أنه (مشكلة البيئة) ، ومن هنا أيضا تأتي أهمية التعرف على منهج الإسلام في رعاية البيئة وضبط تصرفات الإنسان وفقًا

لمقتضيات المنهج الإلهي الذي يشكل قوامه القرآن الكريم والسنة المشرفة .

وإذا كان العلماء والمفكرون والعاملون في شؤون البيئة يختلفون فيما بينهم فيما يتعلق بالإجراءات التي ينبغي اتخاذها لحماية البيئة ورعايتها والمحافظة عليها ، فهناك من يرى حماية البيئة عن طريق تكنولوجيات جديدة .

وآخرون يركزون على التنظيمات التشريعية والقوانين الصارمة ، وهناك من يؤكد على تعديل أنظمة الإدارة البيئية وزيادة الاعتمادات المالية اللازمة لإحداث الإصلاحات المناسبة في البيئة ، وبناء أنماط بديلة من التنمية تعتبر حماية البيئة ورعايتها بُعدًا أساسيًّا من أبعادها ، إلا أن الجميع يتفقون على أن الاهتمام ببرامج التربية البيئية يعد حجر الزاوية في هذا المجال . ومن هنا تأتي أهمية دراسة المنهج الإسلامي في رعاية البيئة على اعتبار أن ذلك يشكل جانبًا أساسيًّا في برامج التربية البيئية ينبغي التركيز عليه جنبًا إلى جنب مع المحتويات الأخرى لهذه البرامج .

* * *

obeikandl.com

الخدمة الاجتماعية في مجال الدعوة الإسلامية

أ.د. محمد أحمد عبد الهادي

تلعب المهن دورًا مهمًّا في حياة المجتمعات الحديثة ، وعلى قدر ما تؤديه المهنة من أدوار ووظائف في المجتمع على قدر ما تكون مكانتها ومكانة العاملين بها ، ولا يقتصر الأمر على المهن التي تتعامل مع أشياء مادية محسوسة ، كالهندسة والطب والتجارة وغيرها ، بل يمتد ذلك إلى مهن جديدة أصبحت المجتمعات الحديثة لا تستغني عنها كالتربية ، والخدمة الاجتماعية ، ومهنة الخدمة الاجتماعية تستمد وجودها واستمرارها في أي مجتمع من تبنيها للقضايا والمشكلات الاجتماعية التي تهم المجتمع ، ولم تعد أدوار الخدمة الاجتماعية قاصرةً على المجالات التقليدية على الرغم من أهميتها كرعاية الأحداث والمعوقين والمسنين ، بل بدأت تهتم بمجالات السياسة وحماية البيئة ، كما أنها تهتم بما يمكن أن يؤثِّر على مستقبل عملها المهني في المجتمع ، حيث تناول بعض الكتابات الآن تلك العوامل التي ستشكل مستقبل مهنة الخدمة الاجتماعية بتحديدها بثلاثة عوامل هي : الدين والسياسة والاقتصاد ، وإن غياب المهنة عن فهم تلك العوامل والتعامل معها سيؤثر بشكل واضح على دور المهنة في المجتمع .

ولقد شكل الدين أحد الدعامات الرئيسية التي قامت عليها مهنة الخدمة الاجتماعية في الخارج ، وما زال يؤثر ويتأثر بممارسة الخدمة الاجتماعية هناك ، وسيمتد في المستقبل بشكل أكثر وضوحًا على الممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية ، ولذلك فليس غريبًا علينا أن تهتم دراسات الخدمة الاجتماعية بالدين الإسلامي وتعمل على الاستفادة منه وإفادة المجتمع الإسلامي بما يمكن أن تقدمه ؛ مساهمة منها في حل مشكلاته وإشباع احتياجاته .

ويمكن القول بشيء كبير من الثقة بأن جذور الخدمة الاجتماعية لن تضرب في المجتمعات العربية والإسلامية طالما أنها بعيدة عن الدين الإسلامي ، ولن ترتفع مكانتها وتحل كثيرًا من مشكلاتها المهنية التي تعوق العمل المهني ذاته فكرًا وعملاً إلا بالارتباط بالإسلام ، فإذا كانت الخدمة الاجتماعية في الغرب تهتم بالدين والسياسة والاقتصاد ، فإن الاهتمام بالإسلام يكفي ؛ لأن فيه الاقتصاد والسياسة والعلاقات الاجتماعية التي ينظمها ويضع ضوابطها الإسلام الدين الشامل والكامل .

وإذا كانت الدعوة إلى الإسلام مسؤولية كل مسلم ؛ فإن المسؤولية تتضاعف أمام

المهنيين بصفة خاصة ؛ نظرًا للدور المنوط بهم وللمكانة الاجتماعية التي يحظون بها على اختلاف مستوياتهم ، ومهنة الخدمة الاجتماعية كإحدى المهن الموجودة على الساحة في المجتمع المصري الآن يمكن أن تكون لها مساهماتها الإيجابية في مجال الدعوة الإسلامية ، وهذا هو هدف هذه الدراسة الذي يتبلور في الدور الذي يمكن أن تقوم به الخدمة الاجتماعية في مساعدة الدعوة الإسلامية ، وستتناول في هذه الدراسة موقف مهنة الخدمة الاجتماعية من الدين ، كما هو موجود في أدبيات المهنة ، ثم نعرض لطبيعة العمل الاجتماعي المسيحي في مصر ؛ نظرًا لأننا نراه أكثر اهتمامًا وقربًا واستفادةً من مهنة الخدمة الاجتماعية في ذلك ، والمهارات التي يمكن أن تفيد الداعية وجهاز الدعوة الإسلامية .

أولًا : الخدمة الاجتماعية والدين

لم يعد هناك خلاف على أن الخدمة الاجتماعية قد تأثرت بالدين منذ نشأتها الأولى ، كما أن هناك الكثير من الكتَّاب المعاصرين الذين كتبوا عن دور الدين في الخدمة الاجتماعية بشكل غير مباشر مثل توي Towe (١٩٦٥م) ، بيرلمان Perlman (١٩٥٧ – ١٩٧٩م) ، فريد لاندر Friedlander (١٩٥٨م) ، وهناك من ربط بين دور الدين في الخدمة الاجتماعية بشكل مباشر وفعال على المستوى النظري والتطبيقي ، منهم : سبنسر Spencer (١٩٥٦م) ، كينيث لوكاس Kennth Lucas (١٩٦٠م) ، وسالمون Salomon (١٩٦٧م) ، وكوهين Coughlin (١٩٧٠م) .

وتشير م . فنسيا جوزيف M. Vincentie Joseph [١] ، إلى أن الدوريات الرئيسية في الخدمة الاجتماعية والتي تناولت الدين والخدمة الاجتماعية ، والتي ترى بضرورة عزل الدين عن الخدمة الاجتماعية كانت قليلة ، بينما هناك العديد من المقالات التي تناولت دور الكنيسة في الخدمات الاجتماعية – علاقة الكنيسة بالولاية – متطلبات التمويل ودور المؤسسات الدينية – برامج الإبراشية على مستوى المجتمع المحلي : شيرارد Sherrad ، موراي Murray ، وكوهين Coughlin (١٩٦٥م) ، وست هوز Westhues (١٩٧١م) ، وتيكر Teicher (١٩٧٢م) ، وجوزيف Joseph ، وكونراد Conrad (١٩٨٠م) ، ونتنج Netting (١٩٨٢م) ، وكان هناك مقالات تركز على الجذور الرئيسية للخدمة الاجتماعية والتوافق بين الدين والخدمة الاجتماعية (سبنسر spencer

(١) M.Vencentia Joseph: The Religious and Sipirtnal Aspects of Clinical Practice: A Neglected Dimension of Social Work Social Thought, Wenner . 1987 , pp. 12 - 23.

(١٩٥٧م) ، ستروب Stroup (١٩٦٢م) ، ولقد تعاملت بعض الكتب مع هذه النقطة (كيث لوكاس Keith Lucas (١٩٦٢م) ، ونيبر Niebuhr (١٩٣٢م) .

وإذا كان الدين يمثل حجر الزاوية بالنسبة للخدمة الاجتماعية مؤثرًا في قيم ومبادئ المهنة بالنسبة لماضي المهنة وتاريخ نشأتها ، فإن حاضر المهنة يظهر سيدة الاتجاهات الدينية المسيحية واليهودية على الكثير من الأنشطة والممارسات ، بل على الكثير من مدارس وكليات الخدمة الاجتماعية الأمريكية كمدارس الخدمة الاجتماعية الكاثوليكية والبروتستانتينية واليهودية [١] .

ولقد لعبت المنظمات الدينية (المسيحية) دورًا رئيسيًّا في نشأة الخدمة الاجتماعية في دول العالم الثالث أيضًا حيث كانت نشأة مدرسة الخدمة الاجتماعية في جامعة نيودلهي بالهند عن طريق جمعية الشابَّات المسيحيَّات ..... وأنشئت مدرسة الخدمة الاجتماعية في زيمبابوي Zembabwe في إفريقيا عن طريق الجزويت ، كما أنشئت العديد من مدارس الخدمة الاجتماعية في دول أمريكا اللاتينية عن طريق الجامعات الكاثوليكية [٢] .

وهناك من يرى بأن مستقبل الخدمة الاجتماعية مرهون بثلاث قوى حاسمة ومؤثرة وهي : الدين والسياسة والاقتصاد ، وأن على الخدمة الاجتماعية أن تعد نفسها لمواجهة ما قد تحدثه تلك القوى في المجتمع [٣] .

ومن حيث مستقبل العلاقة بين الخدمة الاجتماعية والدين فإن الأمر لم يعد يقف عند حدود المشاركة المهنية التي يتيحها خريجوا مدارس الخدمة الاجتماعية الكاثوليكية والبروتستانتينية واليهودية أو ذات الاتجاه غير المعلن الذي تمتلكه كليات ومدارس الخدمة الاجتماعية التي ترجع أصول نشأتها إلى الكنيسة ، كما في الهند وإفريقيا وأمريكا اللاتينية ، بل تعدى هذه الدور ليشمل الحركة في المجتمع المسيحي كلِّه أو دفعه إلى المسيحية .

ولقد كان أحد التغيرات الرئيسية التي ظهرت حديثًا في النسق الديني الأمريكي وفي إنجلترا ، والذي يجب أن يؤخذ في الاعتبار عند ممارسة الخدمة الاجتماعية ، هو ذلك

---

(١) انظر للبحث ، الخدمة الاجتماعية الإسلامية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، (١٩٨٨م) ، الفصل الأول ، (ص ٩ - ٤٤) .

(٢) See; Midgleym, J.Professional Imperialism: Social Work in The Third World (London: Heinemon) 1981.

(٣) Betty J.Peccard: An Introduction to Social Work (the Dorsey Press Hoolwood, lllinois) 3ed . 1983 . P158 .

التحول الذي طرأ على وظيفة المنظمات الاجتماعية في المجتمع ، حيث أدركت بأن لها وظائف أخرى في تلك التي كانت تؤديها ، فمعظم الكنائس قد توسعت في أنشطتها لتشمل ممارسات ذات توجه اشتراكي ، وبدأت في الاهتمام بالرعاية الاجتماعية والعمل مع المجتمع ، وأدركت معظم الكنائس مسؤوليتها في أن يكون لها نشاط دائم ومستمر وفعال مع الناس في حياتهم اليومية ، ولم يقتصر نشاط الكنيسة على ما كانت تقوم به أيام الأحد ، ولقد بدأ يتنامى ظهور الطبقة المتوسطة واهتمامها بقضايا العمل المجتمعي من خلال الكنيسة وعلى نطاق المجتمع ككل ، وبحيث لا يقتصر على الواجبات التي كان يقوم بها الكاهن في حدود إبرشيته ، ولقد شجع هذا الاتجاه رجل الدين المسيحي للسير في هذا الاتجاه ، ولقد كان أحد الدوافع المشجعة لهم أيضًا تلك القضايا الساخنة التي طرحت في المجتمع الأمريكي خلال الستينات فيما يتصل بحركة الفقراء والتفرقة العنصرية ، مما حفز الكنيسة على أن يكون لها دور اجتماعي وسياسي في المجتمع .

على أن هناك اتجاهات تعارض ربط الدين بالخدمة الاجتماعية في الممارسات المهنية (١) . ويبدي أصحاب هذا الاتجاه تخوفهم الشديد من سيطرة الاتجاه الأصولي (*) Fundamentalism على الخدمة الاجتماعية ؛ ذلك لأن رجال الدين يرون بأنهم أقدر على إصلاح الفرد وحل مشاكله من أي مهني آخر ، كما أنهم رجال الدين (الأصوليون) يرفضون القاعدة العلمية التي تستند إليها الخدمة الاجتماعية في ممارساتها ، والتي تكونت عن طريق الممارسة المهنية الطويلة إضافة إلى الاستفادة من التطور الذي حدث في علم النفس وفي علم الاجتماع والإحصاء وغيرها من العلوم الإنسانية .

ويبدو أن هذا التخوف له ما يبرره بالنسبة « للأصولية المسيحية » أو ما تسمى « بالعصمة » ؛ ذلك لوجود التعارض الواضح والتناقض البيِّن بين الجوانب الدينية والجوانب العلمية ، وكما هو معروف تاريخيًّا فإن الكنيسة كانت تحارب أصحاب النظريات العلمية وتقوم بإعدامهم أو سجنهم ؛ لأنهم نادوا بنظريات علمية تخالف تعاليم الكنيسة بينما الإسلام لا يتعارض مع العلم ، بل هو يشجع عليه ويحث المسلمين

(١) Jemes Midgley and Pual Saazenbach: Social Work Religion and the Global Challenge of Fundamentalism : International Social Work (SAGE, London, New Bury Park and New Delhi) Vol ,32 (1989) , PP 273 - 287 .

(*) الأصولية fundamentalism هي حركة عرفتها البروتستانتينية في القرن العشرين تؤكد على أن الكتاب المقدس معصوم من الخطأ لا في قضايا العقيدة والأخلاق فحسب ، بل أيضًا في كل ما يتعلق بالتاريخ ومسائل الغيب كقصة الخلق وولادة المسيح بن مريم ، ويلاحظ أن هذا الوصف « الأصولية » يطلقه الغرب على الحركات الإسلامية التي تريد تطبيق الشريعة الإسلامية ، ويلاحظ هنا الخلط بين المفهومين رغم تبينهما .

جميعًا عليه ويعتبره فريضة على كل مسلم ومسلمة ، ولقد أجرى موريس بوكاي (**) دراسة امتدت لأكثر من ثلاثين عامًا تَعلَّم خلالها اللغة العربية لتمكنه هذه الدراسة من المقارنة بين الكتب السماوية الثلاثة التوراة والإنجيل والقرآن ؛ ليعرف مدى اتفاق أو تعارض تلك الكتب مع الحقائق التي كشف عنها العلم حديثًا ، وتوصل من خلال هذه الدراسة – وهو مسيحي – إلى أن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي لا يوجد فيه حقيقة واحدة تختلف مع ما وصل إليه العلم الحديث من اكتشافات ونظريات على الرغم من كثرة الحقائق العلمية التي أشار إليها على عكس التوراة والإنجيل ؛ إذ وجد فيها الكثير مما يتناقض مع العلم الحديث (١) .

ولقد أصبح لزامًا علينا في أي مجتمع إسلامي أن نفكر ونعمل في اتجاه ربط الخدمة الاجتماعية تأصيلًا إسلاميًّا بالثورة المتكاملة التي يطمح فيها رواد هذا الاتجاه ، بل نستخدم الأساليب العلمية والمهارات الفنية المتاحة حاليًّا لخدمة قضايا المجتمع الإسلامي ، مع تجنب بعض مزالق التطبيق التي تطبق في المجتمعات الغربية والتي تتعارض مع قيم الإسلام ومبادئه ، ومما يسهل لنا هذا السبيل أن الخدمة الاجتماعية مهنة بالعقيدة ، وأن الدين بصفة عامة كان من ركائزها الأساسية ، وأن القيم الرئيسية بها لا تتناقض مع القيم الإسلامية ، بل إن سلامة التطبيق في المجتمع الإسلامي سيدفع بهذه المهنة قدمًا إلى الأمام وسيزيد من رصيدها المعرفي والقيمي ، كما أن مشكلات العالم الإسلامي لا يمكن لها أن تنتظر طويلًا حتى نفرغ من التأصيل الإسلامي بشكل كامل .

ولعل هذا الاتجاه الذي يتبناه الكاتب هو الذي دفعه إلى أن يتصور بأن الخدمة الاجتماعية يمكن أن يكون لها دور واضح ومؤثر في مجال الدعوة الإسلامية ، والتي تقوم على أسس اجتماعية صحيحة لا تكتفي فيها بالوعظ والإرشاد بالرغم من أهميته

(**) موريس بوكاي طبيب مسيحي فرنسي اهتم في بدء حياته بالدراسة المقارنة للأديان ، ودفعه تخصصه العلمي ؛ كطبيب إلى بحث المسائل العلمية ليتحقق عن طريقها من صدق الكتب الدينية المقدمة ؛ لانه من غير المنطقي أن يكون كلام اللَّه متعارضًا ومتناقضًا مع ما خلق .

(١) انظر موريس بوكاي : التوراة والإنجيل والعلم ، ترجمة حسن خالد ، المكتب الإسلامي بيروت (ط ٢) ، (١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧م) .

– مناظرة الإسلام والنصرانية – مناقشة مجموعة من رجال الفكر من الديانة الإسلامية والنصرانية ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض المملكة العربية السعودية ، (١٤٠٧هـ) .

محمد أبو زهرة : محاضرات في النصرانية ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، (١٤٠٤هـ) .

– يوسف القرضاوي ؛ الرسول والعلم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، (١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م) .

بل تتعدى الدعوة ذلك بأن تشاهد الخدمة الاجتماعية لداعية في دراسة المجتمع دراسة علمية لمعرفة ظروفه ومشكلاته وتيسر له اكتساب بعض المهارات التي تفيده في التعامل مع المجتمع بطريقة صحيحة لتحقيق أهداف الدعوة الإسلامية .

ولقد سبقنا إلى ذلك في الوقت الحاضر أصحاب الديانة المسيحية في مجال الدعوة لدينهم ، ويمكن للداعية المسلم أن يستفيد من أساليبهم خاصة في ربطهم العمل الديني بمحورين أساسيين هما : العمل الاجتماعي ؛ والعمل السياسي ، واهتمامهم بمجالات التعليم والتثقيف إضافة إلى مجال تدريب القيادات التي تتحمل مسؤولية الدعوة على المستوى الفردي أو الجماعي .

ثانيًا : الدعوة الإسلامية والمسؤولية المهنية للخدمة الاجتماعية

إن مسؤولية الدعوة إلى اللَّه مسؤولية كل مسلم بصفة عامة والرسول ﷺ يقول : « **بلغوا عني ولو آية** » وهي رسالة موجهة إلى كل المسلمين ، ولكن تلك المسؤولية لا تتساوى بين الناس بل تتفاوت بحسب إمكانات وقدرات كل منهم ، ولقد أدت ظروف التطور الاجتماعي وتعقد النظم والعلاقات إلى ضرورة أن يتخصص بعض المسلمين في هذا الاتجاه على أن تتوفر فيهم مقومات معينة ، ويكون لديهم علم كافٍ بالفقه في أمور الدين وأحكامه ، وبالوسائل التي تساعدهم على نشرها بين المسلمين وتوعيتهم بذلك ، إلا أن الملاحظ لأسلوب الدعوة يجدها قاصرة بصفة عامة على المسلمين ، ودعوة المسلم للعمل بالإسلام تختلف عن دعوة غير المسلم ، كما أن الكثير من الدعاة يعتمدون على أسلوب واحد وهو الخطابة كوسيلة لنقل تعاليم الدين إلى الناس تمكنهم من ذلك خطبة الجمعة ، وعلى الرغم من أهمية هذه الوسيلة وعمومها بالنسبة لكل الدعاة والمسلمين إلا أن النجاح فيها مرهون بتوافر مقومات ومواهب خاصة ، إذا توفرت لدى الداعية كانت هي الأساس في نجاح دعوته وإقبال الناس عليه .

ويتفاوت الدعاة في ذلك تفاوتًا كبيرًا ، واكتفاء الدعاة بالخطابة كوسيلة وحيدة للدعوة يفرغ الدعوة من مضمونها ويجعلها مجرد خطبة تلقى في وقت محدد ينتهي أثرها – مهما كانت بليغة – بانتهاء الموقف ، وينصرف الناس إلى شؤونهم ومشاغلهم ، وربما يشغل البعض شيئًا مما قيل ، ولكن يظل الأمر على ما هو عليه من اهتمام بالشكل من جانب الناس أكثر من اهتمامهم بالجوهر أو بطريقة تعديل السلوك وكيفيتها .

ونحن نحاول هنا أن نتعرف على المقومات الأساسية التي يجب أن تتوفر لدى الداعية بحيث تعينه على أداء واجبه بشكل أفضل ، وتستطيع الخدمة الاجتماعية كمهنة

أن تساهم في ذلك بطريقة مباشرة وغير مباشرة .

وإذا كنا نعرف أن مسؤولية الدعوة هي مسؤولية كل مسلم فإن المسؤولية تزداد بازدياد درجة التعليم وارتفاع المكانة الاجتماعية للمسلم بين قومه ، ولذلك فيجب ألا يَكِل المهنيون ذلك الأمر إلى الدعاة الموظفين ويقتصر أداؤهم لعملهم المهني فقط ، فربما يكون تأثير الطبيب أو المهندس المسلم أكبر على المسلمين الذين يتعاملون معه بل قد يمتد إلى دعوة غير المسلم إلى الإسلام . ويستطيع كل مهني أن يدعو إلى الإسلام حسب جهده وطاقته مباشرة وغير مباشرة شرط أن يكون حريصًا في سلوكه على القواعد والأصول الإسلامية ، فإن تصرفه كمسلم حقيقي يراعي اللَّه في عمله ويحرص على ما ينفع الناس ولا يكذب أو يغش ويحرص على تأدية الشعائر في أوقاتها ويستهل عمله باسم اللَّه ، كان ذلك خطوة أساسية وضرورية لإقناع الناس ودعوتهم ، بعد ذلك يعمل المهني عقله في كيفية توضيح الإسلام لمن يتعامل معهم ويكون ذلك حسب مقتضيات الموقف ، وليس معنى ذلك أن يترك الطبيب عمله ويدعو الناس للإسلام ، ومعروف سبقًا أن الدراسة في كلية الطب لا تحقق التخصص في هذا المجال ، وإذا توفر ذلك لبعض الأشخاص بحكم سعة اطلاعهم واستعدادهم الشخصي ، لذلك فإنه يمكن أن يؤدي دوره كطبيب ناجح وداعية ناجح ولكن ذلك لا يكون إلا استثناء .

وإذا أعمل المهني تفكيره في هذا الاتجاه يستطيع أن يصل إلى ما لا يصل إليه غيره ، يستوي في ذلك كافة التخصصات المهنية من طبيب إلى مهندس أو مدرس أو أخصائي اجتماعي كل حسب طاقته وجهده وإمكاناته أي حسب ما هو ميسر له ، كما يقول الرسول ﷺ : « **اعملوا فكلٌّ ميسرٌ لما خُلق له** » (الحديث) والأخصائي الاجتماعي إذا كان إعداده العلمي والديني يسمح له بالعمل كداعية فإن ذلك من أنجح مجالات العمل بالنسبة إليه ، وأما إذا كان لا يملك تجاه هذا المجال إلا الاتجاه والنية فقط فإن هذا يكفي لأن يطرق هذا المجال ولكن من زوايا متعددة وتحت هدف مهني واضح هو مساعدة الدعوة الإسلامية على تحقيق أهدافها كمجال جديد من مجالات العمل الاجتماعي المهني للخدمة الاجتماعية .

دور الخدمة الاجتماعية في مجال الدعوة الإسلامية :

أ – في دراسة المجتمع والتعرف عليه :

يمكن للأخصائي الاجتماعي أن يقدم خدماته المهنية بشكل مباشر للجهاز القائم

بعملية الدعوة الإسلامية أو للداعية ، وذلك بحكم تخصصه المهني في مجال الخدمة الاجتماعية والتي تقوم على الدراسة العملية للظواهر والمشكلات الاجتماعية بغرض المساعدة في حلها ، والداعية الذي يعمل مع المجتمع الإسلامي أو غيره يحتاج إلى فهم ودراسة هذا المجتمع دراسة علمية قليلة ليحدد كيف سيتحرك معه والأسلوب المناسب له ، والأخصائي الاجتماعي قد يقوم هو بهذه الدراسة والتحلل ويعاون الداعية على فهمها والاستفادة منها ، وقد يعطي خبراته المهنية هذه للدعاة ويدربهم عليها ليقوموا هم بها عند الضرورة وعند عدم توافر أخصائي اجتماعي يعمل معهم ، إضافة إلى القيام بتدريبهم على بعض المهارات في العمل الدعوي .

ودراسة المجتمع سواء قام بها الأخصائي الاجتماعي أو الداعية بعد تدريبه ، تهدف إلى التعرف على طبيعة المجتمع الذي سيعمل معه الداعية ؛ هل هو مجتمع ريفي أو حضري ، أو يجمع بينهما ، وطبيعة العلاقات الاجتماعية القائمة ، والقوى الاجتماعية المسيطرة ، وعادات المجتمع وتقاليده واتجاهاته السياسية ، والنظم الاقتصادية السائدة فيه ، والمنظمات الاجتماعية والرسمية الموجودة ، والخدمات القائمة ، وطبيعتها أهلية أو حكومية ، والحالة التعليمية ، وحجم القوى الاجتماعية ، كالشباب ودورهم ، ومنظماتهم ، واهتماماتهم ، ومشكلاتهم ، والقوى الاجتماعية ذات النفوذ واهتماماتهم وعلاقاتهم ، وأساليب عملهم العلني والمستتر ، وطبيعة بناء القوى الموجود في المجتمع ، ومراكز الثقل المؤثرة في الحياة الاجتماعية بصفة عامة ، وتحديد أوزان بالنسبة لحجم ودور وتأثير كل قوة من هذه القوى .

والجانب الآخر الذي تهتم به في دراسة المجتمع دراسة علمية هو مشكلات المجتمع الذي يعمل فيه الداعية ، ومعرفة طبيعتها هل هي مشكلات اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية ، ومدى أهمية كل مشكلة بالنسبة لغيرها ، وعدد الذين يتأثرون بهذه المشكلات والجهود التي بذلت لحلها ، والقوى التي شاركت في الحل ونتائجه ، وأسباب الفشل في علاجها ، ومعرفة أهم تلك المشكلات ، وترتيب المشكلات حسب أهميتها وخطورتها وحجمها ، والإمكانات اللازمة لها ، والإمكانات المتاحة ، والتي يمكن إتاحتها ، ومصدرها .

إضافة إلى ذلك يجب معرفة إمكانات المجتمع الذاتية المتاحة سواء قوى بشرية أو مادية اقتصادية أو أجهزة ، وخدمات قائمة ومدى فاعلية كل من هذه النظم ، ومعرفة معوقات تلك الأجهزة ، وكيفية تطوير أدائها والاستفادة منها ، وأثر ذلك على تنمية المجتمع والنهوض به ، ومن الإمكانات البشرية التي يجب معرفتها ومعرفة إمكاناتها هي قيادات

العمل الاجتماعي والسياسي في المجتمع الذين يتولون مراكز رسمية حكومية أو أهلية .

ب – في العمل مع المنظمات والبيئات الإسلامية :

– هناك مؤسسات ومنظمات محلية ودولية غرضها الأساسي هو الدعوة الإسلامية ، ويقوم العمل في الكثير منها على أكتاف قيادات متحمسة ذات اهتمامات وطموحات عامة في الدعوة الإسلامية ، ولكنها تصطدم في التنفيذ بالكثير من المشاكل والمعوقات الإدارية التي قد تكون داخل المنظمة التي يقودونها أو خارجها ، وقد تستنزف تلك المشكلات طاقات المنظمة وتبددها ، وقد تهتم بعض قيادات تلك المنظمات بالاستفادة من خبرات أخرى وغالبًا ما تكون إدارية ، ولكنها تغفل الجانب الاجتماعي المهني المتمثل في الخدمة الاجتماعية ، رغم أنها تعمل في مجال العمل الاجتماعي الديني كالجمعيات الخيرية الإسلامية ، ومن المنظمات الدولية التي بدأت تأخذ دورًا مهمًّا في حياة المجتمعات الإسلامية : رابطة العالم الإسلامي ومقرها الدائم مكة المكرمة ، وهي تهتم بأنشطة اجتماعية لها أهميتها في حياة الشعوب الإسلامية سواء بالنسبة لأفغانستان أو المتضررين من الجفاف في إفريقيا ، كما تهتم بالكثير من الأقليات المسلمة في بلدان أوروبا وأمريكا .

ويمكن أن يساعد الأخصائي الاجتماعي منظمات الدعوة الإسلامية في الآتي :

١ – الاهتمام بالتطوع والمتطوعين ، حيث يقوم المتطوعون في تلك المنظمات بالدور الأساسي في تنفيذ برامج المنظمة وتمويل مشروعاتها ، والخدمة الاجتماعية يمكن أن تفيد في هذا المجال بشكل واضح حيث ، إنها قامت في الأساس على الجهود التطوعية ، وتهتم طريقة تنظيم المجتمع بهذه الظاهرة وتعمل على تنشيطها ويمكن أن يتم في هذا المجال ما يأتي :

– الدعوة لزيادة عدد المتطوعين باستخدام الأساليب الملائمة لكل فئة ، والنوعيات اللازمة والمؤثرة في عملية الدعوة الإسلامية ، كالتركيز على الشباب والمهنيين ، كالأطباء والمهندسين والاجتماعيين وغيرهم .

– تنظيم عملية التطوع وما يرتبط بها من عمل مقابلات وسجلات وتوزيعهم حسب قدراتهم واهتماماتهم وإمكاناتهم .

– تدريب المتطوعين على العمل الذي سيوكَّل إليهم حتى يتم بالكفاءة المطلوبة .

– متابعتهم للمساعدة في حل المشكلات التي تؤثر على أدائهم لعملهم لضمان استمرار عطائهم التطوعي للمنظمة .

٢ – الاهتمام بأساليب العمل التي تتم في تقديم المساعدات الاجتماعية وفي أنشطة

المنظمة كافة ، بحيث تستفيد من أساليب العمل العلمي بطرق الخدمة الاجتماعية ، كخدمة الفرد في تقديم المساعدات الفردية ، وخدمة الجماعة وتنظيم المجتمع في العمل مع الجماعات والمجتمعات المحلية .

٣ – هناك منظمات إسلامية كثيرة هدفها تقديم المساعدات للمسلمين كالمساعدات الاقتصادية والخدمات الطبية وغيرها ، ونجاحها في هذا المجال يجعلها تهمل عملية الدعوة الإسلامية ، ويجب ألا تغفل أهمية الجانب الاقتصادي والاجتماعي في الدعوة ، ولكن يجب أن يكونا وسيلة إلى الدعوة الإسلامية وليسا هدفًا في حد ذاتهما ، والأخصائي الاجتماعي يمكن أن يساعد في عملية الاستفادة من تلك الخدمات وتوجيه القائمين عليها لتحقيق أهداف الدعوة ، وكما هو معروف أن حركة التنصير منذ نشأتها تهتم بتقديم خدمات صحية وتعليمية في معظم المجتمعات ، وما زال هذا هو الاتجاه الغالب في إفريقيا وآسيا ، ففي إندونيسيا وهي دولة مسلمة نسبة المسلمين فيها (٩٠٪) من السكان تهتم المؤسسات التنصيرية بشؤون التعليم فعلى سبيل المثال تقوم مؤسسة « مونتفورت فازر » ببناء المدارس ذات المناهج التنصيرية التي يدرس بها أكثر من أربعة آلاف طالب وطالبة ، ويعمل فيها بعض الرهبان الأمريكيين والقساوسة الأوروبيين ورجال التعليم ، بالإضافة إلى تغلغل تلك المنظمات في مجال الصحة والعلاج وكفالة الأيتام وتنشئة الأطفال ، كما تهتم بأعمال الطباعة والنشر وتوزيع المؤلفات التنصيرية عشرات الصحف والدوريات [١] .

٤ – الاهتمام بالتنسيق والتكامل بين المنظمات الإسلامية ، ويجب أن يساعد الأخصائي الاجتماعي الداعية أو الهيئة التي يعمل معها على ذلك ، والخدمة الاجتماعية تهتم بالتنسيق بين الهيئات الاجتماعية ، ولقد كانت عملية التنسيق بين المجالس والهيئات الاجتماعية التي بدأت في صورة جمعيات تنظيم الإحسان في عام (١٨٦٩م) في لندن ، ثم في الولايات المتحدة الأمريكية بعد ذلك – هي الأساس الذي قامت عليه طريقة تنظيم المجتمع كطريقة عملية في الخدمة الاجتماعية . والملاحظ على الكثير من الجماعات الإسلامية أنه إن لم يكن فيها صراع أو خلاف فإنه ليس بينها أي نوع من التنسيق أو التكامل ، فكل يعمل بطريقته .

---

(١) مجلة الأمة ، العدد (٦٥) ، (جمادى ١٤٠٦ هـ ، يناير ١٩٨٦م) ، (ص٤٦) ، نقلًا عن مجلة إرساليات التنصير البروتستانتي التي تصدر في سويسرا .

ولذلك يجب أن يعي الداعية أهمية التكامل والتنسيق بين هيئات ومنظمات الدعوة الإسلامية على كافة مستوياتها المحلية والدولية ، وأن يعمل الأخصائي الاجتماعي على إيجاد الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا الهدف .

٥ - الاهتمام بالمسجد باعتباره مركز الإشعاع الديني ، وتدعيم نشاطه الثقافي الاجتماعي ودراسة العوامل التي تؤثر على سلبية بعض المسلمين في أداء الشعائر فيه ، وربط المساجد بالمجتمع المحلي وبمشكلاته وقضاياه بشكل عملي ، والاهتمام بمجال رعاية الشباب عن طريقه ، والاهتمام بالزكاة وتنميتها واستثمار مواردها بالشكل الذي يعود على المجتمع بالفائدة ، وهي مصدر تمويلي كبير إذا أحسن الدعوة إليها وتوعية المسلمين بقيمتها ، وهناك تجارب بدأت منذ الستينيات في تقديم المسجد لبعض الخدمات الاجتماعية والصحية في صورة عيادات متنوعة ومراكز للتدريب المهني ودور للحضانة وغير ذلك ، وهي تجربة جيدة حبذا لو أضيف إلى العمل بها الجانب المهني المتمثل في الأخصائي الاجتماعي .

كما يجب أن تتولى الخدمة الاجتماعية والداعية الإسلامي موضوع الكتاتيب - وهي مكاتب تحفيظ القرآن - وذلك بتطوير بعض جوانبها على ألا يؤثر ذلك على جوهر عمليتها ، ويمكن في ذلك استخدام بعض الأساليب التي تجذب الأطفال وتروح عنهم في نفس الوقت كبعض الأنشطة الرياضية البسيطة ، وبعض الرحلات ، والاهتمام بالجوانب الاجتماعية كوسيلة للمساعدة في تحقيق أهداف تلك المراكز ، ويجب هنا أن يعي الداعية أهمية مثل هذه المراكز في تكوين العقيدة الإسلامية ، وأن يدرس باهتمام ما تقوم به الكنيسة في مدارس الأحد وأنشطة الأديرة كمراكز تعليمية وثقافية بجانب الأنشطة الدينية .

جـ - في العمل مع قيادات الدعوة الإسلامية :

لما كانت القيادة هي القدرة على التأثير في الآخرين وتوجيههم نحو هدف معين ، فإن القائد يكتسب أهميه خاصة في مجال الدعوة ؛ لأن الدعوة في جوهرها هي تغيير في الاتجاهات والسلوك نحو هدف محدد هو أن يصبح الإسلام عقيدة ومنهاج سلوك في حياة الأفراد والمجتمعات ، ويتوقف نجاح الدعوة وانتشارها في معظم الأحوال على وجود الداعية المؤثر والذي يتوافر فيه مقومات القيادة والمهارات اللازمة لها ، ولهذا نلمس فروقًا واضحةً ، بين داعية وآخر .

ولا شك أن الداعية يجب أن تتوفر فيه سمات خاصة طبيعية لا تتوفر لدى الكثيرين

مثل الذكاء ، وحب الناس ، والقدرة على الابتكار ، وبُعد النظر ، والقدرة على التأثير في الآخرين ، والطاقة على الصبر والاحتمال ، والإصرار على تحقيق الهدف ، والقدرة على الإقناع وقبل كل ذلك الإيمان بما يدعو إليه وإخلاص النيّة لله ﷻ في دعوته ، وبجانب تلك الصفات الطبيعية هناك صفات مكتسبة يجب أن يعمل القائد على أن يدعم بها قدرته وهي : العلم بما يدعو إليه والتفقه فيه ، واكتساب ثقافة واسعة حول موضوع الدعوة والإلمام بقدر الإمكان ببعض جوانب العلوم التي تخدم الدعوة وأساليبها ، وذلك بجانب المهارة في الدعوة واستخدام الوسائل المناسبة لتحقيق أهدافها .

والمهارة في الدعوة يمكن أن تتضمن مجموعة من المهارات الفرعية ، وهي تحتاج إلى المعرفة بها والتدريب عليها ، والأخصائي الاجتماعي يمكن أن يساعد بشكل واضح على تكوين وتنمية تلك المهارات لدى الداعية .

وهناك بعض الاعتبارات العامة التي يجب أن تراعى منها :

١ - يجب في البداية أن يساعد الأخصائي الاجتماعي الداعية على تفهم إمكاناته الذاتية ، والدور الملائم له في الدعوة ، والأساليب التي تساعده على تحقيق ذلك ، فالعمل الدعوي عمل متكامل ، فمثلاً هناك من هو أقدر على الخطبة والتأثير بالكلمة المسموعة على الناس ، وهناك من يتفوق في الحوار والمناقشة ، وهناك من له تأثير بالكلمة المكتوبة أو البحث العلمي ، وهناك من يقود الناس في مشروع معين يحقق فائدة ويحل مشكلة لهم وهناك من يستطيع أن يجمع أكثر من جانب من هذه الجوانب ، ومن المفيد أنه يكون لدى الهيئة التي تتولى عملية الدعوة بيانات كافية عن كل الذين يرغبون في العمل الدعوي وتوجيه كل داعية للمكان الذي يناسبه ومتابعته وتدعيمه ، حسب الظروف التي تواجهه .

٢ - يجب أن يعطي الداعية اهتمامًا كافيًا بالواقع السياسي الذي يحيط به ويحيط بالمجتمع الذي يدعو فيه للإسلام ، وأن يبتعد عن المواقف التي قد تضر أو تعوق حركة الدعوة الإسلامية ، وكلما كانت حركة الداعية تتم من خلال أنساق شرعية حكومية كلما كان ذلك أفضل ، كجمعية مشهرة ، والدعوة في جوهرها عملية تربية وتغيير في الاتجاهات ، وتحتاج إلى صبر وحكمة حتى تؤتي ثمارها ، والتعجيل في الوصول إلى النتائج يجهض الحركة ، بل إن القوى المعادية للدعوة الإسلامية قد تدفع جماعات الدعوة إلى مواقف صدامية بينها وبين السلطة أو بينها وبين أقليات معينة كالمسيحيين

مثلًا فيما يسمى بالفتنة الطائفية ، أو قد تدفع الجماعات الإسلامية إلى التناحر والخلاف العقائدي بينها حتى تتبدد طاقات هذه الجماعات وتستنزفها بعيدًا عن أهدافها ، ولذلك يجب أن يكون الدعاة على وعي بمثل هذه الأمور ، وتنصرف جهودهم إلى التنمية والبناء والتغيير الاجتماعي الذي يحقق أهداف الدعوة الإسلامية ، والفطنة السياسية لدى الداعية تجعله يحدد هدفه بشكل يتلاءم مع طبيعة الظروف السياسية ويضع الخطط الكفيلة بتحقيقها والأولويات التي تتفق مع إمكاناته والتي لا تضر بحركة الدعوة بناء على فهمه لهذا الواقع ؛ فقد يؤجل بعض الأهداف حتى يفوت الفرصة على خصومه ، ويجب ألا يستدرج لبعض المواقف التي تؤخذ عليه ، فاستمرار الدعوة رغم بطئها أفضل من سرعتها التي تجهضها ، وبالطبع لا يعني ذلك استخدام الداعية للأساليب الرديئة التي يستخدمها السياسيون من مداهنة ومناورة وخداع ، فإن ذلك لا يتفق مع طبيعة العمل الإسلامي وجوهر الدعوة الإسلامية .

مهارات الداعية :

يمكن تقسيم المهارات التي يجب أن يتسلح بها الداعية إلى مهارتين رئيسيتين هما : مهارات معرفية ؛ ومهارات قيادية وسلوكية سنتكلم فيهما بشيء من التفصيل :

١ – المهارات المعرفية : يحتاج الداعية إلى معرفة وفهم ووعي بما يدعو إليه وهي الأساس في الدعوة ؛ فالدعوة تحتاج إلى أسلحة ثلاثة أول هذه الأسلحة ولا ريب هو سلاح الإيمان فبدونه يبطل كل سلاح وتفشل كل ذخيرة ، وليس الإيمان بالتمني ، ولكن ما وقر في القلب وصدَّقه العمل ، وثاني تلك الأسلحة هو الأخلاق ، وهي من لوازم الإيمان الحق وثماره ، وأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا ، وثالث هذه الأسلحة هو العلم والثقافة فهذه هي العدة الفكرية للداعية بجوار العدة الروحية الأخلاقية والدعوة عطاء وإنفاق ، ومن لم يكن عنده علم ولا ثقافة كيف يعطي غيره ، وفاقد الشيء لا يعطيه ومن لم يملك النصاب كيف يزكي [١] .

ونحن لا نقصد بالمهارات المعرفية المعرفة في ذاتها ، بل إن المعرفة هي الأساس الذي تقوم عليه رسالة الدعوة ، ولا بد أن تتكون لديه هذه المعرفة من مصادرها الصحيحة ، وهي القرآن والسنة وأن يكون حافظًا للقرآن الكريم أو أجزاءٍ منه ملمًّا بتفسير ما يحفظ ، إضافة إلى الفقه الإسلامي وأحكامه والتمكن في الحديث والسيرة النبوية ، وغير ذلك مما

(١) يوسف القرضاوي : ثقافة الداعية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت الطبعة الحادية عشر ، (١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م) (ص ٧) .

يعتبر أساس ثقافة الداعية والذي يحتاج إلى المتخصصين فيه والرجوع إلى المراجع التي تناولت موضوع الدعوة بشيء من التخصص والعمق [١] .

والمعرفة الإسلامية بشمولها وتكاملها بالنسبة للداعية ليست موضوع بحثنا ، ولكن النقطة التي نوليها أهمية بالنسبة للمهارات المعرفية هي ما يأتي :

– **المهارة في نقل المعرفة** : فليس كل إنسان لديه معرفة معينة بقادر على نقلها للآخرين ، فهو كصاحب رسالة يجب أن يعرف الأساليب المناسبة لنقلها سواء من جانبه هو أو من جانب المستهدَف بالرسالة ، فمن جانبه هو يجب أن يعرف كما قلنا مكاناته والجانب الذي يتميز فيه أكثر من غيره ، ومدى استعداده وتمكنه من الفكرة التي سيدعو إليها ، ومن جانب المستهدف فيجب معرفة إذا ما كان جماعة أو أفرادًا ، والأسلوب المناسب لذلك ، والوقت الملائم لهم ، واللغة والأداة المناسبة لهم ، وألا يغالي في استخدام العبارات البليغة إلا في موضعها ، وأن يستخدم قدر الإمكان بعض الوسائل الحسية التي تفيد في الموضوع الذي يدعو إليه ، فعلى سبيل المثال كان الشهيد حسن البنا في بداية تأسيس الإخوان المسلمين في الإسماعيلية قد اختار أكثر المقاهي ازدحامًا في الحي الوطني من المدينة حتى إذا امتلأ في المساء نادى على الزبائن ليستمعوا له فحدثهم حديثًا إسلاميًّا شائقًا في دقائق معدودة ، وهكذا حتى ذاع صيته في الناس وازدحموا في المقهى كل يوم لسماعه، ورحب صاحب المقهى بذلك فأعد له منصة يلقي من فوقها موعظته اليومية حتى جاء يوم فأطال الحديث ، وتناول قطعة من الجمر المشتعل المعد لتدخين « النرجيلة » قذف بها على الناس فانزعجوا وتفرقوا فإذ ا به يذكرهم بعذاب الآخرة ومسؤولية الإنسان عما قدمت يداه في دنياه ؛ حدثهم ساعتين فكأن على رؤوسهم الطير، ثم انصرف وتركهم ساهمين واجمين إلا ستة منهم تبعوه في طريقه لبيته ، وقالوا : مسؤوليتنا في رقبتك فقد أيقظت فينا شعورًا لن يخمد من بعد ، ولسنا كما ترى في مثل علمك ، كانت هذه المجموعة الأولى التي سمَّت نفسها (الإخوان المسلمون) التي أصلحت بأيديها مصلى خربًا مهجورًا ؛ ليكون مقرها للتعلم والعبادة ، ولم يمض وقت كبير حتى كانت منطقة البغايا في المدينة قد اشتريت

---

(١) انظر على سبيل المثال ؛ يوسف القرضاوي : ثقافة الداعية ، مرجع سابق ، خاصة (ص ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٣٠ ، ١٣١) .

– عبد البديع صقر : كيف ندعو الناس ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، (١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م) .

– علي جريشة : الدعوة والداعية ، دار الطبع والنشر الإسلامية ، القاهرة ، (١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م) .

– فتحي يكن ؛ مشكلات الدعوة والداعية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، (١٤٠١هـ ، ١٩٨١م) .

(وكان البغاء وقتئذٍ مصرح به رسميًّا) وهدمت وقامت مكانها دار الإخوان مزودة بمدرسة ومشغل للسيدات وتابت الخاطئات وتزوجن جميعًا [١] .

ومن هذا المثال يمكن أن نستخلص بعض الحقائق أهمها أن الحديث بدأ بالتدريج وكان يأخذ في بدايته دقائق قليلة – على عكس ما نشاهده من إطالة مملة عند البعض الذي يتصدى للدعوة دون مهارة ووعي – ثم بدأ في الوقت طالما أن المستمعين متشوقون للسماع ، وأنه استخدام شيئًا حسيًّا كالجمرات وكان وقع استخدامها أفضل مما لو كان الحديث عن النار وجهنم حديثًا لغويًّا فقط ، والنقطة الأهم من كل هذا هو تحويل الفكرة إلى واقع ، فتمثل في خدمات وحل مشكلات اجتماعية خطيرة كانت تعصف بالمجتمع بأسلوب سهل وبسيط ، وبهذا يدخل الإسلام في حياة الناس وواقعهم ، ولهذا يحسن أن تكون الدعوة من خلال منظمة يتكامل فيها العمل الدعوي من خطابة وكتابة ومحاضرات مع نشاط اجتماعي وطبي واقتصادي ، أما إذا كان العمل الدعوي عملًا فرديًّا ولا توجد المؤسسة لذلك فيحسن أن يكون الهدف منه هو هذا الشكل التنظيمي المؤسسي والشرعي كما حدث وتطورت فكرة الإخوان المسلمين على يد حسن البنا – عليه رحمة اللَّه – كما أشرنا ، على أنه قد تعجز إمكانات الفرد عن ذلك ويكتفي بنشاطه الفردي في الدعوة القائمة على الكلمة وانتعاش فيجب هنا أن يكون واعيًا لاستخداماته من أدوات ووسائل ولكل مقام مقال ، فما يصلح في الخطبة التأثيرية لا يصلح للخطبة التعبدية ، وأسلوب الخطبة يختلف عن المحاضرة ولجميع ذلك آداب ومتطلبات يجب أن يعيها الداعية [٢] .

– المهارة في الحصول على المعرفة ؛ وذلك عن طريق التدريب على القراءة السريعة ومداومة الاتصال بالأفكار الحديثة والقضايا التي تشغل المجتمع ، وجميع البيانات والمعلومات ، وتكوين رؤية إستراتيجية ومعرفة حركة القوى المناهضة للإسلام على المستوى المحلي والدولي ، والتعرف على أساليبهم وقراءة ما يكتبون وما يصلون إليه في مؤتمراتهم وتكوين لجان بحث ودراسة والاتصال والتنسيق بمركز البحوث العلمية ،

---

(١) حسان حتحوت : من سير الرجال ، حسن البنا رحمه الله ، مجلة الأمة ، العدد (٥٥) ، (رجب ١٤٠٥هـ ، إبريل ١٩٨٥م) ، (ص : ٢٦) .

(٢) انظر – عبد البديع صقر : كيف تدعو الناس ، المكتب الإسلامي .

– حسين بن محمد بن علي جبر : الطريق إلى جماعة المسلمين ، دار الوفاء ، المنصورة (١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م) ، (ص ٢٥٧ – ٤٢٥) .

وتكوين مكتبة علمية لأهم المراجع والكتب العلمية التي تفيد في مجال الدعوة والاستفادة مما يصل إليه العلم في التخصصات المختلفة بما يفيد قضية الدعوة الإسلامية على اختلاف مستوياتها .

٢ – المهارات السلوكية والقيادية :

الدعوة لا تنتقل بالكلمة أو بالقول دون العمل فالعمل مكمل أساسي للدعوة ، بل إن العمل وهو السلوك الذي يسلكه الفرد في حياته مع الآخرين قد يغني عن الكلمة ، ويقول ﷺ : « **ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدَّقه العمل** »

ولذلك يمكن أن نتناول المهارات السلوكية من خلال مجموعة من المهارات الضرورية لها مثل :

أ – المهارة في التعامل مع الأفراد :

ويمكن للأخصائي الاجتماعي أن يفيد الداعية في فهمه لبعض دوافع السلوك وأهمية العلاقات الاجتماعية في الدعوة وفي اكتساب القدرة على الاستماع للآخرين ومساعدتهم على حل مشكلاتهم ، ودراسة بعض الحالات التي تفيد في هذا الاتجاه ، فتزويد الداعية ببعض الأسس العلمية التي تفيد في فهم سلوك ودوافع الأفراد واتجاهاتهم وميولهم وكيفية التأثير عليهم والطرق المختلفة في ذلك تفيد الداعية فائدة كبيرة ، فالتأثير الفردي يكون أقوى وأكثر من التأثير في جماعة كبيرة مؤقتة كحضور ندوة أو محاضرة أو خطبة رغم أهمية ذلك .

– المساعدة في التعرف على الحالات التي تحتاج إلى مساعدة اقتصادية كانت أم جماعية أو نفسية ، وهناك ما يسمى في العمل المسيحي بالافتقاد والافتقاد يعني معرفة الحالات التي تحتاج إلى من يجلس معه ساعة أو ساعتين في اليوم يخفف فيه وحدته ، أو المريض الذي لا يجد من يرعاه صحيًّا لوحدته وشيخوخته وهنا يكلف الشباب المسيحي بأداء مثل هذه الأعمال بطريقة سرية ، وبالطبع يتم الاختيار بدقة لمن يقوم بهذه المهام الشباب والشابات .

– مساعدة الداعية على أساليب التعامل مع نوعيات معينة من الأفراد ذوي التأثير أو من لديهم قدرات قيادية لتدريبهم على العمل الدعوي ممن لديهم استعداد لذلك ؛ لأن التعامل مع الناس لدعوتهم إلى الخير يحتاج إلى تدريب على مواجهة الناس والحديث إليهم ، وكلما كان ذلك وفق برنامج مدروس كلما كان ذلك أفضل .

obeikandi.com

– الاستفادة من بعض أساليب العمل المسيحي الفردي ، كأسلوب معايشة الأسر خاصة في إفريقيا (*) .

ب – الاهتمام بإعداد قيادات جديدة للدعوة :

تهتم الخدمة الاجتماعية اهتمامًا بالغًا بظاهرة القيادة الطبيعية بقصد إنماء هذا النوع من القيادات بزيادة أعدادهم والاكتشاف المبكر لهم وتدريبهم لصقل مهارتهم في هذا الاتجاه ؛ ولأن الدعوة تقوم على القيادات الطبيعية المؤهلة لهذا النوع من النشاط فيمكن للخدمة الاجتماعية أن توفر البرامج التدريبية لهؤلاء الدعاة على مستويات مختلفة ، وظاهرة إعداد الكوادر تعطيها المسيحية أهمية بالغة وسنذكر على سبيل المثال أحد البرامج المنفَّذة في إندونيسيا لعلها تفيد في هذا المجال (١) .

١ – اسم المشروع : مركز التدريب النصراني في قرية تشيكمبار ، سوكابومي – جاوا الغربية ومدينة ماجالينكا .

٢ – أهداف المشروع :

تزويد الكوادر بالمهارات المهنية والزراعية والفنية والصناعة ، يستعملونها كوسائل للاتصالات المباشرة مع عامة الناس كل حسب طبيعة أعمالهم .

– الإشراف على الكوادر التي تعمل بالمجتمعات المحلية مع إيجاد علاقة قوية بالمجتمع المحلي لنشر المفاهيم المسيحية ، والإيحاء لهذا المجتمع بأن المسيحية دين طيِّب بدليل تلك الخدمات الإنسانية التي يؤديها للناس .

– الإيحاء للحكومة النظامية بأن النصارى يخدمونهم في تطوير الوطن بدليل تلك الخدمات التي يقدمونها للناس .

– تأليف قلوب الكوادر من مختلف المحافظات ، وتبادل الأفكار والخبرات بينهم .

٣ – خطوات المشروع :

إعداد أرض مساحتها ٥٠ فدان لتلك الأغراض .

– تقسيم الأرض بعد استقطاع مبانٍ للسكن والإدارة ودار للضيافة والمستودع وغيرها

(*) فتاة جاءت من الولايات المتحدة الأمريكية للعمل في إطار إحدى المؤسسات التنصيرية ، وعاشت مع إحدى الاسر الزنجية البسيطة في منطقة الجنوب ، واصبحت تحمل اسم الأسرة ، وتعيش ..... في مجال التنصير .

(١) التقرر المختصر لبعض النشاطات التنصيرية في إندونيسيا لعام (١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م) صدر عن المجلس الأعلى الإندونيسي للدعوة الإسلامية شوال (١٤٠٩هـ – مايو ١٩٨٩م) .

obeikandl.com

إلى أقسام لزراعة الأرز – القرنفل والبن والذرة والفول والبرتقال والأناناس إضافة إلى جزء لتربية الماشية والدواجن .

٤ – **التدريبات وتشمل** : العلوم الاقتصادية – العلوم البيئية والصحية والتربوية والإدارية ، والإعداد النفسي ، إضافة إلى العلوم المهنية المختلفة وعلوم الإسكان ، وجميع هذه العلوم تدرس نظريًّا وعمليًّا بحيث يتصلون مباشرة بالناس خلال فترات التدريب .

وتتم خطوات التدريب كما يلي :

– النزول إلى الناس والعمل معهم بشكل مباشر .

– أن يكون التأثير في الناس عن طريق القدوة الحسنة .

– مدة العمل ثلاث سنوات إلزامية بعد التخرج إلا إذا تزوج الشاب أو تزوجت الفتاة من أهالي المنطقة .

– لابد من إعداد البديل قبل ترك المنطقة بعد انقضاء الفترة المطلوبة ، وأن يكون البديل من أبناء المنطقة وذلك حتى لا يكون هناك فراغ .

– ومن المبادئ العامة التي يلتزمون بها عند العمل ما يأتي : –

– عدم الصراع مع بعضهم البعض (الكاثوليك والبروتستانت) .

– تجنب الصدام بينهم وبين المسلمين (لشعورهم بأنهم أقليَّة) .

– تجنب الصدام بينهم وبين الحكومة النظامية (لحاجتهم إلى الجماعة) .

– الاهتمام بالأمور التالية :

* البناء الداخلي والاعتماد الذاتي .

* مشاركة الحكومة النظامية في البناء والتعمير .

* دراسة العلوم الأخرى المساعدة بجانب دراسة الإنجيل ونشره .

* تنشيط بناء الكوادر وتوزيعهم إلى جميع أنحاء إندونيسيا للعمل ، والاتصال المباشر بالناس ، ومتابعة شؤون ودراسة احتياجاتهم ، وحل مشكلاتهم وما يمكن تقديمه من المساعدات .

ويمكن في إطار الاهتمام بالقيادات وتدريبها أن تتولى الخدمة الاجتماعية عن طريق الأخصائي الاجتماعي تزويد الداعية بالمهارات التالية : –

١ – **المهارة في المقابلة** : وذلك حتى يجري الداعية مقابلاته مع الأفراد الذين يدعوهم

مباشرة إلى الإسلام أو يستفيد من جهودهم في الدعوة أو يساعدهم في حل مشكلاتهم ؛ لأن للمقابلة أصولًا علمية وفنية حتى يمكن أن تحقق الغرض منها ، كمدة المقابلة ، والأسئلة التي توجه ، وطريقتها ، والمناطق التي توجه إليها الأسئلة ، وملاحظة استجابات الشخص الذي يتم مقابلته ، والاستماع إليه ، والوقت المناسب لتوجيه الأسئلة ، وبداية المقابلة ، ونوع الأسئلة ، وملخص المقابلة ، كل ذلك موضوعات يمكن للأخصائي أن يساعد الداعية فيها بشكل مؤثر وفعال .

٢ – المهارة في عقد الاجتماع : قد يكون الداعي هو الذي يدير الاجتماع مع جماعة من الناس أو مجموعة قيادات أو غير ذلك ، وهو هنا يحتاج إلى مهارة في إدارة الاجتماع يمكن للأخصائي الاجتماعي أن يساعد فيها ويدون في ذلك مثلًا : الوقت المناسب للاجتماع ، والإعداد له من حيث الموضوع ، والمادة التي ستناقش فيه ، والمكان الذي سيعقد فيه ، وكيفية تسجيل ما يدور في الاجتماع ، وتوجيه الأسئلة ، ومعرفة ديناميات الأعضاء واتجاهاتهم ، ومدى التفاعل الإيجابي أو السلبي بينهم ، ومواقف كل منهم وكيفية التدخل لتذويب الحساسيات والمقاومة من البعض ، وتحديد المسؤوليات والواجبات ، وإتاحة الفرصة لكل عضو بالمشاركة الإيجابية في المناقشة والمسؤولية وغير ذلك من الأمور المهمة التي لا غنى عنها للداعية حتى تثمر تلك الاجتماعات وتوجه بشكل إيجابي للدعوة .

٣ – المهارة في العمل من خلال فريق : حيث يشيع في مجتمعاتنا الاتجاه إلى العمل الفردي بين القيادات بصفة عامة ، وهذا الأسلوب يؤدي إلى تفتيت القوى وعدم تكاملها وربما إلى الصراع الذي يصل إلى هدم ما يبنيه الآخرون ، ومهما قلت سلبيات هذا العمل الفردي فإنه يحرم الداعية من جهود عناصر مختلفة لها تأثير ربما يكون أقوى من تأثير الداعية كفرد ويجمع الكثير من القدرات والخبرات في اتجاه الدعوة مما يكون له تأثير أكبر ، ولذلك فدور الأخصائي الاجتماعي هنا هو تدريب الداعية على اكتساب خصائص العمل الجماعي وعدم التركيز على الذات ، خاصة أن الداعية يجب أن تكون نيته خالصة لوجه اللَّه تعالى وبالتالي فهو لا يحرص على الظهور وإسناد الأعمال إليه، وهذا العمل الفريقي يسد ثغرة كبيرة في مجال العمل الاجتماعي لو أحسن استخدامه وتنظيمه حيث يتم الاستفادة من كافة المهنيين كالطبيب والمهندس والمحامي ورجل الإعلام والقيادات الحكومية والشعبية كل في موقعه ، وحسب ما تسمح به قدراته في خدمة الدعوة .

٤ – المهارة في عقد المؤتمرات : لا غنى للدعوة عن عقد المؤتمرات الإعلامية أو العلمية حسب الحاجة لكل منهما ، ولكن عقد المؤتمر يحتاج إلى مهارة عالية في الإعداد والتنظيم

والتنفيذ والمتابعة حتى يحقق الغرض منه ، وتلعب المؤتمرات أهمية كبيرة في تعبئة الرأي العام تجاه قضية معينة وتوجيه النظر إليها ، كما تلعب المؤتمرات العملية بالذات دورًا مؤثرًا وبشكل أعمق وله صفة الاستفادة المستمرة من نتائجه ، ويكفي أن نشير إلى أحد المؤتمرات الحديث الذي عقد في الثمانينيات في مدينة كلوراو بالولايات المتحدة الأمريكية ، وسمي بمؤتمر الألف مليون دولارًا ، وهي قيمة ما جمع من تبرعات رصدت لعملية تنصير المجتمعات الإسلامية ، واقتصر الحضور فيه على العلماء من ذوي التخصصات المختلفة ، وقدم فيه أربعون بحثًا علميًّا تناولت كافة القضايا المتعلقة بتنصير تلك المجتمعات [١] .

والأخصائي الاجتماعي يمكن أن يسعد الدعاة في إكسابهم المهارات اللازمة لنجاح مثل هذه المؤتمرات في الإعداد والتجهيز لها قبل موعدها بوقتٍ كافٍ ، واختيار الموضوع ونوعية المشاركين فيه ، والوقت المناسب له والمكان الملائم ، وتشكيل أمانة المؤتمر واللجان اللازمة والأبحاث المقدمة ، والجلسات العامة الافتتاحية والخاتمة ، والتمويل والإعلام ، وكل ما يلزم لإنجاح المؤتمر .

* * *

(١) الترجمة الكاملة لأعمال المؤتمر في المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، فرع الرياض (١٤١٠هـ) .

المدخل الوقائي للخدمة الاجتماعية في رعاية الطفل إسلاميًّا

أ.د. زين العابدين محمد

لا شك أن شخصية الإنسان الفرد – مهما قيل في تكوينها – ما هي في النهاية إلا المحصلة النهائية التفاعلية للعديد من العوامل الوراثية والبيئية بأشكالها المختلفة ، ولا أقول كما يقول الآخرون ، إنها تبدأ منذ اللحظة الأولى لعملية الإخصاب داخل رحم الأم [١] . ولكن في تقديري أنها تبدأ قبل أن يبدأ التزاوج الفعلي – في المرحلة التمهيدية له – حيث يتأثر تكوين الإنسان بالبيئة الوراثية والاجتماعية والعرفية المختارة تأثرًا كبيرًا .

ولقد أكد العلم الحديث ما أقره الإسلام في الكتاب والسنة منذ أكثر من (١٤٠٠) عام ، حيث أكد الإسلام أن اختيار البيئة الاجتماعية التزاوجية أمرًا ضروريًّا يتبعه العناية بالبيئة الرحمية أمرًا أكيدًا لا جدال فيه ، وكذلك الوسط الاجتماعي البيئي الذي يرعى هذا النَّشأ .

وقد أوضحت الشريعة الإسلامية الأسس والقواعد لكل مرحلة من هذه المراحل لتصنع إطارًا تراثًا قويًّا لو تم اتباعه وتوجيه الأفراد من خلال برامج اجتماعية وقائية بواسطة الأخصائيين الاجتماعيين ، تكون بمثابة تعريف وتوضيح ووقاية للنَّشأ من أخطار عملية التنشئة الاجتماعية غير السليمة والتي لا تستطيع أن تعيد النَّشَأ مرة أخرى نشأً سليمًا مهما عالجنا جوانبها .

ولتوضيح هذا المنطق يمكن القول أن إقامة بناء اجتماعي – الأسرة – مكتمل الأركان والأعمدة – إيماني النزعة قادر على تنشئة اجتماعية صالحة للبناء ، يمر بثلاث مراحل أساسية لكل منها أسسها وقواعدها وسلوكها ، لو اتبعناه ووجهناه وحققناه من خلال برامج اجتماعية ووقائية شاملة المراحل .... يمكن أن نقيم نشأ سليمًا ... هذه المراحل يمكن تحديدها في كل من :

١ – المرحلة الاختيارية (مرحلة الانتقاء)

(١) عبد الرحمن العيسوي : الإسلام والعلاج النفسي ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، (١٩٨٦م) ، (ص٨٧) .

٢ - المرحلة الجنينية (مرحلة التكوين)

٣ - مرحلة الطفولة (مرحلة الرعاية المباشرة)

ونشير في البداية إلى أن المرحلة الأولى والثانية هي مرحلة الرعاية غير المباشرة للطفل ، من خلالها يتم إقامة بيئة اجتماعية معدَّة لاستقبال الطفل ، فلو تمت المرحلتان على أسس سليمة تكون المرحلة الأخرى وهي مرحلة الرعاية المباشرةً متوجة لهما .

وفي نفس الوقت هي مراحل ثلاث متكاملة الأطوار ، لا بد من الاهتمام بها اهتمامًا متواصلًا ، حتى نصل إلى مرحلة الرعاية ونكون قد جهزنا وجهزت البيئة الاجتماعية الأسرية تجهيزًا أساسيًّا ، لديه الاستعداد والقدرة لإقامة تنشئة اجتماعية سليمة .

وسوف نستعرض المراحل الثلاث بما فيها من أسس وقواعد إلزامية ، توجهنا إلى مصداقية التجهيز والتكوين والرعاية اللازمة لهذا للنَّشَأ ، مركزين على المرحلة الثالثة وهي مرحلة الرعاية المباشرة ، محاولين تصور وقائي متكامل الأبعاد موجه إلى الأبوين والمربين الموجهين والمقبلين على الزواج في نطاق الخدمة الاجتماعية التي تعتبر النشأة الاجتماعية أحد المحاور الأساسية في عملها في مجال رعاية الأسرة والطفولة ، مستعرضين المراحل والأسس والقواعد الاجتماعية والتي تقوم عليها أوجه الرعاية ووسائلها .

أولًا : الخدمة الاجتماعية والدين

ليس جديدًا على الخدمة الاجتماعية أو الاتجاهات الإصلاحية التزامها أو إيجاد مدخل ديني لها سواء في الاتجاهات المسيحية أو الإسلامية ... بل إن اتجاهنا في الخدمة الاجتماعية بعد نشأتها ارتبط أكثر بإيجاد أصول الخدمة الاجتماعية من الرعاية الاجتماعية في الدين الإسلامي ، ولذلك كانت هناك العديد من المحاولات لعرض أوجه الرعاية الاجتماعية الإسلامية .

وإذا كنا نجد أن المحاولات متعددة ومستمرة في المجتمعات الغربية المسيحية ، في محاولتها ربط الإصلاحات والخدمات الاجتماعية بالدين ، بل وإقامة مذاهب اجتماعية دينية للخدمة الاجتماعية مثل مدارس وكليات الخدمة الاجتماعية الكاثوليكية والبروتستانتينية واليهودية ، أو ذات الاتجاه غير المعلن الذي تمتلكه مدارس وكليات الخدمة الاجتماعية التي ترجع أصول نشأتها إلى الكنيسة ، كما في الهند وإفريقيا وأمريكا اللاتينية ، بل تعدى هذا الدور ليشمل الحركة في المجتمع المسيحي كله أو دفعه

إلى المسيحية [١] .

ثانيًا : مفاهيم يجب أن تحدد

١ - الطفل :

– بكسر الطاء ، الصغير من كل شيء ، عينًا كان أو حدثًا ، فالصغير من أولاد الناس ، والصغير من السحاب طفل والدواب طفل .

– بفتح الفاء – الرَّخص الناعم ، والمصدر الطفولة ، والطفل المولود ما دام ناعمًا – خصا ، والولد حتى البلوغ وهو للمفرد والمذكر [٢] .

– وفي التنزيل العزيز : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ ﴾ [النور : ٥٩] ، ومن ثَمَّ فَالطفل هو المولود حتى سن البلوغ .

٢ - رعاية الطفل :

عملية تشمل برامج وخدمات توجه لصالح الطفل في كافة القطاعات سواء كانت علاجية أو بنائية أو وقائية تستهدف نمو شخصية الفرد وتحقيق رفاهيته [٣] .

٣ - المدخل الوقائي ... في مجال الطفولة :

وهو مجموعة الخدمات والبرامج التي تحقق إشباع الحاجات والرغبات وتحقيق الآمال وبناء الكيانات على أسس سليمة ، وكذلك هو مجموعة الأسس والقواعد السليمة التي يجب اتباعها حتى يمكننا تلافي حدوث المشكلات أو الصعوبات التي يمكن أن تؤدي بالطفل إلى الانحراف أو المرض أو العجز ، ويتطلب حين ذاك العلاج .

ثالثًا : المنهج الإسلامي ودور الخدمة الاجتماعية في رعاية الطفل

١ - ملامح المنهج الإسلامي :

يمكن أن نتصور لهذا المدخل اتجاهين أساسيين ... هما :

---

(١) محمد أحمد عبد الهادي : الخدمة الاجتماعية في مجال الدعوة الإسلامية ، بحث تحت النشر ، (ص ٥) .

(٢) محمد بن أحمد صالح : الطفل في الشريعة الإسلامية ، القاهرة ، نهضة مصر بدون ناشر ، (ص١) .

(٣) محمود حسن : الخدمة الاجتماعية في الجمهورية العربية المتحدة ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، (١٩٧٦م) ، (١/ ٧٩) .

الأول : مسؤوليات الخدمة الاجتماعية نحو تحقيق هذه الرعاية من خلال مؤسساتها ودفع المؤسسات الأخرى التي تتعامل مع الطفولة لمساعدتها بطريقة مباشرة وبطريقة غير مباشرة نحو القيام بأدوارها لرعاية الطفل إسلاميًا .

الثاني : قيام الخدمة الاجتماعية بمسؤولياتها وفق أسس ومبادئ وقيم إسلامية يتعلم منها النَّشَأ الصغير والقائمون على رعايته كيفية التعامل الإسلامي فنضع في كيان الجميع الإطار الإسلامي في التعامل الاجتماعي .

ويمكن القول إن هذا المدخل ينطلق من انطلاقات أساسية في أوجه الرعاية المختلفة للطفل من خلال مؤسسات الخدمة الاجتماعية ... وغيرها يمكن استعراضها على النحو التالي :

– أن الخدمة الاجتماعية تتعامل مع الإنسان أيًا كان موقفه أو فئته أو طبقته ..... وفقًا لحاجاته ومشكلاته وسلوكه ، وشخصيته بهدف إحداث التغيير الاجتماعي – انطلاقًا لمساعدته إما لبناء كيانه الشخصي أو لدفعه نحو القيام بمسؤولياته وأدواره الاجتماعية الملقاة على عاتقه من وسطه الاجتماعي .

– على الرغم من ذلك نجد أن الأساليب العلمية المختلفة في المدارس العلمية المتنوعة في الخدمة الاجتماعية وفي محاولتها لفهم الإنسان .... لم تتوصل جميعها إلى فهم الإنسان فهمًا شاملًا متكاملًا ، ولا فهمًا لمشكلاته ومحاولة وقايته منها أو علاجها له علاجًا نهائيًا وخاصةً بعد ظهور العديد من الانتقادات لكل منهج وضعي ليس في الخدمة الاجتماعية فقط ، ولكن في العلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية أيضًا ، لذلك يجب علينا أن نلجأ إلى صانع هذا الإنسان ... لكي نتعرف على ما هو الإنسان ؟ وكيفية التعامل معه منذ النشأة حتى نهايته وكيفية رعايته والقضاء على مشكلاته ، ونستخلص منهجه في أوجه الرعاية من خلال قرآنه وسنَّة نبيه .

– إن الاعتماد الأساسي على المنهج الإسلامي يتحرك من منطلقات أساسية يمكن استعراضها في الآتي :

أ – أنه يتميز بالوضوح والتحديد للأبعاد الدينية والدنيوية الشاملة والربط بينهم .

ب – أنه يتميز بأنه منهج للمعاملة ، وأنه دين يتميز بالوجود الاجتماعي والتفاعل الواقعي ...

جـ – أنه منهج شامل ... شموليته في كل من :

* النظر للإنسان من المهد إلى اللحد .

* النظر للإنسان في دنياه وآخرته .

أنه ليس لزمان ولكن لكل الأزمنة .

* أنه ليس لمكان معين ولكن لكل الأمكنة .

* ولا ينظر للإنسان كفرد فقط ! ... ولكن ينظر إليه ككيان اجتماعي يتحرك في ومن خلال كيانات اجتماعية متعددة ومتنوعة ومتغيرة ، وهو ينطلق من كل شيء لهذا الإنسان ، ووضع كل هذا في كتابه الكريم : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل : ٨٩] .

– أنه يقدم لنا إطارًا اجتماعًيا متكاملًا للتعامل مع الواقع الاجتماعي ، بل وأبعاده القوية والضعيفة ، الغنية والفقيرة ، السليمة والمريضة ، أملًا أن يصل بالإنسان إلى سلامة القول والفعل وعبادة اللّه على أرضه ...

– كما أن اقتناعنا بمنهجية هذا الدين ... إنما هو تحقيقًا لفكرنا العقائدي ، وتحركنا به مهنيًا ، يعني تحركًا مع الإطار القيمي الذي ندين به ...

– ونحن أيضًا في حاجة إلى أن نغرس بأنفسنا في جذورنا العميقة في بيئتنا تاريخيًا وعقائديًا ... حتى لا يفقد أبناؤنا هويتهم ... وليس في هذا تعصب ، بل هو الشيء الطبيعي الذي يجب أن تفعله أي دولة تحترم نفسها ، وتراثها وعقيدتها وهويتها الحقيقية ...

٢ - الخدمة الاجتماعية وأهدافها :

إذا قمنا بتحديد الخدمة الاجتماعية كمهنة بأنها « عملية تستهدف إحداث تغيير اجتماعي مقصود للأفراد والجماعات والمجتمعات ، حتى يمكنهم القيام بمسؤولياتهم الاجتماعية على أكمل وجه ممكن [١] .

فنجد أن الهدف العام لها يتحدد في كل من :

١ – مساعدة النظم الاجتماعية على أدائها لوظائفها ، ويدخل في ذلك مساعدة الأفراد والجماعات والمجتمعات حينما تعجز النظم القائمة على مساعدتهم تلقائيًا .

٢ – تعديل أو إيجاد نظم اجتماعية حديثة – فقد عدَّلت من النظام الأسري كما في

(١) عبد الفتاح عثمان : خدمة الفرد والمجتمع المعاصر ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، (١٩٧٣م) ، (٢/٤٠) .

بعض قوانينه ؛ مثل : قانون الأحوال الشخصية ، أو أقامت نظامًا اجتماعيًا جديدًا ؛ مثل : نظام التأمين الاجتماعي ... وهكذا .

إلا أننا نشير هنا إلى أن مهمة المساهمة في تغيير ، وتعديل الأنظمة الاجتماعية من المهام العسيرة ، والتي لا يمكن لمهنة ما أن تزعم لنفسها أنها تستطيع أن تضطلع بذلك .

ومن ثَمَّ فإن اختيار مثل هذا الهدف من العوامل التي تحد من تطور الخدمة الاجتماعية مهنيًا ؛ لأنه يفرض عليها تكوين قاعدة علمية معقدة واسعة النطاق إلى جانب تطوير نظام مهني تكنولوجي شديد التنوع والتعقيد [١] .

ولما كان المنهج الإسلامي ... منهج يتميز بالثبات والشمول والتكامل من ناحية وقدرته على مواجهة ، أي ظروف متطورة ومتغيرة من ناحية أخرى فإننا يمكن أن نعمل على بناء خدمة اجتماعية إسلامية أو إقامة خدمة اجتماعية تكون أهدافها الاجتماعية تسعى لتحقيق الأسس والقواعد الإسلامية ، والتي يمكن أن تقينا من الوقوع في العديد من الأخطاء أو مواجهة العديد من المشكلات حتى يمكن إفادة عملائنا بأحسن مستوى ممكن من الأداء الاجتماعي للمهنة ، الذي من خلاله يتم الوقاية من المشكلات ومواجهة المشكلات الموجودة ، وإزالة الصعاب التي يمكن أن تحدث العديد من المشكلات ، كما أننا نرى أن المدخل المناسب لرعاية الطفولة هو المدخل الوقائي الإسلامي للعديد من المبررات سوف يأتي استعراضها فيما بعد ؛ وذلك بهدف تنشئة جيل يتميز بالأصالة وعمق الماضي العقائدي ومستقبل يتميز بإنشاء جيل ذى نشأة إيمانية تحضرية قوية .

وإذا كنا نسعى من وراء مشاركة الخدمة الاجتماعية الوقائية في رعاية الطفل إلى إعداد جيل صالح له من المقومات الجسمية والنفسية والاجتماعية مما يمكنه من أن يكون قادرًا على إعادة صنع الحياة الحقيقية على أرضه ، وهو ما يتحقق بالعمل وليس بالأمل فقط ، ومن ثَمَّ تعمل الخدمة الاجتماعية في هذا المجال من منطلق أساسي ألا وهو استخدام كل مواردها وإمكانياتها وطاقتها وممارستها وعلمائها في المساهمة الحقيقية في بناء الطفل إسلاميًا ...

وهذا ينقلنا إلى التعرف على الخدمة الاجتماعية الوقائية من هذا الجانب .

---

(١) عبد الحليم رضا : الخدمة الاجتماعية المعاصرة ، كفر الشيخ ، مركز الدراسات الوطنية ، (١٩٨٩م) ، (ص ١٢٥) .

رابعًا : الخدمة الاجتماعية الوقائية ورعاية الطفل

إذا كنا نرى أن المدخل الوقائي للخدمة الاجتماعية ، نحن في أمس الحاجة إليه ومن ثم فنحن نهدف من وراء استخدامه إلى تجنب وقوع هذا النَّشَأ الجديد فريسة للأمراض الاجتماعية والمشكلات المتزايدة ... وأهم من هذا وذاك تجنب أطفالنا النشأة غير السليمة ... وأن التزامنا به يعود للمبررات الآتية :

١ - أن علاج مشكلات الأطفال يحتاج إلى توفير العديد من الإمكانيات والموارد المجتمعية التي تزيد أضعافًا مضاعفة عن إقامة البرامج الوقائية التي لو تم إقامتها لتجنبنا العديد من المشكلات مستقبلًا ..... ومن خلالها يمكن تجنب وإزالة العديد من المشكلات الحاضرة .

٢ - أن علاج شخصية الطفل ذى النَّشَأ غير السليم ليس سهلًا ولكنه صعب جدًّا ، بل ومهما عالجناها ... فسوف يتبقى جوانب غير سليمة في الشخصية .

٣ - بالإضافة إلى أن علاج جوانب الشخصية في الطفل يحتاج إلى مزيد من الممارسة بمختلف تخصصاتها والتي نعتقد بأنها غير متوفرة بالقدر المناسب ، هذا بجانب قلة المؤسسات الاجتماعية والمؤسسات غير الاجتماعية .

٤ - كما أن التلاحم بين البيئات الداخلية والخارجية التي يتعامل معها الطفل ... يمكن أن يحدث له انحرافًا أو انتكاسًا في علاجه إذا لم نكن قادرين على إقامة نشأة سليمة النزعة قائمة على أسس وقواعد سليمة .

وأرى أن الخدمة الاجتماعية الوقائية في مجال رعاية الطفل تتحرك من خلال ثلاثة أبعاد أساسية هي :

١ - إيجاد حالة الوعي للأفراد والجماعات والمجتمعات بالأسس والقواعد الإسلامية التي يجب أن تقوم عليها نشأة الطفل .. ويأتي ذلك من خلال تعريفهم بها ، وتفهيمهم إياها ... وتعليمهم كيفية تحقيقها .

٢ - تقديم كافة الخدمات التي تساعد على تحقيق البُعد الأول ، واستخدام الأسلوب الإسلامي في ذلك ، والذي يتميز بالوضوح والتحديد والموضوعية من ناحية ، والصدق والأمانة والعدل والمساواة والخلق الكريم بإطاره القيمي من ناحية أخرى .

٣ - ووقاية الطفل من التعرض للصعوبات التي تعوق نموه جسميًّا ونفسيًّا وعقليًّا

واجتماعيًا وإيمانيًا ، الأمر الذي يدعم نشأته وتوافقه ويزيد من ثقته في نفسه ويجنبه الوقوع في المشكلات .

من خلال هذه الأبعاد يمكن أن نحدد الأهداف العامة للخدمة الاجتماعية الوقائية في رعاية الطفل إسلاميًا على النحو التالي :

١ - تحقيق أقصى استفادة ممكنة من البيئة الاجتماعية الأسرية والمدرسية والمحلية لخلق حالة الوعي بالأسس والقواعد الإسلامية التي يجب أن نسترشد بها في نشأة الطفل ورعايته .

٢ - مساعدة الأطفال على النمو والتغير والوصول إلى أكبر قدر ممكن من الاعتماد على النفس .

٣ - خلق علاقات اجتماعية مرضية سليمة بين الأطفال والآخرين الذين يتعاملون معهم ، قائمة على الأسس والقواعد الإسلامية أهمها العدل والمساواة والتسامح والصدق والأمانة .

٤ - مساعدة الأطفال على اكتساب القيم السليمة التي يتطلبها بناء مجتمعهم الإسلامي ، عن طريق تعريفهم بها وتفهيمهم لها ، وتدعيم الاتجاهات والقيم الإسلامية السامية ، ومساعدته على نبذ القيم والاتجاهات الضارة .

٥ - مساعدة الأطفال على التعاون لخدمة البيئة الإسلامية المجتمعية .

٦ - العمل على إيجاد الترابط والتفهم القوي بين البيت والمدرسة والمؤسسات الاجتماعية التي تعمل في مجال الاهتمام بالأسرة والطفولة حتى يمكن رعايتهم إسلاميًا .

ولكي تحقق هذه الأهداف العامة لهذا المدخل ... لا بد من ترجمتها إلى أهداف عملية قابلة لوضع برامج وأنشطة اجتماعية حتى يمكننا رعاية الطفل إسلاميًا ، **ومن هذه الأهداف العملية :**

١ - الاهتمام بالأسرة من خلال العمل على حسن تكوينها واستمرارها وتحسين ظروفها والعمل على استقرارها وتماسكها تمهيدًا لخلق مُناخ اجتماعي سليم يساعد على تنشئة الطفل تنشئة اجتماعية سليمة .

٢ - الاهتمام بدفع الأسرة نحو الاهتمام بأسلوب وطريقة تنشئة الأبناء وفق الأسس والقواعد الإسلامية عن طريق تعريفهم إياها ، وتفهيمهم لها ومساعدتهم على كيفية تحقيقها .

٣ – الاهتمام في العملية التعليمية بتوجيه المربين والمعلمين نحو الاهتمام بالنشأة الإسلامية وتكوين المنهج وفق هذا المنهج الإسلامي .

٤ – الاهتمام بإقامة الأنشطة الاجتماعية والرياضية والثقافية للأطفال ، بما يحقق التوجيه النفسي والاجتماعي السليم ، وخاصة داخل البيت وفي الوحدات والمؤسسات الاجتماعية الأخرى .

٥ – ترشيد وسائل الإعلام لوضع برامجها الخاصة بالأطفال والموجهة إليهم وإلى المربين والموجهين والمعلمين والآباء في إطار المنهج الإسلامي .

٦ – الاهتمام بالجمعيات الخيرية الإسلامية ، وتدعيم الدور الاجتماعي فيها للأخصائيين الاجتماعيين في رعايتهم برعاية الأطفال ، ومساندتهم للدعوة الدينية ورجال الدين الإسلامي للقيام بدورهم الإيجابي في توضيح خطورة اتباع أسس وقواعد غير إسلامية أو التقاعس عن التعامل بالقواعد الإسلامية .

٧ – رفع المستوى الاجتماعي والتعليمي والثقافي والمادي للتجمعات المحلية ، وذلك عن طريق أجهزة المجتمع ومؤسساته الاجتماعية المختلفة ، وخاصة جمعية تنمية المجتمع .

٨ – تطوير وتدعيم الأجهزة الاجتماعية والمنظمات المختلفة العامة في مجال الطفولة ، حتى يمكنها إقامة الأسس والقواعد الإسلامية وأوجه الرعاية الإسلامية للطفل وترجمتها لخلق الفهم الواضح والممارسة الحقيقية للرعاية .

٩ – دفع أجهزة ومنظمات الخدمة الاجتماعية لتتحمل مسؤولية إقامة السياسة الاجتماعية وفق المنهج الإسلامي بما يتيح النشأة الإسلامية للأطفال .

خامسًا : المدخل الوقائي في الخدمة الاجتماعية وكيفية استخدامه لرعاية الطفل إسلاميًّا

على الرغم من عدم إنكارنا أن الخدمة الاجتماعية نشأت علاجية واستمرت في إطارها العلاجي لفترات طويلة ، قبل أن تتحول أهدافها إلى أهداف وقائية وإنشائية ، ثم تنموية بانتقالها إلى العالم الثالث . إلا أن الاسترجاع التاريخي للخدمة الاجتماعية ، يوضح أنها انطلقت في عملها من الأسرة والاهتمام بأفرادها على أساس أنها الوحدة الأساسية المجتمع ينطلق منه أفرادها في جميع الوحدات الاجتماعية الأخرى مؤثرين ومتأثرين .

وإذا كنا نؤمن تمامًا أن رعاية الطفل تتوقف على هذه الأسرة سواء عند تكوينها أو في

مرحلته الجنينية ، ثم في مرحلة الرعاية المباشرة له بعد ولادته مباشرة حتى يصبح شابًّا .

ومن ثَمَّ نرى أن الخدمة الاجتماعية لا بد أن تقيم برامجها الوقائية من خلال المراحل الثلاثة للرعاية التي أشرنا إليها سابقًا .. لذلك سوف نستعرض هذا المدخل من خلال هذه المراحل على النحو التالي :

١ - المرحلة الأولى .. وهي مرحلة الإعداد والانتقاء :

- ماهية المرحلة :

وهي المرحلة الاختيارية التي يتم خلالها تحقيق التآلف بين رجل وامرأة لتكوين بناء أسري سليم ، لذلك فإن اختيار الرجل والمرأة لتكوين البنية الاجتماعية الناشئة يجب أن يتم على أساس سليم ، حتى ينشأ الطفل كجنين آمن ويتم رعايته كطفل ؛ ومن ثَمَّ كانت هناك دعوة صريحة واضحة لاختيار الأعمدة الأساسية لهذا البناء الاجتماعي اختيارًا سليمًا ، قبل البدء في التفكير لإنجاب جيل يحمل طباعه ، فإذا كان الأساس المختار سليمًا صحيحًا - كان لهذا الجيل البيئة الاجتماعية السليمة والمناخ الأسري الاجتماعي السليم ، الذي يتيح للطفل حرية الحركة ، وحركة الانطلاق والنمو .. لذلك كانت دعوة النبي ﷺ لتكوين هذا البناء ، طالما لدينا المقدرة على قيمة واضحة تمامًا ، حين قال رسول اللَّه ﷺ : « **من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم** » [١] ، وأرى أن مفهوم الباءة مفهوم شامل للقدرة .. فهي القدرة المالية والجسمية والنفسية والعقلية والاجتماعية ، بالإضافة إلى القدرة على تحمل المسؤولية والقيام بمهام الزوج ؛ لأن الإسلام حلل المقصود الأسمى من الزواج الشرعي في ثلاثة أمور ، هي في أهميتها على الوجه التالي : [٢]

* إنجاب ذرية .
* التعاون على الحياة الكريمة .
* تلبية نداء الغريزة الجنسية .

ولتحقيق أغراض الإسلام في الزواج ، وضعت القواعد والأسس حتى لا يترك الإنسان حائرًا ، بل يهتدي بها كمنارات في طريق حياته الأسرية حتى يتم من خلالها

---

(١) الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، القاهرة ، دار الريان للتراث ، (١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م) (٨/٩) .

(٢) عطية صقر : موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام ، الجزء الأول ، مراحل تكوين الأسرة ، القاهرة ، الدار المصرية للكتاب ، (١٤١٠هـ ، ١٩٩٠م) ، (١٥١/٢) .

رعاية الأسرة بأطفالها . وليس هناك منارات أقوى نورًا ، ولا أصول أحكم من التي وضعها العليم الخبير ﷻ : ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه : ١٢٣] .

ومن هذا المنطلق نجد أن الزواج فطرة إنسانية لها طبيعة اجتماعية لتحقيق مصلحة اجتماعية بناء على أسس أهمها الانتقاء والاختيار ، **ولذلك فللزواج ثلاثة جوانب أساسية لها أهميتها .. وهذه الجوانب** (١) هي :

أ - الزواج فطرة إنسانية .

ب - الزواج مصلحة اجتماعية .

جـ - الزواج انتقاء واختيار .

وهنا يأتي دور الخدمة الاجتماعية الوقائية في تحقيق كل من :

١ - العمل على تحقيق حالة الوعي الاجتماعي لدى أفراد المجتمع وخاصة المقبلين على الزواج وأسرهم ؛ لتفهم العلاقة الاجتماعية الزواجية والغرض من إقامتها فهمًا اجتماعيًا ودينيًا سليمًا وفق الأسس الاجتماعية الإسلامية .

وتنطلق حالة الوعي الاجتماعي من خلال جانبين أساسيين .. هما :

أ - الزواج فطرة إنسانية .

ب - الزواج مصلحة اجتماعية .

وسوف نقوم باستعراضهما على النحو التالي :

أ - الزواج فطرة إنسانية :

ويؤكد اللَّه تعالى : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠] ، وروى البخاري ومسلم عن أنس ﷺ : (جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألونه عن عبادته ، فلما أخبروا كأنهم تَقالُّوها « وجدوها قليلة » ، فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا . فجاء رسول اللَّه ﷺ فقال : « **أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما واللَّه إني لأخشاكم لله**

---

(١) عبد الله ناصح علوان : تربية الأولاد في الإسلام ، بيروت ، دار الطباعة للنشر والتوزيع ، (١٤٠١هـ ، ١٩٨١م) ، (٢٧/١) .

وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » [١] فمن هذه النصوص يتبين لنا أن الزواج في الإسلام فطرة إنسانية ؛ ليحمل المسلم في نفسه أمانة المسؤولية الكبرى تجاه من له في عنقه حق التربية والرعاية والتنشئة .

ب – الزواج مصلحة اجتماعية :

نستعرضها ونبيِّن أوجه ارتباطها بتنشئة الأطفال تنشئة اجتماعية سليمة في الآتي :

– المحافظة على النوع الإنساني : وذلك ببقائه وتكاثره وتسلسله إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها .. ويؤكد هذه الحقيقة اللَّه في قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٢] .

– المحافظة على الأنساب : وما فيها من اعتبار ذاتي للطفل واستقرار نفسي له ، ولولا ذلك لعج المجتمع بأولاد لا كرامة لهم وانتشر الفساد والإباحية .

– سلامة المجتمع من الانحلال الخلقي ؛ حتى يأمن الأفراد من التفسخ الاجتماعي ، وما أصدق ما قاله رسول اللَّه ﷺ في هذا الشأن : « **يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ؛ فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء** » [٢] .

سلامة المجتمع من الأمراض : بالزواج يسلم المجتمع من الأمراض السارية الفتَّاكة التي تنتشر بين أبناء المجتمع نتيجة للزنى وشيوع الفاحشة والاتصال الحرام ، ومن هذه الأمراض : مرض الزهري وداء السيلان (التعقيبة) .... وغيرها من الأمراض الخطيرة التي تقضي على النسل أو تجعله نسلًا مريضًا أو ضعيفًا ، وتنشر الوباء وتفتك بصحة الأولاد .

– الزواج سكن هادئ ومستقَر : وأكد على ذلك اللَّه تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١] ، ولا يخفى ما في هذا السكن الآمن المستقر من حافز على تربية الأولاد ، والاعتناء بهم ، والرعاية لهم .

– التعاون في بناء الأسرة وتربية الأبناء ، فكلا الزوجين يكمل بعضهما الآخر ، فالمرأة

---

(١) صحيح البخاري (٦/٩ ، ٧) .

(٢) صحيح البخاري ، (٨/٩) .

تقوم بأعمال البيت وإدارته وتربية الأبناء ، والرجل كزوج يسعى ويعمل في شق الأعمال حتى يستخدم عائدها في إعداد أولاده إعدادًا شاملًا وتربية جيل مؤمن بالإسلام حق الإيمان ويقوم على حماية الأسرة من كل الأخطار .

- تأجج عاطفة الأبوة والأمومة وهدفها ينصب في خلق مناخ أسري فيَّاض بالأحاسيس والعواطف ينعكس في رعاية سليمة للأبناء ، والسهر على مصالحهم وتحمل تبعات هذه التنشئة .

٢ - العمل على خلق حالة الوعي لدى أفراد المجتمع مع الأسس الاختيارية الإسلامية التي تحقق أسرة إيمانية قوية مكونة من البنين والبنات في ذروة الإيمان المكين والجسم السليم والخلق القويم والعقل الناضج والنفس المطمئنة الصفية ... والمساعدة على تحقيق ذلك .

ونستعرض أهم هذه الأسس والقواعد الإيمانية على النحو التالي : -

أ - الاختيار على أساس الدين :

وجوب اختيار الأكثر تدينًا سواء للزوجة أو الزوج - وهذا لا يخالف العرف الاجتماعي ، بل يتماشى معه القائل بأن : « شبيه الشيء ينجذب إليه » [١] أرشد النبي صلوات اللّه وسلامه عليه راغبي الزواج بأن يظفروا بذات الدين ؛ لتقوم الزوجة بواجبها الأكمل في أداء حق الزوج وأداء حق الأولاد وأداء حق البيت على النحو الذي أمر به الإسلام ، وحض عليه الرسول عليه السلام .

روى البخاري ومسلم وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « **تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك** » [٢] ، ويؤكد الرسول عليه الصلاة والسلام على هذا المعنى بقوله : « **إن الدنيا كلَّها متاع وخير متاعها المرأة الصالحة** » [٣] .

وهذه الزوجة هي الكفيلة باستقرار بناء الأسرة واستعصائها على الزلزلة والإضراب ، وهذا ما وجه الإسلام إليه راغبي الزواج ونجده في قول اللّه تعالى : ﴿ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢١] .

---

(١) زيدان عبد الباقي : الأسرة والطفولة ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، (١٣٨٩هـ ، ١٩٧٩م) ، (ص ٧٣) .

(٢) صحيح البخاري ، (٣٨/٩) .

(٣) صحيح البخاري ، (٢٧/٩) .

وفي هذا دلالة على أن مبدأ الاختيار قائم على اعتبار سلامة العقيدة والخلق والاتجاه ، قبل اعتبار الوضاءة والجمال .

ونستطيع أن نرى صورة الزوجة المثالية في نظر الإسلام من خلال إجابة النبي ﷺ لما سئل : أي النساء خير؟ إذ قال : « **التي تسره إذا نظر ، تطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه في نفسها ، ولا ماله بما يكره** » (١) .

ومن خلال هذا الحديث ، نرى أن هناك مجموعة من الصفات للزوجة المثالية في الإسلام :

* بعضها يتصل بجانب الجسد والجمال .

* بعضها يدل على شرف النفس وطهارة السريرة ونضج الخلق ، مما يدل على تكامل نظرة الإسلام إلى الزوجة الصالحة وشمولها لكل الأزمان ، فالذي ينبغي هو اتباع الفطرة وتوازنها (٢) .

ب – الاختيار على أساس الأصل والشرف :

والزواج من أسرة عريقة عرفت بالصلاح والخلق ، وأصالة الشرف ، لكون الناس معادن يتفاوتون فيما بينهم وضاعةً وشرفًا ، ويتفاضلون فسادًا وصلاحًا .

وروى ابن ماجه ، والدارقطني ، والحاكم ، عن عائشة رضي الله عنها مرفوعًا : « تخيروا لنطفكم وانكحوا الأَكْفَاء » (٣) .

وروى ابن ماجه والدارقطني عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « **تخيروا فإن العِرق دسَّاس** » (٤) .

وروى ابن عدي في الكامل مرفوعًا : « تزوجوا في الحجر الصالح فإن العرق دساس » وقال أيضًا : « إياكم وخضراء الدمن » ، قيل : ما خضراء الدمن يا رسول اللّه ، قال : « **المرأة الحسناء في المنبت السوء** » .

فهذه الأحاديث بمجموعها ترشد راغبي الزواج إلى أن يختاروا زوجات ترعرعن في بيئة صالحة ، ونشأن في بيت عريق ، عرف بالشرف والطيب ، وتناسلن من نطفة انحدرت من أصل كريم ، وجدود أمجاد .

---

(١) صحيح البخاري ، (٢٨/٩) .

(٢) مصطفى عبد الواحد : الأسرة والسلام ، جدة ، دار البيان العربي ، (١٩٨٤م) ، (٤/ ٢٥) .

(٣) صحيح البخاري ، (٢٩/٩) .

(٤) صحيح البخاري ، (٣٠/٩) .

جـ – الاغتراب في الزواج :

ونعني به زواج الفرد من أجنبية ، ونعني بأجنبية هو أن لا يكون له صلة بها عن طريق القرابة ، وهذا يحقق نتائج إيجابية من حيث سلامة البناء وراثيًا ، ومن ثم سلامة أجسامهم من الأمراض السارية أو العاهات الوراثية أو هما معًا ، وكذلك توسيعًا لدائرة الروابط الأسرية وتقوية للروابط الاجتماعية ...

وقد حذر النبي ﷺ من الزواج بذوات النسب والقرابة حتى لا ينشأ الولد ضعيفًا أو مريضًا ، فمن تحذيراته في هذا الشأن : « **لا تنكحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاويًا** » [١] وقوله : « **اغتربوا ولا تضووا** » [٢] .

وقد أثبت علم الوراثة أن الزواج بالقرابة يجعل النسل ضعيفًا من ناحية الجسم ، ومن ناحية الذكاء ، ويورث الأولاد صفات خلقية ذميمة ، وعادات اجتماعية مستهجنة [٣] .

د – تفضيل ذوات الأبكار :

وقد ألح عليه الصلاة والسلام عن بعض الحكمة بالزواج بذوات الأبكار فقال عليه الصلاة والسلام – فيما رواه ابن ماجه والبيهقي : « **عليكم بالأبكار فإنهن أعذب أفواهًا ، وأنتق أرحامًا ، وأرضى باليسير** » [٤] .

هـ – تفضيل الزواج بالمرأة الولود :

وهي في الإسلام تعرف بشيئين ... هما : **الأول** : سلامة جسمها من الأمراض التي تمنع من الحمل ويستعان بمعرفة ذلك بالمختصين .

الثاني : النظر في حال أمها وحال أخواتها المتزوجات ، فإن كن من الصنف الولود فعلى الغالب هي تكون كذلك .

وإذا استطعنا أن نتأكد من ذلك على أساس صحة جيدة وجسم قوي سليم تستطيع أن تنهض بأعبائها المنزلية وواجباتها التربوية ، وحقوقها الزوجية على أعلى درجة .

إذن ننطلق في هذه المرحلة على أن تربية الأولاد في الإسلام ، يجب أن تبدأ بزواج مثالي يقوم على مبادئ ثابتة الأثر في التنشئة وفي إعداد الجيل تكوينًا وبناءً ..... ألا فليتذكر أولو الألباب .

(١، ٢) أخرجه أبو السعادات في النهاية في غريب الأثر ، (١٠٦/٣) .

(٣) عبد الله ناصح علوان : مرجع سبق ذكره ، (ص ٣٩) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في كتاب النكاح ، باب تزويج الأبطال ، (٥٩٨/١) .

ونجد أن الخدمة الاجتماعية الوقائية في هذه المرحلة تتحرك من خلال :

أ – الاستراتيجية التي يستخدمها الأخصائي الاجتماعي في هذه المرحلة :

وهي استراتيجية الاقتناع ؛ وهي تفترض اتفاق أفراد المجتمع – شباب وفتيات وأسرهم في المجتمع – على اعتناق فكر معين على أساس القيم التي تعتنقها ، ولذلك يجب أن يتحرك الأخصائي الاجتماعي نحو العمل على تأكيد القيم الإسلامية التي يعتنقها الأفراد والجماعات وأسرهم ، والتي تساعدهم على الاتفاق حول خلق حالة الوعي الكامل بأهمية الأسس والقواعد الإسلامية في عملية الزواج وبناء أسرة ونشأة جيل إسلامي .

ب – الوسائل والمؤسسات :

يستخدم الأخصائي الاجتماعي لعدد من الوسائل المتنوعة على النحو التالي : المقبلات المهنية في مكاتب المقبلين على الزواج (مع الشباب والفتيات المقبلين على الزواج) وفي مكتب الاستشارات الأسرية (مع أسر هؤلاء الشباب والفتيات) ، وذلك بغرض دفعهم وحثهم على مراعاة الأسس والقواعد الإسلامية في عملية الزواج .

* الندوات والمناظرات والمؤتمرات في جمعيات تنمية المجتمع والأندية الاجتماعية والساحات الشعبية (الشباب والفتيات وأسرهم) في المدارس والجامعات (مع الشباب والفتيات في مرحلة الزواج) .

* مجلات الحائط والتي تتركز أكثر في المدارس والجامعات والأندية ، للشباب المقبل على الزواج .

* وسائل الإعلام المختلفة وخاصة في الإذاعة والتلفزيون التي تصل لأغلبية أفراد المجتمع داخل بيوتهم ، بالإضافة إلى الإذاعة الداخلية في المدارس والأندية ، بالإضافة إلى الصحف والمجلات المختلفة التي لا بد وأن يكون جزء من جوانبها السياسية مخصص للنشأة الاجتماعية الإسلامية السليمة للأسرة .

الكتيبات والنشرات الاجتماعية التي يمكن أن تقوم بها جمعيات تنظيم الأسرة ومكتب المقبلين على الزواج ، وتوزيعها بأرخص الأثمان أو بدون مقابل .

جـ – الأدوار التي يمارسها الأخصائي الاجتماعي في هذه المرحلة :

ويمكن أن نتصور هذه الأدوار على النحو التالي : [١]

---

(١) سيد أبو حسانين : طريقة الخدمة الاجتماعية في تنظيم المجتمع ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، (١٩٧٤م) ، (ص٤١ ، ٤٧٣) .

١ – دور الأخصائي الاجتماعي كمرشد :

– المبادأة بالاتصال بأفراد المجتمع كأسر وكمجتمع محلي ... دون أن يطلب منه مساعدتهم على خلق حالة الوعي بالأسس والقواعد الإسلامية ، وعملية الاختبار ، وبناء الأسرة ورعاية النَّشَأ ...

– التحرك نحو دوره في تقبل التطورات والأوضاع الواقعة كما هي بدون تحيز .

– شرح دور الاجتماعي المهني ، ومحاولته إفهام الجميع وتقبله ويتصرفون على أساس ذلك الفهم .

يعمل الأخصائي الاجتماعي كمرشد لتوجيه أفراد المجتمع للأسس والقواعد الإسلامية ، وإيجاد الوسائل لتحقيقها ، وتتلخص مسؤولياته في مساعدة المجتمع على اختيار الاتجاه الذي يرغبه بدقة ، مراعيًا العوامل المتعددة التي تؤثر في المجتمع .

٢ – دور الأخصائي الاجتماعي كمساعد :

– يتركز في العمل على مساعدة أفراد المجتمع على عدم الرضا عن الأحوال السيئة الموجودة في المجتمع والناتجة من الأسس والقواعد الوضعية في بناء الأسرة أو رعاية النَّشَأ .

– خلق الرغبة وتهيئة الاستعداد وتشجيع أفرد المجتمع – وكذلك المؤسسات الاجتماعية – نحو المطالبة بمساعدتهم لخلق حالة الوعي بالأسسس والقواعد الصحيحة الإسلامية في هذا الشأن .

٣ – دور الأخصائي الاجتماعي كخبير :

وهو مد الأسرة والأفراد المقبلين على الزواج بالمعلومات الكافية ، سواء عن طريق المقابلات الفردية أو الجماعية أو عن طريق المؤسسة الدينية المتخصصة في هذا الشأن ، حتى يكون لديهم الإلمام الكافي بالأسس والقواعد الإيمانية التي يتم من خلالها بناء الأسرة ورعاية النشأة وفوائدها وأهمية اتباعها .

٤ – دور الأخصائي الاجتماعي كمنظم للتغير : يجب أن يحدد الأخصائي الاجتماعي الوقائي المؤسسات والهيئات التي يجب أن تتحمل تلك المسؤوليات .

– يجب أن يوضح الحاجة إلى تكوين هيئات ومؤسسات جديدة وخاصة في بعض البيئات التي لا توجد فيها مثل هذه المؤسسات المسؤولة إذ لزم الأمر .

٥ – دور الأخصائي الاجتماعي كمستثير : يقوم الأخصائي الاجتماعي في هذا الدور

باستثارة أفراد المجتمع والمؤسسات التي يعمل معها ، مستخدمًا في ذلك ومركِّزًا على حالات عدم الرضا التي يشعر بها بعض الأفراد ، حتى يكون لديهم ولدى الآخرين الرغبة والاستعداد لتقبل حالة الوعي الجديد والعمل على تحقيقها .

٢ – المرحلة الثانية ... وهي المرحلة الجنينية :

تهدف الخدمة الاجتماعية فيها إلى إقامة الاستقرار الأسري الذي يساعد على خلق المناخ النفسي والاجتماعي السليم الذي يحافظ على الأم وجنينها . ويأتي ذلك من خلال أهداف عملية وهي :

١ – المساهمة في استقرار الأسرة وتماسكها .

٢ – المساهمة في خلق الوعي ، وتوضيح وشرح الأسس والقواعد التي يجب أن تراعي للأم الحامل والجنين في كافة الحالات بما أوضحته الشريعة الإسلامية .

ويمكن استعراض تلك القواعد والأسس على النحو التالي :

– الدعوة للَّه بمباركة هذا الخلق الجديد (المولود) :

وذلك عن طريق الدعوة له أن يصون هذه النطفة عند وضعها ويحميها من النزعات الشيطانية ... حيث قال ﷺ : « **لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله فقال : بسم اللَّه ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فإنه إذا قدِّر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبدًا** » (١) .

– العناية بالأم أثناء حملها :

ويهدف من وراء هذه العناية المحافظة على الأم وعلى جنينها حتى لا يتعرضا للهلاك أو التعب أو المرض أو التشوه ، كما حرص أكثر على الجنين خوفًا من تعرضه للنقص أو السقوط ، **ولهذا فقد اهتم الإسلام بالآتي :**

أ – أباح الشارع للحامل الفطر في رمضان إذا خافت على نفسها أو ولدها أو تعرضهما للإرهاق والتعب والمرض ، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « **إن اللَّه وضع عن المسافر شطر الصلاة وعن الحامل وعن المرضع الصوم** » (٢) .

---

(١) صحيح البخاري ، (١٣٦/٩) .

(٢) صحيح البخاري ، (٨٩/١) .

ب – مطالبة الأم بالاهتمام بصحتها وتناول الأغذية المناسبة لحالتها ، والتي تتوافر فيها كافة العناصر الغذائية الضرورية لتكوين الجنين وحمايته واكتمال نموه .

– منع المرأة من فعل ما يعرض الجنين أو يلحق به الأذى أو يؤدي إلى الإجهاض ، سواء أكان ذلك بواسطة عمليات جراحية ، أو تناول بعض الأدوية التي ربما تؤدي إلى سقوط الجنين أو الإضرار به .

– بل زاد على ذلك ورتب المشرع عقوبات بدنية ومالية تلزم من يتعدى على الجنين .. فقد ثبت عن أبي هريرة ﷺ .. « أن امرأتين رمت إحدهما الأخرى بحجر فطرحت جنينها ، فقضى النبي ﷺ بضرة عبد أو وليدة » .

وعن أبي هريرة قال : اقتتلت امرأتان من هزيل فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها ، فاختصموا إلى رسول اللَّه ﷺ فقضى رسول اللَّه ﷺ أن دية جنينها تمرة عبد أو وليدة قضى بدية المرأة على عاقلتها .

– **تحريم الإجهاض** : ونعني به إسقاط المرأة جنينها بفعل منها عن طريق دواء أو غيره بفعل من غيرها . وقد أجمع الفقهاء على منع إسقاط الجنين بعد نفخ الروح ، وأكثرهم يرى المنع من ذلك قبل نفخ الروح أيضًا ، ورتبوا عقوبة على الجاني تتمثل في الغرة والكفارة أو الدية مع الكفارة ، بل إن العقوبة قد ترمي إلى حد القود من إيمان [١] .

– إخراج الجنين حي عند موت الحامل : فقد عُنى الفقهاء بالمحافظة على حياة الجنين عند وفاة أمه ، ولو لم يكن ذلك إلا بشق بطنها . جاء في الفقه الشافعي : وإن ماتت المرأة وفي جوفها جنين حي شُق جوفها ؛ لأنه استبقاء حي بإتلاف جزء من الميت فأشبه ما إذا اضطر إلى أكل جزء من الميت .

– المحافظة على حقوق الجنين المالية : أثبت الشارع الأهلية للجنين ولكنها أهلية ناقصة ، حيث أثبت له حق الإرث والوصية والوقف .

– وصل الشارع إلى حدٍّ أبعد من هذا كلِّه حين أجل إقامة الحد على المرأة الحامل حتى تضع حملها ، بل وأكثر من ذلك حتى يتم فطمه .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إذا قُتِلت المرأة حدًّا لم تُقتل حتى تضع ما في بطنها ، وحتى تكفل ولدها** » .

---

(١) محمد بن أحمد صالح ، مرجع سبق ذكره ، (ص ٤٣) .

٣ – تقديم الخدمات الاجتماعية المختلفة التي يمكن أن تساعد بشكل مباشر وغير مباشر في رعاية الأم نفسيًّا ، واجتماعيًّا ، وصحيًّا ، وترفيهيًّا .

٤ – تدعيم بعض الأسر ماديًّا ، للمحافظة على صحة الأم والجنين وذلك عن طريق :

– عدم إجهاد الأم العاملة أثناء حملها عن طريق تخفيف الأعمال التي تقوم بها حجمًا ونوعًا ، أو إعطائها إجازة عن العمل ، مع المحافظة على المستوى المادي للأسرة .

– العمل على عدم تعرض الأم للقيام أو الاستمرار بالأعمال التي يمكن أن تسبب بعض التشوهات أو الأمراض للجنين ، مثل تعرضها للأشعة السينية ، أو تعرضها لإجهاد المواصلات .

– المساهمة المباشرة في علاج الحامل في حال تعرضها للإصابة بالأمراض المعدية نظرًا لانعكاسها على جنينها .

– رفع المستوى المادي لبعض الأسر للمحافظة على صحة الأم ومستوى غذائها لما له من انعكاس على صحة الأم وجنينها .

٥ – العمل على إقامة الندوات والمحاضرات ، سواء في جمعيات رعاية الأمومة والطفولة أو في جمعيات تنمية المجتمع المحلي ، أو مكاتب رعاية الأسرة يكون الهدف الأساسي منها أيضًا الأسس والقواعد الإسلامية والعلمية المرتبطة بصحة الأم ونوع الأغذية ومستواها .

٦ – توزيع النشرات والكتيبات على الحامل المتعلمة أو التي تعرف القراءة ، والتي توضح من خلالها كثيرًا من استفساراتها المرتبطة بالجوانب الإسلامية والعلمية ، ومنها عملية الإفطار في رمضان ، وكيفية التعويض عن ذلك وكذلك مدة الحمل ، وعلاقتها الجنسية بزوجها ، ونوع ومستوى التغذية وتدرج رعايتها بنفسها وجنينها طبقًا لجدول زمني .

٧ – القيام بعرض بعض الأفلام التسجيلية وخاصة للحامل الأمية ، يتم من خلالها إيضاح كيفية اهتمامها بصحتها وصحة جنينها وتغذيتها ، والطريقة الصحية للنوم ، وعدد الساعات التي يجب أن تنامها ، وتفضيل مواعيد معينة ، وكيفية قيامها بمسؤولياتها في البيت حتى لاتتعرض هي وجنينها للأخطار .

٨ – استخدام البرامج التلفزيونية الخاصة بالطب والصحة ، وكذلك البرامج الاجتماعية في استعراض كيفية الاهتمام بالزوجة الحامل والمحافظة على جنينها من جانب الزوج والأهل والأقارب ، وعدم تعرضها للأخطار أو الإجهاد أو الانفعالات السيئة .

obeikandl.com

المرحلة الثالثة : مرحلة الرعاية المباشرة للطفل :

وهي المرحلة التي تبدأ منذ ميلاد الطفل حتى سن البلوغ ، وننبه الأذهان إلى أنها تحتاج إلى كافة التخصصات المهنية المختلفة لرعايته صحيًّا ، ونفسيًّا ، وعقليًّا ، واجتماعيًّا ، وإيمانيًّا ، إلا أن تولي مسؤولية الرعاية تقع في المقام الأول على الأبوين أو الأسرة والمؤسسات العاملة معها .

ومن هنا يأتي دور الخدمة الاجتماعية في تجاهها الوقائي في المقدمة ، على أساس أنها مهنة تهتم بخلق حالة الوعي لدى الأبوين نحو الاهتمام بطفلهما منذ البداية اهتمامًا اجتماعيًّا خالصًا من جميع الأوجه .

وبذلك نجد أن على الخدمة الاجتماعية في مدخلها الوقائي تحقيق أهدافها في هذا الشأن من خلال ثلاث نقاط أساسية هي :

١ - تفاعلها مع الوحدات الاجتماعية التي تقوم برعاية الطفل تفاعلًا إسلاميًّا .

٢ - المساهمة الحقيقية في رسم سياسة اجتماعية إسلامية .

٣ - توجيه أجهزة العلم توجيهًا إسلاميًّا .

ومن ثَمَّ لو استطعنا تدعيم الوحدات التي تتعامل مع الطفل وخلق حالة الوعي لديها بكيفية التعامل معه وكيفية تحقيق ذلك من خلال سياسة اجتماعية موجهة ، يتم بناؤها وتوجيهها إسلاميًّا وترشيد البرامج الإعلامية المختلفة ، لأمكننا بناء الإنسان والطفل المصري إسلاميًّا ، ولكن كيف يتم ذلك ؟ الإجابة تتم من خلال تعامل الخدمة الاجتماعية مع العناصرالثلاثة ، ألا وهي :

العنصر الأول : الوحدات التي تتعامل مع الطفل :

تتم عملية رعاية الطفل وتنشئته تنشئة اجتماعية في جميع المجتمعات من خلال طريقتين [١] هما :

الأولى : عن طريق التربية والتعليم والتنشئة التي تقوم بها الجماعات الأولية نحو الطفل وعلى الأخص جماعة الأسرة ، بصفتها الجماعة المحورية الأولى في عملية تنشئة الطفل ورعايته .

---

(١) جمال مجدي حسانين : دراسات في التنمية الاجتماعية ، القاهرة ، دار الطباعة للجماعات ، (١٩٨٧م) ، (ص ٥٦ ، ٥٧) .

الثانية : عن طريق عمليات التربية والتعليم التي تقوم بها الجماعات الثانوية نحو الطفل ، وعلى الأخص جماعة المدرسة وجماعة التليفزيون بصفتهما الجماعتين المحوريتين التاليتين في عملية التنشئة الاجتماعية .

وكلا الطريقتين يكمل بعضهما البعض ، إلا أنه في غالبية المجتمعات المتقدمة تلعب الجماعة الثانوية دورًا رئيسيًّا في عملية التنشئة الاجتماعية ، وذلك بحكم التطور الأكبر الذي طرأ على وظائف هذه الجماعات بحيث أصبحت تحتوي على الجزء الأكبر من العملية في غالبية المجتمعات الصناعية المتقدمة ، والعكس صحيح ففي غالبية المجتمعات المتخلفة أو النامية حيث تلعب الجماعات الأولية الدور الرئيسي في عملية التنشئة الاجتماعية للطفل حتى الآن ، وذلك بحكم ضعف وعجز الجماعات الثانوية عن القيام بوظائفها المماثلة في المجتمعات المتقدمة [١] .

ولذلك سوف نركز على الأسرة والمدرسة كوحدات تتعامل مع الطفل كمحاور أساسية في رعاية الطفل :

أولًا : الأسرة :

لما كانت الأسرة بمثابة الجبهة الاجتماعية الأولى التي تتلقى الطفل ، وبدونها لا يستطيع الحصول على ما يشبع مختلف حاجاته البيولوجية والاجتماعية والنفسية ، بل بدونها يمكن أن يفقد حياته كلها ، بل إن التنشئة الاجتماعية السليمة للطفل ، لا تتحقق بصورة طبيعية إلامن خلال الأسرة الطبيعية [٢] .

ترجع أهمية الأسرة كوحدة محورية في رعاية الطفل وتنشئته إلى :

* ما أكدته مدارس علم النفس ، وخاصة مدرسة التحليل النفسي على أهمية السنوات الخمس الأولى من حياة الطفل – في تشكيل شخصيته الأساسية ، وهذه الفترة يكون فيها الطفل داخل نطاق الأسرة ، متأثرًا بكل ما فيها من قيم واتجاهات ورعاية ، فإذا كان المناخ الأسري سليمًا يحقق ويشبع حاجاته ويرعاه ، تكوَّن لنا بناء ذاتي سليم للطفل ، وإذا كان العكس يكوَّن لنا العكس ..

* قد أكد علماء الاجتماع والتربية الحديثة أن الفرد في السنوات الأولى من عمره

---

(١) جمال مجدي حسانين : دراسات في التنمية الاجتماعية ، القاهرة ، دار الطباعة للجماعات ، (١٩٨٧م) ، (ص٥٣) .

(٢) زيدان عبد الباقي : مرجع سبق ذكره ، (ص٣٥٢ ، ٣٥٣) .

يقلد ما يراه من سلوك داخل نطاق أسرته من عادات وتقاليد ومفاهيم وقيم دينية واجتماعية ، وكذلك كيفية التعامل مع الآخرين [١] .

* أكدت العديد من الدراسات ، أن حدوث أية تغيرات في البيئة المباشرة المحيطة بالطفل (الأسرة) في السنوات الأولى من عمره من شأنها أن تساعد إلى حد كبير في ارتقائه النفسي الاجتماعي بوجه عام ، ومن شأنها أيضًا أن تعطل كثير من وظائفه وقدراته كالذكاء وكالوظيفة اللغوية .

ومن هنا نجد أن أهداف الخدمة الاجتماعية مع الأسرة لرعاية الطفل تحدد في :

١ - المحافظة على الكيان الأسري واستقراره وتماسكه وثباته ، حتى يتحمل مسؤوليات وظائفية ، بعد ما تم اختياره اختيارًا إسلاميًا سليمًا ، وذلك عن طريق : -

* مواجهة الصعوبات والعقبات الاجتماعية التي تتعرض لها الأسرة والتي قد تؤدي إلى هدمها أو تصدعها أو انفصال أجزاء منها ، مما يهدد المناخ النفسي والاجتماعي الأسري .. ويعرض النشأ لهزات نفسية واجتماعية تهدد بناء كيانه الشخصي .

* مساعدة الأسرة ماديًا إذا احتاجت ذلك ، قبل أن ينعكس ذلك عليها ويحدث تصدعًا لها .

* مساعدة الأسرة على إكسابها كيفية مواجهة العوامل والصعوبات التي توجهها في البداية وبنفسها حتى تتعلم القضاء على مثل هذه الصعوبات مستقبلًا حتى لا تؤدي إلى انهيارها .

٢ - خلق حالة الوعي للأسرة (الأبوين) بالأسس الاجتماعية التي تكون بداية حقيقية لرعاية الطفل ، وذلك عن طريق تعريفهم إياها ومساعدتهم على تحقيقها كاملة .

وأن يركز البرنامج الاجتماعي لمثل هذه الندوات والمحاضرات على الأسس الاجتماعية الإسلامية لرعاية النشأ من قبل الأسرة .

وسوف نستعرض هذه الأسس الاجتماعية ، مؤكدين منذ البداية على أن كل منها تؤدي إلى الأخرى :

١ - انتماء الطفل .
٢ - التسمية .
٣ - مراعاته جسميًا .
٤ - التنشئة الإيمانية .

---

(١) محمد السيد الهابط : التكيف والصحة النفسية ، الإسكندرية ، المكتب الجامعي الحديث ، (١٩٨٥م) ، (ص١٦٥) .

٥ – الحضانة . ٦ – النفقة .

ويمكن عرضها على النحو التالي :

– الأساس الاجتماعي الأول :

انتماء الطفل منذ مولده إلى شخص يرعاه ويحميه ، وهو ما يعرف في الفقه بثبوت النسب ، وهو من أهم الأسس في الواقع الاجتماعي ؛ حيث إن انتماء الطفل إلى أبيه يحفظه من الضياع ويحميه من التشرد .

كما أن هذا الأساس الاجتماعي يترتب عليه العديد من الأسس الأخرى والحقوق الاجتماعية ، وأن فقدانه أو حتى التشكك فيه ، يؤدي إلى بلبلة اجتماعية كبيرة ، وأن ثبوت النسب يترتب عليه كل من الرضاعة والحضانة والنفقة .

الأساس الاجتماعي الثاني : التسمية :

ونقصد به اختيار اسمًا مناسبًا للمولود ، يدعى به ويميزه عن غيره من الناس ، وقد جاء توجيه الشريعة الإسلامية إلى ذلك في قول رسول اللَّه ﷺ : « **إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم ، وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم** » [١] .

وتنطلق الحكمة التي دعت الإسلام إلى تحسين الأسماء – وهي في المقام الأول حكمة اجتماعية – وانتقائها من الكلمات التي تبعث البهجة والتفاؤل حتى لا يشمئز الطفل من اسمه ولا يشعر بنفور الناس منه ، فيدعوه ذلك إلى كراهة المجتمع حوله واعتزاله إياه [٢] .

وأن التسمية لها أصول يمكن استعراضها في الآتي :

أ – ما يستحب من الأسماء وما يكره :

* أحسنها وأجملها .

* يجنبه الاسم القبيح الذي يمس كرامته ، ويكون مدعاة للاستهزاء به والسخرية عليه .

* كما يجنبه الأسماء التي بها اشتقاق من كلمات فيها تشاؤم ، حتى يسلم الولد من مصيبة هذه التسمية وشؤمها .

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الأدب باب في تغيير الأسماء (٢٨٧/٤) .

(٢) حسن أيوب : السلوك الاجتماعي في الإسلام ، القاهرة ، دار البحوث العلمية ، (١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩م) ، (ص ٢٣٦) .

* كما يجنبه الأسماء المختصة باللَّه ، فلا يجوز تسميته بالأحد ولا الصمد ولا بالخالق ولا بغيرها [١] .

* كما عليه أن يجنبه الأسماء المعبِّدة لغير اللَّه ؛ كعبد الكعبة وعبد النبي وما شابهها ، فإن التسمية بهذه محرمة بالاتفاق .

وعليه أن يجنبه الأسماء التي تميع وتشبه وفيها غرام مثل هيام ، وهيفاء [٢] .

ب – تكنية المولود بأبي فلان :

* تنمية شعور التكريم والاحترام في نفسية الطفل .

* تنمية الشخصية الاجتماعية ، لاستشعاره أنه بلغ مرتبة الكبار وسن الاحترام .

* ملاطفته وإدخال السرور عليه بمناداته بهذه التكنية المحببة إليه .

* تعويده أدب مخاطبة الكبار ومَن كان في سنه مِن الصغار . وجاء في الصحيحين من حديث أنس ﷺ قال : كان رسول اللَّه ﷺ أحسن الناس خلقًا ، وكان لي أخ يقال له أبو عمير ، وكان النبي ﷺ إذا جاءه يقول به : « **يا أبا عمير ما فعل النغير** » ، قال الراوي : أظنه كان فطيمًا .

جـ – متى يسمى الولد :

روى أصحاب السنن عن سَمُرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **كل غلام رهين بعقيقته ، تذبح عنه يوم سابعه ، ويسمى فيه ويحلق رأسه** » .

وقال رسول اللَّه ﷺ حين ولد ابنه إبراهيم من ماريا : « **ولد لي الليلة غلام فسميته باسم أبي إبراهيم** » ، والظاهر أن التسمية ممتدة من اليوم الأول إلى اليوم السابع منها ويكره أن تؤخر عن ذلك [٣] .

الأساس الاجتماعي الثالث .

مراعاته عند المولد جسميًّا :

ويأتي ذلك من خلال أبعاد أساسية :

---

(١) عبد اللَّه ناصح علوان : مرجع سبق ذكره ، (٧٩/١) .

(٢) المرجع السابق ، (ص٨٠) .

(٣) حسن أيوب : مرجع سبق ذكره ، (ص ٢٣٦) .

أ – استحباب تحنيكه عندما يولد :

والتحنيك معناه وضع التمرة ، ودلك حنك المولود بها . والحكمة في ذلك تهدف إلى تقوية عضلات الفم بحركة اللسان مع الحنك مع الفكين بالتملظ ، واستدل الفقهاء على استحباب التحنيك مما يلي : جاء في الصحيحين من حديث أبي بردة عن أبي موسى ﷺ قال : ولد لي غلام فأتيت به النبي ﷺ فسماه إبراهيم وحنكه بتمرة ودعا له بالبركة ، ودفعه إليَّ [١] .

ب – إزالة الأذى عنه كأساس لرعايته جسميًّا (حق الطفل في النظافة) :

تدعو الشريعة الإسلامية إلى القيام بالكثير من الواجبات نحوه مما يترتب عليه حمايته ووقايته وسلامته من الأمراض ، فتؤكد على إزالة كل ما من شأنه التأثير على صحته ونموه .

وإذا كانت الدعوة لذلك فلا غرو أن توجب الشريعة أمورًا تتعلق بإزالة الأذى من الطفل ، ومنها ما يرويه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال : « **الفطرة خمس : الختان ؛ والاستبراء ؛ ونتف الإبط ؛ وقص الشارب ؛ وتقليم الأظافر** » [٢] .

جـ – حقه في الغذاء :

فإن اللَّه تعالى فرض على الأم (لمن أراد أن يتم الرضاعة) أن ترضع مولودها حولين كاملين ، وقد أكدت البحوث الطبية اليوم أن المدة المثلى من جميع الأوجه الصحية والنفسية عامين كاملين ، وأنها ضرورية لنمو الطفل نموًّا سليمًا من الناحيتين البدنية والنفسية [٣] .

لذلك تعطي الشريعة الإسلامية للمحافظة على المولود كلًّا من :

* تعطي للمرضع حق الفطر في رمضان كما أوجبت عليها تناول الغذاء الذي يؤدي إلى إدرار اللبن الذي يحقق النمو السليم للطفل .

* ليس الأم مضارة للأب ، وإذا فعلت فله أن يحضر لطفله مرضعة حتى تتحقق مصلحة الطفل في هذه الرضاعة .. له ذلك على شرط أن يعطي أجرها وأن يحسن معاملتها :

---

(١) صحيح البخاري ، (٥٠٠/٩) .

(٢) صحيح البخاري ، (٥٠٣/٩) .

(٣) محمد بن أحمد صالح : مرجع سبق ذكره ، (ص ٨٢) .

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] ، فذلك ضمان لأن تكون للطفل ناصحة ، وله راعية .

* وفي حالة وفاة الأب ، فإن المسؤولية والرعاية تنتقل إلى وارثه ، ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] ، فهو المكلف أن يرزق من تقوم بإرضاع الطفل ، يكسوها بالمعروف والحسنى ، تحقيقًا للتكامل العائلي الذي يتحقق طرفه بالإرث ويتحقق طرفه الآخر بتحمل نفقات الموروث .

الأساس الاجتماعي الرابع :

التنشئة الإيمانية :

وذلك من خلال الحركة الإيمانية الأولية من خلال :

أ – الأذان في أذن المولود :

يسن الأذان بصوت خفيض في أُذن المولود اليمنى .. فعن ابن رافع ﷺ قال : رأيت رسول اللَّه ﷺ أذَّن في أذن الحسين بن علي حين ولدته فاطمة ؛ يعني أذن بالصلاة [١] رواه أبو داود والترمذي .

ب – العقيقة :

يسن ذبح شاة عن المولود الذكر والمولودة الأنثى ، والأحسن الأكمل أن يذبح عن الذكر شاتين وعن الأنثى شاة . فقد جاء في حديث صححه ابن خزيمة وغيره أن رسول اللَّه ﷺ عق عن الحسن والحسين كبشًا كبشًا [٢] .

وعن عائشة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ : أمرهم أن يعق عن الغلام شاتان متكافئتان ، وعن الجارية شاة [٣] .

جـ – التصدق بمقدار حلق شعره في اليوم السابع فضة :

وقد جاء في الحديث : أمر الرسول ﷺ أن يماط الأذى عن الوليد في اليوم السابع – وإماطة الأذى المراد بها حلق الشعر .. وجاء في حديث غير متصل أنه ﷺ أمر فاطمة ﷺ حين ولدت الحسين أن تحلق شعره وتتصدق بوزنه فضة ، فلما وزن كان

---

(١) صحيح البخاري ، (٥٠٥/٩) .
(٢) المرجع السابق ، (٥٠٦/٩) .
(٣) المرجع السابق ، (٥٠٦/٩) .

درهمًا أو أقل من درهم [١] .

الأساس الاجتماعي الخامس :

الحضانة :

تعرف الحضانة بأنها العيش - عيش الأولاد - في أحضان الأبوين عيشة كريمة ، لذلك فقد رسمت لها الطريق لكي يدوم النقاء والصفاء والمحبة والألفة والرحمة والمودة بين قطبي الأسرة (الأبوين) ، كما أنها أمرت برعاية الأولاد والمحافظة عليهم وحمايتهم وتثقيفهم من الأبوين ، وهذا ما يعرف بالحضانة ، كما أنها لا تترك الأولاد لحالة الضياع والتشتت والتشرد في حالة انفصال الزوجين ، وإنما رسمت الخطوط الأساسية لحمايتهم ورعايتهم والمحافظة عليهم حتى يصلوا إلى مرحلة تمكنهم من إدراك مصالحهم والاعتماد على أنفسهم .

ونجد أن الإسلام قد جعل للأم ، ثم لقرابتها الأقرب ، حضانة الطفل حتى يبلغ سن السابعة ، وبعدها يدخل مرحلة أخرى ، يصدر فيها حكمًا يجعله لأبيه أو لأمه أو يخير بينهما ، وذلك عدل ورحمة ووضع الأمور في مواضعها [٢] .

ولما كانت الحضانة من الأهمية بحيث يُعتمد عليها في تنشئة ورعاية الطفل وتكوينه وبناء شخصيته الاجتماعية ، فكان لا بد من أن نتأكد من توافر العديد من الشروط في القائم على حضانة الطفل ، ومنها :

عدة شروط للحضانة :

١ - ألا تكون الأم متزوجة بأجنبي عن الصغير المحضون ، مع أهليتها للتحمل (سلوكها وتدينها) والهدف من هذه السمات هو توفير الجو الصالح الذي يوفر نشأة مستقيمة .

٢ - أن تكون أمينة على نفسه وسلوكه وخلقه .

٣ - العدالة .

٤ - القدرة على التربية والرعاية والتنشئة ، ومن يثبت مرضه أو كبره فلا حق له في الحضانة .

٥ - أن الحاضنة حرة بالغة عاقلة .

---

(١) صحيح البخاري (٥٠٥/٩) .

(٢) حسن أيوب : مرجع سبق ذكره ، (ص٢٣٧) .

٦ – يشترط فيها أن تكون ذات رحم محرم للطفل ، كأمه وأخته وخالته وعمته فلا حضانة للغريبة غير المحرم كبنات الأعمام والعمات ... كما لا يثبت الحق في الحضانة للمحارم غير الأقارب .

٧ – ألَّا تكون مرتدة .

وعدة شروط للرجل الذي له حق حضانة الطفل ؛ لعدم وجود أهل لحضانته من النساء وهي :

١ – الحرية . ٢ – العقل . ٣ – البلوغ .

٤ – القدرة على تربية الطفل ورعايته . ٥ – الأمانة عليه .

٦ – أن يكون عصبة للطفل ، يقوم من يكون مقدمًا من الميراث .

٧ – وأن يكون ذا رحم محرمٍ إذا كان الطفل أنثى ، فليس لابن عمها حق حضانتها .

٨ – أن يتحدد فيها الاتحاد الذي يثبت به التوارث بينهما ، فلا يكون للرجل حق حضانة الطفل ولا ضمه ، إذا خالف دينه دين الطفل بالإسلام وغيره وجميع الديانات غير الإسلام تعتبر دينًا واحدًا هنا كما في الميراث [١] .

الأساس الاجتماعي السادس :

النفقة :

النفقة في اصطلاح الفقهاء هي : الإدرار على الشخص بما يحفظ عليه حياته ، وهي على الإطلاق تشمل الطعام والسكن والكسوة .

وقد حدد النفقة للأولاد كل جانب منها له هدفه الاجتماعي وحكمته .

الولد الصغير : « ابنًا كان أو بنتًا » إذا كان له مال حاضر أيًّا كان مقداره فلا تجب نفقته على أبيه ؛ لأنه يعتبر غنيًّا بماله ، فإن كان ماله غير جاهز فعلى الأب أن ينفق عليه حتى يحضر ماله ، أما إذا كان الصغير ليس له مال فنفقته على أبيه ، فإن كان أبوه فقيرًا وجب عليه السعي والتكسب للقيام بهذه النفقة .

وإذا كان الأب فقيرًا أو غير قادرٍ على التكسب ، أو لم تتيسر له طرق التكسب ، لزمت الأم النفقة على الصغير .. فإذا لم يكن أحد من الأقارب يستطيع الإنفاق عليه كانت النفقة في بيت مال المسلمين ، وإذا كبر الصغار فإن كانوا ذكورًا فلا تجب نفقتهم

(١) عبد الرحمن تاج : الشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية ، (١٣٨٢هـ) ، (ص٤٥٥ ، ٤٥٦) .

على أبيهم إلا إذا كانوا عاجزين عن الكسب بسبب مرض أو عاهة .

أما البنت فتجب على أبيها حتى تتزوج ، ولو لم تكن عاجزة عن الكسب ولا يجوز لأبيها أن يدفعها للتكسب أو يؤجرها في عمل أو خدمة ، فإن ذلك يعرضها للفتنة والانحراف ، ولكن إذا كان لها كسبٌ عن طريق مأمون ، كأن كانت تعمل وهي في بيتها وتكسب من ذلك ، وكان أبوها فقيرًا ، فلا تجب عليه نفقتها وإنما تنفق على نفسها من كسبها ليفي بحاجتها ، كان على أبيها أن يكمل لها بما فيه كفايتها . أما إذا كان الأب غير موسر أو غير قادر على التكسب ، لزم الأقارب نفقة البيت .

وجوب النفقة على الأولاد ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع :

يمكن أن نستعرض أوجه الرعاية الإسلامية المختلفة التي يمكن أن تحقق نشأً اجتماعيًّا سليمًا ، على النحو التالي :

أ – أوجه الرعاية الجسمية والصحية :

وهي الخدمات والأسس التي يجب اتباعها لرعاية الجانب الجسمي للطفل ، ويكون هدفها هو نشأة الأولاد على خير ما ينشدون عليه من قوة جسمية وسلامة بدنية ، وتمتعهم بمظاهر الحيوية والنشاط لذلك يجب العمل على :

* توفير وتهييء الأسرة – الأهل والأولاد – كل من الغذاء السليم الصالح ، والمسكن المناسب والكساء الملائم ، حتى لا تتعرض أجسامهم للأسقام أو تنهك أبدانهم الأوبئة والأمراض ، وتساهم مؤسسات الخدمة الاجتماعية وهي مؤسسات الضمان الاجتماعي والمساعدات المادية لتحقيق ذلك في حالة عجز الأسرة على تحقيقه .

* اتباع القواعد الصحية في المأكل والمشرب والنوم ؛ بهدف خلق عادات سلوكية صحية تحقق رعاية جسمية سليمة .

* الوقاية من الأمراض المعدية :

ونجد أن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « **فر من المجذوم فرارك من الأسد** » [١] .

وقال ﷺ : « **لا يوردن ممرض على مصحٍّ** » [٢] .

وفي تربية الأجسام والمحافظة على صحة الأبناء كان الهدي النبوي الشريف يوجه إلى إبعاد الأولاد عن بعضهم البعض ، وفصل السليم عن المريض حتى لا ينتشر المرض ويعم .

---

(١) صحيح البخاري ، (٦/٦) .

(٢) صحيح البخاري ، (٧/٦) .

* التداوي من الأمراض : يقول رسول اللَّه ﷺ : « **لكلِّ داءٍ دواءٌ** » (١) ، وهذه دعوة محمدية بأن يتجه الآباء إلى معالجة أبنائهم إذا مرضوا ؛ لأن الشريعة الإسلامية ، تؤكد على الأخذ بالأسباب ، ولذلك لا بد من الالتزام بالتوجيهات الإسلامية .

* **التعويد على الرجولة والرياضة :**

نجد أن هناك اتجاهات متعددة في هذا الشأن :

- تعويد الولد على ممارسة الرياضة وألعاب الفروسية .

وجه الإسلام إلى تعليم السباحة والرمي وركوب الخيل ، ويروي البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ كان يمر على أصحابه في الرمي فيشجعهم ويقول لهم : « **ارموا وأنا معكم كلكم** » (٢) .

- تعويد الولد على التقشف والخشونة يهدف من ورائه التعود على الحياة الصعبة وعدم التنعم ، حتى تكون التنشئة بداية حقيقية للجهاد في الكبر ، ولقد روى الإمام أحمد وأبونعيم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، مرفوعًا : **إياكم والتنعيم ، فإن عباد اللَّه ليسوا بالمتنعمين** .

- تعويد الولد على حياة الجد والابتعاد عن التراخي والميوعة والانحلال .

فقد قال رسول اللَّه ﷺ : « **كل شيء ليس من ذكر اللَّه فهو لهوٌ أو سهوٌ إلا أربع خصال : مشي الرجل بين الغرضين (أي الرمي) وتأديبه فرسه ، وملاعبته أهله ، وتعليم السباحة** » (٣) .

ب - أوجه الرعاية العقلية :

وهي مجموعة الخدمات والتوجيهات والقواعد التي لو نفذت لتكوَّن لدى الطفل فكرًا نافعًا ناضجًا واعيًا .. ولذلك يجب العمل على توعية وتعليم وتثقيف الولد منذ النشأة ، وإن آيات القرآن تؤكد على أهمية التعليم .

فنجد أن أول الآيات نزلت : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ - ٥] ، وأيضًا قول اللَّه تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩] .

وتأتي مسؤولية الخدمة الاجتماعية وخاصة مع الأسرة والمدارس نحو تحقيق المناخ

---

(١) صحيح البخاري ، (٣/٦) .
(٢) صحيح البخاري ، (٩٣/٥) .
(٣) صحيح البخاري ، (٩٤/٥) .

التعليمي الملائم والمناسب والمهني لتحقيق العقلية الناضجة في مراحلها التعليمية المختلفة .

جـ – أوجه الرعاية النفسية :

هي مجموعة الخدمات والأنشطة والبرامج التي من خلالها إقامة المناخ النفسي الاجتماعي المناسب ، بهدف تكوين شخصية الطفل النفسية ، والمحافظة على اتزانها وتكاملها ..

ونجد أن هذه الرعاية تتحرك من خلال اتجاهين أساسيين .. هما :

الأول : أن يحرر الطفل من كل العوامل والأسباب التي تحطم كيانه الشخصي ..

الثاني : أن ندفع الفرد لتكوين كيانه النفسي باتزان وصراحة ، والانضباط والتمتع بكل الفضائل الخلقية والنفسية على الإطلاق .

ونجد أن العديد من الاتجاهات النفسية الحديثة ومنها اتجاه « فروم » الذي يؤكد على أهمية الوالدين في تشكيل شخصية الطفل ، فالأبوين يشكلان اتجاهات وقيم الطفل أثناء التجارب الأسرية [١] .

قد ركز الإسلام على الاتجاهين السابقين في تحقيق الرعاية النفسية ، لذلك أراد أن يوضح بعض العوامل التي يجب أن نسعى لتحرير الطفل منها ، والتي تشترك في تحطيم كيانه الشخصي ، منها الخجل ، والخوف ، والشعور بالنقص ، والغضب .

د – أوجه الرعاية الاجتماعية :

هي مجموعة الخدمات ذات الطابع الاجتماعي التي تقدَّم للطفل من الأسرة ، يكون الغرض منها تكوين الكيان الاجتماعى له القادر على تحقيق التفاعل والتعامل ، وتكوين علاقات إيجابية سليمة مع البيئة الاجتماعية ، ويخرج هذا كله من خلال حسن المعاملة والتصرف ، والأدب ، والاتزان الاجتماعي ، والتعرف الحكيم ولذلك لا بد وأن تتكون مقابلات الأسرة والمؤسسات المختلفة معها موضحة لها مثل هذه الأشياء .. والتي يمكن تحديدها في كل من :

– بناء الأصول الاجتماعية العامة :

وهي أصول تغرس منذ الصغر في الطفل وأهمها : التقوى والأخوة والرحمة والإيثار والصفو والجراءة ، وقد ركز عليها الإسلام .

– بناء الأصول الاجتماعية المرتبطة بمراعاة حقوق الآخرين والتعامل معهم ، وأهمها :

---

(١) محمد سعيد فرج : البناء الاجتماعي والشخصية ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، (١٩٨٥م) ، (ص٤٧) .

حق الأبوين ، والأرحام والجار والمعلم والكبير والصاحب ، ونهدف من ورائها بناء كل ما يحقق التفاعل الاجتماعي بين النَّشأ والآخرين ، تفاعلًا سليمًا ومحددًا يراعى فيه حدود هذا التفاعل ونوعيته .

وهناك آيات كثيرة تركز على كل هذه الأصول :

- مراعاة الالتزام بالآداب الاجتماعية العامة :

إن منهجية الإسلام قامت على أساس تكوين الولد خلقيًّا وإعداده سلوكيًّا واجتماعيًّا ، حتى يكون تعامله مع الآخرين مبنيًّا على أساس سليم يتميز بمكارم الأخلاق .

ومن الآداب الاجتماعية الكثير ، ومن أهمها :

آداب الطعام والشراب والسلام والمزاح والمجلس ، عيادة المريض ، التعزية ، العطاس ، والتثاؤب ، وآداب الحديث .

- المراقبة والنقد الاجتماعي :

ونهدف من ورائها تقديم الطفل لكل ما يساعده على أن يتعود على مراقبة حدود اللَّه وعدم الخروج عنها حتى يمكن المحافظة على القيم الأساسية للإسلام سواء أكان ذلك عن طريق توجيه على أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أو محاربة الفساد والانحراف والخلل الاجتماعي الذي يمكن أن يظهر في الأمة الإسلامية ، وتؤكد كلمات اللَّه تعالى هذه المعاني يقول : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

ولتكوين الكيان الاجتماعي وتحقيق أهداف الرعاية الاجتماعية لا بد وأن توجه الأسرة للأسس والقواعد التي يجب أن يلتزم أفرادها تجاه هذا الطفل .. هي :

١ - المساواة في المعاملة .

٢ - الرفق في المعاملة والحديث .

٣ - التدرج في التوجيه والوقاية والتربية .

ولذلك نجد أن :

١ - المساواة في المعاملة :

فهي تعني العدل في المعاملة أو التسوية بين الأولاد ؛ لأن أساس التكوين الاجتماعي

للطفل ، هو شعوره بالمساواة وخاصة بين إخوته ، حتى بداية حقيقية للتعامل مع الوجود الإنساني كله ، حيث أمرنا اللَّه ﷻ بذلك ، فقد قال اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] .

عن النعمان بن البشير قال : نحلني أبي نحلًا ثم أتى به إلى رسول اللَّه ﷺ ليشهده ، فقال : « **أَكُلَّ ولدِك أعطيته هذه ؟** » قال : لا ، قال : « **أليس تريد منهم البر ما تريد من ذا ؟** » قال : بلى ، قال : « **فإني لا أشهد** » [١] .

٢ – الرفق في معاملة الأطفال :

لقد ضرب الرسول ﷺ المثل الأعلى في الرفق في معاملة الأطفال ونبذ القسوة ؛ لأن القسوة في المعاملة مثبِّطة للهمم ، قاتلة للذكاء ، مؤدية للذل ، باعثة على النفاق ، ومن أهم جوانب تكوين الجانب الاجتماعي في الشخصية الرفق في المعاملة وحسنها ؛ لأنها تكوِّن شخصية اجتماعية متزنة ومتسامحة وصادقة .

وفي الصحيحين ، وفي حديث أبي هريرة قال : قَبَّل رسول اللَّه ﷺ الحسن بن علي ، وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالٌ ، فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد وما قبلت أحدًا منهم ، فنظر إليه الرسول ﷺ ، وقال : « **من لا يرحم لايُرحم** » [٢] .

٣ – التدرج في التوجيه والوقاية والتربية :

للإسلام طريقته الخاصة في محاولة توجيه الطفل وإصلاحه في بدايات انحرافه ، فالإسلام يتدرج في ذلك .. على النحو التالي :

– الملاطفة بالوعظ : فقد روى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ أمر بشراب فشرب منه ، وعن يمينه غلام ، وعن يساره أشياخ ، فقال الرسول ﷺ للغلام : « **أتأذن لي أن أعطي هؤلاء ؟** » وهذه هي الملاطفة ، فقال : لا واللَّه ، لا أؤثر بنصيبي منك أحدًا ، فتلَّه رسول اللَّه ﷺ في يده (أي وضعه في يده) [٣] .

– الزجر أو الهجر : فلا يجوز أن يلجأ إلى الضرب ؛ فقد روى البخاري ومسلم عن عبد اللَّه بن مُغَفَّل المزني ﷺ قال : نهى رسول اللَّه ﷺ عن الخذف ، وقال : « **إِنَّه لَايَقْتُلُ الصَّيْدَ ، وَلَا يَنْكَأُ العَدُوَّ ، وَإِنَّه يَفْقَأُ الْعَيْنَ وَيَكْسِرُ السِّنَّ** » .

---

(١) صحيح البخاري ، (١٧٠/٣) .
(٢) صحيح البخاري ، (٩/٨) .
(٣) صحيح البخاري ، (١٧/٨) .

الضرب : إذا عجزت كل الوسائل السابقة ، فلا بأس بعد ذلك أن يلجأ إلى الضرب غير المبرِّح ، وقد روى أبو داود والحاكم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرِّقوا بينهم في المضاجع** » .

ثانيًا : المدرسة :

تعتبر المدرسة من الجماعات الثانوية المؤثرة تأثيرًا كبيرًا على الطفل ، حيث إنها تلعب دورًا كبيرًا في تنمية القدرات الإدراكية للطفل وتوجيهها ، ومن ثَمَّ صقل بناء الطفل الشخصي عقليًا واجتماعيًا وخلقيًا ...

ولكن يجب الإشارة هنا إلى وحدة لها من التأثيرات والتوجيهات الكثيرة بالنسبة لجزء ليس بالقليل لأطفالنا قبل المدرسة ألا وهي الحضانة حيث إن زيادة الرغبة في تعليم الأبناء قبل مرحلة التعليم الأساسي ، وخروج المرأة للعمل ، بل وتزايد خروج الأمهات للعمل ، مما يدفعهن إلى ترك أبنائهن في حضانات سواء في أماكن أعمالهم أو بجوار بيوتهم ، وهذا يؤدي إلى تقليص دور البيئة الطبيعية (الأسرة) في التنشئة الاجتماعية الأساسية الأولى للأطفال .

لذا يجب أن نرى الحضانة ووضعها الحالي في المجتمع ، وكذلك مدى تأثيرها على النَّشأ ، بل ومدى قدرتها على تحمل مسؤولية إعداد جيل ، وخاصة إعداده عقائديًا .. فنجد أن الطفل يوضع في دار الحضانة مع معلمات ومربيات لسن على المستوى المطلوب من الإعداد التربوي والأكاديمي المطلوب إسلاميًا ، وليست الحضانة مجهزة بالوسائل والأساليب والكتب التي يمكن أن تحقق التربية والتنشئة الإسلامية المطلوبة ، بالإضافة إلى مجموعة المبررات الشخصية للمعلمات والمربيات ، ومن أهمها أن معظمهن يفتقدن الرغبة الحقيقية في هذا العمل ، كما ينقصهن الحماس والدافع للنجاح فيه ، وأصبحت مهامهن الحضور إلى عمل وظيفي روتيني للتعايش من ورائه ، وكثيرًا ما يمارسن ألوانًا عديدة من العقاب البدني والنفسي على الأطفال ، لإرغامهم على الصمت وعدم الحركة ؛ ليستمتعن بالثرثرة أو شغل التريكو [1] .

ومن هنا يجب علينا أن ننطلق نحو إعادة صياغة مفهوم العمل في دور الحضانة ، ومسؤولياته والهدف منه في بداية إعداد الطفل وصياغة عقليته تعليميًا وإسلاميًا .

---

(١) عبد الرحيم الرفاعي : التربية البيئية لطفل ما قبل المدرسة ، بحث بمجلة التربية بكلية الزقازيق ، العدد الثالث ، السنة الخامسة ، (١٩٩٠م) ، (ص٤١٥) .

وكذلك توعية الأسرة للاهتمام بطفلها إذا لم تكن الحاجة ملحة لدور الحضانة وأجهزتها ومسؤولياتها نحو العمل على الاهتمام بالأسس والقواعد التربوية والدينية التي سبق إيضاحها في شخصية المعلمات والمربيات .

ومن ثَمَّ لا بد من أن نوضح ملامح المناخ المدرسي الإسلامي على النحو التالي :

- مناخ يسوده الحب والمودة والحرية .. حتى نعطي لشخصية الطفل أبعادًا حقيقية للحرية .. فينطلق عقله لكي يفكر ويُعبِّر ويناقش وينضج ويتخذ قراره ...

- مناخ تسوده العدالة والمساواة ، مما يشعر معه الطفل بالأمان النفسي والاستقرار الاجتماعي ، فيندفع نحو العمل بجدٍّ واجتهادٍ ، ويعلم من خلاله بأن قيمته الحقيقية في تحصيله وعلمه ، وأنه سوف يثاب على ذلك ، ولا يتوقف ذلك على وجود طبقة معينة أو مستوى معين ولا نخاطر بتحطيم كثير من أطفالنا بالرشوة أو النفاق أو المحسوبية أو الوساطة .

من هنا نجد أن المناخ الإسلامي يسوده إتاحة الفرصة لجميع أطفالنا ، مما يعطي لهم الرغبة الحقيقية والحفز المتواصل نحو استثمار ما لديهم من قدراتهم وإمكانياتهم وبناء شخصياتهم الإسلامية .

ولا يمكن أن يتحقق هذا المناخ المدرسي إلا من خلال :

المدرس ، والمنهج ، وطرق التدريس المتبعة ، وأوجه النشاط المختلفة ، وكذلك العاملين بمختلف التخصصات بالمدرسة .

ونستطيع أن نقول أن العمل المهني للخدمة الاجتماعية يتحرك من خلال :

* مجموعة الخدمات الفردية المتنوعة ، ومنها مواجهة المشكلات ، وإشباع بعض الحاجات ، مثل الحاجات المادية وكذلك النفسية والاجتماعية .

* مجموعة الأنشطة التي تمارس داخل المجال المدرسي .

فلو انطلقنا بالخدمة الاجتماعية في أوجه النشاط المختلفة بالمدرسة يمكن أن يكون تحركها المهني مجال خصب لرعاية الطفل رعاية شاملة متكاملة .

فأوجه النشاط وممارستها إيجابيًّا يحقق كل من :

* إشباع حاجتهم وميولهم ورغباتهم ، بشرط أن توجه توجيهًا قيميًّا إسلاميًّا سليمًا .

* تعليمهم العديد من المهارات والخبرات الاجتماعية والنفسية والجسمية التي لا يمكن

تعليمهم إياها في الفصل ، وبالتالي نكسب الطفل الكثير من السمات الاجتماعية والإسلامية ومنها : التعاون ، والصبر ، وضبط النفس ، واحترام الغير ، وتحمل المسؤولية .

ومن هنا تلعب الخدمة الاجتماعية دورًا أساسيًّا في تحقيق ذلك من خلال أوجه النشاط المختلفة وفقًا للجماعات المتنوعة ، ويمكن أن نوضح الأطر الأساسية لعملها في هذا الشأن .. على النحو التالي :

الإطار الأول : تنوع الجماعات وتعدد أنشطتها :

أ - الجماعات الثقافية وهي متعددة ومنها :

* جماعة المحاضرات والندوات والمناظرات .
* جماعة الصحافة .
* جماعة المكتبة .
* جماعة الإذاعة .
* جماعات أخرى كالشعر والنثر والزجل والخطابة .

ب - الجماعات الاجتماعية .. ومنها :

* جماعة الجمعية التعاونية - جماعة النادي المدرسي - جماعة الخدمة العامة .
* جماعة الهلال الأحمر - جماعة المراسلات - جماعة الرحلات والمعسكرات .
* جماعة الحفلات .

جـ - الجماعات الرياضية .. ومنها :

* فريق الألعاب - جماعة التمرينات الحرة - جماعة الحركات على الأجهزة - الفرق المائية .

د- الجماعات الفنية .. ومنها :

* جماعة الرسم والتصوير والحياكة وأعمال النجارة والتجليد والتمثيل .

هـ - الجماعات العلمية :

جماعة الكيمياء ، والجغرافيا ، والتاريخ وإحياء العلوم - الخط [1] .

هذه هي أوجه النشاط بأنواع الجماعات التي يمكن أن تمارس داخل المدارس ، والتي

(١) محمد نجيب توفيق : الخدمة الاجتماعية المدرسية ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، (١٩٨٦م) ، (ص٨٧ ، ٨٨) .

obeikandl.com

يمكن أن يتخذ منها الأخصائي الاجتماعي ما يجده مناسبًا لتحقيق حاجاتهم وإشباع رغباتهم ويتفق مع ما يعد لهم من ناحية ، ويتماشى مع مرحلتهم العلمية التي يمرون بها أطفالنا من ناحية أخرى حتى يحقق النشأة الاجتماعية السليمة ذات الطابع الإسلامي .

الإطار الثاني : الركائز الأساسية لعمل الخدمة الاجتماعية لرعاية الطفل إسلاميًا :

أ – منهجية الخدمة الاجتماعية في ممارسة أوجه النشاط بالمدرسة أو الإطار المهني ، الذي ينطلق منه الأخصائي الاجتماعي محددًا فيه كلًا من الجماعة ، وأماكن أنشطتها ، وأدواتها ومحتوى النشاط وأهدافه الإسلامية .

ب – الطبيعية القيمية لمنهج العمل ، والتي تحمل طابعًا إسلاميًا وفقًا للقواعد الإسلامية والقيم الإيجابية التي يجب أن تترجم في طبيعة النشاط وممارساته .

جـ – الواقع باحتياجاته وإمكانياته وتطلعاته المستقبلية وإسلاميته .

الإطار الثالث : كيفية الممارسة للنشاط في الجماعات المتعددة ، والتي يمكن أن تسهم في رعاية الطفل إسلاميًا .

١ – نجد أن النشاط الثقافي يتنوع وفقًا للجماعات الثقافية المدرسية ، ونجد أن العمل المهني يترك نحو تحقيق كل من :

* إقامة الندوات والمحاضرات في الموضوعات الثقافية المختلفة التي يجب أن يراعى فيها الطفل ويدور محورها .. أما برأي الدين الإسلامي نحو ضروب الحياة وكيفية تحقيقها ، أو تدور في مناخ يحمل طابعًا إسلاميًا تنظيميًا وقيميًا ، ونركز فيه على التحام الأطفال بقيادات العمل الإسلامي [١] بما يحقق المناخ الثقافي الإسلامي .

* دفع الطفل وحفزه وتعويده على القراءة ، ومن ثَمَّ لا بد من وجود كتب وقصص وأعمال أدبية دينية وأعمال دينية إسلامية في العديد من فروع العلم ، منها : الطب والهندسة والأدب والسير والسياسة والعبقريات والمعارك الحربية .

* إقامة المسابقات الثقافية في جميع فروع المعرفة الإسلامية ، وتحديدها وفقًا لقواعد سليمة في عملية الفرز والتصحيح ، وإعطاء قيمة حقيقية إسلامية للجائزة المعطاة ، بشرط أن تكون أسس وقواعد الفرز واضحة ومحدد ومحايدة ومعروفة مسبقًا ، كما أشار الإسلام مما يشعر الأطفال بالأمن والطمأنينة والأمان فيتعلمون الطريق القويم .

---

(١) محمد عبد الهادي : الخدمة الاجتماعية الإسلامية ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، (١٤٠٩هـ ، ١٩٨٨م) ، (ص ١١٩) .

* الاهتمام بجماعة الخطابة والنثر والشعر والزجل لتمجيد الشعائر الإسلامية وإحياء علماء ومفكري وخلفاء المسلمين مركزين على أعمال النبي الرسول المهداة .

* الاهتمام بالإذاعة المدرسية .. ودفع الجماعة المسؤولية عنها لتركيز برامجها على الجوانب الإسلامية ، ومعرفة أخبار المجتمع الإسلامي ، والدعوة إلى دعم الإطار الديني .

٢ - أما النشاط الاجتماعي داخل المدرسة : ويعتبر وسيلة حقيقية لإكساب الطفل (التلميذ) جزءًا أساسيًّا من السلوك الاجتماعي ، ولذلك يجب أن تتحرك الخدمة الاجتماعية بالنشاط الاجتماعي ، الذي تتميز بالعلاقات والتفاعلات الاجتماعية بين الطفل والآخرين في ممارسة أطفالنا له من خلال أسس وقواعد إسلامية حتى يتكون لديهم السلوك الاجتماعي الإسلامي .. وهذه القواعد التي يجب أن يلتزم بها الأخصائي الاجتماعي أثناء مساعدة الأطفال وقيامهم بالنشاط الاجتماعي .. وهي :

* أن يكسبه القيم الاجتماعية النابعة من الإسلام .. أهمها : المشاركة والتعاون على البر والتقوى وتحمل المسؤولية ...

* تثبيت بعض الأفكار الرئيسية لدى أطفال الاجتماعية من خلال استثارتهم وتحفيزهم لممارسة نشاطهم على أساس أنه نوع من أنواع الحركة الاجتماعية ، ومجددٌ للنشاط ، ومحقق لأهداف اجتماعية إسلامية ، وليس مضيعة للوقت ، حتى يمكن أن نستثمر طاقاتهم أحسن استثمار ممكن .

* أن يرتبط النشاط الاجتماعي بالاحتياج المجتمعي الإسلامي ..

مركزين على تحقيق الولاء الاجتماعي للمجتمع الإسلامي ، وتنشيط الأطفال لتقوية علاقاتهم الاجتماعية بأنفسهم وببعضهم البعض ، وإعداد كيانات اجتماعية قوية تدافع عن المناخ الإسلامي في تعاملاته وعلاقاته وكيانه .

* يجب أن يكون نشاط الرحلات كنشاط اجتماعي موجه في جزء كبير منه نحو التعرف على المعالم بالآثار الإسلامية ، حتى يكون هناك تواصل حقيقي بين أجزاء الحضارة الإسلامية بين الأجداد والآباء والأبناء ، ولذلك يجب أن نركز على رحلات إلى المتاحف الإسلامية ، ونتعرف على تاريخنا ومعالمنا وآثارنا الإسلامية فيها ، ودور عظمائنا المسلمين في تحقيقها .

* يجب أن يتجه نشاط المعسكرات نحو تعويد الأطفال على حياة الجد والجلد والصبر ، حتى يخرجوا منها أقوياء صالحين كما يحض على ذلك الدين الإسلامي ، وفي

نفس الوقت نتجه نحو دعم المجتمع الإسلامي في حاجته نحو تشجير المدن وزراعة الصحراء تسوير القرى والمساهمة في إصلاح الطرق الممتدة وخاصة في الريف المصري .

* كما يجب أن يوجه نشاط الحفلات إلى تعريف أطفالنا بالسيرة المحمدية ودور المسلمين الأول وجهودهم في بناء الدعوة وبناء الإنسان المسلم الحقيقي ، وإقامة الحفلات للتعرف على قيادات العمل الإسلامي ، ومناقشاتهم في بناء الشخصية الإسلامية الحقة .

٣ – الجماعة الرياضية : فهي جماعات تهدف إلى تقوية الأجسام وتعليم المهارات الأساسية الرياضية ، فلو تم توجيهها إلى ما ينفع الإسلام من البداية وهي مع الأطفال حتى يمكن تنمية قدراتهم الجسمية وفقًا لاتجاهات الدين الإسلامي من خلال تعليمهم وتدريبهم على السباحة والرماية وركوب الخيل وما يشابهها ، ويمكن أن تحقق نشأً قويًا يفخر به الإسلام ويفتخر به على مستوى العالم بالمسابقات العالمية حتى تظهر انعكاس دعوة الإسلام على أبنائه وأطفاله ..

٤ – الجماعة العلمية : وفي سن الطفولة يمكن أن نعلِّم وندرِّب الأطفال على حسن الخط العربي الأصلي وهو خط القرآن وأحاديث الرسول ﷺ ، بالإضافة إلى تكوين جماعة التاريخ لمحاولة رصد التاريخ الإسلامي وبذلك نكون قد حققنا الدعوة الإسلامية .

٥ – الجماعة الفنية : يمكن استثمار هذه الجماعة في إقامة المعارض الإسلامية ، وتجسيد الروح الإسلامية في أعمال فنية وعرضها على باقي الأطفال ، فننمى في الجماعة والأخرى الروح والكيان الإسلامي .

العنصر الثاني : توجيه أجهزة الإعلام توجيهًا إسلاميًا :

تلعب أجهزة الإعلام (المجلة – الإذاعة والتليفزيون) ووسائل الثقافة (الكتاب – المسرح – السينما) دورًا ليس بالقليل في حياة أبنائنا .

لذلك يجب أن تتضافر كل الجهود بشكل عضوي من أجل بناء أولادنا بشكل متحد سليم قائم على أسس إسلامية في أجهزة الإعلام والثقافة المختلفة .

ويأتي هنا دور الخدمة الاجتماعية في وسائل الإعلام ، والتي يجب أن تكون مرتبطة بكل المؤسسات الاجتماعية وغير الاجتماعية ، حتى تتعرف على رد فعل البيئة وخاصة المحلية لبرامجها المسموعة أوالمرئية، حيث نجد أن مؤسسات الخدمة الاجتماعية منتشرة في كل البيئات ، ولها أهداف متعددة مع الطفولة والشباب ، وتتحرك من ملاحظة السلوك وتصرفات الأبناء وإشباع الخدمات لهم ، وهي بحساسيتها المهارية المهنية يمكن

أن نرى تقدمها بأبحاث عن تأثير وسائل الإعلام المختلفة في العلاقات الاجتماعية والتنشئة الاجتماعية والواقع الاجتماعي القيمي ، لما لهذا كله من انعكاس في سلوك الأطفال ، وهنا تتحرك الخدمة الاجتماعية باستمرار لتعطي لأجهزة الإعلام مدى انعكاس برامجها وتأثيراتها المختلفة على أطفالنا أولًا بأول حتى لا تحدث مشكلات ، وتحتاج إلى علاج جيل كامل وليس مجموعة أفراد .

كما أن الخدمة الاجتماعية إذا لم تستجب وسائل الإعلام لبحوثها واتصالاتها وعلاقاتها بها يمكن أن تقوم بدور وقائي في توجيه الأسر وأولياء الأمور بالعمل على مشاهدة البرامج التليفزيونية مع أبنائهم ومحاولة نصحهم وتوجيههم توجيهًا قيمًا وفقًا للدين الإسلامي ..

ولكن نظرًا لانتشار الخدمة الاجتماعية في العديد من المؤسسات مثل المدارس والأندية والساحات الشعبية التي يوجد فيها الأطفال ، فيمكن أن نستثمر برامج التليفزيون والإذاعة أثناء تواجد الأطفال في هذه المؤسسات لتوجيههم لها ، وأهمية اتباع ومشاهدة برامج بعينها دون الأخرى ، أو مساعدتهم على الفهم الصحيح لهذه البرامج .

ولكن نؤكد على دور الخدمة الاجتماعية في الإذاعات الداخلية والإعلام الداخلي في المدارس والساحات الشعبية والأندية الاجتماعية ، حيث نتحكم فيه ومنه ويمكن أن نعطي الدفعة القوية للنشأ بالنسبة للبرامج المذاعة في الإطار العام المجتمعي .

العنصر الثالث : المساهمة الحقيقية في رسم سياسة اجتماعية إسلامية :

لكل دولة سياستها العامة التي تستمد وجودها ومفاهيمها واتجاهاتها من أيديولوجية الدولة وقيمها ومعاييرها ، وهي مجرد تفكير منظم يعبر عن الأهداف التي ترى الدولة تحقيقها في جميع الميادين والمجالات .

و ينبثق عن السياسات العامة سياسات فرعية يختص كل منها بميدان أو مجال معين كالزراعية أو الصناعية أو التعليمية أو الاجتماعية.... [١] .

وتعرف السياسة الاجتماعية بأنها : نتائج التفكير المنظم الذي يوجه التخطيط والبرامج الاجتماعية ، فالسياسة تنبع من أيديولوجية المجتمع ، وتعبر عن أهدافه البعيدة ، وتوضح مجالات البرامج والخطط الاجتماعية ، وتحدد الاتجاهات العامة لتنظيمها وأدائها .

---

(١) سيد أبو بكر حسانين : مرجع سبق ذكره ، (ص٣٥٧ ، ٣٥٨) .

من خلال التعريف نجد أن السياسة الاجتماعية تتضمن :

١ – أيديولوجية المجتمع : وهي الفلسفة الموجِّهة لسلوك المجتمع والحكومة ، ويجب أن تلعب الخدمة الاجتماعية دورًا أساسيًّا في المساهمة في صنع السياسة الاجتماعية من خلال الإطار الديني الإسلامي بدلًا من الاتجاه والأيديولوجية الاشتراكية .

٢ – أهداف بعيدة : فهي تسعى لتحقيق أهداف بعيدة المدى ، ويجب أن ندفع لبناء أهداف يكون في نهايتها تحقيق الدعوة الإسلامية وبناء المجتمع الإسلامي من خلال بناء الطفل المصري المسلم .

٣ – مجالات العمل : هناك مجالات التأمين الاجتماعي أو الصحي أو التعليمي .. وما إلى ذلك ، وهنا يبقى بناؤه على أفكار أساسية فلو تم بناؤه على أفكار إسلامية ، يمكن أن يساهم وخاصة في المجال التعليمي حتى يخرج النشأ نشأً إسلاميًّا صحيحًا .

٤ – اتجاهات : وللسياسة الاجتماعية اتجاهات ، وتلك الاتجاهات تتأثر بأيديولوجية المجتمع ، فلو كانت الأيديولوجية إسلامية فتكون طبيعة الاتجاهات إسلامية من بين الاتجاهات ، اتجاهات في كفاية الحد الأدنى لاحتياجات الفرد ، كما قد تتجه إلى توفير حياة كريمة للفرد فوق المستوى الأدنى ، وهكذا ، كما نادى بها الإسلام بما يحقق فرصة حقيقية للطفل حتى يخرج قويًّا معافيًا مؤمنًا قويًّا يدافع عن دينه ووطنه .

ومن هذا المنطق تلعب الخدمة الاجتماعية ببنائها الإسلامي في تحقيق ذلك من خلال وجودها كمهنة في المجتمع تهتم بطرقها المختلفة بالعمل على تحقيق الحاجات والمتطلبات الاجتماعية ، وتتحرك نحو تدعيم العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات والمجتمعات بل والنظم الاجتماعية أيضًا من خلال مؤسساتها المنتشرة ، ويمكن أن تتحرك في العمل على :

أ – إجراء البحوث الاجتماعية العلمية التي تحدد الاحتياجات غير المشبعة للطفل الحالي أو احتمالات ظهور احتياجات أخرى بدرجة من التنبؤ ، وكذلك يمكن أن تتحرك نحو التعرف على الأضرار والأخطار الناجمة عن عدم استخدام الأسس والقواعد الإسلامية في تنشئة النشأ ، وانعكاسها على العلاقات الاجتماعية بين الأطفال بعضهم وبعض ، وبينهم وبين مجتمعهم بأفراده وأجهزته ومؤسساته .

ب – تعمل على تنبيه المجتمع بمؤسساته المسؤولة عن الطفولة من خلال نتائج بحوثها الحالية حتى يدرك المجتمع احتياجات الطفل في المستقبل ، مما يؤدي إلى توفيرها ، فنحقق

له الرعاية السليمة .

جـ - تساهم في وضع خطط وبرامج تهدف من خلالها إلى تحقيق الاحتياجات وإشباعها ، وتعطي الأولوية في برامجها على أكثر الاحتياجات إلحاحًا وخاصة حاجات الطفولة ، وبالتالي تساهم الخدمة الاجتماعية بحساسيتها الاجتماعية المباشرة مع عملائها ومستفيديها في مؤسساتها الاجتماعية في تحديد أهداف السياسة العامة ، وفي توجيه أهم المجالات التي يجب أن يوجه الجهة فيها أكثر ، وتعمل على وضع الخطط والبرامج التي تحقق هذه الأهداف من خلال مؤسساتها المتنوعة .

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

تنظيم المجتمع ودراسة حاجات ومشكلات معتنقي الإسلام حديثًا

أ.د. رشاد أحمد عبد اللطيف

تمهيد لمشكلة البحث وأهميتها

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت : ٣٣] .

وقال ﷻ : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

لقد اهتم القرآن بأمر الدعوة وأولى لها أهمية وعناية فائقة وذلك من خلال التوجيهات التي تضمنتها آياته .. فقد أوجب الإسلام على الأمة أن تنتدب فيها جماعة لتقوم بمهمة الدعوة إلى اللَّه ، وتعمل على إصلاح الناس ودعوتهم إلى الإسلام ، وتوضيح أوجه الخير التي لا تستقيم حياة أي مجتمع بدونها . ويشير إلى ذلك قول اللَّه تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

وقول اللَّه تعالى : ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٢٠] .

في إطار ذلك يشير مفهوم الدعوة إلى تبليغ الإسلام إلى غير المسلمين ، والعمل على تثبيت العقيدة لدى من دخلوا الإسلام منهم من خلال الإقناع الخالي من الإكراه والحب الخالي من الكراهية ، والعمل على العناية بهم ودراسة احتياجاتهم والمشكلات التي تواجههم .

وتعتبر طريقة تنظيم المجتمع إحدى طرق مهنة الخدمة الاجتماعية التي يمكن أن تسهم في مجال الدعوة إلى اللَّه ، حيث تشير الكتابات الحديثة أنها لم تعد تركز على مبادئ الطريقة أو الأدوار التقليدية للمنظم الاجتماعي ، بل اتجهت صوب مهارات ومجالات جديدة ، ومن هذه المهارات دراسة الاحتياجات Needs Assessment وتصميم البرامج

Program Design وزيادة الموارد المالية للمؤسسات Fund Raising ، وهي لم تعد قاصرة على المجالات التقليدية المتعارف عليها كالمدارس والمستشفيات أو المصانع ، بل امتدت إلى مجالات وفئات جديدة .

ومن هذه المجالات مجال الدعوة للّه ، ومن هذه الفئات معتنقي الإسلام حديثًا ، مستهدِفة بذلك العمل على دراسة احتياجاتهم ومشكلاتهم والعمل على تصميم البرامج المناسبة والملائمة لإشباع احتياجاتهم ومواجهة مشكلاتهم بما يمهد في الوصول إلى سياسة عامة لرعايتهم والاهتمام بهم .

كما تسعى طريقة تنظيم المجتمع في إطار العمل في مجال الدعوة إلى اللّه إلى التعرف على المراحل التي يمر بها معتنقو الإسلام حديثًا حتى دخولهم الإسلام ودور الأخصائي الاجتماعي في كل مرحلة منها .

وقد استفاد الباحث في تحديده للمراحل التي يمر بها من يتبنى دينًا جديدًا بما جاء في المؤتمر العالمي لتنصير العالم الإسلامي ، الذي عقد في مدينة جيلين إيري بولاية كولورادو في الولايات المتحدة الأمريكية عام (١٩٧٨م) حيث قدم به أكثر من مائة بحث تتناول جميعها الوسائل والأساليب والخطوات التي يتم من خلالها تنصير المسلمين ، بالإضافة إلى احتواء بعض الأبحاث على مقاييس تستخدم في تنصير المسلمين وتشمل الجوانب الاجتماعية والنفسية والاقتصادية المحيطة بهم ، بالإضافة إلى الجوانب التي تتصل بالإعداد والتهيئة واتخاذ القرار [١] .

ولقد استفاد الباحث من هذه المقاييس ومن خبرته في العمل مع معتنقي الإسلام طوال عام (١٤١٠هـ ، ١٩٩٠م) في وضع تصوره للمراحل التي يمر بها معتنقو الإسلام حديثًا عند اتخاذهم القرار بالدخول في الإسلام ، وما ينبغي أن يقوم به الأخصائي الاجتماعي في كل مرحلة من هذه المراحل .

---

(١) يرجع إلى :

- ديفيد أ. فريزر . تطبيق « مقياس في تنصير المسلمين أحد بحوث مؤتمر العالم الإسلامي ، (١٩٧٨م) ، ترجمة الندوة العالمية للشباب الإسلامي بالرياض ، ص ٢٣٧) .
- بشير عبد المسيح : استمالة المسلم عن طريق تجسيد شمائل وسلوك المسيح ، المرجع السابق : (ص ١١٤) .
- جورج بيترز ، نظرة شاملة عن إرساليات التنصير العاملة وسط المسلمين ، المرجع السابق : (ص ٥٨٣) .

جدول رقم (١)

يوضح المراحل التي يمر بها معتنقوا الإسلام حديثًا عند اتخاذهم القرار بالدخول في الدين الإسلامي

مراحل القرار	أسباب اتخاذ القرار	مشاعر معتنق الإسلام حديثًا	دور المنظم الاجتماعي والمؤسسات الإسلامية
(١) التفكير	إدراك بأن هناك ربًّا واحدًا لهذا الكون والرغبة في التقرب إليه (الإيمان بالفطرة) .	- الرغبة في نبذ الشرك باللَّه . - إدراك التناقض بين ديانته الأساسية والإسلام . - الرغبة في معرفة المزيد عن الإسلام . - قلة المعلومات المتوفرة لديه عن القرآن الكريم . - لا توجد معرفة كافية بأركان الإسلام .	- يمكن أن يستفيد المنظم الاجتماعي من الأطر النظرية المتصلة بعملية التحول واتخاذ القرار حيث يمكن تطبيق نظريات الاتصال والأبحاث الخاصة بالاتجاهات والتأثير في آراء الناس . ويلاحظ أن الدراسات المتصلة بهذه الجوانب معظمها غربي ، وتعالج الجوانب النفسية . لذا يعتبر الاهتمام بالدوافع والعوامل التي يعتمد عليها المنظم الاجتماعي الداعي إلى اللَّه ﷻ . وهنا لا بد من إدراك هذه الجوانب : أ - عوامل الإعداد والتهيئة . ب - محيط الالتزام (الإطار الثقافي والاجتماعي) . جـ - سرعة التأثير . د - خطوات اتخاذ القرار .

obeikandl.com

(٢) الاقتناع واتخاذ القرار	الدخول في الإسلام	- إدراك أولي بالقرآن الكريم . - إدراك مبادئ الإسلام الأساسية . - فهم واستيعاب معاني القرآن . - ارتباط إيماني بالقرآن الكريم . - تقويم المشاكل الناجمة عن الإسلام . - إدراك كامل بأن أي مشاكل سوف يواجهها ، سوف يكون ثوابها عند اللَّه . - القرار بالدخول في الإسلام . - الالتزام بما نص عليه القرآن والسنة من تعاليم .	ينبغي هنا اتخاذ القرار والعوامل المؤثرة عليه والمشاكل المترتبة عليه ، وتبسيط الإجراءات الخاصة بإشهار الإسلام . - تزويد المسلمين حديثًا بالكتب الإسلامية البسيطة وبنفس اللغة التي يتحدث بها المسلم الحديث . - البدء في إعطاء بعض أساسيات اللغة العربية ، والعقيدة والفقه ، والتوحيد . - الإجابة على كل التساؤلات التي يطرحها معتنقو الإسلام حديثًا بأسلوب مقنع وواضح . - الدراسة العملية لمشكلاتهم واحتياجاتهم .

(٣) مرحلة ما بعد اتخاذ القرار (تدعيم القرار) وهو مرحلة مهمة من أجل ضمان التزام قوي ودائم بتعاليم الدين الإسلامي	ترسيخ العقيدةوالاندماج في المجتمع الإسلامي .	- الحاجة إلى الرعاية والمتابعة . - تحقيق تفاعل مكثف بينه وبين إخوانه في الإسلام . - المشاركة في الأنشطة الاجتماعية والثقافية . - مواجهة مشكلات العمل ، الأسرة ، الدخل ، المسكن ... إلخ .	يمكن للمنظم الاجتماعي هنا أن يسهم في « تدعيم الإيمان » لدى المسلمين حديثًا والعمل على إقامة روابط قوية بين المسلمين حديثًا أو تقوية الدعم الاجتماعي لهم من خلال تقوية شبكة العلاقات الاجتماعية فيما بينهم وبين أبناء المجتمع الإسلامي . - أن يكون هناك أساليب خاصة ومناسبة لكل فئة حسب الظروف الاجتماعية والدينية والثقافية المميزة لها ، وإسهام أخصائي خدمة الفرد في إعداد دراسات عن كل حالة إذا أمكن ذلك . - عمل مخيمات إسلامية تكون وسيلة تعليمية للمسلمين حديثًا ، وكذلك وسيلة تدريبية لهم لتعلم أساليب المناقشة والحوار والقيم بالدعوة . - إزالة الضغوط المحيطة بالمسلم الحديث سواء كانت متصلة ، بالعمل ، الأسرة ، المجتمع .

ومن الجدول ندرك أهمية قيام مهنة الخدمة الاجتماعية وطريقة تنظيم المجتمع بالعمل في مجال الدعوة إلى اللَّه . ورعاية معتنقي الإسلام في مرحلة من المراحل التي يمرون فيها حتى دخولهم الإسلام ، وتحقيق الرعاية والدعم الاجتماعي والمادي لهم حتى يدركوا حلاوة الإيمان باللَّه ﷻ ، معتدين بقول رسول اللَّه ﷺ : « **ذاق طعم الإيمان من رضي باللَّه ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد رسولًا** » ، وما يحقق ذلك هو السعي نحو دراسة حاجات المسلمين حديثًا : المادية ؛ والروحية والعمل على إشباعها بما يحفظ لهم كرامتهم ويسهم في استقرارهم وسعادتهم للقرار الذي اتخذوه بالدخول في الإسلام .

كما أن تعاليم الإسلام وقيمه وأخلاقياته تفيد في تطوير أساليب الممارسة الخاصة بمهنة الخدمة الاجتماعية وطريقة تنظيم المجتمع ، وتفتح مجالًا جديدًا للعمل المهني في مجال الدعوة إلى اللَّه والعمل مع المسلمين حديثًا ، مسترشدين في ذلك بما جاء في تعاليم الدين الإسلامي من آداب وضوابط للسلوك الاجتماعي وفلسفة شاملة للوجود الإنساني .

إلا أن المتتبع للدراسات التي تعالج موضوع الخدمة الاجتماعية والدعوة إلى اللَّه يلاحظ ندرة في الدراسات التي تتعرض لهذا الموضوع بطريقة مباشرة . بالرغم من أهمية هذا المجال بالنسبة للخدمة الاجتماعية ، ومن خلال تحليل الباحث للدراسات سواء كانت نظرية أو تطبيقية وجد أن هذه الدراسات والأبحاث قليلة بالمقارنة بالمجالات الأخرى ، كما تبين أن الباحثين والممارسين ينظرون إلى هذا الجانب كما لو لم يكن مجالًا من مجالات الممارسة . وقد انعكس ذلك في دعم بلورة نظرية علمية تتصل بهذا الجانب ، وكانت الأبحاث المتصلة به تدور حول القيم المتصلة بنسق العميل أو بالبناء الاجتماعي ككل [١] .

كما لوحظ أن معظم الكتابات والأبحاث تدور حول العلاقة بين الخدمة الاجتماعية والأديان ، كما أنها تقتصر على الديانات الأخرى غير الإسلامية وفي مجتمعات غربية .

وقد أشار Goldstein (١٩٨٦م) ، Siporin and Glasser عام (١٩٨٧م) إلى أن الكتابات الخاصة بعلاقة الخدمة الاجتماعية بالدين – في الولايات المتحدة الأمريكية – لا تجد قبولًا وتعاطفًا من جانب الممارسين للمهنة ، بل ينظرون إليها بإهمال ، والسبب في ذلك أنهم يرون أن الدين مناقض للعلم ، مما أدى إلى عدم

---

(١) Joseph H.Vincenta. ''Religion and Social Work'' The Journal of Contemporary Social Work (N.Y. Family Services , 1983) P . 443 .

الاهتمام بالدين في ممارسات الخدمة الاجتماعية ، بل كانوا يرون أن القيم الدينية والاعتقادية تتعارض مع أسس الخدمة الاجتماعية مثل مفهوم حق تقرير المصير، كما أن الأخصائيين الاجتماعيين ليسوا مؤهلين للعمل في المجال الديني أو كرجال دين (١) .

إلا أنه في ظل الشريعة الإسلامية نجد ما يخالف ذلك ، حيث إن كل مسلم مطالب بالدعوة إلى اللَّه مخلصًا وبكل الوسائل الممكنة والمشروعة ، ومطالبًا بالتفكير في الكون والحياة ، والآيات التي تنتهي بكلمة « يعقلون » ، « يعلمون » ، « يتفكرون » ، « يتدبرون » ... كثيرة جدًّا ، كما تقوم مهنة الخدمة الاجتماعية الإسلامية على احترام الإنسان وإعطائه الحق في تقرير مصيره مسترشدة في ذلك بما جاء في كتاب اللَّه من آيات تشير إلى قدرة اللَّه وحرية الإنسان .

قال اللَّه تعالى : ﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور : ٢١] ، ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٥] .

وفيما يتعلق بالدراسات التي تتصل بممارسة الخدمة الاجتماعية في المجتمعات الإسلامية ، فقد لوحظ أيضًا أن الكتابات النظرية والبحوث التطبيقية قليلة ، وأنها تركز على مبادئ المهنة ودور الأخصائي الاجتماعي المسلم ، وأهمية تدريس المواد الشرعية لإيجاد الصلة بين المهنة والإسلام (٢) .

وقد أوضح د. محمد عبد الهادي أن الخدمة الاجتماعية الإسلامية هي مجال جديد من المجالات التي تعمل فيها مهنة الخدمة الاجتماعية (٣) ، مضيفًا بذلك بُعدًا جديدًا للمهنة يخرجه بها من الإطار التقليدي لمجالات الممارسة ويسهم في إبراز جذورها الإسلامية .

كما أشارت كتابات أخرى إلى القيم الأخلاقية من منظورها الإسلامي وأهمية التزام الأخصائي الاجتماعي بها ؛ لأنها تحقق تجاوبًا أكثر من جانب العملاء والتزامًا من جانب الأخصائي الاجتماعي بأنه يساعد الإنسان المحتاج من منطلق إسلامي يقربه من اللَّه ﷻ (٤) .

---

(١) Frank M.Loewenberg, Religion and Social Work Practice In Contemporary American Society (N.Y, Columbia University Press, 1988) p.5 .

(٢) د . نبيل محمد صادق : نحو مدرسة إسلامية في الخدمة الاجتماعية ، الكتاب السنوي الأول في الخدمة الاجتماعية (القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٩م) ، (ص٣٥٧) .

(٣) د . محمد أحمد عبد الهادي : الخدمة الاجتماعية الإسلامية (القاهرة ، مكتبة وهبة ، ١٩٨٨م) (ص٢٠) .

(٤) د . علي حسين زيدان : القيم الأخلاقية لخدمة الفرد من المنظور الإسلامي (القاهرة ، المؤتمر الدولي العاشر للإحصاء والحسابات العلمية والبحوث الاجتماعية والسكانية ، (١٩٨٥م) ، (ص٣٣٣ ، ٣٣٤) .

وتشير الكتابات السابقة إلى أهمية تدخل مهنة الخدمة الاجتماعية بصفة عامة وطريقة تنظيم المجتمع بوجه خاص في مجال الدعوة إلى اللَّه لما للجوانب الدينية والروحية من تأثير على حياة الأفراد والمجتمعات ، حيث يجد الأفراد كما تجد المجتمعات سعادتها في اتباع تعاليم الدين وإشباع الجوانب الروحية المتصلة باللَّه ﷻ .

كما أن مهنة الخدمة الاجتماعية بما لديها من أساليب فنية وأسس علمية وقيم أخلاقية مستمدة من شريعة اللَّه ﷻ هي أقرب المهن إلى تحقيق هذه الأهداف ، وتحقيق أهداف المؤسسات الإسلامية ، ونشر رسالتها وتدعيم الخدمات التي تقوم بها بالاستعانة بالأساليب الفنية لطريقة تنظيم المجتمع فيما يتعلق بالجوانب المتصلة بالتنسيق ما بين المؤسسات وبعضها ، وفي توعية أفراد المجتمع بخدماتها وتسهيل عملية استفادتهم منها ، وبصفة خاصة مع المسلمين حديثًا ، بما يؤدي إلى شعورهم بالأمن والثقة في جوهر الدين الإسلامي وتعاليم اللَّه ﷻ .

كما أن طريقة تنظيم المجتمع في مجال الدعوة إلى اللَّه – لا تعني شيئًا مختلفًا عن الطريقة التقليدية ، وإنما هو ممارسة للطريقة ذاتها والعمليات الخاصة بها وأدواتها وأساليبها الفنية ، بالإضافة إلى إعداد متميز لممارسيها سواء على المستوى النظري أو التطبيقي يتصل بالدعوة إلى اللَّه لتحقيق الأهداف والغايات المهنية التي تتفق مع الشريعة الإسلامية ولا تتناقض معها وتسهم في تحقيق أهداف الدين الإسلامي ، والدعوة إلى اللَّه ﷻ .

أهداف طريقة تنظيم المجتمع مع المسلمين حديثاً

يعتبر العمل مع المسلمين حديثًا مجالًا جديدًا لطريقة تنظيم المجتمع تستهدف من خلاله تحقيق ما يلي :

١ - دراسة الحاجات التي يعاني منها المسلمون الجدد :

للمسلمين حديثًا حق على المجتمع المسلم يستمد أصوله من حق الأخوة في اللَّه وحق التساند والمؤازرة ، كما أن على المتخصصين في طريقة تنظيم المجتمع مسؤولية تجاه إخوانهم المسلمين حديثًا تتمثل في مسؤولية الفهم والإدراك لاحتياجاتهم والعمل على دراستها ، حيث لوحظ أنهم يعانون من حاجات وضرورات ملحة لا يمكن تركها بدون إشباع سواء ما يتعلق منها بنواحٍ مادية (كالمسكن ، العمل ، التعليم ، العلاج ... إلخ) أو نواحي معنوية (تشمل الحاجة إلى الدعم الاجتماعي ، تنمية شبكة العلاقات الاجتماعية ، الترويح ... إلخ) .

كما أن هذه الاحتياجات تختلف باختلاف الأعمار والجنس ، والإطار الثقافي ، والمستوى التعليمي والاقتصادي .. كما أن لها انعكاسات متعددة على شخصيتهم وعلى أسرهم .

ويمارس المنظم الاجتماعي المسلم عمله هنا على أساس مساعدة معتنقي الإسلام حديثًا على تحديد الاحتياجات ذات الأولوية بالنسبة لهم معتمدًا في ذلك على :

أ - البيانات المتوفرة حول هذه الاحتياجات .

ب - نوعية هذه الاحتياجات (مادية ، معنوية) .

جـ - مدى استمرارية هذه الاحتياجات (مستمرة ، مؤقتة) .

د - الإحصاءات المتعلقة بحجم الخدمات المتاحة .

هـ - آراء الخبراء في مجال الرعاية الاجتماعية .

و - المؤسسات التي تقوم بإشباع هذه الاحتياجات (العدد ، المكان ، الإجراءات .. إلخ) .

ز - مجموعة القرارات المتخذة من قبل الهيئات المسؤولة بالمجتمع والتي تتصل ببرامج الرعاية الاجتماعية [١] .

ح - الإجراءات البيروقراطية التي يمكن أن يواجهها المستفيد عند حصوله على الخدمات وتهيئة نفسه لمواجهتها .

ويمكن لطريقة تنظيم المجتمع أن تسهم من خلال المؤسسات الإسلامية المعنية بالمسلمين حديثًا ومؤسسات الرعاية الاجتماعية الأخرى بالمجتمع ، في مواجهة هذه الاحتياجات وذلك من خلال :

- تسهيل التحرك لإشباع الحاجات المادية في حدود الإمكانات المتاحة .

- تشجيع المسلمين حديثًا على المشاركة الفعالة في مواجهة الحاجات المادية والمعنوية والاستفادة من الخبرات السلبية .

- حث المسلمين حديثًا على التحرك واكتساب القدرة على تحديد احتياجاتهم ، وكذلك المقدرة على إشباعها .

وهذا يعتبر أحد المداخل الحديثة للطريقة في الدعوة إلى اللّه بين المسلمين الجدد وغير

---

(١) Kramer, M.Ralph and Speht Harry, Readings in Community Organization Practice (N.Y,. John Witly 1983) PP . 292 - 293 .

المسلمين معتمدين في ذلك على دعائم الشريعة الإسلامية التي تحث على ضرورة سعي الإنسان المسلم إلى مساعدة أخيه المسلم « من قضى حاجة لأخيه فكأنما خدم الله عمره » (١) .

٢ - المساهمة في تصميم البرامج التي تشبع احتياجات المسلمين حديثاً :

ومن برامج الرعاية الاجتماعية للمسلمين حديثًا ما يلي :

١ – رعاية المسلمين حديثًا وأسرهم :

حيث تلعب الأسرة من حيث التكوين والعدد ونوعية العلاقات بين أفرادها دورًا بارزًا فيما يعانيه المسلم الحديث من مشكلات أو استقرار عند بداية دخوله في الإسلام ، وقد أشار التحليل الاجتماعي إلى أن هناك أربعة أنواع من النماذج توضح العلاقة بين أفراد الأسرة وهذه النماذج هي :

١ – نموذج التلازم في الوقوع . ٢ – العدوى .

٣ – التبعية . ٤ – التأثر (٢) .

وقد استفاد الباحث من هذا النموذج عند تحليله للمشكلات التي يعاني منها المسلمون حديثًا عند اعتناقهم للإسلام وأضاف إليه نموذجًا آخر وهو « نموذج الرفض » .

أ – نموذج التلازم في الحدوث : فقد يدخل الإسلام الزوج والزوجة معًا .

ب – نموذج العدوى : وفيه يدخل أحد الأشخاص من الأسرة في الدين الإسلامي ، ثم يتبعه الابن أو الزوجة أو الأقارب بعد أن كانوا يعارضون الفكرة في البداية .

جـ – نموذج التبعية : وفيه تقوم الأسرة باتباع المسلم حديثًا بعد إسلامه مباشرة .

د – نموذج التأثر : حيث يمكن أن يتأثر الرفاق أو الأسرة ككل ويدخلون الإسلام بعد فترة .

هـ – نموذج الرفض : حيث ترفض الأسرة أو الأبناء أو الأقارب اتباع المسلم الجديد . ويمارسون عليه وسائل متعددة للترهيب وممارسة أنماط من السلوك العدواني .

والنموذج الأخير يحتاج المسلم الحديث فيه إلى الدعم الاجتماعي من إخوانه

---

(١) أخرجه البخاري والطبراني عن أنس .

(٢) د . محمد علي محمد وآخرون : دراسات في علم الاجتماع الطبي (الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٤م) ، (ص٢٣٣) .

المسلمين أصلًا حتى يستطيع مقاومة هذه الوسائل والتمسك بالعقيدة .

٢ – الرعاية الاقتصادية للمسلمين حديثًا :

ويمكن للأخصائي الاجتماعي أن يساعد من خلال دراسته للمجتمع المحلي واحتياجاته من العمالة ودراسته لإمكانات المسلمين حديثًا ومهاراتهم وقدراتهم أن يوافق ما بين هذه الإمكانات والقدرات وفرص العمل المتاحة بالمجتمع بما يمكنهم من الاعتماد على أنفسهم ومواجهة أساليب الضغط المضادة .

٣ – الرعاية الصحية للمسلمين حديثًا :

والأخصائي الاجتماعي المسلم يسعى إلى التعرف على الحالة الصحية لأخيه المسلم الحديث وأسرته ؛ حيث يمكن أن يسهم في تقديم برامج الرعاية الصحية المناسبة له بواسطة الأطباء المسلمين ، وهو في ذلك لا يستغل حالات الضعف التي يمر بها من يرغب في الإسلام ، ولكن يقدم له هذه الخدمة ، تاركًا له حرية التفكير والتأمل والاقتناع دون ضغط أو إكراه .

٤ – خدمات الإسكان :

حيث يمكن للمنظم الاجتماعي أن يقوم بدراسة احتياجات المسلمين حديثًا ، فيما يتعلق بالسكن وإمكانية توفيره بسعر مناسب لدخلهم وبصفة خاصة بالنسبة للطلاب الملتحقين بالجامعات بعد إشهار إسلامهم ، ويمكن أن يستعين المنظم الاجتماعي في ذلك بالمؤسسات الإسلامية (رابطة العالم الإسلامي ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، مكاتب الدعوة والإرشاد ...) وغير ذلك من المؤسسات التي يمكن أن تسهم في مواجهة هذه الاحتياجات وضمان مستوى سكني لائق للمسلمين حديثًا وأسرهم .

٥ – الخدمات التعليمية للمسلمين حديثًا :

تعتبر الخدمات التعليمية ذات أهمية كبيرة بالنسبة للمسلمين حديثًا وذلك لفهم تعاليم الدين الإسلامي وحفظ القرآن الكريم ، ويمكن للمنظم الاجتماعي أن يسهم في تصميم هذه البرامج من خلال حصر عدد المسلمين حديثًا الراغبين في تعلم اللغة العربية ، والقيام بتشجيع الجهود التطوعية من جانب رجال الدين والمتخصصين في تدريس اللغة العربية ، وتحديد الأوقات المناسبة لكل من المسلمين حديثًا والمدرسين للقيام بهذه البرامج التعليمية ، ومواجهة أي مشكلات قد تحول دون استفادة المسلمين حديثًا من هذه البرامج .

٣ - مساعدة المؤسسات الإسلامية على تصميم البرامج التي تشبع احتياجات المسلمين حديثاً :

حيث يمكن لطريقة تنظيم المجتمع أن تسهم في مساعدة الهيئات الإسلامية (مثل رابطة العالم الإسلامي ، مكاتب التعاون للدعوة والإرشاد ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث والإفتاء ، هيئة الإغاثة الإسلامية ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ...) وغير ذلك من المنظمات التي تعمل في مجال الرعاية الاجتماعية كالجمعيات الخيرية ، ووزارة العمل والشؤون الاجتماعية ، المستشفيات ... إلخ .

حيث تعمل الطريقة على تعريف معتنقي الإسلام حديثًا بالأهداف التي تسعى إليها وتسهيل عملية اتصالهم بها ، وضمان وصول الخدمة إلى مستحقيها معتمدين في ذلك على الأسس العلمية لمدخل دراسة الاحتياجات Needs Assesment والأسلوب العلمي في تقديم الخدمات .

كما تساعد الطريقة هذه المؤسسات في التعرف على المستفيدين الحقيقيين ونوعية الخدمات وأهميتها وعمل الأولويات الخاصة بها بالاعتماد على القيادات المؤثرة من المسلمين حديثًا والخبرات الفنية لممارسي طريقة تنظيم المجتمع .

٤ - بناء الوعي الإسلامي [١] :

بناء الوعي الإسلامي لدى المسلمين الجدد وتوعيتهم بجوهر هذا الدين ودعوتهم إليه كأسلوب يتناسب مع اهتماماتهم ، والانتقال بهم تدريجيًا نحو معرفة أحكامه والعبادات المرتبطة به ، على أن يتم ذلك خطوة بعد خطوة حيث إننا لا نعرف عادات وتقاليد المجتمعات التي أتى منها هؤلاء المسلمون الجدد ؛ ولهذا يمكن تبصير هؤلاء المسلمين الجدد بضرورة الأخذ بالعادات الصحيحة للإسلام سواء فيما يتعلق بالصلاة ، الصيام ، الزكاة ، الحج ، الأمور التي تتعلق بالحلال والحرام ، والطهارة والنجاسة بأسلوب بسيط ومقنع .

وإن ما يجعل الأمر يسيرًا على الخدمة الاجتماعية في هذا الجانب هو أن الإسلام لا يفصل بين القيم والسلوك فهو متكامل في الفكر والممارسة ولا ينادي بقيم مثالية يعجز البشر عن الوصول إليها ، بل يتناول الأمور الفكرية والسلوكية بتوازن فريد وشمول واتزان لا يصل إليها غيره [٢] . وهذا ما أشار إليه المسلمون الجدد أثناء الدراسة التطبيقية

(١) د . محمد أحمد عبد الهادي : الخدمة الاجتماعية الإسلامية ، مرجع سبق ذكره ، (ص١٨) .
(٢) المرجع السابق ، (ص٢٢) .

للبحث حيث قالوا : « إن الدين الإسلامي مع حياته العادية ، بل إنه أعطى لنا الفرصة بتنظيم حياتنا والبُعد عن الشرك باللَّه » .

٥ - تقوية شبكة الدعم الاجتماعي للمسلمين حديثاً :

يجب أن ندرك أن المسلمين حديثًا هم كيانات متفاعلة مع كيان المجتمع الإسلامي وجزء من نسيجه العام لا يمكن أن نغفل عنهم ، وحتى يحقق لهم هذا التفاعل وأن يكونوا جزءًا فعالًا في نسيج المجتمع الإسلامي ، فمن الضروري التعرف على الأبعاد المختلفة المحيطة بهم (والتي تشتمل على : البُعد الجغرافي ، التاريخي ، الاقتصادي ، الاجتماعي ، النفسي ... إلخ) لما لها من أهمية في إبراز شخصية المسلم الحديث ، وإعادة صهره في بناء المجتمع الإسلامي ، ومن المهم في طريقة تنظيم المجتمع أن تتعرف على هذه الأبعاد ، مع تركيز خاص على الجوانب الاجتماعية والنفسية للمسلمين حديثًا باعتبارهم ليسوا كيانات من لحم ودم وعظم وعصب ، وإنما هم رموز ومعانٍ وموجهات وضوابط ويمثلون عناصر ثقافات فرعية خاصة بهم وثقافة كلية للمجتمع الذي أتوا منه ، كما أنهم انعكاس في غاية الدقة والصدق لكافة الأبعاد الأخرى المؤثرة ، وإبراز ما يمثلها البُعد الاجتماعي النفسي .

كما تدرك طريقة تنظيم المجتمع أهمية شبكة العلاقات الاجتماعية – Social Net Works ، وأهمية التدعيم الاجتماعي Social Support للمسلمين حديثًا ، حيث تؤثر شبكة العلاقات الاجتماعية الأولى التي عاش فيها وانتمى إليها المسلم الجديد لسنوات طويلة على شخصيته وعلاقاته وتكيفه مع المجتمع الإسلامي الجديد بالنسبة له ، وبالنسبة للإطار المرجعي الخاص به .

في إطار ما تقدم تسعى طريقة تنظيم المجتمع إلى الإسهام بشكل فعال في تقوية الدعم الاجتماعي للمسلم الحديث ، بحيث تكون هناك شبكة من العلاقات الاجتماعية القوية يمكن أن تحيط به وتحقق له المواجهة الفعالة لمشكلاته واحتياجاته دون أن يتعرض لأي نوع من التهديد أو الخوف بعد انسلاخه من شبكة العلاقات القديمة ودخوله في شبكة العلاقات الإسلامية .

وطريقة تنظيم المجتمع بما لها من عمليات تتصل بالدراسة والتخطيط والتنفيذ والمتابعة والتقويم ، تستطيع أن تسهم في نجاح البرامج العلاجية والوقائية التي تتعلق – بطبيعة

الاحتياجات ونوعية الخدمات الخاصة بالمسلمين حديثًا ، والتى تنمي بينهم وبين إخوانهم المسلمين أصلًا علاقات اجتماعية قوية ، تبعد عنهم الشعور بالعزلة والاغتراب .

سمات المنظم الاجتماعي في مجال الدعوة إلى الله

هناك مجموعة من السمات ينبغي توافرها في المنظم الاجتماعي تؤهله للعمل مع المسلمين حديثًا وهي :

١ – إخلاص النية : فالأعمال تحدد قيمتها الحقيقية بقيمة النيات الباعثة عليها وبحسب هذه النيات يجري الحساب والجزاء على الأعمال عند اللَّه تبارك وتعالى ، ولقد جاء في الحديث الصحيح أن الرسول ﷺ قال : « **إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكلِّ امرئ ما نوى** » .

والمنظم الاجتماعي عند عمله مع المسلمين حديثًا فهو يخلص النية مبتغيًا مرضاة اللَّه ﷻ ، وأن يدرك أن أجر العمل الذي سوف يقوم به على اللَّه ، فقد جاء في الحديث : « **يستجاب للرجل في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه** » (١) ، وقال اللَّه تعالى : ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف : ٥٧] .

٢ – بسط الوجه وحسن اللقاء : وهذه السمة لها أهمية كبيرة في تأليف القلوب وتوثيق العلاقات ومواجهة مشكلات العزلة التي قد يشعر بها المسلمون حديثًا ، وفي هذا يقول اللَّه تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

والمنظم الاجتماعي بحكم إعداده وتدريبه على مهارة المقابلة والأساليب المتصلة بها ، يمكنه أن يساعد المسلمين حديثًا على التعبير عن احتياجاتهم بحرية ودون خوف من خلال مقابلته لهم بوجه بشوش ومعاملة حسنة .

٣ – الألفة وحسن الخلق : وهي مرتبطة بالسمة السابقة ، فكلما حسنت الأخلاق وصلح العمل كان ذلك دافعًا للمسلمين حديثًا على الاقتداء ، كما يترتب على التزام المنظم الاجتماعي بهذه الصفة نمو المودة والألفة بينه وبين معتنقي الإسلام حديثًا ، وفي بيان أهمية الألفة يقول اللَّه ﷻ : ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٣] .

وحتى يكون المنظم الاجتماعي ملتزمًا بهذه الصفة ، لا بد من توافر ثلاث مقومات

---

(١) رواه أبو داود والترمذي عن عبد اللَّه بن عمرو .

هي : الإيمان ، والإعلان بالقول ، والإعلان بالعمل [١] .

٤ – إدراك ما يجول بخواطر المسلمين حديثًا بما لديه من معرفة وقدرة على تفسير التعبيرات التي تبدو على وجوه المسلمين الجدد ، وهو يعمل على دراستها والتعرف على أسبابها ، وتلبية حاجات المسلمين حديثًا دون أن يعرضهم للإحراج ، ويقيهم ما أمكن ذلَّ السؤال ، كما أنه في ذلك لا ينتقد سلوكياتهم أمام الآخرين ، ويتعرف على دوافع هذه السلوكيات ، وأن يستفيد بما أشار إليه الرسول ﷺ : « **بحسب المؤمن من الشر أن يحقر أخاه المؤمن** » [٢] .

٥ – تفادي الاصطدام بالعادات والتقاليد الخاصة بالمسلمين حديثًا والعمل على احترامها وتقديرها ، ودراسة الجوانب الجيدة منها والعمل على ترسيخها ، والسعي إلى توضيح القيم والعادات التي تتعارض مع الدين الإسلامي بأسلوب بسيط ومقنع ملتزمًا بحسن النصيحة . ويقول الرسول ﷺ : « **المؤمن مرآة المؤمن** » [٣] .

دور المنظم الاجتماعي في الدعوة إلى اللَّه :

يتضمن دور المنظم الاجتماعي جانبين هما :

أ – دوره مع المجتمع المستهدف Target وهم المسلمون الجدد .

ب – دوره مع المؤسسات المستهدفة وهي المؤسسات الإسلامية .

دوره مع المسلمين حديثًا :

١ – دور علاجي : ولا نعني بذلك أن يقوم بتعديل سلوك منحرف إلى سلوك سوي وربما يكون الدور منصبًا هنا على حل مشكلة معينة أو إشباع احتياجات يعاني منها المسلمون حديثًا ، وتوجيه الجهود المادية والبشرية لعلاج وإشباع احتياجات المسلمين حديثًا .

٢ – دور الوسيط : حيث يمكن من خلاله أن يواجه أي صعاب تحول دون استفادة المسلمين حديثًا من الخدمات التي تقدمها المؤسسات الإسلامية ومؤسسات الرعاية الاجتماعية .

٣ – دور الداعية : ويتضمن القيام بتوضيح بعض الأمور الشرعية للمسلمين حديثًا

---

(١) أمين حسن صلحي : منهج الدعوة إلى اللَّه ، (الكويت ، دار نشر الكتاب الإسلامي ، ١٩٧٠م) ، (ص ٢٤) .

(٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة .

(٣) أخرجه أبو داود عن أبي هريرة .

معتمدًا على كتاب اللَّه وسنته وما اكتسبه خلال دراسته ، بالإضافة إلى الاستعانة بالمختصين في المواقف التي لا يستطيع الإدلاء فيها برأي قاطع .

٤ – **دور المدافع** : حيث توجد لدى المنظم الاجتماعي الخبرة والدراية بالموارد المتاحة بالمجتمع والخدمات المتوفرة وكيفية الاستفادة منها ، وهو في ذلك لا يتحرك نيابة عن المسلمين حديثًا للحصول على الخدمات ، ولكن مساعدتهم على التعبير عن احتياجاتهم ، والسعي نحو إشباعها من خلال بعض القادة الممثلين لهم .

وفي إطار ما سبق يمكن للمنظم الاجتماعي أن يمارس دوره مع معتنقي الإسلام حديثًا كما يلي :

١ – مساعدة المسلمين حديثًا على مواجهة احتياجاتهم ، وذلك من خلال تذليل الصعاب الاجتماعية والمادية التي تعرقل استفادتهم من الخدمات التي تقدمها المؤسسات الإسلامية ومؤسسات الرعاية الاجتماعية .

٢ – القيام بدراسة احتياجات المسلمين حديثًا وإبراز أهم هذه الاحتياجات وكيفية القيام بإشباعها .

٣ – إقامة علاقات إنسانية طيبة بين المسلمين حديثًا وإخوانهم المسلمين أصلًا ، أو بينهم وبين أقرانهم من المسلمين الجدد ، من خلال الأنشطة الجماعية ، المحاضرات ، الندوات ، وغير ذلك من الوسائل المتاحة .

٤ – تشجيع المسلمين حديثًا على اكتساب مهارات الدعوة إلى اللَّه ﷻ .

٥ – اكتشاف القيادات – من بين المسلمين الجدد – والقادرة على القيام بعملية الدعوة إلى اللَّه ومساعدتهم على القيام بذلك .

٦ – توفير المعلومات التي يحتاج إليها المسلمون حديثًا والمتعلقة بأمور الدين ، وكذلك جوانب الرعاية الاجتماعية الخاصة بهم .

٧ – تخفيف مشاعر القلق والخوف الناتجة عن انفصالهم عن أسرهم أو ثقافتهم الأصلية من خلال تقوية شبكة الدعم الاجتماعي من جانب إخوانهم المسلمين بالمجتمع وتوضيح الجزاء الذي سوف يناله من دخل في دين الإسلام .

وفي هذا يقول الرسول ﷺ : « **ذاق طعم الإيمان من رضي باللَّه ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمدٍ رسولًا** » [١] .

---

(١) رواه مسلم (والترمذي وأحمد في مسنده عن العباس رضي الله عنه) .

دور المنظم الاجتماعي مع المؤسسات الإسلامية

يعمل المنظم الاجتماعي مع المؤسسات الإسلامية بهدف مساعدتها على تطوير الخدمات التي تؤدي إلى المسلمين الجدد كمًّا وكيفًا ، والعمل على توفير الظروف الملائمة داخل هذه المؤسسات ، كي تستطيع القيام بوظائفها على الوجه الأكمل ، وقد أكد هنري ماير Henry J . Mayer إلى أن مهنة الخدمة الاجتماعية تعمل مع المؤسسات بهدف تحسين وتطوير عملية المساعدة [١] .

ولهذا يتضمن قيام المنظم الاجتماعي بالعمل داخل المؤسسات الإسلامية ما يلي :

١ – دور تنسيقي : بين المؤسسات الإسلامية بهدف إقامة علاقة مناسبة بينها ، والتوصل إلى سياسات وإجراءات عمل متفق عليها بين هذه المؤسسات .

٢ – دور إداري : يتمثل في مساعدة الجهاز الإداري بهذه المؤسسات في :

- إعداد سجلات خاصة بالمسلمين حديثًا .
- تصميم استمارات لدراسة أحوال هؤلاء المسلمين الجدد .
- التحضير لاجتماعات مجالس إدارات هذه المؤسسات .
- متابعة القرارات الصادرة بشأن المسلمين الجدد .
- المساهمة في وضع علاقات متوازنة بين الجهاز الإداري والجهاز المهني حتى لا يسيطر العمل الإدراي على الجوانب المهنية .

٣ – دور فني مهني : وبصفة خاصة في عملية اتخاذ القرارات الصادرة من المؤسسة لصالح المؤسسة والمستفيدين من خلال جمع الخيارات المختلفة والمتاحة لمواجهة حاجات المسلمين الجدد ، ومناقشة فوائد ومضار كل خيار ، وانتقاء أفضل البدائل المتاحة ، ثم المساهمة في تنفيذ القرار المتخذ .

الأساليب والوسائل
التي يعتمد عليها المنظم الاجتماعي في الدعوة إلى الله

تتعدد الوسائل والأساليب التي يستخدمها المنظم في الدعوة إلى اللّه ، وهي تتفق مع

---

(١) Henry J.Meyer, and Robert Dinter, "Social Work and Social Welfare" In The Use of Sociology (London, Weiden field and Niloson, 1968) P . 160 .

الوسائل التي يستخدمها الدعاة في دعوتهم إلى اللَّه ، يضاف إليها تفهم العوامل الاجتماعية والنفسية المحيطة بالمسلم الجديد عند القيام بالدعوة **وهذا يتطلب ما يلي :**

أ – الحاجة إلى فهم واستيعاب الثقافات غير الإسلامية.

ب – فهم وإدراك معطيات الكتب السماوية الأخرى .

جـ – تهيئة المناخ الجيد للدعوة وإنجازها في الوقت المناسب .

كما يتطلب ذلك أيضًا استخدام أساليب الاتصال الآتية :

١ - الاتصال الفردي المباشر :

ويفيد في ذلك التعرف على النوعيات الجيدة التي يمكن أن تدخل الإسلام والتعرف على مشكلاتهم وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية ، وبالتالي القيام بعمليات التشخيص والعلاج آخذين في الاعتبار قول الرسول ﷺ : « **لأن يهدي اللَّه بك رجلًا واحدًا خير لك من حُمْر النَّعم** » .

ويستفيد المنظم الاجتماعي هنا بمهارات طريقة العمل مع الأفراد والأساليب ، المتعلقة بها لنجاح عملية الدعوة .

٢ - الاتصال غير المباشر :

من خلال الاستعانة بالقيادات المحلية الموجودة في المجتمع من المسلمين الذين يتسمون بسمات معينة كالقدرة على التأثير والمعرفة بلغات الجنسيات الأخرى غير العربية ؛ والقدرة على عرض الإنكار وتوضيح تعاليم الدين الإسلامي بأسلوب إقناعي خالي من الانفعال .

ويمكن للمنظم الاجتماعي أن يستعين في الدعوة بكل من :

أ – المسلمين المواطنين :

أي الذين هم أصلًا مسلمون من جنسيات أخرى ، حيث إنهم أقرب في الاتصال ومعرفة المشكلات الخاصة بأبناء بلادهم .

ب – الدعاة ومن لهم خبرة في العمل الدعوي :

حيث يمكن للمنظم الاجتماعي أن يعمل معهم ليستفيد منهم ويفيدهم في أساليب الاتصال وتجميع الآراء .

جـ – المسلمين منذ فترة طويلة :

وكانوا قبل إسلامهم يدينون بديانات أخرى للاستفادة منهم ومن خبراتهم منذ دخولهم الدين الإسلامي ، كما أنهم أقدر على التعرف على سمات وشخصيات المسلمين حديثًا وخاصة إذا كانوا من نفس بلادهم .

د – المسلمين حديثًا :

ولديهم الرغبة في دعوة غيرهم إلى الإسلام مع إعطائهم التدريب المناسب للقيام بذلك .

٣ - اللجان :

وتعتبر من الأدوات المهمة في طريقة تنظيم المجتمع ، والتي يمكن أن تسهم في نشر الدعوة إلى اللّه وتعريف المسلمين حديثًا بأمور دينهم مثل :

- لجنة تفسير القرآن الكريم .
- لجنة تعليم اللغة العربية وحفظ القرآن الكريم .
- اللجنة الاجتماعية والمساعدات المادية .
- لجنة الدعاية والنشر .

وغير ذلك من اللجان التي يتطلب الأمر تكوينها ، وهذه اللجان يمكن أن تزوَّد بمجموعة من الوسائل السمعية والبصرية تساعده في القيام بالمهام الخاصة بها .

٤ - المحاضرات :

وهي تركز على معالجة موضوع معين يهدف إلى تعريف المسلمين الجدد بأسس الشريعة الإسلامية ، أو قد تتصل بمناقشة بعض المشكلات والصعوبات الخاصة بهم ، ويقوم المحاضر فيها بإتاحة الفرصة للمسلمين الجدد للمناقشة والحوار ويتجنب الانفعال والدخول في قضايا خلافية وخاصة إذا كان حديث العهد بالدعوة .

٥ - وسائل أخرى يمكن للمنظم الاجتماعي أن يشارك فيها سواء بالإعداد أو التخطيط أو التنفيذ مثل :

- تكوين صحيفة إسلامية تنشر أمور الدين وتوضح القضايا الإسلامية بأسلوب سهل وبسيط .

obeikandl.com

- عقد مؤتمرات لكبار المشتغلين بالدعوة الإسلامية ورسم سياسة عامة تسير عليها الدعوة في الداخل والخارج .

- تكوين مراكز إسلامية للدعوة في أنحاء العالم تراقب عن كتب أفكار الناس عن الإسلام وتصحح الأخطاء وتظهر الحقائق .

نماذج التدخل المهني لطريقة تنظيم المجتمع مع المسلمين حديثاً

هذا المجال الجديد بالنسبة لطريقة تنظيم المجتمع قد لا نستطيع أن نركز فيه على نموذج واحد أو مدخل واحد من المداخل التي أشار إليها Jak Rothman وهي التنمية المحلية ، التخطيط الاجتماعي ، العمل الاجتماعي [١] ؛ ولذلك يلزم العملَ مع المسلمين حديثًا المزجُ بين مدخلي التنمية والتخطيط الاجتماعي ، مع تركيز خاص على المدخل الأخير والذي يطلق عليه في بعض الكتابات مدخل حل المشكلة ، حيث يدرك المنظم الاجتماعي في إطار هذا المدخل أن أي تحديد لمشكلة معينة يعاني منها المسلمون حديثًا أو أي إجراء يتخذ لمواجهة هذه المشكلة لا بد أن يشارك فيه المسلمون .

* * *

(١) Fred M.Cox, John L.Erlich, Jack Rothman, Johne Etropman, Macro Practice, Strateges of Community Organization (U.S.A.F.E, Peacock Pub,1987) P . 10 .

obeikandl.com

المعاونة المهنية من الخدمة الاجتماعية لإحدى مؤسسات العمل (دراسة حالة)

أ .د. علي حسين زيدان

تمهيد

نشأت الخدمة الاجتماعية كمهنة لتساعد الإنسان سواء كان فردًا أو جماعة أو مجتمعًا على التغلب على ما يواجهه من مشكلات وعلى أداء أدواره بطريقة أفضل من خلال التدخل المهني المخطط المبني على الأساس المعرفي للمهنة والملتزم بقيمها الأخلاقية عن طريق استخدام المهارات المهنية (١) ، وقد حققت هذه المهنة نجاحات متصلة تمثلت في التزايد المستمر في الأعداد المطلوبة من الأخصائيين الاجتماعيين ، ودخولها مجالات متعددة لم تكن تمارس فيها من قبل ، بحيث أصبحت الآن تمارس في مجالات عدة ، منها : مجال الخدمة الاجتماعية المدرسية ، والخدمة الاجتماعية الطبية ، والخدمة الاجتماعية العمالية .. إلخ ، كما بدأت هذه المهنة التي نشأت في الولايات المتحدة الأمريكية مع بدايات هذا القرن في الانتشار الجغرافي عبر القارات والبلدان .

ومع دخول الخدمة الاجتماعية إلى البلاد العربية والإسلامية ، وممارسة النماذج الغربية لعدة عقود ، بدأت تظهر دعوات متزايدة إلى ضرورة إدخال بعض التعديلات على النماذج الغربية في الخدمة الاجتماعية ، حتى تكون أكثر فاعلية عند تطبيقها في المجتمعات العربية والإسلامية ، وقد بدأت هذه الدعوات تتلمس طريقها مدركة وضع الإطار الثقافي والاجتماعي للمجتمع الذي تمارس فيه الخدمة الاجتماعية موضع الاعتبار عند تطبيق نماذج الممارسة ، وهو ما أطلق عليه في ذلك الوقت توطين الخدمة الاجتماعية (٢) .

بدأ عدد من الباحثين في الخدمة الاجتماعية يدرك الطبيعة المتميزة للمجتمع الإسلامي والتي تجعل للمجتمع المسلم صبغة متميزة تجعله يختلف عن غيره من المجتمعات في أمور

---

(١) Hary Wirtz Macht, Jean K,Queam, Fredric W.Seidl, Social Work an Introduction Columbus, Charles E.Merrill Publishing Company, 1986 , PP . 3 - 17 .

(٢) عبد الحليم رضا عبد العال وآخرون : أجهزة وحالات في تنظيم المجتمع ، القاهرة ، مكتبة توت للطباعة والنشر ، (١٩٨٥م) ، (ص ٦٦ – ٨٩) .

كثيرة ، كما بدأ بعض الباحثين يكتشف أن الأصول الإسلامية تحتوي على أسس قوية يمكن أن تصلح أساسًا لبناء نموذج متميز للخدمة الاجتماعية يطبق في المجتمعات الإسلامية ، ومن هنا بدأت الدعوة إلى التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية .

مع تزايد عدد المعنيين بالتأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية وتبني بعض الجهات العلمية لهذه الدعوة ، بدأت تظهر تيارات متعددة – من بينها تيار يمكن أن نطلق عليه تيار الخدمة الاجتماعية الإسلامية – على أنها مجال من المجالات الإسلامية ، وخدمة أهداف الإسلام ، والإسهام في تنمية المجتمعات الإسلامية بالاعتماد على نفسها في إطار من تعاليم الإسلام .

ويدخل ضمن هذا الإطار الاستفادة من إمكانات الخدمة الاجتماعية كمهنة في تدعيم المؤسسات الإسلامية ، وزيادة فاعليتها في تحقيق أهدافها بتقديم المعاونة العلمية والمهنية المتخصصة لها ، حيث ينعكس دور هذه المعاونة المهنية على مستوى الخدمات التي تقدمها هذه المؤسسات لعملائها [١] .

والحالة التي نحن بصددها هي محاولة لمساعدة إحدى مؤسسات العمل الإسلامي من خلال المعاونة المهنية المتخصصة للخدمة الاجتماعية على زيادة فاعليتها في تحقيق أهداف العمل الإسلامي ، قام بها فريق من مندوبي قسم الخدمة الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وقد كان الباحث مسؤولًا عن فريق المعاونة المهنية لهذه المؤسسة ، مضي على بدء التجربة حتى لحظة إعداد هذا البحث أكثر من عام شعر الباحث فيه بثراء هذه التجربة ، وبأن فيها ما يمكن أن يفيد ، كما شعر في نفس الوقت بأن عرضها وما يسفر عنه من آراء يمكن أن يعدل من مسارها ويجعلها أكثر ثراء وقيمة ، وفيما يلي نقدم المعالم الرئيسية لها :

أولًا : المعاونة المهنية

أقرب وصيف للمعاونة المهنية هي ما يسميه الفريد كادوسين Alfred Kadushin الاستشارة المهنية Social Work Consultion وبالتحديد ذلك النوع الذي يسمى بالاستشارة التي تركز على البرنامج Program Centered Consultion [٢] .

(١) محمد أحمد عبد الهادي : الخدمة الاجتماعية الإسلامية ، القاهرة ، مكتبة وهبة (١٤٠٩هـ ، ١٩٨٨م) ، (ص ٢٠ – ٢٨) .

(٢) Alfred Kadushin, Consulatation in Social Work, New York, Columbia University , 1977 PP . 73 - 79 .

وتعرف الاستشارة المهنية في الخدمة الاجتماعية بأنها عملية مشتركة للمساعدة على حل مشكلة ما ، يقوم خلالها المستشار بمساعدة المؤسسة أو الجهة طالبة الاستشارة على حل مشكلة مهنية يعاني منها في مجال تخصصه [١] . ويعرِّف كل من ماكلينان Maclennan وكوين Quinn وشرويدر Sheroeder الاستشارة التي تركز على البرنامج بأنها ذلك النوع من الاستشارة التي تركز على تحسين تخطيط وتنمية وإدارة وتنسيق الخدمات المباشرة أو غير المباشرة التي تقدمها المؤسسة أو الجهة طالبة الاستشارة ، من خلال العمل على إحداث تغييرات في النظام الذي يتفاعل من خلاله الأخصائي الاجتماعي والعميل ، وتهتم بفهم وتقدير موقف المؤسسة أو الجهة طالبة الاستشارة ، وما يحدث فيها من عمليات ، وما تملكه من وسائل ، وما فيها من عيوب بنائية تقلل من الكفاءة في أداء الواجبات ، وتتضمن خدمات المساعدة على التنظيم والتعديل في أهداف ومحتويات البرامج التي تقدمها المؤسسة من خلال تطبيق الخبرات المضيئة في الديناميات الاجتماعية والعمليات الإدارية للنسق الذي يتم من خلاله تقديم الخدمة [٢] .

كما تضمنت المعاونة المهنية – كما سوف يتبين فيما بعد – جوانب أخرى تتصل بما يسمى الاستشارة التي تركز على المستشير . Consultee Centered Consultation وتنصب على مساعدة المؤسسة أو الجهة طالبة الاستشارة على إحداث تغييرات في بنائها أو وظائفها عن طريق استخدام المعرفة بإدارة المؤسسة والعقد التنظيمية والظواهر البيروقراطية والبناء التنظيمي غير الرسمي ، وأنماط الاتصال وعملية اتخاذ القرار في إحداث تعديلات لعلاج المشكلات التي يشكو منها طالب الاستشارة ، كما تتضمن علاج العوامل التي تتصل بالتفاعل والعلاقات الشخصية التي تؤثر على أداء الواجبات في المؤسسة ، ورفع الروح المعنوية ، وإزالة التجاوزات ، وازدياد الديمقراطية في المؤسسات ، وجعل العلاقات بين العاملين بها أكثر إنسانية ، كأهم أهداف هذا النوع من الاستشارة [٣] .

وقد جمعت المعاونة المهنية التي قدمت حتى الآن بين خصائص كل من النوعين السابقين بالإضافة إلى أنواع أخرى من المعاونة لا تندرج تحت إطار الاستشارة ، كما سوف يتضح فيما بعد ؛ وذلك لأن متطلبات الممارسة الميدانية تتجاوز في كثير من الأحيان الأطر

---

(١) Lawrence Shulman, Consultation, Encyclopedia of Social Work, 18 th Edition, Silver Spring, Maryland, National Association of Social Workers, 1987 , P . 326

(٢) Alfred kadushin, op. ci, pp. 73 - 74 .

(٣) Ibid, p. 78 - 79 .

التنظيرية مهما كانت دقتها وكفاءتها ، ولذلك فقد وجد الباحث أن إطلاق اسم المعاونة المهنية على ما تم تنفيذه من تعاون مع المؤسسة أكثر دقة ؛ لأنها تضمنت ما هو أكثر من مجرد الاستشارة ، وقد حاول فريق المعاونة المهنية التوفيق بين الأصول المهنية لتقديم الخدمات ومتطلبات الواقع الإمبيريقى ، كما تتطلبه طبيعة العمل بالمؤسسة وظروفه .

ثانيًا : نبذة عن المؤسسة

أنشئت هذه المؤسسة منذ حوالي سبع سنوات كنوع لإحدى المؤسسات التي تعمل على المستوى الدولي تعمل في خدمة الإسلام والمسلمين ، ولهذه المؤسسة فرعين من الأهداف أولهما : أهداف دعوية ؛ وذلك بدعوة المسلمين إلى التمسك بدينهم والدفاع عن حقوق الأقليات المسلمة في البلدان غير المسلمة ، ودعوة غير المسلمين إلى الدخول في الإسلام ، وثانيهما الأهداف الإغاثية والإنسانية ، حيث تشرف المؤسسة على العديد من البرامج التي تتضمن مساعدات الإغاثة والإيواء والعلاج والتعليم والتدريب في العديد من البلاد الإسلامية وغير الإسلامية ، وهي مؤسسة أهلية تعتمد في تمويلها على التبرعات ، ويساهم المتطوعون بجانب كبير من الجهد المطلوب للعمل فيها .

يتكون الجهاز الوظيفي للمؤسسة من مدير متفرغ وعدد قليل من الموظفين الإداريين وتعمل على تحقيق أهداف تعتبر جزء من أهداف المؤسسة الأم ، وعلى الرغم من أن العديد من البرامج والأنشطة التي تمارسها المؤسسة تدخل في نطاق اختصاص الخدمة الاجتماعية فلا يوجد بها أخصائي اجتماعي واحد لا من العاملين ولا من المتطوعين ، بل إن دور الخدمة الاجتماعية و ما يمكن أن تقدمه من دعم للمؤسسة لم يكن واضحًا في ذهن المسؤولين عن المؤسسة .

ثالثًا : مراحل المعاونة المهنية

يرى كل من هولاند و ريتفو وتكنز أن للاستشارة المهنية مجموعة من الخطوات هي [١] :

١ - الإقرار بالحاجة إلى الاستشارة .

٢ - طلب الاستشارة .

٣ - تحديد المشكلة وتقدير الموقف .

---

(١) Lawrence Shulman, op. cit, p. 328 .

٤ – التفاوض حول التعاقد على الاستشارة .

٥ – الاتفاق على تحديد أهداف الاستشارة .

٦ – تحديد إستراتيجيات العمل .

٧ – التنفيذ .

٨ – قياس العائد من الاستشارة .

وعلى الرغم من وجود بعض أوجه الاتفاق بين الاستشارة والمعاونة المهنية ، إلا أن المعاونة المهنية لم تأخذ نفس الخطوات السابقة ؛ وذلك لعدد من الأسباب من بينها أن الاستشارة عادة ما تتم بين مؤسسة يوجد بها مهنيون متخصصون في الخدمة الاجتماعية ، يستطيعون تحديد مدى حاجتهم إلى الاستشارة والجوانب التي يحتاجون إلى الاستشارة بشأنها ، ويمكنهم الإسهام في سائر خطوات الاستشارة من تقدير للموقف إلى التعاقد إلى تحديد الأهداف والاستراتيجيات والتنفيذ وقياس العائد ، وقد أثر عدم وجود أخصائيين اجتماعيين بالمؤسسة إلى حدٍّ كبير على تفاعلها مع فريق المعاونة المهنية ، إلا أنه أعطى في نفس الوقت لفريق المعاونة المهنية قدرًا كبيرًا من الحرية في العمل .

وعلى الرغم من وجود بعض التداخل بين المراحل ، إلا أننا يمكننا تمييز المراحل التي مرت بها المعاونة المهنية حتى الآن على النحو التالي :

١ – مرحلة الاتصال :

بدأت هذه المرحلة في شهر ربيع الثاني سنة (١٤١٠هـ) حيث تم اتصال غير رسمي بين أحد أساتذة قسم الخدمة الاجتماعية ومدير المؤسسة ، تم على أثره عقد اجتماع بين مجموعة من أساتذة القسم برئاسة رئيسه ومدير المؤسسة ، عرض فيه مدير المؤسسة أهداف المؤسسة وبرامجها ، ورحب فيه بأية مساعدة تقدم إلى المؤسسة وحدد رئيس القسم بصورة مبدئية أوجه المعاونة التي يمكن تقديمها ، وقد أسفر هذا الاجتماع عن الاتفاق على الآتي :

أ – إقرار مبدئي بمبدأ المعاونة المهنية للمؤسسة من قِبَل القسم .

ب – تقوم المؤسسة بإعداد ملفات تحتوي على بيانات عن البرامج التي سوف تتم المعاونة بشأنها وهي كفالة اليتيم ، وصندوق مساعدة الطلاب .

جـ – أن يقوم القسم باتخاذ الإجراءات اللازمة لبدء المعاونة المهنية ، وتشكيل الفريق الذي سوف يقوم بتقديم المعاونة المهنية .

عقب ذلك بفترة وجيزة تم إنهاء الإجراءات الإدارية اللازمة لبدء المعاونة المهنية ، كما تم تشكيل فريق المعاونة المهنية ، وبدأ في عقد اجتماعات متتالية تمهيدًا للمراحل التالية ، كما بدأ في القيام بزيارات للمؤسسة ولقاءات مع المسؤولين فيها للتعارف وتوثيق العلاقات .

٢ - تحديد أهداف المعاونة المهنية :

تحدد الهدف الرئيسي للمعاونة المهنية في زيادة كفاءة المؤسسة وفاعليتها في تحقيق أهدافها وذلك من خلال :

أ – دراسة البرامج القائمة ، وتحديد أوجه القوة والضعف فيها ، ومن ثم اقتراح التعديلات المناسبة سواء كانت هذه التعديلات في أهداف البرامج أو في إدارتها أو تمويلها ، والمساعدة على تنفيذ هذه التعديلات بحيث تسير هذه البرامج وفقًا للأصول المهنية السليمة .

ب – اقتراح برامج جديدة تتمشى مع أهداف المؤسسة ، والتخطيط لهذه البرامج والمساعدة على تنفيذها وتقويمها .

جـ – مساعدة المؤسسة على رفع مستوى العاملين والمتطوعين بها وزيادة كفاءتهم .

د – تدعيم المؤسسة فنيًا وماليًا من خلال مساعدتها على تنشيط التطوع وتنظيم جمع المال .

وإلى جانب هذا الهدف الرئيسي كانت هناك بعض الأهداف الأخرى منها :

أ – إشعار قيادات العمل الإسلامي والقائمين عليه بما يمكن أن تقدمه الخدمة الاجتماعية كمهنة من زيادة في كفاءة هذا العمل في تحقيق أهدافه ، ومن ثَمَّ فتح باب العمل في هذا المجال للأخصائيين الاجتماعيين كعاملين أو متطوعين فيه .

ب – اكتساب دراية أكبر بالعمل الإسلامي وظروفه ومؤسساته بما يدفع عملية التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية ، ويساعد على بلورة نماذج للممارسة تنبع من المؤسسات المحلية في المجتمعات الإسلامية ، وتستجيب لمتطلبات الواقع ، وتكون بالتالي أكثر مناسبة لهذه المجتمعات وأكثر كفاءة في التعامل مع مشكلاتها .

٣ - مرحلة التعاقد :

لم تتضمن مرحلة التعاقد كما هو مألوف في مثل هذه الحالات تحديدًا مكتوبًا لنوع المعاونة وشروطها أو جداول زمنية لمراحل سيرها أو تكلفتها [١] .

واقتصرت على مجرد اتفاق شفهي على تقديم المعاونة من جانب فريق المعاونة المهنية وعلى قبولها من جانب المؤسسة ، وذلك نتيجة لعدد من العوامل هي :

أ – عدم وجود أخصائيين اجتماعيين بالمؤسسة ، وعدم وضوح الرؤية بالنسبة لما يمكن أن يقدم إلى المؤسسة من معاونة مهنية .

ب – لم تتضمن المعاونة المهنية إلقاء أية أعباء أو فرض أية شروط على المؤسسة ، وبالتالي فلم يكن من المناسب في رأي المسؤولين عن المؤسسة وضع شروط لمعاونة غير مشروطة تقدم دون مقابل .

جـ – اعتماد المؤسسة على الجهد التطوعي ، ومن ثَمَّ النظر إلى فريق المعاونة المهنية على أنه عدد من المتطوعين بالمؤسسة .

د – الثقة المتبادلة بين المسؤولين بالمؤسسة وفريق المعاونة المهنية والمستمدة من نظرة كل منهما إلى الآخر على أنه يعمل لوجه اللَّه ، ولن يدخر جهدًا في تيسير عمل الجانب الآخر ، وبذل أقصى جهد في خدمة الإسلام والمسلمين .

٤ - تقدير الموقف :

عقب ذلك قام فريق المعاونة المهنية بدراسة ملفات البرامج التي أعدتها المؤسسة ، كما قام بملاحظة أسلوب العمل من خلال تواجده في المؤسسة ولقاءاته مع المسؤولين فيها ، وقد تم تجميع ملاحظاته عن المؤسسة وما تنفذه من برامج ، **وكان من أهم هذه الملاحظات ما يلي :**

أ – يتولى المسؤوليات القيادية في البرامج وعملية اتخاذ القرار في كل برنامج عدد من المتطوعين بالتنسيق مع إدارة المؤسسة ، ويشرف على كل برنامج عدد محدود منهم تواجد معظمهم في المكتب غير منتظم وفي أوقات غير محددة في كثير من الأحيان .

ب – يتولى المسؤوليات التنفيذية بالمؤسسة عدد محدود من الموظفين المثقلين

(١) Gebbie, M.Kristine, Consulation Contracts, Their Development and Evaluation, American Journal.

بالأعمال والمسؤوليات اليومية للمؤسسة وبرامجها ويصعب إشراكهم في تطوير البرامج دون تخفيف بعض المسؤوليات عنهم .

جـ – عدم وجود أخصائيين اجتماعيين في المؤسسة سواء من العاملين أو المتطوعين ، مما جعل التفاهم على الكثير من الأمور المهنية الأساسية أمرًا غير متيسر .

د – الانشغال الشديد لكبار المسؤولين في المؤسسة بالأعمال اليومية للبرامج ، وعدم وجود الوقت الكافي لديهم للعمل على تطوير البرامج أو أسلوب العمل بالمؤسسة .

هـ – ترحيب جميع من بالمؤسسة دون استثناء بفريق المعاونة المهنية ، وتحليهم بالتواضع والروح الإسلامية الطيبة ، والنظر إلى فريق المعاونة المهنية كمحتسبين أولًا وكمصدر للمعاونة المتخصصة من جهة ثانية ، الأمر الذي يمكن أن يذلل الكثير من الصعوبات .

٥ - تحديد إستراتيجيات العمل :

وإزاء ذلك تم الاتفاق بين فريق المعاونة المهنية على الخطوط الأساسية للمعاونة المهنية على النحو التالي :

أ – البدء بإنشاء وحدة المتطوعين لتدعيم المؤسسة بالقوة البشرية التي تساعد في تخفيف الأعباء التي يتحملها العاملون بالمؤسسة ، على أن يتولى مسؤولياته بالكامل فريق المعاونة المهنية مع الرجوع إلى إدارة المؤسسة لأخذ موافقتها بالطبع .

ب – أما بالنسبة للبرامج القائمة بالفعل فقد تم الاتفاق على أن يقوم الفريق بعد دراسة كل مشروع بتحديد التعديلات المطلوب إدخالها على كل برنامج والبدء باختيار بعض هذه التعديلات والاتفاق مع المسؤولين عن كل برنامج على مبدأ إقرار هذه التعديلات على أن يتولى فريق المعاونة المهنية التنفيذ الفعلي لهذه التعديلات مع القيام بالتنسيق مع المسؤولين عن البرنامج حتى لا يحدث أي ارتباك في سير البرنامج .

جـ – يتم اطلاع المسؤولين عن البرنامج على نتائج التعديلات التي حدثت وإدماج هذه التعديلات في البرنامج بالتدريج بعد أن يلمس المسؤولون عن البرنامج الآثار الإيجابية لهذه التعديلات على البرنامج ، بحيث تصبح هذه التعديلات جزءًا من البرنامج ؛ فيما بعد ، مع إدماج القائمين بهذه التعديلات أيضًا مع القائمين على تنفيذ البرنامج وذلك بهدف إتمام التطوير المستهدف للبرامج بصورة تدريجية وتلافي إلقاء أية أعباء على المسؤولين عن البرامج في المراحل الأولى على الأقل .

د – تخصيص مسؤول من فريق المعاونة المهنية بكل برنامج كمسؤول أول عن المعاونة المهنية لهذا البرنامج ، وأن يحرص هذا المسؤول على تنمية العلاقة مع المسؤولين عن هذا البرنامج من قبل المؤسسة .

٦ - تنفيذ الخطة :

بدأ تنفيذ خطة المعاونة المهنية للمؤسسة بناء على ما سبق ، وسوف نعرض فيما يلي سير عملية التنفيذ في البرنامج على حدة ، والنتائج التي أسفرت عنها بالنسبة للبرنامج على النحو التالي :

أولًا : وحدة المتطوعين :

أدلت مجموعة المعاونة المهنية لهذا البرنامج أولوية متقدمة لشعورها بحاجة المؤسسة إليه ولتأثيره الإيجابي المتوقع على المؤسسة وعلى البرامج الأخرى ، وقد كان الهدف من إنشاء وحدة المتطوعين ما يلي :

١ – تزويد المؤسسة بالأعداد الكافية من المتطوعين في التخصصات التي تحتاج إليها للمشي قدمًا في تنفيذ برامجها .

٢ – تحقيق المزيد من التعريف بالمؤسسة من خلال الدعوة إلى التطوع .

٣ – تخفيف الأعباء المكثفة التي يعاني منها العاملون بالمؤسسة من خلال اشتراك المتطوعين الجدد في أداء بعض المسؤوليات .

٤ – إيجاد رصيد من القوة البشرية المتخصصة من المتطوعين الذين يمكن لفريق المعاونة المهنية الاستعانة بهم في إنجاز مسؤوليات تطوير برامج المؤسسة في المستقبل القريب .

٥ – اكتساب المسؤولين بالمؤسسة الخبرة والمهارة اللازمة للاستفادة من المتطوعين من خلال البرنامج .

وقد سار إنشاء هذه الوحدة على النحو التالي :

١ – تم عرض فكرة إنشاء الوحدة على إدارة المؤسسة أثناء اجتماع مشترك مع فريق المعاونة المهنية ، وتمت الموافقة عليها من حيث المبدأ .

٢ – قام فريق المعاونة المهنية بإعداد مقترح بلائحة الوحدة تضمنت تحديدًا لأهدافها ، والمسؤوليات التي تقوم بها الوحدة ، وكيفية تنظيمها ، والتجهيزات المطلوبة لها ، وقد تم

عرض هذه اللائحة على إدارة المؤسسة ووافقت عليها دون تعديل ، ومن ثَمَّ تم تصميم استمارة بيانات للمتطوع ، وبرنامج كمبيوتر لتخزين واسترجاع ومعالجة بيانات المتطوعين ، وتم وضعه في الحاسب الآلي بالمؤسسة ، وتدريب الموظف المختص على استخدامه .

٣ – قام فريق المعاونة المهنية بإدارة المؤسسة وأقسامها المختلفة لتحديد احتياجاتها من النوعيات المختلفة من المتطوعين ، وقد استغرقت هذه العملية وقتًا طويلًا نسبيًا ، حيث كان مدير المؤسسة يحيل هذه المسألة إلى معاونيه من المتطوعين ، وقد أدى انشغالهم في متابعة الأعمال اليومية إلى عدم وجود الوقت الكافي لديهم للقيام بهذه المهمة ، مما أدى إلى حدوث بعض التأخير ، وأخيرًا تم حصر هذه الاحتياجات وكانت تتمثل في مسؤولي إدارة متخصصون في العمل على الكمبيوتر ، متخصصون في العلاقات العامة والمحاسبية والترجمة والاتصال ، أساتذة جامعيون يتطوعون لإلقاء محاضرات عامة في موضوعات متنوعة .

٤ – قرر فريق المعاونة المهنية أن الجمهور المناسب الذي يمكن توجيه الدعوة إليه للتطوع هو مجتمع الجامعة ، واستقر الرأي على البدء بتوجيه الدعوة إلى طلاب جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية من منطلق أن طبيعة الدراسة الإسلامية بهذه الجامعة تجعل الدافع إلى القطع في المؤسسات الإسلامية لديهم أقوى ، بالإضافة إلى وجود التخصصات المطلوبة بين كلياتها .

٥ – قام فريق المعاونة المهنية بإعداد خطاب موجه إلى عمداء كليات الجامعة يطلب منهم الموافقة على تعليق إعلان يتضمن الدعوة إلى التطوع ، وقُدِّم الخطاب إلى مدير المؤسسة لإقراره ، وطباعته واعتماده . وقد استغرقت هذه العملية ما يقرب من شهر بسبب بعض الصعوبات الروتينية مثل : عدم وجود الطابع ، أو عدم حضور مدير المؤسسة ؛ وقد تم إعداد إعلانات الدعوة إلى التطوع للإسهام في برامج المؤسسة ، ووضع في الإعلان عنوان المؤسسة ورقما الهاتف والوقت المناسب للحضور إلى المؤسسة وقد تم تسليم الخطابات إلى عمداء الكليات عن طريق فريق المعاونة المهنية من خلال مقابلات شخصية تم خلالها توضيح الهدف من التطوع ، وقد تم تعليق الإعلانات ، وانتظرنا أسبوعًا ولم يتقدم أحد .

٦ – حاول فريق المعاونة المهنية البحث عن تفسير لعدم الإقبال على التطوع وايجاد الحلول المناسبة لهذا الموقف ، وقد أرجع الفريق عدم الإقبال على التطوع إلى عدم وضوح الصيغة التي كتبت بها الإعلانات ، بالإضافة إلى اقتراب موعد الاختبارات حيث لم يبق عليها سوى ثلاثة أسابيع ، وقد تم تغيير صيغة الإعلانات ، كما تم تكليف

عدد من فريق المعاونة المهنية بالدعوة إلى التطوع من خلال الاتصال الشخصي بين من يتوسمون فيهم قبول هذه الدعوة ، وقد أسفرت هذه الاتصالات عن التعرف على أن قرب الاختبارات هو السبب الرئيسي لعدم الإقبال ، وتم الاتصال بهم على حضورهم إلى المؤسسة عقب انتهاء الاختبارات .

٧ - حضر في الأسبوع التالي أحد عشر متطوعًا ، وتم استيفاء البيانات منهم ؛ على أن يتم الاتصال بهم عقب انتهاء الاختبارات ، وقد وصل عدد المتطوعين بعد انتهاء الاختبارات إلى عشرين متطوعًا ، تم إجراء مقابلات مع كل منهم وتعريفه بالمؤسسة وأقسامها وأهدافها والأعمال التي يمكن أن تسند إليه ، كما تم عقد اجتماع مشترك للمتطوعين مع مدير المؤسسة ، رحب فيه بهم وأعطاهم فكرة عن المؤسسة وأهدافها وبرامجها وما تعلقه على إسهامهم بها من آمال ، وقد لوحظ حماس واضح لديهم للقيام بأي عمل يكلفون به بالفعل ، وقد تم تكليف بعضهم بالفعل بالقيام ببعض مسؤوليات المعاونة في الأعمال الإدارية بالمؤسسة ، كما تمت الاستعانة بهم في البرامج الأخرى التي يقوم فريق المعاونة المهنية بتطويرها .

٨ - بعد ذلك بوقت قصير توقفت أعمال فريق المعاونة مؤقتًا بسبب العطلة الصيفية ، وقد تم تكليف أحد أفراده بالتعاون مع بعض المتطوعين بتسيير الأعمال الروتينية لفريق المعاونة المهنية بما في ذلك متابعة المتطوعين خلال هذه العطلة ، وقد تم عقب العطلة الاتصال بالمتطوعين من جديد وتحديث البيانات الخاصة بهم ، كما بدأ تنشيط عملية التطوع من خلال الاتصال الشخصي ، وقد أسفرت هذه العملية عن وصول عدد المتطوعين إلى حوالي خمسين متطوعًا ، وتم الاستعانة بهم في العديد من المسؤوليات منها :

- أداء بعض الأعمال الإدارية بالمؤسسة .
- الإسهام في إدارة وحدة المتطوعين .
- الدعوة إلى التطوع .
- الإسهام بمهام متعددة في برنامج كفالة اليتيم .
- الإسهام بمهام متعددة في برنامج الجاليات .
- تم من خلال البرنامج تزويد بعض المؤسسات الأخرى التي واجهت حاجة ماسة إلى المتطوعين أثناء جهودها لإغاثة النازحين من العراق والكويت إلى الأراضي السعودية بأعداد من المتطوعين لمعاونتها في ذلك ، وقد طلبوا من فريق المعاونة المهنية إنشاء وحدة

للمتطوعين لديهم ، وتم ذلك بالفعل .

– بدأ بعد ذلك بعض المسؤولين في المؤسسة بالفعل في الاستعانة بالمتطوعين من خلال برنامج الحاسب الآلي بالمؤسسة والاتصال بهم ، وتكليفهم ببعض المسؤوليات ، وبدأ الشعور في المؤسسة يتزايد بكون وحدة المتطوعين جزء من المؤسسة .

– لم يوافق المسؤولون بالمؤسسة على اشتراك المتطوعين في حملة لجمع المال لبرنامج كفالة اليتيم من خلال طوابع للتبرع واستمارات للكفالة حتى الآن ، ويتخوفون من وقوع مشكلات مالية ، ويقوم فريق المعاونة المهنية في الوقت الحاضر بدراسة أسباب هذا التخوف ومناقشتها ، والعمل على إزالتها حتى يمكن تحقيق الاستفادة الآملة من جهودهم .

النتائج التي أسفر عنها إنشاء وحدة المتطوعين بالمؤسسة : أسفر إنشاء هذه الوحدة بالمؤسسة عن مجموعة من النتائج من أهمها :

١ – توفير طاقة بشرية تساعد في أداء المسؤوليات المختلفة في المؤسسة ، ومن خلال حصر خبرات المتطوعين تبين أنها تنص على ما يلي :

– المشاركة في إجراء البحوث الاجتماعية .
– إلقاء الدروس الدينية .
– الإسهام في جمع التبرعات وحملات جمع المال .
– أعمال الإغاثة .
– الدعوة الإسلامية .
– تعليم القرآن الكريم والدروس الدينية .
– الطباعة على الآلة الكاتبة .
– الأعمال الإدارية .
– الخط العربي .

وقد تمت الاستفادة بالفعل من جانب كبير من المتطوعين في خدمة برامج المؤسسة .

٢ – تدريب بعض العاملين في المؤسسة على الجوانب المختلفة لعملية التطوع مثل : الدعوة إلى التطوع وتدريب المتطوعين وتكليفهم بالأعمال المختلفة .... إلخ .

٣ – رفع كفاءة بعض برامج المؤسسة مثل : برنامج كفالة اليتيم ؛ وبرنامج الجاليات من خلال جهود المتطوعين .

٤ – تخفيف بعض الأعباء الإدارية عن العاملين في المؤسسة مما أتاح الفرصة لإشراكهم بالتدريج في أعمال فريق المعاونة المهنية ، ومن ثَمَّ إكسابهم بعض المهارات المهنية التي تزيد كفاءتهم في العمل .

٥ – أسهم هذا البرنامج في تحقيق التعاون مع بعض المؤسسات الأخرى العاملة في مجال العمل الإسلامي عن طريق إمدادها ببعض المتطوعين .

٦ – أسهم البرنامج في التعريف بالمؤسسة على نطاق أوسع .

ويعمل فريق المعاونة المهنية حاليًا على تحقيق المزيد من الفاعلية لوحدة المتطوعين في دعم المؤسسة ، وبرامجها على النحو الآتي :

١ – إزالة المعوقات التي تحول دون إسهام المتطوعين في حملات جمع المال ؛ وذلك من خلال تدعيم الثقة بين المتطوعين والمسؤولين عن البرنامج ، ودراسة أسباب اعتراض المسؤولين على اشتراك المتطوعين ، والعمل على إزالتها .

٢ – التوسع في الاستعانة بالمتطوعين في برنامج الجاليات ؛ لمساعدة المعتنقين الجدد للإسلام على حل ما يواجههم من مشكلات .

٣ – التوسع في الدعوة إلى التطوع بما يلبي الحاجة المتزايدة لمتطلبات تطوير البرامج من المتطوعين ، مع الاستفادة بجهود المتطوعين الحاليين في ذلك .

٤ – التوسع في الاستفادة من المتطوعين في تطوير برنامج كفالة اليتيم .

ثانيًا : برنامج كفالة اليتيم :

نبذة عن البرنامج : بدأ هذا البرنامج منذ ما يقرب من أربع سنوات ، ويستهدف كفالة الأيتام من أبناء المسلمين في مختلف البلاد الإسلامية ؛ بتوفير متطلبات الحياة الكريمة لهم وتنشئتهم تنشئة إسلامية على هدي من القرآن والسنة ، ورفع مستواهم الاجتماعي والصحي والتعليمي والاجتماعي ، وتأهيلهم تربويًا ومهنيًا ؛ لسد حاجاتهم وفتح الطريق أمام القادرين من المسلمين للإسهام في كفالة الأيتام التي قد لا تتيسر لهم كأفراد ، ويرعى هذا المشروع ما يقرب من أربعة آلاف يتيم في بلاد مختلفة ؛ منها : أفغانستان ، وإريتريا ، وباكستان ، وتبدأ كفالة اليتيم بإثبات حالته ؛ كيتيم ، ثم ورود استمارة بذلك من فرع المؤسسة في البلد الذي يوجد فيه اليتيم ، ثم تقوم المؤسسة بالبحث عمن يكفله ؛ حيث يقوم بدفع مبلغ ٢٠٠ ريال سعودي شهريًا ، ثم يرسل هذا المبلغ إلى فرع المؤسسة في البلد الذي يقيم فيه اليتيم ، حيث يقوم فرع المؤسسة هناك ببدء الكفالة التي تشمل توفير

الغذاء والتعليم والإعانة الصحية والإقامة لليتيم إلى أن يصل إلى سن البلوغ .

وقد قام فريق المعاونة المهنية بدراسة الملف الذي أعدته المؤسسة عن البرنامج وبإجراء مقابلات متعددة مع المسؤولين عنه في المؤسسة ، وقد أسفرت هذه الدراسة عن تبلور مجموعة من المقترحات التي تسد بعض الثغرات التي تَبيَّن وجودها في البرنامج .

ثم عقب ذلك عقد اجتماع مشترك بين فريق المعاونة المهنية والمسؤولين عن البرنامج عرضت فيه هذه المقترحات وتمت مناقشة مستفيضة تم على أثرها الاتفاق على أن يقوم الفريق بمعاونة المؤسسة فيما يلي :

أولًا : فيما يتصل بتنظيم علاقة المؤسسة بالكامل :

١ – استكمال البيانات الموجودة لدى إدارة البرنامج عن كل من اليتيم والكافل .

٢ – إيجاد نظام للاتصال بالكافلين قبل انتهاء كفالتهم بوقتٍ كاف يسمح لهم بتجديدها ، ويسمح للمؤسسة أن تعرف ما إذا كان الكافل ينوي تجديد الكفالة أم سوف يتوقف ، ومن ثَمَّ يتعين عليها البحث عن كافل جديد لليتيم حتى لا تنقطع كفالته .

٣ – تنظيم إرسال تقارير دورية من المؤسسة إلى الكافل عن التطورات في حالة اليتيم أو الأيتام الذين يكفلهم ؛ حتى يطمئن إلى حسن إنفاق ما تبرع به من مال في مصرفه المحدد .

٤ – تنظيم حملة ذات شقين ، أولهما :

أ – إيجاد كافلين لأعداد من الأيتام الجدد المحتاجين إلى من يكفلهم ، أو بدلاء لكفالة الأيتام الذين انتهت كفالتهم لدى كافلين آخرين توقفوا عن الاستمرار في الكفالة .

ثانيًا : فيما يتصل بتطوير نظام رعاية اليتيم :

١ – تعديل أهداف البرنامج بما يمكن من مساعدة اليتيم الذي أوشك على بلوغ سن انتهاء الكفالة على إيجاد وسيلة لكسب الرزق أو الاستمرار في التعليم أو التدريب حتى ينتهي منه ، حتى لا تنقطع عنه الكفالة فجأة ببلوغه سن ١٥ سنة ونتركه دون مساعدة .

٢ – مراجعة وسائل التأكد من يُتم المستفيدين من البرنامج والاطمئنان إلى كفاءتها ، وعدم حصولهم على مساعدات من جهات أخرى .

٣ – تنظيم أسلوب مناسب لدراسة حالات الأيتام الذين يحتاجون إلى الكفالة ؛ لدراسة أفضل سبل كفالتهم من حيث اختيار نوع الكفالة . ما إذا كان في داخل المؤسسة أو لدى أسرة ، وتحديد الأسرة المناسبة لكفالته وأفضل السبل مساعدة هذه الأسرة على أداء دورها كأسرة حاضنة لليتيم .

٤ – تنظيم أسلوب مناسب للمتابعة وحل المشكلات المختلفة التي تواجه رعاية هؤلاء الأيتام ميدانيًّا .

٥ – تنظيم حملة لجمع المال الذي يمكن الاستفادة منه في تطوير البرنامج على النحو الذي سبقت الإشارة إليه .

قام فريق المعاونة المهنية على أثر هذا الاجتماع بإعداد عدد من النماذج المهنية التي يمكن عن طريق استخدامها توفير بيانات كافية عن اليتيم والكافل وهي :

١ – استمارة دراسة حالة ، وذلك عند بداية كفالة اليتيم ، تتضمن بيانات معرفة باليتيم وحالته الصحية والتعليمية والاقتصادية والأسرية والسلوكية ، والأشخاص الذين يمكن الرجوع إليهم لدراسة الحالة .

٢ – تقرير دوري عن اليتيم يقوم باستيفائه المسؤول المباشر من قبل المؤسسة عن متابعة اليتيم المكفول ، ويرسَل إلى إدارة المؤسسة التي تقوم بإرسال صورة منه إلى الكافل حتى يشعر باهتمام المؤسسة وجديتها ، مما يزيد ثقة الكافل في المؤسسة ويشجعه على الاستمرار في الكفالة ، كما يمكن المسؤولين عن البرنامج بالمؤسسة من متابعة حالات الأيتام أولًا بأول .

وبعد مراجعة كل من الاستمارة والتقرير من قبل المشرف على البرنامج أبدى شكه في إمكانية استيفائها عن طريق القائمين على العمل الميداني بوضعهم الحالي ؛ نظرًا لمشكلات اختلاف اللغة وعدم كفاءة القائمين على العمل في الميدان والصعوبات الإدارية التي يمكن أن تعوق هذه العملية ، مما دعا فريق المعاونة المهنية إلى التفكير في القيام بزيارة ميدانية لدراسة الوضع على الطبيعة ، ولم يمانع المسؤولون في المؤسسة ، وأبدوا استعدادهم لأن يرسلوا مندوبًا من قبلهم لمرافقة فريق المعاونة المهنية ، إلا أن ظروف عمل فريق المعاونة المهنية بالجامعة أوصت تأجيل هذه الزيارة إلى حين انتهاء العام الجامعي .

أبدى المسؤولون عن البرنامج بالمؤسسة رغبتهم في سرعة إعداد عدد من المطبوعات التعريفية بالبرنامج ، وتم الاتفاق على إعداد دليل عن البرنامج يوضح أهدافه وتطوره والأنشطة التي تتم من خلاله والخطوات التي تتبع لكفالة اليتيم ، كما تم إعداد مطوية تعريفية بالبرنامج تهدف إلى التعريف به والحث على الاشتراك فيه ؛ تتضمن بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التي تدعو إلى رعاية اليتيم وتبين أجر كافله مع بيان كيفية الاشتراك فيه وعنوان المؤسسة ، وقد تم طباعة كل من الدليل والمطويَّة .

وجنبًا إلى جنب مع ما سبقت الإشارة إليه بدأ فريق المعاونة المهنية في التعرف على النظام المتبع في الاتصال بالكفلاء ، وقد لوحظ أن البرنامج لا يتصل بالكفلاء لتذكيرهم بقرب انتهاء مدة الكفالة ويتعرف على موقفهم من تجديدها ، وقد تم شرح الطريقة التي يمكن اتباعها في ذلك عن طريق تحديد الكافلين الذين تنتهي كفالتهم شهريًّا على أن يتم الاتصال بكل منهم في الشهر السابق على شهر انتهاء الكفالة ، ويتم خلال هذا الاتصال إعطاء الكافل تقريرًا موجزًا عن وضع اليتيم إذا توفرت البيانات عنه ، ثم يذَكَّر بموعد انتهاء الكفالة ، ثم يسأل عن نيته في تجديدها ، على أن تسجل نتائج الاتصال في سجل خاص بذلك تم إعداده ، ثم تصفي هذه الحالات وتستخرج الحالات التي لا ينوي الكافل تجديد الكفالة على أن يبحث له عن كافل جديد ، إلا أن المسؤولين عن هذا العمل اعتذروا بأنهم مثقلون بالأعمال وأن هذا الأمر يضيف عليهم عبئًا إضافيًّا فوق طاقتهم ، وفي نهاية الأمر تم الاتفاق على أن يقوم فريق المعاونة المهنية بتنظيم قيام المتطوعين بهذا العمل تحت الإشراف المباشر لفريق المعاونة المهنية . وقد بدأ بالفعل تنفيذ هذه الخطوة ، وقد أسهمت في زيادة انتظام الكفلاء ، وفي عدم وجود فجوات غير مغطاة ، كما أدت إلى زيادة وانتظام التدفق التمويلي للبرنامج بصورة شعر بها المسؤولون عن البرنامج ، الأمر الذي أسهم في إيجاد المزيد من الثقة لدى المسؤولين عن البرنامج في سلامة المشورة التي يتقدمها فريق المعاونة المهنية .

وقد كشفت الاتصالات التي تمت مع الكفلاء لثلاثة أشهر متتالية عن بعض الملاحظات منها :

١ – يتطلب النظام القائم حضور الكافل شخصيًّا إلى مقر البرنامج لدفع مبلغ الكفالة وفي ذلك مشقة قد لا يستطيع البعض تحملها ، كما أن بعض الكفلاء من النساء ، وقد تم وضع مجموعة من البدائل للتغلب على هذه الصعوبة منها : إخطار الكافل أثناء الاتصال معه برقم حساب البرنامج في أحد البنوك يستطيع الكافل أن يضع المبلغ فيه مباشرة ، أو أن يقوم بإرسال شيك مصرفي من أي بنك في أي مكان على الفرع الذي فتح فيه الحساب .

٢ – تَبيَّن ارتفاع نسبة الكفلاء الذين تغيرت عناوينهم ، حيث وصلت في بعض الشهور إلى ما يقرب من ثلث مجموع من تنتهي كفالتهم في ذلك الشهر ، كما أن بعض الكفلاء لا يذكر اسمه في استمارة البيانات الخاصة به حيث يكتفي بمجرد ذكر (فاعل خير) رغبة منه في عدم الإعلان عن نفسه ، ويعمل فريق المعاونة المهنية في

التغلب على هذه الصعوبة من خلال إجراء عملية تحديث بيانات للكفلاء ، مع الإشارة في استمارة البيانات الخاصة بالكافل إلى أهمية ذكر البيانات ، وشرح أهمية هذا الأمر في تسهيل الاتصال به فيما بعد ، بالإضافة إلى التنبيه على المتطوعين الذين يساهمون في توزيع استمارات الكفالة إلى أهمية استيفاء هذه البيانات ، بالإضافة إلى إعلام الكافل بالاتصال على إدارة البرنامج إذا حدث تغيير في البيانات الخاصة به .

أدى الفراغ الكبير الذي أحدثه توقف برامج المساعدات الكويتية – بسبب احتلال الكويت في (أغسطس١٩٩٠م) إلى زيادة كبيرة في أعداد الأيتام المحتاجين إلى كفالة ، كما ازدادت نسبة الكفلاء الذين لا يرغبون في تجديد كفالتهم لرغبتهم في توجيه تبرعاتهم لمساعدة النازحين من الكويت ، الأمر الذي أحدث ضغطًا كبيرًا على البرنامج ، ثم الاتفاق مع المسؤولين عن البرنامج على مواجهته من خلال القيام بحملة لتوزيع استمارات الكفالة بالاستفادة من إمكانيات وحدة المتطوعين ، بالإضافة إلى إعداد قسائم تبرع بلغ مجموعها حوالي نصف مليون ريال سعودي يمكن الاستفادة منها في جمع التبرعات ممن لا تسمح ظروفهم إلا بالتبرع بمبالغ صغيرة ، وقد تم إعداد فئات من هذه القسائم ابتداء من خمس ريالات إلى مائة ريال ، كما قام فريق المعاونة المهنية بإعداد نماذج للإيصالات والمستندات التي يمكن عن طريقها ضبط حركة توزيع الاستمارات والقسائم ، إلا أن المسؤولين عن البرنامج رفضوا الاستعانة بأعداد كبيرة من المتطوعين وفضلوا أن يتم التوزيع عن طريق عدد محدود من المتطوعين الذين توجد معهم علاقة شخصية وخبرات سابقة في التعامل معهم ، ويحاول فريق المعاونة المهنية في الوقت الحاضر إقناع المسؤولين عن البرنامج بأهمية توسيع نطاق المتطوعين الذين يستعان بهم ، وتوفير الضمانات التي تقلل من حدوث المشكلات إلى أدنى حد ممكن ، مع إقناعهم بقبول المخاطرة باحتمال حدوث قدر محدود من المشكلات التي يمكن عليها في سبيل التوسع في البرنامج .

تم أيضًا من خلال اللقاءات المتعددة لفريق المعاونة المهنية مع المسؤولين عن البرنامج طرح عدد من المقترحات التي لاقت قبولاً ، ويخطط فريق المعاونة المهنية لإدخالها لتطوير البرامج ، من أهمها :

١ – تطوير أهداف البرنامج من مجرد كفالة اليتيم حتى بلوغه سن الرشد إلى مساعدته على شق طريقه في الحياة عن طريق استمرار الكفالة إلى حين انتهاء اليتيم من برامجه الدراسية أوالتدريبية ، مع مساعدته على إنشاء مشروع تجاري أو زراعي أو مهني ،

يحقق هدفًا مزدوجًا هو مساعدة اليتيم بالإضافة إلى تنبيه المجتمعات التي يعيشون فيها .

٢ – تطوير برامج التعليم والتدريب في المدارس التابعة للبرامج بإدخال نوعيات جديدة من الأعمال التي يتم التدريب عليها على ضوء احتياجات البيئة المحلية التي يعيش فيها اليتيم مثل : العمل على الحاسب الآلي ، والطباعة ، والصناعات الزراعية ، وصناعة الملابس وغيرها ، ومساعدة المتدربين في الحصول على عمل عند انتهاء تدريبهم .

٣ – إدخال الدعوة الإسلامية ضمن مكونات البرنامج من خلال إرسال مواد دعوية مسموعة ومرئية ومقروءة ، وتوفير الدعاة للقيام بمهامهم في المدارس التابعة للبرنامج ، وزيادة البرامج الدينية في المدارس التي تتبع البرنامج .

٤ – وضع نظام لتدفق وتبادل المعلومات بين إدارة البرنامج وفروعه في الميدان وبين الفروع وبعضها البعض ، مع تحديث البيانات أولًا بأول ، مع الاستفادة بالإمكانات الواسعة التي يتيحها استخدم الحاسب الآلي في مثل هذه البرامج .

٥ – تنظيم دورات تدريبية لرفع مستوى العاملين في البرنامج وخاصة القائمين بالعمل الميداني .

٦ – تحقيق المزيد من القوة في العلاقة بين الكافل واليتيم مع العمل على إضفاء المزيد من الطابع الإنساني على العلاقة بينهما عن طريق تنظيم تزويد الكافل بالتقارير مع كل تطور يحدث في حياة اليتيم ، مع إمكان تبادل الرسائل بينهما وإرسال هدايا باسم الكافل إلى اليتيم في المناسبات مثل الأعياد .

٧ – الاهتمام بانتقاء الأسرة التي تقوم بحضانة اليتيم الذي فقد أسرته من خلال وضع شروط يجب توفرها في هذه الأسر ، مع إجراء دراسة كافية لها للاطمئنان إلى صلاحيتها لحضانة اليتيم ، ومتابعتها بعد ذلك لمساعدتها على القيام بمهمتها على أفضل وجه ممكن ، وحل ما يطرأ من مشكلات .

٨ – تنظيم التقويم المستمر للبرنامج بجميع عناصره سواء كان ذلك تقويمًا شاملًا للبرنامج أو تقويم عناصر مختارة منه مثل : عملية التعليم والتدريب ، أو العلاقة بين البرنامج والكافل ، أو إدارة البرنامج ... إلخ ، مع الاستعانة بالخبراء كلما كان ذلك ممكنًا .

وقد تم الاتفاق في هذا الصدد على أن يقوم فريق المعاونة المهنية بزيارة ميدانية إلى بعض المناطق التي يتولى البرنامج كفالة الأيتام فيها .

ثالثًا : برنامج الجاليات :

نبذة عن البرنامج : بدأ هذا البرنامج منذ ما يقرب من ثلاث سنوات ويستهدف دعوة غير المسلمين الموجودين في المملكة إلى الدخول في الإسلام بالاستعانة ببعض المتطوعين والدعاة ، وقد حقق هذا البرنامج نجاحًا متزايدًا حيث بلغ مَن أشهر إسلامه من خلاله ما يزيد على أربعة آلاف شخص ، ويتضمن هذا البرنامج إلقاء محاضرات تعريفية عن الإسلام بلغات مختلفة ، ثم تعريف من يدخله بأركان الإسلام وواجباته كمسلم ، وكيفية تأدية العبادات المختلفة من صلاة وصيام وغيرها .

وقد بدأ التدخل المهني في البرنامج متأخرًا عن البرنامجين الآخرين ؛ نظرًا لأن المسؤولين بالمؤسسة لم يطلبوا معاونة مهنية بشأنه ، ولكن فريق المعاونة المهنية بعد تواجده بالمؤسسة وتعرفه على البرنامج وجد أنه يمكنه تقديم المعاونة المهنية بما يزيد من فاعلية هذا البرنامج في تحقيق أهدافه .

عقد على أثر ذلك عددٌ من الاجتماعات بين المسؤولين عن البرنامج وفريق المعاونة المهنية ، تم خلالها الاتفاق على أهداف المعاونة المهنية له على أن تتضمن ما يلي :

١ - الاستجابة لرغبات المسلمين الجدد التي ظهرت من خلال بحث سبق إجراؤه في تنظيم دروس في القرآن الكريم واللغة العربية .

٢ - الاهتمام بالجانب الاجتماعي - إلى جانب الدعوة - بتوثيق العلاقات بين المعتنقين الجدد للإسلام من خلال تنظيم بعض الأنشطة الاجتماعية مثل : الرحلات واللقاءات ، ومساعدتهم على الاندماج في المجتمع ، وتشجيع المجتمع على قبولهم ، وإدخالهم في شبكة علاقات بديلة عن تلك التي فقدت بدخولهم في الإسلام .

٣ - مساعدة المسلمين الجدد الذين يواجهون بعض المشكلات الاجتماعية على التغلب عليها خصوصًا تلك المشكلات المرتبطة باعتناقهم الإسلام ، حيث يتعرض بعضهم لضغوط من أفراد أسرهم وذويهم وأصدقائهم وزملائهم للارتداد عن الإسلام .

بدأت الخطوة الأولى في المعاونة المهنية بقيام الفريق بتصميم استمارة للتعرف على رغبات المستفيدين بالنسبة لتنظيم دروس القرآن الكريم واللغة العربية بهدف التعرف على ما إذا كان المستفيد يرغب في حضور دروس القرآن الكريم واللغة العربية ، والمكان والوقت المناسبين له ومستوى إلمامه باللغة العربية ، وقد تم تفريغ هذه الاستمارة وتجميع الرغبات ، وتبين وجود حوالي خمسة عشر يرغبون في تنظيم الدروس في القرآن الكريم

واللغة العربية مساء يوم الخميس في مقر المؤسسة ، تم الاتفاق على أن تشكل لهم الحلقة الأولى لتدريس القرآن الكريم ، على أثر ذلك تم الاتفاق مع أحد المتطوعين للتدريس وتم تدبير المصاحف من خلال تبرع من متطوع آخر ، ولكن لم يحضر أحد من الدارسين في الوقت المحدد . وبدراسة أسباب هذه الظاهرة تبين أن مؤسسات أخرى تنظم دروسًا في نفس الوقت المقترح . كما أنه يوجد درس في الدين الإسلامي في يوم آخر في مقر المؤسسة وقد رأى فريق المعاونة المهنية تنظيم هذه الدروس في نفس اليوم الذي يلقى فيه الدرس الديني ، وتم الاتفاق مع المسؤولين عن البرنامج على ذلك على أن تكون حلقة دراسة القرآن الكريم واللغة العربية قبل درس الدين مباشرة تيسيرًا على الدارسين ، تم الإعلان عن ذلك وبدأت الدراسة في الأسبوع التالي بحضور خمسة من الدارسين ، زاد العدد في الأسبوع التالي إلى سبعة ، وفي الأسبوع الذي يليه إلى ثمانية من الدارسين .

شعر فريق المعاونة بأهمية التنسيق بين هذا البرنامج والبرامج المشابهة التي تنظمها مؤسسات أخرى ، وتم الاتصال بهم بالفعل وتمت مناقشة إمكانية التعاون ، وقد رحبت هذه المؤسسات بالتعاون .

عرض فريق المعاونة المهنية إمكانياته لمساعدتهم فرحبوا بذلك وعبروا عن حاجاتهم إلى بعض المتطوعين لإلقاء دروس اللغة العربية والقرآن الكريم ، وتم الاتفاق معهم على إمدادهم بالأعداد التي يحتاجون إليها من خلال برنامج المتطوعين بالمؤسسة ، كما تم الاتفاق معهم على ترتيب بعض البرامج الاجتماعية المشتركة للمسلمين الجدد مثل : الرحلات واللقاءات الاجتماعية .

الخطوات المستقبلة للبرنامج :

يقوم فريق المعاونة المهنية بالتخطيط لبعض الأنشطة المستقبلة لهذا البرنامج على النحو التالي :

١ – الاستمرار والتوسع في دروس القرآن الكريم واللغة العربية والدين ، والتنسيق مع المؤسسات الأخرى العاملة في هذا المجال بحيث تستجيب هذه الدروس للحاجة الفعلية للمعتنقين الجدد للإسلام .

٢ – تكثيف اللقاءات الاجتماعية بين المعتنقين الجدد للإسلام من جانب وبين أعداد من المتطوعين من جانب آخر ، على نحو شبيه بما فعله رسول اللَّه ﷺ من مؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، بحيث يتولى المتطوع رعاية عدد من المسلمين ، الجدد ، ويوثق علاقته بهم كأخوة له في اللَّه ، ويساعدهم على الاندماج في المجتمع المسلم ، ويساعدهم على حل مشكلاتهم .

٣ – البدء في تنفيذ المساعدات الاجتماعية الفردية لمن يعاني من مشكلات اجتماعية من المعتنقين الجدد للإسلام بالاستفادة من إمكانات فريق المعاونة المهنية وبالمتطوعين عند الحاجة .

٤ – دراسة إمكان الاستفادة من بعض من مضى على اعتناقهم الإسلام وقتًا أطول نسبيًا كسواعد للمسؤولين عن البرنامج في مساعدة زملائهم ، مع تدريبهم على ذلك وعلى العمل كدعاة بين مواطنيهم الذين لم يعتنقوا الإسلام بعد .

تقويم نتائج المعاونة المهنية

مضى على بدء المعاونة المهنية للمؤسسة ما يقرب من عام كامل أسفرت عن مجموعة من النتائج يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ – تدعيم المؤسسة ماديًا ومعنويًا من خلال إنشاء وحدة المتطوعين وما أسفرت عنه من انضمام المتطوعين الجدد إليها وقيامهم بإنجاز ما أسند إليهم من مسؤوليات ، بالإضافة إلى الدعم المادي الذي تحقق من خلال مساعدة المؤسسة على تنظيم حملات جمع المال .

٢ – تم إكساب بعض العاملين بالمؤسسة خبرات جديدة ساعدت على رفع مستوى أدائهم لأعمالهم من خلال الاحتكاك بينهم وبين فريق المعاونة المهنية .

٣ – إحداث بعض التطوير في عدد من البرامج التي تقوم بها المؤسسة .

٤ – شعر عدد من المسؤولين بالمؤسسة ومن قيادات العمل الإسلامي بما يمكن أن تقدمه الخدمة الاجتماعية كمهنة من مساعدة ذات قيمة في زيادة كفاءة هذا العمل في تحقيق أهدافه ، وقد تبيَّن هذا بوضوح من خلال طلب بعض المؤسسات الأخرى للمعاونة المهنية من المسؤولين بقسم الخدمة الاجتماعية بجامعة الإمام .

٥ – اكتسب فريق المعاونة المهنية خبرة بالعمل في المؤسسات الإسلامية ، ولعل في هذه الورقة ما يشير إلى ذلك .

ويود الباحث في النهاية الإشارة إلى أن هذه التجربة لا زالت في بدايتها وفي حاجة إلى المزيد من التدعيم والتقويم .

* * *

openkanal.com

obeikandl.com

دور الخدمة الاجتماعية في العمل مع المنحرفين
« منظور إسلامي »

أ.د. علي حسين زيدان

سارت الغالبية العظمى من المجتمعات الإسلامية في الوقت الحاضر على نهج النظريات والنماذج الغربية سواء كان ذلك في تحليل ظاهرة الانحراف وتفسيرها أو في نماذج التدخل المهني لعلاجها ، فعلى المستوى النظري نجد أن معظم الكتابات في ظاهرة الانحراف مجرد صدى للكتابات التي تصدر في المجتمعات الغربية ، وما أن تظهر نظرية أو محاولة لتفسير هذه الظاهرة أو جانب منها في الكتابات الغربية إلا ونجد لها صدى في مجتمعاتنا الإسلامية ، وتكفي النظرة السريعة لأي مؤلف في هذا الموضوع للاقتناع بصدق هذه المقولة ، كما أن القوانين الموضوعة في معظم الدول الإسلامية تسير على نفس الوتيرة ، وكذلك الأمر بالنسبة للمؤسسات التي تعمل في هذا المجال ، والنتيجة المتوقعة بالطبع هو تكرار فشل هذه النظريات والنماذج في حل مشكلة الانحراف في الدول الإسلامية ، كما فشلت من قبل في حل هذه المشكلة في مجتمعاتها ، بل إن انتشار هذه النظريات والنماذج في العالم الإسلامي شجع المعنيين بمواجهة هذه المشكلة على الركون إليها على اعتبار أنها آخر ما وصل إليه التقدم العلمي في الغرب المتقدم ، وهي بديل جاهز لا يحتاج إلى جهد ، كما راجت بعض المقولات الخاطئة مثل أن الانحراف هو أحد الأعراض الجانبية للتحضر والمدنية وأصبحت المدنية الغربية في سائر مناحي الحياة هي أقصى ما يطمح إليه في المجتمعات الإسلامية ، مع الاستعداد لقبول مشكلات هذه المدنية واستيراد الحلول الجاهزة لها أيضًا ، وساهم هذا إلى حدٍّ كبير في تكريس التبعية الفكرية والثقافية والعلمية للغرب ، وعَزَفَ الكثير من العلماء والمتخصصين في العلوم المعنية بظاهرة الانحراف عن البحث عن تفسير لهذه الظاهرة وعواملها وكيفية مواجهتها فيما أنزله اللَّه سبحانه وتعالي من الكتاب والحكمة على رسوله المصطفى استغناءً بما أتى به جراماتيكا وفرويد وسذرلاند وماركس ... وغيرهم .

ويحتوي الإسلام على تصور متكامل للتعامل مع ظاهرة الانحراف وصفًا وتحليلًا وتفسيرًا وعلاجًا ، ومما يزيد من ثراء هذا التصور أنه وجد طريقه بالفعل إلى التطبيق في المجتمع الإسلامي في صدر الإسلام ، وكانت نتائجه باهرة .

وقد حرص الباحث على أن يقتصر في إعداده لهذا التصور على المراجع الإسلامية حتى لايقع أسيرًا للفكر الوضعي بما فيه من مفاهيم وتصنيفات ، كما حرص على أن

يكون اعتماده على القرآن الكريم أولًا ، ثم الأحاديث النبوية الشريفة ، مع الحرص على أن تكون الأحاديث التي يعتمد عليها غير مطعون في محتواها ثم التفاسير والشروح والآراء المشهود لها بالتوسط والاعتدال ، ويرى الباحث في هذا المنهج ضرورة – في هذه المرحلة – حتى نستطيع استخلاص المنظور الإسلامي نقيًا لا تشوبه شوائب الانزلاق في المزج بينه وبين النظريات الغربية التي يسهل الانزلاق إليها لما تتضمنه من مفاهيم وعلاقات وتصنيفات جاهزة ، على أن تكون الاستفادة من معطيات النظريات الحديثة في موضوع معين بعد الوصول إلى معالم محددة وملموسة للمنظور الإسلامي في هذا الموضوع يمكن أن تكون معيارًا لتحديد الصالح من الفاسد من هذه النظريات .

أولًا : المسلَّمات الأساسية

يُسْتَمَد المنظور الإسلامي للانحراف من نظرة الإسلام الشاملة إلى الإنسان وعلة وجوده في هذا الكون وعلاقته بخالقه وعلاقته بغيره من الناس ، والتي تقوم على مسلمات أساسية نوجزها فيما يلي :

١ - الإيمان بالغيب :

الإيمان يعني التصديق ، والغيب هو ما غاب عن الإنسان ، أي أن حدود ما يصدِّق به الإنسان لا تقتصر على مجرد ما هو موجود في محيطه المادي وما يستطيع إدراكه بالحواس ، أو حتى مع الاستعانة بالمساعدات من الأجهزة والأدوات المادية ولكنها تمتد إلى ما هو أبعد من ذلك ، وقد أتى الأمر بالإيمان بالغيب في بداية السورة الأولى من القرآن بعد الفاتحة : ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ١ – ٣] .

ويتضح الغيب المطلوب الإيمان به من الآية الكريمة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦] .

كما بيَّنه الحديث الشريف حين أتى جبريل ، فسأل رسول اللَّه ﷺ قائلًا : .... فأخبرني عن الإيمان ، فقال : « **أن تؤمن باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره** » ، قال : صدقت ... [١] .

---

(١) رواه مسلم .

فالإيمان باللَّه على أنه إله كل شيء ، وخالق كل شيء ، وعالم بكل شيء ، وليس كملثه شيء ، وقد فطر اللَّه الناس على هذا الإيمان :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

ويقول اللَّه ﷻ في الحديث القدسي : « **إني خلقتُ عبادي حنفاء كلَّهم فاجتالتهم الشياطين عن دينهم ، وحرَّمت عليهم ما أحلَلْتُ لهم ، وأمرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزِّل به سلطانًا** » (١) .

ويقول الرسول في الحديث الشريف : « **ما من مولود إلا ويولد على الفطرة** .... » (٢) .

والإيمان بالملائكة على أنهم خلق اللَّه أوجدهم ووكل إليهم مهام متنوعة وأنهم : ..

﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] .

والإيمان بالكتب التي أنزل اللَّه على رسله وأن ما تضمنته هو الحق من اللَّه سبحانه لإبلاغ البشر بما يريده منهم ، وأن القرآن الكريم هو خاتم هذه الكتب والمهيمن عليها .

والإيمان بالرسل الذين أرسلهم اللَّه سبحانه إلى البشر لإبلاغ منهجه ، وأن ما جاءوا به هو بلاغ من اللَّه ، وأن محمدًا رسولَ اللَّه ﷺ هو خاتم الرسل ؛ ولا رسل ولا رسالات بعده ، وأن كل ما جاء به هو الحق من ربه .

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣ ، ٤] .

وأنه رسول إلى البشر كافة ، وأننا مأمورون بأن نفعل ما أمرنا به وننتهي عما نهانا عنه وأن هذا هو طريق الحق الذي يأمرنا اللَّه به (٣) : ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه : ١٢٣ ، ١٢٤] .

والإيمان باليوم الآخر كما أخبر اللَّه عنه ، وأن كل إنسان محاسب على ما يعمل في الدنيا وأن جميع أعماله مسجلة عليه :

---

(١) أخرجه مسلم عن عياض .

(٢) متفق عليه عن أبي هريرة .

(٣) ابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) . (ص ١٦٥ - ١٦٨) .

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] .

وأن المصير إلى خلود دائم إما في الجنة وإما في النار ، فمن آمن وعمل صالحاً فمصيره إلى الجنة ، وأما من كذَّب وعمى فمصيره إلى النار : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥ - ١٠] .

والإيمان بالقدر خيره وشره ، وأن كل شيء يسير حسب مشيئة اللَّه سبحانه ، ما شاء اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن اللَّه على كل شيء قدير ، وأن مشيئة اللَّه هي حرية عباده في الاختيار وأنهم محاسبون على اختيارهم [١] .

ويقتضي التسليم بما ورد في هذه المسلَّمة ألا نقتصر في تفسيرنا لسلوك الإنسان على المتغيرات المتصلة بعالم الشهادة وأن ندخل تأثير المتغيرات الخاصة بعالم الغيب ، فمن محاولات تفسيرنا للسلوك الإنساني ، وأن ننظر إلى السواء على أنه طاعة اللَّه ، وإلى الانحراف على أنه معصية اللَّه .

٢ - القرآن والسنة النبوية مصدران أساسيان لمعلوماتنا اليقينية عن الإنسان والكون :

ترتبط هذه المسلَّمة بسابقتها وتترتب عليها . فالإيمان باللَّه وكتبه ورسله يقتضي التسليم بأن القرآن كلام اللَّه أنزله على رسوله وتكفَّل بحفظه .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] .

وأنه جاء بالحق من عند اللَّه لهداية الإنسان وتعليمه وتنظيم علاقته بخالقه وبغيره من المخلوقات أورد فيه اللَّه سبحانه ما شاء أن يعلِّمه إياه من أمور الغيب التي لا تصلح الوسائل والأدوات المادية للوصول إليها ، كما أورد فيه وصفًا للعديد من الحقائق الكونية والاجتماعية والنفسية ، وإن كان ما جاء فيه حق وصدق .

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧] .

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ١٠٢] .

وكذلك الأمر بالنسبة للسنة النبوية الصحيحة التي ثبتت نسبتُها إلى رسول اللَّه ،

---

(١) محمد خليل هراس : شرح العقيدة الواسطية ، الرياض ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، (١٤٠٣هـ ١٩٨٣م) ، (ص١٥٧ ، ١٥٨) .

فالسنة النبوية توضيح للقرآن وبيان للمراد منه ، تفصِّل مجمله ؛ وتقيِّد مطلقه ؛ وتخصص عمومه [١] .

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧] .

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢] .

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣ - ٤]

فكل ما جاء عن رسول اللَّه ثبتت نسبته إليه من أقوال أو سلوك ، إنما هي من اللَّه ﷻ ، وهي حق وصدق يجب التصديق به .

٣ - استحالة التعارض بين الوحي وبين الحقائق الكونية :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢] .

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤]

اللَّه سبحانه وحده دون معين ولا شريك هو خالق هذا الكون فلو كان هناك أكثر من خالق لوضع كل منهم نظمًا وتوجيهات وقوانين مختلفة ، ولحدث تعارض وتناقض بينهما ، وَلَما كان الكون على ما نعهده فيه من النظام والاتساق والاستمرارية ، فهو الخالق الذي وضع القوانين والعلاقات والسنن التي يسير هذا الكون بمقتضاها في كل كبيرة وصغيرة ، وفي كل جانب من جوانبه المادية وغير المادية ، فعلمه إذن علم مطلق وصحيح وكامل [٢] .

وهو سبحانه منزل الوحي على رسوله ، فالخالق العليم بما خلق هو الذي أوحى إلى خلقه من البشر بما يريدهم أن يعرفوه ، وهو الذي تكفل بحفظ ما يوحي إليهم به ، فهل يمكن أن يتعارض أو يختلف ما جاء به الوحي من بيان لبعض سنن اللَّه ﷻ في خلقه عما تكون على هذه السنن في الواقع !!! ؟ إننا نسلِّم ونؤمن بأن ما نزل به الوحي لا يمكن أن يتعارض مع الحقائق الكونية .

إننا نؤمن باستحالة التعارض بين ما نزل به الوحي في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة التي ثبتت نسبتها إلى رسول اللَّه ﷺ وبين الحقائق الكونية في واقعنا المادي والاجتماعي . أما ما يحدث في بعض الأحيان من شبهة في هذا التعارض ، **فمرجعه إلى**

---

(١) محمد خليل هراس : شرح العقيدة الواسطية ، الرياض ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) (ص ١٠٨) .

(٢) المعهد العالمي للفكر الإسلامي : إسلامية المعرفة ، واشنطون ، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م) ، (ص٨٠ ، ٨١) .

عاملين اثنين هما :

١ – التسرع في الربط بين ما نزل به الوحي وبين نظريات لا تطابق الواقع ولا تعبِّر عن سنن اللَّه سبحانه في خلقه .

٢ – الخطأ في فهم ما نزل به الوحي ، أو التعسف في تحميله ما لا يحتمل من تفسير وتأويل ؛ ذلك أنه يمكن فهم بعض الآيات القرآنية أو بعض الأحاديث النبوية الشريفة على أكثر من وجه ، وقد يكون فهمنا في بعض هذه الأوجه غير صحيح ، ولا تؤخذ القضية على وجهها الصحيح ، حيث إن التناقض ليس بين ما تم اكتشافه من سنن اللَّه في خلقه وبين ما نزل به الوحي ، ولكنه تناقض بين الحقيقة الكونية ، وأحد الأوجه التي فهم بها الوحي ، كما أن تبنِّي بعض المجتهدين لبعض النظريات وحماسهم الشديد لها قد يدفعهم إلى ليِّ أعناق الآيات والأحاديث الشريفة وتحميلها ما لا تحتمل حتى تتفق مع ما تبنوه من نظريات ، كما قد يتحيزون لتفسير أو تأويل دون غيره على الرغم من كونه مرجوحًا بغيره .

٤ - الوجود الدنيوي أحد أشكال الوجود الإنساني سبقه ويليه أشكال أخرى للوجود :

لا يقتصر الوجود الإنساني على مرحلة الحياة الدنيوية كما أن الصورة التي يوجد عليها الوجود الدنيوي ليست هي الصورة الوحيدة للوجود الإنساني ، فالوجود البشري الدنيوي الذي نحياه ونشعر به إنما هو صفحة محصورة بين صور أخرى من الوجود الغيبي قبل الميلاد وبعد الممات [١] .

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : ٢٨] .

وتثبت هذه الآية للإنسان موتين وحياتين ، معلوم أن الموت صورة من صور الوجود الإنساني تكون الروح فيه منفصلة عن الجسد ، ثم يتحول هذا الوجود إلى الوجود البشري الحالي ، ثم تخرج الروح من الجسد عند موت الإنسان عقب انتهاء أجله في هذه الحياة الدنيا ، ثم تعود الروح إلى الجسد مرة أخرى ليبعث في حياة أخرى يوم القيامة [٢] .

---

(١) فاروق الدسوقي : مقومات المجتمع المسلم ، الرياض ، مكتبة فرقد الخاني ، (١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م) ، (ص ٩٥ – ٩٦) .

(٢) أبو عبد اللَّه الأنصاري القرطبي : مرجع سبق ذكره ، الجزء الثالث (٢٤٨/٣) .

وقد أخبر اللَّه سبحانه عما حدث للإنسان قبل حياته الدنيا من قبول الإنسان لحمل الأمانة التي عرضها اللَّه سبحانه عليه وإشهاده بالربوبية للَّه ، وبما يريده اللَّه ﷻ من الإنسان في حياته من إيمان به والتزام بمنهجه ، وما يحدث له بعد موته سؤاله في القبر وما يحدث له فيه من النعيم أوالعذاب ، وما يحدث يوم القيامة من بعث وجزاء وخلود إما في الجنة أو في النار .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر : ١٧] .

كما أن حقيقة الإنسان في مرحلة الوجود الدنيوي لا تقتصر على مجرد الجسد المادي الذي يمكن إدراكه بالحواس ، وإنما هناك مكون آخر يدخل في عالم الغيب هو الروح وهي سر تكريم الإنسان على كثير من خلق اللَّه .

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة : ٧ - ٩] .

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

ويقتضي التسليم بذلك تصحيح النظرة إلى الحياة الدنيا فهي ليست كل شيء ، وطموح الإنسان السوي لا يجب أن يقتصر على مجرد ما يستطيع تحقيقه في الحياة الدنيا ، بل يجب أن يذهب إلى ما هو أبعد ، إلى تحقيق السعادة الدائمة والأبدية في الحياة الآخرة بطاعة اللَّه فيما أمر به ، والانتهاء عما نهى عنه .

٥ - الإنسان هو الاختيار محاسب على اختياره الإرادي :

أثبت القرآن الكريم إثباتًا بيِّنًا لا لبس فيه حرية الإنسان في الاختيار ومسؤوليته في تحمل نتائج هذا الاختيار .

﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا

وَسَعِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ [الإنسان : ٣ - ٥]

وقد كفل اللَّه سبحانه للإنسان العدل الكامل والمطلق ، فقد وهبه أداة الاختيار وهي العقل وبيَّن له عن طريق الوحي ما يفعل وما لا يفعل ، وأوجد له من البدائل ما يمكِّنه من اختيار ما يريد ، وبيَّن له النتائج المترتبة على اختيار كل بديل ، بل وأسقط عنه الحساب والعقوبة إذا لم تتوفر له جميع مقومات الاختيار الحر ، أسقطها عن الصغير الذي لم يكتمل نضجه العقلي ببلوغه سن الحلم ، وعن المكره الذي لا اختيار له ، وعن مريض العقل (المجنون) الذي لايدري ماذا يفعل .

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ۝٣٦ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٣٥ - ٤١] .

وتكون النتيجة الحتمية للاختيار بعد ذلك أن البعض يختار الحق ، ويختار البعض الآخر الباطل ، ويسير البعض على الصراط المستقيم ، ويخرج البعض عنه . وعلاقة الدنيا بالآخرة هي علاقة العلَّة بالمعلول ، والمقدمة بالنتيجة ، والشجرة بالثمرة فعلى حسب الاختيار تكون النتيجة (١) .

ويقتضي التسليم بذلك رفض مبدأ الجبرية أو الحتمية في السلوك الإنساني ، فالإنسان ليس أسيرًا لقهر الظاهرة الاجتماعية ، كما أنه ليس أسيرًا لخبرات لاشعوره أو خبرات طفولته المبكرة ، وإنما هو مختار محاسب متى توفرت مقومات هذا الاختيار .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر : ٣٨] .

ثانيًا : مفهوم الانحراف

أصل كلمة الانحراف في اللغة العربية (حَرَفَ) ، ويقال : حرف الشيء يحرف حرفًا وتحرف وانحرف واحرورف ، وحَرْف كل شيء طرفه وشفيره ومنه حرف الجبل أي أعلاه المُحدَّب ، ويقال : فلان على حرف من أمره أي على ناحية منه ، وتحريف الكلم عن مواضعه تغييره ، وفي حديث أبي هريرة : « **آمنت بمحرِّف القلوب** » هو المزيل أي مميلها ومزيغها وهو اللَّه تعالى (٢) .

---

(١) فاروق الدسوقي ، مرجع سبق ذكره ، (ص ١٠٨) .

(٢) ابن منظور : لسان العرب بيروت ، دار لسان العرب ، د . ت ، (ص ٦١٠ - ٦١١) .

فالانحراف إذن هو ترك الحق والوسطية والاستقامة ، ويقتضي الانحراف منحرفًا عنه ومنحرِف .

أما المنحرَف عنه فهو الطريق المستقيم ، والصراط في لغة العرب هو الطريق ، والمستقيم هو الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، وهو دين الإسلام ، وسمِّي الدين طريقًا ؛ لأنه يؤدي إلى الجنة فهو طريق إليها [١] .

والصراط المستقيم لا يكون إلا واحدًا مَن خرج أو انحرف عنه وقع في طريق من طرق الضلال ، وهو طريق الأمة الوسط الواقع بين طرفي الإفراط والتفريط ، ويتضمن أمورًا باطنة في قلب الإنسان وضميره من اعتقادات ، وإرادات ، وتوجُّهات ، وأمورٍ ظاهرة من أقوال ، وأفعال ، سواء كانت عبادات مثل الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج وغيرها ، أو عادات في الطعام والشراب والمسكن والاجتماع والافتراق والسفر والإقامة وغيرها ، وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينها ارتباط ، فما يوقن في القلب من مشاعر وأحوال واعتقادات يوجب أمورًا ظاهرة من الأقوال والأفعال ، وما يحدث من أقوال وأفعال يوجب في القلب شهورًا وأحوالًا [٢] .

وهذا الطريق واحد لا ثاني له وهو ما بعث اللَّه به رسله ، وأنزل به كتبه ، وفي ذلك يروي ابن مسعود عن رسول اللَّه ﷺ : خط لنا رسول اللَّه ﷺ خطًّا ، وقال : « **هذا سبيل اللَّه** » ، ثم خط خطوطًا عن يمينه ويساره ، وقال : « **هذه سبل ، على كل سبيل شيطان يدعو إليه** » ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] [٣] . وهو منهج اللَّه ﷻ للبشر الذي أوجب عليهم الالتزام به ، ووضع لهم في فاتحة الكتاب دعاءً بالهداية إليه يدعون به في كل ركعة من ركعات صلواتهم .

والصراط في الآخرة هو جسر مضروب على جهنم يؤدي إلى الجنة يجوز عليه الناس ، وعلى جنبتيه كلاليب تختطف أناسًا هي أعرف بهم من الرجل بولده ، فتهوى

---

(١) أبو عبد اللَّه الأنصاري القرطبي : مرجع سبق ذكره ، (١٤٢/١٣) .

(٢) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ، تحقيق وتعليق ناصر عبد الكريم العقل ، الطبعة الأولى ، (١٤٠٤هـ) المجلد الأول ، (ص ٧٩) .

(٣) ابن قيم الجوزية ، مدارج السالكين ، هذبه عبد المنعم صالح العلي العربي ، دولة الإمارات العربية ، وزارة العدل والشؤون الإسلامية بدولة الإمارات العربية المتحدة ، (١٤٠٢هـ) ، (ص ٢٧) .

بهم في النار ، ويكون جواز الناس على الصراط بقدر أعمالهم ، فمنهم من يجوز كالبرق ، ومنهم من يجوز كالريح ، ومنهم من يعدو عدوًا ، ومنهم من يحبو على وجهه ويديه ورجليه [١] ، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ : « ... **ويُضرب جسر جهنم** » ، قال رسول اللَّه ﷺ : « **فأكون أول من يجيز ، ودعاء الرسل يومئذٍ : اللَّهم سلِّم ، اللَّهم سلِّم ، وبه كلاليب مثل شوك السعدان ، أما رأيتم شوك السعدان ؟** » قالوا : بلى يا رسول اللَّه ، قال : « **فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنها لا يعلم عظمها إلا اللَّه ، فتخطف الناس بأعمالهم ؛ منهم الموبق بعلمه ، ومنهم المخردل ثم ينجو ..** » [٢] . ومن هدي إلى الصراط المستقيم في الدنيا ، هدي إلى الصراط المستقيم في الآخرة .

فالمنحرف إذن هو الخارج عن منهج اللَّه ﷻ وهو دينه الذي ارتضاه للناس بما تضمنه من أوامر ونواهي تنظم للناس أمور حياتهم .

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧٤] . والنكوب في اللغة العربية تعني العدول عن الشيء أو الميل عنه إلى غيره ، ومنه نكبت الريح إذا لم تستقم على مجرى [٣] .

وينقسم الناس بحسب معرفتهم لهذا المنهج والعمل به إلى :

١ – عالم بالمنهج وعامل به : وهم الذين عرفوا منهج اللَّه وآمنوا بأنه الحق واتبعوا ما جاء به ، فائتمروا بما أمر به ، وانتهوا عما نهى عنه ، وهم المشار إليهم في سورة الفاتحة على أنهم أصحاب الصراط المستقيم الذين أنعم اللَّه عليهم .

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٦ ، ٧] .

٢ – عالم بالمنهج تارك له : وهو الذي يعرف المنهج ، ويعلم أنه الحق من عند اللَّه ولا يتبعه اتباعًا لهواه ولمصالحه الدنيوية .

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

---

(١) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني : فتح الباري لشرح صحيح البخاري ، تحقيق عبد العزيز بن باز ، الرياض ، دار الفكر للطباعة والنشر ، (٤٥٢/١١ ، ٤٥٣) .

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة .

(٣) أبو عبد اللَّه الأنصاري القرطبي : مرجع سبق ذكره ، الجزء ١٢ ، (ص ١٤٢) .

وأولئك هم المغضوب عليهم المشار إليهم في فاتحة الكتاب .

٣ - جاهل بالمنهج ضال عنه غير عالم به بالطبع .

﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [الحج : ١٢] .

وأولئك هم الضالون الذين خرجوا عن الصراط المستقيم وهم يحسبون أنهم أهدى من غيرهم وأن ما يسيرون عليه أفضل مما يسير عليه غيرهم .

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف : ١٠٣ - ١٠٥] .

وبناء على ما تقدم يمكننا أن نعرف الانحراف من المنظور الإسلامي على أنه : « معصية اللَّه سبحانه بفعل ما نهى عنه أو ترك ما أمر به » .

ثالثًا : أنواع الانحراف

ويمكن تصنيف الانحراف من المنظور الإسلامي ، طبقًا لمعايير متعددة على النحو التالي :

١ - تصنيف الانحراف طبقًا لموضوعه :

- انحراف في علاقة الإنسان باللَّه .
- انحراف في علاقة الإنسان بالإنسان .
- انحراف في علاقة الإنسان بسائر خلق اللَّه .

٢ - تصنيف الانحراف طبقًا لإمكانية مشاهدته وإثباته :

- انحرافات ظاهرة .
- انحرافات باطنة .

٣ - تصنيف الانحراف طبقًا لتوقيت العقوبة عليه :

- انحرافات عقوبتها في الدنيا .
- انحرافات عقوبتها في الآخرة .

٤ – تصنيف الانحراف طبقًا لطبيعة الفعل المنحرف :

- انحراف بالإتيان .
- انحراف بالترك .

٥ – تصنيف الانحراف طبقًا لاتجاهه :

- انحراف بالتفريط .
- انحراف بالإفراط .

٦ – تصنيف الانحراف طبقًا لجسامة المعصية :

- الكبائر .
- السيئات (اللَّمم) .

١ - تصنيف الانحراف طبقًا لموضوعه :

أ – انحراف في علاقة الإنسان باللَّه :

وليس للعبد تجاه سيده إلا الطاعة في كل ما يأمره به وينهاه عنه من اعتقادات وأقوال وأفعال .

ويشوب علاقة الإنسان باللَّه نوعان من الانحراف هما :

– **انحراف في العقيدة** : السواء في العقيدة هو التوحيد ، وذلك بأن يعلم الإنسان ويعتقد ويشهد بأن اللَّه وحده لا شريك له ، ليس كمثله شيء ، لا إله غيره ولا يعجزه شيء ، لا يفنى ولا يبيد ، وأنه هو الخالق والرازق والعالم لا يخفى عليه شيء ، وألا يعبد إلا إياه مخلصًا له الدين بلا ندٍّ ولا شريك ، ولا ينسب إليه إلا ما أخبر به سبحانه عن نفسه [١] .

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

وانحراف العقيدة هو ما خرج عن التوحيد ، ومنها الكفر وهو إنكار وجود اللَّه سبحانه ، مثل ما تتبناه بعض الفلسفات المادية الملحدة التي ترى أن المادة هي أصل الكون دون موجد أو خالق ، والشرك وهو اعتقاد الإنسان بوجود شريك للَّه ﷻ في خلقه .

---

(١) أبو جعفر الطحاوي : متن العقيدة الطحاوية ، الرياض ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى ، د . ت ، (ص٣ ، ٤) .

obeikandl.com

– **انحراف في العبادة** : لا يُعبد اللَّهُ سبحانه إلا بما شرع ، فهو سبحانه الذي يحدد كيف يُعبَد ، وبالتالي فالانحراف في العبادات هو قصد غير اللَّه سبحانه بالعبادة مثل عبدة الأصنام أو النجوم أو النار أو غير ذلك من المخلوقات ، أو عبادته سبحانه بغير ما شرع ، وذلك بابتداع أشياء في العبادات لم يأمر اللَّه سبحانه بها أو التبديل فيها أو ترك عبادات أمر اللَّه سبحانه بها ؛ فقد حدد اللَّه ﷻ ما يجب أن يعبد به ، ووضع لنا رسولهُ القواعد التطبيقية لكل من هذه العبادات التي تيسِّر لنا هذا الاتباع ، وقد حدد الرسول ﷺ هذه العبادات في الحديث الصحيح : « **بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا اللَّه ، وأن محمدًا رسول اللَّه ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان** » [1] ، وقد نهى الرسول ﷺ عن البدع فكل بدعة ضلالة ، والبدعة هي أن يحدث الإنسان في الدين ما ليس فيه .

ب – انحراف في علاقة الإنسان بالإنسان :

والانحراف في علاقة الإنسان بالإنسان هو إتيان الإنسان لما حرمه اللَّه عليه في حق أخيه الإنسان ، فكل المسلم على المسلم حرام ، دمه ، وماله ، وعرضه ، كما أن سبابه واغتيابه وهجره ، والسخرية منه مما حرمه اللَّه ، فالمسلم من سَلم المسلمون من لسانه ويده ، ولا يُسلِم من لا يأمن جاره بوائقه أي أذاه ، ولذلك سن اللَّه سبحانه الحدود لعقاب من يعتدي على حرمات الناس ، فجعل القتل جزاء من يقتل متعمدًا ، وجعل الجروح قصاص ، فالعين بالعين ، والسن بالسن ، وجعل قطع اليد عقوبة السارق ، والرجم عقوبة الزاني المحصن ، والجلد والتغريب عقوبة الزاني غير المحصن ، والقتل والصلب جراء الحِرابة ، والجلد عقوبة رمي المحصنات بالسوء ، فهذه كلها خروج على حدود اللَّه وانحراف عنها .

جـ – انحراف في علاقة الإنسان بسائر خلق اللَّه :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [لقمان : ٢٠] .

فقد سخر اللَّه للإنسان أجناسًا عديدة من الخلق من حيوان ونبات وجماد وجعلها في خدمته تمده بما يحتاج إليه من مأكل ومشرب وملبس ومأوى ، وأمره بأن يستخدمها في طاعة اللَّه وأن يشكر اللَّه على نعمه وأن يرعى اللَّه فيها .

---

(١) أخرجه البخاري عن ابن عمر .

والانحراف في علاقة الإنسان بخلق اللَّه من الحيوانات يتضمن التقصير في رعايتها وإطعامها وسقيها ، وتحميلها ما لا تطيق ، وفي الأثر أن امرأة دخلت النار بسبب قطة حبستها ، فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض ، أما النباتات فالانحراف يتضمن إتلافها دون حاجة ، والسفه والتبذير في استخدامها ، ومنعها عمن يحتاج إليها ، فإذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها .

والناس شركاء في ثلاث : الماء ، الكلأ ، والنار ، وأما الجمادات فالانحراف في استخدامها يتضمن السفه والتبذير ومنعها عمن يحتاج إليها واستخدامها في معصية اللَّه .

٢ - تصنيف الانحراف طبقًا لمدى ظهوره :

أ – الانحرافات الظاهرة :

وهي أنماط السلوك الظاهر التي يمكن للآخرين أن يدركوها بحواسهم وأن يكونوا شهودًا عليها ويمكن إثباتها وإقامة الدليل عليها ، وتنقسم بدورها إلى قسمين هما :

– **انحرافات اللسان** : يقول اللَّه سبحانه : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٨] .

ويقول رسول اللَّه ﷺ : « **إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان اللَّه لا يُلقي لها بالاً يرفعه اللَّه بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط اللَّه لا يُلقي لها بالاً يهوى بها في جهنم** » (١) .

فكل كلام الإنسان محسوب عليه ومحاسب عليه أيضًا ، والسواء في هذا ألَّا يتكلم الإنسان إلَّا بخير وأن يصمت عما سوى ذلك من اللغو وهو الكلام عن سفاسف الأمور ، وفي ذلك يقول رسول اللَّه ﷺ : « **من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت ...** » (٢) .

وانحرافات اللسان عظيمة الخطر ، فقد قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها ، يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب** » (٣) ، ويؤدي عدم حفظ الإنسان لسانه إلى كبه على وجهه في النار .

وانحرافات اللسان عديدة ونذكر منها :

– **الغِيبة** : وهي أن يذكر الإنسان إنسانًا آخر بما يكره سواء بنقص في بدنه أو خُلقه

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة .
(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة .
(٣) أخرجه البخاري عن أبي هريرة .

أو فعله أو دينه أو دنياه أو حتى في ثوابه وداره وهي ثلاث درجات أخفها الغيبة وهي ذكر أخيك بما تعرفه فيه بنفسك من عيوب ، ثم الإفك وهو ذكر ما بلغك عنه من عيوب لم تعرفها عنه بنفسك ولكنك تنقلها عن غيرك ، وأشدها البهتان وهو ذكر عيوب ونقائص تنسبها إليه وأنت تعلم أنها ليست فيه ، وقد تكون الغيبة بالقول الصريح أو بالإشارة .

ويقول اللَّه سبحانه في الغيبة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات : ١٢] .

ويقول رسول اللَّه ﷺ : « **ولا يغتب بعضكم بعضًا ، وكونوا عبادَ اللَّه إخوانًا** » (١) .

– **النميمة** : وهي كشف الإنسان لما سمعه من شخص عن شخص آخر مما يكره لهذا الآخر سواء كره هذا الشخص القائل أو المقول في حقه ، مثل أن يقول للشخص الآخر : فلان قال فيك كذا وكذا ، وفي ذلك يقول اللَّه سبحانه : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴾ [القلم : ١٠ - ١١] .

ويقول رسول اللَّه ﷺ : « ... **وإن أبغضكم إلى اللَّه المشاؤون بالنميمة ، المفرِّقون بين الإخوان ، الملتمسون للبرءاء العثرات** » (٢) .

– **الكذب في القول والوعد باليمين** : والكذب في القول هو اختلاق أشياء لم تحدث ، وروايتها على أنها قد حدثت أو رواية ما حدث على غير الصورة التي حدث بها . والسواء في هذا ألا يقول الإنسان إلَّا الحق ، وفي ذلك يقول اللَّه سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ [النحل : ١٠٥] .

ويقول رسول اللَّه ﷺ : « **إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار** » (٣) .

ويقول رسول اللَّه ﷺ : « **ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم : إذا حدَّث كذب ؛ وإذا وعد أخلف ؛ وإذا ائتمن خان** » (٤) .

والسواء في هذا ألا يَعِد الإنسان إلا بما تطمئن إليه نفسه ، وأن يربط وفاءه بالوعد

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه الطبري عن أبي هريرة .

(٣) متفق عليه عن أبي بكر الصديق .

(٤) متفق عليه عن أبي هريرة .

أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي عن عبد الرحمن بن شبل .

بمشيئة اللَّه ، وأن يبذل كل ما في وسعه للوفاء بالوعد ، وأن يشرح عذره لمن وعد إذا حال دون الوفاء بوعده حائل .

واليمين الكاذبة :

ويطلق عليها أحيانًا اسم اليمين الغَموس ؛ لأنها تَغمس صاحبها في النار ، وهو أن يقسم الإنسان على أمر ، وهو يعلم أنه على غير ما أقسم ، وفي ذلك قول رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « **إن التجار هم الفجار** » ، فقيل : يا رسول اللَّه أليس قد أحل اللَّه البيع ؟ قال : « **نعم ولكنهم يحلفون فيأثمون ، ويحدثون فيكذبون** » (١) .

– **اللعن والسب والفحش في القول** : واللعن هو الطرد من رحمة اللَّه ، وذلك بأن ينسب الإنسان اللعن إلى آخر كأن يقول : لعن اللَّه فلانًا ، أو فلان هذا ملعون ، وقد نهى رسول اللَّه عن لعن أي شيء حتى الحيوانات والجمادات « **ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ...** » (٢) .

والسب هو نسبه الصفات القبيحة من شخص إلى شخص آخر ، وقد نهى رسول اللَّه ﷺ عن السب بقوله : « **المتسابان شيطانان يتعاونان ويتعارجان** » (٣) .

والفحش في القول هو التعبير عن الأمور المستقبحة والتي يُستَحَى منها بألفاظ وعبارات صريحة ، والسواء في هذا أن يعبر عنها بالكناية مثل التعبير عن التبول والتبرز بقضاء الحاجة ، وفي النهي عن ذلك يقول رسول اللَّه ﷺ « **إياكم والفحش فإن اللَّه تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش** » (٤) .

كما توجد أنواع أخرى من انحرافات اللسان لا يسمح المجال بعرضها تفصيلًا مثل المراء والجدال وذلك بالاعتراض على كلام الغير بإظهار ما فيه من عيوب تزكيةً للنفس وتحقيرًا للغير ، والتقعر في الكلام وتكلف الفصاحة ، وخوض الإنسان فيما لا يعنيه (٥) .

– **انحرافات الجوارح** : جوارح الإنسان وحواسه جميعها شأنها شأن سائر النعم التي أنعم اللَّه بها على الإنسان في الدنيا مثل المال والجاه والعلم وغيرها يمكن أن تستخدم في

---

(١) أخرجه الترمذي عن ابن عمر .

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود عن عياض .

(٣) أخرجه النسائي والحاكم بن عبد اللَّه بن عمرو .

(٤) أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ، بيروت ، دار المعرفة للطباعة والنشر . د. ت ، (٣/١١٢ – ١٦٣) ، (ص ١١٢ – ١٦٣) .

(٥) أبو حامد الغزالي : مرجع سابق ذكره ، (٣/٣٤٠ – ٤٣٩) .

طاعة اللَّه ويمكن أن تستخدم في معصيته ، والسواء في استخدام الجوارح أن تستخدم فيما هو مباح ، فالعين لا تنظر إلَّا إلى ما أحل لها النظر إليه ، واليد لا تمتد إلَّا إلى ما أحل اللَّه لها من مال ولا تمتد إلى الآخرين إلا بالخير ، والقدم لا تسعى إلَّا في الخير ، والأذن لا تسمع إلَّا ما هو مباح فلا تتجسس ولا تتلصص .

وانحرافات الجوارح عديدة ، وتشتمل على كل الانحرافات التي تجرمها القوانين الوضعية على اختلافها : مثل ، القتل والزنى والسرقة وإتلاف ممتلكات الغير ...إلخ ، بالإضافة إلى أنواع أخرى من الانحرافات التي حرَّمها الإسلام ، مثل : شرب الخمر والربا والنظر إلى ما لم يحل للإنسان أن ينظر إليه .

ب – الانحرافات الباطنة : وهي أنواع من الانحراف التي لا يمكن مشاهدتها بصورة مباشرة مثل الانحرافات الظاهرة ، ولا يمكن إثباتها إلَّا بإقرار ممن يعاني منها ، فهو الذي يستطيع أن يعلم عن وجودها وأن يصفها ، وغالبًا ما تكون مقدمة للانحرافات الظاهرة ، وهي عبارة عن خواطر شر تجمع بين أفكار ومشاعر منحرفة تلح على النفس وتعاودها بين الحين والآخر .. ومن أهمها ما يلي :

– **الكبر** : وهو ظن الإنسان في نفسه أنه خير من الآخرين فيعظِّم نفسه ويحقِر غيره ، وللكبر أنواع متعددة ، فهناك من يتكبر بعلمه ، وهناك من يتكبر بماله ، وهناك من يتكبر بسلطانه ونفوذه ... إلخ ، وإذا استقر الكبر في النفس وتخلقت به ظهرت ثماره على سلوك صاحبه في التكبر ، حيث يتحول من مجرد ظن في نفس صاحبه إلى سلوك يمارسه تجاه الآخرين ، فيضع نفسه في مكان أعلى منهم ويعمد إلى تحقير آرائهم والترفع عن مجالستهم وازدرائهم ، وإقصائهم عن نفسه والأنفة من مساواتهم به [1] ، وقد كان الكبر سببًا في إقصاء إبليس عن رحمة اللَّه لما ظنه من تفوق عنصره وهو النار على عنصر آدم وهو الطين فرفض السجود له لـمَّا أمره اللَّه بذلك .

وقد ورد ذم الكبر والتكبر والمتكبرين فقد قال اللَّه سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : ٣٥] .

﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴾ [النحل : ٢٣] .

---

(١) أخرجه الطبراني عن عائشة .

ويقول رسول اللَّه ﷺ : « **لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ...** » (١) .

– **الحسد** : هو كراهية الإنسان لنعم اللَّه التي أنعم اللَّه بها على الآخرين وتمنى زوالها عنهم دون أن يضره وجود هذه النعم لديهم ، وفي بيان هذا المعنى يقول رسول اللَّه ﷺ : « **إن لنعم اللَّه أعداء** » فقيل : ومن هم ؟ قال : « **الذين يحسدون الناس على ما آتاهم من فضله** » (٢) .

فالحسد سخط على قضاء اللَّه سبحانه في إنعامه على المحسود ، وإذا انساق الإنسان وراء الحسد قاده إلى البغي وذلك بأن يخرج من حدود تمني زوال النعمة إلى العمل على إزالتها بالفعل ، فقد يدفع الحسد إلى إيذاء المحسود بمختلف الوسائل وذمه وبيان مساوئه .

وفي ذلك يقول رسول اللَّه ﷺ : « ... **وإذا حسدت فلا تَبْغ** » (٣) .

وقد نهى اللَّه سبحانه عن الحسد وأمر بالتعوذ من شر الحاسد ، كما نهى رسوله ﷺ عن الحسد ، فقال : « **الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النارُ الحطبَ** » (٤) .

والسواء في ذلك ألَّا يسخط الإنسان على قضاء اللَّه فهو المنعم المتفضل الذي يؤتي من يشاء من فضله ، وأن يحب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه .

– **سوء الظن** : هو اتهام لا دليل عليه ، ينسب السوء إلى من لا ينسب السوء إليهم عادة ، فهو يرميهم بما ليس فيهم من صفات سيئة أو ينسب إليهم ما لا يرتكبوه من أفعال ذميمة ، ومن ذلك سوء الظن باللَّه سبحانه وعدم الرضى بقضائه وعدم القناعة بما قسم اللَّه له من مال وولد ، وسوء الظن بالناس بنسبة العيوب والنقائص إليهم بينه وبين نفسه والشك في نواياهم وتوقع الشر منهم ، وفي النهي عن سوء الظن يقول اللَّه سبحانه : ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفتح : ١٢] .

والسواء في ذلك أن يُحسن الإنسان الظن باللَّه سبحانه ويؤمن أنه لا يقضي للمؤمن إلَّا بالخير ، وأن ما يصيبه من خير فمن اللَّه وما يصيبه من شر فمن نفسه ، وأن يحسن الظن بإخوانه المسلمين فلا يستبيح ظن السوء إلا بالمشاهدة أو البيِّنة العادلة ، عليه أن يفسر ما يراه أو تقوم عليه البيِّنة بأحسن تفسير ممكن وأن يلتمس لهم العذر إذا لم يكن

---

(١) أخرجه الطبراني عن ابن عباس .

(٢) أخرجه الطبراني عن حارثة بن النعمان .

(٣) أخرجه أبو داود عن أبي هريرة .

(٤) أبو حامد الغزالي : مرجع سبق ذكره ، (١٥٠/٣ – ١٥١) .

من الممكن أن يحصله على وجه حسن [١] .

– **الرياء** : هو طلب المنزلة في قلوب الناس بأن يريهم الإنسان صفات الخير من نفسه على غير الحقيقة ، والرياء نوع من الشرك باللَّه ، فالله سبحانه هو مقصود المؤمن في عبادته فإذا عظم الناس في قلب الإنسان ، ورغب في الحصول على منزلة رفيعة في نفوسهم أشركهم مع ربه في قصده من العبادة فحرص على الصلاة والصيام والصدقة أمامهم ولو كان بمفرده ما فعل .

والرياء أنواع ودرجات متعددة فهناك رياء بأصل الدين بأن يظهر الإنسان الإيمان وهو يبطن الكفر ، والرياء بالعبادات ، والرياء بالطاعات ، وقد قال سبحانه في المرائين : ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٤٢] .

وقد قال رسول اللَّه ﷺ في ذم الرياء : « **إن اليسير من الرياء شرك وإن اللَّه يحب الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا ، وإن حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة** » [٢] .

والسواء في هذا أن يكون اللَّه هو مقصود المؤمن بأعماله الصالحة ، فإذا تصدق لم تعلم شماله ما أعطت يمينه ولم يفاخر بما فعل ولم يذكره .

وتوجد أنواع أخرى من الانحرافات الباطنة التي لا يتسع المجال لتناولها بالتفصيل ونكتفي بإشارة سريعة إليها ، منها : الانسياق في اتباع الهوى ، والمبالغة في الغضب ، والحقد ، والعجب ، واليأس ، والطيرة ، والجزع ، والطمع ، والبخل [٣] .

٣ - تصنيف الانحراف طبقًا لتوقيت العقوبة عليه :

يمكن تصنيف الانحراف طبقًا لتوقيت العقوبة عليه إلى قسمين هما :

أ – انحرافات لها عقوبة دنيوية :

وتنقسم الانحرافات ذات العقوبة الدنيوية إلى [٤] :

---

(١) أخرجه الطبراني والحاكم عن معاذ بن جبل .

(٢) أخرجه البخاري عن عائشة .

(٣) كمال إبراهيم مرسي : علاقة الانحرافات النفسية الباطنة بالصحة النفسية والجسمية ، بحث مقدم إلى ندوة التأصيل الإسلامي لعلم النفس الحديث ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة (٢٤ – ١٩٨٩/٧/٢٦م) ، (ص ٧) .

(٤) عبد القادر عودة : التشريع الجنائي الإسلامي مقارنًا بالقانون الوضعي ، بيروت ، دار الكاتب العربي ، د . ت (١/٧٨ – ٨٠) .

– **انحرافات (جرائم) الحدود** : هي الانحرافات التي تمثل اعتداء على حدود اللَّه ومحارمه ، كما وردت في القرآن والسنة ، وقد حدد الإسلام هذه الانحرافات على سبيل الحصر ، كما حدد عقوبة كل منها لا تزيد ولاتنقص ، وهي الزنى ، والقذف ، وشرب الخمر ، والسرقة ، والحرابة ، والردة ، والبغي ، وقد ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة تحديد دقيق لكل منها والعقوبة التي توقع على مرتكبها وكيفية تطبيقها ، والحد حق للَّه فلا يقبل الإسقاط أو العفو من الفرد أو الجماعة . وقد أنَّب رسول اللَّه ﷺ أحد الصحابة عندما أراد أن يشفع في امرأة من بني مخزوم سرقت ، فأمر ﷺ بإقامة الحد عليها قائلًا : « **أتشفع في حدٍّ من حدود اللَّه ؟** » ثم قام فخطب فقال ؛ « **أيها الناس إنما ضلَّ من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد ، وأيم اللَّه لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع يدها** » [١] .

– **انحرافات القَصاص والدية** : وهي الانحرافات التي يعاقب المنحرف على ارتكابها بالاقتصاص منه أو دفع الدية ، وكل من القصاص والدية عقوبة محدودة ومعروفة وليس لها حد أدنى أو أقصى ، وهي من حقوق الأفراد بمعنى جواز العفو عنها ، وهي القتل العمد وشبه العمد والقتل الخطأ والاعتداء الذي لا يؤدي إلى الموت كالجرح والضرب . وفي ذلك يقول اللَّه سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ﴾ [البقرة : ١٧٨] .

– **انحرافات التعزير** : التعزير هو التأديب وقد نصت الشريعة الإسلامية على بعض هذه الانحرافات ، ومنها : الربا ؛ وخيانة الأمانة ؛ والسب ؛ والرشوة ، ولم تحدد عقوبة معينة لكل منها كما هو الأمر في النوعين السابقين ، ولكن يوجد حد أدنى وحد أقصى لجرائم التعزير ويترك الحكم بالعقوبة التي تقتضيها مصلحة المجتمع وظروف ارتكاب الانحراف ، ومن أمثلتها في السنة النبوية : السرقة التي لا توجب الحد ، ومماطلة المدين الموسر ، والشطط في تأديب الزوجة والأبناء [٢] .

ب – انحرافات عقوباتها في الآخرة :

توجد في الإسلام انحرافات متعددة لم تحدد لها عقوبات دنيوية ، رغم النص على

---

(١) أخرجه البخاري عن عائشة .

(٢) محمد سليم العوا : في أصول النظام الجنائي الإسلامي ، القاهرة ، مكتبة دار المعارف ، (١٩٧٩م) ، (ص ٢٤١ – ٢٥٠) .

تحريمها ، وقد توعد اللَّه من يرتكبها بعقوبات أخروية مثل : الكفر ، والنفاق ، والمشي بين الناس بالنميمة ، وسوء الظن ، والغيبة ، وأكل الميتة ولحم الخنزير ، والحسد .

٤ - تصنيف الانحراف طبقًا لطبيعة الفعل المنحرف :

يصنف الفقهاء الانحراف طبقًا لطبيعة الفعل المنحرف إلى [١] :

أ – انحراف بالإتيان :

وذلك بإتيان فعل منهي عنه مثل السرقة والزنى والقتل ، فالمحرمات محدودة حصرًا في القرآن والسنة ولا تحريم إلَّا بنص ، وفي ذلك يقول اللَّه سبحانه : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم ﴾ [الأنعام : ١٥١] .

ب – انحراف بالترك :

وذلك بالامتناع عن أفعال أوجبها اللَّه سبحانه وأمر بإتيانها ، وهذه تنقسم بدورها إلى قسمين : أولهما : أن الامتناع في حدِّ ذاته معصية مثل منع الزكاة وترك الصلاة وعدم بر الوالدين ، فكل هذه الأفعال هو انحراف عن الصراط المستقيم ومعصية للَّه سبحانه ؛ أما النوع الآخر فإن الامتناع في حد ذاته لا يشكل معصية ولكنه يمكن أن يؤدي إلى معصية ؛ فقد حمَّل عمر بن الخطاب قومًا دية رجل استسقى قومًا لم يسقوه فمات من العطش .

٥ - تصنيف الانحراف طبقًا لاتجاهه :

جعل اللَّه سبحانه أمة الإسلام أمة وسطًا ، وفي ذلك يقول اللَّه سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وتوجد آيات قرآنية كريمة وأحاديث نبوية متعددة تحث على التوسط والاعتدال وتنهى عن التطرف سواء بالإفراط أو بالتفريط ، ويمكن تصنيف الانحراف طبقًا لهذا المعيار على النحو التالي :

أ – انحراف بالإفراط :

الإفراط هو البُعد عن الاعتدال والتوسط في اتجاه المبالغة ، والمبالغة أمر غير مستحب

(١) محمد أبو زهرة : الجريمة والعقاب في الفقه الإسلامي ، القاهرة ، مكتبة دار الفكر العربي ، (١٩٧٦م) ، (١٣٣/١ - ١٣٥) .

في أي أمر وقد نهى الإسلام عن الإفراط وعده انحرافًا شأنه في ذلك شأن التفريط تمامًا حتى لو كان في العبادات ، فقد نهى رسول اللَّه ﷺ مَنْ كان يريد أن يقوم الليل ومَنْ يريد أن يعتزل النساء فلا يتزوج ، ومَنْ يريد أن يصوم الدهر فلا يفطر ، وقال « .. **صم وأفطر وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقًّا ، وإن لعينك عليك حقًّا ، وإن لزوجك عليك حقًّا ، وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام ..** » (١) .

ب – انحراف بالتفريط :

ويأتي على النقيض من الإفراط وذلك بالتهاون والتقصير في أداء الإنسان لما أمر اللَّه به ونهى عنه ، مثل : ترك الصلوات المفروضة ، والتهاون في الجهاد في سبيل اللَّه ، وعدم أداء فريضة الحج مع الاستطاعة ، والتقصير فيما كلف به من أعمال ومسؤوليات .

٦ - تصنيف الانحراف طبقًا لجسامة المعصية :

يقول اللَّه سبحانه : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء : ٣١] .

ويتبين من الآية الكريمة أن ما نهى الإسلام عنه يمكن تصنيفه إلى كبائر وسيئات عادية ، وعلى الرغم من القول المأثور لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار ، أي أن التوبة والاستغفار تمسح الذنوب صغيرها وكبيرها ، وإن إصرار الإنسان على معصية ليست من الكبائر يحولها إلى كبيرة ، إلا أننا يمكن أن نصنف الانحراف طبقًا لهذا المعيار إلى :

أ – الكبائر :

ويقصد بها كبائر المعاصي ، ويأتي على رأسها الموبقات السبع وهي : « ... **الشرك باللَّه ، وقتل النفس التي حرم اللَّه إلَّا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتوَّلِّي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات** » (٢) ، ويقصر البعض الكبائر على هذه السبع ، ويتوسع بعضهم حتى يصل بها إلى السبعين ، بحيث يعدون كل ما ورد إنذار أو وعيد في القرآن والسنة بشأنه فهو كبيرة ، ولا يتسع المجال لذكرها على سبيل الحصر ، ونكتفي بذكر أمثلة ، منها : عقوق الوالدين ، منع الزكاة ، الظلم ، الرشوة ، الرياء ،

---

(١) أخرجه البخاري عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص .

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة .

المشي بين الناس بالنميمة ، الكذب في القول واليمين .. إلخ [١] .

ب – السيئات (اللمم) :

وهي كل السيئات التي لم يرد ذكرها بين الكبائر ، وقد وردت الإشارة إلى أن الصغيرة تتحول إلى كبيرة مع المداومة والإصرار ، إلَّا أن الصلاة إلى الصلاة ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، والحج إلى الحج ، والعمرة إلى العمرة ، كفارة لما بينهما من الذنوب إذا اجتنبت الكبائر .

رابعًا : خصائص المنظور الإسلامي للانحراف

يتسم المنظور الإسلامي بعدد من الخصائص التي تميزه عن النظريات الوضعية نوجزها فيما يلي :

١ - الاعتماد على القرآن والسنة :

يعتمد المنظور الإسلامي للانحراف اعتمادًا كاملًا على ما نزل في الوحي من اللَّه سبحانه على رسوله من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة التي ثبتت نسبتها إلى رسول اللَّه ، وعلم اللَّه سبحانه هو علم كامل وصحيح فهو خالق الإنسان ، وهو أعلم بمن خلق ، أعلم بما يصلحه وبما يفسده ، فحين يأمره بشيء فلا بد فيه صلاح له ، وحين ينهاه عن شيء ، فلا بد فيه فساد له ، فلا يخفى عليه شيء ولا يضل ولا ينسى .

وقد وجهت انتقادات قاسية ومتعددة إلى بعض ما شرَّعه اللَّه سبحانه وكانوا يطلقون عليها « الأمور الشيطانية في الإسلام » ويعلنون رفضهم لها في كل مناسبة إلى أن اضطروا صاغرين إلى النزول على ما شرعه اللَّه سبحانه لا إيمانًا باللَّه ، ولكن تحت وطأة المشكلات المتعددة التي لم يجدوا لها حلًّا إلا فيما شرعه اللَّه .

٢ - اتساع دائرة الانحراف :

يتبين بالنظر إلى مفهوم الانحراف وأنواعه التي سبق عرضها مقارنًا بالانحراف بمفهومه الوضعي ، وإن المنظور الإسلامي اللانحراف أكثر اتساعًا وشمولًا حيث تضمن أنواعًا عديدة من الانحرافات غير المتضمنة في المفهوم الوضعي ، فالانحراف في علاقة الإنسان باللَّه بأنواعه ، والانحراف في علاقة الإنسان بسائر الخلق ، والانحرافات الباطنة بأنواعها المختلفة لا يتضمنها المنظور الوضعي للانحراف .

---

(١) للمزيد من التفاصيل راجع شمس الدين الذهبي : كتاب الكبائر ، القاهرة ، مكتبة دار الفكر ، د. ت .

ويؤدي توسيع دائرة الانحراف إلى تهذيب أساليب التعامل بين الناس وبعضهم ، وإلى تقليل ما يحدث من انحرافات في المجتمع إلى حدٍّ بعيد ؛ وذلك لأن العديد من الانحرافات التي يحرِّمها الإسلام في علاقة الإنسان بسائر الخلق والانحرافات الباطنة بأنواعها المختلفة لا يتضمنها المنظور الوضعي للانحراف .

ويؤدي توسيع دائرة الانحراف إلى تهذيب أساليب التعامل بين الناس وبعضهم ، وإلى تقليل ما يحدث من انحراف في المجتمع إلى حدٍّ بعيد ، وذلك أن العديد من الانحرافات التي يحرمها الإسلام ولا تمنعها القوانين الوضعية تعتبر مقدمات لأنواع أكبر من الانحراف ، فنظر الإنسان إلى المرأة الأجنبية وجلوسه وتعامله معها غير محرم في القوانين الوضعية ، على حين أنه مقدمة للاتصالات الجنسية غير المشروعة والخيانة الزوجية وغيرها ، لذلك فقد حرمه الإسلام ، كما أن الخمر غير محرمة في معظم القوانين الوضعية على الرغم مما تؤدي إليه من انحرافات في حين أن الإسلام يحرمها .

ويرجع توسع الإسلام في التحريم إلى عدد من الأسباب منها ما يلي :

– إهمال القوانين الوضعية لعلاقات أساسية في حياة الإنسان مثل علاقته بربه فهذه لا تدخلها في اعتبارها ، كما أن معظم القوانين الوضعية لا تجرم الانحراف في علاقة الإنسان مع الحيوانات والجمادات .

– عجز القوانين الوضعية عن إثبات بعض الانحرافات أمام المحاكم وإقامة الدليل عليها ؛ لأنها انحرافات تدور داخل نفس الإنسان ولا يمكن إثباتها والتدليل عليها إلَّا للمنحرف نفسه ، ولكن اللَّه سبحانه الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور يستطيع إثبات هذه الانحرافات والتدليل عليها ، لذلك أنزل الوحي بتحريمها .

– انحراف واضعي القوانين وسيرهم خلف أهوائهم تجعلهم يبيحون بعض الانحرافات ؛ لأنهم يريدون الاستمتاع بها .

٣ - العدل :

المُحِلُّ والمحرِّم في الإسلام هو اللَّه سبحانه ، وهو عدل ، وعدله كامل ومطلق ، فلا مصلحة له ولا هوى في تحليل أو تحريم ، ولكنه سبحانه أحلَّ للإنسان ما يصلحه ويحقق له سعادة الدنيا والآخرة ، وحرم عليه ما يفسد عليه دنياه وآخرته ، وفي ذلك يقول اللَّه سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ

وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] .

وشرع اللَّه سبحانه لا يتحيز لجماعة ولا لطبقة ولا لفئة دون أخرى ، على حين أن القوانين الوضعية عادة ما تنحاز لصالح الجماعات والطبقات والفئات القوية في المجتمع على حساب الفئات الأخرى (١) .

٤ - الثبات :

يتميز التحديد الإسلامي للانحراف بالثبات والاستقرار ، فنصوص الشريعة ثابتة دون تغيير أو تبديل منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنًا وحتى تقوم الساعة ، فلا تحريم إلَّا بنصٍّ ، والنصوص ثابتة .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۖ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٥] .

ويساعد استقرار تحديد ما هو مباح وما هو ممنوع على الالتزام بهذه الحدود ، على حين أن كثرة التغيير وإباحة أمور معينة ثم منعها ثم إباحتها يسقط هيبة هذه الحدود ويغري البعض على الخروج عنها ، كما أن تحريم أمر معين في مجتمع ما على حين يعلم أفراد هذا المجتمع بإباحته في مجتمع آخر يشكك في قوة اقتناعهم بالمصلحة في هذا المنع ، هذا بالإضافة إلى أن اختلاف حدود المنع والإباحة من مجتمع إلى آخر يسبِّب مشكلات عديدة للأفراد عند سفرهم وانتقالهم من مجتمع إلى آخر ، فقد يمارس فعلًا مباحًا في بلده ممنوعًا في البلد التي انتقل إليها مما يسبِّب العديد من المشكلات .

خامسًا : العوامل المؤدية إلى حدوث الانحراف

يقول اللَّه سبحانه : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٢ ، ٣] .

فقد شاء اللَّه سبحانه أن يجعل الحياة الدنيا موضعًا لامتحان الإنسان واختباره ، وكل موقف يعيشه الإنسان هو سؤال من أسئلة هذا الاختبار في بيته ، في مدرسته ، في عمله ، في الشارع ... إلخ ، وجعل اللَّه سبحانه جوهر هذا الاختبار هو اختبار الإنسان بين الحلال و الحرام .

---

(١) عبد القادر عودة : مرجع سبق ذكره ، (ص ١٥ - ٢٧) .

والسؤال الجوهري هنا هو : لِمَ يكون سلوك البعض سويًّا بينما يجنح البعض الآخر إلى الانحراف ؟

نلخص الإجابة على هذا السؤال في النقاط التالية :

١ – أودع اللَّه سبحانه في الإنسان فطرة التوحيد التي تجعله يتوصل بتأمل فيما حوله وبعقله المجرد إلى أصل الإيمان بوجود خالق لهذا الكون ، وتجعله يستحسن الحسن ويستقبح القبيح ، وفي ذلك يقول اللَّه سبحانه : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠] .

٢ – لم يترك اللَّه الإنسان معتمدًا على فطرته فقط ، بل أرسل له الرسل والرسالات التي تدله على وجود الخالق وتحدد له ما ينبغي عليه أن يفعله وما ينبغي أن يتركه ، ما هو سَويٌّ وما هو منحرف ، وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد : ٢٥] .

٣ – ترك اللَّه سبحانه للإنسان حرية الاختيار بعد أن هيَّأ له أسبابه وأخبره بأنه محاسب على سلوكه الإرادي ، وفي ذلك يقول اللَّه سبحانه : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف : ٢٩] .

فالإنسان حر مختار محاسب على سلوكه الإرادي ، ولإرادته الحرة الدور الرئيس في تحديد نوعية سلوكه ، فهي مصدر أول وأميل لنية الإنسان واختياراته ، ومن ثَمَّ لسلوكه . وقد أعفى اللَّه سبحانه الإنسان من العقوبة على الخطأ إذا لم تتوفر لديه مقومات الاختيار الحر ، فلا إثم على المكروه أو المضطر ، ولا إثم على من فقد عقله ، ولا على ضعيف العقل ، ولا على الصغير الذي لم يصل بعد إلى سن البلوغ ولم تتكامل قدراته بعد .

٤ – تتحدد بِناءً على الاختيار الحر للإنسان صلته باللَّه سبحانه إما مؤمن بخالق هذا الكون ومدبره ، وإما كافر باللَّه أيًّا كان اعتقاده ، ويعتبر هذا الاختيار أمرًا جوهريًّا مؤثرًا على سلوك الإنسان في كافة أمور حياته .

٥ – هيأ اللَّه سبحانه القوانين والسنن الكونية في الحياة الدنيا بما يساعد الإنسان على السير في الطريق الذي اختاره لنفسه أيًّا كان اختياره ، وبحيث تستجيب له هذه القوانين والسنن بقدر اجتهاده في السعي ، فهي تعين المؤمن الملتزم بطاعة اللَّه على المزيد من

الطاعة وتعين الكافر والمنافق على المعصية ، الأول بقدر اجتهاده في الطاعة ، والثاني بقدر اجتهاده في المعصية .

٦ – تترك علاقة الإنسان باللَّه وسلوكه في الاتجاه الذي يختاره آثارًا في قلبه تتزايد مع مرور الوقت وتشكِّل بدورها عاملًا تراكميًّا مساعدًا يدعم سير الإنسان على الطريق الذي اختاره ، وفي ذلك يقول اللَّه سبحانه : ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن : ١١] .

فمن يؤمن باللَّه يثبته اللَّه على الإيمان [١] ، في هذا المعنى يقول اللَّه سبحانه في الحديث القدسي : « .. **وإن تقرب إليَّ بشبرٍ تقربت إليه ذراعًا ، وإن تقرب إليَّ ذراعًا تقربت إليه باعًا ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة** » [٢] . فمن سلك سبيل الطاعة والتقرب إلى اللَّه يُحبِّب اللَّه إليه الطاعة ويعينه عليها ويوفقه إلى المزيد منها [٣] .

وإذا اختار طريق المعصية والكفر تتراكم آثار المعاصي على قلبه كل منها على شكل نقطة سوداء ، ثم تتكاثر إلى أن تتصل ببعضها البعض ، فذلك الران الذي يتزايد إلى أن يطبع على القلب ، ويصبح محجوبًا عن اللَّه بالكلية [٤] ، وفي ذلك يقول اللَّه سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأعراف : ١٠٠] .

ويقول رسول اللَّه ﷺ : « **القلوب أربعة : قلب أجرد فيه سراج ، فذلك قلب المؤمن ، وقلب أسود منكوس ، فذلك قلب الكافر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، فذلك قلب المنافق ، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق** » [٥] .

٧ – تُرجع النظرياتُ المعاصرة الانحرافَ إلى مجموعة من العوامل منها ما يتصل بشخص المنحرف ، ومنها ما يتصل بالمتغيرات البيئية المحيطة به وتنظر إلى هذه العوامل على أنها متغيرات مستقلة ، وإلى السلوك الانحرافي على أنه متغير تابع ، وكأن الإنسان مجرد متلقٍّ للتأثير ، ولكن الأمر لا يستقيم على هذا النحو فما تشير إليه هذه النظريات

---

(١) أبو عبد اللَّه الأنصاري القرطبي : مرجع سبق ذكره ، مجلد ١٨ ، (ص ١٣٩ – ١٤٠) .
(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة .
(٣) الأحاديث القدسية ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م) ، (ص ٦٥ ، ٦٦) .
(٤) أبو حامد الغزالي : مرجع سبق ذكره ، المجلد الثالث ، (ص ١٢ ، ١٣) .
(٥) أخرجه أحمد والطبراني عن أبي سعيد الخدري .

على أنه عوامل مستقلة إنما هو عوامل وسيطة تأثيرها محايد يتوقف على طبيعة علاقة الشخص المتعرض لهذا التأثير .

٨ – يزيد الإيمان وينقص ، فهو يتفاوت قوة وضعفًا من شخص إلى آخر ، ولدى نفس الشخص من وقت إلى آخر ، ويكون الانحراف عادة في الأوقات التي يضعف فيها الإيمان ، فلا يزني الزاني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق وهو مؤمن ، وإذا عاد إليه إيمانه تاب ؛ ولذلك فاحتمال عودة المؤمن للانحراف ضعيفة ، وإذا بلغ الإيمان منتهاه من القوة وصل بالإنسان إلى درجة الإحسان فهو يعبد اللَّه كأنه يراه ، ومن يصل إلى هذه الدرجة يصعب ارتكابه للانحراف ؛ فشعور الإنسان بأن اللَّه يراه يجعل بينه وبين الانحراف مانعًا قويًّا ، ذلك أن الخوف من عذاب اللَّه والخجل من مطالعة اللَّه له وهو يعصيه والطمع في ثوابه يدفع الإنسان إلى التمسك الدقيق بصراط اللَّه المستقيم وعدم الخروج عنه .

٩ – قد توجد عوامل تدفع الإنسان المؤمن إلى الانحراف مثل وجوده في وسط منحرف ، أوتعرضه لنقص كبير في إشباع حاجاته الأساسية أو لإغراء منصب أو جاه أو علاقة أساسية في حياته ، وبقدر قوة إيمان من يتعرَّض لهذا الموقف بقدر صموده وعدم وقوعه في الانحراف وأيضًا بقدر ما يعده اللَّه سبحانه له من أجر ، وفي هذا المعنى يقول رسول اللَّه ﷺ : « **سبعة يظلهم اللَّه في ظله يوم لا ظل إلَّا ظله .. » وذكر من بينهم : « إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة اللَّه ، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال ، فقال : إني أخاف اللَّه تعالى** » [١] ، ويقول أيضًا : « **إن اللَّه يحب الفقير المتعفِّف** » [٢] .

١٠ – بناء على ما تقدم يمكننا القول إنه لحدوث الانحراف لا بد من وجود عاملين في وقت واحد هما :

أ – ضعف الإيمان أو عدم وجوده بالمرة ، وبذلك يضعف ويزول الوازع الذي قد يمنع الإنسان من الانحراف ، وقد ثبت من واقع الدراسات الإمبيريقية وجود علاقة عكسية دالة إحصائيًّا بين مستوى التدين والسلوك الإجرامي [٣] .

ب – وجود مراحل محركة ومشجعة على الانحراف سواء كانت هذه العوامل

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه ابن ماجه عن عمران بن حصين .

(٣) صالح بن إبراهيم الصنيع : العلاقة بين مستوى التدين والسلوك الإجرامي ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، كلية العلوم الاجتماعية ، قسم علم النفس ، (١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م) ، (ص ٣٦٨ – ٥٠٦) .

راجعة إلى المنحرف مثل إلحاح شهوة أو حاجة غير مشبعة ، أو راجعة إلى الظروف المحيطة به مثل رفاق السوء أو انتشار الانحراف في المجتمع ، أو غيرها .

١١ – ترك اللَّه سبحانه باب التوبة مفتوحًا للإنسان إذا أراد أن يعدل من اختياراته في أي وقت إلى أن يغرغر أو أن تشرق الشمس من مغربها ، ومتى استوفت التوبة شروطَها فإنها تجُبُّ ما قبلها ، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

سادسًا : المنظور الإسلامي لمواجهة الانحراف

تتكامل جوانب الشريعة الإسلامية مع بعضها البعض تكاملًا محكمًا يقلل من حدوث الانحراف في المجتمع إلى أدنى حد ممكن ، فمن هذه الجوانب ما يستهدف الوقاية من الانحراف وتثبيت أفراد المجتمع على الصراط المستقيم ، ومنها ما يعمل على منع وقوعه عن طريق إزالة الأسباب التي يمكن أن تؤدي إليه ، ومنها ما يستهدف علاج من وقع في الانحراف من أفراد المجتمع وتطهيره من آثار ما وقع فيه من انحراف .

ويقتضي الأمر التطبيق المتكامل للشريعة الإسلامية بجوانبها المختلفة سواء كان ذلك على مستوى أفراد المجتمع أو جماعاته أو المجتمع ككل ؛ وذلك نظرًا للتساند القوي بين هذه الجوانب ، وفي ذلك يقول اللَّه سبحانه : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٨٥] .

ويمكن تلخيص هذه الجوانب فيما يلي :

أولًا : الوقاية من الانحراف .

ثانيًا : إزالة الأسباب التي يمكن أن تؤدي إلى الانحراف .

ثالثًا : علاج حالات الانحراف .

وسوف نتناولها فيما يلي بشئ من التفصيل مع التركيز على دور الخدمة الاجتماعية في كل منها .

١ - الوقاية من الانحراف :

وتتضمن مجموعة من القواعد التي تنظم حياة الفرد والأسرة في المجتمع ، ونكتفي هنا بمجرد العرض الموجز على النحو التالي :

١ – أن يتم الإنجاب من خلال الأسرة :

جعل الإسلام الأسرة التي تتكون عن طريق الزواج المشروع هي الوعاء الوحيد لإنجاب الأطفال ، فالعلاقة الوحيدة المشروعة للإنجاب هي العلاقة الزوجية ، وفي ذلك يقول رسول اللَّه ﷺ : « **يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ..** » [١] .

ويتمثل دور الخدمة الاجتماعية في هذا الصدد في المعاونة على وضع حديث رسول اللَّه ﷺ موضع التطبيق من خلال شرح أهمية الزواج المبكر في إحصان الشباب وتحقيق الإشباع المشروع للحاجة الجسمية حتى لا تكون ضاغطًا ملحًّا ، قد يدفع البعض إلى الانحراف ، كما أن من مسؤوليات مهنة الخدمة الاجتماعية من خلال المؤسسات المهنية العمل على إزالة المعوقات الاجتماعية التي تحول دون الزواج المبكر لمن يستطيع ، مثل القوانين الموجودة في بعض البلاد الإسلامية لوضع حد أدنى مرتفع لسن الزواج يمنع من وصل إلى مرحلة الشباب ويستطيع تحمل أعباء الزواج من الزواج لعدم بلوغه هذه السن بعد ، والعمل على محاربة العادات التي تعوق الزواج مثل المغالاة في المهور والأثاث ولوازم الزواج ، مما يشكل عائقًا أمام أعداد كبيرة من الشباب .

٢ – ضمان صلاحية الأسرة لأداء وظائفها :

وضع الإسلام مجموعة من التوجيهات التي يؤدي الالتزام بها إلى ضمان صلاحية الأسرة لتنشئة أطفالها تنشئة صالحة ، حتى يشبوا متمسكين بصراط اللَّه المستقيم يصعب انحرافهم عنه ، ومن هذه الضوابط ما يلي [٢] :

أ – **حسن اختيار الشريك** : يقول رسول اللَّه ﷺ : « **تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك** » [٣] . ويقول : « **إذا جاءكم من ترضون دينه ، فزوجوه إلَّا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير** » [٤] .

ومن ينشأ مثل هذه النشأة لن يقع في الانحراف ، وفي هذا المعنى يقول الحق سبحانه :

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة .

(٢) محمد عبد اللَّه عرفة : الأسرة المسلمة والوقاية من الانحراف ، بحث ضمن أعمال ندوة معالجة الشريعة الإسلامية لمشاكل انحراف الأحداث ، الرياض ، المركز العربي للدراسات الأمنية ، (١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م) ، (ص٦١ – ٩٧) .

(٣) متفق عليه عن أبي هريرة .

(٤) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة .

﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴾ [مريم: ٢٨] .

فأهل مريم ينكرون عليها حملها بغير زواج ؛ لأنها نشأت بين أب طيب وأم طيبة .

كما يشترط الإسلام الكفاءة بين الزوجين وأن يكون الزواج بالاختيار الكامل بين الشريكين : « **فلا تُنكَح الأيِّمْ حتى تُسْتَأمَر ولا تُنكَح البكرُ حتى تُستأذن ..** » [١] . ويتمثل دور الخدمة الاجتماعية في هذا الصدد في العمل على التعريف بالمواصفات الإسلامية في شريك الحياة بين أفراد المجتمع عمومًا وبين المقبلين على الزواج بصفة خاصة ، كجزء من إعدادهم لممارسة الحياة الأسرية الزواجية ، وبيان الخطورة المترتبة على مخالفة ذلك ، وبيان فساد بعض العادات السائدة في إرغام الشاب أو الفتاة على الزواج من شخص على غير رغبته ، لأي اعتبارات كانت والعمل على مساعدة الحالات التي تعاني من مثل هذه المشكلات على التغلب عليها .

ب – تحديد القيادة في الأسرة : ونظرًا لأهمية وجود الاستقرار والوئام في حياة الأسرة ، فقد حدد الإسلام قائد هذه الأسرة في شخص الزوج ، وفي ذلك يقول اللَّه سبحانه : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ ﴾ [النساء: ٣٤] .

ويتمثل دور الخدمة الاجتماعية في هذا الصدد في شرح هذه الأمور للشباب المقبلين على الزواج ولأفراد المجتمع بصفة عامة ، وبيان أن هذا هو الوضع السوي للأسرة المسلمة ، ومساعدة الأسر التي تعاني من مشكلات في هذا الصدد على المودة إلى الوضع الإسلامي الصحيح .

جـ – تفصيل الحقوق والواجبات في الأسرة : حظيت الأسرة باهتمام بالغ في التشريع الإسلامي فيما يتصل بتحديد الحقوق والواجبات بين أفرادها حتى لا يحدث نزاع حول هذه الحقوق والواجبات فتفقد الأسرة صلاحيتها لتنشئة صغارها .

وبحيث تصبح الأسرة مكانًا حافلًا بالبر والحب وطاعة اللَّه وينشأ أبناؤها على صراط اللَّه المستقيم بعيدين عن احتمالات الانحراف ، كما كفل الإسلام حقوقًا محددة للأطفال في داخل الأسرة منها الإرضاع ، والنفقة ، والمساواة بين الابن وبين إخوته في المعاملة [٢] .

ويتمثل دور الخدمة الاجتماعية في تعريف أفراد المجتمع بما على كل منهم من

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة .

(٢) محمد عبد اللَّه عرفة : مرجع سبق ذكره ، (ص ٨٤ – ٩٣) .

واجبات وما له من حقوق في أسرته ، ومساعدة من يعاني من مشكلات في أداء مسؤولياته الأسرية على أداء هذه المسؤوليات كما حددها الإسلام ، ولا يقتصر أداء هذا الدور على مجال بعينه من مجالات الخدمة الاجتماعية ، ولكنه يمتد إلى مجالات متعددة ، منها : الخدمة الاجتماعية الأسرية ، والخدمة الاجتماعية المدرسية ، والخدمة الاجتماعية في مجال المنحرفين .

٣ – الحرص على استمرار الحياة الأسرية :

حرص الإسلام على استمرار الحياة الأسرية ما دامت الأسرة قادرةً على أداء واجباتها نحو أفرادها ، فقد حث الزوج على الصبر على زوجته وأوصاه بها خيرًا وأمره بأن يعاشرها بالمعروف ، فالمؤمن لا يكره زوجته المؤمنة ، فإن كره منها طبعًا أحب فيها طباعًا أخرى ، وقد يجعل اللَّه فيها خيرًا كثيرًا رغم كراهيته لها ، وفي ذلك يقول اللَّه سبحانه : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩] . والمعاشرة بالمعروف لا تقتصر على مجرد كف الأذى عن الزوجة ، بل تتضمن احتمال الأذى منها والحلم عليها [١] ، كما جعل اللَّه سبحانه الملجأ الأخير إذا استحالت العشرة بين الزوجين وهو الطلاق أبغض الحلال عنده حتى لا يتم اللجوء إليه إلا عند الضرورة القصوى . ويتمثل دور الخدمة الاجتماعية في مساعدة الأسر التي تعاني من مشكلات على التغلب على هذه المشكلات وتجاوزها ، وبيان النهج الإسلامي في العلاقات الأسرية ، وفي التغلب على المشكلات الأسرية .

٤ – الطلاق بالمعروف :

شرع اللَّه سبحانه الطلاق كملجأ أخير ، إذا استحالت العشرة بالمعروف بين الزوجين ، وقد حدد اللَّه سبحانه حقوق كل من الزوجين عند الطلاق حتى يكون الانفصال كريمًا لا يسيء إلى أي من الزوجين ، وفي ذلك يقول اللَّه سبحانه : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ ﴾ [البقرة: ٢٣١] .

ويمكن للخدمة الاجتماعية أن تلعب دورًا كبيرًا في هذا الصدد ، يتمثل في تنفيذ التوجيه الإسلامي الكريم بأن يتم الطلاق بالمعروف ، وذلك عن طريق المساعدة في حل المشكلات المترتبة على الطلاق مثل حصول الزوجة على حقوقها المتمثلة في مؤخر

(١) أبو حامد الغزالي : مرجع سبق ذكره ، (٤٣/٢) .

الصداق والنفقة ومساعدة المطلقين على الاتفاق على حضانة أطفالهما ، وتنظيم رؤية كل من الزوجين لأطفاله في حضانة الزوج الآخر ؛ وذلك نظرًا لما تتركه هذه المشكلات وغيرها من آثار سيئة في نفس الأطفال .

٥ – رعاية الصغير الذي يفتقد الأسرة المتكاملة :

حرص الإسلام على توفير الرعاية للصغير الذي يفتقد ما توفره الأسرة المتكاملة لطفلها من رعاية بين أبويه بأن جعل حقوق هذا الصغير على سائر أفراد المجتمع الذي يعيش فيه ، فالصغير الذي يفتقد الأسرة المتكاملة إما يتيم وإما لقيط ، وقد كفل الإسلام لكل منهما حقوقه على نحو يضمن له تنشئة اجتماعية إسلامية سوية .

فقد أمر اللَّه سبحانه بالإحسان إلى اليتامى في آيات متعددة ، وجاء في الحديث الصحيح عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « **أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا** » وأشار بالسبابة والوسطى [١] .

وكفالة اليتيم حجاب من النار ، وخير بيت من بيوت المسلمين بين يكرم فيه اليتيم ، كما نهى اللَّه سبحانه عن أكل مال اليتيم ، وأمر بإعطائهم من الصدقات ، وجعل لمن يمسح على رأس اليتيم رحمة به حسنات بعدد شعر رأس اليتيم [٢] .

كما جعل الإسلام نفقة اللقيط على بيت المال ، على أن توكل رعايتُه إلى أحد المسلمين المشهود لهم بالتقوى والصلاح حتى ينشأ نشأة صالحة [٣] .

كما وضع الإسلام نظام الولاية على النفس والمال وجعلها في أقارب العصب أي الأقارب من جهة الأب الأقرب فالأقرب ، وذلك حتى يقوم الولي على رعاية الصغير وتنشئته تنشئة صالحة ، واشترط لذلك أن يكون أمينًا على الصغير في نفسه ودينه وماله [٤] ، حفظًا للصغير حتى ينشأ نشأة طيبة على صراط اللَّه المستقيم تبعده عن الانحراف .

وللخدمة الاجتماعية دور كبير في هذا الصدد نوجزه في النقاط الآتية :

– الإسهام في تنفيذ نظام الولاية على النفس من حيث متابعة رعاية الولي لليتيم من

---

(١) أخرجه البخاري والترمذي عن سهل الساعدي .

(٢) عزمي صالح : الرعاية الاجتماعية لليتامى في الإسلام ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، (١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م) ، (ص ٢٢ – ٣٥) .

(٣) المرجع السابق ، (ص ٣٥ – ٤١) .

(٤) مناع خليل القطان : التربية الإسلامية والوقاية من انحراف الأحداث ، بحث ضمن أعمال ندوة معالجة الشريعة الإسلامية لمشاكل انحراف الأحداث ، مرجع سبق ذكره ، (ص ١١٤ – ١١٦) .

الناحية الاجتماعية ، والتأكد من حسن كفالته لليتيم وتنشئته نشأة إسلامية صالحة ، والاطمئنان إلى عدم تعرضه لإساءة المعاملة أو الاستغلال أو الانحراف من أي نوع .

– تصميم وتنفيذ برامج كفالة الأيتام في المجتمع ، بناء على مواصفات معينة يتم وضعها ومتابعة رعايتها الأيتام وتقديم المشورة والتوجيه لها حتى تقوم بالرعاية على وجهها الأكمل ومساعدتها على حل ما يواجهها من مشكلات إلى أن يصل اليتيم إلى سن البلوغ ، ثم مساعدته على أن يشق طريقه كمواطن صالح في المجتمع .

– الدعوة إلى تعديل القوانين التي توجد في بعض البلاد الإسلامية والتي تتصل بتنظيم رعاية الأيتام واللقطاء بما يخالف أحكام الشريعة الإسلامية مثل التبني وغيره .

٢ - منع بعض العوامل التي قد تؤدي إلى الانحراف :

سواء كانت هذه العوامل تتعلق بفرد في المجتمع أو ببعض أفراده أو جماعاته أو على مستوى المجتمع كله ، ونوضح ذلك بإيجاز على النحو التالي :

أولًا – إشباع الحد الأدنى من الحاجات الأساسية :

يعتبر التكافل الاجتماعي بين أفراد وفئات المجتمع المسلم من الوسائل الأساسية لإزالة أسباب الانحراف من المجتمع .

وعلى الأخصائيين الاجتماعيين مسؤولية كبيرة بحكم طبيعة عملهم في هذا الصدد ، فهم مسؤولون عن الفئات والجماعات بل والأفراد الذين يعانون من نقص في إشباع حاجاتهم الأساسية ويمكن إيجاز دورهم على النحو الآتي :

أ – الأخصائيون الاجتماعيون هم أكثر المهن اتصالًا بالفئات المحرومة والضعيفة التي تعاني من مشكلات أو من نقص في إشباع حاجاتها الأساسية ، وعلى الخدمة الاجتماعية كمهنة من خلال تنظيماتها المهنية والعلمية ، وعلى الأخصائيين الاجتماعيين – كأفراد – إعداد هذه الدراسات على الوجه المناسب للتعريف بمشكلات وحاجات هذه الفئات ، والعمل على نشرها من خلال القنوات المهنية كالمجلات العلمية والمؤتمرات والندوات العلمية وغيرها ، فهم رعاة ، وهذه الفئات هي جزء من رعيتهم يسألهم اللَّه سبحانه عنها .

ب – مساعدة هذه الفئات والجماعات على معرفة حقوقها والوعي بمشكلاتها ، وتعريفهم بالوسائل المناسبة للحصول على هذه الحقوق ومساعدتهم على ذلك .

جـ - التعاون مع أصحاب هذه الحاجات ومع من يعاون من المشكلات في رفع حاجاتهم المدعمة بالدراسات العلمية التي تحدد أبعاد هذه الحاجات وطرق إشباعها إلى الجهات التي بيدها إصدار القرارات بإشباع هذه الحاجات ، كما أن على الأخصائيين الاجتماعيين أن يعتبروا أنفسهم مستشارين لولاة الأمر على اختلاف مستوياتهم فيما يتصل بأمور الرعاية الاجتماعية لهذه الفئات .

د - العمل على إنشاء المؤسسات المهنية والأهلية التي تعمل على إشباع هذه الحاجات مثل اقتراح مؤسسات معنية لم تكن موجودة من قبل أو إضافة خدمات جديدة إلى مؤسسات قائمة لم تكن تقدم مثل هذه الخدمات أو إضافة فئات جديدة للتمتع بخدمة قائمة لم تكن تتمتع بهذه الخدمة من قبل ، أو تشجيع إنشاء الجمعيات الأهلية الخيرية التي تعمل على إشباع هذه الحاجات .

ثانيًا - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

يعتبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خطًا أساسيًا من خطوط الدفاع ضد الانحراف في المجتمع ، وفي ذلك يقول اللَّه سبحانه في بيان أثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في منع الانحراف :

﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة : ٦٣] .

وقد أورد اللَّه سبحانه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على أنه سبب من أسباب كون المسلمين خير أمة أخرجت للناس ، وأمرهم نصًا بإقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوله : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

ويمكن إيضاح دور الأخصائي الاجتماعي في هذا الصدد بإيجاز على النحو الآتي :

أ - على مستوى المجتمع العام يمكن للأخصائي الاجتماعي أن يدعو إلى إقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتوضيح الآثار الاجتماعية الحميدة التي تعود على المجتمع بالأخذ به ، والأخطار المترتبة على تركه .

ب - على مستوى المجتمع المحلي يستطيع الأخصائي الاجتماعي أن يساهم في تنظيم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويمكن الاستعانة في ذلك بالمؤسسات القائمة في المجتمع مثل المسجد والإدارة المحلية والمؤسسات التعليمية وغيرها .

جـ – على مستوى المؤسسة التي يعمل فيها الأخصائي الاجتماعي فهو مسؤول مباشرة عن إقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتنظيمه وتحديد من يقومون به ، وذلك بالتعاون مع المسؤولين الآخرين بالمؤسسة .

د – على مستوى العملاء الذين يقوم الأخصائي الاجتماعي بتقديم الخدمة المباشرة إليهم يصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جزءًا من المساعدة المقدمة للعملاء في سائر مجالات الخدمة الاجتماعية بصفة عامة وفي مجال العمل مع المنحرفين بصفة خاصة .

ثالثًا – منع الظلم :

يقول اللَّه سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] .

فالظلم انحراف قد يؤدي تعرض الإنسان له إلى رده بظلم مماثل أو أشد ؛ ولذلك حرم اللَّه سبحانه الظلم على نفسه وعلى عباده ، وجعل من حق المظلوم على الحاكم وعلى سائر المسلمين مساعدته على استيفاء حقه ممن ظلمه ، كما توعد اللَّه ﷻ الظالم بالقصاص منه يوم القيامة ، حتى تطيب نفس المظلوم ويفوض أمره ، على أن يكتفي برد الظلم وألَّا يبالغ في الانتقام ممن ظلمه ، وفي ذلك يقول رسول اللَّه ﷺ : « **انصر أخاك ظالماً أو مظلومًا** » ، قالوا : يا رسول اللَّه هذا ننصره مظلومًا فكيف ننصره ظالماً ؟ قال : « **تأخذ فوق يده** » (١) .

ويقتضي تطبيق منع الظلم من قبل الأخصائي الاجتماعي ما يلي :

أ – في عمله مع الحالات يهتم بدراسة ما إذا كان انحراف العميل قد نجم عن ظلم أحد له أو أسفر عن ظلم لأحد .

ب – أن يساعد المظلوم باستخدام كل الطرق المشروعة على استرداد حقه ، كما يساعد الظالم على إدراك خطورة الظلم عليه في الدنيا والآخرة ، وأن رد الحقوق في الدنيا أفضل له من بقائها في ذمته ليتحمل وزرها في الآخرة .

جـ – أن يعمل على إرساء قواعد العدل ومنع التظالم بين العملاء في المؤسسات التي يعمل بها وبين العملاء والعاملين في المؤسسة بحيث يضع الأخصائي الاجتماعي موضع الاعتبار والتنفيذ مسؤوليته عن عدم وقوع الظلم على أحد في المؤسسة ، وأن يساعد المظلوم على الحصول على حقه .

---

(١) أخرجه البخاري عن أنس .

رابعًا – تحريم المقدمات التي يمكن أن تقود إلى الانحراف :

حرم الإسلام المقدمات التي تقود إلى الانحراف وحث على تركها ، وفي ذلك يقول اللَّه سبحانه : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ﴾ [النور : ٣٠] .

فقد أمر اللَّه بغضِّ البصر ونهى عن النظر إلى حرمات اللَّه وإلى ما في أيدي الآخرين حتى لا تكون النظرة مقدمة لاشتهاء ما في يد الآخرين من أموال أو أعراض أو غير ذلك ، وفي ذلك يقول رسول اللَّه ﷺ : « **النظرة سهم مسموم من سهام إبليس من تركها خوفًا من اللَّه تعالى أعطاه اللَّه تعالى إيمانًا يجد حلاوته في قلبه** » (١) .

كما حرم خروج المرأة متجمِّلة سافرة حتى لا تكون فتنة للرجال ، وحرم اختلاء الرجل بالمرأة من غير محارمه .

ويتضمن دور الخدمة الاجتماعية في ذلك التعاون مع علماء الدين في تحديد ما يدخل في التحريم على أنه من مقدمات الانحراف ويحرِّمه الدين ولا تحرِّمه القوانين الوضعية ، وإجراء الدراسات التي تثبت خطورة عدم تحريم هذه الأفعال ، وتأثير ذلك في زيادة أعداد المنحرفين ، ونشر هذه الدراسات على أوسع نطاق ، ورفعها إلى المسؤولين لإصدار القرارات التي تضمن تنفيذ التوجيهات الإسلامية الكريمة في هذا الصدد .

خامسًا – تشديد العقوبة على المجاهرين بالمعصية :

يقول رسول اللَّه ﷺ : « **كل أمتي معافى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملًا ، ثم يصبح وقد ستره اللَّه فيقول : يا فلان عملتُ البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر اللَّه عنه** » (٢) .

ويتمثل دور الخدمة الاجتماعية في هذا الصدد في الإسهام في العمل على تنفيذ هذا التوجيه النبوي الكريم من خلال توضيح ما يترتب على المجاهرة بالمعصية من شيوع الانحراف ، وتزايد أعداد المنحرفين ، والدعوة إلى تشديد العقوبة على المنحرف الذي يجاهر بالانحراف باعتبار المجاهرة بالانحراف انحرافًا في حد ذاته بالإضافة إلى الانحراف الأصلي ، وأن يتضمن العمل في حالات المجاهرة بالانحراف شرح خطر المجاهرة بالانحراف على المنحرف نفسه والمتمثل في عقاب اللَّه له وفى تحمله وزر الآخرين الذين يمكن أن يقلدوه في انحرافه ، كما يتضمن دعوة وسائل الإعلام المسموعة والمرئية

---

(١) أخرجه أحمد والطبراني والترمذي والحاكم عن أبي أمامة .

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة .

والمقروءة إلى عدم نشر أخبار ما يحدث من انحرافات ؟ لأن ذلك يدخل أيضًا في باب المجاهرة بالمعصية .

٣ - علاج الحالات التي تقع في الانحراف :

الخط الدفاعي الثالث والأخير الذي يضعه المنظور الإسلامي لمواجهة الانحراف هو علاج الحالات التي تقع في الانحراف بالفعل وذلك بمساعدة المنحرف على إزالة العوامل التي أدت إلى وقوعه في الانحراف ، ومن ثَمَّ العودة إلى صراط اللَّه المستقيم والثبات عليه .

ويتضمن العلاج أساليب متعددة ينتقي منها الأخصائي الاجتماعي ما يناسب كل حالة على حدة ، وتتضمن هذه الأساليب ما يلي :

١ – العلاقة المهنية الإسلامية .

٢ – التوبة .

٣ – الإبعاد عن رفاق السوء وتهيئة الصحبة الصالحة .

٤ – الصبر .

٥ – التفاعل العقلي .

٦ – الأسوة الحسنة .

٧ – العلاج بالعبادات ويتضمن :

أ – الصلاة .

ب – الاستعاذة باللَّه من الشيطان .

جـ – العلاج بالقرآن الكريم .

د – العلاج بالاستغفار .

هـ – العلاج بالذكر .

و – العلاج بالدعاء .

٨ – الإثابة على سلوك الصراط المستقيم .

٩ – العقاب .

١ – العلاقة المهنية الإسلامية :

يتفق المتخصصون في الخدمة الاجتماعية بمجالاتها المختلفة على أن وجود العلاقة

obeikandi.com

المهنية بين الأخصائي الاجتماعي من ناحية العميل والأطراف الأخرى للحالة من الناحية الثانية أمر لاغنى عنه لتحقيق أهداف التدخل المهني ، ويتفق المنظور الإسلامي مع هذه المقولة ، إلا أنه يضيف إلى هذه العلاقة ما يزيدها عمقًا وثراءً ، بحيث تصبح أكثر فاعلية في تحقيق أهداف التدخل المهني . وتتكون هذه العلاقة وتنمو نتيجة لالتزام الأخصائي الاجتماعي بمجموعة من القيم المهنية والأخلاقية ، وتنمو مع مرور الوقت ، ويستمد الأخصائي الاجتماعي الذي يعمل طبقًا للمنظور الإسلامي القيم التي يلتزم بها من ثلاثة روافد أساسية هي :

أ – حق المسلم على المسلم ، فالأخصائي الاجتماعي في تعامله مع العميل مسلم يتعامل مع مسلم ، وللعميل على الأخصائي كل ما للمسلم على أخيه المسلم من حقوق .

ب – حق الرعية على الراعي ، فالأخصائي الاجتماعي في عمله راعٍ ونائب عن وليِّ أمر المسلمين في رعاية عملائه ولهم عليه ما للرَّعيَّة من حقوق على راعيها .

جـ – حق صاحب الحاجة على من يساعده في قضاء حاجته ، فالأخصائي الاجتماعي مسلم يسعى في مساعدة أخيه المسلم ، وهو العميل على قضاء حاجته ، وعليه أيضًا أن يلتزم بالآداب الإسلامية للسعي في قضاء حاجة الأخ المسلم .

وتعتبر العلاقة المهنية الإسلامية ضرورية لنجاح استخدام الأخصائي الاجتماعي للأساليب العلاجية ، ذلك أن الألفة المترتبة على وجود هذه العلاقة ، تهيئ أفضل الظروف لنجاح هذه الأساليب .

٢ – التوبة :

يقول الحق سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم : ٨] .

﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٥٣] .

والتوبة هي رجوع المنحرف إلى صراط اللَّه المستقيم مرة أخرى بعد انحرافه عنه بارتكابه للمعصية . وللتوبة أركان نوجزها فيما يلي :

أ – **العلم** : تقتضي التوبة علم المنحرف بأنه أذنب ، وأن الذنوب لا تقاس بجسامة المعصية ، وإنما بعظم حق من عصاه وهو اللَّه سبحانه ، كما يعلم بوجود التوبة وأنها تجوز من كل المعاصي والذنوب مهما كانت ، كما أن المنحرف في حاجة إلى أن يعلم شروط التوبة وهي :

- الندم على انحرافه ومعصيته لله سبحانه .

- العزم على عدم الرجوع إلى الانحراف مرة أخرى .

- أن تتم التوبة قبل الغرغرة أي قبل اللحظات الأخيرة في حياة الإنسان ، وأن يعلم أن فضل اللَّه ورحمته لا يقتصر على مجرد العفو عن الذنوب ، ولكنه قد يبدل السيئات حسنات .

ب – العمل : وذلك بترك التائب للسلوك المنحرف الذي كان يأتيه ومحاولة إصلاح ما أفسدته المعصية .

ويتطلب عمل الأخصائي الاجتماعي مع من يقع في الانحراف ما يلي :

- تعريفهم بوجود التوبة ومزاياها وشروطها .

- التشجيع على التوبة والترغيب فيها .

ومن الآيات القرآنية الكريمة التي يمكن الاستعانة بها بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه ما يلي : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٩] .

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [الفرقان : ٦٨ - ٧٠] .

ومن الأحاديث النبوية الشريفة : « **التائب حبيب اللَّه ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له** » (١) .

« اللَّه أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة ، معه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه ، فنام فاستيقظ وقد ذهبت راحلته ، فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء اللَّه قال : أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده ، وعليها زاده وشرابه ، فاللَّه تعالى أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من هذا براحلته » (٢) .

---

(١) أخرجه ابن ماجه عن ابن مسعود .

(٢) متفق عليه عن أبي هريرة .

جـ – معاونة التائب على رد الحقوق إلى أصحابها بمساعدته على توفير الإمكانات اللازمة لرد هذه الحقوق ، والشفاعة له عند أصحاب هذه الحقوق للعفو عنه إن لم يستطع ردها .

د – معاونة التائب على الصبر عن المعصية .

هـ – مساعدة التائب على الاستعاضة عن السلوك المنحرف بآخر مباح لإشباع نفس الشهوات والحاجات .

ويستطيع الأخصائي الاجتماعي أن يلعب دورًا كبيرًا في هذا الصدد من خلال التوظيف الجيد للمصادر المجتمعية لمساعدة التائب تثبيتًا له على الصراط المستقيم حتى لا يعود للانحراف مرة أخرى .

٣ – المساعدة على ترك رفاق السوء والاندماج في صحبة صالحة :

ويتضمن دور الأخصائي الاجتماعي في هذا الصدد ما يلي :

أ – تعريف المنحرف بالأخطار المترتبة على صحبة رفاق السوء : وذلك بشرح الأخطار المترتبة على صحبة رفاق السوء من مخالفة لأوامر اللَّه سبحانه ، وذلك عن طريق رواية النصوص القرآنية التي تتضمن النهي عن مصاحبة رفاق السوء وما يصيب الإنسان من جراء هذه الصحبة ، ومن هذه النصوص : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [النجم : ٢٩] .

كما يمكن للأخصائي الاجتماعي الاستعانة بالأمثلة الواقعية من حياة المنحرف نفسه وتأثير رفاق السوء عليه بدفعه إلى الانحراف ، وصده عن فعل الخيرات .

ب – تعريف المنحرف بمزايا الصحبة الصالحة : يقابل الأخطار المترتبة على صحبة رفاق السوء مزايا متعددة يجنيها الإنسان من الصحبة الصالحة في الدنيا والآخرة ، وتقتضي مساعدة المنحرف على ترك رفاق السوء شرح مزايا الصحبة الصالحة في الدنيا والآخرة ، ويمكن الاستعانة في هذا أيضًا بسرد بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ومنها :

﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان : ١٥] .

وقول الرسول ﷺ : « **من أراد اللَّه به خيرًا رزقه خليلًا صالحًا إن نسى ذكره ، وإن ذَكَرَ أعانه** » [١] .

---

(١) أخرجه أبو داود عن عائشة .

جـ – تهيئة الصحبة الصالحة ومساعدة المنحرف على الاندماج فيها : للأخصائي الاجتماعي دور كبير في إبعاد المنحرف عن رفاق السوء بعد أن يعلم المنحرف ما يناله من صحبتهم ، ذلك أنه من الصعب على الإنسان أن يفترق عما ألفه ، لما في ذلك من المعاناة من الوحشة والفراغ ، ويتطلب ذلك مساعدته على اجتياز مرحلة الوحشة والفراغ هذه بتقليل المعاناة من خلال المقابلات ، ومن خلال الإسراع بإدماجه مع صحبة طيبة يطمئن الأخصائي الاجتماعي إليها ، وذلك من زملاء المدرسة أو العمل أو الجيرة أو الأقارب ، وتهيئة سبل التعارف بين المنحرف وبينهم مع تهيئة الأنشطة التي تحظى بالاهتمام المشترك من الجميع .

٤ – الصبر :

الصبر هو ترك الأفعال المشتهاة [١] ، ويتفاوت الجهد وقوة الإرادة المطلوبة للصبر عن الفعل المشتهى طبقًا لدرجة اشتهاء النفس لهذا الفعل ، فكلما كانت النفس أكثر اشتهاء للفعل ، كلما كان الصبر عنه أشقَّ وأصعب ، **ويمكن تصنيف الصبر إلى نوعين هما** :

أ – صبر على ما يوافق هوى النفس من النعم التي وهبها اللَّه سبحانه للإنسان مثل : المال والصحة والسلطان والشباب ، والصبر عليها يتمثل في عدم ركون الإنسان إليها ، وأن يعلم أن كل ذلك أمور مستخلفه فيها ، وأن عليه أن يرعى حقوق اللَّه فيها ، وفي ذلك يقول اللَّه سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق : ٦ ، ٧] .

﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن : ١٥] .

ب – صبر على ما لا يوافق النفس من المكاره ، ويمكن تقسيمه أيضًا إلى قسمين أولهما : ما يكون باختيار الإنسان كالطاعات مثل الصوم والصلاة ، والصبر على المعاصي والغيبة والزنى وغيرها ..

وثانيهما : هو ما يكون بدون اختيار الإنسان مثل الصبر على الأذى الذي يفرض على الإنسان من آخرين مثل الصبر على أذى الزملاء أو الرؤساء أو الجيران ، سواء كان هذا الأذى بالقول أو بالفعل [٢] .

ويقوم الأخصائي الاجتماعي بمساعدة المنحرف على الصبر على النحو التالي :

أ – **التعليم والوعظ والمساعدة على التأمل** : وذلك بتذكيره بأن الإنسان وسائر ما لديه

(١) أبو حامد الغزالي : مرجع سبق ذكره ، المجلد الرابع ، (ص ٦٣) .

(٢) المرجع السابق ، المجلد الرابع ، (ص ٧٠ ، ٧٢) .

من أهل ومال وولد ملك لله ﷻ أعاره له ، وأن مصير كل عارية رجوعها إلى مالكها . وأن مصير الإنسان ومرجعه إلى اللَّه مولاه الحق ، وأنه لا بد له من أن يخلف الدنيا وراء ظهره ويعود إلى مولاه ليحاسبه على ما فعل فيما أعاره إياه [١] .

ب – مساعدة المنحرف على إضعاف الشهوات التي تدفعه إلى الانحراف ، ولكل شهوة طريقة لإضعافها ، فشهوة الجنس تضعف بالصوم ، وشهوة الغيبة تضعف بالذكر ، وعلى الأخصائي مساعدة المنحرف ، وتهيئة الأسباب المادية التي تعينه على عدم التعرض لمهيجات الشهوات التي تدفعه إلى الانحراف ، كما أن تسلية النفس بالمباح من إشباع الشهوات قد تبعد المنحرف عن الإشباع المنحرف ، فلا يوجد محرم إلا وله مباح من جنسه ، فشهوة الجنس تشبع بالزواج ، وشهوة المال تشبع من اكتسابه بالوسائل المشروعة .. وهكذا .

٥ – التفاعل العقلي :

هو تأثير عقل في عقل آخر يستهدف إزالة الأسباب العقلية التي يمكن أن تكون سببًا في الانحراف ، ويتضمن التفاعل العقلي ما يلي :

أ – **الوعظ والتعليم** : الوعظ هو التخويف من عقاب اللَّه المترتب على ارتكاب المعصية [٢] ، ويتضمن ذلك ما يلي :

– توضيح أثر المعصية في إثارة غضب اللَّه سبحانه على المنحرف .

– مساعدة المنحرف على تأمل وضعه على أنه مجرد مخلوق لله سبحانه خلقه وأنعم عليه ، فما كان منه إلا أن قابل نعم اللَّه بالجحود والنكران .

– مساعدة المنحرف على استحضار عظمة اللَّه وقدرته وقهره وحلمه عليه وستره إياه ، وما يتطلبه ذلك من ضرورة الإقلاع فورًا عن ارتكاب المعاصي ، والعودة إلى الصراط المستقيم .

ويمكن أن يقوم الأخصائي الاجتماعي بالوعظ بوسائل متعددة ، منها : تلاوة الآيات القرآنية التي تتضمن عقاب اللَّه للعاصي وحاله في جهنم وما أعده اللَّه سبحانه من نعمى للمتمسكين بصراطه المستقيم ، وشرح معاني هذه الآيات عند الحاجة وذلك عن طريق المناقشة العقلية أثناء المقابلات .

---

(١) محمد المنجي الحنبلي : تسلية أهل المصائب ، دمشق ، دار الرشيد الطبعة الثانية ، (١٩٨٦م) ، (ص ١٩٨٨) .

(٢) أبو عبد اللَّه الأنصاري القرطبي : مرجع سبق ذكره ، المجلد الأول ، (ص ٤٤٤) .

كما يمكن الاستعانة في ذلك بالكتب التي تتناول مثل هذه الموضوعات وخاصة كتب الترغيب والترهيب ، كما أن البرنامج اليومي للمؤسسات يجب أن يتضمن فقرات لمثل هذه المواعظ خاصة عقب الصلوات ، بالإضافة إلى محاضرات وندوات يستعان فيها بالعلماء والمتخصصين من رجال الدين .

كما أن تذكير المنحرف بالموت وما يترتب عليه من ترك الدنيا وما فيها وإقدامه على ربه حيث لا يجد إلا عمله في الوقت الذي تكون فيه كل متع الدنيا التي حصلها قد زالت وبقي على ما قد خلفه تحصيل هذه المتع من ذنوب ، ولا بأس من زيارة القبور لما لها من تأثير على الإنسان في استحضار الموت من خلال زيارات جماعية أو فردية مع الحالات التي يشعر الأخصائي الاجتماعي بحاجتها إلى ذلك .

ب – الجدل : الجدل هو دفع المرء لآخر عن قول فاسد أو رأي فاسد بحجة أو شبهة [١] .

ويأتي الجدل في مرحلة تالية من مراحل التفاعل العقلي ، فالبداية تكون سوق المعلومات بأسلوب الوعظ والتعليم حتى يكون المنحرف على علم ، فإذا بدأ الجدل بإثارة الاعتراض أو الشبهات على ما يذكره الأخصائي تدخل المناقشة في طور الجدل ، وفي ذلك يقول اللَّه سبحانه : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

ومن الآداب التي يجب التحلى بها في الجدل [٢] :

– العدل والموضوعية ، والتخلي عن التعصب للرأي ، والاستعداد للبحث عن الحقيقة والتوصل إليها .

﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : ٢٤] .

– التقيد بالقول المهذب البعيد عن التجريح والسخرية لوجهة النظر الأخرى فالجدال يجب أن يكون بالتي هي أحسن .

– التزام الطرق الإقناعية الصحيحة في الجدل بتقديم الأدلة التي تثبت صحة الرأي مع طلب الأدلة من الطرف الآخر .

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟

---

(١) زاهر عواض الألمعي : مناهج الجدل في القرآن الكريم ، الرياض ، مطابع الفرزدق ، د. ت ، (ص ٢٠) .
(٢) المرجع السابق ، (ص ٤٣١ – ٤٣٧) .

بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [النمل: ٦٤] .

- قبول النتائج التي يسفر عنها الجدل .

- المشورة والنصح : المشورة هي طلب المنحرف لرأي الأخصائي الاجتماعي في أي أمر من أموره ، أما النصح فهو تطوع الأخصائي بإبداء رأيه دون طلب ، ويتفق كلاهما في أن الأخصائي الاجتماعي يبدي رأيه في أمر من الأمور التي تخص المنحرف وسواء أبدى الأخصائي الاجتماعي رأيه متطوعًا أو غير متطوع فعليه بصدق النصيحة بحيث لا ينصح إلَّا بما يثق بأنه الحق ، وألَّا ينصح إلَّا بما يرضى اللَّه ورسوله ، وأن يكون أسلوبه في عرض النصح أو المشورة رفيقًا بالعميل ، وألَّا ينصحه في وجود آخرين ، وأن يتبع النصح بذكر الأدلة التي استند عليه فيما يراه .

٦ - العلاج بالأسوة الحسنة :

يقول اللَّه سبحانه :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] .

الأسوة هي المثل الحي الذي يحتذى ويقتدى به ، وقد أرسل اللَّه سبحانه الرسل من جنس البشر حتى يكون سلوكهم قدوة ومثلًا لتابعيهم ، وقد أمرنا اللَّه سبحانه بالاقتداء برسوله ﷺ ، ويحتاج المنحرف قدوة حسنة يقلدها ويتأسى بها ، ورسول اللَّه هو القدوة للمسلمين ، وعندما سئلت السيدة عائشة عن خلق رسول اللَّه قالت : « كان خلق رسول اللَّه ﷺ القرآن » (١) ، فقد كان سلوكه نموذجًا وتطبيقًا عمليًّا لما يدعو إليه ، ولذا أمرنا اللَّه سبحانه باتباع سنته والتأسي به وأمرنا الرسول أيضًا باتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده .

ويقتضي تطبيق هذا الأسلوب من الأخصائي الاجتماعي ما يلي :

١ - أن يكون الأخصائي الاجتماعي في خلقه وسلوكه متأسيًّا برسول اللَّه ﷺ حريصًا على مكارم الأخلاق وحسن السلوك .

٢ - أن يكون على بيِّنة من سلوك الرسول ﷺ في مختلف المواقف ، وخاصة تلك التي تتكرر في عمله مع المنحرف .

---

(١) أخرجه مسلم عن عائشة .

٣ – أن يشرح للمنحرف سلوك الرسول ﷺ وفي كل موقف بطريقة بسيطة تناسب إمكاناته العمرية والعقلية .

٤ – أن يشجع المنحرف على أن يسلك الطريقة المشار إليها ، وأن يغرس في كل نفس المنحرف حب رسول اللَّه ويشجعه على اتخاذه مثلاً أعلى له في كل شيء .

٧ – العلاج بالعبادات :

العبادات هي الأقوال والأفعال التي أمر اللَّه سبحانه عباده بقولها أو بفعلها تحقيقًا لعبوديتهم له وتقربًا إليه ، ولا يعبد إلا بما شرع ، ويستهدف هذا النوع من العلاج مساعدة المنحرف على الدخول في طاعة اللَّه وتذوق حلاوتها ، وإزالة ما يكون قد تراكم على قلب المنحرف من الران المترتب على المعاصي ، واكتساب الحسنات التي تساعده على محو السيئات ، وتحصينه من غواية الشيطان .

٨ – الإثابة على سلوك الصراط المستقيم :

يقول اللَّه سبحانه : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] .

فقد وعد اللَّه سبحانه بثواب من يعمل صالحًا من المؤمنين تثبيتًا لهم ، وتشجيعًا لغيرهم على فعل الخيرات وسلوك الصراط المستقيم ، ويمكن للأخصائي الاجتماعي استخدام هذا الأسلوب وذلك على النحو التالي :

أ – تعريف المنحرف بما أعده اللَّه ﷻ من أجر لمن سلك صراطه المستقيم سواء كان ذلك بصفة عامة أو بالنسبة لأعمال محدودة مثل الصلاة والصوم أو الصدقة أو غيرها ، والآيات والأحاديث الواردة في هذا المجال كثيرة .

ب – أن يثيب الأخصائي الاجتماعي عميله المنحرف على سلوكه الطيب ، وأنواع الثواب متعددة ، منها : الكلمات الطيبة ، مثل : الدعاء له والثناء على سلوكه الطيب أو الثواب المادي ، مثل : الجوائز وإسناد بعض الأمور التشريعية له كأن يكون رئيس جماعة .. إلى غير ذلك من أنواع الثواب المتاحة ، والتي يجب أن تتوفر لدى الأخصائي .

٩ – العقاب :

ولكل جريمة في الشريعة الإسلامية عقاب ، وينقسم العقاب إلى قسمين ، هما :

أ – **عقوبات دنيوية** : وهي أدوية نافعة ، الهدف منها إصلاح الأفراد والمجتمعات

بكفهم عن المعاصي عن طريق إيقاع الإيلام بالمنحرف [١] ، وتنقسم إلى :

– **الحدود** : وهي العقوبات التي حددها الإسلام بنص من القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة على الجرائم التي تمثل اعتداء على حدود اللَّه ، ولا يجوز فيها العفو سواء من الفرد أوالجماعة مثل قطع يد السارق ، ورجم الزانى المحصن ، وجلد شارب الخمر .

– **القصاص والدِّية** : وهي عقوبات محددة ، ولكن يجوز للمجني عليه أو وليه التنازل عنها أوتخفيفها مثل قتل القاتل .

– **التعازير** : وهي عقوبات يترك تحديدها لولي الأمر أو القاضي .

كما أن هناك نوعًا آخر من العقوبات الدنيوية التي يوقعها اللَّه ﷻ على بعض المجتمعات إذا شاع فيها الانحراف ، وقد أخبر اللَّه سبحانه في كتابه الكريم عن ذلك في مواقع عديدة ، كما أخبرنا بذلك رسول اللَّه ﷺ ، وتشهد بذلك الأحاديث التي تقع بين الحين والآخر ، فما الأعاصير والبراكين والزلازل والفيضانات إلا جند من جند اللَّه ، وما يعلم جنوده إلا هو سبحانه ، وفي ذلك يقول اللَّه سبحانه : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٠] .

كما أن هناك عقوبات دنيوية محددة يوقعها اللَّه سبحانه ، على المجتمعات على أنواع بعينها من الانحرفات إذا فشت فيها حددها رسول اللَّه ﷺ ، بقوله في الحديث الشريف : « **يا معشر المهاجرين خصال خمس – إن ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ باللَّه أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنِوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم ، ولم ينقصوا المكيال إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ولم ينقضوا عهد اللَّه وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدوًّا من غيرهم ، فيأخذ بعض ما في أيديهم وما لم يحكم أئمتهم بكتاب اللَّه إلا جعل بأسهم بينهم** » [٢] .

ب – عقوبات أخروية : وهي أشمل وأعم من حيث الجرائم والانحرافات التي تقع بسببها ، وذلك لتعذر إثبات العديد من الانحرافات بوسائل البشر المحدودة ، على حين

---

(١) أحمد بن تيمية : مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، مرجع سبق ذكره ، المجلد الخامس عشر ، (ص٢٩٠) .

(٢) أخرجه ابن ماجه والبزار والبيهقي عن ابن عمر .

أن عقوبات الآخرة يوقعها اللَّه سبحانه بعد مطلق يجازي على مثقال الذرة وعلم مطلق ووسائل إثبات لا يرقى إليها الشك ، تصل إلى إشهاد الجلود والأيدي والأرجل [١] .

ومن رحمة اللَّه سبحانه بالناس أنَّ امتداد أجل توقيع العقوبة يعطِي للمنحرف فرصًا متعددة للتوبة لفعل الطاعات والخيرات الذي يمحو السيئات التي تراكمت بفعل الذنوب وبذلك يمكن تلافي العقوبة .

دور الأخصائي الاجتماعي في استخدام أسلوب العقاب : يختلف دور الأخصائي الاجتماعي في استخدام هذا الأسلوب طبقًا لنوع العقوبة ، كما يختلف دوره في المجتمعات طبقًا لمدى تطبيقها لأحكام الشريعة الإسلامية في العقوبات ، ويمكن تلخيص دور الأخصائي الاجتماعي في استخدام العقاب على النحو التالي :

– أن يطبق الأخصائي الاجتماعي العقوبات الواردة في الشريعة الإسلامية فيما يدخل تحت ولايته المباشرة ، كأن يمكن المضروب من القصاص من الضارب ، إذا لم يقف المضروب عنه إذا كان يعمل في مدرسة أو دار ضيافة .

– أن يدعو إلى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في الدول الإسلامية التي تأخذ بالقوانين الوضعية .

– يعمل الأخصائي الاجتماعي مع المنحرفين الذين وقعت عليهم أحكام شرعية ، ويساعد الأخصائي الاجتماعي عميله في مثل هذه الحالات على قبول العقوبة على أنها حكم من اللَّه سبحانه ورحمة منه ، تكفر الذنب وتمحو آثاره ، وأن توقيع العقوبة في الدنيا أفضل من عقاب الآخرة ، كما أن عليه مساعدة المنحرف على التوبة والعودة إلى صراط اللَّه المستقيم ، وله أيضًا دور مع المجتمع يتمثل في تصحيح نظرة المجتمع إلى المجرم التائب ، حيث إن التوبة تجب ما قبلها ، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

– ويلعب الأخصائي الاجتماعي دورًا مهمًّا في حالات القصاص والدِّية بالسعي إلى إصلاح ذات البين بين الجاني والمجني عليه ، حيث يمكن العفو عن المنحرف إذا تنازل المجني عليه أو وليه عن حقه ، ومساعدة من حكم عليه بدفع الدية على تدبيرها من أسرته وأقاربه أو من خلال التبرعات أو أموال الزكاة أو غيرها .

– بالنسبة للانحرافات التي أشار إليها الحديث النبوي السابق والتي توعد اللَّه

---

(١) محمد أبو زهرة : نظرة إلى العقوبة في الإسلام ، التوجيه التشريعي في الإسلام ، من بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الإسلامي ، بيروت ، المكتبة العصرية ، (١٣٩٢هـ -١٩٧٢م) ، (ص٣٥ - ٣٧) .

المجتمعات التي تقع فيها ، فإن على الأخصائي الاجتماعي أن يكون يقظًا لوقوع مثل هذه الانحرافات .

– يستخدم الأخصائي الاجتماعي الترهيب مع العملاء الذين يلمس فيها إصرارًا على العودة إلى الانحراف بتذكيرهم بعقاب اللَّه سبحانه وتوعده لمن يخرج عن صراطه المستقيم ، والآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التي تبين ذلك كثيرة ، ويمكن الرجوع إليها بسهولة في كتب الترغيب والترهيب ، ولا يسمح المجال بعرضها نظرًا لكثرتها .

القواعد التي يجب مراعاتها عند العمل مع المنحرفين :

يتطلب الأخذ بالمنظور الإسلامي في العمل مع المنحرفين الالتزام بمجموعة من القواعد التي يجب على من يعمل في هذا المجال الالتزام بها ، ونلخصها فيما يلي :

١ – الإيمان بقابلية سلوك الإنسان للتعديل : يُقِرُّ الإسلام بقابلية سلوك الإنسان للتعديل [١] ، فكل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون ، وما التوبة إلَّا تعديل في سلوك الإنسان ، ولو لم يكن سلوك الناس قابلًا للتعديل لما أرسل اللَّه سبحانه الرسل لهداية الناس ، ويعتبر إيمان الأخصائي الاجتماعي بصدق هذه المقولة منطلق لا غنى عنه لأدائه لعمله في هذا المجال على الوجه الأكمل ذلك ؛ لأن وجوده يوفر القناعة بجدوى ما يبذله الأخصائي الاجتماعي من جهد لتعديل سلوك عملائه .

٢ – مراعاة الفروق الفردية : يُقِرُّ الإسلام بالفروق الفردية بين الناس في الخلق والرزق والسلوك ، وفي ذلك يقول اللَّه سبحانه : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ [الليل : ٤] .

﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٢] .

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ ﴾ [النحل : ٧١] .

وفي هذا المعنى يقول الإمام الغزالي : إن شأن من يعالج الانحراف شأن الطبيب الذي لا يمكن أن يعالج كل المرضى بدواء واحد ولكن لا بد من معالجة كل مريض بما يناسبه [٢] .

---

(١) محمد محروس الشناوي : الإرشاد النفسي من منظور إسلامي ، بحث مقدم إلى ندوة التأصيل الإسلامي لعلم النفس الحديث ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة ، (٢٤ – ١٩٨٩/٧/٢٦م) (ص ٣٩) .
(٢) أبو حامد الغزالي : مرجع سبق ذكره ، المجلد الثالث ، (ص ٦١) .

٣ – التدرج في استخدام أساليب العلاج : يقول اللَّه سبحانه : ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ [النساء: ٣٤] .

فقد أمر اللَّه سبحانه بالوعظ أولًا ، ثم الهجر في المضاجع ثانيًا ، ثم الضرب ثالثًا ، فالتدرج واضح حيث نبدأ باستخدام الأساليب الأرفق ، فإذا أفلحت في إعادة المنحرف إلى الصراط المستقيم فقد تحقق الهدف ، وإذا لم تفلح يكون اللجوء إلى الأساليب الأشد [١] .

٤ – التزام الأخصائي الاجتماعي بالسلوك الإسلامي : من غير المتصور أن يحاول الأخصائي الاجتماعي إعادة المنحرف إلى صراط اللَّه المستقيم في الوقت الذي لا يكون هو سائرًا عليه ، فلا يقبل الأمر بالمعروف ممن لا يأتمر به ولا يقبل النهي عن المنكر ممن لا ينتهي عنه ، وفي ذلك قول اللَّه سبحانه : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤] .

٥ – التطبيق المتكامل : لا بد من التطبيق المتكامل لأساليب الشريعة الإسلامية في محاربة الانحراف حتى تؤتي ثمارها كاملة ، فلا يصلح تطبيق بعضها دون البعض الآخر ؛ وذلك نظرًا للتساند القوي بين هذه الأساليب ، وفي ذلك يقول اللَّه سبحانه : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٥] .

* * *

رقم الإيداع
٨٩٧٣ / ٢٠٠٨
الترقيم الدولي I.S.B.N
977 - 342 - 635 - 1

(١) محمد محروس الشناوي : مرجع سبق ذكره ، (ص ٤٢) .

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم . . السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته . .

نشكر لك اقتناءك كتابنا : « أبحاث ندوة الخدمة الاجتماعية في الإسلام » ورغبة منا في تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ ، وباعتبار أن رأيك مهمٌّ بالنسبة لنا ، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائمًا بملاحظاتك ؛ لكي ندفع بمسيرتنا سويًّا إلى الأمام .

*** فهيَّا مارس دورك في توجيه دفة النشر باستيفائك للبيانات التالية : –**

الاسم كاملاً : ..... **الوظيفة :** .....

المؤهل الدراسي : ..... **السن :** ..... الدولة : .....

المدينة : ..... حي : ..... شارع : ..... ص.ب : .....

هاتف : ☐☐☐☐☐☐☐ / ☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐ : e-mail

– من أين عرفت هذا الكتاب ؟

☐ أثناء زيارة المكتبة ☐ ترشيح من صديق ☐ مقرر ☐ إعلان ☐ معرض

– من أين اشتريت الكتاب ؟

اسم المكتبة أو المعرض : ..... المدينة : ..... العنوان : .....

– ما رأيك في الكتاب ؟

☐ ممتاز ☐ جيد ☐ عادي (لطفًا وضح لِمَ) .....

– ما رأيك في إخراج الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ متميز (لطفًا وضح لِمَ) .....

– ما رأيك في سعر الكتاب ؟ ☐ رخيص ☐ معقول ☐ مرتفع

(لطفًا اذكر سعر الشراء) ..... العملة .....

عزيزي انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة . . . فلا تتوانَ ودَوِّن ما يجول في خاطرك : –

.....

.....

.....

.....

دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعلومها والتراث وما يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية – الرئيسة منها خاصة – وكذلك كتب الأطفال .

عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على e-mail:info@dar-alsalam.com

أو ص.ب ١٦١ الغورية – القاهرة – جمهورية مصر العربية

لنراسلك ونزودك ببيان الجديد من إصداراتنا

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

obeikandl.com

عزيزي القارئ الكريم :

نشكرك على اقتنائك كتابنا هذا ، الذي بذلنا فيه جهدًا نحسبه ممتازًا ، كي نخرجه على الصورة التي نرضاها لكتبنا ، فدائمًا نحاول جهدنا في إخراج كتبنا بنهج دقيق متقن ، وفي مراجعة الكتاب مراجعة دقيقة على ثلاث مراجعات قبل دفعه للطباعة ، ويشاء العلي القدير الكامل أن يثبت للإنسان عجزه وضعفه أمام قدرته مهما أوتي الإنسان من العلم والخبرة والدقة تصديقًا لقوله تعالى :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء : ٢٨)

فأخي العزيز إن ظهر لك خطأ طباعي أثناء قراءتك للكتاب فلا تتوان في أن تسجله في هذا النموذج وترسله لنا فنتداركه في الطبعات اللاحقة ، وبهذا تكون قد شاركت معنا بجهد مشكور يتضافر مع جهدنا جميعًا في سيرنا نحو الأفضل .

الخطأ	رقم الصفحة	السطر

شاكرين لكم حسن تعاونكم . . ،

(من أجل تواصل بنّاء بين الناشر والقارئ)

obeikandl.com